

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فِكْرُ
الإمام علي بن أبي طالب

كما يندو في نهج البلاغة



ISBN 978-9933-582-38-8



9 789933 582388

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق العراقية 3005 لسنة 2018

- مصدر الفهرسة : IQ-KaPLI ara IQ-KaPLI rda
رقم تصنيف LC : BP38.09.H3 U73 2018
المؤلف الشخصي : العريض، جليل منصور – مؤلف.
العنوان : فكر الامام علي بن ابي طالب عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة /
بيان المسؤولية : تأليف الدكتور جليل منصور العريض ؛ تقديم السيد نبيل الحسني.
بيانات الطبع : الطبعة الأولى.
بيانات النشر : كربلاء، العراق : العتبة الحسينية المقدسة، مؤسسة علوم نهج البلاغة، 2018 /
1439 للهجرة.
الوصف المادي : 784 صفحة ؛ 24 سم.
سلسلة النشر : (العتبة الحسينية المقدسة ؛ 478).
سلسلة النشر : مؤسسة علوم نهج البلاغة، 148 سلسلة الرسائل الجامعية - تونس ؛ 28).
تبصرة ببيوجرافية : يتضمن ارجاعات ببيوجرافية. يتضمن هوامش، لائحة المصادر (الصفحات 751-782)
موضوع شخصي : الشريف الرضي، محمد بن الحسين، 359-406 للهجرة – نهج البلاغة.
موضوع شخصي : علي بن ابي طالب (عليه السلام)، الامام الأول، 23 قبل الهجرة-40 للهجرة – احاديث.
موضوع شخصي : علي بن ابي طالب (عليه السلام)، الامام الأول، 23 قبل الهجرة-40 للهجرة – نظريته في السياسة.
موضوع شخصي : علي بن ابي طالب (عليه السلام)، الامام الأول، 23 قبل الهجرة-40 للهجرة – نظريته في علم الاجتماع.
موضوع شخصي : علي بن ابي طالب (عليه السلام)، الامام الأول، 23 قبل الهجرة-40 للهجرة – نظريته في علم الكلام.
موضوع شخصي : علي بن ابي طالب (عليه السلام)، الامام الأول، 23 قبل الهجرة-40 للهجرة – بلاغته.
مصطلح موضوعي : البلاغة العربية.
مؤلف اضافي : الحسني، نبيل قدوري، -1965 -- مقدم.
اسم هيئة اضافي : العتبة الحسينية المقدسة (كربلاء، العراق). مؤسسة علوم نهج البلاغة – جهة مصدرة.
عنوان اضافي : نهج البلاغة.

تمت الفهرسة قبل النشر في مكتبة العتبة الحسينية

سلسلة الرسائل الجامعية - تونس (٢٨)
وحدة الدراسات العقدية

فِكْرُ الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام

كما يبدو في نهج البلاغة

تأليف
الدكتور جليل منصور العريض

إصدار
مؤسسة عالم من نهج البلاغة
في العتبة الحسينية المقدسة

جميع الحقوق محفوظة
للعتبة الحسينية المقدسة

الطبعة الأولى
١٤٣٩ هـ - ٢٠١٨ م



العراق: كربلاء المقدسة - شارع السدرة - مجاور مقام علي الأكبر عليه السلام

مؤسسة علوم نهج البلاغة

هاتف: ٠٧٧٢٨٢٤٣٦٠٠ - ٠٧٨١٥٠١٦٦٣٣

الموقع:

www.inahj.org

Email: Inahj.org@gmail.com

تنويه:

إن الأفكار والآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر كاتبها
ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر العتبة الحسينية المقدسة

مقدمة المؤسسة

الحمد لله على ما أنعم وله الشكر بما ألهم والثناء بما قدم، من عموم نعم ابتدأها وسبوغ آلاء أسداها، وتمام منن والاهاء، والصلاة والسلام على خير الخلق أجمعين محمد وآله الطاهرين.

أما بعد:

فلم يزل كلام أمير المؤمنين عليه السلام منهلاً للعلوم من حيث التأسيس والتبيين ولم يتقصر الأمر على علوم اللغة العربية أو العلوم الإنسانية، بل وغيرها من العلوم التي تسير بها منظومة الحياة وإن تعددت المعطيات الفكرية، إلا أن التأصيل مثلما يجري في القرآن الكريم الذي ما فرط الله فيه من شيء كما جاء في قوله تعالى: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ، كذا نجد يجري مجراه في قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ ، غاية ما في الأمر أن أهل الاختصاصات في العلوم كافة حينما يوفقون للنظر في نصوص الثقلين يجدون ما تخصصوا فيه حاضراً وشاهداً فيها، أي في القرآن الكريم وحديث العترة النبوية عليهم السلام فيسارعون وقد أخذهم الشوق لإرشاد العقول إلى تلك السنن والقوانين والقواعد والمفاهيم والدلالات في القرآن الكريم والعترة النبوية.

من هنا ارتأت مؤسسة علوم نهج البلاغة أن تتناول تلك الدراسات الجامعية

المختصة بعلوم نهج البلاغة وبسيرة أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وفكره ضمن سلسلة علمية وفكرية موسومة بـ(سلسلة الرسائل الجامعية) التي يتم عبرها طباعة هذه الرسائل وإصدارها ونشرها في داخل العراق وخارجه، بغية إيصال هذه العلوم الأكاديمية إلى الباحثين والدارسين وإعانتهم على تبين هذا العطاء الفكري والانتهاج من علوم أمير المؤمنين علي عليه السلام والسير على هديه وتقديم رؤى علمية جديدة تسهم في إثراء المعرفة وحقوقها المتعددة.

وما هذه الدراسة الجامعية التي بين أيدينا لنيل شهادة الدكتوراه إلا واحدة من تلك الدراسات التي وفق صاحبها للغوص في بحر علم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فقد أذن له بالدخول إلى مدينة علم النبوة والتزود منها بغية بيان أثر تلك النصوص العلوية في الإثراء المعرفي والتأصيل العلمي فبرز مكنزاً علمياً اتخذ من فكر أمير المؤمنين عليه السلام منبعاً لما اشتمل عليه من معارف تحاكي المجتمع لتكون له بلسماً، وتقرأ التاريخ لتكون عليه شاهداً؛ إذ نهل الباحث من سطور كتاب نهج البلاغة محطات فكرية تعد من أساسيات بناء المجتمع في كل زمان ليقرأ، الفكر السياسي بنضجه اليانع، والفكر الاقتصادي بسمته النافع، والفكر الأخلاقي بصوته الدافق، فبرزت آليات ومعالجات إذا ما اتبعت كان النجاح حليف متبعتها كيف لا ومصدرها سيد البلغاء وإمام المتقين.

فجزى الله الباحث خير جزاء المحسنين والحمد لله رب العالمين.

السيد نبيل الحسيني الكربلائي

رئيس مؤسسة علوم نهج البلاغة

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام (ت ٤٠ هـ) من أبرز أعلام التاريخ الإسلامي، كلفه الرسول صلى الله عليه وآله بالكثير من جلائل المهام المتعلقة بروح الدعوة، فأثبت جدارته وصدق إيمانه، وسعة اطلاعه، كما عوّل أبو بكر وعمر وعثمان على الأخذ بمشورته في الكثير من القضايا السياسية، واعتمدوا على فتاويه الفقهية، بالإضافة إلى توليه الخلافة لفترة دامت خمس سنوات (٣٥-٤٠ هـ/٦٥٦-٦٦١ م) كان خلالها سيفاً مسلطاً على الفتنة الكبرى التي أودت بحياة عثمان بن عفان، ومن ثم قسّمت المسلمين إلى فرق متناحرة، فكانت حياته ضحية لذلك التناحر، وهو إلى جانب كل ذلك منبع النحلة الشيعية، والبطولات الأسطورية، والمثال المحتذى في الفصاحة والبلاغة.

ولقد تناولت كثير من الدراسات شخصه بالبحث والدراسة، إلا أنها لم تتمكن من الإمام بكل جوانبه، ولا سيما الجوانب الفكرية التي تضمنها كتاب (نهج البلاغة) الجامع لما أثر عنه عليه السلام من خطب ورسائل وعهود وحكم، وذلك ما حدا بي إلى اختيار (فكر الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة)

موضوعاً لدراستي.

فمن المعلوم أن هدف الشريف الرضي (ت ٤٠٦هـ) من جمعه لنهج البلاغة تبيان فصاحة الإمام علي عليه السلام ومقدرته البلاغية، فقد وصفه في مقدمته بأنه (مشرع الفصاحة وموردها ومنشأ البلاغة ومولدها).

وبسبب ما حواه النهج من نصوص صرح الإمام عليه السلام فيها بأحقيقته في خلافة المسلمين دون غيره من الصحابة، وما تضمنته نصوص أخرى من وصف لأمر مستقبلية ومن تجسيد رائع وبراعة أسلوبية في وصف بعض الحشرات والطيور والحيوانات، فقد شك بعض الدارسين في نسبته إلى الإمام علي عليه السلام واتهموا الشريف الرضي بتلفيقه، كما قال بعضهم إن الكتاب من وضع أخيه الشريف المرتضى، وزعم آخرون أنه من صنع بعض علماء الشيعة فتصدى دارسون آخرون لدفع التهم عن (النهج) بإرجاع ما ورد فيه من نصوص إلى أصولها بتصحيح نسبتها إلى علي عليه السلام من ناحيتي المتن والإسناد، بإثبات سلسلة الرواة، والمصادر التي استخرجت تلك النصوص منها، وتوضيح ما طرأ على رواياتها من تصحيف وتحريف بسبب تقادم العهد بين قائلها وناسخها، وتعدد رواياتها مما لا يقدر في نسبة جلّها - إن لم يكن كلّها - إلى علي بن أبي طالب عليه السلام.

فبالإضافة إلى ما يمكن الاطلاع عليه من لمحات توثيقية من جامع (النهج) لنصوص قليلة فيه، فقد بذل ابن أبي الحديد (ت ٦٥٦هـ) جهداً كبيراً في توثيق الكثير منها كما بذل ميثم البحراني (ت ٦٧٩هـ) جهداً لا بأس به في ذلك الصدد، كما تصدى الكثير من الدارسين المحدثين لعملية التوثيق تلك، منهم عبد الحسين الأميني في كتابه (الغدِير) وامتياز عليخان العرشي في كتابه (استناد نهج البلاغة) والهادي كاشف الغطاء في القسم الثاني من كتابه (مستدرک نهج

البلاغة)، وعبد الله نعمة في كتابه (مصادر نهج البلاغة) وعبد الزهراء الحسيني في كتابه (مصادر نهج البلاغة وأسانيده).

أما الدراسات التي قامت على (نهج البلاغة) وأنشئت حوله، فقد اقتصرت على شروحه، وتوضيح أساليبه اللغوية، ودراسة لبعض جوانبه البلاغية، دون الوقوف على إحياءاتها وتأثيراتها، ودون الالتفات لما تحويه نصوصه من قضايا سياسية واقتصادية واجتماعية وأخلاقية وتربوية، ودون ربط الأشكال التعبيرية بالمواقف والقرارات والأحكام التي أثرت عن الإمام علي عليه السلام.

فمن الشروح القديمة لنهج البلاغة: (منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة) لسعيد بن هبة الله الرواندي (ت ٥٧٣هـ) وهو لا يعدو كونه شرحاً لمفرداته اللغوية مع ذكر بعض الحوادث التاريخية الجزئية المتعلقة ببعض النصوص.

ومنها: شرح ابن أبي الحديد (ت ٦٥٦هـ) وهو من أطول الشروح القديمة، وقد غلبت عليه الصبغة التاريخية لاستثثار تفصيل الحوادث وشرح المعاني بمعظمه، مع الخوض في بعض القضايا اللغوية والبلاغية الجزئية، ومقارنة أسلوب الإمام علي عليه السلام بأسلوب قدامى الشعراء والناثرين، بغرض تبيان سيطرته على اللغة، وحسه في اختيار الاساليب الملائمة لمقتضى الحال، هذا بالإضافة إلى وقوف الشارح - وكان معتزلياً - عند النصوص التي توافق آراء المعتزلة، مسهباً في شرحها وتقليب معانيها ومقارنتها بما جاء عند الشيعة من تأويلات لها.

أما (شرح نهج البلاغة) لميثم البحراني (ت ٦٧٩هـ) فيغلب عليه الطابع الصوفي الوعظي، مما يجعله بعيداً في معظمه عن دراسة فكر الإمام علي عليه السلام.

هذا وقد تصدى الكثير من الدارسين المحدثين للبحث في (نهج البلاغة) بتحقيقه وشرحه وفهرسته، وتبيان ما حوته نصوصه من معانٍ، إلا أنهم لم يبحثوا

١٠ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

في جوانبه الفكرية الثرة، إما لاختيارهم منهجاً سريعاً مبسطاً وإما لاقتصارهم على النظرة التاريخية دون التعمق في ملامستها، وإما بسبب المطالعة السريعة في نصوصه أثناء البحث فيها، وإما بسبب تغلب العاطفة المذهبية على المنهج العلمي.

فشرح الشيخ محمد عبده لنهج البلاغة، هو تفسير مختصر لمفرداته اللغوية دون دراسة النصوص أو حتى التعليق عليها الا فيما ندر.

أما (منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة) لميرزا حبيب الله الخوئي، فهو استعراض لما سبق من شروح، حاول فيه المؤلف إبداء وجهة نظره في معظم ما ورد في تلك الشروح من آراء خاصة ما ورد منها عند ابن أبي الحديد، هذا بالإضافة إلى اهتمامه بالاعراب والوقوف على الكثير من المسائل الفقهية وإبداء الرأي فيها من وجهة نظر الشيعة الإمامية وترجمة النصوص للغة الفارسية، ولم يتعرّض الشارح بصورة مباشرة إلى فكر الإمام عليه السلام الا في لمحات خاطفة، لاعتماده اساساً على الشرح والتفسير، والاستناد في استنتاجه إلى ما جاء عند الشراح السابقين.

ومن شروح النهج الحديثة أيضاً: (في ظلال نهج البلاغة) لمحمد جواد مغنية، وهو عبارة عن تفسير لمفرداته، وإعراب لبعض جملته، وشرح معانيها والربط - في بعض الأحيان - بين إحياءات النصوص وواقع الأمة الإسلامية المتفكك اليوم، مركزاً على قيمة نصوص النهج من حيث حفز الهمم، وبث اليقظة في النفوس، لذا لم يتناول الشارح قضايا الفكر، إلا بشكل هامشي، لأنه أراد لشرحه الانتشار بين جميع طبقات القراء في الأمة الإسلامية ليحقق هدفه في إيقاظها، بإثارة الحمية وبثّ الحماس، كما أشار في مقدمته.

ومن أحدث الدراسات الوثيقية وأضببطها: (نهج البلاغة) بضبط

وفهرسة أستاذنا الشيخ صبحي الصالح رحمه الله، لتمييز الدراسة بمقدمة ضافية عن تاريخ النهج، وقيمتها العلمية والأدبية، وما اتناج نسخه المخطوطة من تصحيف وتحريف، مع تعريف بالنسخ الموثقة التي اعتمدها الدارسون المحدثون - ممن سبقه - في شروحههم، إلى غير ذلك من ملاحظات ذات صلة وثيقة بالتحقيق. والدراسة في مجملها ذات فائدة لبحثنا في النهج وكيفية استخراج نصوصه، إلا أنها لا تمدنا بشيء على الاطلاق مما نحن بصدد دراسته من أفكار وآراء في النهج.

ومن الكتب التي تعرضت لدراسة بعض جوانب النهج: (دراسات في نهج البلاغة) لمحمد مهدي شمس الدين، وهي على العموم دراسة جادة، بحث المؤلف من خلالها بعض القضايا الاجتماعية وأخرى اقتصادية وسياسية، ولكن اهتمامه بالشرح والتفسير والوعظ دون التحليل حال دون تعمقه في دراسة النصوص التي اختارها لدراسته، هذا بالإضافة إلى الاختصار الشديد التي تميزت به أحكامه، واللّهجة الحماسية الخطابية التي طغت على أسلوبه لكون الدراسة جاءت من وجهة نظر شيعية.

أما دراسة علي آل ابراهيم: (في رحاب نهج البلاغة) فلا تتعدى كونها شرحاً لبعض نصوص النهج، عزّزه المؤلف بآيات من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، والشعر والتاريخ، لكنه لم يتعرض فيما اختاره من نصوص لما حوته النصوص من أفكار، إضافة إلى طغيان العاطفة الشيعية على كثير من جوانب الدراسة، لأن صاحبها هو أيضاً من الشيعة الإمامية.

علاوة على ذلك فإنني - بحسب إمكاناتي المتاحة في مجال البحث - لم أجد في

سجلات الجامعات العربية التي تسنى لي الاطلاع عليها، رسالة علمية أو بحثاً جامعياً في (نهج البلاغة) أو في فكر الإمام علي عليه السلام مما حفّزني على المضي فيما انا بصدده من البحث فيما تضمنه نهج البلاغة من فكر، واضعاً في الاعتبار ما ينتاب المكتبة العربية من نقص في الدراسات الثرية التطبيقية، إذ لا تتعدى معظم الدراسات التي قامت حول النص الثري القديم مجال الوصفية، والوقوف عند القضايا الجزئية، أو الهامشية المبنية على أحكام مسبقة في أغلب الأحيان بالنظر في فحوى النصوص على ظاهر معانيها، دون إجمالة النظر فيها، مع تبني أحكام ذات طابع استشراقي في غالب الأحيان، تحتاج إلى تثبت وتمحيص وقد وقفت عند الكثير من تلك الأفكار في مواضعها محاولاً مناقشتها.

وبالنسبة للتاريخ فقد كان تعويل الدراسة عليه، لا كمجرد وقائع مسرودة في اطارها الزمني الذي حدث فيه، بل كعنصر اضاءة لكشف واقع الإمكان تلمّسه وادراك ابعاده من خلال ومضات سريعة في ركام سرد الحوادث المفتعل الذي تصوّر وجهات نظر معينة، غايتها إسباغ الشرعية على أحداث لدعائم نظام معين أو تثبيته، لذلك خَفَتَ ضمن ذلك السرد صوت الشعوب، وغابت في خضمّ عبارات التمجيد آلام المستضعفين، في حين ان نهج البلاغة في الكثير من نصوصه، وقف على كشف جوانب من هذه الحقيقة التي تهّم معظم ميادين السياسة والاجتماع والأخلاق والتربية، لكون نصوصه صادرة عن شاهد عيان ثقة، عايش أحداث تاريخ صدر الإسلام معايشة مباشرة منذ بزوغ الدعوة حتى الوقت الذي تمخّض بالنقلات الحضارية الخطيرة التي كان مؤدّاها في نهاية المطاف تحول الخلافة الإسلامية إلى مُلك وراثي.

تركب رسالتنا من خمسة أبواب:

اختص الباب الأول بدراسة ما دار حول نصوص نهج البلاغة من جدل في مدى صحة نسبتها لعلي عليه السلام على أساس أن الدراسة في هذا الباب هي المرتكز الأساسي الذي يمكننا الانطلاق منها نحو الأبواب الأربعة الأخرى، من خلال النظر في النصوص مصدر الدراسة، ومحاکمتها في ضوء الآراء المثبتة والآراء النافية التي دارت حولها، تمكنت الدراسة من إثبات نسبة جملها - إن لم تكن كلها - لعلي عليه السلام وكانت خاتمة الباب دراسة مقتضبة في قيمة نهج البلاغة الأدبية والتاريخية والفكرية متبوعة بجدولة تضمنت مطالع نصوصه بحسب ورودها فيما أمكننا العثور عليه من نسخ متداولة مشهورة، مع محاولة توثيق النصوص من المصادر المعتبرة السابقة للشريف الرضي، والمعاصرة له، والمتأخرة عنه، مع محاولة تلافي ما وقع فيه الموثقون السابقون من عيوب توثيقية.

وعرض الباب الثاني لدراسة الفكر السياسي في نهج البلاغة، وذلك في ثلاثة فصول:

أنفرد الفصل الأول بدراسة مفهوم الإمامة في فكر علي عليه السلام، مع عرض لفكر الحكومة وأهميتها، ونشأتها والفرق بين مفهومها ومفهوم الدولة، ومن ثم علاقة الدين بالدولة من وجهة نظر الإسلام في ضوء ما ورد من نصوص في النهج. أما الفصل الثاني فقد انصبت الدراسة فيه على مواقف علي عليه السلام الفكرية تجاه عصره وعلاقته بالخلفاء الثلاثة قبله، وموقفه من المناوئين لحكومته أثناء خلافته، وذلك بهدي النصوص المتعلقة بذات الموضوع في نواحيه المتشعبة.

واتخذ تصور علي عليه السلام للمؤسسات الدولة مكانة في الفصل الثالث، وعرض البحث في هذا الفصل إلى مفهوم الدولة وعلاقتها بالحكومة، وما يتولد عن اندماج المفهومين من قضايا سياسية تتعلق بالولاية والوزراء والجيش والقضاء

١٤ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

وبيت المال والعمال، وإدارة الدواوين والرقابة مع تعليق ختامي حول فكر علي عليه السلام السياسي بين المثال والواقع.

أما الباب الثالث من الدراسة، فقد خصصناه لفكر علي عليه السلام الاجتماعي وتناولناه بالدراسة في ثلاثة فصول أيضا:

أوقفنا الفصل الأول منه على دراسة حالة المجتمع الإسلامي عامة والمجتمع الكوفي على وجه الخصوص، وذلك في ضوء ما ورد من نصوص في النهج.

وعرضنا في الفصل الثاني لدراسة القيم الخلقية كما أوردها النهج، مع التركيز على دعائم خلقية ثلاث هي: العدل والحق والتقوى.

كمنابع أخلاقية أصيلة لجميع القيم الخلقية التي انبثت في جميع نصوص النهج تقريبا.

وقد أخذت التربية مكانة هامة في النهج، مما دعا إلى افراد الفصل الثالث لها وفيه حاولنا تحليل ما عرض له علي عليه السلام من أفكار تربوية فردية واسرية واجتماعية، مع محاولة الكشف عما حوته من مضامين خلقية واخرى تعليمية يحتاجها المجتمع لخلق نشء كفاء من حيث الأخلاق ومن حيث الشعور بالمسؤولية، وقد ختمنا هذا الباب بوقفة تأملية سريعة حاولنا من خلالها التعرف على خلاصة الفكر الاجتماعي في النهج ومدى استجابة الطبقات الاجتماعية المختلفة لمثالية هذه الافكار.

وفي الباب الرابع تناولنا بالدراسة والتحليل الجانب الكلامي وما احتوى عليه نهج البلاغة من تأملات كونية وذلك في ثلاثة فصول فسلطنا الضوء في الفصل الأول منه على القضايا الكلامية المتعلقة بالعقيدة في اربعة محاور رئيسة عرضت لها نصوص النهج وهي:

الخالق - الملائكة - الرسل - الإنسان.

وأفردنا الفصل الثاني لدراسة الفكر التأملي وتداعي الأفكار والغيبيات كما عرض لها (نهج البلاغة) فأخذت الأوصاف الطبيعية مكانتها، كما استوعبت دراسة تداعي الأفكار في تفسير آيات القرآن الكريم قسماً مهماً بجانب القضايا الغيبية، كما عرضت الدراسة في هذا الفصل إلى فكرة المهدي المنتظر (عجل الله فرجه) المشهورة كما عاجلها النهج.

وفي الفصل الثالث عرضنا إلى نظرة علي (عليه السلام) إلى الحياة كما رسمت نصوص (نهج البلاغة) ملاحظها، فكان لا بد من تعمق فيها وصف به النهج من فكر صوفي وتحليل لمعنى الزهد بالتفريق بينه وبين التصوف مع اجلاء لمفهوم الزهد كما ورد في النصوص والتحليل المنطقي لدم الدنيا باستقراء ما أورده النهج في هذا الشأن.

أما الباب الخامس فقد خصصناه لدراسة الأساليب التعبيرية في نهج البلاغة، على اعتبار أن تلك الأساليب هي البوتقة الجامعة لتفرعات ذلك الفكر في شتى ميادينه، وقد بحثناها في ثلاثة فصول:

درسنا في الفصل الأول ما اسميناه تجوّزاً (الأنواع الأدبية التي وردت في النهج) وما تميز به كل نوع من هذه الأنواع من خصائص تفرد بها، إلى جانب سائر الأنواع المتداولة الأخرى المعروفة لدى العرب من أمثال وحكم.

و طرحنا على بساط البحث - في الفصل الثاني - أبرز الخصائص الأسلوبية التي تميزت بها نصوص النهج، فكانت وقفنا عند خصائص الجملة وكيفية آدماجها في النص وقيمتها كوحدة أساسية ضمن نسيجه في حالتي الفصل والوصل، إلى غير ذلك من خصائص ومميزات تكن في طريقة التنقل بين الأساليب الإنشائية

والأساليب الخبرية، وخصائص الجمل الاعترافية والاخرى الحالية، ومميزات الجمل الشرطية.

أما الدراسة في الفصل الثالث فقد أوقفناها على أبرز الخصائص الفنية ممثلة في الصورة وقيمتها التأثيرية، وأبرز الخصائص التركيبية في الجرس والوقع والوزن.

هذا وقد سلكت في دراستي لفكر علي عليه السلام بمختلف شعبه منهجاً تكاملياً فكان لتوثيق النصوص والتاريخ والدراسة الفنية جميعاً في الباب الأول، كما استوعب المنهج التاريخي في تحليل النصوص الباب الثاني من الدراسة، وأخذ المنهج الاجتماعي مكانته في الباب الثالث، وتصدرت قضايا الفلسفة والعقيدة مكانتها في الباب الرابع، وعولت في الباب الخامس على المنهج الفني بقضاياه الاسلوبية والبلاغية، وحاولت جاهداً أن أناغم بين تلك المناهج المختلفة بتوظيفها في كل متكامل ومتجانس.

هذا وقد كانت رحلتي شاقّة وشائكة وعسيرة: شاقّة لكونها انبنت على نص تضاربت الآراء حول صحته، وكان لا بد من التحقيق في تلك القضية من جميع جوانبها وقد اقتضى ذلك مني النظر في كثير من المصادر والمراجع المخطوطة والمطبوعة.

وشائكة لأن من ضمن الموضوعات التي تعرض نهج البلاغة إليها قضية علاقة الدولة بالدين وقضية الإمامة وحقية علي عليه السلام فيها، وبعض قضايا العقيدة كالغيبات، وفكرة المهدي المنتظر (عجل الله فرجه) وكان لا بد من الوقوف عندها ومناقشتها في ضوء النصوص التي وردت في (نهج البلاغة) وما دار حول تلك الأفكار من جدل لها أو عليها وعسيرة لكثرة المصادر والمراجع،

وندره ما فيها من المعلومات، وقلة الدراسات التطبيقية في مجال النشر التي كانت تساعدنا في تلمس طريقنا فيما لو وجدت، بالإضافة إلى تشعب موضوعات البحث وتعدد مناحيها من حيث المعالجة، ومن ثم جمع تلك التشعبات في كل متجانس.

إلا أنني قد حاولت وبذلت ما في وسعي، فأرجو أن أكون قد وفقت، مع إيماني الراسخ بأن ما بذلته من جهد طوال خمسة أعوام، لم يكن إلا بداية لطريق طويل قد بدأته راجيا أن يتواصل في (نهج البلاغة) ذلك المنبع الثر والأصيل في مجالي البلاغة والفكر، راجيا قبول اعتذاري عن كلما بدر مني من تقصير. والله الموفق.

الباب الأول

نهج البلاغة

- التعريف به
- توثيقه ودفح الشبهات عنه
- منهج الشريف الرضي في تصنيف مواده
- قيمته:
- البلاغية والأدبية
- التاريخية
- الفكرية

التعريف بنهج البلاغة

لم ينل كتاب في العربية من الشهرة والانتشار ما ناله كتاب (نهج البلاغة) الذي جمع الشرف الرضي بين دفتيه الكثير مما أثر عن الإمام علي عليه السلام من خطب ووصايا وعهود ورسائل وحكم ومواظ. اما سبب تسميته بـ (نهج البلاغة) فلأنه كما يقول جامعه «يفتح للناظر فيه أبوابها - أي أبواب البلاغة - ويقرب عليه طلابها»^(١)، لأن ما حواه ذلك الكتاب (عليه مسحة من العلم الالهي وفيه عبقة من الكلام النبوي)^(٢). وجاء من بعد الشرف من تناول محتوى الكتاب بالشرح^(٣) فقال هبة الله الراوندي عن محتواه إنه (دون كلام الله

(١) الشرف الرضي - خطبة كتاب نهج البلاغة.

(٢) الشرف الرضي - خطبة كتاب نهج البلاغة

(٣) بشأن شروح (نهج البلاغة) قال محسن الامين في اعيان الشيعة ٢١٨/٩: (لاقي من الشهرة والقبول ما هو أهله، وشرح بشروح كثيرة تنبو عن الاحصاء) وقال الهادي كاشف الغطاء في كتابه (مستدرك نهج البلاغة) ص ١٩٢ (شرح هذا الكتاب الجليل من فطاحل العلماء وجهابذة الفن ما يناهز الاربعين فاضلا بشروح موجزة ومسهبة وعربية وفارسية)، اما صاحب (مصادر نهج البلاغة) عبد الزهراء الحسيني، فقد وصف مئة وواحداً من الشروح القديمة والحديثة للنهج، مع ايراده ترجمة مقتضبة لكل شارح من أولئك ٢٠٢/١ - ٢٥٤. وقد استعان في ذلك

ورسوله وفوق كلام البشر^(١)، وفي نفس السياق قال عنه ابن أبي الحديد هو (دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق)^(٢) لقد فتح الشريف الرضي - بتأليفه النهج - الباب واسعاً لدراسات متعددة الجوانب فلاقى كل طالب علم بغيته وكل صاحب نحلة ما يتناسب وعقيدته. فاهتم بحفظه «حملة العلم والحديث في العصور المتقدمة حتى اليوم، يتبركون بذلك الحفظ كحفظ القرآن والحديث الشريف، وعد من حفظته في قرب عهد المؤلف القاضي جمال الدين محمد بن الحسين بن محمد القاساني، فإنه كان يكتب نهج البلاغة من حفظه»^(٣) وجانب

بموسوعة (الذريعة إلى تصانيف الشيعة) لمؤلفها: آغا بزرك الطهراني الذي ترجم في ١٠ / ١١١ وما بعدها لثة وثلاثين شارحاً ولنهج البلاغة في العربية والفارسية والاردوية، كما أورد في ٤ / ١٤٤ وما بعدها ما يقارب من خمسة عشر ترجمة أردوية وفارسية للنهج. وفي معرض الحديث عن النهج يقول حسن الامين في دائرة المعارض الإسلامية ٣ / ٤٣٧ (حظي هذا الكتاب من الأهمية والشأن ما لم يحظ به كتاب غيره على مر العصور واصبح ما له من الشروح ما بلغ (٧٥) شرحاً في حساب بعض المؤلفين و (١٠١) من الشروح في حساب مؤلف آخر. كما ذكر عبد اللطيف الكوهكمري في مقدمة تحقيقه لـ (منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة) للرواندي (ت ٥٧٣). ١ / ٣٦ - ٤٩ - مئة واثنى عشر شرحاً للنهج بين عربي وفارسي و اردوي - واللغة الاوردوية مشتقة من (أردو) كلمة تركية الاصل معناها: الجيش وأول ما أطلق هذا الاسم على اللغة المعروفة، كان في أيام العاهل المغولي شاه جهان المملك سنة ١٠٣٧ هـ ولكن اللغة نفسها كانت مستعملة قبل هذا العصر وكان يطلق عليها أكثر من اسم - دائرة المعارف الإسلامية الشيعية ٤ / ٤٧. وهذه اللغة قريبة في كتابتها من الفارسية وتحتوي على الكثير من الكلمات العربية مثلها في ذلك مثل اللغة الفارسية.

(١) الرواندي - منهاج البراعة ١ / ٤ .

(٢) ابن أبي الحديد - شرح النهج ١ / ٢٤

(٣) عبد الحسين الأميني الغدير ٤ / ١٨٦ .

ثالث من الدراسات يشمل في نظم بعض الشعراء للكثير من معاني النهج (١) إضافة إلى العديد من الدراسات التي اتخذت من بعض جوانبه منهجاً للدراسة، كشرح (الخطبة الشقشقية) (٢) أو شرح «عهد الإمام للأشتر النخعي» (٣) حين ولاه مصر، إلى غير ذلك من نصوص استقطبت آراء الباحثين والمفكرين

لكن نهج البلاغة في رحلته الطويلة التي ربت على الالف عام، لم تكن طريقه خلواً من العراقيل، فمكانته في نفوس الشيعة، وما حواه من نصوص تصف واقع عصرها إلى غير ذلك من موضوعات تأملية واخرى فكرية، كل ذلك جعل مدونته موضع شك لدى طائفة من دارسي الأدب في القديم والحديث، وكان ذل الشك مثار جدل قامت عليه كثير من الدراسات والدراسات المضادة، مما يجتم علينا معرفة ما حوته تلك الدراسات من آراء وافكار تكننا من دراسة ما ورد في النهج من فكر بكل اطمئنان.

(١) أشار إلى ذلك صاحب الذريعة إلى تصانيف الشيعة في موضعين ١٤ / ٢٤، ١٣٧ / ٣١٤.

(٢) الخطبة الشقشقية- المشهورة المشروحة بشروح كثيرة مستقلة- الذريعة إلى تصانيف الشيعة ٧ / ٢٠٣ - وقد ذكر لها محمد رضا الحكيمي في كتابه (شرح الخطبة الشقشقية) عشرة شروح، كما تحدث عنها

وعن شروحها بإسهاب عبد الزهراء الحسيني في (مصادر نهج البلاغة) ١ / ٣٠٩ حتى ٣٢٤.

(٣) ذكر آغا بزرك الطهراني عدة شروح لعهد الأشتر أثناء ذكره لشروح نهج البلاغة المختلفة في كتابه الذريعة ١٤ / ١٤٤، ١٤٦، ١٥٩. كما شرح العهد في كتاب مستقل توفيق الفكيكي أسماه (الراعي والرعية) ومن أحدث الشروح للعهد كتاب (نظرية الحكم والادارة في عهد الإمام علي عليه السلام للأشتر) لعبد المحسن فضل الله. ولأستاذنا محمد خلف الله أحمد رحمه الله دراسة قيمة في توثيق العهد وقيمتها السياسية وهي بعنوان (وثيقتان من الأدب الإسلامي السياسي في وظيفة الراعي ومسؤولياته ص ٢٥ - ٤٤) ذكرت ضمن كتاب (في العروبة وآدابها) من منشورات معهد البحوث التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

توثيق نهج البلاغة

تاريخ الشك في نصوص نهج البلاغة:

أنهى الشريف الرضي (ت ٤٠٦) جمعه لنصوص (نهج البلاغة في شهر رجب سنة اربعمئة للهجرة كما أشار في نهاية الكتاب^(١))، وصدر أول شرح له في حياته لمعاصره علي بن ناصر (ت القرن الرابع) بعنوان (أعلام نهج البلاغة)^(٢)، ويبدو أن هناك شرحاً آخر لأبي الحسن علي بن القسم البيهقي (ت ٥٦٥)^(٣) يعني كل ذلك انتشار النهج وشروحه على نطاق واسع أثناء حياة جامعه وأن شهرته تلك سببت له القيل والقال من لدن من كانوا يناصبون الشيعة العدا على الرغم من اطلاعهم على مصادره التي استقى الشريف الرضي مادته منها بشهادة الجاحظ ان (هذه خطب رسول الله محفوظة ومخلدة مشهورة وهذه خطب أبي بكر وعمر

(١) راجع خاتمة نهج البلاغة في أية طبعة من طبعاته.

(٢) محسن الأمين - اعيان الشيعة ٨/٣٦٣، عبد الزهراء الحسيني - مصادر النهج ١/٢٠٣.

(٣) راجع ترجمته: الحموي - معجم الأدباء ١٣/٢١٩ وقد ذكر شرحه الذي اسماه (معارج نهج

البلاغة) ص ٢٢٥.

وعثمان وعلي عليه السلام (١).

إلا أن الشك في النهج كان يجري في الهمس دون الإجهار به، حتى جاء عصر ابن خلكان (ت ٦٨١)، فأثار القضية جهاراً^(٢)، وذلك في كتابه (وفيات الأعيان) الذي فرغ من تأليفه سنة اثنتين وسبعين وستمائة^(٣)، أما القول الذي جهر به تجاه النهج فهو «قد اختلف الناس في كتاب (نهج البلاغة) المجموع من كلام علي بن أبي طالب عليه السلام، هل هو من جمعه أو من جمع أخيه؟ وقد قيل: إنه ليس من كلام علي عليه السلام وإما الذي من جمع ونسبه إليه هو الذي وضعه»^(٤) فابن خلكان هو أول من جهر بقضية الشك في النهج وذلك بعد مرور ما يقارب من مئتين واثنتين وسبعين سنة من جمعه، أي بعد أن اتلفت الفتن المتلاحقة

(١) البيان والتبيين ١/ ٢٠١.

(٢) راجع ترجمته ومصادرها في مقدمة كتاب (وفيات الأعيان) ١/ ٥ بتحقيق إحسان عباس ويرى الكثير ممن ألّف في (مصادر نهج البلاغة وأسانيده) ان الشك في نصوصه قد بدا في القرن السادس الهجري - عليخان العرشي - استناد نهج البلاغة ص ٣، ومنهم من يلصق تهمة الشك في ابن خلكان - عبد الزهراء الحسيني - مصادر النهج ١/ ١٠٢، عبد الله نعمه - مصادر النهج ص ٢٢. ونحن لا نوافقهم على ذلك، لأننا نعتقد ان قضية الشك في نسبة (نهج البلاغة إلى علي بن أبي طالب عليه السلام) أبعد بكثير من عصر ابن خلكان، ونرجح ظهورها في الخفاء دون الإعلان عنها منذ بداية صدوره ابان حياة جامعه. ولكن ابن خلكان هو أول من روج لذلك مجاهرة وفي مقولته ما يؤيد صحة راينا، ومما يعضد ما نذهب إليه أيضاً محاولة الراوندي (ت ٥٧٣) في (منهاج البراعة) ذكر أسانيد بعض خطب النهج، كما ناقش ابن أبي الحديد (ت ٦٥٥) تهمة الشك في موضعين من شرحه: ١/ ٢٠٥، ٣/ ١٢٨، ووثق كثيراً من نصوص أيضاً. وكلا المؤلفين قد سبقا ابن خلكان (ت ٦٨١) بتأليف شرحيهما وعليه فإن نسبة الشك لم تكن من اختراعه وانما هو المروج لها في العلن.

(٣) وفيات الاعيان ٧/ ٢٥٨.

(٤) السابق.

على بغداد وحواضر العالم الإسلامي جل المكتبات، وبعد أن قضى التتار على ما خلفه الفكر الإسلامي من كتب في هجومهم على بغداد، وهذا بطبيعة الحال يجدو بنا إلى التروي، وعدم أخذ الأمور على علاتها قبل الشروع في مناقشة تلك القضية الخطيرة.

بغض النظر عما قيل عن سيرة ابن خلكان^(١) يجدر بنا أن نقف على عصره وندرس خلفيات ذلك ليتسنى لنا البت فيما ألصقه بنهج البلاغة من اتهام، إذ إننا لا نستبق الحوادث إذا قلنا إننا لا نشك إطلاقاً في نسبة نصوص النهج لعلي بن أبي طالب عليه السلام، ولو لا ذلك لما اقدمنا على دراستها كمنع لفكر ذلك الصحابي الجليل.

عاش ابن خلكان في ظل الدولة الأيوبية، ومماليكها البحرية، فهو قاضي القضاة بمصر والشام^(٢) في عهد الظاهر بيبرس، الذي قال عنه ابن العماد (لو لا ظلمه وجبروته في بعض الأحيان لقدر من الملوك العادلين)^(٣) علماً بأن نهاية الفاطميين الشيعة كانت على يد الأيوبيين ومماليكهم، فعلى يد صلاح الدين الأيوبي كانت نهاية الخلافة الفاطمية في مصر بعد أن قطع الخطبة في الديار المصرية للعاقد لدين الله (ت ٥٦٧) وأقامها للمتقي العباسي^(٤) فكانت بداية التنكيل بالشيعة في مصر (فقد غالى الأيوبيون في القضاء على كل

(١) راجع الكتبي - فوات الوفيات ١/ ١١٣. وتزيين الأسواق في اخبار العشاق للانطاكي ٢/ ٣٣٧

فقد عدها عشاق الغلمان.

(٢) راجع السابق ١/ ١١٠.

(٣) شذرات الذهب ٥/ ٣٥٠.

(٤) راجع ابن الأثير - الكامل في التاريخ ٩/ ١١١.

أثر للشيعة في مصر) (١).

في تلك البيئة المشحونة بالعداء ضد الشيعة عاش ابن خلكان مما جعله يقلب كثيراً من الحقائق التاريخية. ففي الوقت الذي تشيد فيه المصادر التاريخية باهتمام الفاطميين بالعلم والأدب يقول هو «لما ملك السلطان صلاح الدين الديار المصرية لم يكن بها شيء من المدارس، فإن الدولة المصرية كان مذهبها الإمامية فلم يكونوا يتولون هذه الأشياء» (٢) متناسياً الأزهر الشريف ودوره القيادي في نشر العلم بالقاهرة المعزية، فلقد خصص الفاطميون فيه «لكل مذهب من المذاهب الإسلامية كرسياً لتدريس ذلك المذهب، وقد كان عدد الطلاب يتفق مع انتشار ذلك المذهب في مصر والبلاد العربية» (٣)، مما يعني ترك الفاطميين للسنة حرية تدريس مذاهبهم فشجع ذلك العلماء على اختلاف مذاهبهم على الرحلة إلى مصر واستيطانها و التدريس فيها، فممن قاموا بالتدريس في الأزهر على عهد الفاطميين من فقهاء الشافعية أبو الفضل محمد بن عيسى البغدادي (ت ٤٤١) (٤) وأبو الفتح سلطان بن إبراهيم المقدسي (ت ٥١٨) (٥)، وأبو الحجاج يوسف بن عبد العزيز (ت ٥٢٣) (٦). ومن فقهاء المالكية عبد الوهاب بن علي (ت ٤٢٢) وقد ذكر العماد الحنبلي كيفية تحوله إلى مصر (٧) والفقهاء أبو

(١) خفاجي - الأزهر في ألف عام ٥٨/١ الشيعة والحاكمون ص ١٩١.

(٢) وفيات الأعيان ٢٠٦/٧.

(٣) الأمين - دائرة المعارف الإسلامية الشيعية ٣٥٩/١١

(٤) العماد الحنبلي - شذرات الذهب ٢٦٧/٣.

(٥) السابق ٥٨/٤.

(٦) السابق ٦٧/٤.

(٧) السابق ٢٢٣/٤.

بكر الطرطوشي (ت ٥٢٠) ^(١) وغيرهم كثير، فقد «كان في مصر والشام كثير من الفقهاء الشافعية والمالكية والحنفية، وكانوا لا يرون التشيع» ^(٢).

ويحدثنا ناصر خسرو عن الحركة الثقافية في عهد المستنصر الفاطمي، وذلك أثناء وصفه لجامع عمر وبن العاص فيقول «يقيم بهذا المسجد المدرسون والمقرئون، وهو مكان اجتماع سكان المدينة، ولا يقل من فيه في أي وقت عن خمسة آلاف من طلاب العلم والغرباء والكتاب» ^(٣) فلم تقتصر الحركة العلمية في العهد الفاطمي على الجوانب الدينية بل شملت جميع حقول الثقافة. فاهتمام الفاطميين بالطب جعلهم يغدقون عليه بسخاء، وتقلد الأطباء المناصب العالية في الدولة، ومما ساعد على تقدم دراسته «إنه أصبح يدرس نظرياً وعملياً في المارستانات» ^(٤). كما افسح الفاطميون المجال لعلوم الفلك ومن أبرز مظاهر اهتمامهم بذلك المرصد الذي شيده الحاكم بأمر الله الفاطمي (ت ٤١١) على جبل المقطم ^(٥) ويطول بنا البحث لو استعرضنا انجازات الفاطميين في حقل الثقافة والعلم. فمكتبات العهد الفاطمي من أهم معالم الحضارة الإسلامية فقد قيل إن في مكتبة العزيز الفاطمي «من أصناف الكتب ما يزيد على مائتي ألف كتاب من المجلدات ويسير من المجردات منها في الفقه على سائر المذاهب، والنحو واللغة وكتب الحديث والتواريخ وسير الملوك والنجامة، والروحانيات

(١) السابق ٤/٦٢.

(٢) أحمد أمين ظهر الإسلام ١/١٩٧.

(٣) سفرنامه ١٠٢ ترجمة يحيى الخشاب.

(٤) حسن إبراهيم - تاريخ الإسلام السياسي ٣/٤٤١.

(٥) جرجي زيدان - تاريخ التمدن الإسلامي ٣/٢١٢.

والكيمياء، من كل صنف....»^(١) فقول ابن خلكان بعدم اهتمام الفاطميين بالمدارس والثقافة فيه اجحاف بحقهم ويرجع ذلك - في اعتقادنا - إلى تعصبه الشديد ضد التشيع، وهو في هذا يعكس وجهة نظر أسياده من الأيوبيين والمماليك تجاه الفكر الشيعي بمحاربتة بشتى الوسائل لطمس معالمه. من ذلك اتلافهم الكتب التي بذل الفاطميون الأموال الكثيرة لاستجلابها من جميع أرجاء المعمورة. فبعد ضعف الدولة الفاطمية وانتقال السلطة الفعلية للأكراد والمماليك أصاب خزائن الكتب تلك (من الاحن بتوالي الفتن ما اصاب مكتبة الإسكندرية... فألقي بعض كتبها في النار، والبعض الآخر في النيل، وترك بعضها في الصحراء فسفت عليها الريح حتى صارت تلالا عرفت بتلال الكتب، واتخذ العبيد من جلودها نعالا مما يطول شرحه، وبالاجمال فقد طرح ما بقى منها، عند دخول الأكراد للبيع في أواسط القرن السادس)^(٢). فموقف صحاب (وفيات الاعيان) من (نهج البلاغة) لا يحتاج إلى تأويل، فما هو إلا جزء من تلك الحملة الشعواء ضد الشيعة وضد كل ما يمت إليهم بصلة في مصر بعد أفول نجم الفاطميين، ولما كانت مقولته تلك قد فتحت باب القول بالشك في نسبة (نهج البلاغة) لعلي بن أبي طالب عليه السلام عند من تناوله بالدرس من بعده، فلا بد من الوقوف عندها لمناقشتها.

فمن الملاحظ أن تلك المقولة انبنت على ثلاث نقاط:

الأولى: قد اختلف الناس في كتاب (نهج البلاغة).

الثانية: هل هو جمعه - أي الشريف المرتضى - أم جمع أخيه الرضي.

(١) المقرئزي - ٤٠٩/١.

(٢) جرجي زيدان - السابق ٢٢٩/٣

ثالثة: وقد قيل انه ليس من كلام الإمام علي عليه السلام، وإنما الذي جمعه ونسبه إليه ^(١) هو الذي وضعه.

بالنسبة إلى النقطة الأولى: لم يذكر ابن خلكان أولئك الناس أو حتى بعضاً منهم، إذ كان من المفروض وهو يطرح مثل تلك القضية الخطيرة أن يسمي ولو واحداً من أولئك الناس الذين اختلفوا في (نهج البلاغة) خاصة وأنه لم يعودنا في كتابه على ذلك، حيث كان يستعمل أساليب الإسناد المختلفة مثل (حدثني، سمعت، قال لي....)، في المواضيع التي تحتاج إلى ذلك، فتركه هذا الموضوع بالذات في كتابه من دون اسناد يجعله موضع اتهام بالتعصب.

وبالنسبة إلى النقطة الثانية: لا نعتقد ان ابن خلكان ومن دار في فلكه ^(٢) لم يقرأوا مقدمة (نهج البلاغة) ليعرفوا جامعهم، وان لم يتيسر لأحدهم ذلك فلا نعتقد أن أحدا منهم لم يطلع على مؤلف من مؤلفات الرضي المتداولة في ذلك العصر، جاء في مقدمة النهج (إني كنت في عنفوان السن وعضاضة الغصن،

(١) يقول ابن خلكان في وفيات الاعيان ٣/٣١٣ إن جامع (نهج البلاغة) هو الشريف المرتضى وليس الشريف الرضي، وقد أخذ بذلك الزعم كل من اليافعي (ت ٧٦٨) في مرآة الجنات ٣/ ٥٥ وابن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩) في شذرات الذهب ٢/ ٢٥٧، وقال الذهبي (ت ٧٤٨) في سير أعلام النبلاء ١٧/ ٥٨٩ «قلت هو - أي الشريف المرتضى - جامع كتاب (نهج البلاغة) المنسوبة ألفاظه إلى الإمام علي عليه السلام ولا أسانيد لذلك، وبعضها باطل، وفيه حق ولكن فيه موضوعات حاشا للأمام النطق بها ولكن أين المنصف؟ وقيل بل جمع أخيه الشريف الرضي» وقد أخذ بنفس العبارة تقريباً ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢) في (لسان الميزان) ٤/ ٢٣٣. كما أخذ بالرأي ذاته من المحدثين: بروكلمان - تاريخ الأدب العربي ٢/ ٦٤، جرجي زيدان - تاريخ آداب اللغة العربية ٢/ ٥٩٩.

(٢) المصدر السابق.

ابتدأت بتأليف كتاب في خصائص الأئمة (عليهم السلام) ^(١) وكتاب (خصائص الأئمة) الذي ذكرته المقدمة من مؤلفات الرضي التي لا يشك فيها، كما أن امتياز عليخان العرشي يذكر أنه «توجد (من خصائص الأئمة) نسخة ثمينة قديمة في مكتبة رامبور، في ختامها إن كاتبه عبد الجبار بن عبد الحسين بن أبي القاسم الفراهاتي، فرغ من كتابتها سنة ٥٥٣ هـ وكتب الكاتب نفسه بخطه: كتاب خصائص الأئمة الإثني عشر (عليهم السلام) من تصنيف السيد الإمام الرضي ذي الحسين أبي الحسن محمد بن الحسين بن موسى الموسوي رضي الله عنه» ^(٢) ثم أن كتب الشريف الرضي التي بين أيدينا تؤيد صحة نسبة جمع (نهج البلاغة) إليه من ذلك قوله في المجازات النبوية (ويبين ذلك قول أمير المؤمنين علي عليه السلام في كلام له: تخففوا تلحقوا، وقد ذكرنا في كتابنا الموسوم (بنهج البلاغة) الذي أوردنا فيه مختار جميع كلامه صلى الله عليه وآله وعلي الطاهرين من أولاده) ^(٣). كما انه قد أشار إلى كتابه (المجازات النبوية) في نهج البلاغة بقوله (وقد تكلمنا على هذه الاستعارة في كتابنا الموسوم بمجازات الآثار النبوية) ^(٤) وفي ذلك دلالة واضحة على الرابطة الوشيحة بين الكتابين، لأنها يعالجان موضوعاً واحداً هو البلاغة وأنها لمؤلف واحد هو الشريف. مما يؤكد أن جامع النهج هو الشريف الرضي وليس أخاه الشريف المرتضى ^(٥) فجميع من ترجموا للمرتضى لم يذكروا

(١) مقدمة الشريف الرضي لنهج البلاغة.

(٢) استناد نهج البلاغة ص ٧.

(٣) المجازات النبوية ص ٤١ وقد تكررت الإشارة إلى نهج البلاغة أيضاً في ص ١٤٠، ١٧١.

(٤) وردت العبارة أثناء تعليقه على الحكمة رقم ٤٧٥ في نهج البلاغة.

(٥) يلاحظ أننا قد استعملنا كلمة (جامع) وليس كلمة (مؤلف) لازالة اللبس الذي اختلقه شوقي ضيف في قوله (يذهب النجاشي المتوفي سنة ٤٥٠ للهجرة في كتابه (الرجال) إلى ان مؤلف الكتاب

هو الشريف الرضي، وهذا صحيح بشهادة الرضي نفسه وشهادة شراح كتابه، فقد ذكر في كتابه (مجازات الاثار النبوية) ونجد ابن أبي الحديد المتوفي سنة ٦٥٥ في شرحه للكتاب يعترف بأن خطبته من عمل الشريف الرضي، ويذهب ابن ميثم البحراني إلى أنه من تأليف الشريف الرضي. إذن فالكتاب من عمل الشريف الرضي وصنعه ويظهر أنه لم يؤلفه جميعاً فقد أضاف قبله كثير من أرباب الهوى وفصحاء الشيعة خطباً وأقوالاً إلى علي بن أبي طالب عليه السلام ويدل على ذلك ما جاء في مروج الذهب للمسعودي ٢ / ٤٣١ إذ يقول: (الذي حفظ الناس عن علي عليه السلام من خطبه في سائر مقاماته أربعمائة خطبة ونيف وثمانون خطبة يوردها على البديهة تداول الناس ذلك عنه قولاً وعملاً) وكان الشريف الرضي وجد مادة صاغ منها كتابه، وهي مادة بنيت على السجع وفي ذلك نفسه ما يدل على كذب نسبتها إلى علي عليه السلام، وليس من الطبيعي أن يسجع علي في خطبته بينما ينهي الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ويتحاشاه أبو بكر وعمر وعثمان في خطابتهم) الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص ٦٢. فالشريف الرضي لم يقل إن كتاب (نهج البلاغة) من صنعه وتأليفه كما زعم شوقي ضيف في ابتساره العبارة وقولبتها لتناسب احكامه البعيدة عن الموضوعية والزاهة، بالإضافة لما أوردناه في المتن من كتاب المجازات النبوية، يقول الشريف الرضي في الجزء الخامس من كتابه (حقائق التأويل) ص ٦٧ (من أراد أن يعلم برهان ما أشرنا إليه من ذلك فلينعم النظر في كتابنا الذي الفناه ووسمناه (نهج البلاغة) وجعلناه يشتمل على مختار جميع الواقع إلينا من كلام أمير المؤمنين عليه السلام في جميع الأعراض). فهو لم ينسب مادة الكتاب إلى نفسه كما تقول شوقي ضيف عليه، وإنما نسب إلى نفسه الجمع ليس غير، وفي هذا الصدد نشير إلى أن أخلاق الشريف الرضي ومنزلته الاجتماعية ومكانته العلمية، كل ذلك يحول بينه وبين الكذب والافتراء، وفي سيرته من الشواهد الكثيرة المؤيدة لذلك (راجع ذلك بالتفصيل الباب الأول من (التفجع في شعر الشريف الرضي) أطروحة التعمق في البحث سنة ٨٥، مقدمة إلى كلية الاداب بالجامعة التونسية، من عمل جليل منصور العريض. كما أنه لا يخفى على الناقد اللبيب الفرق الشاسع بين أسلوب (نهج البلاغة) وأسلوب الشريف الرضي الفني، بالمقارنة بين الرسائل الفنية المتبادلة بين الشريف الرضي وبين الصابي بما جاء في (نهج البلاغة) من رسائل، يتبين لنا أثر الصنعة التي اتسم بها أسلوب الترسل في القرن الرابع الهجري (راجع رسائل الصابي والشريف الرضي ص ٦٣ رسالته في تعزية أبي اسحاق في ابنه سنان، و ص ٧٣ وما بعدها موضوعها: نسخة عهد كتبه الشريف الرضي للخليفة الطائع) فنظرة سريعة في فحوى الرسالتين الفنييتين وغيرهما من الرسائل التي وردت في الكتاب

(نهج البلاغة) ضمن مؤلفاته^(١) التي ذكروها كاملة.

وتمثل النقطة الثالثة أدق المراحل خطورة على محتويات النهج بأنها موضوعة على علي بن أبي طالب عليه السلام طبقاً لقول ابن خلكان (وقد قيل: إنه ليس من كلام علي عليه السلام وإنما الذي جمعه ونسبه إليه هو الذي وضعه)^(٢)، ولا يمكن قبول ذلك القول لسببين:

الأول: عزو القول لمجهول باستخدامه الفعل (قيل) وهو أسلوب من أساليب التضليل لأن شؤون البحث والدراسة لا يعول فيها على أي قائل، إذ من المتوقع ان يذكر لنا القائل لنتمكن من دراسة حاله ومدى الوثوق من امانته العلمية، خاصة وان علم رجال السند قد وصل إلى ذروته في حال معرفة

المذكور ومقارنة أسلوبها بما ورد في النهج من أساليب يتبين لنا أن الرضي - مع احترامنا لباغته وشاعريته - مهما أوتي من بيان ومهما بذل من جهد في رفع مستوى أسلوبه فلن يتمكن من محاكاة أساليب النهج، ناهيك عن ذلك علماء الشيعة الذين عزا إليهم شوقي ضيف المشاركة في الوضع إذ (لا مفر من الاعتراف بأن (نهج البلاغة) له أصل والا فهو شاهد على ان الشيعة كانوا أقدر الناس على صياغة الكلام البليغ - زكي مبارك - عبقرية الشريف الرضي / ١ - ٢٢٣. أما بشأن المقولة التي اجتزاها شوقي ضيف من كتاب مروج الذهب فهي عليه لا له فقد ورد عن الجاحظ في البيان والتبيين ٧/ ٢٠١ ما يعضدها، راجع الصفحة السابقة، واما استنكاره لما ورد في المنهج من سجع ومحسنات لفظية فيمكن مراجعته في ص ٣٢ من هذا البحث أيضاً.

(١) إذا استثنينا من ذكرنا في الهامش رقم ٣ ص ٣١ من هذا البحث سنجد ان جميع من ترجموا للشريف المرتضى (ت ٤٣٦ هـ) لم يذكروا (نهج البلاغة) ضمن مؤلفاته، راجع على سبيل المثال: الطوسي - الفهرست ص ١٢٠، ياقوت - معجم البلدان ٧/ ١٤٦ - الخوانساري روضات الجنات ٤/ ٣٠١ - الأمين - أعيان الشيعة ٨/ ٢١٩، محمد أبو الفضل إبراهيم - مقدمة تحقيق أمالي المرتضى ١/ ١٢ وما بعدها، رشيد الصفار - مقدمة تحقيق ديوان المرتضى ١/ ١١٧.

(٢) وفيات الاعيان ٣/ ٣١٣.

الرجال في العصر الذي ألف كتابه فيه.

الثاني: التناقض في عبارة (إنما الذي جمعه ونسبه إليه هو الذي وضعه)، إذ كيف يمكن التوفيق بين جامع الكتاب وواضعه في شخص واحد، فإما ان يكون ذلك الشخص جامعاً وإما أن يكون واضعاً، ولكن التعبير قد خان المؤلف في محاولة الإيهام تلك. وعلى كل فلقد فتحت تلك المقولة باب الشك في نسبة (نهج البلاغة) على مصراعيه فصارت من المسلمات التي لا تحتاج إلى مناقشة عند من عول على (وفيات الأعيان) في ترجمة الشريف المرتضى فأخذ بعضهم بنصها وأضاف إليها البعض الآخر، بحيث يمكننا من تلك الإضافات التعرف على نقاط الاتهام الموجهة لمادة النهج وهي^(١):

- ١- افتقار معظم نصوص (نهج البلاغة) إلى الإسناد وعدم ذكر المصادر.
- ٢- التعريض بصحابة رسول الله ﷺ في بعض نصوصه.
- ٣- الطول المفرط في بعض الخطب والعهود بما لا يتناسب وأدب صدر الإسلام.
- ٤- الوصف الدقيق المستوفي لجميع أجزاء الموصوف.
- ٥- وجود تعبيرات فلسفية ظهرت بعد تدوين العلوم في العصر العباسي.
- ٦- استخدام التقسيم في شرح المسائل ووصفها.
- ٧- ورود كثير من المغيبات في ثنايا بعض نصوص النهج.
- ٨- ورود كثير من النصوص في الحث على الزهد والتصوف وذكر المسيح.
- ٩- وصف الحياة الاجتماعية وصفاً دقيقاً وانتقاد سلوك بعض الولاة

(١) سنشير إلى مصدر كل نقطة عند طرحها للمناقشة

وأخلاقهم.

١٠ - نسبة بعض نصوص النهج لغير علي عليه السلام في مصادر أخرى.

١١ - ورود كلمة وصي وهي مصطلح شيعي ذكره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

وذكر في أكثر من مواضع النهج.

١٢ - ذكر الإمامة على لسان علي عليه السلام وإحقيقته فيها في مواضع كثيرة من النهج وهو ما لم يحدث منه على الإطلاق.

١٣ - السجع المفرط والاناقة اللفظية في كثير من نصوص نهج البلاغة

ويمكن مناقشة تلك النقاط فيما يلي:

١- افتقار معظم نصوص نهج البلاغة إلى الإسناد وعدم ذكر المصادر^(١):

قد يكون ذكر الإسناد محاولة لإضفاء الصدق على النصوص والأخبار المنقولة واعطائها قيمة في نفوس المطلعين عليها، كفعل أبي الفرج الأصفهاني (ت ٣٦٠) في كتاب الأغاني الذي حشاه بالأسانيد (واكثر تعويله كان في تصنيفه على الكتب المنسوبة الخطوط)^(٢) كما قد يكون ذكر الإسناد ضروريا لو كان مؤلفه يرمي من ورائه خدمة النواحي الدينية ودراسة العقيدة، ولكن الشريف الرضي في جمعه لنصوص (نهج البلاغة) لم ينزع إلى شيء من ذلك، لأن السبب الوحيد

(١) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء ١٧/٥٨٩ (هو جامع كتاب (نهج البلاغة) المنسوبة الفاظه إلى الإمام علي عليه السلام ولا أسانيد لذلك) ويعتبر الباقوري الشريف الرضي حاطب ليل إذ يقول فيه (إن الطعن في نسبة هذه الكلمات إلى الإمام عليه السلام لا يعني النيل من الشريف الرضي بنسبته إلى افتراء الكذب على الإمام عليه السلام ولكن الشريف أخذ خطب الإمام وكلماته من أفواه معاصريه أو من صحافتهم التي كتبوها - علي امام الاثمة ص ٦٠).

(٢) ابن النديم الفهرست ص ١٢٨.

الذي من أجله جمع كلام الإمام عليه السلام هو: الاستحسان الذي أظهره أصحابه لما ورد في الفصل الأخير من (خصائص أمير المؤمنين) ضمن كتابه (خصائص الاثمة) فقد كان ذلك الفصل يحوي نماذج مقتضبة لما أثر عن علي عليه السلام من مواعظ وحكم وأمثال، فسأله أولئك الصحاب أن يؤلف كتاباً «يحتوي على مختار كلام مولانا أمير المؤمنين عليه السلام في جميع فنونه وامتشعات غصونه: من خطب، وكتب ومواعظ وأدب، علماً بأن ذلك يتضمن من عجائب البلاغة وغرائب الفصاحة، وجواهر العربية، وثواقب الكلم الدينية والدينية»^(١).

فبلاغة الإمام عليه السلام وسمو أسلوبه هما الأساس الذي من أجله جمع الرضي تلك النصوص، لذلك فإن ذكر الأسانيد والمصادر في مثل هذه الكتب تعتبر من نافلة القول.

ولو أراد الرضي هدفاً غير البلاغة لجاءت النصوص بين دفتي النهج متكاملة، ولكن مما يؤسف له ان المنهج الذي اختطه الشريف لنفسه فرض عليه التقيد باختيار النماذج البلاغية حتى لو أحال النص الذي بين يديه إلى أشلاء متناثرة في ثنايا الكتاب وبين صفحاته لأنه يريد «النكت واللمع ولا يقصد التتالي والنسق»^(٢).

ومنهج الرضي في اختيار نصوص النهج، هو ذات المنهج الذي اختطه لنفسه فيما اختاره من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله في كتابه (مجازات الأحاديث النبوية) إذ لم يعول إلا على الأحاديث التي تتضمن مجازاً، أو حتى على الجزء الذي يوفر له

(١) مقدمة الشريف الرضي لكتاب نهج البلاغة.

(٢) السابق.

الشاهد من ذلك الحديث^(١)، ولم يذكر الأسانيد، الا فيما ندر، ومع ذلك لم يثر كتاب (المجازات النبوية) ما أثاره النهج من أقاويل.

إن انتقاء الشريف الرضي للشاهد البلاغي من كلام علي بن أبي طالب عليه السلام حتم عليه اجتزاء جمل قصيرة من خطب متعددة وضمها إلى بعضها بعضاً، وقد أشار شراح النهج إلى الكثير من ذلك، يقول ابن أبي الحديد في تعليقه على أحد نصوص النهج «هذه فصول أربعة لا يمتزج بعضها ببعض، وكل كلام منها ينحو به أمير المؤمنين عليه السلام نحواً غير ما ينحوه بالآخر وإنما الرضي رحمه الله التقطها من كلام لأمر المؤمنين عليه السلام طويل منتشر قاله بعد وقعة النهروان»^(٢)، ونص ابن ميثم البحراني على ذلك في عدة مواضع من شرحه للنهج^(٣). إلا أن ذلك لا يعني أن الشريف قد سكت تماماً عن ذكر الأسانيد والمصادر في مختاراته تلك، إذ إنه في عرضه لبعض النصوص ذكر إسنادها، من ذلك خطبة (الاشباح)^(٤) التي ذكر أنها من رواية مسعدة بن صدقة، عن جعفر الصادق عليه السلام (ت ١٤٨)، كما ذكر في كثير من المواضع مناسبة النص والمكان الذي قيل فيه

(١) لاحظ ان معظم ما ورد من أحاديث نبوية في الكتاب من دون إسناد، ثم انه في كثير من مواضع الكتاب يقتصر على ذكر شاهده من الحديث الشريف، راجع على سبيل المثال لا الحصر الصفحات: ٢٧، ٥٧، ٦٠، ٦٧، ٦٩، ١٠٢، ١٠٣.

(٢) شرح النهج ٢ / ٣٨٤ وجاء بمثله في ٢ / ٢٩٨، ٣ / ١٦٥، ٨ / ٢٧٨، ٢٨٨....

(٣) راجع شرح ميثم ١ / ٢٨٥، ٢٨٩، ٢ / ١٤٥....

(٤) راجع نهج البلاغة أو أحد شروح خطبه رقم ٩٠، أما مسعدة بن صدقة الذي روى الخطبة عن الصادق فلا ندري عن سنة ولادته، وهو من أصحاب الرواية عند الإمامية راجع الذريعة

مما يقربه من التوثيق^(١)، على أن ذكر مصادر بعض النصوص موجود في ثنايا الكتاب ولكن بقلّة. هذا وقد تنبه الشراح بعد الرضي إلى أهمية التوثيق وذكر المصادر بعد انتشار النهج وازدياد قيمته، وابتداء الشك في نسبة نصوصه. ما وصلت إليه عملية توثيق نهج البلاغة منذ القرن السادس الهجري حتى العصر الحديث:

١- منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة - للراوندي (ت ٥٧٣)^(٢):

ذكر المؤلف ضمن شرحه أسانيد الخطب الخمس الأول من النهج متصلة بالإمام علي عليه السلام، علماً بأن من ضمن تلك الخطب الخمس ذكر اسناد الخطبة (الشقشقية)^(٣) التي تعد من النصوص التي اثارت موجات الشك حول مختارات النهج، إلا أن الراوندي لم يستمر في توثيقه واعتقد ان تجزئة النصوص فيما بعد حالت بينه وبين ذلك.

٢- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ت ٦٥٦):

يبدو إن ابن أبي الحديد قد عايش موجة الشك التي أخذت في التفاقم في النصف الثاني من القرن السادس الهجري مما جعله يتصدى لذلك في موضعين^(٤) من شرحه الكبير. إلا أن أهم ما قام به في هذا الصدد محاولته لتوثيق الكثير من نصوص النهج إما بذكر المصدر واما بذكر المناسبة وإما بتحديد تاريخ القول. وكان أكثر اعتماده في التوثيق على الكتب التي أرّخت لعصر صدر

(١) راجع على سبيل المثال خطب ٦، ٥، ٦، ٦ / ٢٥٦.

(٢) راجع الخطب الخمس متوالية في الجزء الأول عنده.

(٣) منهاج البراعة ١ / ١٣١.

(٤) شرح ابن أبي الحديد ١ / ٢٠٥، ١٠ / ١٢٨ - التراث.

٤٠ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

الإسلام وعلى الكتب التي اهتمت بجمع خطب الإمام علي، ككتاب (الجميل) للوط بن يحيى بن مخنف الأسدي (ت ١٥٠)^(١)، وكتاب (صفين) لإبراهيم بن ديزيل الهمداني^(٢)، وكتاب (خطب علي عليه السلام لهشام بن محمد بن السائب الكلبي (ت ٢٠٦)^(٣)، وكتاب (الجميل) و (صفين) لمحمد بن عمر الواقدي (ت ٢٠٧)^(٤)، وكتابي (الجميل) و (خطب علي عليه السلام وكتبه إلى عماله) لعلي بن محمد بن عبد الله المدائني (ت ٢١٥)^(٥) وكتاب (صفين) لإبراهيم بن محمد الهلالي

(١) راجع السابق ١/ ٢٠٥، ٣٠٥، ٣٠٩، ١٨٧/٢. وقد وردت ترجمة لأبي مخنف عند ابن النديم

الفهرست ص ١٠٥، ياقوت - معجم البلدان ١٧/ ٤١.

(٢) السابق ٢/ ٣١٠، ٥/ ٢٥٤، ولم أعثر على تاريخ وفاته، قال عنه الطهراني في الذريعة ١٥/ ٥٢

«ينقل عنه بن مزاحم في كتاب صفين». ونصر بن مزاحم من طبقة أبي مخنف الذي كانت سنة

ولادته قريبة من (١٢٠) كما رجح ذلك عبد السلام هارون في مقدمة تحقيقه لكتاب (صفين)

لنصر بن مزاحم ص ٩، وعلى هذا فإن إبراهيم بن ديزيل من نفس الطبقة تقريباً.

(٣) راجع شرح النهج السابق: ١/ ٣٠٨، ٢/ ١٤٣، وقد وردت ترجمة لهشام الكلبي عند ابن النديم

- الفهرست ١٠٨.

(٤) راجع الشرح السابق ٢/ ١٤٠، ١٤٩، ٤/ ٩٥، وقد وردت ترجمة للواقدي في فهرست السابق

ص ١١١.

(٥) راجع الشرح السابق ٦/ ١٣٤، ٧/ ٢٨٤... وقد وردت ترجمة للمدائني في الفهرست ص ١١٣.

(ت ٢٨٣) (١) وكتاب (السقيفة) لأبي بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهري (٢) وكتاب (الأوائل) لأبي هلال العسكري (٣) وقد اضربنا عن ذكر المصادر التي رجع إليها ابن أبي الحديد والتي ما زالت مستخدمة حتى يومنا هذا (٤).

وهذا وقد ظهر مجهود ابن أبي الحديد التوثيقي في الباب الخاص برسائل الإمام علي عليه السلام وعهوده، وبالذات في الرسائل المتبادلة بين علي عليه السلام ومعاقبة، حيث أعاد إلى رسائل الإمام عليه السلام ما حذفه الرضي منها. ولما كان معظم تلك الرسائل أجوبة وردوداً على رسائل كتبها معاوية لعلي عليه السلام فإن ابن أبي الحديد أورد رسائل معاوية تلك، مشيراً إلى مناسباتها التي اقتضتها بتوثيقها من كتب التاريخ والأدب.

(١) بالرغم من ضياع كتاب (الغارات) لابراهيم بن محمد بن سعيد الهلالي إلا أنه يمكننا تجميع جزء كبير منه بثه ابن أبي الحديد في ثنايا شرحه، حيث اعتمد عليه اعتماداً أساسياً في روايته للغارات التي شنّها معاوية على أطراف البلاد الإسلامية الخاضعة لعلي عليه السلام وموقف علي عليه السلام من تلك الغارات والخطب التي خطبها في أصحابه يستحثهم على الجهاد، أما ترجمة الهلالي فقد وردت عند صاحب موسوعة الذريعة إلى تصانيف الشيعة ٥/ ٥٢.

(٢) راجع الشرح السابق: ٢/ ٤٤، ٤/ ٧٠، ٦/ ٥، ٨/ ٢٥٢. ويروي في كتابه السقيفة عن محمد بن زكريا الغلابي (ت ٢٩٦) ويعتقد أنه من رجال النصف الأخير من القرن الثالث الهجري، سكتت المصادر عن سنة وفاته - عباس القمي ٢/ ١٤٦ - الطهراني - الذريعة ١٢/ ٢١٦.

(٣) راجع الشرح السابق ١/ ١٩٦، ٢٣٨، ٢/ ٢٧١. وردت ترجمة لابي هلال العسكري عند ياقوت من ضمنها «اما وفاته فلم يبلغني فيها شيء، غير أنني وجدت في آخر كتاب (الأوائل) من تصنيفه فرغنا من أملاء هذا الكتاب يوم الأربعاء لعشر خلت من شعبان سنة خمس وتسعين وثلاثمائة» معجم الأدباء ٨/ ٢٦٤.

(٤) من ذلك كتاب صفيين لابن مزاحم، وكتب الجاحظ (ت ٢٥٥) وكتب ابن قتيبة (ت ٢٧٦) وكتب المبرد (ت ٢٨٥) وتاريخ الطبري (ت ٣١٠) وكتب ابن الأثير (ت ٦٣٠)...

وبناء على ما أوردته المصادر التي اعتمدها ابن أبي الحديد في توثيق نصوص النهج يمكننا قبول مقولة المسعودي (ت ٣٤٦) السابق الذكر^(١) التي أشار إليها أيضاً الجاحظ^(٢).

٣ - شرح نهج البلاغة لميثم البحراني (ت ٦٧٩):

يكاد يكون شرح البحراني للنهج تحقيقاً بالمفهوم الحديث، فبالإضافة إلى اهتمامه بالنواحي البلاغية، وتركيزه على الجانب الزهدي في نصوص النهج، وشرحها شرحاً صوفياً، بالإضافة إلى كل ذلك فقد اختط الشارح لنفسه خطأ محاييداً أدى به إلى رفض شرح أي نص لم يجزم به ويغلب على ظنه انه من كلام الإمام علي عليه السلام^(٣) وتلك الخطة العلمية حتمت عليه توخي الصحيح.

أما فيما يتعلق بتنسيقه لمادة النهج في شرحه، فقد كانت بين يديه عدة نسخ من النهج وشروحه، لأنه بعد إيراده للخطبة رقم (٨٤) بين اختلاف موضعها في نسخ النهج المتعددة، والسبب الذي دعاه إلى الاعتماد على بعض تلك النسخ دون الأخرى^(٤).

(١) راجع ص ٣١ وما بعدها

(٢) أشرنا إلى مقولة الجاحظ في ص ٣١ وما بعدها من هذا البحث.

(٣) راجع شرح النهج ١/ ٢٥١.

(٤) يقول في هذا الصدد «من ها هنا اختلفت نسخ النهج، فكثير منها تكون هذه الخطبة فيها أول المجلد الثاني منه، بعد الخطبة المسماة بالقاصعة، ويكون عقيب كلامه للبرج بن مسهر الطائي قوله: ومن خطبة له عليه السلام الحمد لله الذي لا تدركه الشواهد ولا تحويه المشاهد، وكثير من النسخ تكون هذه الخطبة فيها متصلة بكلامه عليه السلام للبرج بن مسهر، وتتأخر تلك الخطبة فتكون بعد قوله: ومن كلامه له عليه السلام وهو يلي غسل رسول الله ﷺ ويتصل ذلك إلى تمام الخطبة المسماة بالقاصعة. ثم يليه قوله باب المختار من كتب أمير المؤمنين ورسائله وعليه جماعة الشارحين كالإمام قطب

بالنسبة لذكر المصادر والأسانيد لم نجده قد اهتم بها كاهتمام سابقه ابن أبي الحديد ولكن ليس معنى ذلك أنه أغفلها إغفالاً تاماً، ولأنه لم يشأ أن يكرر ما أورده ابن أبي الحديد فقد أعاد إلى بعض النصوص ما تعمّد الرضي حذفه مشيراً إلى ذلك كما في قوله «هذا الفصل ملتقط ملفق من خطبة له عليه السلام لما بلغه أن طلحة والزبير قد خلعا بيعته، وهو غير منتظم، وقد أورد السيد منها فصلاً آخر وسنذكرها بتامها إذا انتهينا إليه إن شاء الله»^(١) كما أنه ذكر مناسبة^(٢) بعض الخطب والرسائل، وفي مواضع أخرى ذكر الأسانيد^(٣) أو المصادر^(٤) وذلك بحسب الامكانيات المتاحة في عصره. تلك هي الجهود التي بذلت لتوثيق النهج من خلال الشروح التي وصلت إلينا:

توثيق (نهج البلاغة) في العصر الحديث

من المعلوم أن جزءاً كبيراً مما ورد في النهج من نصوص، قد وردت في كتب الحديث الأربعة^(٥) التي يعول عليها الشيعة الإمامية في عقائدهم وعباداتهم

الدين أبي الحسن الكيدري، والفاضل عبد الحميد بن أبي الحديد ووافقتهم هذا الترتيب لغلبة الظن باعتمادهم على النسخ الصحيحة». شرح ميشم للنهج ٣/ ٤١٣، أما الكيدري (ت ٥٧٣) فعنوان شرح للنهج: حدائق الحقائق في تفسير دقائق أوضاع الخلائق، وهو من الشروح المفقودة - الذريعة ٦/ ٢٨٥.

(١) شرح ميشم ١/ ٢٨٥، وايضاً ورد مثلها في ١/ ٢٩٧، ٢/ ١١٥.

(٢) راجع السابق ١/ ٢٧٦، ٢/ ٢٩٥، ٢/ ٩٩.

(٣) راجع السابق ٢/ ٧٧، ٣/ ١٩٥، ٥/ ١٨٥.

(٤) راجع السابق ٢/ ١٤٦، ٣/ ٩٠، ٤/ ١١٣.

(٥) كتب الحديث الأربعة المعتمدة عند الشيعة الإمامية هي:

ومعاملاتهم، مع ملاحظة اختلاف الروايات التي لا تخل بالمعاني فيما بينها وبين ما ورد في نهج البلاغة من كلام، مما يرجع عدم اعتماد الرضي في جمع مادته على تلك الكتب التي لم يذكرها لا ابن أبي الحديد ولا ميثم من ضمن مصادرها أيضاً: ولما كان تكذيب مادة النهج تعني تكذيب ما ورد فيه من أحاديث شريفة، خاصة أن الشيعة الإثني عشرية يعتبرون رواية الأئمة الإثني عشر من ولد فاطمة هي رواية الرسول ﷺ لأنه علمهم من علمه، لذا فقد تصدت طائفة من فقهاءهم وأدبائهم لدحض تهمة الوضع عن النهج، وذلك بالبحث عن أصوله في المصادر المعتمدة التي أوردت تلك المأثورات أو أجزاء منها، إضافة إلى أن هناك من علماء السنة وأدبائهم ممن أوردوا في دراساتهم للنهج من الملاحظات ما يدعم صحة نسبة مادة النهج لعلي عليه السلام، مما يحتم علينا الوقوف على ما ورد في تلك الدراسات التوثيقية المختصة. والاطلاع على ما حوته الملاحظات التي عرضت لنفس الموضوع.

١- مستدرک نهج البلاغة، للهادي كاشف الغطاء (١):

يبدو أن مقولة محمد حسين آل كاشف الغطاء «عسى أن يوفق الله لأفراد كتاب يجمع أسانيد (نهج البلاغة) من كتب الفريقين، فإني أحس بشدة الحاجة إلى ذلك» (٢)، قد بعثت عملية التوثيق في العصر الحديث، وذلك لمواجهة

أ- الكافي - أصوله - وفروعه لأبي جعفر محمد بن يعقوب الكليني (ت ٣٢٩ هـ).

ب- من لا يحضره الفقيه - لأبي جعفر بن علي بن بابويه القمي، الملقب بالصدوق (ت ٣٨١).

ج- تهذيب الأحكام - لأبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠).

د- الاستبصار في أحاديث الأحكام - للطوسي أيضاً.

(١) صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب - على ما اعتقد - سنة ١٩٣٥م / ١٣٥٤هـ بالنجف

واعتمدنا في دراستنا على الطبعة الثالثة.

(٢) محمد حسين آل كاشف الغطاء - المراجعات الريحانية ١١٢/٢ بواسطة عبد الزهراء الحسيني -

حملات التشكيك المتزايدة، مما حدا بالهادي كاشف الغطاء إلى القيام - بما يمكن اعتباره - المحاولة الأولى لتوثيق النهج في هذا العصر. مع ملاحظة أن توثيق نصوص النهج لم يكن الموضوع الرئيسي في الكتاب، فالعنوان (مستدرك نهج البلاغة) وهذا يعني أن المؤلف يهدف أولاً وقبل كل شيء إلى استدراك ما فات الرضي من أقوال أثرت عن الإمام علي (عليه السلام)؛ يقول في مقدمة الكتاب «كنت فيما سلف من غابر الأيام عازماً على جمع ما تيسر لي مما لم يروه السيد في نهجه من المختار من كلام أمير المؤمنين»^(١)، وهذا - بطبيعة الحال - ما جعله يقتفي أثر الشريف الرضي في تنسيق نصوصه، فمستدركه «يدور على أقطاب ثلاثة: (أولها) الخطب والأوامر (ثانيها) الكتب والوصايا (ثالثها) الحكم والآداب»^(٢). لذا لم يستوعب التوثيق سوى اربعاً وسبعين صفحة من صفحات الكتاب المتئين والاثنين والستين. ومعظم صفحات التوثيق تلك كانت للرد على ما أثير حول النصوص من تشكيك.

أما من حيث ذكر المصادر فلم يتمكن المؤلف من توثيق سوى:

ثمانين نصاً من مئتين وأربعة وأربعين نصاً في باب الخطب.

ثمانية وعشرين نصاً من تسعة وسبعين نصاً في باب الرسائل والعهود.

أربع وأربعين حكمة من مجموع أربعمئة وتسع وثمانين.

وبطبيعة الحال فإن ذلك العمل الضئيل بالنسبة لما ورد في النهج لا يعتبر توثيقاً بالمعنى الدقيق لكلمة توثيق لأنه «غير واف بتمام الغرض ولا قاطع من

مصادر نهج البلاغة ١/ ٧.

(١) الهادي كاشف الغطاء - مستدرك النهج، ص ٦، ٨.

(٢) الهادي كاشف الغطاء - مستدرك النهج، ص ٦، ٨.

لسان الخصم»^(١). ولقد وعدنا المؤلف بإتمام عملة ولكن المنية حالت بينه وبين ذلك. وأهم ما يؤخذ على توثيقه بالإضافة إلى ضآلته:

١- ذكر مصدر النص وسكوته عن الصفحة والجزء، علماً بأن بعض نصوصه مصدرها تاريخ الطبري أو كامل ابن الأثير.

٢- لم يذكر الطبقات التي استخدمها في توثيقه وتاريخ صدورهما، كما انه لم يذكر في خاتمة الكتاب ثبناً بمصادره.

٣- لم يرتب مصادر النصوص ترتيباً تاريخياً في نهاية كل نص وثقه.

٤- لم يشر أثناء التوثيق إلى الاختلاف في رواية النص بين النهج والمصدر الموثق منه وأيهما السابق تاريخياً.

إلا أن أهم ما يحتسب للمؤلف في هذا المجال تعبيده الطريق لمن اقتفى أثره وسار على نهجه.

٢- منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة - لمرزا حبيب الله الخوئي^(٢):

سنقصر دراستنا في هذا الموضوع على الجانب التوثيقي من الكتاب مرجئين التعرض لمادته إلى حين دراستنا الجوانب الفكرية بحسب المواضيع المناسبة لذلك أثناء الدراسة. فقد حاول المؤلف أن يوثق الكثير من نصوص النهج، خاصة المتعلق منها بالجوانب التاريخية، معتمداً في ذلك على المصادر، إما بالوساطة كسابقه الهادي كاشف الغطاء، وذلك بالتعويل على مصادر ابن أبي

(١) مستدرک النهج السابق، ص ٢٥٩.

(٢) يعتبر هذا الشرح من أكبر شروح النهج في العصر الحديث إذا بلغ واحداً وعشرين جزءاً ولو ان مؤلفه الخوئي اتمه لصار أكبر من ذلك. صدرت طبعته الأولى من إيران ١٣٧٨ - ١٩٥٨، واعد تصوير الطبعة في بيروت باصدار مؤسسة الوفاء ١٩٨٣ واعتمدنا على طبعته المصورة.

الحديد وميثم البحراني، أو بالرجوع إلى المصادر دون ذكر أرقام الصفحات أو الأجزاء التي رجع إليها في عملية التوثيق.

والشيء المميز لعملية التوثيق في الكتاب، ذكر النص بتمامه بعد ذكر مصادره مع تبيان الاختلاف والاتفاق بين رواية المصدر وبين رواية (نهج البلاغة)، إضافة إلى تنبيهه للنقص في النص بعد اجتزاء الرضي منه شاهده، بإيراده من مصدره كاملاً تحت فصل في الكتاب بعنوان (تكملة).

وأهم ما يؤخذ على عملية التوثيق في الكتاب:

١ - اعتماده على مراجع وثقت النصوص من مصادر ليست مفقودة، فكان الأحرى به الرجوع في توثيقه إلى تلك المصادر مباشرة.

٢ - عدم الالتزام بالترتيب التاريخي للمصادر التي يوثق منها نصوصه.

٣ - الاضراب عن ذكر الأجزاء والصفحات أثناء التوثيق، أما اجمالي ما وثقه من نصوص النهج فهو:

١- إثنان وثمانون نصاً من باب الخطب.

٢ - ستة وعشرون نصاً من باب الرسائل والعهود.

٣ - لم يوثق شيء في باب الحكم والمواعظ بسبب وفاة الشارح قبل اتمام الكتاب^(١).

ولكن رغم ما أخذنا على الكتاب في مجال التوثيق إلا أننا نحد عذراً للمؤلفه الذي قصد به الشرح لا التوثيق الذي يمكننا اعتباره جهداً مشكوراً على طريق تكامل التوثيق.

(١) توقف شرح المؤلف عند النص رقم ٢٢٨ من الجدولة - راجع ٩/١٥ واتم الشرح من بعده

الحسن بن عبد الله الطبري الآملي - راجع ٧/١٥ من الشرح نفسه.

٣ استناد نهج البلاغة لامتياز عليخان العرشي (١)

مؤلف هذا الكتاب أحد علماء السنة الهنود، فمن بعض الإشارات الخاطفة في الكتاب من استخدام المؤلف عبارة (كرم الله وجهه) للإمام علي عليه السلام بدلاً من عبارة عليه السلام التي يستخدمها في الغالب الشيعة فلقد حاول مقدم الكتاب وناشره - وهو شيعي - استبدال العبارة الثانية بالأولى في الكتاب، إلا أن السهو، وتردد اسم الإمام علي عليه السلام في معظم الصفحات حالاً دون ذلك (٢).

يقع هذا الكتاب في ثمان وسبعين صفحة من الحجم العادي، وينقسم على قسمين احتوى القسم الأول على شبهات المشككين في النهج والرد عليها، واختص القسم الثاني بتوثيق النهج وفي هذا المجال تمكن مؤلفه من توثيق:

١- مئة وخمسة نصوص من باب الخطب.

٢- سبعة وثلاثين نصاً من باب العهود والرسائل.

٣- سبع وسبعين حكمة من باب الحكم والكلمات القصيرة.

والملاحظة التي يجدر الانتباه إليها هنا: أن التوثيق في باب الحكم مازال

(١) أُلّف هذا الكتاب باللغة الانجليزية ثم صدرت ترجمته بالعربية بقلم عامر الأنصاري سنة ١٣٥٩ - ١٩٧٨، عن المطبعة العلمية بقم، إلا أنني أعتقد أن هذا الكتاب كان معروفاً في الأوساط العلمية قبل ذلك بسنوات، لأن صاحب كتاب (مصادر نهج البلاغة وأسائده) عبد الزهراء الحسيني قد اعتمده من ضمن مراجع كتابه الذي صدرت طبعته الأولى سنة ١٩٦٨.

(٢) راجع على سبيل المثال ص ١٣ من الكتاب، كما ورد في المقدمة ما يشير إلى ذلك في قوله «كتاب نهج البلاغة... وهو يحتوي على نخبة من خطب سيدنا علي بن أبي طالب عليه السلام ورسائله حكمه، ومما يضاعف أهمية الكتاب، أن علي بن أبي طالب عليه السلام كان على بلاغته المتكررة، أحد الخلفاء الراشدين، أو إماماً معصوماً عند طائفة من المسلمين» استناد نهج لبلاغه ١١٢.

ضئلاً بالنسبة لما اختاره الشريف الرضي لعلي عليه السلام في هذا الباب، ولكن يمكننا اعتبار ذلك خطوة تخصصية مهمة على طريق توثيق النهج وتبديد ما دار حول نصوصه من شبهات، خاصة أن المؤلف أول من ذكر الجزء والصفحة من بين أولئك الذين سبقوه ممن حاولوا توثيق النهج، كما أنه استخدم بعض المخطوطات^(١)، واستعان في مواضع كثيرة بتوثيق ابن أبي الحديد، أما أهم ما يؤخذ على توثيقه فعدم الالتزام بالترتيب التاريخي في ذكر مصادره، خاصة وان لذلك أهمية كبيرة في عملية التوثيق، فجهدته بقي محتاجاً إلى من يتمه، وهذا بالفعل ما قام به صاحب كتاب (مصادر نهج البلاغة واسانيده).

٤- مصادر نهج البلاغة - لعبد الزهراء الحسيني (٢)

صدر الكتاب في أربعة مجلدات، عرف المؤلف في مقدمته مقصوده من (المصادر) التي سيعتمدها في دراسته التوثيقية فقد ينقل «من مصدر لم يره الشريف الرضي ولم يسمع بذكره ولكن المقصود: أن الكلام من محتويات النهج»^(٣)، وهو ما فعله سابقوه وإن لم ينصوا على ذلك، لأن البحث في مصادر الشريف الرضي يعد ضرباً من المستحيل بعد أن أصاب المكتبة العربية جراء فتن بغداد وحملات التتار والصليبيين من كوارث، وما حدث للفكر الشيعي من محاربة على أيدي الأيوبيين والمماليك في كل من مصر والشام والعراق^(٤).

(١) راجع على سبيل المثال الكتاب ص ١١، ١٨، ١٩، ٣٣.....

(٢) صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب عام ١٩٦٨ ببغداد واعتمدنا في دراستنا الطبعة الثانية ١٩٧٥.

(٣) مصادر نهج البلاغة واسانيده ١٩/١.

(٤) لقد عرضنا لذلك في ص ٢٧ وما بعدها من هذا البحث

هذا وقد قسم الحسيني دراسته التوثيقية تلك إلى ستة فصول:

١- محور هذا الفصل دراسة في (مصادر نهج البلاغة)، ذكر فيه المؤلف أقسام المصادر التي اعتمدها في تحقيق نسبة ما في (نهج البلاغة) من نصوص إلى الإمام علي عليه السلام وقسم تلك المصادر إلى أربعة أقسام^(١)

- الأول: مصادر الفت قبل سنة (٤٠٠هـ) وهي سنة جمع نصوص (نهج البلاغة) وقد نقل عنها المؤلف مباشرة.

- الثاني: مصادر الفت قبل صدور (النهج) ولكن المؤلف نقل عنها بالوساطة لضياعتها.

- الثالث: كتب صدرت بعد وفاة الرضي ولكنها روت كلام علي عليه السلام المروي في (نهج البلاغة) بإسناد متصل، ولم تمر في طريقها على الرضي ولا على كتابه.

- الرابع: كتب صدرت بعد الرضي أيضاً ولكنها روت كلام الإمام علي عليه السلام بصورة تختلف عما في (النهج) ولم تشر إليه من قريب أو من بعيد.

٢- خصص هذا الفصل لتعريف (نهج البلاغة) وما قيل فيه من مدح وتقريظ قديماً وحديثاً^(٢).

٣- عرض في هذا الفصل لما اثير حول (نهج البلاغة) من شكوك وحاول تنفيذها^(٣).

٤- أطلق المؤلف على هذا الفصل اسم (مكتبة نهج البلاغة) ذكر ضمنه فضل (النهج) على المكتبة العربية، بما أمدتها به من شروح ودراسات منذ تأليفه

(١) راجع مصادر نهج البلاغة واسانيده ١/ ٢٩-٨٨.

(٢) السابق ١/ ٨٩-٩٩.

(٣) السابق ١/ ١٠٠-٢٠١.

في القرن الرابع الهجري حتى العصر الحديث، كما ذكر ضمن ذلك الفصل الكتب التي ألفت حول النهج في اللغات الأخرى (١).

٥ - خصص المؤلف صفحات هذا الفصل لدراسة حياة الشريف الرضي، جامع (نهج البلاغة) (٢).

٦ - شرع عبد الزهراء في هذا الفصل في توثيق (النهج) معتمداً ترتيب الشريف الرضي، إلا أن ما يميز دراسته التوثيقية عن دراسة سابقه العرشي: أنه ذكر نصوص (نهج البلاغة) متكاملة بينما اكتفى سابقه بذكر النص، أو بجزء منه تمكن من توثيقه كما أن أهم ما يميز هذه الدراسة توثيقها لجل نصوص (نهج البلاغة):

- ١- فمن باب الخطب تمكنت من توثيق مئتين وثلاثين نصاً
- ٢- ومن باب المختار من الرسائل والوصايا وثق فيها ثلاثة وسبعون نصاً.
- ٣- ومن باب المختار من الحكم والمواعظ وثق أربعمئة وخمسة وسبعون حكمة وعبارة قصيرة.

وقد تميز التوثيق في مصادر نهج البلاغة وأسانيده بالخصائص التالية:

١. الدقة في تتبع نصوص النهج في المصادر التي أثرت على المؤلفين السُنَّة والشيعية إذ لم يعول المؤلف في توثيقه على كتب الشيعة فقط خاصة في النصوص التي حامت الشبهات حول نسبتها، كما أنه أعطى أهمية لمصادر السنة أكثر من اهتمامه برواية الشيعة، ووصلت الدقة بالمؤلف إلى توثيق بعض الفقرات أو حتى الجمل التي وردت في نصوص طويلة، وقد استلزم منه ذلك

(١) السابق / ١ - ٢٠٢ - ٢٧٣ وقد اعتمد في هذا الفصل على موسوعة الذريعة إلى تصانيف الشيعة.

(٢) السابق / ١ - ٢٧٤ - ٢٧٩.

استخدام أكثر من مصدر لتوثيق فقرة قصيرة في بعض الأحيان.

٢. المقارنة بين نصوص النهج وبين مثيلاتها في المصادر الأخرى وتبيان الاختلاف في الروايات، خاصة في حالة تعذر الحصول على مصدر أقدم من النهج للتوثيق منه (١).

٣. التزام الترتيب التاريخي في سرد المصادر، وقلما أخل المؤلف بذلك (٢).

٤. النصّ على ذكر الأجزاء وأرقام صفحات المصادر التي وثق منها، واقتضت الأمانة العلمية من المؤلف أن يذكر المصادر التي وثق منها بالوساطة مع النص على المصدر أو المرجع الذي استعان به في ذلك.

٥. ذكر أسانيد النصوص التي أمكن الحصول عليها مع تذييل الصفحات بترجمات قصيرة لرجال السند كلما دعت الضرورة (٣).

٦. أعاد ما اجتزأه الرضي من فقرات وعبارات قصيرة إلى نصوصها الأصلية كلما واتته الفرصة لذلك، كما اجتهد في جمع شتات بعض الخطب التي نثرها الرضي في أنحاء متفرقة من كتابه، وقد اعتمد في ذلك على ملاحظات ابن أبي الحديد وميثم البحراني والخوئي بالإضافة إلى مجهوداته. كما لم يفته أن يذكر

(١) راجع على سبيل المثال النص رقم ٩٣ الوارد عنده في ١٨٢/٢ وما بعدها ولإدراك دقته في

المقارنة بين الروايات راجع على سبيل المثال رقم ١٠٨ من باب الخطب ٢/٢٢٧ وما بعدها.

(٢) التزام الموثق بالترتيب التاريخي يكاد يكون الشائع عنده، راجع نص رقم ٢٥ من باب الخطب

١/٣٧٨، العهد رقم ٢٧ من باب الرسائل ٣/٢٦ وما بعدها، العبارة رقم ٣٠٢ من باب الحكم

٤/٢٣٣.

(٣) راجع على سبيل المثال تعليقاته على رواية النص ١٧ من باب الخطب ١/٣٥٧ وما بعدها.

مناسبة النص وتاريخ قوله إذا مكنته مصادره من ذلك^(١). إلا أن ذلك العمل الكبير لم يخل من بعض المآخذ منها:

أ - إرجاء توثيق النصوص المتقدمة وذكر مصادرها أثناء توثيقه لنصوص متأخرة في النهج^(٢) لارتباط كثير من النصوص بعضها ببعض ارتباطاً عضوياً، إذ كان من الأفضل منهجياً أن يذكر المؤلف المصادر أثناء استعراضه للنصوص المتقدمة، ثم يحيل القارئ على تلك المصادر في النصوص المتأخرة، ولكن المؤلف فعل العكس في مواضع كثيرة من كتابه مما أدى إلى إرباك الباحث أثناء بحثه عن مصادر بعض النصوص، وقد وقع ذلك بالخصوص أثناء عرضه لبعض النصوص في باب الخطب والإحالة على مصادرها في باب الحكم، إذ كان الأولى به منهجياً أن يذكر المصادر في الاصل وهي الخطب ثم يحيل عليها في الفرع وهي الحكم التي تعد جزءاً من تلك الخطب.

ب - تعسف توثيق النصوص^(٣) التي لم يجد مصدرها وذلك بإيراد عبارات حولها ذكرها ابن أبي الحديد أو غيره من الشراح أثناء شرحهم وتعليقهم على تلك النصوص مع أن مثل تلك التعليقات والعبارات لا تمت - في اعتقادنا - إلى التوثيق بأية صلة.

(١) لاحظ على سبيل المثال تعليقه على النص رقم ١٨ وعلاقته بالنص رقم ١٧ من باب الخطب ٣٦٢/١ وما بعدها.

(٢) مثال على ذلك ما قاله عند توثيقه النص رقم ١٠٥ من باب الخطب «سيأتي الكلام على مصادر هذه الخطبة - بحول الله وقوته - في الحكمة المرقمة ٢٧٤ (٤/٢١٤) وسنعرف هناك ان هذه الخطبة والكلمات القصار ٣١، ٣٢، ٢٧٤، ٢٧٦، (٤/٢٧، ٢٩، ٢١٤، ٢١٦) من خطبة واحدة في مقام واحد - ٢/٢١٧، وراجع أيضاً نص ١٤٩ خطب ٢/٣٣٤».

(٣) راجع على سبيل المثال استنتاجه لتوثيق النص رقم ٩٤ من باب الخطب ٢/١٨٦.

ج - يحاول المؤلف إيهام قارئه بأنه سيذكر مصادر النصوص التي لم يتمكن من توثيقها في خاتمة كتابه^(١) مع أن تلك الخاتمة لا تتعدى أن تكون مجرد اعتذار وشكر واعتراف بفضل من اقتبس منهم.

د - قد لا يذكر المؤلف أجزاء المصادر وصفحاتها أثناء توثيقه لبعض النصوص^(٢) وإن كان ذلك نادراً بالإضافة إلى الاضطراب في إحالته من نص إلى نص آخر ضمن الكتاب

هـ - عدم ذكره المصادر مباشرة أثناء توثيقه لبعض النصوص^(٣).

وذلك بسبب السرد الطويل الممل الذي لا علاقة له بالتوثيق مما يضيع وقت الباحث في طلب بغيته، خاصة وإن المؤلف لم يلتزم منهجاً محدداً وخطة معينة في إيراد المصادر^(٤)، فتارة يسردها مرقمة بعد النص مباشرة، وتارة أخرى يذكرها في ثنايا الفقرات وهو يعلق على النص، أضف إلى ذلك إشارته السريعة إلى أسماء تلك المصادر باختصارها أو بالاختصار على ذكر مؤلفيها.

(١) «الكلام على هذا الفصل في كلمة الختام» تلك العبارة استخدامها عند تعذر عثوره على مصدر للنص الذي يريد توثيقه كما في ٣٦٥/٢، ٧٢/٣، ١١٨، ولم يشر إلى شيء من ذلك في كلمة الختام تلك.

(٢) مثال ذلك استطراده الطويل أثناء توثيقه نص رقم ٣ من باب الخطب ١/٣٠٩ - ٣٢٤ وتعليقه الطويل على النص رقم ٥ باب الخطب وكيفية ذكره المصادر بإطناب لا داعي له ١/٣٢٩ وايضاً ١/٣٤٤ - ٣٤٨ أثناء توثيق النص رقم ١٣ باب الخطب.

(٣) يراجع السابق.

(٤) لاحظ طريقتيه في توثيق النص رقم ٢٢٥ من باب الخطب ٣/١٧٠، ولاحظ توثيقه للنص رقم ٦ من باب الرسائل فإنه سرد مصادره بعد استطراد طويل وكان الأولى به أن يذكر المصادر أولاً كما يفعل أثناء توثيقه لمعظم النصوص.

لكن كل ذلك لا يغضى من جهده العظيم في توثيق ذلك الكم الهائل من نصوص (نهج البلاغة) بالرجوع إلى مئات المصادر، مما جعل من اتى بعده من الموثقين عالية عليه لأنهم لم يقدموا جديداً في ذلك المجال بل وقصروا عن الوصول لما وصل إليه كعبد الله نعمة.

٥- مصادر نهج البلاغة - لعبد الله نعمة (١)

يقع هذا الكتاب في ثلاثمة واربع وثلاثين صفحة من الحجم العادي وينقسم على قسمين: اختص القسم الأول بالحديث عن نهج البلاغة وما أثير حوله من اقوال، ثم تفنيدها فيما يقرب من مئة وثمان وعشرين صفحة، اما القسم الثاني فقد اختص بالتوثيق وقسمه المؤلف إلى ثلاثة فصول: ذكر في الفصل الأول مصادر ما عقده الشريف الرضي للمختار من خطب الإمام علي عليه السلام وذكر في الفصل الثاني مصادر ما اختاره الرضي من رسائل علي عليه السلام ووصاياه، اما الفصل الثالث فقد جعله لذكر مصادر الحكم والكلمات القصار.

يرى المؤلف أنه بكتابه ذاك قد سد «فجوات عديدة، كانت تنفذ من خلالها اتهامات أولئك المتهمين، وشكوك أولئك الشاكين، من أدباء وعلماء، ومؤرخين، وأن يجد فيه هؤلاء خيوطاً من ضياء تبدد كثيراً من تهمهم وشكوكهم. وذلك حين يجدون فيه حوالي (١٨٠) خطبة وموعظة من أصل (٢٤٢)، وحوالي (٦٠) كتاباً ورسالة ووصية من أصل (٧٨) وحوالي (٢٠٠) كلمة من الحكم والأمثال وما إليها من أصل (٤٩٨) كلمة، قد أرجعتها إلى أصولها وربطتها

(١) طبع هذا الكتاب على مطابع دار الهدى بيروت ١٩٧٢ وبالرجوع إلى ثبت المصادر والمراجع في نهايته نرى أن من بين تلك المراجع كتاب (مصادر نهج البلاغة وأسانيده) لعبد الزهراء الحسيني، مما يؤكد أنه قد ألف بعده.

بمصادرها» (١).

وعلى هذا فإن المؤلف لم يستطع أن يقدم لنا في مجال توثيق (نهج البلاغة)، أكثر مما قدمه سابقه، الذي استطاع أن يوثق (نهج البلاغة)، فيما عدا بضع خطب ورسائل وحكم، بالإضافة إلى ذلك فإن مصادره هي مصادر سابقة باختلاف في الصفحات لا اختلاف في الطباعات. ونجد بنظرة سريعة في ثبوت المصادر والمراجع عند كلا المؤلفين أن مصادر نعمة ومراجعها لا تتعدى المئة والخمسة، بينما بلغت المصادر والمراجع التي اعتمد سابقه عليها مئتين وخمسة وثمانين مصدراً، لذا فإنه لمن نافلة القول المقارنه بين توثيق النصوص عند كليهما، بالإضافة إلى عدم التزام الثاني بالترتيب التاريخي في سرده للمصادر أثناء التوثيق، مما ارجعنا القهقري بعد ان كدنا نبليغ بالتوثيق غايته، وحبذا لو بدا المؤلف من حيث انتهى سابقه بإكمال التوثيق، وحسبه في ذلك عناء خدمة للنهج. وبناء على ما سبق يمكن اجمال عملية التوثيق من خلال الكتب المتخصصة الثلاثة الأخيرة في الجدول التالي:

المادة	الخطب والأوامر	الكتب والوصايا	الحكم والمواعظ
عدد نصوص كل باب من أبواب (نهج البلاغة)	٢٤٤	٧٩	٤٨٩
عدد النصوص التي وثقها العرشي من كل باب في النهج	١٥٠	٣٧	٧٧
عدد النصوص التي وثقها الحسيني في كل باب في النهج	٢٣٠	٧٣	٤٧٥

٢٠٠	٦٠	١٨٠	عدد النصوص التي وثقها عبد الله نعمة من كل باب في النهج
-----	----	-----	---

بالإضافة إلى ما سبق توجد إشارات لكثير من الدارسين المحدثين الذين تناولوا (نهج البلاغة) بالشرح والتحليل، تكاد تكون بمثابة الدليل على صحة نسبة نصوصه لعلي عليه السلام فالشيخ محمد عبده في تقديمه للكتاب وبعد تبيانه لما حواه من أساليب تتناسب وموضوعاتها من حيث المباني والمعاني يقول «ذلك الكتاب الجليل هو جملة ما اختاره الشريف الرضي رحمه الله من كلام سيدنا ومولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام»^(١).

كما أنه لم يشر إلى الشك في النهج ضمن تلك المقدمة، وسكوته عن ذلك ثم شرحه لنصوص الكتاب والتعليق عليها بحواشٍ طويلة، يدل على ترجيح اقتناعه بصحة نسبة تلك النصوص لعلي عليه السلام.

أما زكي مبارك فيرى أن الشك في نصوص (نهج البلاغة) ومحاوله نسبتها إلى علماء الشيعة لا سيتند إلى دليل علمي، علاوة على ذلك فإن تلك النسبة تجعل من أولئك العلماء عباقرة في اللغة، لمقدرتهم الفائقة على صوغ مثل تلك الأساليب البيانية الرفيعة لذلك فإنه يرى أن «الذين نسبوا نهج البلاغة إلى الرضي يحتجون بأنه وضعه لأغراض شيعية، فلم لا نقول من جانبنا بأن تهمة الوضع جاءت لتأييد خصوم الحملات الشيعية»^(٢).

ويقف الشيخ صبحي الصالح رحمه الله وقفه طويلة مع (نهج البلاغة) تتلخص في تحقيقه وفهرسته، فهرسة تكاد تكون مكتملة، ويقينه بصحة نسبه

(١) مقدمة محمد عبده لشرح النهج ١/١٠، طبعة الأندلس.

(٢) الشر الفني ١/٨١.

نصوص النهج لعلي عليه السلام هو الذي دعاه إلى القيام بذلك المجهود الكبير، وفي محاولته لدحض جانب من جوانب الشك في النهج يقول «قد اشتمل كلامه على أوصاف عجيبة لبعض المخلوقات، حملت روعتها ودقة تصويرها بعض النقاد على الارتباب في عزوها إلى أمير المؤمنين، كما في تصويره البارع للنملة والجرادة ولا سيما للطاووس. ولا بد من تحقيق هذا الأمر في غير هذه المقدمة العجلى، وهو ما نسأل الله التوفيق لبيانه في كتاب مستقل اكتملت بين أيدينا معالمه، وسنصدره قريباً بعون الله»^(١). ولو كان لديه أدنى شك في نسبة تلك النصوص لبينه، ولما حول معالجتها في كتاب منفرد - لم يصدر حتى الآن - بعد أن عرض لها في فهرسته.

ذلك ما تمكنا من تتبعه من دراسات توثيقية للنهج، ونعتقد أن فيها من الدلالات القوية على صحة نسبة كل ما ورد فيه من نصوص لعلي عليه السلام، ولقد حاولنا من جانبنا - وبالاستعانة بدراسات من سبقنا - عمل جدولة بجميع نصوص النهج تمكن الباحث من الحصول على أي نص في أية طبعة من طبعاته وذلك من خلال ما تيسر لنا من طبعات مشهورة منع محاولة توثيق كل نص من تلك النصوص من مصدر يمكن الباحث من المقارنة بين روايته وبين رواية النهج^(٢) لذلك النص، ومن خلال ذلك كله يمكننا اعتبار توثيق نصوص نهج البلاغة قضية مفروغاً منها، بحيث تبدو المطاعن الأخرى مصطنعة، الهدف منها النيل من قيمته الفكرية، لذلك لا بد من مناقشتها.

(١) مقدمة تحقيق صبحي الصالح لنهج البلاغة ص ١٢.

(٢) راجع جدولة النهج في نهاية هذه الدراسة.

٢- التعريض بصحابة رسول الله ﷺ في بعض من نصوصه^(١):

تنحصر مشكلة ما سمي بالتعريض بصحابة رسول الله ﷺ فيما اثارته الخطبة المسماة (الشقشقية)^(٢) من قضايا خطيرة تتعلق بالولاية والإمامة، إذ يمكن اعتبار تلك الخطبة من أهم النصوص المشكوك في نسبتها إلى الإمام علي عليه السلام، ولقد فند ذلك الزعم كثير من الدارسين للنهج، فالراوندي وثق تلك الخطبة بسند متصل بعبد الله بن عباس الذي تعزى إليه الرواية^(٣)، ثم ان ابن أبي الحديد قد أفرد فصلاً كاملاً في شرحه للحديث عن تلك الخطبة والمصادر التي حفظتها قبل الرضي^(٤)، ونص ميشم البحراني في شرحه على أنه لم يقبلها ضمن نصوص النهج الا بعد تأكده من نسبتها إلى علي عليه السلام دونما أي شك^(٥)، ولو انصف الدارس لتاريخ علي عليه السلام وعصره لما شك في نسبتها إليه فهي «خير مثال يصور لنا نفس علي عليه السلام الشاكية»^(٦). وما ورد في تلك الخطبة من شكوى مرة هو

(١) قال بذلك الذهبي (ت ٧٤٨) في ميزان الاعتدال ٣/ ١٢٤ وفي سير أعلام النبلاء ١٧ / ٥٨٩، وابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢) في لسان الميزان ٤ / ٢٢٣، والحوفي في بلاغة الإمام علي عليه السلام ص ١٢١، وأحمد حسن الباقوري في علي إمام الأئمة ص ٧٠.

(٢) النص رقم (٣) في باب الخطب دارت حوله دراسات كثيرة تحدث عنها بالتفصيل محمد رضا الحكيمي في كتابه (شرح الخطبة الشقشقية) وسميت بالشقشقية لقول الإمام علي عليه السلام لابن عباس في نهايتها (تلك شقشقة هدرت ثم قرت) والشقشقة وشقشق الفحل شقشقة: هدر - لسان العرب المحيط ٢/ ٣٤٣.

(٣) راجع منهاج البراعة ١ / ١٣١ وما بعدها.

(٤) شرح نهج البلاغة ١ / ٢٠٥ وما بعدها.

(٥) شرح نهج البلاغة لميشم ١ / ٢٥١ وما بعدها.

(٦) صبحي الصالح: مقدمة تحقيق نهج البلاغة ص ١٠.

٦٠ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

ما اعتبره المشككون (تعريضا)، ويرجع ذلك إلى أحكام مسبقة، مصدرها عدم تجرد بعض الباحثين من ترسبات الماضي أثناء دراسة الحوادث التاريخية مما أدى بهم إلى عدم التفريق بين التعريض والنقد.

فالتعريض لغة خلاف التصريح وهو «التورية بالشيء عن الشيء، وفي المثل وهو حديث مخرج عن عمران بن حصين، مرفوع: أن في المعارض مندوحة عن الكذب - أي سعة»^(١).

ويفهم من ذلك أنه نوع من الكذب المغلف المستساغ وليس أدل على ذلك من قول عمر بن الخطاب «أما في المعارض ما يغني المسلم عن الكذب»^(٢). ولو حاولنا تطبيق معنى التعريض على ما ورد في (نهج البلاغة) من اقوال في بعض الصحابة، سنجد أن معاني تلك الاقوال من الوضوح والصراحة ما ليس في حاجة إلى تورية أو تزوير، فإتسامها بالوضوح ينأى بها عن التعريض، كما يبعتها عن الشتم، فمما لا يتناسب ومنزلة علي بن أبي طالب عليه السلام قول عبد الزهراء الحسيني «ليتني أدري لماذا يمتنع على علي عليه السلام شتم خصومه وأعدائه الذين شتموه ونكثوا بيعته، وبغوا عليه وتألّبوا لقتاله؟ وأي إنكار على (نهج البلاغة) إذا نقل فيه شيء من ذلك»^(٣)، لأن مقولة الإمام «مَنْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلنَّاسِ إِمَامًا فَلْيَبْدَأْ بِتَعْلِيمِ نَفْسِهِ قَبْلَ تَعْلِيمِ غَيْرِهِ، وَلْيَكُنْ تَأْدِيبُهُ بِسِيرَتِهِ قَبْلَ تَأْدِيبِهِ بِلِسَانِهِ»، هي إحدى دعائم شخصيته الفذة في التعامل مع من حوله من الناس، فإذا كان هو لا يلتزم بتلك المقولة فكيف يسوغ له

(١) ابن منظور - لسان العرب المحيط ٧٤٣/٢، الزبيدي - تاج العروس ٤١٢/١٨.

(٢) ابن منظور، السابق ٣٤٤/٢.

(٣) مصادر نهج البلاغة واسبابه ١١٨/١.

أن يقول لأصحابه الذين سمعهم يسبون أعداءه من أهل الشام «إِيَّيْكُمْ أَنْ تَكُونُوا سَبَّائِينَ، وَلَكِنَّكُمْ لَوْ وَصَفْتُمْ أَعْمَالَهُمْ وَذَكَرْتُمْ حَالَهُمْ كَانَ أَصَوَّبَ فِي الْقَوْلِ وَابْلَغَ فِي الْعُذْرِ»^(١). وما نصح به اتباعه وشيعته من أهل الكوفة، هو ذاته ما قاله في الصحابة وهو ما لا يمكن تسميته بالتعريض أو الشتم، لأن وصف الأعمال على حقيقتها وإظهار أوجه الحسن والقبح فيها هو ما يسمى بالنقد البناء، وهو ما كان علي عليه السلام يعمل به ويدعو أصحابه إلى العمل به أيضاً. فالنقد كتعبير عن الفكر الحر ظاهرة ليست جديدة أو مبتدعة في الفكر الإسلامي، إذ إنها ولدت بمولد رسالة الإسلام، فعمربن الخطاب ينتقد تصرف الرسول ﷺ في تنازله لقريش في صلح الحديبية^(٢)، ويعارض طلب الرسول الدواة والكتف حين وفاته ﷺ^(٣)، ومهما تأولنا ذلك وجعلنا له مخرج، فإنه نقد لتصرفات الرسول ﷺ الذي ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾^(٤)، فقد بلغ ذلك النقد في بعض الأحيان حد الصلابة من ذلك قول الخويرة لرسول الله ﷺ «يا محمد، قد رأيت ما صنعت في هذا اليوم فقال رسول الله ﷺ أجل، فكيف رأيت، فقال: لم أرك عدلت»^(٥). كما كان الصحابة أنفسهم ينتقدون بعضهم البعض، وليس أدل على ذلك من قول الخليفة الثاني في الستة الذين رشحهم لإمامة المسلمين^(٦)، ولو كان يقصد بذلك تجريحهم أو

(١) الجدولة - خطبة رقم ٢٠٠.

(٢) راجع موقف عمر بن الخطاب من صلح الحديبية - تاريخ الطبري ٢/٦٣٤ وما بعدها.

(٣) راجع ما أورده ابن سعد في ذلك الشأن - الطبقات الكبرى ٢/٢٤٣ - ٢٤٤.

(٤) النجم/٣.

(٥) ابن هشام - ٤/١٣٨.

(٦) في حوار دار بين عمر بن الخطاب وعبد الله بن عباس فيمن يستخلفه عمر لإمامة الناس من بعده

قال ابن عباس «قللت له: أين أنت عن عبد الرحمن بن عوف؟ فقال ذلك رجل ممسك وهذا

الغض من مكانة احدهم لما رشحه لذلك المنصب الخطير، ويكفي دلالة على ذلك قوله في علي عليه السلام «لو وليهم تحملهم على منهج الطريق، فاخذ المحجة الواضحة، إلا أن فيه خصالاً: الدعابة في المجلس، واستبداد الرأي، والتبكيك للناس مع حداثة السن»^(١) وبسبب نقد كثير من الصحابة لسياسة عثمان فقد حظر عليهم حتى الكلام، وقد رأى القدماء ان ضربه لعبد الله بن مسعود^(٢) ولعمار بن ياسر^(٣)، ونفيه لابي ذر^(٤) الا بسبب ذلك. فالنقد مشروع في الإسلام، لذلك لا نستبعد ان ينتقد علي عليه السلام الصحابة، وما قاله في خشونة عمر قد سبقه إليه طلحة بن عبيد الله حين علم باستخلاف أبي بكر لعمر وذلك في قوله «استخلفت على الناس عمر، وقد رأيت ما يلقي الناس منه وانت معه؟ وكيف به إذا خلا بهم وانت لاق ربك»^(٥)، كما ان ما قاله علي عليه السلام في عثمان هو عين ما قاله عمر فيه^(٦).

الأمر لا يصلح الالمعط في غير سرف ومانع في غير اقتار. قال فقلت: سعد بن أبي وقاص؟ قال: مؤمن ضعيف، قال فقلت: طلحة بن عبيد الله؟ قال: ذلك رجل يناول الترف والمديح، يعطي ماله حتى يصل إلى مال غيره، وفيه بأو وكبر. قال فقلت: فالزبير بن العوام فهو فارس الإسلام؟ قال: ذلك يوم انسان ويوم شيطان، وعفة نفس، ان كان ليكادح على المكيمة من بكرة إلى الظهر حتى يفوته الصلاة. قال عثمان بن عفان؟ قال: ان ولي ابن أبي معيط وبني أمية على رقاب الناس وأعطاهم مال الله... تاريخ يعقوبي ١٥٨/٢.

(١) يعقوبي، السابق ١٥٨/٢، ١٧٠.

(٢) يعقوبي، السابق ١٥٨/٢، ١٧٠.

(٣) راجع - ابن عبد البر - الاستيعاب - بهامش الإصابة ٤٧٧/٢.

(٤) راجع يعقوبي، السابق ١٧١/٢.

(٥) ابن الأثير الكامل في التاريخ ٢/٢٩٢ ويمكن مقارنته بما جاء في الخطبة ٣ من وصف لعمر في النهج.

(٦) راجع الهامش رقم ٥ من هذا الصفحة مع مقارنة قول عمر في عثمان بما جاء في الخطبة رقم ٣ -

اما الشتم والتعريض فهو أسلوب أولئك الذين يحرصون على الحفاظ على مصالحهم الذاتية ولو أدى بهم ذلك إلى التضحية بقيم الإسلام وتعاليمه، وهو ما يصوره قول عمر بن عبد العزيز «كان أبي إذا خطب فنال من علي عليه السلام تلجلج فقلت: يا أبت إنك تمضي في خطبتك فإذا أتيت إلى ذكر علي عليه السلام عرفت منك تقصيراً، قال: أو فطنت لذلك، قلت: نعم، فقال: يا بني إن الذين حولنا لو يعلمون من علي عليه السلام ما نعلم تفرقوا عنا إلى أولاده»^(١).

ثم إن مشروعية نقد الرجال في الإسلام ولدت ما يسمى بعلم «الجرح والتعديل» فهل في ذلك من غضاضة من عدم الأخذ من أبي هريرة - وهو صحابي - «إلا ما كان من ذكر جنة أو نار»^(٢)، أو أن يقال عن فلان صادق وفلان متروك، وفلان مدلس ما دامت تلك الصفات صحيحة. وعليه فانا متى نظرنا إلى ما ورد في النهج عن الصحابة بنظرة الناقد النزوية، فسنجد أن ذلك يتناسب وواقع الفترة التي عاشها علي عليه السلام في جميع مراحل حياته وليس أدل على ذلك من قول عمر لابن عباس «والله يا بن عباس أن علياً ابن عمك لأحق الناس بها ولكن قريشاً لا تحتمله»^(٣). علاوة على ذلك فإن نقد الرجال في النهج وإن كان شديداً مؤملاً في بعض الأحيان، إلا أنه في أحيان أخرى يتسم باللين والرفق كما جاء في وصف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٤)، وكما ورد في النص الذي قرظ خلافة عمر في رأي ابن أبي الحديد وفي خلافة أبي بكر في رأي ميثم البحراني^(٥)، وكما ورد في نص

(١) ابن الاثير: الكامل ٤/ ١٥٤.

(٢) ابن أبي الحديد - شرح النهج ٤/ ٦٨.

(٣) اليعقوبي - السابق، ٢/ ١٥٩.

(٤) راجع نص رقم ٩٦ من باب الخطب الفقرة الخامسة بوصف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(٥) راجع نص ٢٢٥ باب الخطب وتفسيره عند كل من ابن أبي الحديد وميثم.

ثالث من مدح للأنصار^(١). وفي كلتا الحالتين الشدة واللين كان ذلك النقد ينطلق من موضوعية وصراحة لا مجاملة فيها ولا تعريض وذلك يجعلنا ننزل كلام الإمام علي عليه السلام الوارد في النهج المنزلة التي يعينها الإمام مع عدم تحميل الكلمات أبعاداً أخرى بفعل ترسبات كامنة في النفوس، وإذا ما فعلنا ذلك فسنجد الحقيقة واضحة جلية من خلال ما أسميناه تعريضاً وهو في الحقيقة نقد.

٣ - الطول المفرط في بعض الخطب والعهود بما لا يتناسب وادب صدر

الإسلام:

يجب أن يكون دارس الأدب موضعياً أثناء دراسته لأية فترة من فترات الأدب. والموضوعية تقتضي منه أن يدرس الملابس التي تحيط بالنصوص موضوع الدراسة بنظرة محايدة ثم يصدر فيما بعد أحكامه. فظاهرة الطول في الأدب نشراً كان أو شعراً لم تكن من اختراع الإمام علي عليه السلام، فلقد تميز الشعر الجاهلي - مع خطابيته - بذلك الطول، إذ بلغت معلقة امرئ القيس تسعين بيتاً^(٢) وبلغت معلقة طرفة ابن العبد مئة وعشرين بيتاً^(٣)، وبلغت معلقة لبيد تسعة وثمانين بيتاً^(٤)، كما يمكن اعتبار الحوار الذي دار بين عبد المطلب - ممثلاً لوفد قريش - وبين سيف بن ذي يزن من النصوص الطويلة^(٥)، كما أن

(١) راجع نص رقم ١١٧ من باب الخطب.

(٢) راجع أبا زيد القرشي - جمهرة اشعار العرب ١١٤، ٣٠٤، ٢٣٧.

(٣) راجع أبا زيد القرشي - جمهرة اشعار العرب ١١٤، ٣٠٤، ٢٣٧.

(٤) راجع أبا زيد القرشي - جمهرة اشعار العرب ١١٤، ٣٠٤، ٢٣٧.

(٥) راجع ابن عبد ربه - العقد الفريد ٢/ ٢٤، ٣١ وما بعدها. فإذا ما دخل الشك في خطب الجاهلية

تلك، فإن خطب وفود العرب بين يدي الرسول وكتاب صلح الحديبية يمكن اعتبارها من

النصوص الجاهلية.

خطب وفود العرب بين يدي الرسول ﷺ وما تخللها من مناقشات حول الدين الجديد، تعد من النصوص الطويلة نسبياً^(١).

ويعد الإطناب من خصائص القرآن الكريم، فإذا ما استثنينا السور الطويلة التي اشتملت على آيات الأحكام نجد بغيتنا في السور الطويلة ذات الموضوع الواحد كسورة يوسف وسورة الكهف.

والطول أيضاً من الظواهر التي تميزت بها بعض خطب الرسول ﷺ من ذلك ما روي «عن أبي زيد الأنصاري، قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح ثم صعد المنبر فخطبنا حتى حضرت العصر، ثم نزل وصلى العصر، فصعد المنبر فخطبنا حتى غابت الشمس، فحدثنا ما كان وما هو كائن فأعلمنا وأحفظنا»^(٢) ثم أن الكتاب الذي كتبه ﷺ بين المهاجرين والانصار ووادع فيه اليهود وعاهدهم، وهو أول عهد كتب في الإسلام^(٣)، فيند مقولة عدم تناسب الطول لخطابة صدر الإسلام وعهوده.

والمأمل في تلك النصوص التي أشرنا إليها يدرك أن الطول والقصر - سواء أكان ذلك في الكتابة أم في الخطابة - تفرضه المناسبة والحاجة، فالوضع القائم أثناء ذلك هو العنصر الأساسي الذي يحدد الطول والقصر، لذا فإن من يحاول المقارنة في أساليب الخطابة والعهود، بين عهدي أبي بكر وعمر وبين عهد علي عليه السلام دون دراسة الظروف والملابسات التي حدثت في كل عصر فانه بذلك يلغي أثر الحوادث في مجرى التاريخ.

(١) المصدر السابق.

(٢) البنا - الفتح الرباني ٢١/٣٧٢ والحديث مروى في مسند أحمد بن حنبل.

(٣) راجع ابن هشام - السيرة ٢/١٤٧ - ١٥٠.

فعصر علي عليه السلام يختلف اختلافاً جذرياً عن عصر من سبقه، فإنه وإن كانت المدة الزمنية بين عهدهم وعهده قصيرة جداً في حساب التاريخ إلا أن تغير العقلية العربية وفتحها بعض الشيء على طابع الجدل بفعل التفاعل الحضاري، أدى بالعربي ابن الصحراء إلى التساؤل عن الخطأ والصواب في مجرى الحوادث في محاولة لمعرفة أبعادها ومشروعيتها من وجهة نظر الإسلام، وهذا بطبيعة الحال فتح باب الجدل على مصراعيه. فهل كان من الحق قتل عثمان؟ ومدى مشروعية محاربة طلحة والزبير ومعها عائشة لعلي عليه السلام ولماذا استحل الإمام عليه السلام قتالهم ولم يستحل سبيهم وتقسيم أموالهم كغنيمة حرب؟ وهل كان معاوية على حق في تمسكه بدم عثمان بتنصيب نفسه ولياً لذلك بالاعتماد على قوله تعالى ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا﴾^(١)؟ وما مدى الصواب في استخدام الخوارج شعار «لا حكم الا لله»؟^(٢).

فاعتماد المسلمين على القرآن والسنة دون تأويلها هو ما كان معمولاً به قبل خلافة علي عليه السلام أما وقد بدأ الفكر العربي في التطور، وأخذت روح الجدل تتبوأ مكانتها، فلا بد من اتساع نطاق القول لقرع الحجّة بالحجّة. فاستشهاد عمار بن ياسر رضوان الله عليه ضمن جيش علي عليه السلام كاد أن يثير فتنة في جيش معاوية اعتماداً على قول الرسول صلى الله عليه وسلم لعمار «تقتلك الفئة الباغية»^(٣). وقد تدارك معاوية ذلك بقوله «إنما قتله من أتى به»^(٤). وحكاية الكوفي، وادعاء الشامي في جملة،

(١) الإسراء / ٣٣.

(٢) تاريخ الطبري ٥ / ٥٥.

(٣) ابن هشام - السيرة ٢ / ١٤٢.

(٤) تاريخ الطبري ٥ / ٤١، وراجع تعليق الإمام علي عليه السلام على تلك المقولة، خطبة رقم ١٤٠.

وحكم معاوية للشامي على حساب حق الكوفي^(١) تحمل من دلالات التضييل أكثر مما تحكيه من طرافة. أضيف إلى ذلك قول علي عليه السلام إلى ابن عباس حين أرسله إلى مناظرة الخوارج «لا تخصمهم بالقرآن فانه حمال ذو وجوه ولكن حاكمهم بالسنة»^(٢). فذلك يبين بوضوح مدى ما بلغه الجدل في عصر علي عليه السلام. كما ان اعتزال بعض الصحابة علياً ومعاوية قد طرح كثيراً من التساؤلات التي لا بد من ايضاحها. ولا يتأتى معالجة كل تلك المشاكل الا بالأقوال الواضحة المبنية على الحجج المقنعة، لكشف أساليب التضييل، وفضح التأويلات الباطلة وهذا ما جعل علياً - وهو قطب رحا المعركة - يراوح بين الطول والقصر في خطبه حسبما تقتضيه الظروف.

فالمناسبة والظرف المحيط بها - وليس العصر - هما اللذان يحددان نوعية الكلام، فقد لا يؤدي الكلام الموجز في بعض المواقف ما تحتاجه المناسبة من إطالة وشرح يمكن اعتباره في عرف الأدباء إيجازاً، لأن الإيجاز لا يعني قصر العبارة بل يعني ملائمة المقال لمقتضى الحال، فالإيجاز بمعنى الاختصار «ليس بمحمود في كل موضع وبمختار في كل كتاب بل لكل مقام مقال، ولو كان

(١) الحكاية كما يرويها المسعودي في مروج الذهب ٣/ ٤١ - ان رجلا من أهل الكوفة دخل على بعير له في دمشق في حالة منصرفهم من صفين فتعلق به رجل من دمشق فقال: هذه ناقتي أخذت مني بصفين، فارتفع امرهما إلى معاوية واقام الدمشقي خمسين رجلا بينة يشهدون أنها ناقته فقضى معاوية على الكوفي، وأمر بتسليم البعير إليه، فقال الكوفي: اصلحك الله انه جمل وليس بناقة، فقال معاوية: هذا حكم قد مضى، ودس إلى الكوفي بعد تفرقهم فاحضره وساله عن ثمن بعيره، فدفع إليه ضعفه وبره وأحسن إليه، وقال له: أبلغ علياً اني اقاتله بمائة الف ما فيهم من يفرق بين الناقة والجمل.

(٢) نهج البلاغة وشروحه - رسالة رقم (٧٧).

الإيجاز محموداً في كل الأحوال لجرده الله تعالى في القرآن، ولم يفعل ذلك، ولكنه اطال تارةً للتوكيد وحذف تارةً للإيجاز، وكرر تارةً للإفهام»^(١).

لذلك فإن القول بعدم تناسب بعض الخطب والعهود الماثورة في النهج عن علي عليه السلام وعصر صدر الإسلام، لا يتفق وروح الأدب، لأن قائله لم يضع في عتباره ما ابتلي به الإمام عليه السلام في عصره من مشاكل ومحن، خاصة ان تلك النصوص التي قيل عنها انها طويلة لو وضعت في مكانها الصحيح من التاريخ الإسلامي لتمكنا من خلالها من استلهاهم «نظراته الثاقبة، وآرائه البعيدة في مبادئ السياسة، وأساليب، حكم الرعية، وإدارة شؤونها، والحرص على دفع الفتن عنها حتى تعيش في بحبوحة العز والرخاء»^(٢)

٤ - الوصف الدقيق المستوفي لجميع أجزاء الموصوف^(٣)

إن وصف علي عليه السلام للخفاش وللطاووس هو أساس تلك التهمة، فأحمد الحوفي على ما يبدو قد قبل ما جاء من وصف للنملة في النهج سوى طريقة أكلها^(٤)، كما انه قد تجاوز عن وصف الجرادة سوى ما جاء في وصف عينيها^(٥)، واستبعد نسبة وصف الخفاش لعلي عليه السلام خاصة وصف أجنحته^(٦)، كما واستبعد أيضاً

(١) ابن قتيبة - أدب الكاتب ص ١٩ .

(٢) صبحي الصالح - مقدمة تحقيق نهج البلاغة، ص ١١ .

(٣) من جملة الشكوك التي وجهها أحمد أمين لنصوص النهج قوله «هذا إلى ما فيه من معان دقيقة على أسلوب لم يعرف الا في العصر العباسي كما نرى في الطاووس» فجر الإسلام ص ١٤٩ .

(٤) محمد عبد المنعم خفاجي - بلاغة الإمام علي ص ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦ .

(٥) المصدر نفسه

(٦) المصدر نفسه

نسبة وصف الطاووس لعلي (عليه السلام) خاصة ما ورد في وصف السفاد^(١) كما لم يقبل ما جاء من وصف دقيق «لجسم الطاووس وريشه وساقيه وتحليله لصياحه»^(٢) ويمكن تقسيم الوصف المشكوك في نسبه لعلي (عليه السلام) من تلك الأوصاف إلى قسمين:

١- ما هو مقبول جزئياً.

٢- ما هو مرفوض كلياً.

ان قبول جزء من كلام ما وحذف جزء اخر منه، دونما دراسة دقيقة لذلك، لا يتسق وطبيعة البحث في النصوص الأدبية. إذ يفترض في الدارس أثناء معالجته للجزء المقبول والجزء المرفوض ان يلاحظ ما اسماه عبد القاهر الجرجاني بنظرية النظم المتمثلة في دراسة العلاقة بين المفردات والجمل في البنية الأساسية للنص، لأن النظم ليس (سوى تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب بعض)^(٣). فإذا ما تمكن الباحث من تحليل نسيج النص قيد البحث، ودرس علاقات الألفاظ فيه دراسة مقارنيه، بعده يمكنه إصدار حكمه. إذ لا يمكن في مجال تلك الدراسات ان نصف فصاحة تلك النصوص «وصفاً مجملاً»، ونقول فيها قولاً مرسلأً، بل لا تكون معرفتها في شيء حتى تفصل القول وتحصل، وتسميتها شيئاً شيئاً^(٤)، وبعد ذلك إذا ما لوحظ ثمة تفاوت أو اختلاف بين الجزئين فلا مجال للموافقة على النص بأكمله بسبب دخول الزيف في نسيجه،

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) دلائل الاعجاز - المقدمة (ص ٣٠ - ٣١).

(٤) دلائل الاعجاز - المقدمة (ص ٣١).

وإلا فإن الأحكام العامة غير المعللة لا يمكن قبولها في مجال البحث.

فقد جاء في وصف النملة بين المقبول والمرفوض في نهج البلاغة: «انظروا إلى النملة في صغر جثتها، ولطافة هيئتها، لا تكاد تُنال بلحظ البصر، ولا بمُستدرك الفكر، كيف دبَّت على أرضها، وصبت على رزقها، تنقل الحبة إلى جحرها، وتعدُّها في مُستقرِّها. تجمُّع في حرِّها لبردها، وفي وُرودها لصدرها، مكفول برزقها، مرزوقة بوقفها، لا يُغفلها المنان، ولا يجرمها الديان، ولو في الصفا اليابس، والحجر الجامس! ولو فكرت في مجاري أكلها، وفي علوها وسفلها، وما في الجوف من شراسيف بطنها، وما في الرأس من عينها وأذنها، لقضيت من خلقها عجباً، ولقيت من وصفها تعباً! فتعالى الذي أقامها على قوائمها، وبناها على دعائمها! لم يشركه في فطرتها فاطر، ولم يُعنه على خلقها قادر»^(١).

فبالتمعن فيما اجتزانا من وصف للنملة، نلاحظ انه لا يكتمل معناه ولا تتم الغاية منه، الا إذا وضعناه في سياقه الاصلى، لكونه جزءاً صغيراً من كل متكامل، الا ان الدراسة اقتضت ذلك. فلو رجعنا للنص ثانية وحذفنا من سياقه ما هو مشكوك فيه من كلام وقلنا:

«انظروا إلى النملة في صغر جثتها، ولطافة هيئتها، لا تكاد تنال بلحظ البصر... إلى قوله: ولو في الصفا اليابس والحجر الجامس - ثم انتقلنا - بعد حذف ما هو مشكوك فيه إلى قوله: لقضيت من خلقها عجباً... بقية النص»، لوجدنا ان البناء الداخلي للنص يخلت بحيث يأبى العقل قبوله، بسبب النقلة المفاجئة بين وصف النملة غير المكتمل والتفكر في قدرة الله تعالى، هذا من حيث المعاني في السياق. أما من حيث نسق الجمل وجرس الألفاظ فيجدر ملاحظة الأمور التالية:

(١) خطب - ٢٣٣، فقرة ٣.

الجزء المقبول	الجزء المشكوك فيه
انظروا إلى النملة: في صغر جثتها ولطافة هيئتها لا تكاد تنال بلحظ البصر، ولا بمستدرك الفكر. كيف دبت على أرضها وصبت على رزقها تنقل الحبة إلى جحرها وتعدها إلى مستقرها تجمع في حرها لبردها وفي وردها لصدرها	لو فكرت في مجاري أكلها في علوها وسفلها وما في الجوف من شر اسيف بطنها وما في الرأس من عينها وأذنها

١- بناء النص في كلا جزئيه على الجمل القصيرة ذات الطابع التأملي العميق الهادئ والاعتماد على حروف الجر وضمير الغائبة، مما يعني صدورها من مجرى نفسي واحد.

٢- التناسق التام في العلاقة الترابطية بين الجمل باستخدام الفصل والوصل، ويتضح ذلك من ربط كل جملتين مشتركيتين في ابراز معنى جزئي بواو العطف، مثل ذلك: «لا تنال بلحظ البصر، ولا بمستدرك الفكر»، و«ما في الجوف من شر اسيف بطنها، وما في الرأس من عينها وأذنها»، مع ملاحظة أن الفصل في كلا القسمين لا يكون إلا في الانتقال من فكرة جزئية إلى فكرة أخرى تكون في خدمة المعنى العام للنص، إذ لم يستخدم العطف أو بالأحرى الوصل الا بين الجمل التي تتكامل في معانيها، ولم يستخدم الفصل إلا في الانتقال بين الأفكار

الجزئية التي تكون العناصر العامة لبناء النص متكاملًا، هذا ولم يخالف مؤلف النص ذلك النسق إطلاقاً وفي جميع الفقرات رغم طول النص وتنوع الأفكار فيه.

٣- التجانس التام بين جرس الألفاظ من حيث مخارج حروفها وتكامل معانيها مما يجعل المواعمة بين القسمين واحدة لا انفصام فيها.

أما ما ورد في النهج من وصف للجرادة فهو «وَأِنْ شِئْتَ قُلْتَ فِي الْجَرَادَةِ، إِذْ خَلَقَ لَهَا عَيْنَيْنِ حُمْرَ أَوْيْنِ، وَأَسْرَجَ لَهَا حَدَقَتَيْنِ قَمْرَ أَوْيْنِ، وَجَعَلَ لَهَا السَّمْعَ الْخَفِيَّ، وَفَتَحَ لَهَا الْفَمَ السَّوِيَّ، وَجَعَلَ لَهَا الْحِسَّ الْقَوِيَّ، وَنَابَيْنِ بِيهَا تَقْرُضُ، وَمِنْجَلَيْنِ بِيهَا تَقْبِضُ، يَرْهَبُهَا الزَّرَّاعُ فِي زَرْعِهِمْ، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ذَبَّهَا، وَلَوْ أَجْلَبُوا بِجَمْعِهِمْ، حَتَّى تَرِدَ الْحُرْثَ فِي نَزَوَاتِهَا، وَتَقْضِي مِنْهُ شَهَوَاتِهَا، وَخَلَقَهَا كُلُّهُ لَا يُكُونُ إِضْبَعًا مُسْتَدَقَّةً» (١).

فالمشكوك فيه كما يرى الحوفي هو العناصر التالية: «اذ خلق لها عينين... حتى قوله: منجلين تقبض بهما». وعلى هذا يصير المقبول من وصف الجرادة «وان شئت قلت في الجرادة يرهبها الزراع في زرعهم، ولا يستطيعون دهبها... إلى آخر الفقرة». وهذا بطبيعة الحال لا يتسق ووصفه السابق لشكل النملة ولا لوصف بقية الظواهر الطبيعية التي وردت في سياق النص، فالتفصيل والدقة في تلك لا تناسب والاختصار في هذه.

ثم إن علاقة علي عليه السلام بالجرادة -سواء أكان بالمدينة أم بالكوفة- كانت علاقة مباشرة فلقد كان بالمدينة -على عهد الرسول ﷺ وعهد أبي بكر وعمر وعثمان-

يمارس مهنة الزراعة^(١)، كما كان وليّ أمر المسلمين حين أقام بالعراق تلك البيئة الزراعية، فلا بد انه صادف في حياته تلك زحف أسراب الجراد وما يحدثه من كوارث كانت موضع اهتمامه كما كانت موضع اهتمام الرسول ﷺ قبله. من ذلك دعوته ﷺ على الجراد بقوله «اللهم أقتل كباره، واهلك صغاره واقطع دابره، وخذ بأفواهاها عن معاشنا وارزاقنا، إنك سميع الدعاء»^(٢). وعلى هذا فإن احتكاكه المباشر بالجرادة في كلتا البيئتين أتاح له التأمل في خلقتها، فتولد عنه ذلك الوصف الذي شك في نسبته إليه.

فإذا ما عدنا بعد هذا إلى ما ورد من وصف للجرادة عند علي عليه السلام لنضعه في مكانه من الخطبة التي اجتزناه منها، سنلاحظ اندماجه التام مع الأفكار الأخرى التي بنيت عليها من حيث الوصف والغاية، إضافة إلى ذلك فإن جمل نص وصف الجرادة وعباراته تكاد تكون جزءاً من بناء متكامل من حيث مقاطع الجمل وترتيب الفواصل فيما بينها، مما يجعلها تتناغم في جرس مخارج ألفاظه متزنة في بناء كلماته، فمطلع النص:

الحمد لله الذي لا تدركه الشواهد^(٣)

ولا تحويه المشاهد

ولا تراه النواظر

- الجزء الثاني في الصلاة على النبي:

(١) من ذلك انه حفر عين أبي نيزر بيده كما جاء في معجم البلدان ٤/١٧٦.

(٢) ابن الأثير جامع الاصول ٨/٢٧٤

(٣) يمكن ملاحظة ذلك من قراءة الخطبة السابقة كاملة بفقراتها الست. والآية من سورة الرعد

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الصفي

وأمينه الرضي

- الجزء الثالث في معنى التأمل في قدرة الله وعظمته وقد ورد الوصف ضمنه:

لو فكروا في عظيم القدرة

وجسيم النعمة، لرجعوا إلى الطريق

ولكن القلوب عليّة، والبصائر مدحولة

ألا ينظرون إلى صغير ما خلق كيف أحكم خلقه...-

- وصف النملة: انظروا إلى النملة في صغر جثتها...-

- وصف الكون: وكذلك السماء والهواء، والرياح والماء...-

- وصف الجراد: وإن شئت قلت في الجراد...-

- خاتمة النص: فتبارك الله الذي يسجد له «من في السماوات والأرض طوعاً

وكرهاً» فجعل النص ومقاطعته تتبع في نسقها نظاماً واحداً مبنيّاً على التابع

الموسيقي المصطلح عليه بلاغياً بالازدواج، فلكل جملتين متعاطفتين نسقاً

موسيقياً واحداً مع ارتكاز تام على الجمل القصيرة الهادئة، التي لا يزيد طول

الواحدة منها في أغلب الأحيان على الثلاث كلمات، وتتابع تلك الجمل داخل

النص أتاح لو او العطف لأن تكون الرابط الرئيسي في حركة الوصل. إذ تكون

من مئة واحد وعشرين جملة في ست فقرات استخدمت او العطف خلالها

مئة مرة وواحدة.

أضف إلى ذلك الترابط الوثيق بين الأفكار والمتمثل في التنقل بين أساليب

الخطاب من الحديث عن جمع الغائبين إلى الحديث عن المفرد الغائب فالمفرد

المخاطب، وتجنب الوعظ المباشر لثقل وطأته على النفوس، ومحاولة الأخذ بفكر المستمع في رحلة تأملية في واقع الخلق وعظمة الخالق تؤدي في نهايتها إلى الغاية المطلوبة من الخطبة، كل تكل العناصر مجتمعة تدل دلالة قاطعة على التوحد في أسلوب الخطبة وصدورها من مجرى نفسي واحد مما يبعد بعض فقراتها عن الشك.

٢- ما هو مرفوض كلياً من نصوص في نهج البلاغة ويتمثل في:

أولاً: وصف الخفاش^(١):

رغم إننا لم نعثر على مصدر للخطبة التي ورد وصف الخفاش ضمنها إلا أننا نرجح نسبتها إلى علي بن أبي طالب عليه السلام، لأن وصف الخفاش لم يكن بدعاً في الإسلام، فلقد جاء في تفسير قوله تعالى ﴿أَيُّ قَدْ جِئْتُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^(٢) ان الطير المذكور في الآية هو الخفاش، فقد «ذكر انه لما اراد ان يخلق الطير من الطين سألهم أي الطير أشد خلقاً فقل له الخفاش»^(٣)، «ويقال: إنما طلبوا خلق الخفاش لأنه أعجب من سائر الخلق، ومن عجائبه انه لحم ودم، يطير بغير ريش، ويولد كما يلد الحيوان، ولا يبيض كما يبيض سائر الطيور فيكون له الضرع يخرج منه اللبن، ولا يبصر في ضوء النهار، ولا في ظلمة الليل وانما يرى في ساعتين: بعد غروب الشمس ساعة، وبعد طلوع الفجر ساعة، ويضحك كما

(١) راجع الخطبة رقم ١٥٥.

(٢) آل عمران / ٤٩.

(٣) تفسير الطبري ٣ / ٩.

يضحك الإنسان ويحيز كما تحيض المرأة»^(١). فبالمقارنة بما ورد من وصف للخفاش في تفسير الذكر الحكيم وما جاء من وصف له في (نهج البلاغة) لا نجد ثمة اختلاف الا في الصياغة والأسلوب في محاولة لتجسيد الصورة لإبراز ما في ذلك الحيوان العجيب من إبداع للتدليل على قدرته سبحانه خاصة ان ذلك الوصف لم يرد في النهج إلا ضمن سياق خطبة وعظية تأملية.

ثم إنه بدراسة أسلوب النص وتحليل معانيه، سنجد أنه لا يكاد يختلف عما ورد في النهج من نصوص وعظية تعمد إلى التأمل وتتسم بالنظرة الواقعية، وتمتاز بكثرة الفواصل بحيث يمكن آدماج النص في بناء الوعظ المتكامل الوارد في النهج دون ان يحدث أي نشاز في المجرى العامل لتلك النصوص، لأن البناء الكلي يهدف إلى غاية واحدة تكمن في محاولة تأكيد قدرة الخالق والايان به في نفوس بدأت الحياة المادية تجرفها. فلو اجتزنا وصف الخفاش من سياقه ووضعناه مكان وصف النملة- أو حتى بجانبه - لوجدنا ان منبع كلا النصين واحد «كالجسيم البسيط الذي ليس بعض من أبعاضه مخالفاً لباقي الأبعاض في الماهية»^(٢)

ثانياً: وصف الطاووس^(٣):

لم نتمكن من العثور على مصدر قبل النهج للخطبة التي ورد وصف الطاووس ضمنها، الا ان ما يرجح نسبتها إلى علي بن أبي طالب عليه السلام، ورود

(١) القرطبي - الجامع لاحكام القرآن ٩٤ / ٤.

(٢) ابن أبي الحديد - شرح النهج - ٢٨ / ١٠.

(٣) ورد وصف الطاووس ضمن خطبته رقم ١٦٦.

جزء منها في (ربيع الأبرار)^(١)، كما فسر غريبها في عدة مواضع من (النهاية في غريب الحديث)^(٢)، الذي جعلنا نميل إلى تصحيح نسبتها: نص كلا المؤلفين على نسبتها إلى علي عليه السلام بما لا يدعو إلى الشك، وعدم استخدامها العبارات الترجيحية أثناء إيراد أجزاء من الخطبة على الرغم من استخدامها تلك العبارات عند شكهم في نسبة نص إلى قائله أو جهلها لذلك القائل^(٣)، علاوة على ذلك تعديل كليهما عند علماء الرجال، لأخذهما في كتبهما بالروايات الصحيحة، وتحريمها الدقة في النقل^(٤).

ذاك عن توثيق النص من المصادر المعتمدة، أما من حيث الأسلوب فالنص لا يكاد يختلف في معانيه عما ورد في وصف النملة والجرادة والخفاش، إلا بما يتناسب والحيوان الموصوف من مفردات لغوية، فالقاموس اللغوي العام هو هو لا يكاد يتغير إلا بما يتناسب وجانب الرؤية، والجرس اللفظي لم يتغير من حيث تدفقه النابض بالإيمان العميق النابع من أعماق نفس عاشت معاني القرآن الكريم لتخرج منه بتلك الأوصاف التي يمكن اعتبارها ظلاً وارفاً

(١) الزمخشري ١/٢٩٣.

(٢) راجع ابن الأثير: ١/٣٧، ٢/١٤٠، ٣/٢٣٨، ٣٠٧/٤٧٠، ٤/١٤٤، ٥/١٢٣.

(٣) مثال ذلك ما ورد عند ابن الأثير في غريب الحديث «٣١/٥ منه حديث علي، وقيل عمر». لأنه لم يتأكد من نسبة الحديث. وكذلك «٣٢/٥: منه حديث عمر وقيل علي». وقال ابن أبي الحديد عن الزمخشري «مذهبه الاعتزال ونصرة أصحابنا معلوم وكذلك في انحرافه عن الشيعة وتسخيفه لمقالاتهم» شرح النهج ٩/٢٨٠.

(٤) قال ياقوت عن الزمخشري - معجم الأدباء ١٩/٢٦ «كان إماماً في التفسير والنحو واللغة والأدب، واسع العلم كبير الفضل متفنناً» وقال ابن خلكان عن ابن الأثير «إماماً في حفظ الحديث ومعرفته وما يتعلق به وخبيراً بأنسب العرب وأخبارهم» وفيات الأعيان ٣/٣٤٨.

لمعاني التنزيل، جاهد علي عليه السلام بكل طاقاته اللغوية والبلاغية لإسباغه على الحياة ليلتجئ إليه اللاهثون من تعب الجري وراء حياة لا محالة من زوالها.

والوصف مهما بلغ من الدقة لم يكن علي عليه السلام أول من ابتكره، فقد سبق الجاهليون إليه والشعراء منهم خاصة، فوصف طرفة بن العبد لناقته ضمن معلقته^(١)، قد بلغ من الدقة ما أدى ببطه حسين إلى الشك في نسبته إليه بسبب ما حواه ذلك المقطع من الغريب بما لا يتناسب وسهولة المفردات التي تميزت بها بقية المعلقة^(٢)، لكن التأمل في ذلك الوصف ومحاوله دمج في موقف الشاعر، يخلص إلى أن الوحدة المعنوية لموضوع المعلقة هو ما جر الشاعر إلى انتهاج ذلك الوصف الدقيق الوعر وعورة نفسه المتألمة، فالمعلقة بأكملها تصور الحياة من وجهة النظر القائلة، بأنها لا يمكن ان تكون على وتيرة واحدة. كما يتجلى لنا روعة وصف الطبيعة عند لبيد^(٣) ضمن معلقته عاكسة خيبة امله وتألمه لما احده الزمن من تشويه في ربوع كانت عزيزة على نفسه.

على أن الأمثلة من الشعر الجاهلي قد لا تحقق غايتنا المرجوة للتدليل على ما نحن بصدد من دقة وصف أثر عن علي عليه السلام في (نهج البلاغة)، لأن ذلك الشعر ابن بيئته، ولم يصف شيئاً من خارج تلك البيئة، اما الطاووس فبعيد كل البعد

(١) مطلع وصف ناقه طرفة (طويل):

واني لأمضي الهمة عند احتضاره بعوجاء مرقال تروح وتغتدي

- جمهرة القرشي ٣٠٨.

(٢) راجع ما قاله طه حسين عن ناقه طرفة - حديث الاربعاء ٥٨/١.

(٣) مطلع وصف الأطلال في معلقة لبيد (كامل)

عفت الديار محلها فمقامها بمنى تابد عولها فرجامها

- جمهرة القرشي ٢٣٧.

عن بيته علي عليه السلام كما يرى كثير من الشاكرين، الا ان الوصف عند الجاهليين يقربنا مما نحن بصدد اثباته، لأننا لا نريد المقارنة بين الوصفين الجاهلي ببيته ووصف الإمام علي عليه السلام للطاوس الا من حيث الدقة التي تحتاج إلى عين ثاقبة في الأشياء ونفس متأمله شفافة يمكنها ملاحظة كل صغيرة وكبيرة في المحيط الموصوف لتوظيفها فيما يتيح استكمال الصورة من جميع جوانبها، علماً بأن عنصر دقة الملاحظة لا يمكنه أن يؤدي المطلوب الا إذا دعم بثقافة عميقة متعددة النواحي ويكون للبيئة أثر كبير في بلورة تلك الثقافة وصيغها بسماتها، التي عادة ما تكون بارزة في النتاج الأدبي الذي ينتمي إليها، وهذا ما جعلنا لا نقتنع بالمقارنة بين ما ورد من وصف عند الجاهليين وبين ما ورد من وصف منسوب في النهج لعلي عليه السلام، الا في حدود عنصر الدقة، مما يعني اختلاف الوصف في النهج من حيث المضامين والاساليب والاهداف التي تتناسب والإسلام في صورته الناصعة، ومن هنا يمكننا ان نقول: بأن القرآن الكريم لم يترك صغيرة ولا كبيرة تتعلق بالحياة الا وتناولها بالوصف المفصل أو المجمال اللماح، وفي كلتا الحالتين فتح باب التأمل والتفكر مشرعاً للمسلم ليزداد من خلال ذلك التأمل ايماناً وليقوى يقيناً بنظراته إلى الحياة نظرة شاملة بتأملها في الذرة الصغيرة المتمثلة في الخردلة إلى الإنسان في نفسه بنفسه فمن الوصف البالغ الدقة في القرآن الكريم قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ

الْحَالِقِينَ (١٤)»^(١). فذلك الوصف المتناهي في الدقة يدعو صادق الإيمان إلى التأمل منطلقاً من نفسه إلى ان يشمل تأمله المخلوقات الاخرى، خاصة إذا كان المتأمل قد رضع الإسلام وشم ريح الوحي وتربع في احضان النبوة. لذا فإن وصف الطاووس هو انعكاس الألوان زاهية استلهم علي عليه السلام معانيها من أوصاف الجنة التي وردت في القرآن الكريم، ثم ان وصف صياحه تأملاً، ليس الا إثباتاً بأن الكمال لله سبحانه. فمهما بلغ المخلوق من الحسن والجمال فانه بعيد المنال عن الكمال، إذ لو حاولنا تتبع مصدر ذلك الوصف الدقيق في النهج فسنخرج بنتيجة فحواها: ان تلك الأوصاف لن يقدر على تصويرها في أسلوبها الرائع ذاك الا من عايش كتاب الله معايشة عميقة ومباشرة، وهو ما ينطبق على حال علي عليه السلام، الذي وصفه رسول الله ﷺ بأنه «أكرمهم سلماً، وأكثرهم علماً واعظمهم حِلماً»^(٢) فلقد «اعطى القرآن عزائمه ففاز منه برياض مؤنقة»^(٣). ثم ان الوصف من الموضوعات التي اهتم النبي ﷺ بها، فقد جاء في صحيح مسلم باب خاص مأثور عن النبي في «الجنة وصفة نعيمها واهلها»^(٤)، اضافة إلى ذلك وصفه ﷺ للفتن واشراط الساعة^(٥). لذا فإنه لا يستبعد ان تكون موضوعات الوصف المذكورة في (نهج البلاغة) من كلام علي بن أبي طالب عليه السلام، خاصة أنها لم تكن مقصودة لذاتها فتوظيفها المحكم في قضايا الإيمان والتوحيد تؤكد تلك النسبة.

(١) المؤمنون/ ١٤.

(٢) المحب الطبري - ذخائر العقبى ص ٧٨-٧٩.

(٣) المحب الطبري - ذخائر العقبى ص ٧٨-٧٩.

(٤) مسلم بن الحجاج - ٤/ ٢١٧٤ حتى ٢٢٠٦ - ٢٢٠٧.

(٥) المصدر السابق نفسه.

٥- في نهج البلاغة تعبيرات فلسفية ظهرت بعد تدوين العلوم في العصر العباسي^(١):

وردت في نهج البلاغة نصوص عاجلت قضايا التوحيد، ونفي الصفات عن الخالق سبحانه وبسبب اختلاف المذاهب الإسلامية في هذا الصدد انكر بعض الدارسين نسبة تلك النصوص إلى علي^{عليه السلام} بحجة عدم تناسب تلك الأفكار وروح عصر صدر الإسلام، لأنهم يرون ان الجدل حول التوحيد والعدل ونفي الصفات، وغيرها من القضايا التي تتعلق بالخلق والخالق لم تظهر الا في فترات متأخرة، إلا أنه إذا ما ثبت توثيق بعض من تلك النصوص بصحة نسبتها إلى علي^{عليه السلام}، فإن ذلك يدحض تلك المقولة، وهذا ما سنحاول اثباته قبل مناقشة القول من جوانبه الاخرى.

يعتبر النص الأول من باب الخطب في النهج من أطول النصوص واشملها حيث ابتداءً بخلق السماء والارض، وخلق آدم، واشتمل على جوانب هامة وكثيرة من علم التوحيد، وتنزيه الخالق عن الصفات، وخلق السماء الأرض وقصة آدم، ومعصية إبليس، وهبوط آدم إلى الأرض ثم تكليف الرسل، واختتام الرسالة بمحمد^{صلى الله عليه وآله وسلم} ثم وصف القرآن الذي أنزل على الرسول وما حواه الكتاب الكريم من علوم، وعلاقة ذلك بالسنة النبوية الشريفة، ثم ختم الخطبة بذكر الحج. فالخطبة من النصوص الطويلة نسبياً التي أوردتها الشريف الرضي، الا انه لم يذكر إسنادها ولا المصدر الذي أخذ منه. وهي الخطبة التي حامت حولها

(١) أشار إلى ذلك العقاد في عبقرية الإمام ص ٤٣ بقوله «ربما وقع الشك في نسبة بعض الكلمات إلى علي - رضي الله عنه - لأنها تجمعت بعد عصره بزمان طويل وامتزج بها ما لا بد ان يمازجها من علوم القرن الثالث وبعده» هذا وقد توسع الحوفي في كتابه بلاغة الإمام وركز في شكه على النص الذي قمنا بتوثيقه، راجع الكتاب المذكور ص ٢٦ وما بعدها.

الشكوك في سياقها بالتفصيل، فهي المثال الذي يتخذه أولئك ذريعة لاتهامهم جانب التوحيد والعدل في النهج. ولكن بتتبعنا لها في المصادر الاخرى تأكد لنا انها مما أثر عن علي عليه السلام، خاصة الجزء المشكوك فيه منها.

فمن ذلك ذكر الراوندي إسندھا المتصل بعلي بن أبي طالب عليه السلام وتعقيبہ علی ذلك الاسناد بقوله «ولو اردت ذكر ما حذفه الرضي من هذه الخطبة لطال هذا الكتاب»^(١)، كما ورد الجزء الخاص بنفي الصفات عن الله سبحانه عند أبي علي السكوني (ت ٧١٧)^(٢)، هذه وان كانت وفاته بعد الشريف الرضي (ت ٤٠٦) جامع النهج، الا ان الاختلاف في الرواية عند كلام المؤلفين يؤكد بأن مصدر السكوني غير مصدر الرضي، اصف إلى ذلك ان الزمخشري قد أورد جزءا من الخطبة في باب «السماء والكواكب»^(٣)، وجزءا اخر في باب (الملائكة)^(٤) باختلاف يسير أيضاً في روايته، وهذا يؤكد صحة نسبة الخطبة لعلي عليه السلام على ما اعتقد، ثم انه يؤكد نسبة ما ورد في النهج مثلها إذا ما وضعنا في اعتبارنا المقارنة بين أساليب النصوص والتشابه التام في نظمها.

وعليه فإن المصطلحات التي وردت في النهج لعلي عليه السلام هي من ابتكاره، والذين ينكرون وجود مثل تلك الكلمات الجديدة في عصر صدر الإسلام انها يحاولون الغاء التطور الذي أحدثه الإسلام في اللغة العربية بتأثير القرآن

(١) منهاج البراعه ١/١٠٩.

(٢) راجع عيون المناظرات ص ١٨٢ حتى ١٨٤ وقارن ذلك بما ورد في نص رقم ١ من باب الخطب في النهج.

(٣) راجع ربيع الأبرار للزمخشري ١/ ١١٤، ١١٥، ٣٧٢ وقارن ذلك بما ورد في نص رقم ١ باب الخطب

(٤) المصدر نفسه.

الكريم، كتغيير لبعض المفاهيم العربية كمعنى (زكاة، وصلاة) (١) ثم أنهم ينكرون الاشتقاق والنحت مما يجعلهم يشكون في قدرة المسلمين الأوائل على توليد كلمات مثل (العلة والمعلول، والسبب والمسبب، والأزل والأزلية،

(١) بشأن تغير المعنى يتغير الظرف، يقول ابن فارس في الصحاحي من فقه اللغة ص ٣٨ «كان العرب في جاهليتها على إرث من آباؤهم في لغاتهم ونسائهم وقرابينهم، فلما جاء الله - جل ثناؤه بالإسلام، حالت أحوال ونسخت ديانات وأبطلت أمور، ونقلت من اللغة ألفاظ من مواضع إلى مواضع أخر بزيادات زيدت...»، أما بشأن ما استخدمت في اللغة من جديد في الإسلام فيحدثنا ابن دريد في المجتني ص ٢١، فيقول «قال علي رضوان الله عليه: ما سمعت كلمة عربية إلا وسمعتها من رسول الله ﷺ. سمعته يقول «مات حنث انفه» وما سمعتها من عربي قبله ﷺ. وورد في المزهرة للسيوطي ٣٠٢/١ «وفي الصحاح قال أبو عبيد: الصير في الحديث انه شق الباب، ولم يسمع هذا الحرف، وقال: والزمار في الحديث انها الزينة، قال أبو عبيد: ولم اسمع هذا الحرف الا في الحديث، ولا أدري من أي شيء أخذ. وفي ذلك دلالة على ان اللغة تتطور بتطور الظروف، كما ان الاختراع في اللغة لم يكن مقصورا على عرب الجاهلية بدلالة ما أثر عن الرسول ﷺ وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ربيب الرسول وتلميذه، فلا غرابة ان ياتي في اللغة بالمخترع الجديد. وقد أشار إلى بعض من ذلك الرضي أثناء تعليقه في النهج على قول الإمام ﷺ «فما عدا مما بدا» بقوله «وهو ﷺ أول من سمعت منه هذه الكلمة».

ثم ان قول الحوفي في كتابه بلاغة الإمام علي ص ١٢٧ «بان كلمة الازل غير عربية» يفتقر إلى الدقة والنزاهة العلمية، لأن معنى «الازل بالتحريك: القدم، أزلي». ذكر بعض أهل العلم ان أصل هذه الكلمة قولهم للقديم: لم يزل، ثم نسب إلى هذا فلم يستقم إلا باختصار فقالوا: يزلي ابدلت الياء، فلما لأنها اخف، فقالوا: ازلي كما قالوا في الرمح المنسوب إلى ذي يزن: أزني، ونصل أثره»، ابن فارس (ت ٣٩٥) مجمل اللغة ١/ ٩٤، ٩٥، الجوهري (ت ٣٩٨) الصحاح ٤/ ١٦٢٢، ابن منظور (ت ٧١١) لسان العرب المحيط ١/ ٥٧، الفيروز ابادي (ت ٨١٧) القاموس ١/ ٥٧ بترتيب الزاوي.

والأين، والكيف) والسبب في شكهم أنهم لم يجدوا لها شواهد في كلام العرب، فهل وجدوا شواهد في كلام العرب لكل ما جاء به القرآن الكريم^(١)؟ وهل يريدون ان تقف العبقرية اللغوية عند الشاهد اللغوي لا تتعداه؟ لأن عدم وجود الشاهد اللغوي لا يعني عدم ابتكار كلمات أو مصطلحات جديدة فطاقات اللغة لا يحدها زمن، الا ان الناس - بالنسبة إلى الابتكار فيها «رجلان: رجل شغل بالفرع فلا يعرف غيره، واخر جمع الأمرين معاً، وهذه الرتبة العليا، لأن بها يعلم خطاب القرآن والسنة، وعليها يعول أهل النظر والفتيا، وذلك ان طالب العلم اللغوي يكتفي من اسماء الطويل باسم الطويل لا يضيره الا يعرف الأشق والأسق»^(٢) لذا فإن كل ما ورد في النهج مما سمي بالمصطلحات الفلسفية، هو من بابا الاشتقاق مما لا يدعو إلى الريبة في صدره عن علي عليه السلام، أو عن غير علي عليه السلام من صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم ممن لهم الباع الطويل في فهم القرآن فهماً عميقاً.

اما البحث في الوجود والكون والخلق والخالق فلم يكن وقفاً على العصر الأموي أو العصر العباسي، لأنه وان كان بسيطاً في بدايته فهو معرق في القدم،

(١) وردت في القرآن الكريم كلمات عربية كثيرة لم يرد لها شواهد في الشعر الجاهلي من ذلك قوله تعالى: ﴿أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ الحجرات / ٦، قال ابن الأعرابي لم يسمع في كلام الجاهلية في شعر ولا كلام (فاسقاً) قال وهذا عجب، كلام عربي ولم يأت شعر جاهلي - ابن فارس جمل اللغة: ٣ / ٧٣١، كما ورد قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَيَقْضُوا تَكْتُمُهُمْ﴾ الآية. الحج / ٢٩. والتفت: ما كان من نحو قص الأظافر والشارب، وحلق الراس والعانة، وزمي الجمار، ونحر البدن، قال أبو عبيد: ولم يجيء فيه شعر يحتج به - صحاح الجوهري ١ / ٢٧٤. وبالامكان مراجعة ذلك وامثاله كثير عند السيوطي في المزهري ١ / ٢٩٤ وما بعدها.

من ذلك ما ورد في الذكر الحكيم عن بحث إبراهيم (عليه السلام) عن الحقيقة في قوله تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾
 (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ
 الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لئن لم يَهْدِنِي
 رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي
 هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨)﴾^(١). كما «كان
 للعرب قبل ظهور القرآن شيء من النظر العقلي في بعض النواحي الفلسفية،
 وإن لم يكن ذلك قائماً على أساس أو منهج معروف محدد»^(٢)، فقول طرفة بن
 العبد (طويل):

فذرني أروي هامتي في حياتها	مخافة شرب في الحياة مصدر
كريم يروي نفسه في حياته	ستعلم ان متنا عدا اينا الصدي
ارى الموت يعتام الكرام ويصطفي	عقيلة مال الفاحش المتشدد
ارى الدهر كنزاً ناقصاً كل ليلة	وما تنقص الأيام والدهر ينفد ^(٣)

فوقفته تلك تعكس وجهة نظر فلسفية بسيطة، تتناسب ونزق الشباب
 والحياة اللاهية، مما يجعلها تختلف عن تأمل اكنم بن صيغي في الحياة والموت
 في تعزيته لعمرو بن هند في اخيه بقوله: «ان أهل الدار سفر لا يجلون عقد

(١) الانعام / ٧٤.

(٢) محمد يوسف موسى - القرآن والفلسفة ص ١٧.

(٣) القرشي - جبهة اشعار العرب ٣٢٧-٣٣٠ وهامتي: رأسي، والمصدر: للمقلل والصدي:
 العطشان، ويعتام: يختار، ويصطفي: ياخذ صفوته وخيرته، وعقيلة المال: أكرمه وأحسنه
 وأنفسه، والفاحش السيء الخلق، والمتشدد: البخيل.

الرجال الا في غيرها، وقد أتاك ما ليس بمردود عنك، وارتحل عنك ما ليس براجع اليك، وأقام معك من سيظعن عنك ويدعك»^(١). وهذا التأمل البسيط في الحياة والموت هو ما حدا بالعربي في صحرائه للبحث عن حقيقة الوجود وسر الحياة فتمثل الجن، وأخذ بنصح الكهان، حتى جاء الإسلام، فطرح في القرآن الكريم مشكلة الخلق والخالق، فكان التوحيد أول أركان الإسلام، وتقبل المسلمون ذلك في بداية الأمر ببساطة، ودونما أية مناقشة، لانشغالهم بنشر الدعوة، ولكن ما لبثوا بعد وفاة الرسول ﷺ حتى أخذوا في التساؤل عن آي القرآن الكريم وعن صفات الخالق، من ذلك ان يهوديا حضر مسجد المدينة على عهد أبي بكر وقال له «اريد ان اسالك عن اشياء لا يعلمها الانبي او وصي نبي، فقال أبو بكر: سل عما بدا لك، قال اليهودي: اخبرني عما ليس لله، وعما ليس عند الله، وعما لا يعلمه الله، فقال أبو بكر: هذه مسائل الزناقة يا يهودي، وهم أبو بكر والمسلمون باليهودي، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: ما انصفتم الرجل... فقام أبو بكر ومن حضر معه حتى أتوا علي بن أبي طالب عليه السلام... فقال علي: ما تقول يا يهودي، فرد اليهودي المسائل. فقال علي عليه السلام اما ما لا يعلمه الله فذلك قولكم يا معشر اليهود ان العزيز ابن الله، والله لا يعلم ان له ولداً، واما قولك اخبرني بما ليس عند الله، فليس الله عنده ظلم للعباد، واما قولك اخبرني بما ليس لله، فليس له شريك»^(٢)، وتلك مرحلة من مراحل الجدل الفلسفي البسيط على ما نعتقد. وشيبه منه سؤال رجل لعلي عليه السلام «اين كان ربك قبل ان يخلق السهوات والارض؟»^(٣). لأن القرآن الكريم قد حث الإنسان على

(١) ابن عبد ربه - العقد الفريد، ٣ / ٣٠٧.

(٢) ابن دريد - المجتني ص ٤٥.

(٣) السكوني - عيون المناظرات ١٣٨.

استعمال العقل لاستنباط الأشياء وعدم قبول الأمور على علاتها. قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩)﴾^(١)، فالغفلة هي عدم البحث عن الحقيقة المؤدية إلى الإيمان التام.

ان الاسئلة التي طرحها اليهودي على أبي بكر، والسؤال الذي طرحه الرجل على علي عليه السلام كلها تصب في مجرى واحد هو البحث في قضية الكون، وخالقه، وهي القضايا التي لم ينفك علي عليه السلام يتحدث فيها كلما واتته المناسبة، لإدراكه العميق بأهميتها بالنسبة لبقاء الإيمان الصادق ثابتاً وقويا في النفوس، فلشعوره بتزعزع قيم الإسلام الروحية أما القيم المادية التي نتجت عن الفتوح واختلاط المسلمين بغيرهم، وبسبب الأهمية التي يوليها علي عليه السلام للتوحيد، فقد جعله العنصر الاساسي في وصيته لابنه الحسن عليه السلام بقوله «وان ابتدأك بتعليم كتاب الله وتأويله وشرائع الإسلام واحكامه وحلاله وحرامه، ولا اجاوزك إلى غيره، ثم اشفقت ان يلبس عليك ما اختلف الناس فيه من اهوائهم وآرائهم مثل الذي التبس عليهم، فكان أحكام ذلك على ما كرهت من تنبيهك له احب الي من اسلامك إلى أمر لا آمن عليك فيه الهلكة»^(٢).

إذن فالقول بعدم خوض علي عليه السلام في قضايا التوحيد والعدل والتنزيه يحتاج إلى دليل يدعمه، فلم يكن في سيرته ما يشير إلى عقابه لسائل عن تلك القضايا كما لم يؤثر عنه ترك مجادلة القدرية في عصره، فالمواقف التاريخية كلها تشير إلى

(١) الاعراف/ ١٧٩

(٢) رسائل ٣١، فقرة ٦.

معالجته لذلك، فالنصوص الماثورة عنه في غير النهج^(١) تبطل زعم القائلين «بظهور أثر الصنعة - في أقواله - ظهوراً يساير ما كان قد نشأ في دولة بني العباس من ثقافة اليونان وطرائق تفكيرهم»^(٢). فنسبة ما ورد في نهج البلاغة إلى المعتزلة يتعارض مع رواية ابن النديم «حدثنا أبو الهديل العلاف، قال: أخذت الذي انا عليه من العدل والتوحيد، عن عثمان الطويل، قال أبو الهديل: واخبرني عثمان انه أخذه عن واصل بن عطاء، وان واصلاً أخذه عن أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية وان عبد الله أخذه من ابيه محمد بن الحنفية، وان محمداً اخبره انه أخذه عن ابيه عليه السلام، وان أباه أخذه عن الرسول صلى الله عليه وسلم»^(٣)، فإقرار رؤوس المعتزلة بأخذهم التوحيد والعدل والتنزيه عن علي بن أبي طالب عليه السلام يؤيد صحة ما نسب إليه من ذلك، كما ان ما أثر عن ائمة أهل البيت من اقوال في ذلك الشأن^(٤) يعضد تلك النسبة، خاصة ان التوحيد والعدل من الاصول التي يعتمدها الشيعة الإمامية في مذهبهم^(٥) اقتداء بعلي عليه السلام واولاده من الأئمة

(١) حول القضاء والقدر ومناظراته مع القدرية، راجع: فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ص ١٤٦، عيون المناظرات ص ١٧٦، وحول التنزيه ونفي الصفات عن الخالق جل شأنه، راجع اقوال علي عليه السلام في: العقد الفريد ٤/ ٧٦، ترجمة الإمام علي عليه السلام في تاريخ دمشق ٣/ ٢٣٢، فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ص ١٤٦، عيون المناظرات من ص ٢٤٥ حتى ١٧٨.

(٢) الباقرى - علي امام الأئمة ص ٣٦.

(٣) ابن النديم - الفهرست ٢٠٢.

(٤) راجع على سبيل المثال ما ورد عند - الكليني - اصول الكافي ١/ ٧٢ وما بعدها.

(٥) عن ذلك يقول الزنجاني في كتاب عقائد الإمامية الإثني عشر ١/ ٢٥ «ان الله تعالى واجد الوجود بذاته ولذاته وفي ذاته، ومنزه عن التجسيم والحلول والتركيب والنقائص ومستجمع لجميع صفات الكمال من العلم والقدرة والارادة والعدل ونحوها وان صفاته الحقيقية عين ذاته

الإثني عشر.

٦- استخدام التقسيم في شرح المسائل ووصفها^(١):

ان التقسيم العددي ليس هو الباعث الحقيقي على الشك في بعض نصوص النهج لأنه قديم قدم اللغة، والذين قالوا بذلك يدركون تمام الإدراك بأنه موجود في الشعر الجاهلي، فقد كان عمر بن الخطاب يتعجب من قول زهير (وافر):

فان الحق مقطعه ثلاث أداء أو نفار أو جلاء^(٢)

ومن التقسيم أيضاً قول الاعشى ميمون بن قيس (خفيف):

ظللنا ما بين شاو وذي قد ر وساق ومسمع محفال^(٣)

ومنه أيضاً في الشعر الجاهلي قول طرفة بن العبد (طويل):

فلولا ثلاث هن من عيشة الفتى	وجدك لم احفل متى قام عودي
فمنهن سبق العاذلات بشربة	كميت متى ما تعل بالماء تزيد
وتقصير يوم الدجن والدجن معجب	ببهكنة تحت الخباء المعمد
وكري إذا نادى المضاف محناً	كسيد الغضا ذي السورة المتورد ^(٤)

ومما جاء من تقسيم في النثر الجاهلي قول قبيصة بن نعيم حين وفوده وقومه

وهو الواحد الاحد لا شريك له...».

(١) قال بهذا الرأي أحمد أمين في فجر الإسلام ص ١٤٩.

(٢) ابن رشيق - العمدة ١/ ٥٥.

(٣) أبو زيد القرشي - جمهرة اشعار العرب ٢٣٤، محفال: يجتمع الناس لسماع غنائه لجمال صوته.

(٤) السابق ٣٢٦، ٣٢٧- العود: الزوار عند المرض، العاذلات: اللوم، الكميت: الخمر التي تضرب إلى السواد، تعل بالماء: تخلط بالماء، تعصير يوم الدجن: تخصيص يوم المطر، ببهكنة: الحسننة الخلق، الخباء: بيت الشعر، المضاف: المخرج الذي احيط به، محناً، المحنب: الذي بدت عظامه

على أمرئ القيس ومنه «فأحمد الحالات في ذلك ان تعرف الواجب عليك في احدى خلال: اما ان اخترت من بني أسد أشرفها بيتاً وأعلاها في بناء المكرمات صوتاً، فقدمناه إليك بنسعه تذهب مع شفرات حسامك قصدته فيقول رجل: امتحن بهلك عزيز فلم تستل سخيمته الا بتسكينه من الانتقام، أو فداء بما يروح من بني أسد من نعمها فهي الوف تجاوز الحسبة، فكان ذلك فداء رجعت به القضب إلى اجفانها لم يردده تسليط الاحن على البرءاء، وأما أن توادعنا حتى تضع الحوامل فنسدل الازر ونعقد الخمر وفق الرايات...»^(١).

وفي صدر الإسلام ورد التقسيم في الحديث الشريف، فمما أثر عنه عليه السلام في ذلك قوله «احلت لنا ميتتان ودمان، فاما الميتان فالسمك والجراد، واما الدمان فالكبد والطحال»^(٢)، ومن التقسيم في حديث أبي بكر قوله «ثلاث من كن فيه كن عليه: البغي والنكث والمكر، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾، وقال تعالى ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ وقال تعالى ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾»^(٣). ومنه في حديث عمر قوله «ثلاث قد ضمنهن الله تعالى ولا خلف فيهن: ان الله لا يضيع أجر المحسنين، إن الله لا يهدي كيد

من الجوع والاعياء، والسيد: الذئب، شجر صحراوي وذئابه من أخبث الذئاب، ذي السورة: البالغ العطش، المتورد: بلغ ورد الماء.

(١) الأصفهاني - الاغاني ٩/ ١٠١، خلال: خصال، النسع: السير الذي تقاد به الدابة وهو هنا كناية عن الانقياد والطاعة، حسامك: سيفك، السخيمة: الحقد، نعمها: حيواناتها ودوابها، القضب: السيوف، أجفانها: أعماؤها، الإحن: الحقد، تضع الحوامل: تلد النساء والعبارة وما بعدها كناية عن طلب مهلة أو هدنة.

(٢) الثعالبي - برد الاكباد في الاعداد ص ١٠٤ - ١١٤.

(٣) الثعالبي - السابق

الخائنين، ان الله لا يصلح عمل المفسدين»^(١). ومنه في حديث عثمان قوله «أصلح الأعمال ثلاث: خوف الله تعالى في السر والعلانية، والحكم بالعدل في حال الرضى والغضب، والاقتصاد في الغنى والفقر»^(٢). ولو أردنا استقصاء ذلك لطال بنا المقال. وعليه فلا مجال للشك في نسبة ما ورد من تقسيم عددي في النهج لعلي بن أبي طالب عليه السلام.

فالشك الذي قيل عن التقسيم العددي موجه بالذات إلى رسالة علي عليه السلام التي كتبها لقاضيه شريح عندما بلغه انه اشترى داراً بثمانين ديناراً^(٣) وكتب بذلك عهداً اشهد فيه شهوداً فكتب له الإمام عليه السلام بذلك عهداً ينعى عليه فعلته، وما ورد في ذلك العهد من تقسيم وتحديد هو الباعث الحقيقي لذلك الشك، لأنه لم يؤثر عن الصحابة نص نسج على منواله، لكن ابن أبي الحديد قد اتخذ من شرط الإمام علي عليه السلام الذي كتبه لشريح دلالة على أن مثل ذلك الشرط كان معمولاً به في زمن الصحابة، الا ان احداً منهم لم ينقل الصيغة الفقهية إلى المعنى الوعظي سوى الإمام علي عليه السلام^(٤). والشاكون في هذا النص يأخذون عليه التحديد الدقيق للشرط الفقهي بادعاء أن مثل ذلك لم يتبلور بعد في عصر صدر الإسلام. ويدحض ذلك الزعم ما ورد في القرآن الكريم من دقة متناهية في كتابة الشروط كما ورد في قوله تعالى:

(١) الثعالبي - السابق

(٢) الثعالبي - السابق

(٣) يقول أحمد أمين في فجر الإسلام ص ١٤٨ «... نهج البلاغة وهو يشتمل على كثير من الخطب والأدعية... وقد شك في مجموعها النقاد... كالذي فيه من وصف الدار وتحديداتها بحدود وهي أشبه بتحديد الموثقين...».

(٤) راجع شرح النهج ١٤ / ٣٠-٣١.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمْلََّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ﴾ (١)،

فشروط الدين كما ينص القرآن الكريم عليها هي من الدقة المتناهية بحيث يمكن اعتبارها نموذجاً يحتذى به في كتابة العقود الفقهية الاخرى التي ضاعت في خضم ما ضاع من التراث الإسلامي. أضف إلى ذلك ما قام به عثمان بن حنيف من مسح لسواد العراق بتكليف من عمر بن الخطاب بعد فتح فارس (٢)، فيه دلالة على معرفة المسلمين الأوائل بعمليات المسح وتحديد الاراضي، لأن مسح تلك المساحات الشاسعة وتحديد حدودها الجبائية من قبل احد الصحابة يعني بدهياً انه لا يعوز علي عليه السلام - وهو أفته الأمة وأقضاها - أن يملي شرطاً مماثلاً لشروط ابتياع الأملاك.

ثم ان ذلك الشرط يتناسب تماماً والزهد الذي التزمه علي عليه السلام وحث قضاته وعماله عليه فهو قد اقتبس من شرط تحديد العقار شكله، اما المضمون فقد نحا

(١) البقرة / ٢٨٢.

(٢) راجع - أبو عبيد: الأموال ص ٦٨ وما بعدها، وراجع أيضاً: البلاذري - فتوح البلدان ص ٢٦٨،

فقد ورد فيه «ان عمر بن الخطاب بعث عثمان بن حنيف الأنصاري يمسح السواد فوجده ستة

وثلاثين ألف ألف جريب».

به نحواً زهدياً الهدف منه الوعظ.

ومما يجعلنا أكثر اطمئناناً في نسبة النص لعلي (عليه السلام)، وروده باختلاف في روايته عند الصدوق (ت ٣٦١) في أماليه^(١) كما ورد أيضاً باختلاف في بعض عباراته وسند متصل بالشعبي عند سبط ابن الجوزي (ت ٦٥٤)^(٢) بحيث لا يمكن الشك في نسبة النص لعلي (عليه السلام)، ولا فيما ورد من تقسيم عددي منسوب إليه في النهج كما نعتقد.

٧- ورود كثير من المغيبات في ثنايا بعض نصوص النهج^(٣):

أورد الشريف الرضي في (نهج البلاغة) نصوصاً تحكي حوادث مستقبلية تأولها كل حسب تصوره واعتقاده، من ذلك وصف التركمان، أو شعوب ما وراء النهر أو المغول حسب تفسير البعض^(٤)، كما وردت نصوص مأثورة عن علي (عليه السلام) يتنبأ فيها بما سيحدث من فتن وما سيصيب الناس جراء تلك الفتن من جوع وقتل وتشريد^(٥) إلى غير ذلك من أمور كظهور المهدي^(٦) وحكم بني

(١) أمالي الصدوق - المجلس ٥١ ص ٢٥٦، وراجع في ترجمة الصدوق الكنى والألقاب ١/ ٢١٢.

(٢) تذكرة خواص الأمة ص ١٤٩.

(٣) يقول العقاد في عبقرية الإمام ص ١٢٦ «من المحقق الذي لا خلجة فيه من الشك عندنا ان النبوءات التي جاءت في نهج البلاغة عن الحجاج بن يوسف وفتنة الزنج وغارت التتار وما إليها هي من مدخول الكلام عليه. ومما أضافه النساخ إلى الكتاب بعد وقوع تلك الحوادث بزمن قصير أو طويل»

(٤) راجعها جميعاً حسب ترتيبها في المتن - الخطب النصوص رقم: (١٢٨)، (١٠٠)، (١٠٧)، (١٣٨)، (١٥١)، (٩٧)، (١٦٠)، (١١٥)، (١٤).

(٥) المصدر السابق نفسه.

(٦) المصدر السابق نفسه.

أمية^(١) وما سيصيب الكوفة من إذلال بفعل الحجاج^(٢) وغرق البصرة^(٣). كل ذلك جعل بعض الدارسين يشكك في نسبتها لعلي عليه السلام، وينظرون إلى ذلك من زاويتين:

الأولى - تاريخية:

وتتمثل في التنبؤ بالمغول وما سيحدثونه من رعب في أرض الإسلام وهذا يتنافى ومنطق التاريخ لبعده الشقة الزمنية بين علي عليه السلام وبين حملات التتار على دولة الإسلام إذ سقطت بغداد سنة ٦٥٦ هـ بينما كانت وفاة علي عليه السلام سنة ٤٠ هـ، مما يجعل أولئك الشاكين يجزمون بأن مثل ذلك قد أضيف على النهج في فترة متأخرة بعد وفاة جامعته الشريف الرضي ويمكن الرد على هذا الزعم من ناحيتين:

١- بخصوص ما زعم من اضافات إلى (النهج) بعد الشريف الرضي، ويدحض ذلك النسخة التي كانت بخط الشريف الرضي، والنسخ التي نقلت عن تلك النسخة في عصره، أي قبل بدء حملات التتار فكل تلك النسخ تذكر النص الذي حامت حوله الشكوك بسبب ورود أوصاف تلك الشعوب ضمنه، وغزوهم دولة الإسلام، ونسخة الرضي تلك من النسخ التي عول ابن أبي الحديد عليها في شرحه، ويؤيد ذلك إشارته إليها في مواضع متفرقة من ذلك الشرح. كما ان نسخ (نهج البلاغة) المخطوطة منها والمطبوعة - على كثرتها - لا تكاد تختلف الا في ترتيب بعض النصوص بالتقديم والتأخير، وقد أشار إلى

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) المصدر السابق نفسه.

ذلك ميشم البحراني في شرحه^(١) فلو كانت هناك أية إضافات لكانت بعض النسخ أقصر من الأخرى إذ «كان طبيعياً بعد ان استفاضت شهرة الكتاب وطبقت الافاق، وتواتر متنه على ألسنة الأدباء والفضلاء ان يقل الاختلاف في نصه، وان ينتقل من جيل إلى جيل برواية تكاد تكون واحدة. واذا اضفنا إلى شهرته الأدبية ما احيط به من معاني التعظيم - بل التقديس - ولا سيما لدى اخواننا علماء الشيعة الكرام، لم نعجب لسلامته من الزيادة والنقصان، وندرة ما وقع فيه من التحريف والتصحيف^(٢). اضافة إلى ذلك فانه بمناسبة الذكرى الألفية الوفاة الشريف الرضي فقد قام السيد عبد العزيز الطباطبائي بدراسة لحياته ومؤلفاته^(٣)، وقد وقف طويلاً عند (نهج البلاغة) وذكر بعضاً من مصادره، وتعرض أيضاً لذكر مخطوطاته الباقية في المكتبات منذ عصر الرضي حتى القرن الثامن الهجري، وقد عرض إلى مخطوطة سنة تسع وستين واربعمئة لناسخها الحسين بن الحسن بن الحسين المؤدب وهو من أعلام القرن الخامس الهجري، وقد عاصر الشريف الرضي فيما يعتقد، وتعتبر النسخة من أقدم النسخ المخطوطة للنهج وأنفسها، وقد قامت لجنة الاحتفال بتصويرها وتمكنا من الحصول على صورة من تلك المخطوطة وبتصفحنا إياها وجدنا الخطبة مثار الشك موجودة ضمن نصوصها مع ملاحظة أن النسخة قد فرغ من كتابتها قبل سقوط بغداد بمئة وتسع وثمانين سنة. لذا فإن الإدعاء بالزيادة في نهج البلاغة بعد الشريف الرضي - في اعتقادنا - ضرب من المكابرة.

(١) راجع شرح نهج البلاغة لميشم ٣/٤١٣.

(٢) صبحي الصالح - مقدمة تحقيق النهج ص ١٨.

(٣) راجع مجلة تراثنا، العدد ٥ - السنة الأولى ١٤٠٦ - ١٩٨٥، ص ٥٥ وما بعدها

٢- ان ما مورد من وصف في (نهج البلاغة) لتلك الشعوب، فقد ينطبق على المغول أو على غيرهم من شعوب القوقاز الأخرى التي غزت البلاد الإسلامية وتسلطت على الخلافة، فالنص في اعتقادنا لا يحدد جنساً معيناً أو بالأحرى لا يعني التتار بالذات ولم يضيف إلى النهج بعد غزوهم لبغداد، فمن الدلالات المؤكدة على وجود النص في نهج البلاغة قبل سقوط بغداد سنة ٦٥٦ وجوده في نسخ نهج البلاغة التي اعتمدها ابن أبي الحديد في شرحه، وكما هو معلوم ان ابن أبي الحديد قد شرع فيه قبل سقوط بغداد فقد تم تصنيف الشرح «في مدة قدرها أربع سنين وثمانية أشهر وأولها غرة رجب سنة أربع وأربعين وستمائة، وآخرها سلخ صفر من سنة تسع وأربعين وستمائة»^(١)، كما أن الشارح قد توفي سنة ٦٥٥ أي قبل سقوط بغداد بعام بحيث يمكن القول ان النص لم يضيف إلى النهج بعد حملة التتار على بغداد.

ثم إن الوصف الذي ورد في (نهج البلاغة) لتلك الشعوب، هو ذات الوصف الذي أثار عن الرسول ﷺ فيها، من ذلك قوله ﷺ «ينزل الناس من امتي بغائط يسمونه البصيرة عند نهر يقال له دجلة، يكون عليه جسر، يكثرو أهلها وتكون من أمصار المهاجرين - وفي رواية أخرى المسلمين - فإذا كان آخر الزمان جاء بنو قنطوراء، عراض الوجوه، صغار الاعين حتى ينزلوا على شط النهر، فيتفرق أهلها ثلاث فرق...»^(٢)، وما ذكر في النهج من وصف لا يكاد يختلف في مضمونه عما ورد في الحديث الشريف.

(١) ابن أبي الحديد - شرح النهج ٢٠/٣٤٩ - دار احياء التراث.

(٢) ابن الأثير - جامع الأصول ١٠/٤٠٣، وقد جاء في صحيح مسلم ٤/٢٢٣٣ ممثلة تحت رقم

الثانية: عقائدية:

فالغيب لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، وما ورد في (نهج البلاغة) من مغيبات يتنافى وقوله تعالى ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾^(١)، وقد عرضنا لمفهوم علي بن أبي طالب عليه السلام للغيب في موضع آخر من هذا البحث^(٢) ولكن الذي نريد أن نسجله هنا أن ما أثر من استكناه لبعض الأمور المستقبلية لم يكن قصراً على علي بن أبي طالب عليه السلام دون غيره من صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله الذين أخذوا ذلك كله عنه صلى الله عليه وآله. فلو رجع من قال بالشك فيما ورد في بعض النهج من استكناه لأمر مستقبلية إلى الصحاح الستة لوجد ان كل النصوص التي تعرضت للمغيبات في النهج تتماشى مع ما أثر عن الرسول صلى الله عليه وآله من ذلك الشأن^(٣)، بالإضافة إلى ذلك فقد أثر عن عمر بن الخطاب ما هو أدق تفصيلاً مما ورد في النهج منه قوله لابن عباس عن خلافة علي عليه السلام «أما أنه سيليها بعد هياط ومياط ثم تزل قدمه فيها، ولا يقضى منها اربه، ولتكونن شاهداً ذلك يا عبد الله، ثم يتبين الصبح لذي عينين»^(٤)، ومنه ما رواه ابن الأثير في ذكره لفتح (فسا، ودار بجرد) من فارس، إذ «دهم المسلمين أمر عظيم وجمع كثير واتاهم الفرس من كل جانب، فرأى عمر فيما يرى النائم تلك الليلة معركتهم في ساعة من النهار، فنادى الغد الصلاة جامعة، حتى إذا كان في الساعة التي رأى فيها ما رأى خرج إليهم، وكان ابن زنيم والمسلمون بصحراء، إن أقاموا

(١) النمل / ٦٥.

(٢) راجع القضايا الكلامية في فكر علي بن أبي طالب عليه السلام ضمن هذا البحث ص ٥٠٥ وما بعدها.

(٣) راجع جامع الأصول ٤/ ٤٢٩ في قتل عثمان، ٤٣١ في وقعة الجمل، ٤٣٢ في الخوارج، ٤٤٢ في أمر الحكمين ٤٤٥ في ذكر بني مروان ٤٤٦ في ذكر الحجاج.

(٤) شرح ابن أبي الحديد ١٢ / ٨٠.

فيها احيط بهم، وان استندوا إلى جبل خلفهم لم يؤتوا الا من وجه واحد، فقم وقال: يخطب يا سارية بن زعيم الجبل الجبل، ثم اقبل عليهم وقال: ان الله جنوداً ولعل بعضها ان تبلغهم، فسمع سارية ومن معه الصوت، فلجئوا إلى الجبل، ثم قاتلوهم من وجه واحج فهزمهم الله، واصاب المسلمون مغانمهم»^(١)، فمن الملاحظ ان عمر بن الخطاب قد تمكن من انقاذ جيش المسلمين وتوجيهه إلى النصر بفارس عن طريق حلم، ثم نداء في ساعة معينة من المعركة من على منبر المدينة المنورة التي بينها وبين ارض المعركة مسافات شاسعة.

واحتمال تصديق مثل ذلك والاعتقاد به، يستوجب احتمال تصديق ما أثر عن الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة من مغيبات، والا فإن الشك يشمل كل ما أثر عن الرسول وصحابته الكرام في هذا الشأن، اضافة إلى ذلك فإن المغيبات المأثورة عن علي عليه السلام لم يكن ليقصر عليها (نهج البلاغة) فقط، فقد ورد الكثير منها عند المبرد^(٢) وعند أبي حنيفة الدينوري^(٣)، وكل ذلك بجعلنا نميل إلى الرأي القائل باحتمال صحة نسبة تلك النصوص إلى علي بن أبي طالب عليه السلام.

٨- ورد في النهج الكثير من النصوص التي فحواها الوهد والتصوف وذكر المسيح^(٤):

يمكن ان نشك فيما ورد من نصوص زهدية في النهج، لو انها لا تتناسب وسرة من نسبت إليه تلك النصوص، ولكن واقع الحال يخالف ذلك، ففي سيرة

(١) ابن الأثير الكامل في التاريخ ٣/ ٢١-٢٢.

(٢) راجع الكامل في الأدب ١/ ٣٠٣.

(٣) راجع الأخبار الطوال ص ١٥١، ١٥٢.

(٤) راجع محمد سيد كيلاني- أثر التشيع في الأدب العربي، ص ٦٠-٦١.

علي عليه السلام من الأمثلة الكثيرة التي تؤكد أن ذلك المنحى من طبيعته، بحيث لا يمكن فصله اطلاقاً عن سيرته، من ذلك ما أورده أحمد بن حنبل على لسانه «لقد رأيتني مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وإني لأربط الحجر على بطني من الجوع، وإن صدقتي اليوم لأربعون الفاً»^(١)، ومنه أيضاً قول معاوية بن أبي سفيان «لو كان لعلي عليه السلام بيت من تبن وآخر من تبر لأبعد التبر قبل التبن»^(٢). هذا وقد دار حديث حول الزهاد في مجلس عمر بن عبد العزيز «فقال قائلون: فلان، وقال القائلون: فلان فقال عمر بن عبيد العزيز: أزهّد الناس في الدنيا علي بن أبي طالب عليه السلام»^(٣)، ويكفي دلالة على زهد علي عليه السلام قول ضرار «فاشهد لقد رايتته في بعض مواقفه وقد ارخى الليل سدوله وهو قائم في محرابه، قابض على لحيته، يتململ تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين ويقول: يا دنيا يا دنيا، اليك عني، أبيّ تعرضت؟ أم إليّ تشوقت؟ لا حان حينك، هيهات: غرّي غيري، لا حاجة لي فيك، قد طلقتك ثلاثاً لا رجعة فيها، فعيشك قصير، وخطرك يسير وأملك حقير، آه من قلة الزاد، وطول الطريق، وبعد السفر، وعظيم المورد»^(٤). فالزهد جبلة زرعها الإسلام في أعماق علي عليه السلام بفعل عيشه في كنف أعظم الزهاد رسول الله صلى الله عليه وسلم واقتدائه به في جميع شؤون حياته، فقد ورد في الأثر «عن ابن عباس، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليه عمر، وهو على حصير قد أثر في جنبه، فقال يا نبي

(١) البنائالفتح الرباني، ١٩/١٠٦.

(٢) ابن عساكر - ترجمة علي من تاريخ دمشق ٣/١٥٨ من تحقيق محمد باقر المحمودي.

(٣) ابن عساكر - السابق ٣/٢٠٢.

(٤) ورد هذا الخبر في كثير من المصادر منها - المسعودي - مروج الذهب ٢/٤٣٣، القالي المالي

٢/١٤٣، الحصري القيرواني - زهر الآداب ١/٤٠، ابن عبد البر - الاستيعاب بهامش الإصابة

٣/٤٤، الابشيهي - المستطرف ١/٢١٠.

١٠٠ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

الله، لو اتخذت فراشاً أوثر من هذا، فقال: ما لي والدنيا، ما مثلي ومثل الدنيا الا كراكب سار في يوم صائف، فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار ثم راح وتركها»^(١). لذلك فإن محاولة الدس فيما ورد من زهد في النهج بالقول باثر المسيحية فيه لا يستند لأية حجة، لأن ما اسماه اولئك بمنهج المسيح - بسبب ذكر المسيح في نص واحد من (نهج البلاغة) - قد أثر الكثير منه عن صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم، فافرد أحمد بن حنبل فصلاً كاملاً بما أثر عنهم في «زهد عيسى عليه السلام ومواعظه»^(٢)، ومما أثر عن أبي هريرة في ذلك قوله «كان عيسى بن مريم عليه السلام يقول لأصحابه: اتخذوا المساجد مساكن، والبيوت منازل، وكلوا من بقل البرية وانجوا من الدنيا بسلام... واشربوا الماء القراح»^(٣)، ومنه ما روي عن مالك بن أنس، قال «بلغني ان عيسى بن مريم عليه السلام قال لقومه: لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فتنفسوا قلوبكم، فإن القلب القاسي بعيد من الله، ولكن لا تعلمون، ولا تنظروا في ذنوب الناس كأنكم ارباب، وانظروا فيها كأنكم عبيد، وإنما الناس رجالان: مبتلى ومعافى، فارحموا أهل البلاء، واحمدوا أهل العافية»^(٤).

وبالمقارنة بين ما ورد في النهج وبين ما روي عن الصحابة في زهد المسيح عليه السلام نلاحظ ان لا اختلاف بين هذا وذاك الا في صياغة الألفاظ مع انطلاق المعاني ودورانها في رحاب الإسلام بعيدة كل البعد عن رهبانية المسيحية بالانزواء عن الدنيا وترك ملذاتها. إضافة إلى ذلك فإن ما اسماه أولئك بمنهاج المسيح، لم يتعدَّ

(١) البنا الفتح الرباني لترتيب مسند أحمد ١٩/١٠٢.

(٢) كتاب الزهد ١/١٧٦ حتى ٢٠٣.

(٣) ابن مبارك - كتاب الزهد ص ١٩٨.

(٤) السابق ص ٤٤.

في (نهج البلاغة) الأربعة أسطر وردت ضمن خطبة وعظية^(١)، ذكر فيها زهد النبي ﷺ وغيره من الرسل ﷺ، وذلك يجعلنا لا نرتاب في نسبتها هي وغيرها من النصوص الأخرى إلى علي ﷺ، لأن الزهد في كل تلك النصوص يتطابق تماماً ونهج الإسلام لانطلاق ذلك الزهد من ذم الدنيا وهوها، فهو مبني على:

- ما ورد في القرآن الكريم كما في قوله تعالى:

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ﴾^(٢).

- وما أثر عن الرسول ﷺ «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»^(٣).

- ومن وصف عمر بن الخطاب لرسول الله ﷺ «لقد رأيت رسول الله ﷺ

يظل اليوم يتلوى، ما يجد دقلاً يملأ به بطنه»^(٤)

أضف إلى ذلك ما روته المصادر عن زهادة علي ﷺ وخشونة لباسه وجشوبة طعامه^(٥).

٩- وصف الحياة الاجتماعية وصفا دقيقا وانتقاد سلوك بعض الولاة واخلاقهم^(٦):

ان الشاكين في نسبة نصوص نهج البلاغة التي تعرضت بالنقد لسلوك الولاة وفضح أعمالهم لعلي بن أبي طالب ﷺ، إنما ينكرون فترة خلافته التي

(١) راجع باب الخطب، نص رقم ١٦١.

(٢) الحديد ٢٠ وال عمران: ١٨٥.

(٣) صحيح مسلم ٤/٢٢٧٣.

(٤) السابق ٤/٢٢٨٥، والدقل: بفتح الدال والقاف أراد التمر- صحاح الجوهري ٤/١٦٩٨.

(٥) راجع أحمد بن حنبل - كتاب الزهد ٢/٤٧ وما بعدها.

(٦) راجع أثر الشيع في الأدب، ص ٦٠-٦١.

١٠٢ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

امتدت من ٣٥هـ الى ٤٠هـ ولم تشهد حياته خلالها الاستقرار، حيث بدأت القيم تتغير بغلبة النزعة المادية على النزعة الروحية في طبيعة الإنسان المسلم، ووجود علي عليه السلام في خضم فترة الانتقال تلك جعله يحس للوهلة الأولى من توليه الخلافة، ان الإمارة قد أصبحت مغنماً مادياً في نظر كثير من الصحابة، فهذا هو معاوية يشترط في بيعته لعلي عليه السلام ان يقره والياً على الشام^(١)، والزيبر بن العوام يطلب منه ولاية البصرة^(٢)، كما يبدي طلحة بن عبيد الله رغبته في ولاية الكوفة^(٣). ولما كانت مبادئه تأبى عليه المصانعة، كان لابد له من حسم الأمر منذ البداية - وان كلفه بذلك الكثير- مما جعل أولئك يتظاهرون عليه ويؤلبون الأمة على الثورة بقصد نقض خلافته^(٤)، مع ملاحظة أن من أولويات الأمور التي قام بها طلحة والزيبر عند دخولهما البصرة الاستيلاء على بيت المال^(٥). وإذا ما تركنا ذلك جانباً، نجد أن بعض ولاته لم يكونوا في مستوى المسؤولية التي أناطها بهم في الفترة الانتقالية تلك، من ذلك أن أبا موسى الأشعري واليه على الكوفة كان «كارهاً للقتال مخذلاً للناس عن نصره امامهم»^(٦)، كما «لم تكن طاعة مصقلة - والي أذربيجان - لعلي عليه السلام طاعة الرجل الذي يصدر في كل ما يأتي

(١) راجع ابن قتيبة - الإمامة والسياسة ١ / ١١٧، البلاذري - أنساب الأشراف ٢ / ٢٩٣.

(٢) راجع تاريخ ٤ / ٤٢٩، ٤٣٨.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) راجع السابق ٤ / ٤٧٥ - قول عبد الله بن الزبير لحكيم بن جبلة في أمر عثمان بن حنيف «لا

نرزقكم من هذا الطعام، ولا نخلى سبيل عثمان بن حنيف حتى يخلع علياً».

(٥) راجع البلاذري - أنساب الأشراف ٢ / ١٣٣ ففي قول الزبير لما دخل بيت مال البصرة.

(٦) طه حسين - علي وبنوه ٣٤.

عن معرفة الحق والايان»^(١)، اضافة إلى العصبية القبلية التي كانت تنضح بها نفوس بعض ولاته كالأشعث بن قيس^(٢)، لكنه بالرغم من كل تلك المصاعب لم يتهاون إطلاقاً في إحقاق الحق، فقد «كان شديد المراقبة لعماله، يشدد عليهم في الحساب، وفي سيرتهم العامة والخاصة وأنه كان يرسل الارصاد والرقباء ليطلعوه على سيرة العمال»^(٣). فمن يقوم بتلك الأعباء الثقيلة دون هوادة، في عصر مضطرب، لا يعوزه القول إذا كان يملك بجانب الشجاعة والجرأة، الورع وقوة البيان. وعليه فإن ما ورد في (نهج البلاغة) من وصف للمجتمع، ونقد لاذع لسلوك بعض الرجال كمعاوية^(٤)، وطلحة والزبير^(٥)، وعبد الله بن عباس^(٦) والاشعث بن قيس وغيرهم، هو من كلام علي عليه السلام ويؤيد ذلك، وقائع التاريخ وورود تلك النصوص باختلاف في رواياتها في المصادر التاريخية السابقة للنهج.

(١) السابق ١١٦.

(٢) راجع ابن مزاحم - صفين ٢٠ وما بعدها، وراجع أيضاً قول الإمام في الأشعث - الاغانى ١٩/٢١.

(٣) أحمد محمود صبحي - نظرية الإمام ٢٨٤.

(٤) راجع ابن مزاحم السابق ص ٢٩، ٥٧ وما بعدها.

(٥) عما قاله في ذم طلحة راجع العقد الفريد ٤/ ٣١٤، اما عما قاله الإمام علي عليه السلام في علاقته بالزبير فراجع منه - ابن الأثير أسد الغابة ٣/ ٢٤٣.

(٦) أخذ عبد الله بن عباس اموالاً طائلة من بيت مال البصرة التي هو وال عليها من قبل علي عليه السلام فلما علم علي عليه السلام بذلك كتب إليه في هذا الشأن يهدده ويوبخه وقد دارت بينهما مشادة سجل جزاء منها البلاذري انساب الاشراف ٢/ ١٧٠ وما بعدها.

١٠- نسبة بعض نصوص النهج لغير علي عليه السلام في مصادر أخرى (١):

ان النصوص التي وردت منسوبة لغير علي عليه السلام في بعض المصادر، بينما نسبتها الرضي في (نهج البلاغة) لعلي عليه السلام، تكاد تكون من القلة بحيث يمكن مناقشة كل نص منها على حدة، ففي باب الخطب وردت اربعة نصوص وهي:

١- الخطبة رقم ٣٢ «أيها لناس انا قد اصبحنا في دهر عنود» (٢). وقد علق الشريف الرضي عليها بقوله «هذه الخطبة ربما نسبتها من لا علم له إلى معاوية، وهي من كلام المؤمنين عليه السلام الذي لا يشك فيه» (٣)، ثم أورد تعليق الجاحظ الذي حقق في نسبتها بقوله «وفي هذه الخطبة ابقاك الله - ضروب من العجب: منها ان الكلام لا يشبه السبب الذي من اجله دعاهم معاوية، ومنها ان المذهب في تصنيف الناس في الأخبار عما هم عليه من القهر والاذلال، ومن التقية والخوف، اشبه بكلام علي عليه السلام ومعانيه وحاله منه بحال معاوية، ومنها ان لم نجد معاوية في حال من الحالات يسلك في كلامه مسلك الزهاد» (٤)، هذا وقد وثق عبد الزهراء الحسيني (٥) النص بما يثبت صحته نسبتته إلى علي عليه السلام من كتاب (مطالب السؤل - لمحمد بن طحلة الشافعي) الذي ذكر مكان الخطبة بعد ان مهد لها بما يثبت انه لم يأخذها من نهج البلاغة، وفيما ورد من تعليقات كل من الجاحظ والشريف الرضي بالإضافة إلى توثيق النص ما يؤيد نسبتته إلى علي عليه السلام.

(١) أحمد زكي صفوت - ترجمة الإمام علي ص ١٢٢ بواسطة عبد الزهراء الحسيني - مصادر نهج البلاغة / ١ / ١١٣.

(٢) راجع النص رقم ٣٢ باب الخطب.

(٣) راجع النص رقم ٣٢ باب الخطب.

(٤) الجاحظ - البيان والتبيان ٢ / ٦١.

(٥) مصادر نهج البلاغة / ١ / ٤١٧.

٢- الخطبة رقم ٤٦ «اللهم إني أعوذ بك من وعشاء السفر...»^(١)، قال عنها الرضي «وابتداء هذا الكلام مروى عن رسول الله ﷺ، وقد قفاه أمير المؤمنين بأبلغ كلام وتممه أحسن تمام من قوله: ولا يجمعهما غيرك»^(٢)، وبالفعل فإن من يراجع كتب الحديث الشريف^(٣) يلاحظ ما ذيل به الإمام علي عليه السلام ذلك الدعاء المأثور عن الرسول ﷺ، مما لا يدعو إلى الشك بأن الإضافة كانت لعلي عليه السلام، وفي ذلك دلالة أكيدة على أمانة الشريف الرضي العلمية وحرصه على إبعاد الشك عن مختاراته لعلي عليه السلام في (نهج البلاغة).

٣- الخطبة رقم ١١٠ «أما بعد فإني احذركم الدنيا فإنها حلوة خضرة...»^(٤). سكت الرضي عن التعليق عليها، وأوردها إيراد المسلمات بنسبتها لعلي عليه السلام، مما يدل على أنه قد أخذها من مصدر يثق في روايته، ولو وجد حولها أي شك لما سكت عن ذلك. ولكن الجاحظ^(٥)، وابن قتيبة^(٦) وابن عبد ربه^(٧) قد نسبوا الخطبة إلى قطري بن الفجاءة وقد علق بن أبي الحديد على نسبة الجاحظ لها لقطري بقوله «واعلم ان هذه الخطبة ذكرها شيخنا أبو عثمان الجاحظ في كتابه (البيان والتبيان) ورواها لقطري بن الفجاءة، والناس يروونها لأمر المؤمنين عليه السلام، وقد رأيتها في كتاب (المؤنق) لأبي عبد الله المرزباني مروية لأمر

(١) يمكن الرجوع إلى النص وتعليق الرضي عليه من خلال النهج - باب الخطب.

(٢) يمكن الرجوع إلى النص وتعليق الرضي عليه من خلال النهج - باب الخطب.

(٣) راجع ابن الأثير جامع الاصول ٨٦/٥.

(٤) راجع جدولة النهج - باب الخطب.

(٥) البيان والتبيان ١٢٦/٢.

(٦) عيون الأخبار ٢/ ٢٥٠ نتفة من الخطبة.

(٧) العقد الفريد ٤/ ١٤١.

المؤمنين عليه السلام، وهي بكلام أمير المؤمنين أشبهه، وليس يبعد عندي أن يكون قطري قد خطب بها بعد أن أخذها عن بعض أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام فإن الخوارج كانوا أصحابه وأنصاره، وقد لقي قطري أكثرهم^(١)، وفي سكوت الرضي عن التعليق على النص، وتعليق ابن أبي الحديد على نسبه بعد توثيقه ما يجعل ترجيح نسبه إلى علي عليه السلام أقرب.

٤- الخطبة رقم ١٩٧ «أيها الناس إنما الدنيا دار مجاز والآخرة دار قرار...»^(٢)، جعل الرضي نسبة هذا النص إلى علي عليه السلام من المسلمات بعدم التعليق عليه كعادته في كل نص يحوم حوله الشك، إلا ان ابن أبي الحديد قد نبهنا إلى ان المبرد قد نسبه إلى اعرابي نقلاً عن رواية الاصمعي معلقاً على ذلك بقوله «واكثر الناس على ان هذا الكلام لأمر المؤمنين عليه السلام، ويجوز ان يكون الاعرابي حفظه فأورده كما يورد الناس كلام غيرهم»^(٣). فسنجد رواية المبرد^(٤) الأصمعي «والعلاقة بين العلويين والأصمعي لم تكن مرضية، فقد قطع علي بن أبي طالب عليه السلام يد جدّ الأصمعي في سرقة شن رخيص، ولم يتمكن من التغلب على هذه العقدة»^(٥)، فلا اعتقد أن الاصمعي وهو الخبير بكلام العرب لا يعرف هذه نسبة الخطبة لعلي عليه السلام، ولكن ما يحمله من بغض للعلويين وللإمام علي عليه السلام على وجه الخصوص جعله لا يصرح بذلك، وما تخطته للكثير في قوله (كامل):

(١) شرح النهج ٧/٢٣٦ وراجع التعليق على الخطبة بأكمله.

(٢) راجع جدول النهج - باب الخطب.

(٣) شرح النهج ١١/٤٣.

(٤) الكامل في الأدب ٤/١٠٨.

(٥) داود سلوم - الكميته ١/٣١.

أرعد وأبرق يا يزيد فما وعيدك لي بضائر

إلا محاولة تخطئة علي بن أبي طالب عليه السلام^(١) بطريق غير مباشر في قوله «وقد أرعدوا وأبرقوا ومع هذين الفشل»^(٢)، فرواية الأصمعي لا يعتد بها في هذا الموضوع. علاوة على ذلك فقد روى الصدوق في أماليه منسوباً إلى علي عليه السلام بزيادة واختلاف في بعض العبارات مما يؤكد أن الشريف الرضي لم يأخذه عنه^(٣) وعليه فإن هناك مصدراً ثالثاً أخذه عنه الرضي وهذا يؤكد نسبته إلى علي عليه السلام مما لا مجال للشك فيه.

القسم الثاني

ويقتصر على النص رقم ٢٩٧ من باب الحكم «كان لي فيما مضى أخ في الله...»^(٤)، وقد أوردته الرضي دون التعليق عليه مما يعني تاكده من نسبته إلى علي بن أبي طالب عليه السلام، كما لم يشر ابن أبي الحديد إلى الشك في نسبته أيضاً، لكن وجود النص بعينه عند عبد الله بن المقفع^(٥)، ملتحمًا بنسيج الموضوع الذي أوردته فيه أثار شكوك البعض، لأن بن المقفع لم ينسبه إلى قائله. لكن

(١) راجع تعليق داود سلوم حول تخطئة الأصمعي للكميت، هامش ١ / ٢٢٥-٢٢٦ من شعر

الكميت فقد أورد فيه قول الأصمعي ورأي المعري في ذلك القول.

(٢) نص ٩ من باب الخطب، وراجع تعليق ابن أبي الحديد على النص أيضاً.

(٣) أمالي الصدوق ص ٩٧.

(٤) جدولته النهج - باب الحكم والكلمات القصار.

(٥) الأدب الكبير، ص ١٣٣.

التأمل في النص ومعانيه، يجد تفاوتاً كبيراً بينه وبين أسلوب ومعاني الفصل الذي أدرج فيه، إذ يغلب على عبارات ابن المقفع الواقعية المتسمة بالجفاف في بعض المواضع، بينما يغلب على عبارات النص المقحم في الفصل، المثالية المتسمة بالروحانية التي لا يمكن لابن المقفع ان يعبر عن مثلها لا لقصور في أدواته التعبيرية، ولكن لبعده روحياً عن شحنات العاطفة العميقة الجياشة التي تسري في شرايين تلك المعاني الهادئة السلسلة عليها مسحة من إيمان عميق يبلغ في بعض من تعابيرها حد التصوف. فلنلاحظ الفجوة بين الأسلوبين ليصبح ما نقول أكثر وضوحاً، إذ يقول ابن المقفع: «قد رأينا من سوء المجالسة أن الرجل تثقل عليه النعمة يراها بصاحبه، فيكون ما يشتفي بصاحبه، في تصغير أمره وتكدير النعمة عليه، ان يذكر الزوال والفناء والدول كأنه واعظ وقاص، فلا يخفي ذلك على من يعني به ولا غيره ولا ينزل قوله بمنزلة الموعظة والابلاغ، ولكن بمنزلة الضجر من النعمة إذا رآها لغيره، والاعتماد بها والاستراحة إلى غير روح»^(١)، فابن المقفع في الفقرة السابقة يصف واقع التحاسد في مجتمع يتكالب أفراده على المادة ويغلي في نفوس أبنائه الحسد بعبارات سهلة وأسلوب علمي اقرب منه إلى الأسلوب الأدبي لخواه من الخيال والمحسن اللفظي. ثم فجأة ينقلنا إلى جو مشبع بالمثالية، بأسلوب يكاد يكون روحانياً في قوله «واني مخبرك عن صحاب لي، كان من اعظم الناس في عيني، وكان رأس ما أعظمه في عيني صغر الدنيا في عينيه، وكان خارجاً من سلطان بطنه، فلا يشتهي ما لا يجد، ولا يكثر إذا وجد، وكان خارجاً من سلطان فرجه فلا يدعو إليه ريبة، ولا يستخف له رأياً ولا بدنأً، وكان خارجاً من سلطان لسانه، فلا يقول ما لا

يعلم، ولا يتنازع فيما يعلم، وكان خارجاً من سلطان الجهالة...»^(١)، فهنا في هذه الفقرة يختلف الوضع من حيث التزاوج بين الأفكار من حيث السلاسة والهدوء في انسياب المعاني، وتناغم الفواصل، والتصوير الفني المنسجم تماما وواقع الموضوع، كالكناية عن زهد الصديق في نظرتة إلى الدنيا باستصغار- وان للبطن واللسان والفرج قوة جامحة ولكنها مكبوحة الجراح. فالنفس في هذا الفقرة تختلف تماما عنها في الفقرة السابقة من حيث هيئتها وسلوبها ومثاليته، وعليه فإن الصديق الذي تحدث عنه ابن المقفع كمثل، لا يمكن أن يكون ذا علاقة به حتى يتمكن من عيش روحه وسبر أعماق نفسه ليترجم إحساساته وكأنه يكتب عن نفسه ويصف حاله، لأن ابن المقفع ذاته كان قريب عهد بالاسلام^(٢) ولما تشعب روحه بنورانيته حتى يمكنه ان ينقل عن صاحبه الكامل الإيمان مثل ذلك الوصف المشبع بالروحانية وبأخلاق سامية اختلف الناس فيمن تكون «فقال قوم هو رسول الله ﷺ... واستبعده قوم... وقال قوم هو أبو ذر الغفاري واستبعد قوم... وقال قوم هو المقداد بن عمرو المعروف بالمقداد بن الاسود... وقال قوم انه ليس إشارة إلى اخ معين»^(٣).

فلو كان النص لابن المقفع - وقد فات الرضي ذلك - فلن يسكت ابن أبي الحديد عنه وهو الذي ناقش في شرحه الكبير جل نصوص النهج وما دار

(١) الأدب الكبير، ص ١٣٣.

(٢) عبد الله بن المقفع «اسمه بالفارسية روزبه... يكنى قبل إسلامه أبا عمر، فلما أسلم اكنى بأبي محمد، والمقفع ابن المبارك وإنما تقفع لن الحجاج بن يوسف ضربه بالبصرة في مال احتجته من مال السلطان» ابن النديم - الفهرست ص ١٣٢.

(٣) ابن أبي الحديد - شرح النهج ١٩ / ١٨٤.

١١٠ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

حولها من خلاف. ثم ان ابن قتيبة^(١) قد نسب النص للحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام، ولا يستبعد ان يكون الحسن عليه السلام قد سمعه من أبيه وأورده في مناسبة ما إيراد المسلمات، هذا وقد أشار ابن ميثم البحراني أثناء تعليقه على النص إلى ان ابن المقفع^(٢) قد نسب ذلك القول للحسن عليه السلام الا اننا لم نجد ذلك في النسخ المطبوعة، فلربما يكون قد اطلع عليه في نسخة خطية لم تصلنا ولربما حذف الاسم بفعل التحريف، كما روى الكليني^(٣) النص منسوباً إلى الحسن بن علي عليه السلام باختلاف يسير في روايته عما أورده كل من ابن المقفع والشريف الرضي، كما نسب الزمخشري^(٤) النص إلى الإمام علي عليه السلام أيضاً وعليه فإن الأرجح عندنا نسبته إلى علي عليه السلام.

١١- ورود كلمة (وصي): وهي مصطلح شيعي مستحدث في أكثر من موضع في النهج^(٥):

من أسباب الشك في بعض نصوص (نهج البلاغة) لعلي عليه السلام، ورود كلمة (وصي) بالمعنى السياسي الذي يرمي منه الشيعة اسباب الشرعية على الدعوى القائلة بأحقية علي بن أبي طالب عليه السلام بالخلافة دون غيره من صحابة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. فمصطلح (وصي) من وجهة نظر أولئك المشككين، هو من اختلاف الشيعة في عصور متأخرة بعد بروز الشيعة المواليين لعلي عليه السلام كحزب معارض تبلورت

(١) عيون الأخبار ٢/ ٣٣٥.

(٢) شرح النهج ٥/ ٣٨٩.

(٣) الاصول من الكافي ٢/ ٢٣٧.

(٤) ربيع الابرار ١/ ٣٠٥.

(٥) راجع محمد سيد كيلاني- أثر التشيع في الأدب العربي، ص ٦٦. وحول إنكار كلمة وصي فيما أثر

عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم واتهام الشيعة بتلقيها، راجع أحمد أمين: فجر الإسلام ص ٢٦٧.

افكاره ومعتقداته^(١). والمتأمل فيما ورد في النهج من نصوص لا يجد كلمة وصي بمعناها السياسي الا في موضع واحد هو «لهم خصائص الولاية وفيهم الوصية والوراثة»^(٢)، والمعنى بالضمير في (لهم وفيهم) آل البيت عليهم السلام. فإذا ما أردنا إثبات صحة نسبة تلك الخطبة، أو بالاحرى تلك العبارة القصيرة التي وردت فيها لعلي عليه السلام، فمن المتوجب ان نثبت بأن مصطلح وصي قد ورد في المأثورات النبوية بنفس المعنى الذي تعنيه عقيدة الشيعة له، وذلك بتتبعه تاريخياً. فأول ما تصادفنا كلمة (وصي) بمعناها الاصطلاحي في علي عليه السلام، في بداية تبشير الدعوة الإسلامية، إذ انه لما نزل قوله تعالى:

﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^(٣) أمر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم علياً بأن يدعو عشيرته ويعد لهم طعاماً، وبعد ان تجمعوا وفرغوا من طعامهم قال لهم صلى الله عليه وآله وسلم «اني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله تعالى أن أدعوكم إليه، فأيكم يؤازرنى على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصي وخليفتي فيكم؟ قال علي: فأحجم القوم عنها جميعاً قلت: وإني لأحدثهم سناً، وأرمصهم عيناً، وأعظمهم بطناً وأحمشهم ساقاً، أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه، فأخذ برقبتي ثم قال: ان هذا أخي ووصي وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا»^(٤).

وبصدد كلمة وصي، سأل سلمان الفارسي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «يا رسول الله ليس

(١) راجع أحمد محمود صبحي: نظرية الإمامة لدى الشيعة ص ٢٨ وما بعدها، فقد عرض لنشأة التشيع.

(٢) خطب - ١٢.

(٣) الشعراء ٢١٤.

(٤) تاريخ الطبري ٢ / ٣٢١، ابن الاثير - الكامل في التاريخ ٢ / ٤٢.

١١٢ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

من نبي إلا وله وصي وسبطان، فنوصيك وسبطاك؟... فلما صلى رسول الله ﷺ الظهر، قال: ادن يا سلمان... فقال: سألتني عن شيء لم يأتني فيه أمر، وقد أتاني ان الله قد بعث اربعة الاف وصي، وثمانية الاف سبط، فوالذي نفسي بيده لأنا خير النبيين، وان وصيي لخير الوصيين، وسبطاي خير الاسباط»^(١).

وقد تكررت كلمة وصي من النبي ﷺ وفي علي عليه السلام بالذات في مواطن متعددة، منها قوله ﷺ «إن لكل نبي وصياً وإن علياً وصيي ووارثي»^(٢)، وفي موطن آخر قال ﷺ «وصيي ووارثي يقضي ديني وينجز موعدي علي بن أبي طالب عليه السلام»^(٣). وفي وصية منه ﷺ في علي بن أبي طالب عليه السلام «اوصي من آمن بالله وصدقني، بولاية علي بن أبي طالب عليه السلام، من تولاه، فقد تولاني ومن تولاني فقد تولى الله، ومن احبه فقد احبني ومن احبني فقد احب الله عز وجل»^(٤).

كما وردت كلمة (وصي) بمعناها السياسي، وفي علي عليه السلام أيضاً في شعر صدر الإسلام كما في قول شاعر الأنصار النعمان بن عجلان في رده على عمرو بن العاص حين هجا الأنصار بعد وفاة رسول الله ﷺ: (طويل):

وكان هوأنا في علي وانه لأهل لها يا عمر من حيث لا تدري

وصي النبي المصطفى وابن عمه وقاتل فرسان الضلالة والكفر^(٥)

ومنه أيضاً قول حسان بن ثابت الانصاري (طويل):

(١) ابن اسحاق - السيرة - ص ١٠٥.

(٢) المحب الطبري - ذخائر العقبى، ص ٧١.

(٣) المحب الطبري - ذخائر العقبى ص ٧١.

(٤) الزبير بن بكار - الأخبار الموفقيات ص ٣١٢.

(٥) المصدر السابق، ص ٥٩٣.

جزى الله عنا والجزاء بكلفه أبا حسن عنا ومن كابي حسن
حفظت رسول الله فينا وعهده اليك ومن أولى به منك من ومن
الست اخاه في الهدى ووصيه واعلم منهم بالكتاب وبالسنن^(١)

وفي نفس السياق يقول أبو الاسود الدؤلي (وافر):

احب محمداً حبا شديداً وعباساً وحمزة والوصيا^(٢)

ومن ذلك أيضاً ما ورد في خطبة الحسين بن علي^(عليه السلام) قبل استشهاده يوم عاشوراء (اما بعد، فانسيوني، فانظروا من انا، ثم ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها، فانظروا هل يحل لكم قتلي، وانتهاك حرمتي؟ الست ابن بنت نبيكم^(عليه السلام) وابن وصيه وابن عمه^(٣)).

تلك إذاً كلمة (وصي) بمعناها السياسي، كما وردت في الحديث النبوي الشريف، وفي الشعر وفي الخطابة، وهي تدحض ما زعم بأن الشيعة هم الذين ابتدعوا وألبسوها ذلك المعنى لذلك فإن وجودها في (نهج البلاغة) مأثورة عن علي بن أبي طالب^(عليه السلام) مما لا ريب فيه.

١٢- ذكر الإمامة على لسان علي^(عليه السلام) وأحقية فيها في مواضع كثيرة من النهج هو ما لم يحدث منه على الإطلاق^(٤):

عرض (نهج البلاغة) لأحقية علي بن أبي طالب^(عليه السلام) في خلافة المسلمين دون

(١) الزبير بن بكار- الأخبار الموافقيات، ص ٥٩٨.

(٢) المبرد- الكامل ٣ / ٢٠٥.

(٣) تاريخ الطبري ٥ / ٤٢٤.

(٤) راجع أثر التشيع في الأدب العربي، السابق ص ٦٥.

غيره من قرابة رسول الله ﷺ وصحابته في أربعة عشر نصاً^(١). وهذا ما دعا بعض الدارسين إلى الشك في نسبة نصوص النهج لعلي عليه السلام، أو على الأقل الشك في نسبة تلك النصوص الأربعة عشر، على اعتبار ان علياً عليه السلام بايع من قبله طوعاً ولم يدع لأحقته في الخلافة. ولكن الباحث المحايد في تاريخ صدر الإسلام سيجد ما يناقض تلك المقولة، إذ ما نفيك يذكر احقيته في الخلافة طيلة حياته ابتداء من اليوم الأول الذي بوبع فيه لأبي بكر. يحدثنا ابن قتيبة عن ذلك فيقول «ثم ان علياً عليه السلام أتى به إلى أبي بكر، وهو يقول: انا عبد الله وأخو رسول الله، فقيل له: بايع، فقال: أنا أحق بهذا الأمر منكم لا أبايعكم وأنتم أولى بالبيعة لي»^(٢) وقد يرى أولئك الشاكون ان ذلك القول مختلق على علي عليه السلام، ولكن الذي يؤيده ويثبت صحته ما ورد على لسان أبي بكر عند وفاته «إني لا آسي على شيء في الدنيا إلا على ثلاث فعلتهن ووددت اني تركتهن، وثلاث اني تركتهن ووددت اني فعلتهن، وثلاث وددت اني سألت رسول الله ﷺ عنهن، فإما الثلاث اللاتي فعلتهن ووددت اني تركتهن: فوددت ان لم أكشف بيت فاطمة عن شيء، وان كانوا أغلقوه على حرب»^(٣)، وكشف بيت فاطمة عليه السلام الذي تمنى أبو بكر انه لم يفعله يعني ضمناً معارضة علي عليه السلام، ثم يعني ان علياً عليه السلام، اكره على بيعة أبي بكر بعد اخراجه من بيت فاطمة بالقوة، فقول علي عليه السلام وما صاحبه من أمر على البيعة بالإضافة إلى الوق بكشف بيت فاطمة، كل ذلك يعني معارضة علي عليه السلام وانه لم يؤد البيعة لأبي بكر الا مكرها، فشعوره بالغبن الذي وقع عليه بعد وفاة

(١) راجع الخطب: ٢، ٣، ٤، ٢٦، ٣٧، ٦٦، ٧٣، ٩٩، ١٥٢، ١٦٣، ١٧٣، ١٨٠، ٢١٢ والحكمة رقم

(٢) ابن قتيبة - الإمامة والسياسة ١ / ١١.

(٣) ابن عبد ربه - العقد الفريد ٤ / ٢٦٨.

الرسول ﷺ هاجس ظل يلاحقه، إذ ما فتىء يذكر ذلك بالم ومرارة في كل مناسبة تقتضيه، حتى بعد ان بويع بالخلافة، فمن ذلك قوله في أول خطبة بعد ان بويع له «قد كانت لكم امور ملتم علي فيها ميله لم تكونوا عندي فيها بمحمودين ولا مصيبين. أما إني لو أشاء لقلت، عفا الله عما سلف، سبق الرجلان، وقام الثالث كالغراب هم بطنه...»^(١).

ويتضح من النصوص التي بين أيدينا أن شكواه من ذلك كانت من المرارة والألم بحيث رواها عنه حتى المنابذين له، فعن عبد الرحمن بن أبي بكر قال: قال علي بن أبي طالب عليه السلام «ما لقي أحد من هذه الأمة ما لقيت، توفي رسول الله ﷺ وأنا أحق الناس بهذا الأمر فبايع الناس أبا بكر واستخلف عمر، فبايعت ورضيت وسلمت، ثم بايع الناس عثمان فبايعت ورضيت وسلمت، وهم الآن يميلون بيني وبين معاوية»^(٢)، كما ان القول بأحقية في الخلافة قبل انعقاد الشورى^(٣)، وعلى الملاء يوم بويع لعثمان مشهور^(٤)، وأيضاً مناشدته الصحابة بسماهم حديث الغدير^(٥) عن رسول الله ﷺ فيه من الدلالات الأكيدة: على

(١) الجاحظ - البيان والتبيان ٢ / ٥٠.

(٢) البلاذري - أنساب الأشراف ٢ / ٧٧.

(٣) راجع قوله لعنه العباس بعدما رشحه عمر للخلافة ضمن الستة أصحاب الشورى تاريخ الطبري ٤ / ٢٢٩، ٢٣٠.

(٤) راجع قوله لعبد الرحمن بن عوف بعد أن بايع لعثمان - ابن الأثير الكامل ٣ / ٣٧.

(٥) الغدير - غدير خم: بين مكة والمدينة بينه وبين الجحفة ميلان - معجم البلدان ٤ / ١٨٨. وهو الموضع الذي اعلن فيه الرسول ﷺ على الملاء بعد حجة الوداع قوله «من كنت مولاه فهذا علي مولاه...» وقد أورد أحمد بن حنبل مناشدة علي عليه السلام الصحابة عن سماهم حديث الغدير ورواه في مسنده بسبعة طرق مختلفة - راجع الفتح الرباني ٢٣ / ٢٥ / ٢٧، كما رد ابن عساكر تلك

قوله بأحقيته بالخلافة، لذا فإن ما ورد في (نهج البلاغة) من مثل تلك النصوص المنسوبة إليه، ما هي الا غيوض من فيض أثر عنه، مما لا يدع إلى الشك في صحة نسبتها، وان جل تلك النصوص موثقة من مصادر إما إنها قد الفت قبل الشريف الرضي، واما انها قد وردت فيها باختلاف في رواياتها^(١) يدل على أنها أخذت من مصادر غير المصادر التي اعتمدها الرضي.

١٣- السجع المفرط والأناقة اللفظية في كثير من نصوص (نهج البلاغة)^(٢)

من أسباب الشك في نسبة كثير من نصوص (نهج البلاغة) لعلي بن أبي طالب عليه السلام، شيوع السجع والازدواج في الكثير منها، على اعتبار ان الأناقة اللفظية قد دخلت النثر الفني العربي في وقت متأخر، بعد تفاعل الحضارة العربية الإسلامية بالحضارات المجاورة بفعل التأثير والتأثير^(٣)، إلا أننا نعتقد ان تلك الفكرة مصيبة لبعدها عن الواقع، إلا إذا كان القصد من القول: الزخرفة اللفظية الخارجية التي يعمد إليها الأديب، لاهتمامه بالسجع كغاية يهدف إليها على حساب المضامين.

فالنثر الجاهلي وان لم يصلنا منه سوى النزر القليل، إلا إننا نعتقد انه قد بلغ حد الاتقان والروعة، لأن نزول القرآن الكريم بأساليبه التعبيرية المعجزة وموسيقاه الرائعة المبنية بإحكام لا يمكن محاكاتها، فيه الدلالات البعيدة والأكيدة على ان العرب في جاهليتهم قد كانوا على دراية تامة بأساليب العربية، وذوق بلاغي

المناشدة بثلاث عشر رواية مختلفة - ترجمة علي من تاريخ دمشق ١/ ٣٠-٥.

(١) راجع مصادر النصوص الاربعة عشر.

(٢) راجع أحمد امين: فجر الإسلام ص ١٤٩، شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في النثر ص ٦٢.

(٣) راجع أحمد امين: السابق.

رفيع، وما تحديه لهم بآياته إلا لأنهم قد بلغوا مكانة سامقة من الصياغة الأدبية، تحتاج إلى نماذج معجزة تفحمهم وتتحداهم في اعز ما يملكونه ويفخرون به. فالقرآن الكريم «في بلاغته انما كان يخاطب قوماً يفهمونه ويتذوقونه، وفهم القرآن وتذوقه لا يمكن ان يقع اتفاقاً وبلا استعداد»^(١).

إذا ما سلمنا بمعجزة القرآن البلاغية، فلا بد ان تكون موسيقاه اللفظية جزءاً لا يتجزأ من تلك المعجزة. وعليه فالسجع بصوره الواردة في كتاب الله «طابع اصيل في اللغة تطور مع تطور الزمن»^(٢) ولقد أشار أبو هلال العسكري لذلك بقوله «لو استثنى كلام عن الازدواج، فكان القرآن الكريم، لأنه في نظمه خارج من كلام الخلق وقد كثر الازدواج فيه»^(٣). كما ان قول الرسول ﷺ «اسجعاً كسجع الكهان»^(٤) يؤكد وجود نوع من السجع الجاهلي المستكره بجانب السجع المقبول المحب للنفس، ولولا ذلك لما ورد السجع في أحاديثه ﷺ التي منها «يا أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام»^(٥). يعلق الجرجاني على الحديث الشريف بقوله «فانت لا تجد في جميع ما ذكرت لفظاً اجتلب من أجل السجع وترك لما هو احق بالمعنى منه وأبر به وأهدى إلى مذهبه»^(٦).
فإحساس النبي ﷺ بالقيمة الموسيقية للفظ في بعض الأحيان «ربما غير الكلمة

(١) زكي مبارك: النثر الفني ١/ ٥٥.

(٢) السابق ١/ ٥٤.

(٣) أبو هلال العسكري - كتاب الصناعتين ٢٦٠.

(٤) السابق - ١٦١.

(٥) اسرار البلاغة ١٢.

(٦) اسرار البلاغة ١٣.

١١٨ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

عن وجهتها للموازنة بين الألفاظ واتباع الكلمة أخواتها كقوله عليه السلام: «أعيذه من الهامة والسامة وكل عين لامة. وإنما أراد ملمة»^(١).

إذن فالسجع والازدواج وغيرهما من المحسنات البديعة، خصائص أصيلة في النظم العربي إذ لم تدخل فيه جراء تأثيرات حضارية وافدة، وعليه فإن ما ورد من سجع وازدواج وغير ذلك من موسيقى لفظية ومحسنات بديعية في (نهج البلاغة) أصيلة في نسبتها إلى علي عليه السلام لأنها لا تتعدى في بنائها وانسجامها السير في ظلال القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف من غير افراط ولا تفريط، بحيث يمكننا تقويمها ونقدها من خلال ما يمكن استنباطه من قواعد واصول شيد عليها البناء الفني في الذكر الحكيم والمأثورات النبوية، لبعدها عن التكلف، والانسجام في تناغم الفاظها من حيث المخارج، واتساقها في نصوصها لخدمة المعاني في جوها الذي قيلت فيه، مما ينأى بها عن الافتعال لأنها صادرة في صخبها وهدوئها عن عاطفة صادقة في تمثيلها لروح العصر الذي قيلت فيه، بدلالة احساسنا من خلال العبارات في جرسها عن نبض صادق لا يمكن لآية نفس مهما اوتيت من ملكة بلاغية ان تنقله بالصورة الحية تلك الا من خلال معاشته في واقعه، لأن ترجمة انفعالات الآخرين وأحاسيسهم إلى أفكار من الصعوبة والتعقيد، بحيث لا يمكن أن يعبر عنها إلا صاحبها، وهذا ما يمكن أن نعيشه بالفعل، عند دراستنا للأساليب التعبيرية في فكر علي بن أبي طالب عليه السلام^(٢).

ان (نهج البلاغة) بنصوصه المتكاملة واشلاء الخطب المتناثرة وما ورد فيه

(١) كتاب الصناعتين، ص ١٦١.

(٢) يمكن استخلاص ذلك من قراءة في الباب الخامس من هذا البحث ص ٦٠١ وما بعدها.

من رسائل وعهود وحكم وكلمات قصار، هو بناء متكامل ومنسجم «امتزج فيه أدب وفلسفة وفروسية وسياسية امتزاجاً لا نستطيع معه ان نسل عنصراً منها لنقيمه وحده بعيداً عن سائر العناصر»^(١). وذلك الاعتبار في حد ذاته يعني صدور النهج من مجرى واحد في بنائه بحيث لا يمكن بأي حال من الأحوال أن نرى في هندسته صدعاً أو في تناغم أصواته نشازاً لأنه كل متكامل وان حاول الشريف الرضي توزيع نصوصه على شكل منهج معين ارتاه فكره.

(١) زكي نجيب محفوظ: المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري، ص ٢٩.

منهج الشريف الرضي في تصنيفه لنصوص (نهج البلاغة)

بلغ عدد النصوص التي اختارها الشريف الرضي للإمام علي (عليه السلام) ضمن كتاب (نهج البلاغة) ثمان مئة واثنى عشر نصاً، بين صغير لا يتعدى الجملة المكونة من الكلمتين أو الثلاث والمتوسط المتكون من فقرة أو فقرتين، والكبير الذي بلغ عدة صفحات وقد صنفت في الكتاب حسب الجدول التالي:

الخطب وما يجري مجراها	الرسائل	الوصايا	العهود	الحكم والكلمات القصار
٢٤٤	٦١	١٤	٤	٤٨٩

اما المنهج الذي اختطه الشريف الرضي لتوزيع المادة في المنهج ف«يدور على ثلاث اقطاب:

- أولها: الخطب والأوامر.
- وثانيها: الكتب والرسائل.

- ثالثها: الحكم والمواعظ^(١).

وعلى هذا فقد ضم الكتاب، مقدمة وثلاثة ابواب:

١- المقدمة:^(٢) وقد بين فيها الشريف الرضي الأسباب التي دعت به إلى جمع ما تيسر من مآثورات الإمام علي عليه السلام، والمنهج الذي ارتآه في تنسيق مادته، مع الاشارة بعبقريه الإمام علي عليه السلام في مجال البلاغة وغيرها من العلوم، كما ذكر ضمن تلك المقدمة سبب تسمية الكتاب بـ «نهج البلاغة» ثم تلا ذلك ابواب الكتاب:

٢- الباب الأول: المختار من محاسن خطب الإمام علي عليه السلام، وقد احتوى على مئتين وأربعة وأربعين نصاً بين صغير وكبير، متنوعه المضامين، منها السياسية ومنه الاجتماعية ومنها التأملية التي تبحث في شؤون الخالق والخلق ومنها الزهدية إلى غير ذلك من أدعية وتفسير لبعض من آيات القرآن الكريم.

٣- الباب الثاني: المختار من محاسن كتبه وعهوده ووصاياه، وعدد نصوص هذا الباب تسعة وسبعون نصاً، يمكننا من خلالها دراسة أسلوب علي عليه السلام الاجتماعي والسياسي وطرق تعامله مع أعدائه وعلاقاته بعماله من قضاة وجباة خراج وقادة وولاة، ونظراته إلى طبقات الأمة، وكيفية التعامل مع كل طبقة من خلال علاقة الحاكم بالمحكوم، إلى غير ذلك من وصايا أخلاقية تتعلق بشؤون الدنيا والدين^(٣).

٣- الباب الثالث: المختار من محاسن حكمه وما أثر عنه من أقوال قصيرة

(١) مقدمة الشريف الرضي للنهج - ملحق رقم ١.

(٢) راجع المقدمة السابقة.

(٣) المصدر نفسه.

ويتكون هذا الباب من أربع مئة وتسعة وثمانين نصاً تقريباً، وهو من الثراء بحيث لا يمكن حصر مضامينه في موضوعات معينة، إذ بالإمكان عدّه شاملاً لجميع شؤون الحياة.

إضافة إلى المجهود الكبير الذي بذله الشريف الرضي في جمع المادة وانتقاء شواهد منها وتبويبها، فقد تجلت قدرته كمؤلف بارع ذي ثقافة موسوعية، أثناء عرضه لكثير من النصوص بالتعليق عليها، اما لغاية التوثيق، أو لتبيان قيمة بلاغية دقيقة^(١)، وأما لشرح بعض الغريب^(٢)، أو لمناقشة مسألة فقهية عرض إليها النص^(٣)، إلى غير ذلك من مسائل كلامية أو سياسية. ولما كانت الغاية البلاغية هي الهدف من جمع تلك النصوص^(٤)، فقد أدى ذلك إلى تجزئتها، وتفريقها على فصول مختلفة ومتباعدة داخل الكتاب^(٥)، أضف إلى ذلك اجتزائه بعض العبارات من خطب لم يذكرها، مما يصعب معه فهم تلك العبارات فهماً دقيقاً وأدى إلى كثرة التأويلات حولها^(٦)، ومنه أيضاً ورود فقرات متتالية في فصل واحد من خطب متعددة^(٧)، والشريف الرضي إذ يقوم بذلك فإنه على وعي تام بما يفعل، يقول في المقدمة «ربما جاء فيما اختاره من ذلك فصول غير متسقة، ومحاسن كلم غير منتظمة لأن أورد النكت واللمع ولا

(١) راجع على سبيل المثال الخطبة رقم ٢١.

(٢) راجع على سبيل المثال تعليقه على النص رقم ٣، باب الخطب، والخطبة ٤٢، والخطبة ٤٨.

(٣) راجع تعليق الرضي على الحكمة رقم ٢٦٣.

(٤) راجع مقدمة الشريف الرضي للنهج.

(٥) لقد أشرنا إلى ذلك في ص ٣٧ من هذا البحث.

(٦) راجع ص ٣٧ وما بعدها من هذا البحث.

(٧) وسبق وان اشرنا إلى ذلك في ص ٣٧ وما بعدها من هذا البحث.

اقصد التالي والنسق»^(١).

كما أن الهاجس البلاغي الذي ملك على الرضي إحساسه أثناء تنسيق المادة أوقعه في كثير من المعاني المكررة وعذره في ذلك «أن روايات كلامه - أي الإمام علي عليه السلام - تختلف اختلافاً شديداً: فربما اتفق المختار في روايته فنقل على وجهه ثم وجد بعد ذلك في رواية أخرى موضوعاً غير موضعه الأول، إما بزيادة مختارة، أو لفظ أحسن عبارة، فتقتضي الحال أن يعاد، استظهاراً للاختيار، وغيره على عقائل الكلام، وربما بعد العهد أيضاً بما اختير فاعيد بعضه سهواً أو نسياناً لا قصداً واعتماداً»^(٢).

وما يمكن استخلاصه مما سبق، أن منهج الشريف في تنسيقه مادة (نهج البلاغة) قد انبنى على محورين:

- الأول: أساسي وهو البلاغي.

- الثاني: ثانوي وهو تصنيف النصوص حسب الموضوعات.

وسيطرة المحور الأول على فكر الرضي أدت إلى تجزئة كثير من النصوص لتسليط الضوء على الجانب البلاغي فيها، وقد أوقعه ذلك في أخطاء لا بد من ذكرها:

أولاً: إن التركيز على الجانب البلاغي واجتزاءه من النص دون المراعاة لمعناه التام في سياقه، حال دون فهم بعض الجوانب الفكرية التي انطمست معالمها بسبب ذلك مما فتح الباب للتخمين والافتراضات حول معاني تلك النصوص^(٣).

(١) الشريف الرضي - مقدمة النهج.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) يقول ابن أبي الحديد في شرحه للنهج ٨/ ٢٩٤ أثناء تعليقه على الخطبة رقم ١٣٣ «فاما قوله:

ثانياً: إن إيراد فقرات متتابعه في فصل واحد، أدى إلى التناغم الأسلوبي بين الفقرات، والتنافر في سياقها المعنوي كفصل منتظم، مما يوقع الدراس في حيرة، خاصة إذا اعتمد في دراسته على (نهج البلاغة) دون شروحه المطولة كشرح ابن أبي الحديد وشرح ميثم البحراني أو منهاج البراعة للخوئي، لأن تلك الشروح هي التي حاولت معالجة مثل تلك الفصول بإسهاب^(١) معتمدة على المصادر السابقة على النهج.

ثالثاً: توزيع النص الواحد في فصول متفرقة متباعدة داخل الكتاب، حال دون الوحدة العضوية التي أرادها الإمام علي عليه السلام من النص.

رابعاً: قد نتغاضى عن التكرار الذي أورد الرضي له عذراً في مقدمته، ولكن هناك نصوصاً كررها الرضي بعينها دون أية زيادة جديدة فيها وأشار إلى ذلك التكرار عند إيرادها^(٢).

خامساً: عالج بعض ما ورد من غريب في كلام الإمام علي عليه السلام ضمن باب الحكم والكلمات القصار، في ثمانية نصوص^(٣)، استأنف بعدها الباب المذكور، وحبذا لو افرد لها باباً خاصاً توسع فيه، لأن الغريب لم يقتصر على تلك النصوص الثمانية في مختاراته الكثيرة المتنوعة.

(وكتاب الله) إلى قوله: (لا يخالف بصاحبه عن الله) ففصل آخر مقطوع عما قبله ومتصل بما لم يذكره جامع (نهج البلاغة).

(١) عرضنا لنماذج من ذلك في ص ٣٧ وما بعدها من هذا البحث.

(٢) على سبيل المثال راجع الفقرة الأخيرة من الخطبة رقم ١٧٣ وقارنها بالنص رقم ٢١٢ من باب الخطب - جدول النهج.

(٣) للثبوت من ذلك، راجع باب الحكم ابتداء بالحكمة رقم ٢٦٠ وانتهاء بالحكمة رقم ٢٦٨.

على أن كل ذلك لا يغض من المجهود الكبير الذي بذله الشريف الرضي في حفظه هذا الكم الوافر من التراث الإنساني الذي أثر عن علي عليه السلام كما أنه لا ينقص من قيمة النهج كأثر أصيل يمدنا بفيض زاخر من عبقرية تراثنا الفكري في مجال السياسة والاجتماع والأخلاق والفلسفة والأدب والبلاغة.

قيمة نهج البلاغة

من خلال دراسة متعمقة في نصوص (نهج البلاغة) نظهر بنتيجة مفادها أن تلك النصوص، وإن تنوعت في موضوعاتها، إلا أنها تكاد تكون متكاملة من حيث أساليبها ونبعها الفكري، فهي تمثل «الجمع العجيب - الجميل - في رجل واحد، بين ان يكون الفارس الذي يجيد القتال بسيفه وجواده، وهو السياسي الذي يجادل ويقاوم، وهو الأديب الذي كيف صياغة اللفظ في أروع ما تكون الصياغة... وهو الفيلسوف الذي ينزع بفلسفته إلى ضم الكون كله في أحكام موجزة مركزة نافذة إلى صميم الحق»^(١)، وتلك الاشعاعات المتفرعة من ذلك الكل المتكامل هي التي منحت (نهج البلاغة) الثراء من حيث:

١ - القيمة الأدبية والبلاغية:

عرفنا مما سبق أن الهدف البلاغي هو الأساس الذي من أجله جمعت نصوص (نهج البلاغة) ولا أعتقد أن الشريف الرضي حين قام بذلك الجمع - وهو الأديب الشاعر ذو الذوق الرفيع - قد غفل عما سيحدثه الكتاب من ضجة في الأوساط الأدبية، وما سيناله من مكانة رفيعة عند المهتمين بالبلاغة والأدب،

(١) المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري ص ٥٤.

خاصة أنه قد ألفه وجمع شتاته بناء على رغبة المتأدبين من أبناء عصره^(١)، كما ان اطلاعه على أثر تلك النصوص في بلاغة من سبقه من الكتّاب^(٢) كان حافظاً له على ذلك الجمع، أضف إلى ذلك معاشته لتلك النصوص أثناء الاختيار منها فبراعته وحذقه بصناعة الكلام تمكن من اختيار درر الكلم، التي أصبحت من بعده قطب رحى الدراسات والشروح فما أن ظهر الكتاب إلى الوجود حتى تناولت الأقلام نصوصه بالشروح الكبيرة والصغيرة^(٣)، وتناقلتها الألسن في لغاتها المختلفة^(٤)، فأصبحت معانيها ميداناً تتبارى العقول في إظهار عجائبها، وشرح غريبها، والوقوف عند أسرار بلاغتها، بحيث شكلت تلك الدراسات والشروح مكتبة تكاد تكون متكاملة^(٥). أضف إلى ذلك الدراسات التي ألفت حول النهج وعلى هامشه، فقلما صدرت دراسة أو ترجمة للإمام علي عليه السلام وحياته إلا وتعرضت لبلاغته، مشيرة في ذلك لما حواه النهج من روائع، كما أنه من النادر جداً أن يترجم للشريف الرضي دون ذكر نهج البلاغة وموضوعاته وما دار حولها من جدل له أو عليه.

ولم تقتصر الدراسات في (نهج البلاغة) على القديم، بل ما زالت مستمرة،

(١) راجع مقدمة الشريف الرضي للنهج.

(٢) لا بد أنه قد أطلع على ما روي عن عبد الحميد بن يحيى الكاتب (ت ١٣٢ هـ) حين سئل «ما الذي مكنتك من البلاغة، وخرجك فيها؟ قال: حفظ كلام الأصلع: يعني أمير المؤمنين - الجهمشيارى - الوزراء، والكتاب ص ١٨٢، كما قد أثر عن استاذة ابن نباتة الفارقي (ت ٣٧٤ هـ) قوله «حفظت من الخطابة كنزاً لا يزيد الانفاق إلا سعة وكثرة، حفظت مائة فصل من مواعظ علي

بن أبي طالب عليه السلام»، ابن أبي الحديد: شرح النهج ١ / ٢٤.

(٣) لقد تعرضنا لذلك في ص ١٩ وما بعدها من هذا البحث.

(٤) لقد تعرضنا لذلك في ص ١٩ وما بعدها من هذا البحث.

(٥) لمعرفة ذلك بالتفصيل: راجع عبد الزهراء الحسيني - مصادر نهج البلاغة وأسانيده ١ / ٢٢٠ وما بعدها.

فمحمد عبده في معرض اشاداته بالكتاب يوصي «الطالبين لنفائس اللغة، والطامعين في التدرج لمراقيها، ان يجعلوا هذا الكتاب أهم محفوظهم، وافضل مآثورهم، مع تفهم معانيه في الاغراض التي جاءت من اجلها. وتأمل الفاظه في المعاني التي صيغت للدلالة عليها»^(١). فبلاغة نصوص النهج واساليبها الرفيعة، شحذت عقول الدارسين وحيرت افهامهم لا لأنها اتخذت من القوالب الجمالية غاية، بل لأن العقلية الفذة التي صاغتها استطاعت توظيف البلاغة العربية - في طبيعتها الخالصة- لمعالجة موضوعات الحياة، معالجة تتسم بالحيوية والصدق، فأذابت الفروسية والسياسة والأخلاق والفلسفة والزهد في قوالب محكمة من المتعذر الفصل بين عناصرها وإقامة أي عنصر منها «وحده بعيداً عن سائر العناصر»^(٢). وعلى ذلك فإن عنصري البلاغة والأدب في (نهج البلاغة) - وان كانا هما السبب المباشر في جمع نصوص الكتاب - إلا أنهما لم يكونا عنصري القيمة الوحيدين، لأن معالجة تلك النصوص لجوانب متعددة من الحياة منحها القيمة العالية على اعتبارها أثراً إنسانياً له مكانته من حيث القيمة التاريخية.

٢ - القيمة التاريخية:

إذا كان مؤرخو فترة صدر الإسلام يذكرون الحوادث التاريخية متسلسلة اعتماداً على روايات أخذت سماعاً، فإن في (نهج البلاغة) نصوصاً كثيرة تؤرخ لمعظم تلك الحوادث عن مشاهدة وعيان، لأن قائلها طرف أصيل في تلك الحوادث في بداية الدعوة الإسلامية، وبعد وفاة الرسول ﷺ. وقطب رحي تلك الحوادث بعد مقتل عثمان بن عفان. وبناء عليه فإن نصوص النهج - إذا ما نظرنا فيها بحيدة - هي من أصدق الوثائق التاريخية التي أرخت لتلك الفترة ومن أهمها

(١) مقدمة شرح نهج البلاغة ص ١٢ من طبعة دار الأندلس.

(٢) المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري ص ٢٩.

١٣٠ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

أيضاً. وتتجلى أهمية تلك الوثائق التاريخية، في عدم اقتصرها على سرد الحوادث ووصف المشاكل التي عرضت للمجتمع الإسلامي، بل في مناقشتها لتلك المشاكل من جميع الوجوه مع محاولة لوضع الحلول المناسبة لها، فالنصوص التاريخية الماثورة في النهج عن علي عليه السلام «تعطي صورة واضحة عن نظراته الثاقبة وآرائه البعيدة في مبادئ السياسة وأساليب حكم الرعية وإدارة شؤونها والحث على دفع الفتن عنها»^(١). ثم أن الدراسات للحوادث التاريخية من خلال النهج يمكنه أيضاً متابعه التاريخ الإسلامي في انعطافته الكبيرة التي عبر عنها حديثاً بـ «الفتنة الكبرى»^(٢) التي تمكن دارس تلك الحقبة من معرفته الأسرار الخفية الدقيقة التي بسببها استحال الخليفة الإسلامية إلى ملك عضوض.

لذلك فإن أية دراسة لتاريخ صدر الإسلام، لا تتخذ من (نهج البلاغة) مصدراً من مصادرها تعتبر - في اعتقادنا - قاصرة، خاصة أن التاريخ العام لتلك الفترة لا يحلل الحوادث كتحليل نصوص النهج لها من واقع معاشتها حيث يرى الباحث من خلال العبارات «أن حروباً قد شبت وغارات شنت... والحق منتصر، والباطل منكسر، ومرج الشك في خمود، وهرج الريب في ركود»^(٣). فالحوادث التاريخية في النهج لا تحتسب من النوافل، وإنما هي من أسسه التي لم تكن الصياغة إلا خادمة لها لإجلاء وجهها ورفع غبار الزمن عنها لتبدو جلية واضحة تجعل الباحث يعيش التاريخ ويحلل الحوادث بعيداً عن أية تأثيرات خارجية.

(١) صبحي الصالح: مقدمة تحقيق نهج البلاغة ص ١١.

(٢) أرخ طه حسين لفترة عثمان ثم لفترة علي عليه السلام في كتابين منفصلين بعنوان «الفتنة الكبرى» وقد أرخ في ذينك الكتابين إلى ما أصاب الدولة الإسلامية من شرخ عميق أحالها في نهاية الأمر إلى ملك وراثي.

(٣) محمد عبده: مقدمته لشرح نهج البلاغة ص ١٠ من طبعة الأندلس.

٣ - القيمة الفكرية لنهج البلاغة:

تعد النواحي الفكرية من الركائز التي انبنى عليها كثير من نصوص (نهج البلاغة) التي عرضت لمعالجة قضايا العدل، والتوحيد، وعلم الأخلاق والسياسة والمجتمع إلى غير ذلك من موضوعات ما وراثية تتعلق بالحياة والموت، وذلك ما جعل النهج مصدراً مهماً وأساسياً بالنسبة لجميع الفرق الإسلامية على اختلاف مشاربها:

فمن ذلك تعويل الشيعة على نصوصه كمصدر لعقائدهم وبالأخص العدل والتوحيد على أساس «أن أصول التوحيد والعدل مأخوذة من كلام أمير المؤمنين - صلوات الله عليه - وخطبه فإنها تتضمن ما لا زيادة عليه ولا غاية وراءه»^(١).

كما يمكن للباحث أن يتعرف على كثير من العناصر الأولية التي انبت عليها آراء الخوارج وعقائدهم في الإمامة وأحكام القرآن وغير ذلك من الآراء التي تدور حول الإيمان والكفر، وذلك من خلال الجدل الذي دار بين الإمام علي عليه السلام وبينهم بعد قضية التحكيم، وقد حفظ لنا النهج طرفاً كبيراً من ذلك النزاع.

أما تأثر المعتزلة وعلماء الكلام بأقوال علي عليه السلام وخطبه فواضح باعتراف شيوخهم^(٢) وقد أدى ورود بعض الكلمات التي استعملها المعتزلة وعلماء الكلام كمصطلحات في بعض من نصوص النهج، إلى الشك في نسبة تلك النصوص لعلي عليه السلام.

هذا وقد اعتمد الأشاعرة في كثير من حججهم الكلامية وعقيدتهم في الخلق

(١) الشريف المرتضى: اماليه / ١ / ١٤٠.

(٢) راجع: ابن انديم الفهرست ص ٢٠٢.

والخالق على ما أثر عن علي بن أبي طالب عليه السلام من خطب وأقوال^(١).

كما اتخذ المتصوفة من أقواله في الزهد والتقشف وصفات المؤمنين ما يتناسب وأفكارهم، حتى لقد أول أحد الشارحين بعض نصوص النهج تأويلاً صوفياً^(٢)، كما أفرد شارح آخر فصلاً طويلاً لدحض تلك الأفكار والرد عليها^(٣).

فالمتصفح لشروح (نهج البلاغة) المطولة، يجد كل تلك الأفكار مبسطة فيه، وذلك بناء على تأويل النصوص بما يتناسب وكل عقيدة على اعتبار أن ما ورد فيه من كلام هو «عند أهل الفطنة والنظر دون كلام الله ورسوله، وفوق كلام البشر واضحة مناره، مشرقة آثاره، لا يستبعد في هذا الدهر أن يلتبس شيء من مشكلاته على من يقتبس إما من ألفاظه الغرائب أو معانيه العجائب»^(٤).

فعلى ضوء ما سبق يمكننا اعتبار (نهج البلاغة) نصاً متكاملًا تدرج موضوعاته تحت عناوين «ثلاثة هي نفسها الموضوعات الرئيسية التي ترد إليها محاولات الفلاسفة قديمهم وحديثهم على السواء ألا هي: الله والعالم والإنسان»^(٥)، وهي أيضاً المحاور الأساسية التي سترتكز عليها دراستنا في فكر علي بن أبي طالب عليه السلام كما يبدو من خلال نهج البلاغة.

(١) راجع ما قاله ابن أبي الحديد في ذلك - شرح النهج ١ / ١٧، هذا وقد اعتمد الأشاعرة في الكثير من مناظراتهم على ما أثر عن علي بن أبي طالب عليه السلام من خطب وأقوال، وقد ذكر أبي علي عمر السكوني في كتابه - عيون المناظرات - إحدى عشرة مناظرة من ص ١٦٧ حتى ١٨٤.

(٢) راجع على سبيل المثال شرح ميشم البحراني للنص رقم ٢١٦ من باب الخطب.

(٣) عرض الخوئي للصوفية وتسفيه مذهبهم في منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة ١٣ / ١٣٣. حتى ٤١٧،

٢ / ١٤ حتى ٢٤ وذلك في استطراد طويل أثناء تعليقه على ما ورد من زهد في الخطبة رقم ٢٠٣.

(٤) الراوندي: منهاج البراعة ٤ / ٤.

(٥) المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري ص ٣٠.

الباب الثاني

فكر علي بن أبي طالب عليه السلام

السياسي كما يبدو في نهج البلاغة

- الفصل الأول: مفهوم الإمامة في فكر علي عليه السلام.

- الفصل الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام في مجربات

السياسة في عصره.

- الفصل الثالث: مؤسسات الدولة وسياستها الإدارية

في فكر علي عليه السلام.

الفصل الأول

مفهوم الإمامة في فكر علي عليه السلام

١- سياسة الدولة في الإسلام:

من خلال نظرة شاملة وتمعمة لتصرفات النبي صلى الله عليه وسلم. ندرك انه قد كان بجانب تبليغه الدعوة يضع أسس الدولة التي ستحتضن الدين، ولم يكن ذلك التصرف منه اجتهاداً شخصياً، استناداً لقوله تعالى:

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمُ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(١)، فالأمر السماوي في الآية الكريمة يشمل جميع التصرفات القولية والفعلية لا يفرق في التشريع بين العقائد والعبادات، لذلك فأنا نعتقد ان «جميع الآيات القرآنية الكريمة التي نزلت لتشريع حكم من الأحكام التي تتعلق بموضوع الدولة وشؤونها جاءت على أساس قيام دولة شرعية في المجتمع الإسلامي»^(٢) لكون الإسلام كلاً متكامللاً لا يمكن تجزئته بين عمل دنيوي وآخر اخروي للترابط الوثيق بينهما، فالدين «هو الحياة بأسرها وهو روحها الناطقة الحية

(١) الحشر/٧.

(٢) عبد الرزاق الفضلي: الدولة الإسلامية ص ١٢.

ومحركها الرئيسي وقوتها الدافعة وهو الفهم والشعور والوعي والفكر والنظر والادراك»^(١). فالرابط بين الدين والدولة في الإسلام ينطلق من منظور ان الحياة بالنسبة للمسلم، مسلك يعبره من خلال معاملاته وعلاقاته الإنسانية، ليصل إلى النعيم المقيم الدائم في الآخرة، لأن «مقصود الشارع بالناس صلاح آخرتهم، فوجب بمقتضى الشرائع حمل الكافة على الأحكام الشرعية في أحوال دنياهم وآخرتهم»^(٢) وبسبب الترابط التلازمي بين الدين والدولة، نجد أن سياسة الدولة في الإسلام مرتبطة ارتباطاً تتابعياً، يكون الدين قائداً والسياسة مقودة، ويمكن ملاحظة ذلك من تتبعنا لتكوين الدولة في الإسلام.

٢ - تكوين الدولة في الإسلام:

مما لا شك فيه أن الرسول ﷺ قد تمكن من بعد بيعة العقبة الثانية^(٣) من وضع اللبنة الأساسية للمجتمع الإسلامي، نواة الدولة لأنه ﷺ بهذه البيعة قد

(١) أبو الأعلى المودودي: الحكومة الإسلامية ص ١٣.

(٢) ابن خلدون المقدمة ص ٢٣٨.

(٣) بيعة العقبة الثانية: العقبة: موضع بين منى ومكة، بينها وبين مكة نحو ميلين وعندها مسجد، ومنها ترمى حجارة العقبة، وكان من حديثها أن النبي ﷺ كان في بدء امره يوافي الموسم بسوق عكاظ وذو المجاز ومجنة، ويتبع القبائل في رحالها يدعوهم إلى أن يمنعه ليلبغ رسالات ربه، فلا يجد أحداً ينصره، حتى إذا كانت سنة إحدى عشرة من النبوة لقي ستة نفر من الأوس عند هذه العقبة، فدعاهم ﷺ إلى الإسلام وعرض عليهم ان يمنعه... فآمنوا به وصدقوه... فانصرفوا إلى المدينة وذكروا أمر رسول الله ﷺ فأجابهم ناس وفشا فيهم الإسلام، ثم لما كانت سنة اثنتي عشرة من النبوة وافى موسم الحج اثنا عشر رجلاً فآمنوا وأسلموا (فسميت بيعة العقبة الأولى) فلما كانت سنة ثلاث عشرة من النبوة اتى منهم سبعون رجلاً وامراتان وبايعوا الرسول ﷺ على المنعة، وهي بيعة العقبة الثانية. ياقوت - معجم البلدان ٤/ ٤٣.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ١٣٧

تمكن من وضع اثنتين من أهم ركائز الدولة الإسلامية:

الركيزة الأولى: الحصول على الحماية والمنعة التي كان محتاجاً إليها لتأمين حياة أصحابه ولتمكين الدعوة من الاستقرار لیتاح لها الانتشار، ففي قوله عليه السلام للمبايعين ليلة العقبة «أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم»^(١) دلالة على الجهد العظيم الذي يسعى من أجله لإقرار الدعوة داخل سياج أمين قوي، لأن ما طلبه من حماية ليس بالسهل اليسير على العربي الذي يرى في العرض وصيانتها أعلى القيم وامنعها. هذا بالإضافة إلى ان تلك المعاهدة ستعرضهم إلى ما لا قبل لهم به من عداوة قريش وسخطها لما لها من قوة ونفوذ في القبائل العربية بحكم مكانتها الدينية.

الركيزة الثانية: وتتمثل في هجرة الرسول عليه السلام مع من آمن به إلى المدينة بأمر من الله تعالى لقوله:

﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(٢)، فحماية المؤمن وموالاته لا تكون فرضاً على المؤمنين حتى يهاجروا من دار الكفر إلى المدينة المنورة دار الإيمان آنذاك لقوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾^(٣)، هذا وقد وردت «الهجرة» والحض عليها بالمعنى الذي نقصده في ثلاثة وعشرين موضعاً من القرآن الكريم^(٤)، مما يدل على أهميتها في بناء

(١) ابن هشام - السيرة ٨٩/٢.

(٢) النساء / ٨٩.

(٣) الأنفال / ٧٢.

(٤) البقرة / ٢١٨ - آل عمران / ١٩٥ - النساء / ٨٩، ٩٧، ١٠٠ - الأنفال / ٧٢، ٧٤، ٧٥ - التوبة / ٢٠،

الدولة الجديدة لكونها تدعو إلى تجمع بشري يعتمد العقيدة أساً في بناء العلاقات الإنسانية.

بعد أن دخل ذلك التجمع مرحلة التنفيذ بتوافد المسلمين إلى المدينة امتثالاً لأمر الله سبحانه وتعالى، دخلت الدولة الفتية مرحلة وضع القوانين التي تربط مختلف الفئات التي كانت تقطن المدينة بالجماعة الوافدين إليها، خاصة أنها لم تكن بعد حكرًا على المسلمين، فقد كان يستوطنها بجانبهم اليهود، والكفار، فكان كتاب الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار وموادعة اليهود^(١). والمتمعن في محتوى ذلك الكتاب يجد أنه اختصار دقيق وشامل لما ورد في القرآن الكريم من تبيان للعلاقات بين المسلمين وعلاقة المسلمين بغيرهم في حالتهم السلم والحرب من جهة أخرى، ومعالجة لتلك القضايا وما ينجم عنها من مغامر ومغرم، ووجوب رجوع سكان المدينة من مسلمين وغيرهم إلى الرسول ﷺ في كل الأمور السياسية، وعدم إبرام أية معاهدة إلا بعلم منه. والمتصفح للقرآن الكريم سيجد في آياته تأكيداً لكل شرط من شروط ذلك الكتاب، ومن المعلوم أن الكتاب قد كتب في بداية السنة الأولى من الهجرة، أي قبل نزول معظم آيات التشريع، وليس يعني هذا أن القرآن قد كان ينزل بحسب رغبة النبي ﷺ أو ترجمة لأفكاره، وإنما يعني - في اعتقادنا - أن تصوره لذلك الكتاب من قبيل المعجزة الإلهية، حيث تمكن ﷺ أن يرسم الخطوط العريضة للدولة دون سابق تجربة أو ممارسة، وعليه يمكننا القول أن الأساس الذي قامت عليه دولة الرسول ﷺ هو الوحي الإلهي، وحتى المسجد النبوي الشريف (مقر حكومة

١٠٠، ١١٧- النحل/٤١، ١١٠- الحج/٥٨، -النور/ ٢٢- الاحزاب/٦، ٥٠- الحشر/٨، ٩-

(١) راجع ابن هشام: السيرة ٢/ ١٤٧، فقد ذكر نص الكتاب وعرض لتفسير غريبه.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ١٣٩

النبي صلى الله عليه وآله وسلم) لم يكن باختيار احد، فعلى الرغم من العروض الكثيرة التي عرضها اهالي المدينة على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم للسكنى في جوارهم والأخذ بزمام ناقته فقد قال للجميع «انها مأمورة، خلوا سبيلها... فانطلقت حتى بركت في محل من محلات بني النجار، وذلك في محل المسجد»^(١).

ثم ان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بعد كتاب المواعدة ذلك، سار في بناء الدولة خطوة هامة الهدف منها محاولة إنشاء مجتمع اسلامي متكامل، وجعل المدينة - نواة الدولة - بوتقة ذلك الانصهار باذابة الفوارق، وتبديد هاجس الغربة من نفوس النازحين إليها، بزرع مواطنة جديدة اساسها العقيدة واخوة الإسلام، تجعل من الأرض والمال شيئاً ثانوياً، فكانت مؤاخاته بين المهاجرين والانصار، فقد «أخى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين أصحابه حين نزلوا المدينة ليذهب عنهم وحشة الغربة، ويؤنسهم من مفارقة الاهل والعشيرة، وشد ازر بعضهم البعض»^(٢) واستمرت تلك المؤاخاة بشموليتها لكل شيء بما في ذلك الميراث، حتى تمكن الإسلام من النفوس، واطمأن المسلمون في وطنهم الجديد، بعد ان ذابت الفوارق ولم تعد الغربة تشكل هاجساً مقلقاً للنفوس المؤمنة، فنزل القرآن الكريم لفسخ الجانب المادي من تلك المؤاخاة لجعلها روحية خالصة لوجه الله تعالى، ففي قوله جل شأنه

﴿وَأَوْلُوا الْأَرْحَامَ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(٣)، قصر سبحانه التوارث على القرابة من الأهل بعد أن كانت مؤاخاة

(١) الحلبي: السيرة الحلبية ٢ / ٢٤٥.

(٢) السهيلي: الروض الانف. عن السيرة لابن هشام ٢ / ١٥٠ الهامش ٤.

(٣) الأنفال / ٧٥.

١٤٠ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

«النبى ﷺ بين أصحابه وبينه وبين علي عليه السلام في النصره والميراث»^(١)، وبقيت المؤاخاة بين المسلمين - دون الارث - على حالها لقوله تعالى:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾^(٢)، فالقصر في الآية على المؤمنين يؤكد بقاء تلك الاخوة واستمراريتها. فإذا كانت الدولة «هي جمع من الناس مستقرون في اقليم معين الحدود ويستقلون بحكم أنفسهم وفق نظام خاص»^(٣)، فإن ما قام به الرسول ﷺ من خطوات يكاد يطابق ما حدده ذلك التعريف للدولة، كما ان ذلك الكيان الجديد لم يكن من اجتهاد الرسول ﷺ، لأن الوحي كان يساير عمله ﷺ خطوة بخطوة كما لاحظنا سابقاً.

ثم إن نظم الجهاد وقواعد الحرب وما يترتب على ذلك من غنم أو غرم هو من وحي السماء، فعن الإذن بمحابة الكفار واعداء الإسلام بعد ان قامت الدولة، يقول سبحانه:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾^(٤)، ويقول سبحانه في أهلية القيادة:

﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾^(٥)، وعن الاستعداد للحرب من أجل اقرار السلم والعدل يقول سبحانه:

(١) مغنية - التفسير الكاشف ٥١٦/٣.

(٢) الحجرات / ١٠.

(٣) يوسف خياط: معجم المصطلحات العلمية والفنية ٢٤٥.

(٤) الحجج / ٣٩.

(٥) القصص / ٥.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ١٤١

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾^(١)، وعن الجنوح إلى السلم يقول سبحانه:

﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾^(٢)، ومبايعة المؤمنين للرسول ﷺ على الموت كشرط سياسي هي مبايعة الله سبحانه وتعالى وفقاً لقوله الكريم في بيعة الرضوان^(٣)،

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾^(٤). وفي قضية الاسرى وهي من المشاكل السياسية المتولدة عن الحرب، يقول سبحانه:

﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّىٰ يَبْئُتَ فِي الْأَرْضِ﴾^(٥)، فالراي الراجح في سبب نزول هذه الآية بعد عزوة بدر في السنة الثانية من الهجرة، انه كان عتاباً من الله عز وجل لأصحاب نبيه ﷺ المعنى: «ما كان ينبغي لكم ان تفعلوا هذا الفعل الذي اوجب ان يكون للنبي ﷺ اسرى قبل الاثخان ولهم هذا الأخبار بقوله:

(١) الأنفال / ٦٠.

(٢) الأنفال / ٦١.

(٣) بيعة الرضوان: كانت تحت شجرة سمرة بالحديبية، وكان الصحابة الذين بايعوا رسول الله ﷺ يومئذ، قيل ألفاً وثلاثمئة، وقيل أربعمئة وقيل خمسمئة والأوسط أصح: تفسير ابن كثير ٥/ ٣٤٣. والحديبية: قرية متوسطة ليست بالكبيرة وسميت ببئر هناك عند مسجد الشجرة التي بايع رسول الله ﷺ تحتها... وبينها وبين مكة مرحلة وبينها وبين المدينة تسع مراحل... وبعض الحديبية في الحل وبعضها في الحرم - ياقوت: معجم البلدان ٢ / ٢٢٩.

(٤) الفتح / ١٠.

(٥) الأنفال / ٦٧، والاثخان في الشيء المبالغة فيه والإكثار منه والمراد المبالغة في قتل الكفار.

﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾، والنبي ﷺ لم يأمر باستبقاء الرجال وقت الحرب ولا أراد قط عرض الدنيا، وإنما فعله جمهور مبشري الحرب، فالتوبيخ والعتاب إنما كان متوجها بسبب من أشار على النبي ﷺ بأخذ الدية^(١)، والمستخلص من ذلك ان القرار السياسي الذي اتخذه بعض المسلمين في أسرى بدر كان مخالفاً لحكم الإسلام ولم يسكت القرآن الكريم عن ذلك، مما يؤكد رابطة الدين بالدولة، لأن قواعد الحرب وما يترتب عليها من معاهدات بشأن السلم والتسلح والأسرى وغير ذلك من امور عسكرية وأخرى اجتماعية لا يمكن ان تكون ذات فاعلية إلا في مجتمع مستقر تحكمه القوانين.

ثم إن جميع آيات الشريعة، جاءت لتنظم العلاقات الاجتماعية والسياسية بين المسلمين أنفسهم، وبين المسلمين وغيرهم من أهل الذمة، وبين المسلمين والكفار، علاوة على ذلك، فقد أحكم القرآن الكريم طريقة التعامل مع من يمتنع عن الدخول في الإسلام من الافراد والجماعات، فحكم السيف في رقاب الكفار من قاطني شبه الجزيرة العربية، بينما ترك حرية العبادة لأصحاب الديانات السماوية شريطة دفع الجزية. ولو امعنا النظر في صلح الحديبية^(٢) الذي تنازل

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٨ / ٤٥، ٤٦.

(٢) صلح الحديبية: كان في ذي القعدة من السنة الخامسة لهجرة الرسول ﷺ، خرج الرسول ﷺ معتمراً لا يريد حرباً ومعه جماعة من المهاجرين والأنصار ومن تبعه من الأعراب ألف وأربعمائة... فلما سمعت قريش بمسيره اجتمعت على منعه من دخول مكة، فلما استقر به المقام في الحديبية أخذ يفاوض قريش، فانبثق عن تلك المفاوضات صلح الحديبية شروطاً خمسة قد تبدو من حيث الظاهر انها محققة بحق الإسلام والمسلمين، الا انها قد كانت في باطنها ذات فوائد عظيمة من عدة نواح: أولاً: اعتراف قريش بدولة الرسول كقوة يمكنها التفاوض من مركز قوة، كما يمكنها ادخال أي تحالف قبلي تحت حمايتها.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ١٤٣

فيه الرسول عليه السلام عن كثير من صلاحياته، إلى حد جعل عمر يقول للرسول عليه السلام «يا رسول الله، أأنت برسول الله؟ قال: بلى، قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى، قال أوليسوا بالمشركين؟، قال: بلى، قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟، فكان رد الرسول عليه السلام على ذلك بقوله: انا عبد الله ورسوله، ولن اخالف امره ولن يضيعني»^(١)، فصلاح الحديبية بناء على قول الرسول عليه السلام قد كان بوحى من الله.

وبعث الرسول عليه السلام رسله إلى ملوك الممالك المجاورة في السنة السادسة للهجرة يدل على ان البعد السياسي في الدولة تابع للبعد الديني^(٢)، لأن فحوى كتبه لأولئك الملوك أما الدخول في دين الإسلام، أو الخضوع لإرادة دولة الإسلام امتثالاً لقوله تعالى:

ثانياً: فترة السلام التي تعاهد الطرفان عليها أتاحت للناس التفكير في أمن واستقرار، فكان ذلك من أهم عوامل انتشار الإسلام، فقد دخل فيه تلك الفترة مثل ما دخل فيه قبل ذلك وأكثر.

ثالثاً: ثم إن شرط عدم قبول الرسول عليه السلام مسلمة قريش الا بموافقتها، قد طلبت قريش من الرسول عليه السلام الغاء وعدم العمل به، بعد ان فر عتبة بن اسيد الثقفي وهو مسلم من سجنه لم يقبله الرسول عليه السلام امتثالاً للمعاهدة، ففر هو وسبعون رجلاً بإسلامهم إلى ذي المروة على ساحل البحر على طريق قريش إلى الشام، فضيّقوا على قريش، يعترضون قوافلهم التجارية، فإرسلت قريش إلى النبي يناشدونه الرحم لما أرسل إليهم فمن أتاه فهو آمن، فأوهم رسول الله، وبذلك صارت الهجرة إلى المدينة آمنة دون أية معارضة من قريش، فتحوّلت جميع بنود الصلح لصالح الإسلام مما أتاح له الانتشار في قبائل العرب - راجع بشأن ذلك: ابن هشام - السيرة / ٣ / ٣٢١ ابن الأثير الكامل في التاريخ / ٢ / ١٣٥، ياقوت معجم البلدان / ٢ / ١٢٢٩.

(١) تاريخ الطبري / ٢ / ٦٤٣.

(٢) جرت كتب رسول الله عليه السلام إلى الموك وغيرهم بدعوتهم إلى الإسلام فإن أبو فالجزية، وذلك كان يوصي أمراء جيوشه وسراياه، وللإطلاع على نهاج من هذه الكتب، راجع: أبو عبيد - الأموال ص ٢٠ وما بعدها.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾^(١)، فلم تكن بعوثة تلك الا بوحي من الله. فبناء الدولة في الإسلام بجميع مؤسساتها جزء اصيل من الدين، لأنها لم تكن خارجة عن نطاق الوحي، بحيث يمكننا القول بأن الركائز الأساسية قد تم وضعها باكتمال الدين واتمام النعمة، وقد سارت سياسة الدولة بعد وفاة الرسول ﷺ في نفس الاتجاه الديني في ظل تشريع القرآن وسنة الرسول ﷺ.

لم يتغير شيء من سياسة الرسول ﷺ الا بعد التغيرات الاجتماعية التي حدثت للمجتمع العربي أثر تغير خريطة الدولة الإسلامية بعد الفتوح الواسعة وانتشار الإسلام، فكان من جراء ذلك التغير محاولة العرب الانحراف بالسياسة الدينية نحو المصالح الدنيوية، وقد بدأ ذلك الانحراف يأخذ طريقة إلى نفوس القرشيين في الخفاء منذ حكم عمر بن الخطاب^(٢)، ثم تكشفت معالمه في حكم عثمان^(٣) وأسفر عن وجهه في خلافة علي عليه السلام الذي عايش ظروف ذلك المنعطف الخطير في السياسة الدينية بكل إحساساته، وحاول جاهداً إعادتها إلى الجادة التي رسمها صاحب الرسالة، ولكن بعد فوات الأوان بانطلاق الشهوات المادية من عقالها، وخفوت جذوة القيم الروحية، فكان على علي عليه السلام ان يعيد التمثل بالسياسة الدينية على اعتبار انه الممثل الشرعي للنبي ﷺ في توكيد تلك السياسة ومحاولة احياؤها بتبديد ما اثير حولها من شكوك، لذلك نجده في خطبته الأولى التي اعلن فيها سياسته، يقرر بأن حكومته ما هي الا امتداد

(١) سبأ ٢٨.

(٢) راجع مقتل عمر ص ٢٨٩ من هذا البحث.

(٣) راجع مقتل عثمان ص ٢٩٠-٢٩١ من هذا البحث.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ١٤٥

لحكومة الرسول صلى الله عليه وسلم كما يبدو من قوله «الا وان بليتكم قد عادت كهيتها يوم بعث الله نبيكم صلى الله عليه وسلم، والذي بعثه بالحق لتبليبن بلبلة، ولتغربلن غربلة ولتساطن سوط القدر، حتى يعود اسفلكم اعلاكم، واعلاكم اسفلكم»^(١)، فالظاهر من تشبيهه عصره بعصر بداية البعثة النبوية انه عازم على اعادة تلك السياسة التي نبذتها قريش إلى نصابها، لذا فانه يقول للمسلمين في خطبة أخرى «ولكم علينا العمل بكتاب الله تعالى وسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم والقيام بحقه ونعش سنته»^(٢)، ومن هذا المنطلق يمكننا دراسة السياسة الدينية في فكر علي بن أبي طالب عليه السلام.

٣- السياسة الدينية في فكر علي عليه السلام ومقارنتها بالسياسة الإسلامية:

بعد ان استشرى في النفوس حب السلطة جريا وراء نفعها المادي بجمع الأموال واقتناء الضياع والاماء والعبيد والجواري^(٣)، أخذت السياسة طريقها في الاستقلال عن الدين شيئا فشيئا، وقد صور لنا علي عليه السلام واقع المتكالبين على السلطة تصويراً دقيقاً في مواضع متعددة من النهج فصنفهم إلى أربعة أصناف:

- الصنف الأول: هو المتعاس عن طلب السلطان لا لشيء، إلا لشعوره بحقارة نفسه وضعفه عن مقارعة المتنافسين بسبب قلة الأعوان وعدم امتلاك الثروة فهو «لا يمنعه من الفساد في الأرض إلا مهانة نفسه وكلاله حده ونضيض

(١) خطب ١٦.

(٢) خطب ١٧٠.

(٣) بشأن ما كان يمتلكه بعض الصحابة من ثروات راجع: طبقات بن سعد ٣/١٠٩، ٢٢٢ ومروج الذهب ٢/٢٤٢، ٣٤٢، ومعجم البلدان ٥/١٣٨، والعقيدة والشريعة للمشرق جولد سهير

وفره» (١).

- **الصنف الثاني:** المتمثل في الإنسان الحاقدا الذي يتغني للشر أية وسيلة بتنحية القيم الإنسانية جانبا، وتحكيم السيف في رقاب العباد من أجل إرضاء غرور النفس في حب التسلط فهو «المعلن بشره المجلب بخيله ورجله قد أشرط نفسه وأوبق دينه لحطام ينتهزه أو مقتب يقوده أو منبر يقرعه» (٢).

- **الصنف الثالث:** هو المنافق الذي يظهر خلاف ما يبطن، برفع الشعارات البراقة واتخاذ الدين وسيلة للوصول إلى السلطة، بالتصنع في الأقوال والأفعال «قد طامن من شخصه وقارب من خطوه، وشم عن ثوبه، وزخرف من نفسه الأمانة، واتخذ ستر الله ذريعة إلى المعصية» (٣).

- **الصنف الرابع:** هو الذي اقعده عن طلب السلطة اقتناعه الداخلي بأنه ليس أهلاً لها لعدم قدرته على التعامل مع الناس، وهروباً من ذلك تزيابزي الزهاد، واتخذ القناعة ستاراً فهو الذي «أبعده عن طلب الملك ضؤولة نفسه، وانقطاع سببه، فقصرته الحال عن حاله فتخلى باسم القناعة وتزين بلباس أهل الزهادة، وليس من ذلك في مراح ولا مغدى» (٤).

فالسطة في عرف الفئات الأربع مطمع دنيوي لا يمت للدين بصلة، وبسبب نجوم تلك الفئات المتسلقة وقع الحيف على عامة الناس الذين استحالوا جراء أطماع أولئك إلى «خائف مقموع، وساكت مكعوم، وداع مخلص، وثكلان

(١) خطب ٣٢.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) خطب ٣٢.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ١٤٧

موجع، قد أخملتهم التقية، وشملتهم الذلة فهم في بحر أجاج، أفواههم ضامرة، وقلوبهم قرحة، قد وعظوا حتى ملوا، وقهروا حتى ذلوا، وقتلوا حتى قلوبا^(١). فكما يبدو من تصنيف علي عليه السلام للفئات الأربع المتسلقة، فإن الدين والسلطة ليسا خطين متوازيين، بل إنهما خطان متداخلان يشكل الدين فيهما أساس التداخل المنظم للعلاقات في اطار تمازجها، ونلمس ذلك من خلال دراستنا لعلاقة السلطة بالدين في فكر علي عليه السلام.

٤- السلطة والدين في فكر الإمام علي عليه السلام:

لقد عرفنا من القول بأن سياسة علي عليه السلام امتداد لسياسة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وعلى ذلك الأساس، فمن المرجح أن الركيزة الأساسية في فكر علي عليه السلام السياسي هي خضوع السلطة المدنية للسلطة الدينية خضوعاً مطلقاً، لذلك ارتأى ان في محاربه الخارجين على سلطته - بعد ان ولي الخلافة - واجباً دينياً، وان المهادنة مع أولئك كفر بما جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم استناداً لقوله «وقد قلبت هذا الأمر بطنه وظهره حتى منعني النوم، فما وجدني يسعني الاقتالهم أو الجحود بما جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم فكانت معالجة القتال اهون علي من معالجة العقاب، وموتات الدنيا اهون علي من موتات الآخرة»^(٢) فعلي عليه السلام يرى من واجبه كامام للأمة أن لا يتهاون ولا يهادن على حساب ما شرعه الإسلام، لأن غاية السلطة تحقيق العدالة في ظل شريعة السماء.

ومن منطلق إسلامي بحث بنى أيضاً سياسته المالية، فلا محاباة ولا مفاضلة

(١) المصدر السابق بنفسه.

(٢) خطب ٥٤، وجاء مثله أيضاً في الخطبة رقم ٤٣.

بين طبقات المجتمع في توزيعه لأن «المال مال الله»^(١) وقد عايش هو جميع الصحابة تصرف الرسول ﷺ في المال، فطلحة والزبير وغيرهما من المسلمين ليس لهم في المال إلا بقدر ما شره الإسلام لكل فرد لذلك فإنه يقول لطلحة والزبير لما عتبا عليه مساواتهم بغيرهم من المسلمين «أما ما ذكرتما من أمر الأسوة، فإن ذلك أمر لم أحكم أنا فيه برأيي، ولا وليته هوى مني، بل وجدت أنا وأنتما ما جاء به رسول الله ﷺ قد فرغ منه، فلم احتج إليكما فيما فرغ الله من قسمه وأمضى فيه حكمه، فليس لكما والله عندي ولا لغيركما في هذا عتبي»^(٢). ثم إن ممارسته للسلطة تقوم على السياسة الدينية نستشف ذلك مما قاله لطلحة والزبير حين احتجا على سياسته في تسيير الأمور دون مشورة منها «لما افضت الي نظرت إلى كتاب الله وما وضع لنا وأمرنا بالحكم به، فاتبعه وما أستن النبي فأقمته، فلم احتج إلى رأيكما ولا رأي غيركما»^(٣). فأسلوب الحكم في فكر علي عليه السلام لا يقاس نجاحه برضى العامة وإنما يقاس بمدى مطابقته لما جاء في الشريعة الإسلامية، فوجهات النظر المختلفة حول التطبيق الصحيح لأساليب الحكم والمعاملة هو ما حدا بعلي إلى القول لمن بايعه «ليس أمري وأمركم واحداً، أني أريدكم إلى الله وأنتم تريدونني لأنفسكم»^(٤). فالقيادة في فكر علي عليه السلام مبنية في الأساس على الدين، ومهمة الخليفة أو الإمام بتطبيق الشرع على جميع شؤون الحياة، لذلك فإن الطاعة التي يتوخاها في جمهور المسلمين ليست لشخصه، وإنما هي لمصلحة المطيعين، لأن قيادته لهم قيادة هداية وصلاح، وفي هذا الصدد يقول لأهل

(١) خطب ١٢٦.

(٢) خطب ١٩٩، والعتبي: العتاب واللوم.

(٣) خطب ١٩٩.

(٤) خطب ١٣٦.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ١٤٩

البصرة «فإن أطمعتموني فإني حاملكم - إن شاء الله على طريق الجنة، وإن كان ذا مشقة شديدة ومذاقة مريرة...»^(١)، فالقيادة الحقة هي التي تؤدي إلى الجنة وهي غاية الإسلام من الحكم كما يراها عليه السلام مما يؤكد الارتباط الوثيق بين الدين والدولة في النظام الإسلامي «لان الإسلام دين وليس قانوناً أخلاقياً ولا مذهباً فلسفياً»^(٢)، وذلك على أساس المفهوم الواسع لمعنى الدين في شموليته على اصول الشرائع وفروعها بما تنطوي عليه من اعتقادات وعبادات، وممارسات متعلقة بجميع شؤون الدين والدنيا فوصف الدين على أنه:

أ- ممارسة شعائر وطقوس معينة.

ب - الاعتقاد في قيمة مطلقة لا تعدلها أية قيمة.

ج - ارتباط الفرد بقوة روحية عليا^(٣).

يقصره على العبادات والطقوس وهو ما يتنافى وشمولية الإسلام الذي وصفه عليه السلام بأنه «التسليم والتسليم هو اليقين، واليقين هو التصديق، والتصديق هو الإقرار هو الأداء، والأداء هو العمل»^(٤) المطلق اللامحدود بزمان أو مكان لبناء خير الإنسانية «لان لفظ العمل يشمل الاعتقاد والنطق باللسان وحركات الاركان... كل ذلك عمل وفعل»^(٥) وهذا يبطل الزعم بعدم وجود فرق بين الإسلام والمسيحية، من حيث الحكم والسياسة على اعتبار «ان الإسلام دين

(١) خطب ١٥٦.

(٢) عبد المجيد النجار: العقل والسلوك في البيئة الإسلامية ص ٢٣.

(٣) خياط: معجم المصطلحات العلمية والفنية، ص ٢٤٧.

(٤) حكم ١٢٢.

(٥) ابن أبي الحديد، السابق ١٨ / ٣١٤.

١٥٠ فكر الإمام علي (عليه السلام) كما يبدو في نهج البلاغة

يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويوجه إلى الخير ويبعد عن الشر... ولا تزيد المسيحية على هذا ولا تنقص منه، ولا مر ما قال عيسى (عليه السلام) للذين جادلوه من بني اسرائيل: اعطوا ما لقيصر وما لله الله»^(١). لأن مفهوم «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» كمصطلح ديني في الإسلام لا يمكن افراغه اطلاقاً من مضمونه الثوري الذي بثه الإسلام فيه، فتصوره على انه مجرد نصح وارشاد وتبشير يبعده عن مفهومه السياسي كمبدأ من مبادئ الثورة على الظلم وهدم الفساد، وقد منحه المسلمون في كثير من العصور ذلك البعد السياسي الذي أراده الإسلام له، فمما يؤثر عن الحسين بن علي (عليه السلام) في خطبته لاهل الكوفة عند خروجه على يزيد قوله «أيها الناس، ان رسول الله ﷺ قال: من رأى سلطاناً جائراً لحرم الله، فلم ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنة رسول الله، يعمل في عباد الله بالاثم والعدوان، فلم يغير عليه بفعل ولا قول كان حقاً على الله ان يدخله مدخله، الا وان هؤلاء قد لموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن، واظهروا الفساد وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفيء واحلوا حرام الله، وحرموا حلاله وأنا أحق من غيري»^(٢).

ثم ان الاستشهاد بمقولة المسيح بحسب مفهومها الذي وردت في سياقه^(٣)

(١) طه حسين: الفتنة الكبرى - عثمان - ص ٢٧.

(٢) تاريخ الطبري ٤٠٣/٥.

(٣) يبدو ان المقولة قد صدرت عن المسيح (عليه السلام) لأولئك الهيرودسيون الذين حاولوا ان ينتزعوا اعترافاً منه بالتمرد على السلطة القائمة حين قالوا له «يا معلم، نعلم انك صادق وتعلم طريق الله بالحق لا تبالي باحد، لأنك لا تنظر إلى وجوه الناس، فقل لنا ماذا تظن. ايجوز ان نعطي جزية، لقيصر أم لا؟ فعلم يسوع خبثهم، وقال: لماذا تجربونني يا مراؤون، أروني العملة التي تدفع بها الجزية، فقدموا ديناراً. فقال لهم: لمن هذه الصورة والكتابة؟ قالوا: لقيصر، فقال لهم: اعطوا إذا ما ليقصر ليقصر، وما لله لله... عن كتاب تاريخ الأفكار السياسية ١٥٧/١ نقلًا

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ١٥١

تتناقض ومفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الدين الإسلامي، لأن معناها «أنه يجب الإذعان إلى الضرورات السياسية، إذ لا قيمة لها يجب دفع الضريبة الرمز الخالد للطاعة المدنية وذلك بالتحديد لأنها لا تخص الله»^(١) فالفكر السياسي معدوم تماماً في الديانة المسيحية على اعتبار ان السياسة من اختصاص المجتمع الدنيوي وأن «أمور المجتمع الدنيوي تدرك بأنها مختلفة اختلافاً جذرياً عن أمور المجتمع السماوي»^(٢)، فالتبشير المسيحي مبني على أساس تثبيت الوضع القائم، وإقرار بالواقع الدنيوي بكل عيوبه، وهو موجه بالذات إلى المنبوذين والمعدمين لمحاولة إقناعهم بأن «الهناء الحقيقية في نظام ملذات الأرض وأنه يجب تحمل حالات التعاسة الأرضية أو الاجتماعية أو الجسدية»^(٣) بعكس نظرة الإسلام للدين، حيث يرى فيه «أنه أساس المواطنة، فالدين هو بالماهية، قيمته من طبيعته السياسية، لا بل هو القيمة الحقيقية الوحيدة لهذه الطبيعة السياسية»^(٤)، لذلك فإن ما زعم من دنيوية السياسة في

عن أنجيل متى الاصحاح الثاني والعشرون/ الآية ١٦-٢٢. الآية ١٦-٢٢. فمفهوم مقولة المسيح عليه السلام في السياق الذي وردت فيه تعني الخضوع للسلطة الدنيوية حتى وان كانت ظالمة وهذا لا يتناسب ومفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كعنصر فعال من عناصر السياسة الدينية في الإسلام، يهدف إلى دفع الأمة نحو الاحسن والاصلاح، بنسف الفساد وفضح أساليب الالتواء والغش، ويكفي في هذا الصدد بأن «كلمة حق عند سلطان جائر» هي من لب قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(١) تاريخ الأفكار السياسية ١ / ١٤٨.

(٢) المصدر نفسه / ١٤٩.

(٣) المصدر نفسه / ١٤٨.

(٤) المصدر نفسه / ١٩١.

١٥٢ فكر الإمام علي عليه السلام يبدو في نهج البلاغة

الإسلام استناداً على تنازع المسلمين على خلافة الرسول ﷺ «لأنه توفي من غير أن يسمي أحداً يخلفه من بعده»^(١) تنبني على ركيزتين:

١- رفض نظرية الإمامة^(٢) عند الشيعة.

٢- الاعتماد على مقولات فقهاء السنة في الإمامة والمستخلصة في وصف الواقع وتبريره دون محاكمته.

أولاً: رفض نظرية الإمامة عند الشيعة، ودراستها لغاية نقدية هجومية على الرغم من استقراءها ادلتها وبراهينها من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة. ثانياً: الإعتماد على مقولات فقهاء السنة في الإمامة، والتي لم تكن سوى وصف لما حدث بعد وفاة الرسول ﷺ في محاولة لرفع الملام عن تصرف الصحابة وذلك في القديم وتأييداً لدنيوية الحاكمية في الإسلام في العصر الحديث، على الرغم مما يكتنف تلك المقولة من تناقضات.

الوصفية التبريرية تكمن في قولهم بشرطي صحة انعقاد الإمامة وهما:

١- اختبار أهل العقد والحل.

٢- بعهد الإمام من قبل^(٣).

فعلى ضوء ما حدث في سقيفة بني ساعدة من مجلات انتهت بإشهار بيعة أبي

(١) راجع: خالد محي الدين: والاشتراكية ص ١٦٢، علي عبد الرزاق: الإسلام واصل الحكم ص

١٨١، ممدوح حقي: التعليق على كتاب الإسلام واصل الحكم ص ١٨٧.

(٢) حول نظرية الإمامة عند الشيعة، راجع ص ١٦٦ من هذا البحث.

(٣) راجع كيفية انعقاد الإمامة عند: عبد القاهر البغدادي: اصول الدين ص ٢٧٩، الماوردی:

الأحكام السلطانية ص ٦، ابن حزم: الفصل في الملل والنحل ٤/ ١٦٧.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ١٥٣

بكر^(١) انبثق شرط اختيار (أهل الحل والعقد) وصار شرطاً أساسياً في صحة انعقاد الإمامة. ثم ان شرط جواز قبول الإمامة بعهد الإمام من قبل فهو أيضاً تبرير لعهد أبي بكر في عمر^(٢)، ثم في حصر عمر الخلافة في ستة يتفقون فيما بينهم لاختيار احدهم خليفة^(٣).

أما تبرير الواقع، فهو القبول والتسليم بما حدث في الثلاث حالات على أنه من من الأمور السياسية المقطوع بصحتها، بناء على صحة انعقاد الحكم باختيار فئة معينة هم (أهل الحل والعقد) أو بعهد من الخليفة السابق للخليفة اللاحق، مما اتاح فيما بعد للفقهاء ابتكار تبريرات أخرى جديدة تؤيد نظم الحكم التي فرضت نفسها بالقوة على دولة الإسلام.

وافتقار كلا الشرطين إلى الدليل الشرعي هو ما أتاح القول بانفصال الحكم عن الدين رغم الاقرار أن «الخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخرى والدينية الراجعة إليها. إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا»^(٤)، فالتعريف كما يبدو ينص على ان الخلافة منصب ديني الهدف منه حمل الناس كافة على موائمة الأعمال الدنيوية، لتتناسب وأعمال الآخرة التي ترضي الله. وقد يبدو التعريف - من وجهة نظرنا - متوازناً من الناحية الدينية، لولا اسناده اختيار صاحب ذلك المنصب الخطير

(١) راجع ص ١٨٠ من هذا البحث.

(٢) راجع ص ١٨٠ من هذا البحث.

(٣) راجع ص ١٨٠ من هذا البحث.

(٤) ابن خلدون: المقدمة ٢٣٩.

لاهل الحل والعقد مما يجعل الجانب الديني في بعض نواحيه يخضع إلى الجانب الدنيوي، الذي عادة ما تؤثر فيه العواطف الذاتية والانفعالات الشخصية من عصبية وموالاتة، وحب، وكره وهو ما يتنافى في مجال التطبيق باعتراف المشرعين الإسلاميين كما يبدو من المقولة بأن «الأنظمة السياسية في الإسلام تتصف بأنها إسلامية أو بالأحرى دينية»^(١)، وما دام الدين هو القيم على السياسة في الإسلام فلا بد أن يكون للإمامة - الحارسة لتلك السياسة والمنفذة لها - شروطها المعتبرة مما يحتم عليها التعرض لها من حيث الوجوب وشروطه في الفكر الإسلامي، ومدى تطابقه وما جاء في فكر علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة.

مفهوم الإمامة:

١- اللغوي: تجمع المعاجم اللغوية^(٢) على أن مفهوم كلمة إمام: هو القدوة أو المثال أو النموذج الذي يحتذى، كما يفهم من ذلك ان كلمة إمام لا يقتصر إطلاقها على الإنسان فقط، إذ قد يكون الكتاب إماماً، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا﴾^(٣)، «ويقال أن الخيط الذي يجمع الخرز إمام»^(٤) والإمام «المثال، وما يتعلمه الغلام في المكتب... وخيط البناء،

(١) أحمد محمود صبحي: نظرة الإمامة ص ١٧.

(٢) راجع: الجوهري: الصحاح ١٨٦٥/٥، ابن فارس: مجمل اللغة ١/ ٨٢، ابن منظور: لسان العرب ١/ ١٥١.

(٣) هود/ ١٧.

(٤) ابن فارس: مجمل اللغة ١/ ٨٢.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ١٥٥

وخشبة البناء، والطريق»^(١). وعلى هذا فإن تحديد معنى الكلمة ومعرفة نوعها وطبيعتها يمكن استخلاصه من السياق الذي ترد فيه سواء أُقصد من ذلك المدح كما في قوله تعالى:

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾^(٢) أم الذم كما في قوله تعالى:

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى التَّارِ﴾^(٣)، وقد ترد في السياق لغرض

بلاغي كما في قوله تعالى:

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾^(٤)، فالمقصود امام كما يبدو في السياق

- الكناية عن «معلومات الله سبحانه على التفصيل»^(٥) ولما كانت معاني مفردة (امام) تنحصر في المثال والقيادة سواء أكانت معنوية أو مادية، فقد تولد عن ذلك المعنيان: الاصطلاحي، والسياسي، لكون السياق التعبيري منحهما ذلك.

٢ المعنى الاصطلاحي: لا يمكن تحديد الفترة الإسلامية لمصطلح إمام، الا أننا كان في فترة مبكرة جداً لارتباط المعنى ارتباطاً وثيقاً بالصلاة التي فرضت على المسلمين في السنة الأولى من البعثة النبوية^(٦)، وللأهمية التي يوليها المسلمون للمعنى الاصطلاحي لكلمة (إمام) فقد اختلف السنة والشيعة في

(١) ابن منظور: لسان العرب ١ / ٦١.

(٢) الأنبياء / ٧٣.

(٣) القصص / ٤١.

(٤) يس / ١٢.

(٥) الطبري: مجمع البيان ٢٢ / ١٢.

(٦) راجع في شأن ذلك رواية صلاة الرسول ﷺ بخديجة وعلي عليهما السلام عند البيت العتيق بمشهد من العباس ابن عبد المطلب وهي كما نعتقد أول امامة للصلاة في الاسلام - تاريخ الطبري ٢ / ٣١١.

أمر امامة المسلمين في الصلاة أثناء مرض الرسول ﷺ الذي توفي فيه في السنة الحادية عشرة من هجرته^(١). اذ يرى السنة ان الرسول ﷺ قد استتاب أبا بكر عنه في الصلاة بالناس، بينما يرى الشيعة ان صلاة أبي بكر بالناس أثناء مرض الرسول ﷺ كانت بأمر من عائشة، حتى تمكن له من السلطة فيما بعد. وهذا الاختلاف يدل على انبثاق المعنى السياسي الذي سيرز بعد وفاة الرسول ﷺ.

وللاحتراز من الخلط بين المعنى الاصطلاحي وبين المعنى السياسي وجب تقييد أحدهما فوجدوا إنه من الاجدى تقييد المصطلح الديني بإضافته فقد «قال قوم أن اسم الإمامة قد يقع على الفقيه والعالم وعلى متولي الصلاة بأهل مسجد ما، قلنا نعم، لا يقع على هؤلاء الا بإضافته لا بالإطلاق، فيقال: فلان إمام الدين، وإمام بني فلان، فلا يطلق لأحدهم اسم الإمامة بلا خلاف»^(٢). وعلى

(١) قال الزهري: حدثني حمزة بن عبدالله عن عمران عن عائشة قالت «لما استعز برسول الله ﷺ قال: مروا أبا بكر فليصل بالناس... ابن هشام - السيرة النبوية ٤/٣٠١، وفي رواية أخرى عن عبد الله بن زمعة عن الاسود بن المطلب بن اسيد قال «لما استعز برسول الله ﷺ وأنا عنده في نفر من المسلمين قال: دعاه بلال إلى الصلاة، فقال: مروا من يصلي بالناس - السابق ٤/٣٠٣. ومن الملاحظ أن الرواية الأولى تنص على تكليف أبي بكر بالصلاة بينما لم تعين الرواية الثانية فرداً بعينه. ويحتج الشيعة بالرواية الثانية على «أن ذلك القول كان من عائشة لبلال: قل لأبي بكر يصلي بالناس، فلما أفاق ﷺ وقد سمع مقالتها قال: انكن صويحبات يوسف، ثم خرج ﷺ متوكئاً على علي عليه السلام والفضل بن العباس... وتقدم فصلي بالناس» ابن شاذان - الايضاح ص ١٨٣، وراجع أيضاً استخلاف الصلاة بالتفصيل برواية الشيعة عند المفيد - الإرشاد ص ٩٧، على أننا نعتقد ان صلاة أبي بكر لم تكن السبب المباشر لمبايعته في سقيفة بني ساعدة ولكن احتجاجه بالحديث «الأئمة من قريش» هو ما احدث البلبله في نفوس الأنصار، راجع ص ٢٠٢-٢٠٤ من الحديث.

(٢) ابن حزم: الفصل في الملل والنحل: ٤/٩٠..

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ١٥٧

هذا الأساس اكتسبت لفظه إمام (مطلقة) معناها السياسي.

٣- المعنى السياسي: إذا ما اطلقنا كلمة (إمام) على شخص ما دون تقييدها فأنها بالمفهوم الإسلامي تعني القائد الديني والسياسي للأمة لأن الإمامة «موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا»^(١) ونطلق على متقلدها لقب (إمام) لأهليته واعتباره قدوة في أفعاله وأقواله، وقد اعتبر صحة انعقادها في صدر الإسلام قياساً على إمامة الصلاة، اعتباراً بقول كل من عمر بن الخطاب وأبي عبيدة الجراح لأبي بكر في سقيفة بني ساعدة «لا والله لا نتولى هذا الأمر عليك، فإنك أفضل المهاجرين وثاني اثنين إذ هما في الغار، وخليفة رسول الله على الصلاة، والصلاة أفضل دين المسلمين... ابسط يدك نبايعك»^(٢)، إذ صارت امامة أبي بكر للمسلمين في الصلاة من أهم المزايا التي أهلته لامامتهم في تدبير شؤون دنياهم. ولكن هذا لا يعني ان المضمون السياسي لكلمة امام وليد اجتماع السقيفة.

بالإضافة إلى ذلك فإن الإمامة ليست من «الألقاب المستجدة للخليفة أثناء الدولة العباسية بالعراق»^(٣)، بدلالة ورودها بمضمونها السياسي في القرآن الكريم، باتفاق المفسرين على أن قوله تعالى:

﴿وَجَعَلَهُمْ أُمَّةً﴾ من قوله:

﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص ٥.

(٢) تاريخ الطبري ٣ / ٢٢١.

(٣) القلقشندي: مآثر الأنافة ١ / ٢١.

الْوَارِثِينَ (٥)»^(١)، أي نجعلهم «ولاية وملوكاً»^(٢). كما أثر المعنى السياسي للإمام عن النبي ﷺ في قوله «الأئمة من قريش»^(٣)، وقد رجح احتجاج أبي بكر بنص الحديث السابق، على مطالبة الأنصار بالخلافة في سقيفة بني ساعدة^(٤).

فالإمامة بالمعنى السياسي يمكن اعتبارها من اقدم التعريفات لولي الأمر في الدولة الإسلامية، كما انها الانسب من حيث تداخل المهام الدينية بالمهام الدنيوية في اختصاصاته كقائد و قدوة وقيم على الدين، لذلك فمن المرجح، ان اختيار الشيعة للإمامة كمصطلح سياسي يطلقونه على «الرياسة العامة على جميع الناس»^(٥) هو من باب الاختيار الدقيق لجمع السلطتين الدينية والدنيوية في شخص الإمام على أساس الترابط الوشيج، استيحاء من القرآن الكريم، والحديث الشريف، وما أثر عن علي بن أبي طالب عليه السلام في نهج البلاغة^(٦) على أنه بجانب لقب امام، فإن هناك لقبين آخرين مساويين له في القيمة، استخدمهما المسلمون للتعريف القائم بأمور المسلمين بعد الرسول ﷺ وهما:

(١) القصص / ٥.

(٢) راجع تفسير الطبري ٢٠ / ١٩، الطبرسي: مجمع البيان ٢٠ / ١٦٣، القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ١٣ / ٣٤٩.

(٣) مسند الإمام أحمد (الفتح الرباني ٢٣ / ٦).

(٤) راجع العقد الفريد، ٤ / ٢٥٨.

(٥) الطبري: مجمع البحرين ٦ / ١٥.

(٦) وردت كلمة امام بالمفهوم السياسي عن علي بن أبي طالب عليه السلام في (نهج البلاغة) اثنتين وسبعين مرة، تسعة وثلاثون اسماً صريحاً وثلاثة وثلاثون ضميراً راجع على سبيل المثال: الخطب: ١٨،

١٠٤، ١٥٢، والرسالة ٦، معاوية بن أبي سفيان.

١- خليفة رسول الله

٢- أمير المؤمنين

لقب خلفية رسول الله:

يعرف أبو البقاء الكفوي الخلافة بأنها «النيابة عن الغير اما لغيبة المنوب عنه، واما لموته، واما لعجزه»^(١) ويكون الاستخلاف اما للجدارة والقدرة و«اما لتشريف المستخلف، وعلى هذا استخلف الله عباده في الأرض»^(٢)، فالخليفة، بهذا المعنى هو الذي يقوم مقام من هو قبله في تدبير الأمور المناطة بالمستخلف. ومنه تولد المعنى السياسي بتعريف الخلافة بالإمامة الكبرى^(٣) والخليفة بأنه «السلطان الأعظم»^(٤) أو الحاكم، كما ورد في قوله تعالى:

﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾^(٥)
أي «ملكاً لتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فتخلف من كان قبلك من الأنبياء، والائمة الصالحين»^(٦)، كما أثر عن الرسول صلى الله عليه وسلم بشأن الخلافة بالمعنى السياسي قوله «لا يزال هذا الأمر عزيزاً إلى اثني عشر خلفية كلهم من قريش»^(٧).

يقال إن أول من اتخذ لقب خليفة في الإسلام هو أبو بكر، حين وافق

(١) الكلبيات ٢/ ٢٩٩.

(٢) السابق.

(٣) راجع ابن خلدون: المقدمة ص ٢٣٩.

(٤) ابن منظور: لسان العرب المحيط ١/ ٨٨٢.

(٥) سورة ص/ ٢٦.

(٦) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ١٥/ ١٨٨.

(٧) صحيح مسلم ٣/ ١٤٠٣.

١٦٠ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

على ان يسمى بخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم منكرأ على من سماه بخليفة الله لأنه «انها يستخلف من يغيب أو يموت، والله تعالى باق موجود على الأبد لا يغيب ولا يموت»^(١). ويرى أحمد بن حنبل وجوب اطلاق اسم خليفة على الراشدين الأربعة والحسن بن علي عليه السلام دون غيرهم استناداً لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم «الخلافة في امتي ثلاثون سنة، ثم ملك بعد ذلك»^(٢)، على أساس احتساب مدة خلافة الراشدين والحسن بن علي عليه السلام والمقدرة بثلاثين سنة، إلا أن رأي أحمد بن حنبل ذلك ومن تابعه من الفقهاء، لم يمنع من اطلاق لقب خليفة على كل من تمكن من السلطة سواء بالعهد أو بالقهر، وذلك لتجوز بعض الفقهاء تسمية أي متسلط بخليفة «وان كان مخالفاً لسيرة أهل العدل»^(٣).

أمير المؤمنين: الأمر بمعناه المطلق - ما لم يخرج عن صيغته الاصلية لغرض بلاغي هو طلب الشيء على سبيل الاستعلاء ومنه سمي الامير ملكاً «لنفاذ أمره والجمع أمراء وأمر الرجل يأمر إمارة إذا صار عليهم أميراً... والتأمر تولية الإمارة، وأولو الأمر الرؤساء وأهل العلم»^(٤).

وإضافة أمير إلى المؤمنين من الألقاب المستحدثة في خلافة عمر بن الخطاب، كما يرى أهل السنة والسبب في ذلك استئصال لقب (خليفة خليفة رسول الله) فاطلق عليه المسلمون لقب (أمير المؤمنين) وقيل ان أول من اسماه بذلك أبو

(١) القلقشندي: مآثر الأنافة / ١ / ١٥.

(٢) بذل المجهود في حل أبي داود / ١٨ / ١٧٠، القلقشندي: مآثر الانافة / ١ / ١٢.

(٣) مآثر الأنافة / ١ / ١٤.

(٤) لسان العرب المحيط / ١ / ٩٧، ٩٨.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ١٦١

وبرة^(١) وعلي بن أبي طالب عليه السلام، وفي رواية ثانية، ان أول من طلق عليه ذلك اللقب عمرو بن العاص، حين دخل عليه يستأذنه في دخول لبيد بن ربيعة وعدي بن حاتم^(٢)، بعد قدومهما من عامله على العراق، بعد ان طلب عمر من ذلك العامل ان يرسل إليه برجلين عارفين بأمر العراق^(٣). أما الشيعة الإمامية فيرون ان لقب (أمير المؤمنين) هو من مستحدثات عصر النبوة، وان الرسول صلى الله عليه وسلم قد اختص به علياً «لم يسم به احداً قبله ولم يسم بعده»^(٤) فعن انس، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يا أنس أول من يدخل من هذا الباب أمير المؤمنين وسيد المسلمين وقائد الغر المحجلين وخاتم الوصيين، قال انس «قلت اللهم اجعله رجلاً من الأنصار وكتمته. إذ جاء علي عليه السلام فقال: من هذا يا أنس؟ فقلت: علي فقال مستبشراً فاعتنقه...»^(٥).

(١) أبو وبرة: هكذا ورد الاسم في مآثر الأنافة ١/٢٦، ٢٧ ولم اعثر له على ترجمة.

(٢) عدي بن حاتم: بن عبد الله بن سعد بن الحشرج: أبوه حاتم هو الجواد الموصوف بالجود... اسلم وحسن اسلامه. وري عن النبي صلى الله عليه وسلم أحاديث كثيرة، كان جواداً شريفاً في قومه، معظماً عندهم وعند غيرهم... كان منحرفاً عن عثمان... شهد بعض الفتوح الإسلامية وشهد صفين مع علي عليه السلام، توفي سنة سبع وستين من الهجرة وله من العمر مائة وعشرون سنة. راجع أسد الغابة ١/٨، ٩، ١٠.

(٣) حول هذا الأمر راجع: مآثر الأنافة ١/٢٦، ٢٧.

(٤) الطريحي: مجمع البحرين ٣/٢١١.

(٥) أبو نعيم الاصفهاني: حلية الأولياء ١/٦٣، وعن المفيد في الارشاد ص ٢٨: عن بريدة بن خصيب الأسلمي أنه قال «ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرني وأنا سابع سبعة فيهم أبو بكر وعمر وطلحة والزبير، فقال: سلموا علي علي بامرأة المؤمنين فسلمنا ذلك ورسول الله صلى الله عليه وسلم حي بين أظهرنا» وورد مثل ذلك عند: الطبرسي - الاحتجاج ص ١٥٧، والمجلسي - بحار الانوار ٣٧/٢٩٠ وما

بعدها (باب ما أمر به النبي ﷺ من التسليم عليه بامرة المؤمنين) ونحن نرجح مقولة الشيعة في تلقيب علي بـ (أمير المؤمنين) منذ عهد رسول الله ﷺ استناداً إلى الوقائع التاريخية المرتبطة بذلك. فعن أبي نيزر قال «جاءني علي بن أبي طالب وأنا أقوم بالضيعتين: عين أبي نيزر والبغيغة، فقال لي هل عندك طعام؟ فقلت طعام لا أرضاه لأمير المؤمنين ﷺ، قرع من قرع الضيعة بإهالة سنخة (الإهالة: ما أذيب من الشحم، والسنخة: المتغيرة الرائحة)، فقال: علي به، فقام إلى الربيع - وهو جدول - فغسل يده، ثم أصاب من ذلك شيئاً، ثم رجع إلى الربيع فغسل يده بالرمل حتى انقأها، ثم ضم يديه كل واحدة منهما إلى اختها، وشرب بهما حساً من ماء الربيع، ثم أخذ المعول وانحدر في العين، فجعل يضرب، وأطأ عليه الماء، وقد تفضح عرقاً، فانتكف العرق عن جبينه، ثم أخذ المعول وعاد إلى العين، فاقبل يضرب فيها وجعل يهمهم، فانتالت كأنها عنق جزور، فخرج مسرعاً، فقال: أشهد أنها صدقة، عليّ بدواة وصحيفة، قال فجعلت بهما إليه فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما تصدق به عبد الله علي أمير المؤمنين... المبرد الكامل ٣/ ٢٠٨، البكري - معجم ما استعجم ٢/ ٦٥٧، ياقوت - معجم البلدان ٤/ ١٧٥. فمن المعلوم أن علياً قد اشترى الضيعتين - على ما ذكرت تلك المصادر - في حياة رسول الله ﷺ من الصحابي عبد الرحمن بن سعد بن زرارة الذي استوبأهما وكره العيشة فيها، وقد وردت عبارة (أمير المؤمنين) ضمن الرواية مرتين: الأولى على لسان أبي نيزر قبل أن يبدأ علي بحفر عين، والثانية عندما كتب علي ﷺ صك الصدقة المتزامن مع تفجر ماء العين في نفس اليوم كما يستنتج من قول علي ﷺ بعد تفجر الماء مباشرة (أشهد أنها صدقة عليّ بدواة وصحيفة). ومن المرجح أن يكون حفر العين قبل تولي علي الخلافة، لأنه بعد ما بويع له بالخلافة انشغل تماماً بإعادة أمور الدولة إلى نصابها في محاولة منه لإخماد الفتنة وإخراج الثوار من المدينة وتوزيع عماله على الأمصار، مما يحول بينه وبين العمل في الضيعتين اللتين هما في ينبع خارج المدينة، علماً بأن المدة بين بيعته وبين وقعة الجمل التي بارح بسببها مدينة الرسول ﷺ إلى العراق أربعة أشهر، لأنها وقعت في منتصف جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين هجرية، أما البيعة له بالمدينة فقد كانت في الرابع والعشرين من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين هجرية، وعليه فليس بإمكانه في هذه المدة القصيرة المليئة بالأحداث والفتن أن

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ١٦٣

وجوب الإمامة: من اعظم انجازات البشرية في مراحل تطورها الحضاري، ابتكار الحكومة كحاجة ملحة لتنظيم علاقات الافراد، ووضع الأمن في نصابه، وفرضية التجمع الإنساني ولدت الحاجة إلى التكامل في إيجاد الوسائل الضرورية لتهيئة أسباب العيش، وهذا من جانب آخر ولد التنافس وتعارض المصالح مما أدى إلى محاولة تسلط ذوي القدرة على المستضعفين من ابناء المجتمع في سبيل امتلاك الأسباب وتسخيرها لمصالح فردية، فالاجتماع «إذا حصل للبشر... تم عمران العالم بهم فلا بد من وازع يدفع بعضهم عن البعض لما في طباعهم الحيوانية من العداوات والظلم»^(١)، ووجوب الوازع هو السبب المباشر في انبثاق الحكومة التي اطلق المسلمون عليها الإمامة العظمى. فقد اتفقت جميع الفرق الإسلامية على «وجوب الإمامة... وانه لا بد للمسلمين من

يترك شؤون الدولة ليذهب إلى العمل في ضيعته، ثم أنه لم يعد إلى المدينة إطلاقاً بعد مغادرته إياها، إذ بقي في العراق حتى اغتيل سنة أربعين هجرية، لذلك فالأرجح أن حفر العين وكتابة صك الصدقة قد تمّ قبل أن يبايع له بالخلافة سواء أكان ذلك في عهد الرسول صلى الله عليه وآله أو في عهد أبي بكر وعمر، مما يرجح أن اللقب قد أطلقه عليه أبو نيزر قبل توليه الخلافة، وهذا يعني - من وجهه نظرنا - أنه من الألقاب التي خصه بها الرسول صلى الله عليه وآله خاصة أن الضيعتين كانتا تدران أموالاً وفيرة على عهد الرسول صلى الله عليه وآله استناداً لرواية أحمد بن حنبل في كتاب الزهد (ص ٥١) عن علي قوله «لقد رأيتني مع رسول الله صلى الله عليه وآله وأني لأربط الحجر على بطني من الجوع وأن صدقتي اليوم لأربعون الف دينار». ثم إن قول المبرد «بأن وقف الضيعتين لستين من خلفته» لا يتناسب والتزامية التي وردت في الرواية لأن علياً عليه السلام في ذلك التاريخ لم يكن متواجداً في المدينة حتى يقوم بالحفر ويكتب صك الوقف، لذلك فقد يكون ما عناه المبرد بالوصية، ليس صك الوقف، ولكن وصيته العامة في كيفية تصريف في أمواله التي ذكرها الشريف الرضي في نهج البلاغة (الرسالة رقم ٢٤).

١٦٤ فكر الإمام علي (عليه السلام) كما يبدو في نهج البلاغة

أما ينفذ أحكامهم، ويقيم حدودهم ويغزي جيوشهم... وخالفهم شرذمة من القدرية^(١) كأبي بكر الأصم^(٢) وهشام الفوطي^(٣)^(٤).

فوجوب الإمامة يعدّ نقطة التقاء الفرق الإسلامية، ولكنها سرعان ما تفترق في طريقة الوجوب إذ بينما يرى الأشاعرة والسنة أنها مدرك شرعي

(١) القدرية: لقب أطلقه أهل السنة والأشاعرة على المعتزلة، وقد نفى المعتزلة ذلك عن أنفسهم بقول القاضي عبد الجبار (ت ٤١٥هـ) «ان هذا اللقب لم يثبت لنا... لأننا نزع ان ذلك اللقب لمن يخالفنا في الحق، ونزعم ان افعال العباد من خلق الله وانها بقضائه وقدره... فأ القدرية فهم الذين يزعمون ان الله تعالى قدر المعاصي، وجعلوا ذلك كالعذر للمعاصي حتى اعتقد بعضهم انه لا يقدر ولا يصح منه غير ما قدر الله تعالى... وأصحابنا نفوا المعاصي عن الله وهم اثبتوه، فيجب ان يكون اللقب لهم لازماً» فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ص ١٦٧، وحسب المفهوم العلمي فإن القدرية «هم الذين يؤمنون بكون الأشياء محددة مدبرة في الأزل حيث تصبح لا مناص من وقوعها» يوسف خياط - معجم المصطلحات العلمية ص ٥٢١.

(٢) أبو بكر الاصم (ت ٢٠٠هـ) كان من المعتزلة المعدودين، وفيه ميل على أمير المؤمنين علي (عليه السلام)، وبذلك كان يعاتب، فأخرجه المعتزلة من جملة المخلصين وله كتب كثيرة - ابن النديم الفهرست ص ٢١٤، وبشان وجوب الإمامة كان يزعم «ان الناس لو كفوا عن الظلم لاستغنوا عن الإمام» عبد القاهر البغدادي - أصول الدين ص ٢٧١.

(٣) هشام بن عمرو الفوطي: كان من أصحاب أبي الهذيل فأنحرف عنه فعمت عليه المعتزلة وانحرفوا عنه... وكان من أهل البصرة وسافر إلى عدة بلدان من البحر وكان داعية إلى الاعتزال. لم تذكر وفاته - ابن النديم - ص ٢١٤ ويتمثل رأيه في الإمامة: «الامة إذا اجتمعت كلها على الحق احتاجت حينئذ إلى الإمام، وأما إذا عصت وفجرت وقتلت الإمام لم يجب على أهل الحق منهم حينئذ إقامة الإمام» عبد القاهر البغدادي - أصول الدين ٢٧٢.

(٤) اصول الدين السابق ص ٢٧١ وتكاد جميع مصادر السنة التي تناولت الموضوع تتفق على ذلك. راجع: المارودي - الأحكام السلطانية ص ٥، ابن حزم - الفصل في الملل والنحل ٨٧/٤.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ١٦٥

يشاركهم في ذلك معتزلة البصرة^(١)، يرى الشيعة أنها «تدرك بالعقل لا بالأوامر السمعية»^(٢). وقد أخذ بالمدرک العقلي أيضاً معتزلة بغداد بالإضافة إلى الجاحظ من معتزلة البصرة^(٣).

وتكاد تنحصر نقطة الخلاف بين الدليل الشرعي وبين الدليل العقلي - في اعتقادنا - في تاريخية ابتداء الإمامة، فمن البحث في دليل القائلين بالمدرک الشرعي، نجد أنهم ينظرون من واقع ما حدث في سقيفة بني ساعدة يوم وفاة النبي صلى الله عليه وآله، فابن خلدون حين يقول «إن نصب الإمام واجب قد عرف وجوبه في الشرع بإجماع الصحابة والتابعين»^(٤) ويعني بالوجوب ما تم يوم السقيفة باتفاق بعض الصحابة. ومن هنا يتضح الخلط في فكر القائلين بالمدرک العقلي، بين الحكومة ساعة انتخابها، وبين وجودها كواقع موجود بالفعل في أحقاب متأخرة من تاريخ الإنسانية السياسي. والسبب المباشر في ذلك الخلط يرجع إلى عدم وجود نظرية محددة متكاملة للإمامة عند السنة، لعدم الحاجة إلى مثل ذلك بالنسبة لهم كسلطة قائمة تمارس الحكم، ولأن النظريات في العادة تتولد من فكر «احزاب المعارضة التي لا تكتفي بموقف سلبي من الحكم القائم، وإنما تقدم نظرية متسقة في اصول الحكم»^(٥) لذلك يمكن عدّ ما قيل من قبل السنة حول نظرية الإمامة، هو مجرد رد فعل.

(١) راجع ابن أبي الحديد، السابق ٢/٣٠٨.

(٢) الخلي - الالفين ص ٢٧.

(٣) راجع ابن أبي الحديد، السابق ٢/٣٠٨.

(٤) المقدمة ص ٢٤٠.

(٥) محمد محمود صبحي: نظرية الإمامة ص ٢٣.

والشيعة حين يتفقون مع المعتزلة بالقول بالمدرک العقلي في وجوب الإمامة فانهم يختلفون معهم لأن المعتزلة «يوجبون الرياسة على المكلفين من حيث كان في الرياسة مصالح دنيوية، ودفع ومضار دنيوية»^(١)، أما الشيعة الإمامية فيوجبونها على الله تعالى. ثم أنهم حين يقولون بالمدرک العقلي، انما يصفون الحكومة منذ نشأتها كواقع ينظم حياة الافراد بناء على «اتفاق العقلاء في كل صقع وفي كل زمان على إقامة الرؤساء»^(٢) وهو الأساس الذي يبنون عليه دليلهم العقلي، لكونه أسبق من الدليل الشرعي، لأن الشرع - من وجهة نظرهم - لا يمكن الاخذ به كقانون ملزم الا بمدرک عقلي وهبه الله للانسان ليتمكن من حرية الاختيار والارادة في الاخذ بالخير وتجنب الشر، فلو لم تكن الإمامة من الملكات العقلية «لكان الله تعالى مخلا بالواجب في أكثر الناس، لأنه ان امتنع الفعل وكان من فعله، كان إلقاء وهو ينافي التكليف»^(٣) والقول بوجوب الإمامة عقلاً من الأفكار التي يمكن تلمس ملامحها عند علي بن أبي طالب عليه السلام في (نهج البلاغة)، على اعتبار ان ازمة الاستخلاف، وما دار حولها من جدل كانت من اصعب مراحل حياته الفكرية.

وجوب الإمامة في فكر علي عليه السلام:

بطبيعة الحال لا نتوقع الحصول على تعريف فلسفي محدد في الإمامة ووجوبها، فيما أثار عن علي بن أبي طالب عليه السلام من أقوال في (نهج البلاغة) ولكن ذلك لا يعني سكوته عن الموضوع بصفته قطب رحي المعارضة التي استدارت

(١) ابن أبي الحديد، السابق ٢/٣٠٨.

(٢) الحلي، الألفين ص ١٥، ١٦، والالغاء: الاضطراب والجاه. اضطره لفعل ما لم يكن مقتنعا به.

(٣) المصدر السابق نفسه.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ١٦٧

حولها نظرية الإمامة. فعلي عليه السلام في هذا المجال لم يكن منظرًا، بل كان مطبقاً لنظرية متكاملة الجوانب فإذا «كان علاج أبي بكر وعمر (لقضية الإمامة) علاجاً مؤقتاً، لدرء فتنة متوقعة، دون وضع أسس كاملة لنظام الحكم»^(١) فقد حاول علي عليه السلام - كما يبدو من (نهج البلاغة) - أثناء خلافته القصيرة المليئة بالأحداث والفتن، ان يضع تلك الأسس على ضوء القرآن والسنة، كما أفهمها له الرسول صلى الله عليه وسلم^(٢).

فالإمامة في فكر علي عليه السلام واجبة وضرورية، ولا يمكن على الإطلاق ان يسود النظام بدونها وينعم الناس بالأمن وتستقر الحياة، وفي هذا المجال يقول لما سمع قول الخوارج «لا حكم الا لله»: «كلمة حق يراد بها باطل، نعم انه لا حكم الا لله، ولكن هؤلاء يقولون: لا إمرة إلا لله، وأنه لا بد للناس من أمير بر أو فاجر، يعمل في إمرته المؤمن، ويستمتع فيها الكافر، ويبلغ فيها الأجل، ويجمع به الفيء ويقاتل به العدو، وتأمين به السبل، ويؤخذ به للضعيف من القوي، حتى يستريح بر ويستراح من فاجر»^(٣)، فنص علي عليه السلام السابق يرتكز على ثلاث نقاط:

- الأولى: الالتباس في فكر الخوارج بين الأحكام التشريعية والإمارة بمعناها القيادي، المناط بها تطبيق شريعة السماء.

- الثانية: وجوب الإمارة مطلقة.

- الثالث: الغاية المطلقة من الإمارة.

١- الالتباس في فكر الخوارج بين الأحكام الشرعية وبين الإمارة: إذ يفهم من

(١) محمد محمود صبحي - نظرية الإمامة ص ٢٦.

(٢) أرجع قول علي عليه السلام عن نفسه في هذا الشأن، الخطبة رقم ٢٤٠.

(٣) خطب ٤٠.

قول علي عليه السلام إن الخوارج قد خلطوا بين التشريع وبين نفي الإمارة، بعدم قبولهم التحكيم، لعدم وجود نص يدعم أو ينفي ذلك القبول، إذ يفهم من قولهم (لا حكم الا لله) «بأنه لا حكم كلي ولا جزئي لمجتهد أو أمير أو أي إنسان كائناً من كان إلا في الأشياء المنصوص عليه كتاباً وسنة، ما غير المنصوص عليها فيترك امرها إلى الله»^(١) ولكن المنطق والعقل يبيان ذلك لأن «أكثر الأحكام الفرعية غير المنصوص عليها مع انها أحكام الله، بل تكون منتزعة بحسب الاجتهاد وسائر طرقها لمن كان أهلاً لذلك»^(٢). فقولهم بأن (لا حكم الا لله) قد نفوا الإمارة لغير الله مع أن الاستنباط العقلي يقول بضرورة الحاكم الذي تستقيم به مصالح الناس واحوال الرعية.

٢- وجوب الإمارة مطلقة: فعلي عليه السلام قد قال بوجوب (الإمارة) أو السلطة أو الإمامة كرادع، يقيم أود المجتمع، إلا أنه قد قال بإطلاقها، فهو لا يريد من القول إمارة معينة في وقت معين، ذات طبيعة خاصة، فقوله «لابد للناس» تعني أي ناس يتفقون فيما بينهم لتأمر أحدهم عليهم ليصون مصالحهم، لذلك جاء في السياق «بر أو فاجر». وهنا يجدر الأخذ بعين الاعتبار ان علياً عليه السلام قد جعل الإرادة الحرة المتمثلة في العقل هي الأساس في وجوب الإمارة باعتبارها وليدة التفكير الجماعي، أما عدم ربطه إياها بالدين كما يتبين من النص فلأنه قد نظر إليها من حيث الاطلاق كإمارة، وليست إمارة محاطة بسياج من التشريع الإسلامي، فليس مجال النص ما طرحه ابن أبي الحديد أو الخوئي من كون

(١) مغنية - في ظلال نهج البلاغة ١/ ٧٥٣.

(٢) ميثم البحراني - شرح نهج البلاغة ٢/ ١٠٢.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ١٦٩

مناقشة الإمامة كمنصب ديني^(١)، فهو يعني - كما يبدو من النص - الإمارة بمعناها المطلق في مجالها التاريخي العام دون تحديدها أو ربطها بتشريع إلهي.

ثم إن الدليل العقلي على وجوب الإمامة في فكر علي عليه السلام يمكن استنتاجه من كلام قاله لرسول قوم أرادوا منه استطلاع «حقيقة حاله من أصحاب الجمل، لتزول الشبهة من نفوسهم فبين له عليه السلام من إمرة معهم ما علم انه على حق، ثم قال له: بايع، فقال: إني رسول قوم، ولا أحدث حدثاً حتى أرجع إليهم، فقال عليه السلام: رأيت لو أن الذين وراءك بعثوك رائداً تبتغي لهم متساقط الغيث، فرجعت إليهم واخبرتهم عن الكلاء والماء، فخالفوا إلى المعاطش والمجاذب، ما كنت صانعاً؟ قال: كنت تاركهم ومخالفهم إلى الكلاء والماء فقال عليه السلام فامدد إذا يدك، فقال الرجل: فو الله ما استطعت ان أمتنع عند قيام الحجة علي فبايعته»^(٢).

فقد طلب علي عليه السلام بيعه الرجل من وجهة عقلية مبنية على الإرادة التامة في حرية الاختيار، بعد أن أوضح له الطريق، فاستجابة الرجل هنا لم تكن مبنية على نصوص تشريعية بقدر ما هي مبنية على اقتناع داخلي بأن موقف علي عليه السلام هو الحق، وذلك من خلال توظيف علي عليه السلام للصورة العقلية، ولو أن الرجل رفض بيعته فباختياره المحض أيضاً، لأن الحق لا يعرف بالرجال، ولكن الرجال تعرف بالحق، لذلك فقد قال علي عليه السلام للحارث بن حوط^(٣) حين سأله عن أصحاب الجمل، أكانوا على حق أم كانوا على ضلال، قال: «يا حارث إنك نظرت تحتك

(١) راجع ابن أبي الحديد ٢/ ٣٠٨، الخوئي - منهاج البارعة ٤/ ١٧٨.

(٢) خطب - ١٧١.

(٣) الحارث بن حوط، بالخاء المهملة. ويقال: إن الموجود في خط الرضي «ابن حوط» بالخاء المعجمة

المضمومة - ابن أبي الحديد ١٩ / ١٤٨ - يبدو أنه من أصحاب الإمام علي عليه السلام، لم أعثر له على

١٧٠ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

ولم تنظر فوقك فحرت، إنك لم تعرف الحق، فتعرف أهله، ولم تعرف الباطل فتعرف من أتاه»^(١) أي انك «نظرت إلى طلحة والزبير من خلال صحبتها لرسول الله ﷺ وإلى عائشة من خلال حرمة رسول الله ﷺ»^(٢)، والحق لا يمكن إدراكه بالوجهة والمركز وإنما من خلال أعمال العقل بالتأمل في ماجريات الأمور تأملاً متروياً وعميقاً، وعليه فإن الاخذ بما حدث في السقيفة بأنه تشريع أو نص قانوني، لأن بعضاً من صحابة الرسول ﷺ قد أقروا به، لا يمكن قبوله من وجهة نظر علي عليه السلام.

٣- إما من حيث الغاية من الإمارة: فقد قصرها علي عليه السلام على الشؤون الدنيوية العامة لكونه يتحدث عن ضرورة السلطة لحفظ نظام لاستتباب امن المجتمع سواء أكان اسلامياً أو غير اسلامي، لذلك لا يمكننا استكمال صورة الإمامة ووجوبها من الناحية الشرعية في فكر علي عليه السلام الا بالتعرض إلى الشروط التي يجب توفرها من وجهة نظر الفرق الإسلامية ومن ثم مقارنتها بما رود عند الإمام علي عليه السلام في ذات الموضوع.

٤- شروط استحقاق الإمامة من وجهة نظر الفرق الإسلامية: تكاد الفرق الإسلامية كلها تتفق على شروط معينة من الواجب توفرها، فيمن يستحق الإمامة العظمى ويحصرها فريق في أربعة، بينما يرى الماوردي حصرها في سبعة شروط هي:

١- العدالة على شروطها الجامعة.

٢- العلم المؤدي إلى الاجتهاد في النوازل.

(١) حكم - ٢٧٠.

(٢) مغنية - في ظلال النهج ٤ / ٣٧٦.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب (عليه السلام) السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ١٧١

٣- سلامة الحواس من السمع والبصر واللسان ليصح معها مباشرة ما يدرك بها.

٤- سلامة الأعضاء من نقص يمنع عن استيفاء الحركة وسرعة النهوض.

٥- الرأي المفضي إلى سياسة الرعية وتدبير المصالح.

٦- الشجاعة والنجدة المؤدية إلى حماية البيضة وجهاد العدو.

٧- النسب، وهو أن يكون من قریش، لورود النص فيه وانعقاد الإجماع عليه^(١).

«وزادت الشيعة في هذا الشروط العصمة من الذنوب»^(٢). ويكاد شرط

العصمة يكون هو الأساس في استحقاق الإمامة عندهم، وهم لا يقصدون

بالعصمة الاضطرار إلى الطاعات والامتناع عن المعاصي لا إرادياً، وإنما العصمة

عندهم قوة إرادية يزود الله سبحانه بها المعصوم لاختيار الفضائل وتجنب

المعاصي بكبح داخلي ذاتي، مع الاقتدار على فعل المعاصي بالاختيار الحر الخالي

من كل إلقاء، فالعصمة في اعتقاد الشيعة «هي اللطف الذي يفعله الله تعالى

فيختار العبد عنده الامتناع من فعل القبيح»^(٣). وعلى اعتبار ان العصمة من

خصوصيات الإمام عند الشيعة دون سائر البشر، فانهم لا يقصدون بشرطية

العلم والعدالة وغيرهما من الشروط على المحمول اللفظي لتلك المعاني، لأنهم

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية ص ٦، واتفق عبد القاهر البغدادي في أصول الدين ص ٢٧٧ وابن

خلدون في المقدمة ص ٢٤١ على ان الشروط التي يجب توفرها في مستحق الإمامة أربعة هي «العلم

والعدالة والكفاية وسلامة الحواس، واختلف في شرط خامس وهو النسب القرشي» بينما ذكر

القلقشندي في مآثر الأنافة ١ / ٣١، ٣٩، أربعة عشر شرطاً هي «الذكور، البلوغ، العقل، البصر،

السمع، النطق، سلامة الأعضاء، الحرية، الإسلام، العدالة، النجدة، العلم المؤدي إلى الاجتهاد،

صحة الرأي، التدين، سلامة النسب» وأخذنا بقول الماوردي في المتن لأنه الأخصر والأشمل.

(٢) أصول الدين ص ٢٧٧.

(٣) الشريف المرتضى: أمالي المرتضى ٢ / ٣٧٧.

يوجبون في الإمام «ان يكون أفضل زمانه دينا وورعاً وعلماً وسياسة»^(١) فأفعل التفضيل «أفضل» هنا يقصد به، ان العلم والعدالة والاجتهاد وحدها لا تكفي، لأن الجدارة والاستحقاق للأفضل والأقوى.

فشروط الفريقين في استحقاق الإمامة، وإن بدت متفقة في الظاهر فيما عدا العصمة - الا انها بأفعل التفضيل الذي جعله الشيعة الشرط الرئيس للاستحقاق قد باعد بين الرأيين. وهذا ما سنحاول طرحه في موضوع عقد الإمامة بين النص، والاختيار وولاية العهد وذلك بعد محاولتنا تلمس الشروط التي يجب ان تتوفر في مستحق الإمامة في فكر علي (عليه السلام).

شروط استحقاق الإمامة في فكر الإمام علي (عليه السلام):

الإمامة في فكر علي (عليه السلام) كما يبدو في النهج، ولاية مطلقة عامة، يتحمل الإمام بمقتضاها مسؤولية صيانة الاعراض والدماء والأموال، وتطبيق الشريعة بمقتضى الانصاف والعدل اللذين نص القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة عليهما، فلا «ينبغي ان يكون الوالي على الفروج والدماء والمغانم والأحكام وامامة المسلمين، البخيل، فتكون في أموالهم نهمته، ولا الجاهل فيضلهم بجعله، ولا الجافي فيقطعهم بجفائه ولا الحائف للدول فيتخذ قوماً دون قوم، ولا المرتشي في الحكم فيذهب بالحقوق، ويقف فيها دون المقاطع، ولا المعطل للسنة فيهلك الامة»^(٢). فالإمامة ليست منصباً تشريفياً يتوصل عن طريقه الفرد لتحقيق مآرب خاصة على حساب حقوق العباد الدينية والدنيوية، لأنها في جوهرها

(١) الحلي: الألفين ٤١.

(٢) خطب - ١٣١، ١٧٥.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ١٧٣

رعاية مصالح المؤمنين بما يؤمن لهم الحياة السعيدة في الدنيا والنعيم الدائم في الآخرة، فالأسس التي يجب ان تقام الإمامة عليها هي الكرم والعدل والنزاهة في تنفيذ الأحكام بما يصون حقوق الأفراد، لذلك يرى علي عليه السلام «ان أحق الناس بهذا الأمر أقواهم عليه وأعلمهم بأمر الله»^(١) فقد حصر الاستحقاق في شرطين هما:

١- الأقوى على الأمر.

٢- الأعلم بأمر الله.

أما شرط الأقوى على الأمر فيمكن اعتباره جامعاً مانعاً لكل ما يمكن توفره من شروط الإستحقاق المدينة، إذ يجب أن يكون المستحق «هو الأكمل قدرة على السياسة، والأكمل علماً بمواقعها وكيفية تدبير المدن والحرس وذلك يستلزم كونه أشجع الناس»^(٢).

وبالشرط الثاني تستكمل حلقة الاستحقاق في فكر الإمام علي عليه السلام، لأن الأعلم بأمر الله يجب ان يكون محيطاً إحاطة تامة ومتناهية في الدقة بأصول الدين وفروعه ليتمكن من معالجة المستجدات في الحياة بما يتناسب تماماً والشريعة الإسلامية.

ومن الملاحظ ان علياً قد استخدم في ذكره لشرطي الاستحقاق افعال التفضيل «الأحق والأقوى»، وقد علق ابن أبي الحديد على ذلك بقوله «وهذا لا ينافي مذهب اصحابنا البغداديين في صحة امامة المفضول، لأنه ما قال: ان إمامة غير الأقوى فاسدة، ولكنه قال: أن الأقوى أحق»^(٣). وكما يبدو لنا من

(١) السابق.

(٢) ميشم البحراني - شرح النهج ٣/ ٣٤٠.

(٣) ابن أبي الحديد ٩/ ٣٢٨.

السياق، ان الشرطين لا يحتاجان إلى تأويل بحسب فكرة الزيدية^(١)، وبعض المعتزلة، والقائلة (بجواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل)، لأن علياً يعني ان المؤهل الوحيد المستحق للإمامة هو: الأقوى والأعلم، ويمكن تفسير ذلك بناء على ما ورد في موضع اخر من النهج «ان أولى الناس بالأنبياء اعلمهم بما جاءوا به»^(٢)، فلاحق للناس بنبابة الأنبياء والقيام مقامهم، الا للعالمين برسالاتهم العاملين بها الناصرين لها في جميع المواطن، فلا مجال للمفاضلة في الأسلوب إذ يمكننا القول باقتصار فكر علي عليه السلام في الاستحقاق على الأقوى والأعلم دون غيره من الناس فالقول بتقديم المفضول مع وجود الأفضل من الحجج الكلامية التي يقول بها الزيدية وبعض المعتزلة، هو من باب الاحتجاج باقتضاء المصلحة بتقديم أبي بكر وعمر وعثمان على علي عليه السلام من أجل الإسلام والخوف من فتنة قريش إذا ولي علي عليه السلام مع انه الأفضل في نظر أولئك، لكن السنة والاشاعرة يرفضون الفكرة، وبناء على رفض المقولة يقول أبو الحسن الأشعري بوجوب كون «الإمام أفضل أهل زمانه... ولا تنعقد الإمامة لاحد مع وجود من هو

(١) الزيدية: هم اتباع زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، ساقوا الإمامة في أولاد فاطمة عليه السلام ولم يجوزوا ثبوت الإمامة في غيرهم، إلا أنهم جوزوا أن كل فاطمي عالم شجاع سخي خرج بالإمامة أن يكون إماما واجب الطاعة سواء أكان من أولاد الحسن أو من أولاد الحسين عليه السلام... وكان من مذهب زيد «جوز إمامة المفضول مع قيام الأفضل فقال: كان علي بن أبي طالب عليه السلام أفضل الصحابة، الا أن الخلافة فوضت إلى أبي بكر لمصلحة رأوها وقاعدة دينية راعوها من تسكين نائرة الفتنة وتطبيب قلوب العامة» الشهرستاني الملل والنحل ١/ ١٥٥ وكذلك قال بهذا الرأي معتزلة بغداد- راجع ابن أبي الحديد ٩/ ٣٢٨، وأحمد محمود صبحي- الزيدية ص ٢٢٥.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ١٧٥

افضل منه فيها»^(١)، وعلى هذا فإن ترتيب الخلفاء كان بحسب الافضلية، وان جوزوا المفاضلة فلا تدخل فيها خلافة أبي بكر ولا خلافة عمر إذ تنحصر المفاضلة عندهم بين عثمان وعلي عليه السلام^(٢) فوضع المفاضلة في الخلافة - من وجهة نظر الاشاعرة والسنة - يتخذ من التسلسل التاريخي نصاً شرعياً، لكون جمهور من الصحابة قد اقروه واتفقوا عليه. كما يرفض الشيعة الإمامية القول بتقديم المفضول مع وجود الافضل لمصلحة اقتضتها الظروف، لما في القول من منافاة لمنطق العقل، لأن عدم قبول الأفضل من لدن فئة معينة تقدم مصلحتها الذاتية على مصلحة الأمة باكملها مما يباه العقل ولا يقره القرآن الكريم، لأن «العقل يقبح تقديم المفضول وإهانة الفاضل، ورفع مرتبة المفضول وخفض مرتبة الفاضل، والقرآن الكريم، قد نص على إنكار ذلك، فقال تعالى:

﴿أَمَّنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾^(٣). ثم إن علياً عليه السلام ذاته لا يقبل المفاضلة، إذ يجد نفسه الأحق والأفضل، يقول لمعاوية ضمن رده على احدي رسائله «زعمت ان افضل الناس في الإسلام فلان وفلان... وما أنت والفاضل والمفضول، والسائس والمسوس... فدع عنك من مالت به الرمية فإننا صنائع ربنا، والناس صنائع لنا»^(٤)، إذ لا فضل لأحد علينا سوى فضل الله سبحانه، اما فضلنا فقد

(١) عبد القاهر البغدادي - أصول الدين ص ٢٥٢، وراجع أيضاً: ابن حزم - الفصل في الملل والنحل ١٠٥/٤ فقد رفض القول بالمفاضلة وشنع على القائلين بها، وقال بأفضلية بحسب ترتيبهم في

خلافتهم.

(٢) راجع عبد القاهر البغدادي - اصول الدين ص ٢٩٣.

(٣) المطهر الحلي: نهج الحق ص ١٨٨ والآية موضع الشاهد من سورة يونس/ ٣٥.

(٤) رسائل - ٢٨.

عم جميع الناس لأنهم اهدوا بنا إلى الإسلام. وعلى نفس المعنى يمكن حمل قوله في موضع آخر من النهج «اين الذين زعموا أنهم الراسخون في العلم دوننا كذباً وبغياً علينا، أن رفعنا الله ووضعهم، وأعطانا وحرّمهم، وادخلنا واخرجهم، بنا يستعطي الهدى، ويستجلى العمى»^(١). فهو رد صريح على أولئك الذين يقولون بالمفاضلة على أهل البيت عليه السلام، فالعلم المؤهل للهداية والقيادة هو المتمثل فيه، وفي عترة الرسول صلى الله عليه وآله من صلبه فموقفه - على ما يبدو - من قضية جواز تقديم المفضول على الافضل هو موقف الرفض، بحيث يمكن القول تجازواً بأسبقيته إلى نفي تلك المقولة قبل ان تبرز على سطح السياسة الإسلامية. فاستخدامه لاسم التفضيل (أحق وأعلم) يعني حصر استحقاق الإمامة في من يتوفر الشرطان فيه دون أية مفاضلة، واستخدامه في السياق (إنّ) المشددة التي تعني التوكيد.

فشروط الاستحقاق التي حصرها السنة والاشاعرة ومعتزلة البصرة في (العلم والعدالة والكفاية) تكاد تتفق في مضامينها مع ما أثر عن علي عليه السلام في (نهج البلاغة) من قول، إلا إنها تختلف مع فكر علي عليه السلام في الكيفية التي تحدد تلك الشروط، إذ بينما يقول أولئك بوجوب كون الإمام أفضل رعيته، فانهم يكتفون من ذلك بكونه (عالمًا، عادلاً، كفوًّا)^(٢)، فلا يحددون المقياس الذي صار به الإمام هو الافضل. بينما يرى علي عليه السلام ان مستحق الإمامة يجب ان يكون (الأعلم، والأعدل والأكفى)، وبذلك صار الافضل لتفرده بتلك المزايا دون سواه من افراد امته، ومن هذا النبع استقى الشيعة الإمامية نظريتهم في الإمامة،

(١) خطب - ١٤٤.

(٢) راجع شروط انعقاد الإمامة عند السنة والاشاعرة ص ١٧٠-١٧١ من هذا البحث.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ١٧٧

ثم بعد ذلك بينوا الكيفية التي يمكن معرفة الافضل بها.

اما شرط وجوب «الأئمة من قريش» الذي يكاد يكون لا خلاف عليه لتواتره عن النبي صلى الله عليه وآله، فوجهة نظر علي عليه السلام فيه الحصر لا الاطلاق لقوله «ان الأئمة من قريش غرسوا في هذا البطن من هاشم، لا تصلح الولاية من غيرهم»^(١)، فالإمامة ليست دولة في قريش، بل يجب حصرها في البطن الهاشمي الذي منه جاء النبي صلى الله عليه وآله، فقد أثر عنه صلى الله عليه وآله قوله «ان الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بين هاشم»^(٢)، وبناء على ما ورد في الحديث الشريف فإن بني هاشم هم المصطفون من قريش، لذلك فإن علياً عليه السلام يرى ان «لهم خصائص حق الولاية»^(٣) دون غيرهم كما خصهم الله سبحانه بالنبوة دون غيرهم.

اما شرط (العصمة) الذي انفرد به الشيعة، فيمكن تلمسه في فكر علي عليه السلام في مواضع عدة من (نهج البلاغة)، فتميز علاقته بالرسول صلى الله عليه وآله دون سائر قرابته وصحابته منذ طفولته، غرس في نفسه المثل العليا فراض نفسه على الصدق قولاً وعملاً منذ نعومة اظافره ويمثل ذلك قوله «قد علمتم موضعي من رسول الله صلى الله عليه وآله بالقرابة القريبة والمنزلة الخبيصة وضعني في حجره وأنا وليد، يضمني إلى صدره، ويكتفني في فراشة... وما وجد لي كذبة في قول ولا خطله في فعل»^(٤)، ولكن تعلقه بالفضيلة ومتناعه عن الرذيلة لم يكن

(١) خطب- ١٤٤.

(٢) صحيح مسلم ٤/ ١٧٨٢.

(٣) خطب- ٢.

(٤) خطب- ١٩٠.

عن تقليد، كما لم يكن تصرفاً آلياً لا خيار له فيه مما يعد من قبيل الاجراء ولكن تحكمه في نفسه بضبط ارادته هو ما حال بينه وبين الآثام بتصرف إرادي حر^(١)، ويقول ضمن إحدى خطبه «إني لست في نفسي بفوق أن أخطئ، ولا آمن ذلك من فعلي، إلا أن يكفي الله من نفسي ما هو أملك به مني»^(٢)، فالخطأ والصواب من طبائع البشر، وهو أيضاً من البشر، الا ان امتلاكه لزمام نفسه يحول بينه وبين مواجهة الخطأ مهما كان ضئيلاً، بفضل قوة ايمانه ورسوخ يقينه، فقوله ذلك لا يعني اعترافاً منه بعدم عصمته على سبيل التواضع كما يقول بذلك شارحان لنهج البلاغة^(٣)، ولكنه يعني العصمة الاختيارية بحمل الاستثناء في قوله (إلا أن يكفي الله من نفسي ما هو أملك مني) على قوله تعالى على لسان يوسف:

﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾^(٤) على اعتبار «ما رحم ربي: في موضع نصب بالإستثناء. وهو استثناء منقطع، لأنه استثناء المرحوم بالعصمة من النفس الأمارة بالسوء»^(٥). وقول علي عليه السلام

(١) مما يدل على التصرف الارادي الحر في فكر علي عليه السلام قوله «انما هي نفسي أروضها بالتقوى لتاتي امنة يوم الخوف الاكبر، وتثبت على جوانب المزالق، ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل، ولباب هذا القمح، ونسائج هذا القز، ولكن هيهات ان يغلبني هواي ويقودني جسعي» رسائل-٤٥.

(٢) خطب-٢١١.

(٣) راجع: شرح ابن أبي الحديد ١١/١٠٨، وشرح ميشم البحراني ٤/٤٨.

(٤) يوسف / ٥٣.

(٥) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٩/٢١٠، واعتبر المستثنى في الاية منقطعاً على أساس انه ليس بعضاً من المستثنى منه ويمكن تقدير الا- بلكن.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ١٧٩

بالعصمة لا يعني اقتصارها على نفسه دون سواه من ولده من أهل البيت الذين وصفهم بأنهم «أزمة الحق، واعلام الدين، ولسنة الصدق فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن»^(١)، والقرآن كتاب الله الذي:

﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾^(٢). وإنزال آل البيت عليهم السلام منازل القرآن يعني الإقرار بعصمتهم، لذلك جاء امره إلى المكلفين «بأن يجروا العترة في اجلالها واعظامها والانقياد لها والطاعة لأوامرها مجرى القرآن»^(٣). فقول بعض المعتزلة باختصاص علي عليه السلام بالعصمة دون سواه من آل البيت^(٤) لا يتسق واستخدامه للعترة ضمير جمع الغائب (هم - أنزلوهم). وعليه فإن العصمة كشرط من شروط استحقاق الإمامة، لم يكن من ابتكار متكلمي الشيعة، وفقهائهم لأنهم - كما يبدو - قد أخذوه عن علي عليه السلام، الذي يرى ان الإمامة نيابة عامة ومطلقة عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في كل ما يتعلق بالدنيا والدين، وعلى ضوء ذلك يمكننا دراسة فكره في كيفية انعقاد الإمامة، ورأيه في الأفكار التي طرقت المجال ذاته.

عقد الإمامة: حصر القلقشندي^(٥) طرق عقد الإمامة عند السنة في ثلاث:

(١) خطب - ٨٦.

(٢) فصلت/ ٤٢.

(٣) ابن أبي الحديد ٦/ ٣٧٦.

(٤) راجع ابن أبي الحديد ٦/ ٣٧٦، فقد قصر العصمة على علي عليه السلام دون سواه.

(٥) اخترنا القلقشندي: مآثر الانافة ١/ ٣٩ وما بعدها لحصره جميع الآراء التي قيلت في الموضوع تقريباً، ولأن السابقين عليه قد حصروا العقد في طريقتين، كما نص على ذلك عبد القاهر البغدادي في (أصول الدين ٢٧٩) إذ قصره على النص أو اختيار أهل الحل والعقد، وكذلك فعل الماوردي في (الأحكام السلطانية ص ٦) وما بعدها، وقد تحدث ابن خلدون في المقدمة ص

١٨٠ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

الأولى: في انعقاد الإمامة باجتماع أهل الحل والعقد واتفقهم على عقدها فيمن يستجمع شروطها «وعلى ذلك كانت خلافة أبي بكر بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله» (١).

الثانية: تنعقد الإمامة لشخص الإمام بعهد من الإمام الذي قبله «والأصل في ذلك ما رويناه لما مرض أبو بكر مرضه الذي مات فيه» (٢) عهد بالإمامة من بعده لعمر فصحت بيعته.

الثالثة: تنعقد الإمامة «للمتغلب عليها بالقهر والاستيلاء إذا جمع شرائطها من غير عهد إليه ولا بيعة، وجوز أصحاب الشافعي امامة المتغلب وان كان فاسقاً» (٣).

أما الشيعة الإمامية فيرون «ان الإمامة... من جملة ما هو أعظم أركان الدين وان الإيمان لا يثبت بدونها» (٤) لذلك لا يجوز على الخالق اسنادها لاختيار المكلفين «لأن القصد من نصب الإمام، امتثال الخلق لأوامره ونواهيه، والانقياد إلى طاعته، وسكون ثائرة الفتن وإزالة الهرج والمرج، وإبطال التغلب

٢٦٢ عن ولاية العهد، ولم يتطرق لشرط اختيار أهل الحل والعقد، وذلك على أساس انه شرط مفروغ من صحته وثباته، وذلك لأنه قد ذكره عند المبادرة إلى بيعة أبي بكر في فصل (اختلاف الأمة في حكم منصب الإمامة وشروطه) المقدمة ص ٢٣٩. اما عن القهر والاستيلاء فقد ضمنه فصل (انقلاب الخلافة إلى ملك) المقدمة ص ٢٥٣.

(١) مآثر الانافة ١/ ٤٠، ٤٨.

(٢) السابق.

(٣) السابق ١/ ٥٨.

(٤) المطهر الحلي: الألفين ٣٦.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ١٨١
والمقاهرة»^(١)، فلو أسند الاختيار إلى المكلفين لتدخلت الأهواء وتغلبت
المصالح الذاتية مما يتنافى والقصد من الإمامة لذلك «ذهبت الإمامية كافة إلى ان
الطريق إلى تعيين الإمام أمران:

- النص من الله تعالى أو نبيه، أو إمام تثبتت إمامته بالنص.

- ظهور المعجزات على يده لأن شروط الإمامة العصمة، وهي من الأمور
التي لا يعلمها إلا الله تعالى»^(٢).

وفكرة المكانة الدينية العالية في نيابة الإمام عن الرسول صلى الله عليه وآله في حمل العباد
على النهج القويم، لم تكن مقصورة على الشيعة، فقد وردت عند ابن خلدون
عن مكانة الخليفة «إن الله سبحانه إنما جعل الخليفة نائباً عنه في القيام بأمر
عباده ليحملهم على مصالحهم ويردهم على مضارهم»^(٣)، فابن خلدون وان
لم يقر بمقولة الشيعة (بالنص) إلا أنه يعطي للخليفة مكانة قدسية في نيابته
عن الله في خلقه، وهو بذلك يدحض زعم القائلين ان فكرة الشيعة في الإمامة
غريبة عن روح الإسلام^(٤)، لكونها تقول بمنزلة الخليفة الدينية التي - فيما

(١) السابق ص ٣٨.

(٢) المطهر الحلي: نهج الحق وكشف الصدق ١٦٨.

(٣) المقدمة ٢٤٥.

(٤) يقول خالد محي الدين، في الدين والاشتراكية ص ٦١: «إننا إذا استعرضنا كل التيارات
الفكرية، والفرق الإسلامية لم نجد غير الشيعة الإمامية الذين يمكن ان يقترب فكرهم حول
الإمامة) من نظرية الحق الإلهي، فهم يرون اقامة (الإمام) واجباً على الله وليس واجباً على
الناس، وان الله قد حدد اشخاص الأئمة، وان الرسول قد اوصى بذلك في (علي عليه السلام) وبينه،
ونحن نتفق معه في كل ما جاء به من عقائد الشيعة في الإمامة ونتفق معه أن المذاهب الأربعة
ومعظم الفرق الإسلامية ترفض القول بالوصية في علي عليه السلام وأولاده، مع أنها تقر بوصية أبي

نعتقد أيضاً تتفق مع ما ورد عند الماوردي، بأن «الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا»^(١)، والاختلاف ينحصر أساساً في طريقة تعيين الإمام، إذ يتمسك السنة بالجانب الدنيوي المتمثل في اختيار العباد، على الرغم من انهم يقولون بأن الإمامة منصب ديني ودنيوي، بينما يرى الشيعة أن الناس مهما بلغت بهم المعرفة والعلم، فإنهم ليسوا في مستوى الاختيار النزيه البعيد عن الميل إلى جانب دون الجانب الآخر، لما في الطباع البشرية من ميل نحو المصالح الشخصية والمكاسب المادية، وجنوح نحو الأثرة والأنانية، لذلك فإن من لطف^(٢) الله بالعباد فقد أوجب النص على الإمام ليكون حجة عليهم

بكر في عمر، ولكننا لا نتفق معه في أن الشيعة الإمامية يقولون بأن الخليفة «نائب الله» لانه يناقض ما جاء عندهم ان «الإمامة عبادرة عن خلافة شخص من الاشخاص للرسول ﷺ في اقامة قوانين الشرع وحفظ حوزة الملة على وجه يجب اتباعه على الأمة كافة - الالفين ص ١٢» . أما تفسيره لقول الله تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ بإضافة «من أمور الدين» إلى الآية، فهو فيما نعتقد عدم ادراك من الباحث ان القرآن الكريم لم يقتصر على العبادات التي كان يقصد بها (امور الدين) ولكنه كتاب تشريع وعبادة وانكاره ذلك لا يغير من كلون الإسلام بعيداً كل البعد عن الاسقاطات الايديولوجية الحديثة من اشتراكية وغيرها من اطروحات حاول الكاتب الباسها ثوب الإسلام، ومقولة ان الخلافة ظل الله التي نسبها الاستاذ إلى الشيعة هي من ابتكار بعض الخلفاء السنة الذين حاولوا الباس خلافتهم صبغة دينية ويمكن مراجعة مثل ذلك المعنى فيما جاء على لسان زياد بن ابيه في خطبته البتراء - العقد الفريد ٤/ ١١٢، وما أثر عن أبي جعفر العباسي - العقد الفريد ٤/ ٩٩. اضافة إلى ذلك فإنه لم يؤثر مثل هذا القول عن علي عليه السلام أو عن الأئمة الإثني عشر كما لم يقل فقهاؤهم بأن الإمام نائب الله في الأرض، بل قالوا فيما نعتقد نائب للرسول.

(١) الأحكام السلطانية ص ٥.

(٢) اللطف في عرف المتكلمين ما يقرب من الطاعات ويبعد عن المعاصي، ولا حظ له في التمكين

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ١٨٣

أمام الله، وقد تعرض الإمام علي عليه السلام إلى معظم آراء انعقاد الإمامة في ثنايا خطبه ورسائله، أما على سبيل الاحتجاج على خصومه السياسيين، وأما لتوضيح وجه نظره التي يؤمن بها ويتبناها وهي هذه.

طريق انعقاد الإمامة في فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة:

لم تكن مقولات الإمام علي عليه السلام عن طريق انعقاد الإمامة لمجرد الإدلاء برأية في قضية شرعية بقصد التنظير، خاصة وان تلك المقولات تمسه مباشرة لاعتقاده بأنه صاحب حق وقطب من أقطاب سياسة عصره، لذلك لم يقبل مقولة: انعقاد الإمامة باتفاق أهل الحق والعقد لأنها فكرة استحدثت لتبرير الواقع، بل وإنها أيضاً لم تكن مستكملة الجوانب لأن معظم رؤوس أهل الحل والعقد الذين كانوا في المدينة كانوا غير متواجدين أثناء انعقاد البيعة لأبي بكر في سقيفة بني ساعدة، فقد انعقدت تلك البيعة حسب معظم المصادر ^(١) بخمسة هم: عمر بن الخطاب، وأبو عبيدة بن الجراح، وأسيد بن حضير ^(٢)، وبشير بن سعد ^(٣)،

ولا يبلغ الايجاد لمنافاة التكليف... وهو من المصطلحات التي يعول عليها الشيعة، راجع: مجمع البحرين ١٢٠/٥.

- (١) راجع القلقشندي: مآثر الأنافة ٤٢/١ فقد أورد مقالة غيره من المصادر في القضية ذاتها.
- (٢) اسيد بن حضير: بضم الهمزة والحاء... الانصاري الاوسي الاشهلي... اسلم قبل سعد بن معاذ على يد مصعب بن عمير بالمدينة، وكان اسلامه بعد العقبة الأولى وقبل الثانية، وكان أبو بكر يكرمه ولا يقدم عليه واحداً... أخى رسول الله ﷺ بينه وبين زيد بن حارثة. توفي في شعبان من سنة عشرين - أسد الغابة ١١١/١ وما بعدها.
- (٣) بشير بن سعد بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج... شهد العقبة الثانية ويدرأ واحداً والمشاهد بعدها يقال انه أول من بايع ابا بكر يوم السقيفة من الأنصار وقتل يوم عين التمر مع خالد بن الوليد

١٨٤ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

وسالم مولى أبي حذيفة^(١)، ولمجرد الاحتجاج وتسجيل الموقف على تلك البيعة يقول علي عليه السلام «واعجباه أتكون الخلافة بالصحابه، والقراة؟ وروي له شعر في هذا المعنى - (طويل):

فإن كنت ملكت أمورهم فكيف بهذا والمشيرون غيب

وإن كنت بالقربى حجت خصيمهم فغيرك أولى بالنبي وأقرب^(٢)

فإذا كان مقياس صحة انعقاد الإمامة لأبي بكر، كما يراها عمر، هي صحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم في جميع الموطن، فالأولى بها القريب اللحمة ومن صحبه صلى الله عليه وسلم منذ نعومة أظافره حتى اليوم الذي الحده صلى الله عليه وسلم في قبره، اما الاحتجاج «بالاختيار ورضا الجماعة»^(٣) فلم يثبت لغياب جل الصحابة عن السقيفة حين انعقدت البيعة، اما الاحتجاج بانعقاد البيعة قرابة الرحم من الرسول صلى الله عليه وسلم حسب قول أبي بكر يوم السقيفة بشأن قريش «هم اولياؤه وعشيرته، واحق الناس بهذا الأمر بعد»^(٤)، فعلى ذلك المقياس بالقراة القريبة من عترة آل البيت عليهم السلام هم احق واولى بالأمر دون سائر قريش.

ثم إن علياً عليه السلام في مجال رده على معاوية حين امتنع عن بيعته بحجة افتقاد

بعد انصرافه من اليمامة سنة اثنتي عشر - أسد الغابة ١ / ٢٣١ .

(١) سالم مولى أبي حذيفة وهو سالم بن عبيد بن ربيعة... من أهل اصطخر... هاجر إلى المدينة قبل النبي صلى الله عليه وسلم... أخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين معاذ بن معاض... شهد المشاهد كلها، قتل يوم اليمامة سنة احدى عشرة من الهجرة - أسد الغابة ٢ / ٤١٦ .

(٢) حكم - ١٨٧ .

(٣) ابن أبي الحديد السابق ١٨ / ٤١٦ .

(٤) تاريخ الطبري ٣ / ٢٢٠ .

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ١٨٥

شرط الاجماع على خلافته، يقول «لئن كانت الإمامة لا تنعقد حتى يحضرها عاملة الناس فما إلى ذلك من سبيل»^(١)، فشرط الاجماع الذي اتخذه معاوية ذريعة للامتناع عن البيعة، لم يكن الا من باب طلب المستحيل، لذلك يجب على معاوية وامثاله من الذين امتنعوا عن البيعة الانقياد إلى ما تعارف الناس عليه منذ حكم أبي بكر بالرجوع إلى أهل الحل والعقد الذين «يحكمون على من غاب عنها، ثم ليس للشاهد ان يرجع ولا للغائب ان يختار»^(٢). وفي اعتقادنا ان كل ما ورد عند الإمام علي عليه السلام عن انعقاد الإمامة بالقرابة أو باتفاق أهل الحل والعقد أو بالشورى كان لمجرد الاحتجاج على من يحاولون تبرير الواقع بعد ان تم اقراره «لأن الشورى التي قيل باستخلاف أبي بكر بمقتضاها، أو نظر إليها على انها الأساس المقرر لاختيار الخلفاء فإنها مبدأ لاحق مسبوق لم ينشأ ساعة الإستخلاف بل طراً من بعد على الأذهان»^(٣)، إذ يبدو للمتتبع للنصوص المتعلقة بالإمامة في (نهج البلاغة) ان ما قيل من اتفاق أهل الحل والعقد لم يكن الا محاولة من سياسيي العصر لإضفاء شرعية على واقع فرض بالقوة، كما ان الشورى التي لاكتها الأفواه ما هي الا «مجرد اسم تلعب به الشفاه، أفرغ من مضمونه»^(٤). اضم إلى ذلك بأن علياً عليه السلام لم يكن ليقوم للقرابة أية صلة بعقد الإمامة لأنه يعتقد «ان ولي محمد من اطاع الله وان بعدت لحمته، وان عدو محمد من عصى الله وان قربت قرابته»^(٥)، وهو كما نلاحظ رد على القرشيين الذين

(١) خطب - ١٧٥.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) عبد الفتاح عبد المقصود - السقيفة ص ١٤٦، ٢٦٤.

(٤) المصدر السابق.

(٥) حكم - ٩٤.

احتجوا على الأنصار يوم السقيفة بزعمهم انهم أولى بالخلافة لقرابتهم من الرسول ﷺ و سلم. فعلي عليه السلام وان نوه بالقرابة في استحقاق الإمامة، الا انه لم يكن يقصد من ذلك سوى إقامة الحججة على من اتخذ القرابة ذريعة، لذلك فإنه «لم يضع قرابته من النبي ﷺ مزية ترشحه للخلافة من بعده»^(١).

فمن خلال ترتيبنا لنصوص (نهج البلاغة) التي عاجلت شروط انعقاد الإمامة، نجد ان علياً عليه السلام يقرر بما لا يدعو إلى الشك إلى أن الأرض لا تخلو (من قائم لله بحجة، اما ظاهراً مشهوراً، أو خائفاً مغموراً، لئلا تبطل حجج الله وأنبيائه)^(٢)، ووجود الحججة في الفكر الشيعي - لطف من الله بعباده - يقربهم من الطاعات ويبعدهم عن المعاصي، وعليه بنى الإمام جعفر الصادق عليه السلام قوله «لو لم يبق في الأرض اثنان لكان احدهما الحججة»^(٣)، لذلك يعد علي عليه السلام نفسه مبلغاً عن النبي ﷺ، قائماً مقامه قائلاً بلسانه، يقول لاصحابه «والله ما اسمعكم الرسول شيئاً الا وها أنا ذا اليوم مسمعموه، وما اسماعكم اليوم بدون اسماعكم

(١) العقاد - عبقرية علي ص ١١١ .

(٢) حكم - ١٤٥، فقرة ٦، وقد علق ابن أبي الحديد على قول علي عليه السلام ذاك بأنه «يكاد يكون تصريح بمذهب الإمامية، على ان اصحابنا - أي المعتزلة - يحملون على ان المراد به الأبدال الذين وردت الأخبار النبوية عن انهم في الأرض سائحون» شرح النهج ١٨ / ٣٥١، ويرى ميشم البحراني - شرح النهج ٥ / ٣٣٦ «انه تصريح منه عليه السلام بوجوب الإمام بين الناس في كل زمان ما دام التكليف قائماً»، ونحن نميل إلى رأي ميشم لخلوه من التاويل ولان علياً عليه السلام في كثير من نصوص (نهج البلاغة) يعتبر نفسه وآل البيت عليه السلام هم الحججة على الخلق عند الخالق سبحانه من ذلك قوله «أنا حجيج المارقين وخصيم الناكثين - خطب ٧٤» وقوله أيضاً «بقية من بقايا حججه وخليفة من خلائف أنبيائه - خطب ١٨٩».

(٣) الكليني - اصول الكافي ١ / ١٧٩ .

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ١٨٧

بالامس»^(١)، وهو حين يقوم بذلك الا لأنه يعتقد بأن مكانته في الإسلام تاتي تالية بعد الرسول صلى الله عليه وآله في المنزلة استناداً لروايته عنه صلى الله عليه وآله حين ابتداء نزول الوحي إذ قال له «انك تسمع ما اسمع، وترى ما أرى، الا انك لست بنبي، ولكنك لوزير، وانك لعلي خير»^(٢). إذ يفهم مما أثر عنه من اقوال انه حين يقوم بامر المسلمين، فليس لأنه خليفة منتخب من قبل جمهور المسلمين، ولكن لكونه يعتقد بأنه امام منصوب عليه من قبل الله سبحانه، كما يتضح مما ورد في وصيته لعماله على الصدقات «ارسلني اليكم ولي الله وخليفته، لآخذ منكم حق الله في اموالكم»^(٣)، فنصه على أنه ولي الله يلقي ضوءاً على تفكيره في ان الإمامة لا تكون مطلقة يرشح لها أهل الحل والعقد من يروونه صالحاً لها، لأن رؤيتهم مهما اتسعت في شموليتها فهي دون رؤية الخالق سبحانه في مصالح عباده، فالأئمة في فكر علي عليه السلام «قوام الله على خلقه وعرفاؤه على عباده، لا يدخل الجنة الا من عرفهم وعرفوه، ولا يدخل النار الا من انكرهم وانكروه»^(٤)، وهنا يستوقفنا تفسير المقولة بين المعتزلة والشيعة، فابن أبي الحديد - من المعتزلة - يؤولها في ضوء

(١) خطب - ٨٨.

(٢) خطب - ٩٠، فقرة ٢٧. ويروي ابن أبي الحديد عليه السلام - ٢٠/٢١٦ «انا من رسول الله صلى الله عليه وآله كالعضد من المنكب، وكالذراع من العضد، كالكف من الذراع، رباني صغيراً، وأخاني كبيراً ولقد علمتم اني كان لي منه مجلس سر لا يطلع عليه غيري، وانه اوصى لي دون أصحابه وأهل بيته، ولأقولن ما لم اقله لاحد قبل هذا اليوم، سألته مرة ان يدعو لي بالمغفرة فقال: افعل، ثم قام فصلى، فلما رفع يده للدعاء استمعت إليه، فإذا هو يقول: اللهم بحق علي عبدك اغفر لعلي، فقلت: يارسول الله، ما هذا؟ فقال أو أحد اكرم منك عليه فاستشفع به إليه؟».

(٣) رسائل - ٢٥.

(٤) خطب - ١٥٢ فقرة ٢.

قوله تعالى:

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمامِهِمْ﴾^(١)، أي «ينادي كل قوم باسم امامهم»^(٢).
 اما ميشم البحراني من متكلمي الشيعة فيرى ان كلام علي عليه السلام يعني به نفسه
 والأئمة من ولده، وقد استند في رأيه ذلك على نقطتين^(٣):

الأولى: ان الشريعة بما حوته من اوامر ونواه محتاجة إلى من يوضح كيفية
 العمل بها لتسلك بالانسان طريق الخير والجنة، ولا يتأتى ذلك الا بمعرفة من
 يعمل بها، وهم الأئمة الواجب الإفتداء يهديهم.

الثانية: وهو المشهور عن علي عليه السلام ان الأئمة الذين يريدهم هم أهل بيته عليه السلام
 ومعرفة امامتهم ركن من اركان الدين يؤدي إلى الجنة ويبعد عن النار. ولعل
 رأي ميشم هو الأرجح، فالأئمة الذين يعينهم علي عليه السلام - كما نعتقد - هي العترة من
 آل بيت النبوة، على اعتبار انهم احق الناس بولايتهم دون الخلق اجمعين في كل
 منقول معقول، لأنه «لا يقاس بأل محمد صلى الله عليه وآله من هذا الأمة احد، ولا يسوى بهم
 من جرت نعمتهم عليهم ابدأ، هم أساس الدين، وعماد اليقين... ولهم خصائص
 حق الولاية، وفيهم الوصية والوراثة»^(٤). وقد تأول ابن أبي الحديد الولاية في
 الشاهد بأنها «حق ولاية الرسول صلى الله عليه وآله على الخلق»^(٥)، فلا يقصد بها الإمامة كما
 تزعم الشيعة، وتأول (الوصية والوراثة) بأنها ليست «النص والخلافة ولكن

(١) الإسراء / ٧١.

(٢) ابن أبي الحديد ٩ / ١٥٢.

(٣) راجع شرح نهج البلاغة ٣ / ٢٣٥، ٢٣٦.

(٤) خطب - ٢ - فقرة ٣.

(٥) ابن أبي الحديد ١ / ١٣٩.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ١٨٩

أموراً أخرى لعلها - إذا لمحت - أشرف واجل»^(١)، ومع تجاوزنا عن قول ابن أبي الحديد، فإنه «لا يعدم كل أحد أن يستنبط من كل كلام ما يوافق غرضه وإن غمض»^(٢)، فعلى أي محمل يمكن تأويل قول علي عليه السلام بعد كلامه السابق، وفي نفس الفقرة «الآن إذ رجع الحق إلى أهله ونقل إلى منتقله»^(٣)، فالحق الذي رجع إلى أهله باتفاق جميع تفاسير النهج هو الخلافة^(٤)، والسياق يشير لذلك ولا مجال فيه إلى التأويل. ثم اننا لو قبلنا قول ابن أبي الحديد بأن المقصود من الوراثة وراثه العلم، فعلى أي محمل يمكننا تأويل قول علي عليه السلام «كانت في أيدينا فذك، من كل ما اظلمت السماء، فشحت عليها نفوس قوم وسخت عنها نفوس قوم آخرين، ونعم الحكم الله»^(٥) فعلى عليه السلام يؤكد حقهم في فذك^(٦) مما

(١) المصدر السابق نفسه ١/ ١٤٠.

(٢) المصدر نفسه ٨/ ٢٦٦.

(٣) خطب - ٢.

(٤) راجع الراوندي - منهاج البراعة ١/ ١١٤، ابن أبي الحديد ١/ ١٤٠، فقد فسر الحق بالخلافة ثم تأول المعنى حسب القائلة بجواز تولية المفضول مع وجود الأفضل، ميثم البحراني - شرح النهج ١/ ٢٤٨، محمد عبده - شرح النهج ١/ ٣٨، الخوئي - منهاج البراعة ٢/ ٣٤٣، مغنية في ظلال النهج ١/ ٨٢.

(٥) رسائل - ٤٥.

(٦) فذك: قرية بالحجاز، بينها وبين المدينة يومان، وقيل ثلاثة، افاؤها الله على رسوله صلى الله عليه وسلم في سنة سبع صلحاً - معجم البلدان ٤/ ٢٣٨. وجاء في كتاب فضائل الخمسة في صحاح الستة للفيروز آبادي ٣/ ١٦٨ عن السيوطي في (الدر المنثور) في ذيل تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَتَىٰ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾... قال: وأخرج البزاز وأبو يعلى وابن أبي حاكم وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال: لما نزلت هذه الآية... دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة عليها السلام فاعطاها فذكا. وبعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم جاءت فاطمة عليها السلام حينئذ تطلب صدقة النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة فذك وما بقي من خمس خبير، فقال

١٩٠ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

يجعل مقولة اقتصار وراثه آل البيت عليه السلام على العلم دون سواه من لوازم الوراثة الأخرى - في فكر علي عليه السلام - غير مقبولة، وان لم تكن الوراثة هي الحججة التي اعتمد عليها علي عليه السلام في المطالبة بالخلافة، لأنه في اعتقاده أن النص هو الأساس وهو ما اعتمده كحجة لا تقبل الجدل، فلا يجوز له وهو أول من آمن برسالة محمد ﷺ ان يكذب عليه ويدعي ما ليس له، فلو لم يكن واثقاً ان الخلافة من حقه بالنص لما جادل دونها ولما طالب بها، وما قوله «اتراني اكدب على رسول الله ﷺ؟ والله لانا أول من صدقه، فلا اكون أول من كذب عليه، فنظرت في امري، فإذا طاعتي قد سبقت بيعتي واذا الميثاق في عنقي لغيري»^(١)، وتكاد تتكرر كلمة الحق في الخلافة بمرارة في ثنايا الكثير من خطبه من ذلك قوله «فو الله ما زلت مدفوعاً عن حقي مستأثراً علي منذ قبض الله نبيه ﷺ حتى يومنا هذا»^(٢)، وفي معرض رده على احدى رسائل معاوية إليه يقول «وقلت اني كنت أقاد كما يقاد الجمل المخشوش، حتى اباع، لعمر الله لقد اردت ان تدم فمدحت وان تفضح فافتضحت، وما على المسلم من غضاضة في ان يكون مظلوماً ما لم يكن شاكاً في

أبو بكر: ان رسول الله ﷺ قال: لا نورث ما تركناه صدقة... فأبى أبو بكر ان يدفع إلى فاطمة رضي الله عنها منها شيئاً، فوجدت عليه حتى توفيت - طبقات ابن سعد ٢/٣١٥. ويبدو من كلام علي عليه السلام خلاف ما أثار عن أبي بكر وانه كان يقول بتوريث النبي ﷺ كل ما يورثه المسلم لاهله - لتفصيل ذلك وتضارب الآراء فيه، راجع: ابن أبي الحديد ١٦/٢٠٥ وما بعدها - الطبرسي - الاحتجاج ص ٩٠، وراجع أيضاً تعليقات شراح النهج لقول علي عليه السلام عند دفنه السيدة فاطمة رضي الله عنها «وستنبئك ابنتك بتضافر أمتك على هضمها، فاحفها السؤال واستخبرها الحال، هذا ولم يطل العهد، ولم يخل منك الذكر» خطب - ١٩٦.

(١) خطب - ٣٧، ٦.

(٢) المصدر السابق نفسه.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ١٩١

دينه، ولا مرتاباً بيقينه، وهذه حجتي إلى غيرك قصدها، ولكنني اطلعت لك منها بقدر ما سنع من ذكرها»^(١)، فالشاهد يوضح بجلاء - كما نعتقد - ان علياً عليه السلام كان يطالب بحق، لا يرتاب في انه له، وان تنازله عن ذلك الحق لم يكن بمحض ارادته وسكوته عن ذلك لا يعني اقتناعه بصلاحيه حكم من سبقه بدلالة قوله «لو قد استوت قدماي من هذه المداحض لغيرت اشياء»^(٢)، فالأشياء التي كان يتوق إلى تغييرها هي وضع قائم لابد من نفسه واحلال مكانه ما يراه الاصلح من وجهة نظر دينية بحثه.

ويبدو التناسق في الربط بين النبوة والولاية في فكر علي عليه السلام من خلال محاولة تجسيده لمنزلة آل البيت عليهم السلام الدينية بتبيان علاقتهم الروحية بالرسول صلى الله عليه وسلم وما لذلك من تأثير على المكلفين من حيث السعادة والشقاء في الدنيا والاخرة.

فمن خلال تنسيق النصوص المتعلقة بآل البيت عليهم السلام في (نهج البلاغة) يمكننا ادراك الرابط الوشيج بين الرسالة والولاية في تفكير علي عليه السلام، فعلى الرغم من كثرة تلك النصوص^(٣)، وتعدد مناسباتها، الا انه بالامكان تشكيلها في وحدة متكاملة من حيث السياق الفكري، من ذلك على سبيل المثال قوله «اعلموا انكم لن تعرفوا الرشد حتى تعرفوا الذي تركه، ولن تاخذوا بميثاق الكتاب حتى تعرفوا الذي نقضه، ولن تمسكوا به حتى تعرفوا الذي نبذه، فالتمسوه عند أهلهم، فانهم عيش العلم، وموت الجهل، هم الذين يخبركم حكمهم عن

(١) رسائل-٣٥، فقرة ٤.

(٢) حكم ٢٨٠.

(٣) بلغ عدد النصوص التي وردت في ذكر آل البيت عليهم السلام في نهج البلاغة خمسة عشر نصاً - من الخطب ٤، ٢، ٩٢، ٩٥، ٩٨، ١٤٢، ١٤٥، ١٥٠، ١٥٢، ١٨٧، ١٨٨، ٢٣٧، والحكمة ١٣٧، هذا ما

عدا ما ورد في ثنايا الرسائل متفرقا.

علمهم وصمتهم عن منطقتهم»^(١)، فهو يعني نفسه وآل البيت عليه السلام من ولده بحيث يمكن متابعة السياق في قوله «نحن شجرة النبوة، ومحط الرسالة، ومختلف الملائكة، ومعادن العلم، وينابيع الحكم، ناصرنا ينتظر الرحمة، وعدونا ومبغضنا ينتظر السطوة»^(٢) لأن الله سبحانه قد «خلق فينا راية الحق، من تقدمها مرق، ومن تخلف عنها زهق، ومن لزمها لحق... الا ان مثل ال محمد عليه السلام كمثل نجوم السماء، إذا خوى نجم طلع نجم، فكأنكم قد تكاملت من الله فيكم الصنائع واراكم ما كنتم تاملون»^(٣). فالتفاوت بين موسيقى النصوص بين هدوء وصخب، وتعدد مناحيها وتباعد مناسباتها لا يحول بيننا وبين ادراجها في سياق واحد، تمثل خلاصته الفكرية ان حق قيادة الناس وهدايتهم، يجب ان تنحصر- من بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - في آل بيته عليه السلام من دون سواهم حتى قيام الساعة، لتميزهم عن الخلق بالعلم الواسع المتطابق وشريعة الله المنزلة على محمد عليه السلام، فإذا ما حولنا الربط بين قول علي بالوصية والولاية، وبين المنزلة الدينية التي خص بها آل البيت عليه السلام من دون غيرهم من سائر المسلمين - فيما أثر عنه من اقوال - فسنجد ان ذلك الفكر مبني علي ان الإمامة قد كان النص عليها في آل البيت عليه السلام من قبل وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم فلم يكن يمر في روع علي عليه السلام أو يخطر على باله «ان العرب تزعج هذا الأمر بعده صلى الله عليه وآله وسلم عن أهل بيته»^(٤).

فإذا كان الكميت (ت ١٢٦) أول من تكلم في الإمامة وفصل القول فيها

(١) خطب- ١٤٧ فقرة ٣.

(٢) السابق ١٠٨ فقرة ٣.

(٣) السابق ٩٩، فقرة ٦.

(٤) رسائل ٦٢، فقرة ١.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ١٩٣

في هاشمياته^(١) وان عيسى بن روضة (ت ١٥٨) أول من ناظر في الإمامة^(٢) وان أول من «الف في ذلك علي بن اسماعيل بن ميثم»^(٣)، المعاصر لواصل بن عطاء (ت ١٣١)^(٤) فإن جميع أولئك على ما نعتقد لم يبدأوا من فراغ - اقوالهم في الإمامة وتفريعاتها لأن الخطب والرسائل والعهود والكلمات القصار التي أثرت عن علي عليه السلام - وكان كل أولئك قريبي عهد بها - كانت بمثابة الزاد الفكري الذي مهد لهم الطريق وفتق لهم الكلام. فقد راينا من اشلاء الخطب والرسائل التي وصلتنا ضمن (نهج البلاغة) كيف طرح علي عليه السلام قضية الإمامة التي ما فتئ يكرر حقه وحق آل بيته عليهم السلام فيها، طوال عهده وعهد من قبله، مما يجعلنا نرجح بأن البراهين الكلامية التي بنى عليها الشيعة نظريتهم في الإمامة قد كانت وليدة عصر صدر الإسلام، حيث وضع أسسها الفكرية علي بن أبي طالب عليه السلام، ثم جاء من بعده متكلمو الشيعة وبسطوا القول فيها، مقتفين اثره، مما يجعلنا نرفض ما قال به جولد سهير من تأثر الشيعة بفكر المعتزلة^(٥)، في هذا المجال.

(١) جاء عند السيوطي - في شرح شواهد المغني ٢٨/١ عن الكميث «كان جدلاً، وهو أول من ناظر في التشيع».

(٢) عيسى بن روضة التابعي مولى بني هاشم صاحب أبي جعفر العباسي (ت ١٥٨) أول من صنف في علم الكلام. له كتاب في الإمامة، وبقي إلى عصر أبي جعفر العباسي، لم أعثر على سنة وفاته - اعيان الشيعة ٨/ ٣٨٣.

(٣) ابن النديم - الفهرست ص ٣٢٣.

(٤) راجع ترجمته في السابق، ص ٢٠٢.

(٥) يقول جولد سهير في كتاب العقيدة والشريعة ص ٢٠٠ «ما يسترعي النظر ان علم الكلام الشيعي يتجه بصفة خاصة نحو المعتزلة، لأنه يستند فيما يسوقونه من براهين لتأييد نظرية الإمامة على قواعد اعترالية بحته، فالحاجة إلى وجود امام لكل عصر، وما يجب ان يمتاز به هذه الشخصية

وإذا كان علي عليه السلام يعتقد بأحقيته في الإمامة التي أقصي عنها فلا بد ان يكون له موقف فكري محدد تجاه أولئك الذين حالوا بينه وبين ممارسة حقه، وهذا ما سنحاول تتبعه من خلال نصوص نهج البلاغة التي عرضت لذلك.

من عصمة وقداسة، وقد ربطها الشيعة لا شك في طابعها الاعترالي، وقد سقنا من النصوص المأثورة عن علي عليه السلام في مواطنها من هذا الفصل ما يؤيد مقولة الشيعة من غير تأثيرات خارجية. علما بأن المهدي كاعتقاد موجود عند جميع الفرق الإسلامية راجع الفتح الرباني لترتيب مسند أحمد بن حنبل ٤٩/٢٤ وما بعدها، بذل المجهود في حل أبي داود ١٧/١٩٠ وما بعدها، فضائل الخمسة في الصحاح الستة ٣/٣٩٨ وما بعدها. والاختلاف حول المهدي المنتظر عند الفرق الإسلامية ليس في وجود كمتعقد، بل في كيفية وجود المهدي. إذ بينما يقول السنة وغيرهم من الفرق الإسلامية بأنه لم يخلق بعد ويغلق متى شاء الله، يعتقد الشيعة الإمامية بأنه امامهم الثاني عشر الذي غاب عن الأنظار وسيظهر في آخر الزمان فأصل عقيدة المهدي مأخوذة من الاحاديث النبوية الشريفة ولا دخل في تأثر الشيعة بالمعتزلة في اثباتها بالحجج الكلامية.

الفصل الثاني

فكر الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام

في مجريات السياسة في عصره

قبل الدخول في فكر الإمام علي عليه السلام في مجريات عصره يجدر النظر في نقطتين يرتكز عليهما ذلك الفكر كما يبدو من خلال تتبعنا لنصوص نهج البلاغة:

- الأولى: واجب الحاكم في نظر الإمام علي عليه السلام.

- الثانية: الإستقلالية في فكر الإمام علي عليه السلام.

١- واجب الحاكم في نظر الإمام علي عليه السلام:

من الممكن ادراك الغاية من الحكم في فكر الإمام علي عليه السلام من خلال نظرتة الزاهدة في الحياة بحيث لا يمكن الفصل بين تصرفه الخارجي في معاملاته مع الناس، وبين إيمانه الداخلي، فهو ذو شخصية واحدة تمتقت التلون وتناهى عن الازدواجية، فلا يأمر بطاعة الا ويوجبها على نفسه اولاً، ثم يطبقها على غيره بعد ذلك، ولا ينهى عن معصية الا وهو القدوة في تجنبها^(١)، وعلى ذلك فهو فرد

(١) راجع خطب - ١٧٧، فقرة ٢.

من افراد الأمة مساو في المنزلة لأي فرد من افرادها مهما كانت منزلته الاجتماعية لا لشيء الا لأنه قدوة، والقدوة مثال يجب ان يحتذى من قبيل الشرائح الواسعة بين طبقات الأمة، وبطبيعة الحال فإن الفقراء والمعدمين هم الكثرة الغالبة فمن المتوجب «على ائمة العدل ان يقدرُوا أنفسهم بضعة الناس كيلا يتبيغ بالفقير فقره»^(١). ومساواة الإمام نفسه بأفقر طبقات الأمة - كما يرى الإمام علي عليه السلام - فرض من الله وليس محاولة لإرضاء شريحة من شرائح المجتمع، للتقرب إليها بالتزوي بزيتها. لذلك يمكن اعتبار زهده وتقشفه من مستوجبات الإمامة، لأن في مقدوره وهو القائم بالأمر في الأمة الإسلامية ان يستمتع بملذات الحياة، فيأكل مصفى العسل مع الخبز المصنوع من لباب القمح ويلبس ألين الملابس وأفخرها^(٢)، ولكن شعوره بالمسؤولية يأبى عليه ذلك، فليس من العدل في مفهومه ان يشار إليه بالقول «هذا أمير المؤمنين ولا (يشارك امته) في مكاره الدهر، أو (يكون) اسوة لهم في جشوبة العيش»^(٣) فمن خلال التزامه بمبادئ الإسلام يرى ان الإمامة ليست منصباً تشريفياً غايتها الملك والسطوة كما أثر عن معاوية في قوله لأهل الكوفة «اتروني قاتلتكم على الصلاة والزكاة والحج، وقد علمت انكم تصلون وتزكون وتحجون ولكن قاتلتكم لأتأمر على رقابكم»^(٤). ففضية الإمامة أو بمعنى أصح، التحكم في رقاب العباد - كما يرى ذلك علي عليه السلام - إذا لم تصدر عن اقتناع بمبادئ الإسلام، مع خلوها من أية اطماع دنيوية، أو أية مزايا شخصية، مثلها في ذلك مثل أي شكل من اشكال المادة الزائلة، التي لا

(١) خطب - ٢٠٣، ويتبيغ: يهيج به.

(٢) راجع في ذلك قوله لعثمان بن حنيف عامله على البصرة - رسالة رقم ٤٥.

(٣) رسائل ٤٥ - فقرة ٣ وجشوبة العيش: خشونته.

(٤) ابن أبي الحديد ١٦ / ٧٥.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ١٩٧

جدوى من امتلاكها مادامت لا تحقق الهدف المرجو منها، وهو سعادة الناس في ظل عدالة اجتماعية شاملة. لذلك فقد اعتبر علي عليه السلام ثورة أبي سفيان المفتعلة^(١) في سبيل حق الهاشميين وعلى رأسهم الإمام علي عليه السلام بعد ان بويح لابي بكر، ما هي الا فقاعات زبد القصد منها اشعال نار الفتنة وتبديد شمل المسلمين، من أجل أمر تافه لن ينقص من قيمة علي عليه السلام، ولن ينال من مكانة الهاشميين، لأن الخلافة كمنصب القصد منه التسلط وشهوة الملك ما هي الا «ماء اجن، ولقمة يغص بها آكلها»^(٢).

فالغاية من الحكم في فكر الإمام علي عليه السلام، بقاء قواعد الإسلام قوية حتى ولو كان ذلك على حساب اهتضام حقه المشروع. يقول لأصحاب الشورى لما عزموا على مبايعة عثمان «لقد علمتم اني احق بها من غيري، والله لأسلمن ما سلمت امور المسلمين ولم يكن فيها جور الا علي خاصة، التماساً لأجر ذلك وفضله، وزهداً فيما تنافستموه من زخرفة وزبرجة»^(٣) فلا يهم ان يكون مظلوماً ما دام الإسلام مصاناً، لأن نظرتة الشمولية المتعمقة لمجريات الاحداث بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم حتمت عليه ان يبقى في الظل نائياً بمبادئه من ان تمس، أو ان يحور اصراره على المطالبة بالحكم بأنه شهوة حب التسلط في رقاب العباد. لأن اقتناعه التام بتكامل طرفي الإسلام، كعبادة واسلوب حياة، لا مجرد طقوس وشعائر، هو ما جعله ينبه لأحقيته في الحكم كوصي منصوح عليه معللاً ذلك التنبيه وتلك المطالبة ليست من أجل اشباع رغبة التسلط والامتلاك، ولكنها من أجل

(١) راجع ص ٢٦٣ من هذا البحث، فقد فصلنا القول في ذلك.

(٢) خطب ٥٧٣، ٥.

(٣) المصدر السابق نفسه.

حماية الدين واعادة نصابه إليه بإصلاح ما افسدته المادة واعادة الحقوق إلى نصابها بقمع الظلم والظالمين^(١).

وما دامت شرائع الإسلام كما يراها علي عليه السلام - تؤدي على الوجه المرضي، فلن تكون غضاضة عليه، في السكوت عن حقه، متربصاً باي زيغ تحدثه السلطة، إذ لم يكن وقوفه في الظل الا وليد نظرة واقعية في مجريات الأمور في فترة كان الدين فيها مازال طرياً اخضر العود لما تشتد بعد^(٢)، على هذا يمكن قياس موقف الإمام علي عليه السلام الفكري تجاه الرجال والأحداث في عصره.

٢- الاستقلالية السياسية في فكر الإمام علي عليه السلام:

ان اعتقاد الإمام علي عليه السلام بالنص عليه كوصي للنبي صلى الله عليه وآله حدد فكره المتعلق بسياسة الدولة في حدود القرآن والسنة دون غيرهما، لذلك رفض الوصاية على تلك السياسة، التي انبت عليها كصاحب مبدأ يجب ان يدافع عنه مهما بلغت التضحيات في سبيله، فلقد كان بإمكانه ان ينال الخلافة بعد مقتل عمر حين دعاه عبد الرحمن بن عوف إليها بشرط العمل «بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الشيخين من بعده»^(٣)، ولكنه رفض الشرط قائلاً «أرجو أن أفعل

(١) راجع خطب، ١٣٦، فقرة ٢.

(٢) ذلك بناء على قول علي عليه السلام في رسالته لاهل مصر «فوالله ما كان يلقي في روعي، ولا يخطر ببالي ان العرب تزعج هذا الأمر من بعده صلى الله عليه وآله عن أهل بيته، ولا انهم منحوه عني من بعده، فما راعني الا اني انا اني انا الناس على فلان يبايعونه، فامسكت يدي حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام يدعون إلى محق دين محمد صلى الله عليه وآله، فخشيت ان لم انصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً، أو هدماً تكون المصيبة به علي اعظم من فوت ولايتكم... فنهضت في تلك الاحداث حتى زاح

الباطل وزهق، واطمأن الدين وتنهنه...» رسالة رقم ٦٢

(٣) العقد الفريد ٤/ ٢٧٩.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ١٩٩

وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي»^(١)، فلو كانت الخلافة في حد ذاتها طلبته لقبول العمل بسيرة الشيخين، حتى وإن كان القبول بالقول، إلا أنه لم يرض بذلك، لأنه يرفض الإلتواء ولأنه يحجج أحقيته بأن يؤخذ برأيه، لا أن يأخذ برأي غيره، لأنه إنما يعمل بعلم علمه آياه النبي صلى الله عليه وآله ودعا له بأن يعيه صدره، وتضطم عليه جوانحه^(٢). فهو إذ ما وضع بين اختيارين مصلحته أو مصلحة الإسلام فإنه يختار ما فيه مصلحة الإسلام، مهما عظمت خسارته الشخصية، لذلك لم يكن من السهل قبوله منصب الخلافة بعد مقتل عثمان، الا بعد الحاح شديد من الناس، واشترط منه على المبايعين، القبول بالحكم كما يعلمه هو لا كما يريدون، وفي هذا الصدد يقول «اعلموا أني إن أحببتكم ركبت بكم ما أعلم، ولم أصنع إلى قول القائل وعتب العاتب»^(٣).

ولما أفضت إليه الخلافة، كان عليه ان يتصدى للاضطرابات التي سادت أرجاء ما أحدثه عمال عثمان من فتن أسخطت صحابة الرسول صلى الله عليه وآله وجرأة العامة على قتل عثمان، فأشار عليه المغيرة بن شعبه أن يقر ولاية عثمان حتى يستتب الوضع له، ثم يعزلهم، أو على الأقل يقر معاوية على ولايته إلى فترة ما، لأنه لم تكن له حجة في اقرار بقية ولاية عثمان، فإن حجته في إقرار معاوية على الشام، بأن عمر قد أقره من قبل، فلم يكن غريباً أن يرفض اقتراح المغيرة رفضاً قاطعاً بقوله «لا أداهن في ديني ولا أعطي الدني من أمري... ولا استعمل

(١) السابق.

(٢) راجع نهاية الخطبة رقم ١٢٨.

(٣) خطب - ٩١.

٢٠٠ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

معاوية يومين ابداً»^(١) ثم ان طلحة والزبير حين بايعاه كانا يرجوان ان تكون لهما الخطوة دون غيرهما، وقد روي انهما قالوا له حين البيعة «نبايعك على اننا شركاؤك في هذا الأمر، فقال لهما: لا ولكنكما شركاي في الفيء، لا استأثر عليكما ولا على عبد حبشي مجدع بدرهم ما دونه، لا انا ولا ولداي هذان»^(٢).

فالمواقف الصلبة في ذات الله جعلت من فكر الإمام علي عليه السلام السياسي، منهجاً صلباً لا يقبل المناورة والمداورة، وقد أشار عمر بن الخطاب إلى ذلك التفرد السياسي في شخص علي عليه السلام بقوله «لو وليتهم يحملهم على منهج الحق، فاخذ المحجة الواضحة، الا ان فيه خصالاً: الدعابة في المجلس، واستبداد الرأي، والتبكيك للناس»^(٣). وبرغم ما في المقولة من تناقض كما يتراءى لنا بين الاستبداد بالرأي، وهو نوع من الشعور بتضخم الشخصية والتعالي، وبين الدعابة التي تعني التبسط والهزل^(٤)، الا اننا نلمس فيها أيضاً مانحن بصدده من قول حول شخصية علي عليه السلام السياسة، فمنهج الحق الذي يقصده عمر، هو ما يعنيه علي عليه السلام بقوله لطلحة والزبير حين طلبا منه ان يوليها

(١) تاريخ الطبري ٤ / ٤٤٠، كامل ابن الأثير ٣ / ١٠١ وقد ذكر المصدران حوار علي عليه السلام مع المغيرة بأكمله.

(٢) ابن أبي الحديد ٧ / ٤٢.

(٣) تاريخ اليعقوبي ٢ / ١٥٩.

(٤) ما قيل عن استبداد علي عليه السلام برأيه ودعابته وتبكيته للناس يخالف تمام ما وصفه أصحابه الذين عاشروه به من ذلك ما أثر عن ضرار الضابي حين طلب معاوية منه وصف علي قوله «وكان فينا كأحدنا، يبيئنا إذا سألناه، وينبتنا إذا استبأناه، ونحن مع تقريبه ايانا وقربه منا لا نكاد نكلمه لهيبته ولا نبتدئه لعظمته، يعظم أهل الدين ويحب المساكين، لا يطمع القوي في باطله ولا ييأس الضعيف من عدله» الحصري القيرواني - زهر الاداب ١ / ٤١.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٢٠١

«اعلمنا اني لا اشرك في امانتي الا من ارضي دينه وامانته من اصحابي ومن قد عرفت دخيلته»^(١) لأن مقياس علي عليه السلام السياسي في الولاية، البعد عن كل شهوة مادية، وطلحة والزبير ممن لا يرتضي أمانتهما، لأنه يعرف دخيلتهما وحرصهما على الامارة من أجل دعم مصالحهما الشخصية اما ما أشار إليه عمر من طبيعة استبدادية في شخص علي عليه السلام، فليس الا لأنه يرى أن المنزلة التي حظي بها عند الرسول صلى الله عليه وسلم لم تتغير حتى بعد وفاته صلى الله عليه وسلم وإقصائه عن الخلافة، فهو يسير على نهجه ويتقفى خطاه صلى الله عليه وسلم، إذ يقول في هذا الصدد «الا ان موضوعي من رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد وفاته، كموضوعي منه أيام حياته، فامضوا لما تؤمرون به وقفوا عندما تنتهون عنه»^(٢)، فتمسك علي (برأيه، نابع من ايمانه وتصوره لنهج الرسول صلى الله عليه وسلم بأن الدين والدولة كل لا يتجزأ.

وعلى هذا الأساس يمكن دراسة مواقفه السياسية تجاه رجال عصره واحداثه، فما وافق الدين فهو رضا بالنسبة إليه، لذلك فإن وقوفه في الظل طيلة السنوات التي اقصي عما يعتقد حقه، لم يحل بينه وبين المشاركة في سياسة الدولة إذا ما طلب منه ذلك، فمن خلال ما سميناها بواجب الحاكم والاستقلالية السياسية يمكننا الدخول إلى فكر علي عليه السلام في ماجريات عصره كما رسمها (نهج البلاغة).

يمكن تقسيم فكر علي عليه السلام في ماجريات عصره السياسية إلى مرحلتين

- المرحلة الأولى: وهي مرحلة ما بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وما قبل خلافته عليه السلام، وتمتد من السنة الحادية عشرة للهجرة، حتى مقتل عثمان بن عفان سنة خمس

(١) ابن أبي الحديد ١ / ٢٣١.

(٢) ابن أبي الحديد ٧ / ٣٧.

٢٠٢ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

وثلاثين، ويمكن دراسة فكر علي عليه السلام في هذه المرحلة من خلال الوقائع التاريخية التالية:

١- مؤتمر سقيفة بن ساعدة.

٢- حكم أبي بكر.

٣- حكم عمر بن الخطاب.

٤- الشورى.

٥- حكم عثمان بن عفان.

- المرحلة الثانية: وهي التي تمثل فترة خلافته وتمتد من سنة خمس وثلاثين هجرية حتى سنة اربعين، ويمكن دراسة فكره في هذه المرحلة من خلال الوقائع التالية:

١- أصحاب الجمل - أو - الناكثون

٢- معاوية وبنو أمية - أو القاسطون

٣- الخوارج - المارقون

٤- إرادة قريش.

المرحلة الأولى:

والمتمثلة في فترة ما بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم

١- مؤتمر سقيفة بني ساعدة^(١) في فكر الإمام علي عليه السلام:

(١) سقيفة بني ساعدة: بالمدينة وهي ظلة كان الأنصار يجلسون تحتها، فيها بويع أبو بكر... واما بنو ساعدة الذين اضيفت لهم السقيفة، فهم جماعة من الانصار، وهم بنو ساعدة بن كعب بن الخزرج بن حارثة بن ثعلبة، ومنهم سعد بن عباد - معجم البلدان ٣/ ٢٨٨، ٢٢٩، اما بشأن

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٢٠٣

لم يكن علي وآل بيت الرسول وجل المهاجرين حضوراً في اجتماع السقيفة، لأنهم كانوا في شغل بتجهيز الرسول صلى الله عليه وسلم والاعداد لدفنه، فلم يعلموا بخبرها الا بعد ان «بويح أبو بكر واقبلت الجماعة التي بايعته تزفه زفاً إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم»^(١)، فلم يكن إلا ذهولاً اصاب النفوس، إذ كيف تسنى لأولئك ان يبرموا أمراً في مثل ذلك اليوم العصيب دون ان يستشار جميع أولي الأمر، وعلى ذلك الأساس بنى علي عليه السلام فكرته فيما أثر عنه من قول لأبي بكر (طويل):

فإن كنت بالشورى ملكت أمورهم فكيف بهذا والمشiron غيب^(٢)

فعلي عليه السلام - على ما يبدو - لا يعتقد ان ثمة شورى في انعقاد البيعة لأبي بكر، لأن الشورى تقتضي حضور جميع من يهمهم الأمر، اما وجهة نظره في مؤتمر السقيفة فقد بناها على تفنيد منطلق كل من الأنصار والمهاجرين الذين حضروا السقيفة ذلك اليوم. فالإسلام لا يميز للأنصار الادعاء بخلافة رسول الله صلى الله عليه وسلم على اعتبار انهم موصى بهم من قبل الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن يوصى به لا يجوز لا عقلاً ولا شرعاً ان يكون قائداً، وبناء على ذلك قال لما بلغته أنباء السقيفة «ما قالت الأنصار؟»، قالوا: قالت منا أمير ومنكم امير، قال عليه السلام: فهلا احتججتم عليهم بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصى بأن يحسن إلى محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم، قالوا: وما في هذه الحجة عليهم؟، فقال عليه السلام: لو كانت الإمامة فيهم لم تكن الوصية بهم»^(٣).

ما دار في السقيفة من حوار بين الأنصار ورهط قريش من الصحابة فيمكن مراجعته في تاريخ

الطبري ٢١٨/٣ وما بعدها.

(١) الزبير بن بكار - الأخبار الموقيات ص ٥٧٨.

(٢) حكم: ١٨٧.

(٣) خطب - ٦٦.

أما طرف السقيفة الثاني، وهم قريش، فقد احتجوا بقربانهم من رسول الله ﷺ كما ورد في قول عمر بأنهم «أولياؤه وعشرتة»^(١)، وهم بحجبتهم تلك لا يستحقون الإمامة أيضاً من وجهة نظر علي عليه السلام وذلك بناء على قول الله تعالى: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾^(٢)، فإذا كان مقياس استحقاقهم الأمر لقربانهم البعيدة من الرسول ﷺ، فالأولى به أن يكون في رحمه القريب وعترته، ويمثل وجهة نظر علي عليه السلام تلك قوله «ماذا قالت قريش؟ قالوا: احتجت بأنها شجرة الرسول ﷺ، فقال عليه السلام: احتجوا بالشجرة واضاعوا الثمرة»^(٣)، فالثمرة وهي التاج الأصلي للشجرة أولى بأن يكون لها الحق دون غيرها من سائر الفروع، وعلى ذلك بنى علي عليه السلام فكره من خلافة أبي بكر، كراي مضاد الهدف منه اقامة الحججة.

٢- موقف علي عليه السلام من حكم أبي بكر:

لم يحسم أمر البيعة بالحكم لأبي بكر حسماً تاماً في مؤتمر السقيفة كما تصوره لنا المصادر التاريخية، إذ يبدو من خلال فلتات المؤرخين في ثنايا سردهم للحوادث ان صراعاً خفياً قد احتدم وان المسلمين قد تحزبوا إلى فرقتين إذ يمكن ان يستنتج من القول بأن «اسلم اقبلت بجماعتها حتى تضايقت بهم السكك فبايعوا، فكان عمر يقول: ما هو الا ان رأيت اسلم فأيقنت بالنصر»^(٤)، أي

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٢٢٠.

(٢) الانفال/ ٧٥.

(٣) خطب- ٦٦.

(٤) تاريخ الطبري ٣/ ٢٢٢ وأسلم- اسم يطلق على عدة بطون وقبائل، والذين يعينهم عمر- كما اعتقد - هم اسلم بن افضى: بطن من خزاعة وهم: بنو اسلم بن افضى بن حارثة بن عمرو من القحطانية،

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٢٠٥

أن فوز أبي بكر لم يتحقق بسهولة ويسر، إذ لو كان الأمر كذلك لما قال «فأيقنت بالنصر» مما يعني ان الرؤية قد كانت غامضة قبل مبايعة اسلم، فاليقين هنا يتبع شكاً، والوجل والخوف من الفشل، كما ان كلمة (النصر) في السياق تنم عن الصراع الخفي الذي كاد ان ينفجر ليرجح كفة على اخرى. فما ان استقر أمر السقيفة لابي بكر جراء الجدل الذي أخذ القوم على غرة، وتنبه أولئك المجتمعون للسرعة المذهلة التي تمت فيها تلك البيعة، حتى «ندم قوم كثير من الأنصار على بيعته ولا م بعضهم بعضاً، وذكروا علي بن أبي طالب عليه السلام، وهتفوا باسمه، وانه في داره فلم يخرج إليهم، فجزع لذلك المهاجرون، وكثر في ذلك الكلام»^(١)، ثم ان المنافرات بين الأنصار والمهاجرين كادت ان تحدث فتقا في الإسلام، بإثارة النعرات القبلية، لو لا تدارك بعض الصحابة للأمر بسد افواه موتوري قريش على الأنصار وعلي عليه السلام، لما فعلوه بأبائهم وأجدادهم وأخوانهم في حروبهم معهم في الجاهلية بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٢). ثم ان هناك كثير من رؤوس المهاجرين ممن امتنع عن بيعة أبي بكر من أمثال: الزبير بن العوام، والمقداد بن عمرو وأبي ذر الغفاري، وعمار بن ياسر، وسلمان الفارسي، ولم يدلوا ببيعتهم^(٣) الا مكروهين «وكان إبان بن سعيد أحد من تخلف عن بيعة أبي بكر

من قراهم ويرة قرية ذات نخيل من اعراض المدينة - كحالة - معجم قبائل العرب ١/ ٢٦.

(١) الزبير بن بكار - الأخبار الموفقيات ٥٨٣.

(٢) راجع ذلك بالتفصيل عند الزبير بن بكار، السابق من ص ٥٩٥ حتى ص ٦٠٢.

(٣) راجع سليم بن قيس الهلالي الكوفي (ت في حدود ٩٠ هـ) - كتاب سليم بن قيس ص ٨٩ وما

بعدها، وقد ذكر الكتاب وصاحبه ابن النديم - الفهرست ص ٢٧٥ في اخبار فقهاء الشيعة وما

صنفوه من الكتب، راجع ايضاً: تاريخ يعقوبي ٢/ ١٢٤.

لينظر ما يصنع بنو هاشم فلما بايعوا بايع»^(١)، وكان إبان في موقفه ذاك تبعاً لأخيه الأكبر خالد بن سعيد بن العاص الذي أسلم وأبو بكر في يوم واحد^(٢)، وقيل ان أبا بكر قد أمر خالداً ذاك على جيوش الشام، فاعترض عمر على ذلك قائلاً «أتولي خالداً وقد حبس عنك بيعته، وقال لبني هاشم ما قد بلغك؟ فو الله ما أرى ان توجهه»^(٣) فامتثل أبو بكر لذلك فعزله وولى مكانه يزيد بن أبي سفيان وأبا عبيدة بن الجراح^(٤). لذلك فمن المرجح ان البيعة لأبي بكر لم تتم ولم يستقر له الأمر الا بعد ان بايعه علي بن أبي طالب عليه السلام، وتبعه بنو هاشم إذ تحدثنا بعض المصادر التاريخية عن المحاولات التي بذلتها قريش لضعاف جانب علي عليه السلام وارغامه علي البيعة «من ذلك توجه أبي بكر وعمر بن الخطاب وأبي عبيدة بن الجراح والمغيرة بن شعبة إلى منزل العباس بن عبد المطلب ليلاً ليجعلوا له في الحكم «نصيياً يكون له ولعقبه من بعده»^(٥)، ليفتوا من عضد علي عليه السلام ولكنهم لم يفلحوا في اقناع العباس بذلك، وبقي علي عليه السلام ومن تبعه من آل بيته عليه السلام وأشياعه «سته أشهر لم يبايعوا حتى ماتت فاطمة عليها السلام فبايعوا»^(٦).

ويبدو مما أثر عن علي عليه السلام من نصوص في (نهج البلاغة)، وما دار حولها من شرح وتعليقات أن علياً عليه السلام قد حاول في الأيام الأولى من مبايعة أبي

(١) ان الأثير أسد الغابة ٤٧/١، وراجع ترجمة ابان في المصدر نفسه.

(٢) السابق ٩٧/٢، ٩٨، و ترجمة خالد هناك أيضاً.

(٣) تاريخ اليعقوبي ١٣٣/٢.

(٤) راجع السابق ١٣٣/٢.

(٥) راجع الحادث باكملهم عند ابن قتيبة - الإمامة والسياسة ١٥/١، وتاريخ اليعقوبي ١٢٤/٢ وما بعدها.

(٦) ابن الأثير الكامل في التاريخ ٢٢٤/٢.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٢٠٧

بكر أن يسترجع ما كان يعتقد حقه، وقد وقفت زوجته السيدة فاطمة عليها السلام بجانبه ^(١) ولكنه لم يفلح، من ذلك ما أثر عن معاوية في إحدى رسائله لعلي عليه السلام قوله «لقد حسدت أبا بكر والتويت عليه ورمت افساد امره، وقعدت في بيتك، واستغويت عصابة من الناس حتى تأخروا عن بيعته» ^(٢)، فمعاوية يتهم علياً عليه السلام بالإفساد والتعدي والتحريض لإفشال بيعة أبي بكر ومهما انطوت تلك المقولة على مكر وخديعة بقصد الإساءة لعلي عليه السلام، فإنها تضيء جوانب من موقف علي عليه السلام وكثير من الصحابة إزاء بيعة أبي بكر مما يجعلنا نعتقد بأن تلك البيعة قد احدثت في بدايتها نوعاً من التشتت الفكري في مصداقية الإسلام في نفوس أولئك الذين لما تتمكن مبادئ الإسلام منها، إذ وجدت في اختلاف صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذريعة للتمرد على الدين ^(٣). لذلك لم يجد علي عليه السلام بدأً من اتخاذ موقف حاسم إزاء هذه المتناقضات التي كادت ان تحدث شرحاً في الإسلام، حتى لو كان ذلك على حساب حقه، لأن مصلحة الإسلام تقتضي منه التضحية ^(٤) وكانت بيعته لأبي بكر الذروة في هذه التضحية، الا ان تلك البيعة لم تأت عن طواعية ولم تحدث الا بعد جدل طويل سجلت لنا بعض المصادر

(١) راجع ما قاله سليم بن قيس في كتابه بشأن حمل علي فاطمة الزهراء على حمار وأخذه بيدي ابنه الحسن والحسين عليهما السلام وذهابه إلى بيوت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يناشدهم الله في حقه ص ٨٢-٨٣.

(٢) شرح ابن أبي الحديد ١٨٦/١٥.

(٣) نعني بذلك ارتداد بعض القبائل عن الإسلام وامتناع القبائل الاخرى عن دفع الزكاة، يمكن مراجعة ذلك في تاريخ الطبري ٣/٣٠١ وما بعدها.

(٤) بشأن امتناع علي عليه السلام عن بيعة أبي بكر، والسبب الذي جعله فيما بعد يبايع، راجع قول علي عليه السلام في

التاريخية جانباً منه^(١)، مقتصرة على السرد، لذلك لم تتمكن من تمثيل الصورة الصادقة لمعاناته النفسية أثناء مجادلته عن ذلك الحق ولكن (نهج البلاغة) قد نقل إلينا بعض مآثرات علي (عليه السلام) التي توضح بعض الجوانب من تلك المعاناة، من ذلك قوله في شأن من نقلوا حقه لغيره بتأويلات مفتعلة تنم عن نكوصهم عما أوصى به الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) «حتى إذا قبض الله رسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) رجع قوم على الاعقاب، وغالتهم السبل واتكلوا على اللوائح، ووصلوا غير الرحم، وهجروا السبب الذي امروا بمودته ونقلوا البناء عن أساسه، فبنوه في غير موضعه»^(٢)، ويبدو من المقولة - كما نعتقد - أن علياً (عليه السلام) يختلف مع الشيخين اختلافاً بشأن قضية الاستخلاف وما امتناعه عن البيعة لأبي بكر مدة ستة أشهر^(٣)، إلا تعبير واضح عن ذلك، ثم إن بعض المصادر الأدبية تذكر لعلي (عليه السلام) نصوصاً يقول فيها بمنزلته من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأحقيته دون غيره بالخلافة، من ذلك ما رواه له الجاحظ من عتاب وجهه لمن آمال الخلافة عنه من جمهور المسلمين^(٤)، كما إن ما دار من جدل بين علي (عليه السلام) وبين أبي بكر في اليوم الثاني بعد بيعة السقيفة، يدل على الخلاف العميق بين وجهتي نظر كليهما، ولكنه خلاف «يقف عند حد النقاش والحوار وقرع الحججة بالحجة»^(٥)، لاعتقاد علي (عليه السلام) بأن الاحتكام إلى السيف في مثل تلك الظروف العصبية لن يكون في صالح الإسلام، فكان صراع

(١) راجع على سبيل المثال الإمامة والسياسة لابن قتيبة ١٢/١، ١٣، ابن اعثم: الفتوح ١٢/١، ١٣.

(٢) خطب - ١٤٨.

(٣) أكثر المصادر ترجح أن بيعة علي (عليه السلام) لم تحدث إلا بعد ستة أشهر - راجع: تاريخ الطبري

٢٠٨/٣، العقد الفريد ٤/٢٦٠، ابن الأثير الكامل في التاريخ ٢/٢٢٠.

(٤) راجع البيان والتبيين ٢/٥٠، ٥١.

(٥) مغنية - في ظلال النهج ٢/٣٠٥.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٢٠٩

بين العاطفة والعقل بالنسبة لعلي عليه السلام، حيث حسم ذلك الصراع لصالح العقل، فأقر علي عليه السلام بالتسليم على اهتضام حقه، وألم ممض فاضت به أعماقه ^(١).

فاعتقاده بأحقية بالخلافة بعد الرسول صلى الله عليه وسلم هو المحور الأساس الذي اعتمده في مواجهة من جادله من الصحابة بشأن ذلك، يقول له أبو عبيدة بن الجراح حين حاولوا ارغامه على التسليم لأبي بكر بالبيعة «يا ابن عم، إنك حديث السن، وهؤلاء مشيخة قومك ليس لك مثل تجربتهم، ومعرفتهم، ولا أرى أبا بكر الا اقوى على هذا الأمر منك» ^(٢) فكان رده على تلك المقولة «يا أبا عبيدة، اطال عليك العهد فنسيت، أم نافست فأنسيت؟ لقد سمعتها ووعيتها فهلا رعيتها» ^(٣) فمن الملاحظ ان علياً عليه السلام لم يتطرق إلى مسألة الاحقية بالسن التي أثارها أبو عبيدة لإدراكه - كما نظن - بأن عامل السن من العوامل المستحدثة ضمن ذلك الجدل لافتقار الطرف المقابل إلى الحججة، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم حين أمر أسامة، وهو الحدث، على المهاجرين الأولين لم يضع السن مقياساً لذلك التأمير. لذلك فإننا لو أخذنا مسألة الخلافة من منظور الإمام علي عليه السلام كما هو منصوص عليها في (نهج البلاغة)، فسنخلص إلى أنه قد كان يرى أنها حقه المنصوص عليه من قبل الرسول صلى الله عليه وسلم سلب منه عنوة إذ ما فتىء يكرر ذلك في كل مناسبة، يقول في خطبته المسماة بالشقشقية «اما والله لقد تقمصها فلان، وإنه ليعلم أن محلي منها محل القطب من الرحي، ينحدر عني السيل، ولا يرقى إلى الطير» ^(٤).

(١) راجع خطب ٣، فقرة ١.

(٢) الإمامة والسياسة ١/ ١٢.

(٣) ابن أبي الحديد ٢٠/ ٣٠٧.

(٤) خطب ٣، فقرة ١.

إلا أن ما حمله في نفسه من ضيم لم يحل بينه وبين تقديم العون والمشورة كلما دعت الحاجة لذلك، «فقارب وسدد حسب استطاعته على ضعف وحد كانا فيه»^(١)، لذلك لم يبخل برأيه، ولم يتردد في ابداء موقفه بصدق وأمانة وحماس كلما لجأ أبو بكر إليه، فحين عزم على ارسال الجيوش الإسلامية لغزو الروم شاور كثيراً من الصحابة «فقدموا واخروا، فاستشار علي بن أبي طالب عليه السلام، فأشار عليه ان يفعل، فقال: إن فعلت ظفرت»^(٢) فأخذ بمشورته فكان الظفر للإسلام، لم يكن الإمام علي عليه السلام ينظر إلى شخص أبي بكر في حد ذاته الا من خلال نظراته الشمولية إلى مصلحة الإسلام، فالطاعة والاستجابة هنا ليست امثالاً لشخص أبي بكر، لذلك يمكننا القول بأن حياة الإمام علي عليه السلام في عهد أبي بكر لم تكن سوى المناصحة والطاعة المقرونة بالإيمان، والانتظار المقرون بالأمل عسى ان يعود الحق إلى نصابه، ويمكن استخلاص ذلك من قوله «تولى أبو بكر تلك الأمور، فيسر وسدد، وقارب واقتصد، وصحبته مناصحاً واطعته فيما اطاع الله فيه جاهداً، وما طمعت ان لو حدث به حادث وانا حي ان يرد الي الأمر الذي نازعته فيه، طمع مستيقن، ولا يئست منه بأس من لا يرجوه، ولولا خاصة ما كان بينه وبين عمر لظننت انه لا يدفعها عني، فلما احتضر بعث إلى عمر فولاه فسمعنا واطعنا وناصحنا»^(٣)، فمسألة مركز الخلافة الإسلامية في فكر الإمام علي عليه السلام وان كان ذو اهمية عظيمة - الا انه مسألة ثانوية، مادام الإسلام مصاناً وحقوق العباد مؤداة في ظل الشرع من غير عسف ولا ارهاق وعلى ذات النهج

(١) شرح ابن أبي الحديد ٢٠/٢١٨.

(٢) تاريخ اليعقوبي ٢/١٣٣.

(٣) ابن أبي الحديد ٢٠/٢١٨.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٢١١

يمكننا تتبع موقفه من شخص عمر بن الخطاب وتحديد فكره من سياسته.

٣. موقف الإمام علي عليه السلام من خلافة عمر:

ليس ثمة شك في ان تثبيت بيعة أبي بكر وتقويم أمر سلطته يرجعان إلى جرأة عمر ومبادرته بالمبايعة له في السقيفة على رؤوس الأشهاد، فلقد جاهد جهاداً مستميتاً في سبيل ذلك إلى الحد الذي جعله يعد الخلافة معركة وفوز أبي بكر بها نصراً شخصياً له بعد أن بايعت قبيلة أسلم كما أسلفنا القول في ذلك. وتحدثنا المصادر التاريخية بأنه قد حاول إرغام سعد بن عباد على البيعة لأبي بكر بالإكراه، لولا تصلب سعد في امتناعه وتدخل بشير بن سعد الأنصاري حسماً للنزاع وتجنباً من الفتنة^(١). ولاعتداد عمر بمنزلته فقد اعتبر مبايعته لابي بكر ملزمة للمهاجرين، إذ إنها تعادل من وجهة نظره - كما نعتقد - بيعة الأنصار كافة^(٢). ولم يأل جهداً لترسيخ دعائم تلك البيعة بملاحقة المتخلفين عنها^(٣). واستمر عمر يشد من أزر أبي بكر ويقوم مقامه طيلة خلافته، فقد كان يصلي بالناس نيابة عنه أثناء تغيبه عن المدينة^(٤)، كما كان أبو بكر لا يمضي يوماً دون مشورة عمر، وكان يرجح رايه في كثير من الأحيان على آراء جماعة

(١) راجع ذلك بالتفصيل: تاريخ الطبري ٣/ ٢٢٢، العقد الفريد ٤/ ٢٥٨ وفي ص ٢٦٠ ذكر ابن عبد ربه الكيفية التي اغتيل بها سيد الخزرج سعد بن عباد الانصاري، ابن الأثير الكامل في التاريخ ٢/ ٢٢٤.

(٢) راجع في ذلك الصدد ما قاله عمر للمهاجرين في مسح المدينة بعد ان تمت بيعة السقيفة في الإمامة والسياسة ١/ ١١، وراجع حصّه على إتمام البيعة لأبي بكر في اليوم الثاني في تاريخ الطبري ٣/ ٢٠٣.

(٣) بشأن معاملة عمر المتخلفين عن بيعة أبي بكر راجع ابن أبي الحديد ١/ ١٧٤.

(٤) راجع تاريخ الطبري ٣/ ٤٣٢.

المسلمين^(١)، فمواقف عمر تلك المكانة التي تبوأها في عهد أبي بكر جعلت علي عليه السلام ينظر إليه ومنذ البداية على أنه المؤهل للأمر بعد أبي بكر، وهو ما يمكن استخلاصه من قول علي عليه السلام حين قال له عمر «إنك لست متروكاً حتى تباع، فقال له علي: احلب حلباً لك شطره، واشدد اليوم امره يردده عليك غداً»^(٢).

والتحليل المنطقي للحوادث يكاد يعزز ما قاله علي عليه السلام فقد حزم أبو بكر امره منذ الوهلة الأولى التي تسلم فيها على تجريد الهاشميين من كل ما يمكن وراثته عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، بما في ذلك الخلافة بوضعها في قريش عامة وفي عمر بن الخطاب على وجه الخصوص، فقول عمر لعبد الله بن عباس «لولا رأي أبي بكر في بعد موته لأعاد أمركم إليكم»^(٣) يتضمن الاختيار المسبق لعمر والابعاد المتعمد لآل البيت عليه السلام عن حقهم بدلالة قوله «أمركم إليكم»، فالإضافة في السياق تعني الاختصاص والأحقية. ثم أن عهد أبي بكر لعمر يؤكد مقولة الاستخلاف للنص فيه على «أما بعد فإني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب»^(٤) مما يتعارض مقولة الترشيح الذي لا يمكن تحوله إلى استخلاف إلا بعد موافقة المسلمين^(٥)، إذ لا يمكن استخلاص أية عبارة تنم على الترشيح من سياق العهد المذكور حتى ولو حاولنا التعسف في تأويل العبارات، لثبات نص الاستخلاف في سياقها، إضافة إلى ذلك فإن قول أبي

(١) راجع على سبيل المثال موقف أبي بكر من طلب كل من عيينه بن حصين والاقراع بن حابس ورد عمر على ذلك الموقف وما قاله لهما أبو بكر بشأن رد عمر. شرح ابن أبي الحديد ٥٨/١٢.

(٢) الإمامة والسياسة ١١/١.

(٣) ابن أبي الحديد ١٩٠/١. وقد أورد مثله باختلاف الطبري في تاريخه ٢٢٢/٤.

(٤) تاريخ الطبري ٤٢٨/٣، ابن الأثير الكامل في التاريخ ٢٩٢/٢.

(٥) راجع: طه حسين - الشيخان ص ٤٨.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٢١٣

بكر للمسلمين «فإني ما استخلفت عليكم ذا قرابة واني قد استخلفت عليكم عمر فاسمعوا له واطيعوا»^(١) يبين تلميحاً - على ما نعتقده - بأن هناك سابقة استخلاف بالقرابة يحاول أبو بكر ابعاد مثلها عن نفسه، كما وان الأمر بالسمع والطاعة للمستخلف هو بعيد عما قيل من شورى، إذ لو كان أبو بكر يبغى من قوله الشورى لجعل الاستخلاف في صيغة اقتراح لا في صيغة أمر مؤكد متبوع بالسمع والطاعة.

وإذا ما حاولنا ترتيب عهد أبي بكر لعمر ترتيباً زمانياً، فسنجد المصادر التاريخية التي اרכת لذلك تكاد تتفق جليها على التالي:

أولاً: ان سؤال أبي بكر لكل من عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان قبيل كتابة عهد الاستخلاف كان محصوراً في شخص عمر^(٢) دون غيره من الصحابة مما يعني - فيما نظن - ان أبا بكر قد بنى امره على النص لعمر وما ذاك السؤال الا من قبيل التمهيد.

ثانياً: ان ذاك السؤال من قبل أبي بكر لم يأت - فيما نعتقد - الا بعد ايمانه التام بكفاءة عمر، فهو يقول لعبد الرحمن بن عوف عن غلظة عمر «لو أفضي الأمر إليه لترك كثيراً مما هو عليه»^(٣).

ثالثاً: محاولة أبي بكر التكتم على قضية الاستخلاف وحصر خبرها في اثنين دون الهيئة المكونة من العشرة من الصحابة الذين حصرت بعض المراجع مجلس

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٤٢٨، ابن الأثير الكامل في التاريخ ٢ / ٢٩٢.

(٢) راجع ذلك في المصدرين السابقين في موضوع (ذكر استخلاف عمر).

(٣) المصدر السابق.

الشورى فيهم^(١)، مع ملاحظة ان أولئك العشرة. فيما نظن - لم يصيروا هيئة استشارية الا بعد ان حصر عمر بن الخطاب الخلافة في ستة منهم أثناء وفاته^(٢) وذلك بعد موت ثلاثة منهم رابعهم عمر بن الخطاب، اصف إلى ذلك فإن تلك الهيئة الاستشارية لم تجتمع بأكملها قط للتداول في أمر الخلافة أو غيرها من شؤون الحكم، كما ان التاريخ لم يحدثنا اطلاقاً عن اتفاق حتى نصف نصابها على شأن من شؤون الأمة، بل هو تحاشي أبي بكر وكتمانه أمر الاستخلاف عن بعض أفرادها^(٣)، كما حدث أمر علي بن أبي طالب عليه السلام وهو زعيم الهاشميين واحد

(١) العشرة هم: أبو بكر وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب عليه السلام وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة بن الجراح، وقد وردت فيهم احاديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بتبشيرهم بالجنة، الا ان تلك الاحاديث لم تتضمن انهم أهل الحل والعقد ولا انهم أهل الشورى، راجع ما روي فيهم من احاديث عند: المحب الطبري - الرياض النضرة في مناقب العشرة ٣١ / ١ حتى ٣٨.

(٢) راجع الشورى في فكر علي عليه السلام ص ٢٢١ من هذا البحث.

(٣) تذكر المصادر التاريخية ان أبا بكر لما اراد ان يعقد بالخلافة لعمر بن الخطاب «دعا عبد الرحمن بن عوف، فقال: اخبرني عن عمر، فقال: يا خليفة رسول الله، هو والله افضل من رايتك فيه من رجل... فقال أبو بكر: ... لا تذكر يا أبا محمد مما قلت لك شيئاً، ثم دعا عثمان بن عفان، قال: اخبرني عن عمر، قال: انت اخبر به، فقال أبو بكر: علي ذاك يا أبا عبد الله، قال اللهم علمي به ان سريرته خير من علانيته... قال أبو بكر: رحمك الله يا أبا عبد الله، لا تذكر مما ذكرت لك شيئاً» تاريخ الطبري ٤٢٨ / ٣، ابن الأثير الكامل في التاريخ ٢ / ٢٩١، ٢٩٢، فمن الملاحظ ان استشارة أبي بكر قد اقتصر على اثنين فقط من أهل الشورى دون غيرهما، وتحديد الاستشارة في عمر بالذات وتبرير غلطته مما يعني إنها تمهيد لعقد الخلافة في شخص عمر وليس استشارة، ويعزز ذلك الاعتقاد محاولة أبي بكر التكتم على الخبر حتى لا تتم معارضته قبل أن يتم.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٢١٥

من عدّ في الشورى، مما يعني تشكيل تلك الهيئة من اختراع المؤرخين المحدثين بناء على استنتاجات تاريخية لا تمت للواقع بصلة، فأبو بكر كما يرى علي عليه السلام لم يتسلم الخلافة الا بتعصيد من عمر ودون علم معظم من سموا بهيئة الشورى وعلى رأسهم علي بن أبي طالب عليه السلام، الذي كان متواجداً مع أبي بكر في بيت النبي صلى الله عليه وآله حين جاء عمر وأسرّ لأبي بكر خبر اجتماع السقيفة^(١) دون غيره ممن كانوا حول النبي صلى الله عليه وآله في تلك الساعة.

رابعا: إن سرية العهد لم تحل دون علم بعض الصحابة ومن ثم اعتراضهم عليه، من ذلك قول طلحة بن عبيد الله التيمي - أحد أفراد هيئة الشورى لأبي بكر «استخلفت على الناس عمر، وقد رأيت ما يلقي الناس منه وأنت معه، وكيف به إذا خلا بهم وانت لاق ربك»^(٢)، فلو كان الاستخلاف متولداً عن مشورة لما جاءت مقولة طلحة لأبي بكر المريض بهذه الحدة المتضمنة التهديد بعقاب الله، ثم أن أبا بكر ذاته يؤكد استخلافه لعمر ضمن رده على طلحة في قوله «أبالله تخوفني؟ إذا لقيت ربي فسألني قلت: استخلفت على أهلك خير أهلك»^(٣)، علماً بأن الحوار الحاد الذي دار بين أبي بكر وطلحة يأتي في ترتيبه الزمني الأول قبل كتابة العهد، وقبل أمر أبي بكر المسلمين بالسمع والطاعة لعمر، مما يرجح أن الاستخلاف قد كان وارداً قبل المداولات التي جرت فيما بعد أسباغ الشرعية عليه، إذ يمكن الاستنتاج مما أثر عن الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة أن اتفاقاً مسبقاً^(٤) قد أدى بالخلافة إلى عمر ولولا ذلك لما تعداه أبو بكر.

(١) راجع تاريخ الطبرس ٣/٢١٩، ابن الأثير الكامل في التاريخ ٢/٢٢٢.

(٢) الكامل في التاريخ ٢/٢٩٢.

(٣) السابق.

(٤) راجع خطب ٣، فقرة ١، وطابقه بالمحاجة التي دارت بين عمر وعلي عليه السلام بشأن البيعة في الإمامة

بناء على ما سبق لا يمكن قبول قول من قال «بأن خلافة عمر لم تتم بعهد من أبي بكر»^(١) لأن القائل قد بنى استنتاجه ذلك على أساس انه ليس من حق الخليفة ان يعهد لمن بعده، لكن ذلك يتعارض مع قول من تحدثوا في الإمامة من فقهاء السنة، لأنهم قد جوزوا عهد الخليفة لمن بعده^(٢) وبشأن اهمية الاستخلاف العظيمة تقول عائشة لعبد الله بن عمر حين بلغها الاعتداء على عمر بن الخطاب في المسجد «يا بني أبلغ عمر سلامي وقل له: لا تدع أمة محمد ﷺ بلا راع، استخلف عليهم، ولا تدعهم بعدك هملاً فإني اخشى عليهم الفتنة»^(٣). فمحاولة الباس عهد استخلاف عمر ثوباً من الديمقراطية بالقول باشتراك المسلمين في اتخاذه، ومشاورتهم فيه، لا ينفي كونه قراراً فردياً في نظر علي بن أبي طالب عليه السلام كما ورد في النهج «حتى مضى الأول لسبيله فأدلى به إلى فلان من بعده»^(٤) فقد اتفق شراح النهج على تفسير (ادلى بها) في سياق الخطبة طبقاً للقول (ادلى ما له إلى الحاكم، إذا دفعه إليه رشوة)^(٥)، وخرج ابن أبي الحديد العبارة طبقاً لقوله تعالى:

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾^(٦)، «اي

تدفعوها لهم رشوة... لما كان عليه السلام يرى ان العدول بها عنه إلى غيره اخراج لها إلى

والسياسة ١/ ١١.

(١) فتحي عبد الكريم - الدولة والسيادة ص ٢٤٧.

(٢) راجع ص ١٨٠ من هذا البحث.

(٣) الإمامة والسياسة ١/ ٢٣.

(٤) خطب، ٣.

(٥) الراوندي - منهاج البراعة ١/ ١٢٤.

(٦) البقرة/ ١٨٨.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٢١٧
غير جهة الاستحقاق»^(١).

ومهما بلغت الحدة في نقده لخلافة أبي بكر ومن بعده خلافة عمر فهي - في اعتقادنا - لا تخرج عما ذكره التاريخ في شخصيهما، فالإختلاف هنا يكمن في طريقة تناول، فعلي عليه السلام قد عبر عن نقده بأسلوب ساخط ممزوج بالألم، وإلا فإن أبا بكر قد قال في مطلع حكمه مستقيلاً عبء الخلافة زاهد فيها «لا حاجة لي في بيعتكم اقبلوني بيعتي»^(٢)، وقد تناول الإمام علي عليه السلام ذات التعبير في معرض الاستغراب والتعجب من التناقض بين القول والفعل، إذ بينما يظهر أبو بكر الزهد في الخلافة أثناء حياته، يراه علي عليه السلام يحرص بالوصية في عقدها لعمر بن الخطاب بعد وفاته معبراً عن ذلك بقوله: «يا عجباً، بينا هو يستقيلهما في حياته، إذ عقدها لآخر بعد وفاته»^(٣)، لأن المفروض - وجهة نظر علي عليه السلام - فيمن «يستقبل من أمر على ظاهر الحال، يجب أن يكون زاهداً فيه متبرماً منه... ومن عقده لغيره ووصى به إلى سواه فهو على غاية التمسك به»^(٤).

فإذا كان علي عليه السلام ينكر على أبي بكر ذلك، فإنه في ذات الوقت ينتقد شخص المعقود له حين يصفه بالخشونة وعدم الثبات في الأحكام، بحيث أصبح عهده من حيث الفتيا والقضاء لا يلتزم منهجاً معيناً، فقد كان عمر «ما يحكم بالأمر ثم ينقضه، ويفتي بالفتيا ثم يرجع عنها، ويعتذر مما أفتى به»^(٥) من ذلك انه

(١) شرح النهج ١/١٦٣.

(٢) الإمامة والسياسة ١/١٤.

(٣) خطب ٣، ويستقيلهما يطلب الاعفاء منها.

(٤) الراوندي: منهاج البراعة ١/١٢٥.

(٥) ابن أبي الحديد ١/١٧١، ١٨١.

قضى في توريث «الجد مع الأخوة قضايا كثيرة مختلفه، ثم خاف من الحكم في هذه المسألة، فقال: من أراد أن يقتحم جرائم جهنم فليقل في الجد برأيه»^(١)، هذا بالإضافة إلى حدة مزاجه وسرعة غضبه، وقد تمثل علي عليه السلام كل تلك الصفات في خطبته المسماة (بالشقيقة)^(٢)، وبغض النظر عما حواه أسلوب الخطبة من حدة، فمن المرجح ان ما ورد فيها من نقد لا يخرج عما قاله التاريخ فيه ووصف به نفسه. فعبد الرحمن بن عوف يقول لابي بكر حين ساله عن عمر «فيه غلظة»^(٣). وفي خطبته الأولى بعد توليه الحكم يقول عمر «اللهم اني غليظ فليني لاهل طاعتك... اللهم اني شحيح فسخني في نوائب المعروف، اللهم ارزقني خفض الجناح ولين الجانب للمؤمنين...»^(٤)، فما قاله علي عليه السلام في عمر لا يتعدى ما قاله عمر عن نفسه، فهو ليس سب ولا تعريض، وإنما هو نقد خال من كل ما يسيء. فالغلظة والجفاف وسرعة الغضب من طبع عمر حتى قيل انه «إذا غضب على بعض أهله لم يسكن غضبه حتى يعرض يده»^(٥)، الا أن ذلك لم يكن ليثلم في متانة ايمانه وصدق عزمته في النصح للاسلام واهله، لذلك فبالرغم من الاختلاف في وجهات النظر بينه وبين علي عليه السلام، فلم يكن عمر ليتردد في استشارة علي عليه السلام، كما لم يبخل علي عليه السلام من اسداء المشورة والنصح بروح ملئوها التسامح والصدق، لأن الغاية بقاء الإسلام قوياً عزيزاً.

لقد حفظت لنا كتب التاريخ والأدب كثيراً من المشاركات القضائية

(١) السابق.

(٢) راجع خطب ٣، فقرة ٢.

(٣) تاريخ الطبري ٣/ ٤٢٨، ابن الأثير الكامل في التاريخ ٢/ ٢٩.

(٤) العقد الفريد ٤/ ٦٥، ابن أبي الحديد ١٢/ ٣١، وقد أوردتها باختلاف.

(٥) الزبير بن بكار- الموفقيات ص ٦٠٢.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٢١٩
والفقهية^(١) التي ساهم علي عليه السلام في عهد عمر الذي كان «يتعوذ بالله من معضلة
ليس لها أبو الحسن»^(٢)، ومن الأقوال المأثورة عن عمر في حق علي عليه السلام «لولا
علي لهلك عمر»^(٣).

مما اسلفنا من مناقشات يمكن أن نخلص إلى فكر علي عليه السلام السياسي تجاه
حكم عمر من خلال نصوص (نهج البلاغة)، فإذا كان علي عليه السلام قد تحدث عن
غلظة عمر وخشونته فانه في الجانب الثاني قد قدم له من الآراء السياسية ما فيه
دلالة على عمق نظراته لوقائع الأمور كما تنبئ عن إخلاصه وصدق اجتهاده في
النصح، ففي النهج ثلاثة نصوص يمكننا اعتبارها في غاية الأهمية من الناحية
السياسية:

الأول منها: في تبيان الصلاحية الشرعية التي تخول للحاكم استخدام
الأموال الخاصة لتجهيز الجيوش الإسلامية، وتنطلق وجهة نظر علي عليه السلام في
هذا الشأن من أحكام القرآن وسنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في أحكام توزيع المال ووضعه
في المواضع التي خصصها له الشرع «فلا يجوز التصرف في شيء من الأموال
والمنافع الا باذن شرعي»^(٤)، وعلى هذا الأساس لما استشار عمر علياً عليه السلام في
تجهيز جيوش المسلمين بما كان في الكعبة من حلي ومال، قال له «ان القرآن
أنزل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأموال أربعة: أموال المسلمين فقسّمها بين الورثة في

(١) راجع بعض مشاركات علي عليه السلام القضائية في عهد عمر عند: المحب الطبري - الرياض النضرة في
مناقب العشرة ٣/ ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥ - وسبط ابن الجوزي - تذكرة الخواص ص ١٣٥ وما بعدها.

(٢) ابن عبد البر - الاستيعاب بهامش الإصابة ٣/ ٣٩.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) ابن أبي الحديد ١٩/ ٢٧٨.

٢٢٠ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

الفرائض، والفيء فقسمه على مستحقيه، والخمس فوضعه حيث وضعه، والصدقات فجعلها الله حيث جعلها، وكان حلي الكعبة فيها يومئذ، فتركه الله، ولم يتركه نسياناً، ولم يخف عليه مكاناً، فاقره حيث اقره الله ورسوله»^(١)، فالقضية الأساسية التي من أجلها أراد عمر التصرف في حلي الكعبة سياسية، حيث أراد تجهيز جيوش المسلمين بتلك الأموال، ولكن علياً عليه السلام اعتبرها فرعية إزاء الحكم الشرعي، مما يعني من وجهة نظره عدم تجويز التصرف في أي ملك من ممتلكات الدولة الإسلامية الا في ظلال الشرع، وعلى ما نعتقد من خلال موقف علي عليه السلام ذلك إن «الفرق بين الشريعة والسياسة من وجهة نهايتها ان نهاية السياسية هي الطاعة للشريعة»^(٢) لذلك فقد عمل عمر بمشورة علي عليه السلام دون غيره من المسلمين الذين أشاروا عليه بالتصرف، فترك حلي الكعبة على حاله قائلاً لعلي عليه السلام «لولاك لافتضحنا»^(٣).

أما النصان الآخران فتتمحور الاستشارة في كليهما حول القيادة لجيوش الإسلام فحين أراد عمر ان يقود جيوش المسلمين لغزو الروم^(٤) وقاتل الفرس^(٥) استشار علياً عليه السلام في ذلك، فأشار عليه في كلتا الحالتين ألا يخرج بنفسه ويكلف من ينوب عنه من أهل الخبرة والدراية بالحرب ويبعث معه من ذوي الرأي من رجال المسلمين ممن يعتمد عليهم وعلى ما يبدو فإن عمر قد أخذ

(١) حكم-٢٧٨.

(٢) أفلاطون في الإسلام ص ٢٠٠ بتحقيق عبد الرحمن بدوي.

(٣) حكم-٢٧٨.

(٤) راجع خطبة ١٣٤ وخطبة ١٤٦.

(٥) المصدر السابق نفسه.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٢٢١

بمشورة علي عليه السلام في حرب فارس ^(١) ألا انه لم ياخذ برأيه في حرب الشام ^(٢).

فإذا ما اعتبرنا الاستشارة مجرد اختيار من حق المستشار قبولها أو رفضها فإن ذلك يجعل علياً عليه السلام لا يجد أية غضاضة في نفسه حين لم يعمل عمر بمشورته، بل بقي أميناً على عهده صادقاً في نصحه طيلة خلافته.

فمن خلال وقفة تأمل في النصوص التي أثرت عن علي عليه السلام في (نهج البلاغة) إبان حكم عمر نجدها تحمل في طياتها معاني التعاطف والتسامح المشبعين بروح إسلامية عميقة لا يشوبها زيف ولا يكدرها رياء، لأنها تعبير صادق عن عناصر الأصالة التي فاضت بها حنايا علي عليه السلام تجاه كل مخلص للإسلام، رغم معاناته وتألمه لحقه المضاع، ولكن تلك المعاناة الشخصية لم تكن لتؤثر على تصرفاته كورث لحكمة النبي صلى الله عليه وسلم وعمله في جعل الإسلام ورفعته هي الغاية، لذلك كان نصحه لعمر نابع من اقتناعه بضرورة تقديم المصلحة العليا للأمة الإسلامية على الخلاف الذي كان بينهم في سلب حقه، فكان يعطي النصيحة باخلاص إلا أنه بجانب ذلك الاخلاص، فقد حز في نفسه أن يرى حقه في الخلافة يؤول للمرة الثالثة - بعد عمر - لغيره، دون أدنى حق الا المفاضلة المبنية على العصبية التي مقتها الإسلام وفي هذا الصدد يقول: «وتولى عمر الأمر فكان مرضي السيرة ميمون النقية حتى إذا احتضر فقلت في نفسي لن يعد لها عني ليس بدافعها عني فجعلني سادس ستة فما كانوا لولاية أحد منهم كراهة لولايتي عليهم وكانوا يسمعون عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم لاجحة أبي بكر وأقول يا معشر قريش إنا أهل

(١) بشأن موقف عمر من المشورتين راجع تاريخ الطبري ٣/٦٠٨، ٤/١٢٥.

(٢) المصدر السابق نفسه.

بيت أحق بهذا الأمر منكم»^(١) فمن خلال علاقته بالسته الذين رشحهم عمر- أثناء احتضاره - لاختيار واحد منهم لخلافته، يتحدد الاتجاه الذي انبنت عليه سياسة عمر في ذلك الاختيار فيما سمي في التاريخ الإسلامي بالشورى.

٤- الشورى في فكر علي عليه السلام كما تبدو في نهج البلاغة:

لما أصيب عمر بن الخطاب سنة ثلاثة وعشرين وأحس بدنو أجله، حصر اختيار الخليفة من بعده في احد ستة من الصحابة، هم: عثمان بن عفان الأموي، وعلي بن أبي طالب الهاشمي عليه السلام، وعبد الرحمن بن عوف الزهري، وسعد بن أبي وقاص الزهري، وطلحة بن عبيد الله التيمي، والزبير بن العوام الأسدي، وقد فوض إليهم الاتفاق فيما بينهم على احدهم لذلك المنصب الخطير، اما سبب ترشيحه لأولئك الستة دون سواهم فلكون الرسول صلى الله عليه وسلم قد مات وهو راض عنهم. ويبدو من خلال دراستنا لتاريخ الفترة ان ذلك الاختيار من قبل عمر لم يكن وليد ساعته. فلقد احس عمر بما يدبر في الخفاء أثناء خلافته حين نمى إلى سماعه «أن الزبير قال: لو قد مات عمر لبايعنا علياً عليه السلام»^(٢) وكان قوم يقولون «لو قد مات أمير المؤمنين اقمنا فلاناً، يعنون طلحة بن عبيد الله»^(٣) وجاء مثل ذلك في رواية عن المغيرة بن شعبة^(٤)، وبطبيعة الحال، فلقد وقف عمر من ذلك موقف المتشدد لقطع دابر تلك النوايا في خطبته بالمدينة بعد قفوله من اخر

(١) ابن أبي الحديد: ٩٦/٦.

(٢) القسطلاني: ارشاد الساري لشرح صحيح البخاري ١٩/١٠.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) راجع: العقد الفريد ٤/٢٨١.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٢٢٣

حجة له بقوله «انه بلغني ان قائلاً منكم يقول: لو قد مات أمير المؤمنين بايعت فلاناً، فلا يغرن امرؤ ان يقول: ان بيعة أبي بكر فلتة»^(١)، فما حدث في بيعة أبي بكر من استعجال وسرعة لا يرغب عمر ان يتكرر مرة اخرى، مما يعني انه قد كان يفكر جدياً فيمن سيخلفه، من ذلك كثرة سؤاله عن الشخص المؤهل الذي ترطيه قريش لنفسها من بعده، فقد «روي عن عبد الله بن عباس قال: طرقتني عمر بن الخطاب بعد هداة من الليل، فقال: أخرج بنا نحرس نواحي المدينة، فخرج وعلى عنقه درته حافياً حتى اتى ببيع الغرقد فاستلقى على ظهره، وجعل يضرب اخص قدميه بيده وتأوه صعداً، فقلت له: يا أمير المؤمنين ما أخرجك إلى هذا الأمر؟ قال: أمر الله يا ابن عباس، قال: إذا شئت اخبرتك بما في نفسك، قال: غص غواص، ان كنت لتقول فتحسن، قال: ذكرت هذا الأمر بعينه، والى من تصيره، قال صدقت»^(٢)، ثم تذاكر الرهط الستة الذين رشحهم عمر فيما بعد لاختيار الخليفة فيما بينهم، ويبدو ان عمر قد انتقد انه كان يميل كل واحد منهم مما يثلم في أهليته للخلافة^(٣)، ولكن يتابنا شعور انه كان يميل إلى جانب عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف أكثر من ميله إلى الاربعة الباقين فمما يرون في شأن عثمان، عن حذيفة بن اليمان «أنه قال: قال لي عمر: من ترى الناس يؤمرون بعدي؟ قال: قلت سموا لها عثمان، قال: فسكت»^(٤) حتى قيل ان أمر عثمان قد اشتهر وطارت به حداة الابل وعمر ما زال حياً، «روي عن حارثة بن

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٢٨٥.

(٢) راجع الحديث باكملة في تاريخ اليعقوبي ٢/ ١٥٨.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) القاضي عبد الجبار - المغني ٢٠/ القسم الثاني/ ٣٠ وقد جاء في انساب الاشراف ٢/ ٢١٤ عن

حارث قال «حججت مع عمر فسمعت حادي عمر يحدث: ان الامير بعده ابن عفان.

مضروب قال: سمعت الحادي يقول: الا ان الأمير بعده ابن عفان»^(١).

كان عمر يميل إلى عثمان، وقد شعر علي بن أبي طالب عليه السلام بذلك الميل، واحس منذ الوهلة الأولى التي قبل فيها ان يكون ضمن رجال الشورى، ان الخلافة ستؤول إلى عثمان، فمما يؤثر عنه في ذلك قوله لبني هاشم «ان اطيع فيكم قومكم فلن يؤمروكم ابداً، وتلقاه العباس فقال له: عدلت عنا، قال له: وما اعلمك، قال: قرن بي عثمان، ثم قال: ان رضي ثلاثة رجلا وثلاثة رجلاً، فكونوا من الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف، فسعد لا يخالف ابن عمه عبد الرحمن وعبد الرحمن صهر عثمان، لا يختلفون، فلو كان الاخران معي ما نفعاني»^(٢)، ولا نعتقد أن عمر حين قسم أصحاب الشورى ذلك التقسيم كان لا يدرك أن الأمر سيؤول إلى عثمان، لداريته بأهمية القرابة والعصبية في تشكيل المواقف عند العرب فصلة القرابة التي تربط عبد الرحمن بن عوف بسعد بن أبي وقاص وبعثمان بن عفان، تجعل علياً عليه السلام في الكفة الخاسرة، هذ على افتراض وقوف طلحة والزبير بجانبه، مع ملاحظة ان طلحة وان كان غائباً يوم الشورى فإنه من المستبعد ان يكون في الكفة التي ترجح علياً عليه السلام بسبب معارضة هذا الاخير لبيعة أبي بكر التيمي نفس الفرع القرشي الذي ينتمي إليه طلحة، لذلك تحقق ما كان علي عليه السلام يتوقعه، وببيع لعثمان بعد ان فوض الاختيار لعبد الرحمن بن عوف الذي اخرج نفسه من الشورى كي يصبح الاختيار في يده^(٣)، ولمعرفة عبد الرحمن بأسلوب علي ومبدئه بالإضافة إلى موقفه

(١) القاضي عبد الجبار - المغني ٢٠ / القسم الثاني / ٣٠ وقد جاء في انساب الاشراف ٢ / ٢١٤ عن

حارثة قال «حججت مع عمر فسمعت حادي عمر يجحدو: ان الامير بعده ابن عفان».

(٢) العقد الفريد ٤ / ٢٧٦.

(٣) السابق ٤ / ٢٧٧.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٢٢٥

الحاسم من خلافة الشيخين، فإنه لم يزو الأمر عنه، إنما اشترط عليه فيما لو بويع له بالخلافة فإن عليه «عهد الله وميثاقه ليعملن بكتاب الله وسنة نبيه وسيرة الخليفين من قبله»^(١)، وقد رفض علي عليه السلام النقطة الثالثة من الشرط، لاعتقاده بأحقية اتباع الشيخين له لا باتباعه سيرة الشيخين، فالنقطة تلك موضوعة في الأساس على ما نعتقد - لعلي عليه السلام، لأن عثمان لن يعترض عليها لأنه لم ير فيه منافساً للشيخين، ولم تؤثر عنه أية معارضة لخلافتها، لذلك فقد تحققت مقولة عمر في علي عليه السلام من كراهة قريش اجتماع النبوة والخلافة في بني هاشم^(٢)، كما ان قريش - حسب تعبير عمر - لا تحتمل علياً عليه السلام «ولئن وليهم ليأخذنهم بمر الحق لا يجدون عنده رخصة»^(٣)، فالشورى بحسب تخطيط عمر لها، لم تكن رضاً بالنسبة لعلي عليه السلام كما يبدو من قوله «حتى مضى لسبيله جعلها في جماعة زعم إني أحدهم فيا لله ويا للشورى، متى اعترض الريب فيّ مع الأول منهم حتى صرت أقرن إلى هذه النظائر، ولكنني أسففت إذ اسفوا، وطرت إذ طاروا فصغا رجل منهم لضغنه، ومال الآخر لصهره مع هن وهن»^(٤). فتبرم علي عليه السلام بالشورى وعدم رضاه عنها يبدو واضحاً من خلال تعبيراته الهادرة بالغضب، لما اصاب منزلته من استصغار بقبوله الدخول ضمن تلك الشورى وذلك حين قرنه بستة ليس فيهم من يتمكن من القيام مقامه أو يساويه في منزلته، مع انه يعتقد في قرارته أنه أحق بالأمر من

(١) العقد الفريد ٤/ ٢٧٩.

(٢) راجع العقد الفريد ٤/ ٢٨٠، ابن أبي الحديد ٩/ ١٢.

(٣) تاريخ اليعقوبي ٢/ ١٥٩.

(٤) خطب - ٣، واسف الرجل: إذا دخل في الأمر الدنيء واصله من اسف الطائر إذا دنا من الأرض

في طيرانه، والضغن: الحقد ومع هن وهن أي مع امور يكنى عنها ولا يصرح بذكرها واكثر ما

يستعمل في الشر.

٢٢٦ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

أبي بكر. لقد قبل علي عليه السلام بمحض إرادته أن يدخل في الأمر بدافع المطالبة بحقه، لكن تدخل عامل القرابة في الشورى، وتشبع نفس احدهم بالحقد والضغينة^(١)، بالإضافة إلى أمور متفق عليها في الخفاء لم يكشف على علي عليه السلام النقاب عنها^(٢) كل تلك العوامل أدت إلى افلات الخلافة منه للمرة الثالثة. كما ان الشورى في حد ذاتها قد احدثت شرخاً عميقاً في الصف الإسلامي، حين اوجدت في الساحة السياسية متنافسين على الخلافة لم يكونوا كذلك من قبل، الا ان ترشيح عمر لهم أعطى كل فرد منهم الثقة في نفسه، وجعله ومن ورائه عشيرته، يعتقد أهليته وصلاحيته للمنصب الخطير، مما احوال المنافسة بينهم إلى صراع دام كلف المسلمين الكثير «فلم يشئت بين المسلمين، ولا فرق اهواءهم ولا خالف بينهم - حسب قول معاوية - الا الشورى التي جعلها عمر إلى ستة نفر... لم يكن رجل منهم الا

(١) يقول ابن أبي الحديد: ان علياً عليه السلام يعني بالحاقد «طلحة... فأما الرواية التي جاءت بأن طلحة لم يكن حاضراً يوم الشورى، فإن صحت فذو الضغن سعد بن أبي وقاص، لأن أمه حمنة بنت سفيان بن أمية بن عبد شمس، والضغينة التي عنده على علي عليه السلام من قبل أخواله الذين قتل صناديدهم وتقلد دماءهم... ١٨٩/١، ١٩٠.

(٢) اعقدت ان الأمور التي لم يكشف عنها علي عليه السلام وكنى عنها ب «هن وهن» هي الاتفاق فيما بين عبد الرحمن وعثمان ان يرجع الأمر إليه فيما بعد كما يروي صاحب العقد الفريد ٢٧٩/٤ «ان علياً عليه السلام قد قال لعبد الرحمن بن عوف: حبوته محابة، ليس باول يوم تظاهرت فيه علينا، اما والله ما وليت عثمان الا ليرد الأمر اليك» وقد نشب خلاف بين عبد الرحمن بن عوف وعثمان ادى إلى القطيعة فيما بينهما، وقد ارجع اليعقوبي ذلك الخلاف وتلك القطيعة إلى الأسلوب الذي حاول به عثمان ان يعهد بالخلافة لعبد الرحمن إذ «روي أن عثمان اعتل علة اشتدت به، فدعا حمران بن ابان، وكتب عهداً لمن بعده، وترك موضع الاسم ثم كتب بيده: عبد الرحمن بن عوف، وربطه وبعث به إلى أم حبيبة بنت أبي سفيان، فقراه حمران في الطريق، فأتى عبد الرحمن فاخبره، فقال عبد الرحمن وغضب غضباً شديداً: استعمله علانية ويستعملني سرا» تاريخ اليعقوبي ١٦٩/٢.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٢٢٧

رجاها لنفسه ورجاها له قومه... ولو ان عمر استخلف عليهم كما استخلف أبو بكر ما كان في ذلك اختلاف»^(١). وبرغم الافرازات الخطيرة التي تنبأ بها علي عليه السلام جراء الشورى إلا أنه من أجل وحدة المسلمين بايع طائعاً بعد ان قال في محضر من جماعة الشورى وحشد من المسلمين «لقد علمتم اني احق بها من غيري، والله لأسلمن ما سلمت امور المسلمين ولم يكن فيها جور الا على نفسي خاصة، التماساً لأجر ذلك وفضله، وزهداً فيما تنافستموه من زخرفة وزبرجة»^(٢)، وعلى أساس بيعته الطوعية تلك يمكننا تتبع فكره أثناء حكم عثمان.

٥- موقف الإمام علي عليه السلام من حكومة عثمان:

يبدو ان الدسائس قد لعبت دورها لتفرك بين عثمان وعلي عليه السلام، كما مهدت السبل لاغتيال الثالث في ظروف يمكن معها اقصاء علي عليه السلام من المسرح السياسي، وتبيئ الجو المناسب لاستمرارية السلطة في الأمويين - عشيرة عثمان، فلقد حاولت فئة من أصحاب المصالح تشوير عثمان على علي عليه السلام فأفلحت إلى حد بعيد^(٣) وتباين المواقف الفكرية في العصر الحديث من علاقة علي عليه السلام بعثمان

(١) العقد الفريد ٤ / ١٨١.

(٢) خطب - ٧٣.

(٣) من ذلك إقبال عثمان على عبد الله بن عباس بقوله «مالي ولكم يا ابن عباس، ما اغراكم بي واولعكم بتعقب امري، اتتمون علي أمر العامة؟ أتيت من وراء حقوقهم أم امركم، فقد جعلتهم يتمنون منزلتكم، لا والله لكن الحسد والبغي وتشوير الشر واحياء الفتن... فقال ابن عباس: على رسلك يا أمير المؤمنين، فوالله ما عهدتك جهراً بسرك ولا مظهراً ما في نفسك، فما الذي هيجك وشورك؟ أنا لم يولعنا بك أمر، ولا نتعقب أمرك بشيء، أتيت بالكذب وتسوف عليك بالباطل... فما دعاك إلى هذا الأمر الذي كان منك؟ قال دعاني إليه ابن عمك علي بن أبي

تعكس تلك الصورة، فقد اعتبر احد المستشرقين ما حدث بين علي عليه السلام وعثمان من مشادات كلامية بداية تشكل معارضة علي بن أبي طالب عليه السلام^(١) بينما اتهم دارس اخر علياً عليه السلام وبعض الصحابة ببغض عثمان والكيد له، والنقمة عليه حين اعتبر علياً عليه السلام وطلحة والزبير «على رأس الناقلين على عثمان»^(٢)، واعتبر دارس ثالث علياً عليه السلام من الذين وقفوا من عثمان موقفاً محايداً «فلم يدافع عنه ولم يعن عليه»^(٣)، ويرى آخر انه «كان عليه السلام مخلصاً لعثمان مدافعاً عنه ملياً لدعوته ماداً إليه يده ومعونته عند الحاجة»^(٤)، وهناك أيضاً رأي خامس يعتبر علياً عليه السلام «ناقداً لسياسة عثمان وبطانته التي حجته عن قلوب رعاياه، ناصحاً للخليفة بإقاصاء تلك البطانة، وتبديل السياسة التي تزينها له وتغريه بإتباعها»^(٥).

وإذا ما استفتينا (نهج البلاغة) لمحاكمة تلك الآراء المتضاربة فسنجد ان الرايين الاخيرين المتمثلين في نصح عثمان والمدافعة عنه ونقد سياسته، هما اللذان ينطلق منهما فكر علي عليه السلام السياسي تجاه عثمان وحكومة، إذ لم يؤثر عن علي عليه السلام الجنوح إلى السلبية في مواقفه السياسية على اعتبار ان النصح للدين مبدأ لا يجيد عنه، وذلك ليس من باب المعارضة أو الثورة طمعاً في السلطة، إذ لو كان السلطة

طالب عليه السلام فقال ابن عباس وعسى أن يكذب مبلغك. قال عثمان: انه ثقة. قال ابن عباس: انه

ليس بثقة مع بلغ واغرى» الزبير بن بكار- الأخبار الموفقيات ٦٠٤ و ٦٠٥.

(١) راجع بلاشير- تاريخ الأدب العربي ١/ ١٤.

(٢) نبيه عاقل: خلافة بني أمية ص ١٤.

(٣) عبد الكريم الخطيب: علي بن أبي طالب عليه السلام ص ٢٨٧.

(٤) محمد رضا: الإمام علي بن أبي طالب ص ٥١.

(٥) عباس العقاد: عبقرية علي، ص ٦٣.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٢٢٩

غايته لقبها بشرط عبد الرحمن بن عوف «العمل بسيرة الشيخين»^(١)، حين عرضت عليه قبل المبايعة لعثمان على اعتبارها حيلة سياسية، ولكن الغاية في فكر علي عليه السلام وضع تعاليم الإسلام في مسارها الصحيح في ضوء القرآن والسنة، ففي رده على رسالة وردت إليه من معاوية يتهمه فيها بالتأليب على عثمان والمشاركة في قتله يقول «وما كنت لاعتذر أني كنت أنقم عليه أحداثاً، فإذا كان الذنب إليه ارشادي وهدايي له، فربّ ملوم لا ذنب له: (طويل) وقد يستفيد الظنة المتصح»^(٢).

وما اردت الا الاصلاح ما استطعت، ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾^(٣)، فاللوم الموجه لعلي عليه السلام - كما يبدو من قوله - لم يكن بسبب تخليه عن عثمان أو لكرهيته له أو معارضة خلافته، ولكنه بسبب نصحه لعثمان، ومحاولة ارشاده، وفضح أساليب بطانته التي استغلت اموال المسلمين لأجل مصاحلها الذاتية. فلو قبل من الأموال ما قبله غيره وتعامى عما احدهه ولاة عثمان في الامصار الإسلامية، لما وجه إليه أي اتهام، ويمثل وجهة نظره تلك قوله لأبي ذر لما وجهه عثمان إلى الربذة^(٤) المتضمن اشادة علي عليه السلام بثبات أبي ذر على مواقفه الراضية لكل المغريات المادية ومهاجمته العنيفة لسياسة البذخ التي كان الأمويون يتبعونها بموافقة الحاكم، وتنوع إشادة علي عليه السلام تلك من مبدئه

(١) راجع ص ١٩٨ وما بعدها من هذا البحث.

(٢) هو عجز لبيت صدره: وكم سقت في آثاركم من نصيحة. قائله مجهول: المبرد: الكامل ١٢٦/٤.

(٣) رسائل - ٢٨ فقرة ٧ والآية في السياق من سورة هود / ٨٨.

(٤) راجع خطب - ١٣٠، والربذة - بفتح الراء والباء والذال: من قرى المدينة، راجع معجم البلدان

٢٣٠ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

الفكري والتزامه الأخلاقي الذي قد يتحمل في سبيله كل التضحيات إذا ما دعت الحاجة بذلك وكان يعيب على عثمان امرين هما:

١- الولاة وأحداثهم في الأمصار الإسلامية.

٢- طريقة عثمان في التصرف في الأموال العامة.

وهما الأمران اللذان نعيهما عليه كثير من الصحابة وثور الامصار.

فعن مراقبة الولاة وأخذهم بالحزم والشدة، صيانة للعدل، وحفاظاً على مصالح المسلمين يقول عثمان لعلي عليه السلام: «أنشدك الله يا علي، هل تعلمان المغيرة بن شعبة ليس هناك؟ قال: نعم، قال: فتعلم ان عمر ولاه؟ قال: نعم، قال: فلم تلومني ان وليت ابن أبي عامر في رحمه وقرابته؟ قال علي عليه السلام: ان عمر يظاً صماخ من ولي ان بلغه عنه حرف جلبه، ثم بلغ به اقصى العقوبة، وانت لا تفعل، ضعفت، ورفقت على اقربائك... قال عثمان: هل تعلم ان عمر ولي معاوية، فقد وليته، فقال علي عليه السلام: أنشدك الله، هل تعلم ان معاوية كان اخوف لعمر من يرفاً غلام عمر له؟ فقال: نعم، قال علي عليه السلام: ان معاوية يعطي الأمور دونك ويقول للناس هذا أمر عثمان وأنت تعلم ذلك فلا تغير عليه؟»^(١) فتولية عثمان قرابته وتساهله معهم، وغضه عن كثير من تصرفاتهم، جعلهم يستغلون حبه لهم بالتمر على الطبقات المستضعفة من المسلمين، مما حدا بألقاء اللوم عليه شخصياً وانتقاده، فعلي عليه السلام لا يرى مجالاً للمقارنة بين سياسة عمر تجاه ولاته، وبين سياسة عثمان تجاه ولاته، وان كان احدهم وهو معاوية، قد ولي الشام من قبل عمر فأقره عثمان عليها، فمراقبة عمر لولاته غاية في الحزم، بحيث بلغت

(١) ابن الاثير: الكامل في التاريخ ٣/٧٦.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٢٣١

في كثير من الأحيان ايقاع العقاب عليهم^(١)، ومصادرة بعض ثرواتهم التي يجمعونها أثناء عملهم له^(٢)، وهذا ما لم يفعله عثمان مع احد وولاته قط، وذلك ما نعاه علي عليه السلام على سياسة عثمان في ادارة الولايات بتعيين ولاة من أهله.

اما من حيث السياسة المالية، فقد تصرف عثمان وولاته باموال المسلمين تصرفاً لم يؤثر عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا عن الشيخين من بعده من ذلك انه أعطى «عبد الله بن خالد بن اسيد صلة مقدارها أربعمائة الف، وتصديق رسول الله صلى الله عليه وسلم بمهزور - موضع سوق بالمدينة - على المسلمين، فأقطعها الحارث بن الحكم - اخا مروان - واقطع فذك مروان وهي صدقة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وافتتح افريقية وأخذ خمسة فوهبه لمروان»^(٣) كما اعتبر سعيد بن العاص - والي عثمان على العراق - ما افاء الله على المسلمين من ضياع لقريش وحدهم وذلك في قوله في جمع من قراء الكوفة «السواد بستان قريش، فما شئنا أخذنا منه وما شئنا تركناه»^(٤)، لذلك لم يكن بوسع علي عليه السلام ولا غيره من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يسكتوا عن هذه السياسة بعد ان زكمت الأنوف رائحتها، وانتشر التبرم منها بين عامة المسلمين، فاول من وجه اللوم لعثمان على تلك السياسة عبد الرحمن بن عوف الذي بايع له بالخلافة، فدخل عليه معاتباً بقوله «انما قدمتك على ان تسير فينا بسيرة أبي بكر وعمر، فخالفتها وحاببت أهل بيتك، وأوطأتم رقاب المسلمين، فقال: ان عمر كان يقطع قرابته في الله وانا أصل قرابتي في الله، قال عبد الرحمن:

(١) لمعرفة ما يوقعه عمر بن الخطاب من عقاب على المنحرفين عن الجادة من عماله راجع: ابن أبي الحديد ٢٦/١٢.

(٢) حول مصادرات عمر لعماله، راجع ابن أبي الحديد ١٢/٤٢ - ٤٣.

(٣) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٤/٢٨٤.

(٤) راجع تاريخ الطبري ٤/٣٢٣، ابن الاثير: الكامل في التاريخ ٣/٧٠، ابن أبي الحديد ٣/٢١.

لله علي الا اكلمك أبدا»^(١). فإذا كان موقف عبد الرحمن بن عوف من سياسة عثمان موقفاً سلبياً اتخذ جانب السكوت والمقاطعة، فإن علياً عليه السلام لم يجد في ذلك ما يعود على الأمة بالصلاح، وعلى الخليفة بالرشاد، فاتبع أسلوباً ناقداً، مما أدى في كثير من الأحيان إلى المجابهات الكلامية بينه وبين عثمان الذي لم يفلح في إسكاته بإغرائه المال^(٢).

فنقد علي عليه السلام لسياسة عثمان عامة وسياسته المالية على وجه الخصوص، نابع من مبدأ إسلامي هو لب السياسة الإسلامية والمرتكز الذي تعتمد عليه في بناء شخصية الفرد المسلم ذي الفكر الحر، فيقول الحق بصراحة وصدق دونها رهبة ولا رغبة، ذلك هو مبدأ «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»^(٣).

والحقيقة التي لا مرأى فيها ان عثمان كان كثيراً ما يستجيب لنصح علي عليه السلام، ويستمتع لنقده، ويحاول العمل بمشورته، الا ان وقوعه تحت تأثير مروان ومن شايعه من بين أمية، هو ما يحول بينه وبين ذلك، وقد التفت العباس بن عبد المطلب إلى ضعف شخصية عثمان وتأثير أهله عليه بقوله «ما هذا. يعني عثمان ... من أمره من شيء»^(٤)، لذلك بدت الهوة سحيقة جداً بين وجهة نظر علي عليه السلام ووجهة نظر عثمان، بحيث يستحيل التوفيق بينهما حتى قيل أنه «لا سبيل إلى صلحهما»^(٥). فبعد أحداث الحصار ومقتل عثمان والمبايعة لعلي عليه السلام

(١) العقد الفريد ٤ / ٢٨٠.

(٢) راجع الزبير بن بكار: الأخبار الموفقيات ص ٦١٢، فقد تحدث عما عرضه عثمان على علي عليه السلام من مال في سبيل ارضائه ورفض علي عليه السلام ذلك المال، وما قام به عثمان تجاه علي عليه السلام حين رفضه.

(٣) راجع ص ٣٦٨-٣٦٩ من هذا البحث.

(٤) الأخبار الموفقيات ص ٦١١، ٦١٧.

(٥) السابق.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٢٣٣

بالخلافة، يستعرض في أول خطبة له بالمدينة تاريخ الخلافة في عجاله، ثم يقف عند عثمان، ناعياً عليه تصرفه في أموال المسلمين ووضعه إياها في غير استحقاقها مشبها إياه بالغراب في قوله «سبق الرجلان، وقام الثالث كالغراب همته بطنه، يا ويجه لو قص جناحاه، وقطع راسه لكان خيراً له»^(١)، وقص الجناح وقطع الرأس لا يعني التحريض على القتل - كما يظن - ولكنه يعني - كما نعتقد - المعالجة الحكيمة لسياسة التصرف في المال، بقطع دابر القيل والقال، والنأي بالنفس عن الشبهات، ووضع الأموال في المواضع التي أرادها الله، دون تمايز في توزيعها، لأن الحاكم في مركزه ذلك لا يمثل عشيرته وقومه، وإنما يمثل الأمة بأسرها، مما يحتم عليه أن يسمو بنفسه عن العصبية العشائرية فتساوى الناس عنده في الحقوق والواجبات، فالقص والقطع في النص - كما نفهمها - إنما يقصد منها أنه كان من المتوقع على عثمان النظر إلى مكانته كراس للمسلمين لا كراس لبني أمية، وهو ما لم يكن عثمان يدرك أبعاده من خلال تأمله في مركزه الجديد بعد أن بوع له بأن يكون حاكماً فاختلفت عليه الأمور «وقام معه بنو أبيه يخضمون مال الله خضم الابل نبتة الربيع، إلى أن انتكث عليه قتله، واجهز عليه عمله»^(٢)، إذ يفهم من ذلك أن الذي أودى بحياة عثمان ليس الثوار الذين حصره، لأن أولئك لم يكونوا سوى إفرازات لسياسة مدبرة لم يكن الحاكم المقتول يعي أبعادها، لأن البطانة التي احاطت به قد حجبت عنه الحقيقة وحالت بينه وبين سماع صيحات السخط من حوله. وقد بذل علي عليه السلام كل طاقته لإيصال تلك الصيحات إلى سمع الحاكم، ولكن نفسية عثمان لم تكن مهياًة لسماع أية نصيحة،

(١) الجاحظ: البيان والتبيين ٢ / ٥١، العقد الفريد ٤ / ٦٧، وقد ورد في الخطبة الشقشقية - خطب ٣-

فقرة ٢، من النقد ما هو أشد من ذلك.

(٢) خطب ٣-

٢٣٤ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

خاصة من علي عليه السلام، لما نمته إليه بطانة السوء حوله بأن علياً عليه السلام انما يقوم بدور الناصح حسداً ونكاية لإظهار عيوب الحاكم للناس لتثويرهم حتى يتسنى له الوصول إلى السلطة، وما تمثل به عثمان من شعر في إحدى خطبه مومناً لعلي عليه السلام فيه دلالة على ذلك الاعتقاد الذي بلغ من عثمان حداً لا يمكن معه ازالته من نفسه: (طويل)

توقد بنار اينما كنت واشتعلت
فلمست ترى مما تعالج شافيا
تشط فيقضي الأمر دونك أهله
وشيكاً ولا تدعى إذ كنت نائياً^(١)

فالتمثيل بالبيتين يدل على موقف عثمان الراض لكل نصح أو نقد أو استشارة مصدرها علي عليه السلام، اما الخلافة فلن ينالها علي عليه السلام وسوف يقضي فيها أهل الحل والعقد، دون ان يكون علي عليه السلام طرفاً فيها، ولا حتى في المشاورات التي على اساسها يبائع للحكم.

الا ان التصلب من ناحية عثمان كان يقابله اللين والرفض من جانب علي عليه السلام الذي لم يمتنع من الوقوف بجانب الحاكم أثناء محنته العصبية حين حصره الثوار، فقد تحمل السفارة بينه وبينهم، ينقل مطالبهم والتفاوض عنهم في محاولة منه لمنع انتشار الفتنة، من ذلك قوله لعثمان «ان الناس ورائي، وقد استسفروني

(١) الزبير بن بكار: الأخبار الموقفيات ص ٦٠٣، وقد ذكر البيتين ضمن خطبة لعثمان مشحونة بالسخط والغضب على منتقدي سياسته المالية. «وكانه يومي فيها إلى علي عليه السلام» بحسب رواية الزبير بن بكار، ثم ان ما دار من جدل بين عثمان وبين عبد الله بن عباس حول فحوى الخطبة بعد فراغ عثمان منها ورجوعه إلى بيته يرجح ان معاني الخطبة كانت موجهة إلى الهاشميين عامة وإلى علي عليه السلام على وجه الخصوص، راجع ذلك الجدل الذي بلغ حد النزاع - الزبير بن بكار - الأخبار الموقفيات ص ٦٠٤ وما بعدها.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٢٣٥

بينك وبينهم، ووالله ما ادري ما اقول لك، ما اعرف شيئاً تجهله، ولا ادلك على أمر لا تعرفه... فلا تكونن لمروان سيقه يسوقك حيث شاء، بعد جلال السن وتقضي العمر... (فقال عثمان مستجيباً لسفارته كلم الناس ان يؤجلوني حتى اخرج إليهم في مطالبهم)^(١)، إلا أن البطانة التي التفت حول عثمان قد حالت بينه وبين الاستماع إلى شكاوى الناس وتظلماتهم، بل تبادت بعض الايدي الخفية - في دسها على الحاكم - ان تزور كتاباً إلى عامله على مصر ينقض كتاب الحاكم في عزل ذلك الوالي استجابة لأهالي مصر، ودبرت من المكر ما يمكن معه ان يقع الكتاب في ايدي أولئك الثوار القافلين إلى ديارهم بعد ان حصلوا على مطالبهم، وذلك بقصد ارباك الحاكم والايقاع به لتشتت أمر المسلمين وتفتيت وحدتهم حتى يفلت زمام السلطة من ايديهم، مع ان الضامن لما في كتاب عثمان الأصلي من شروط هو علي بن أبي طالب عليه السلام بشهادة بعض الصحابة، فلما واجه علي عليه السلام عثمان بالكتاب المزور عليه والمختوم انكر ان يكون قد كتبه، وقد صدقه علي عليه السلام ومن معه وعرفوا من الخط ان كاتبه مروان هو الذي زوره على الحاكم، فطالبوا عثمان بتسليمه إليهم لاستجوابه، وكان عنده في الدار، ولكن عثمان أبى عليهم ذلك وأصر على عدم تسليمه إليهم، فغضب علي عليه السلام ومن معه من الصحابة^(٢) فتركوه وشأنه مع الثوار فشدوا حصارهم على داره، وبعض افراد

(١) خطب - ١٦٥، وجاء مثله في تاريخ الطبري ٤ / ٣٣٧، العقد الفريد ٤ / ٣٠٨.

(٢) توسط علي عليه السلام بين عثمان وبين الثوار من اهالي مصر وذلك بطلب من عثمان نفسه على ان ياخذ علي عليه السلام منه عهداً غليظاً وميثاقاً مؤكداً بأن يستجيب لكل طلب عادل ومعقول يطلبونه وبالفعل فقد افلحت وساطة علي عليه السلام وتولد عنها كتاب فحواه «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من عبد الله عثمان بن عفان لجميع من نقم عليه من أهل البصرة والكوفة واهل مصر، ان لكم علي ان اعمل فيكم بكتاب الله عز وجل وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وان المحروم يعطى والخائف يؤمن والمنفي

قريش يساعدهم في الخفاء على ذلك^(١)، الا ان غضب علي عليه السلام وسخطه من تصرف عثمان بشأن مروان لم يمنعه من تقديم النصيح إليه، فقد كان عثمان يظن وهو محصور ان من الأسباب التي البت الناس عليه وجود علي عليه السلام تحت اعينهم بالمدينة، خاصة وان كثيراً من الثوار المحاصرين لدار الحاكم قد كانوا يهتفون باسم علي عليه السلام، للخلافة^(٢)، مما ادى بعثمان إلى الحيرة بتصرفه إزاء علي عليه السلام، فتارة يطلب منه مبارحة المدينة وتارة أخرى يدعو له ليقدم حين تدعو الحاجة لطلب المعونة في الذب عنه، حتى ان علياً عليه السلام قد ضاق ذرعاً من تصرفات عثمان تلك، فقال لعبد الله بن عباس متبرماً لما قدم إليه بأمر عثمان بمبارحة المدينة «ما يريد عثمان الا ان يجعلني جملاً ناضجاً بالغرب، اقبل وادبر، بعث الي ان اخرج، ثم بعث الي ان اقدم، ثم هو الان يبعث الي ان اخرج، والله لقد دفعت عنه حتى خشيت ان اكون اثماً»^(٣)، لقد حاول علي عليه السلام جاهداً ان يدفع عثمان ولكن تيار

يرد، وان المال يرد على أهل الحقوق وان يعزل عبد الله بن سعد بن أبي السرح عن أهل مصر ويولى عليهم من يرضون، قال أهل مصر: نريد أن تولي علينا محمد بن أبي بكر، فقال عثمان: لكم ذلك، ثم أثبتوا في الكتاب «وان علي بن أبي طالب عليه السلام ضمن بالوفاء لهم بما في هذا الكتاب، شهد على ذلك الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وسعد بن أبي وقاص، ابن أعثم الكوفي - الفتوح ٢/ ٤١٠. أما عن طلب عثمان وساطة علي عليه السلام بينه وبين الثوار، وكيف استطاع مروان بن الحكم أن يثني عثمان عما وعد الناس به من وعود فراجع تاريخ الطبري ٤/ ٣٥٨ وما بعدها وراجع أيضاً تاريخ الطبري ٤/ ١٨٠ حول طلب عثمان من علي عليه السلام مساعدته في رد الناس عنه بعد أن ضيقوا عليه الحصار، ثم عدوله عما اشترطه على نفسه بعد أن فك الثوار الحصار عن داره.

(١) راجع موقف طلحة بن عبيد الله من عثمان وهو محصور وما أمر به الثوار - الكامل في التاريخ ٣/ ٨٧.

(٢) راجع مقدمة الخطبة - ١٦٥.

(٣) خطب - ٢١٥. وورد مثل ذلك القول عند ابن عبد ربه في العقد الفريد ٤/ ٣١٠ بزيادة منها

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٢٣٧
العنف كان اقوى من ان يصد.

فنقد علي عليه السلام لعثمان ولسياسته، وارتباب عثمان في نوايا علي عليه السلام الصادقة تجاهه لم يمنع علياً عليه السلام من الدفاع عن عثمان، ولكن السياسة المتلوية ابت الا ان تلصق دم عثمان بعلي عليه السلام وذلك بعد البيعة له بالخلافة مباشرة، لأن مصلحة من اذكوا نار الفتنة من بني أمية وغيرهم من القريشيين تقتضي ذلك، فمما يؤثر عن مروان بن الحكم قوله «ما كان في القوم احد ادفع عن صاحبنا من صاحبكم - يعني علياً عليه السلام عن عثمان - قال: فقلت له: فما لكم تسبونوه على المنابر؟ قال: لا يستقيم الأمر إلا بذلك»^(١). فمناهضة علي عليه السلام ورفض نقده ومحاوله اخماد صوته أثناء حكومة عثمان كان الهدف منه - على ما نعتقد - محاولة اقصائه عن الحياة السياسية، وعدم تمكينه من الخلافة، ولكن الظروف السياسية أبت إلا أن يكون رجل الساعة المنقذ بالنسبة للفئات المغلوبة على أمرها من عامة المسلمين مما يتعارض مع ما كانت الارستقراطية القرشية تبتغيه، وذلك بزعامه بني أمية عشيرة عثمان، فعملت جاهدة على إفشال مخطط علي عليه السلام السياسي بتوجيه الاتهامات الباطلة إليه، وهذا ما يمكن تتبعه من دراستنا لفكر علي عليه السلام السياسي في تعامله مع المناهضين لحكومته والناقمين على سياسته.

«فخرج علي عليه السلام إلى ينيع فكتب إليه عثمان حين اشتد الأمر: اما بعد فقد بلغ السيل الزبى وجاوز

الحزام الطيين، وطمع في من كان يضعف عن نفسه» (طويل والبيت لامرئ القيس):

فإنك لم يفخر عليك كفاخر ضعيف ولم يغلبك مثل مغلب

فأقبل الي علي أي أمر احببت، وكن لي أم علي، صديقاً كنت أم عدواً (طويل - والبيت للمزق العبدي):

فإن كانت مأكولاً فكن خيراً كل وإلا فادركني ولما أمزق

(١) ابن عساكر - ترجمة الإمام علي عليه السلام من تاريخ دمشق ٣ / ٩٩.

المرحلة الثانية

سياسة الإمام علي عليه السلام أثناء خلافته

- البيعة لعلي عليه السلام بالخلافة:

لم يكن بوسع احد من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يتحمل عبء الخلافة وتركاتها الثقيلة، بعد مقتل عثمان بن عفان، لأن الحياة في المدينة قد آلت إلى الفوضى والاضطراب بحيث لم يعرف أي فرد موضع قدمه، كما ان اختلاط الأمور جعل الكثير لا يميز بين الصح والخطأ، فلقد ملك الثوار على الناس كل مسلك، وفقدت الخلافة قدسيتها وهيبتها، وظلت المدينة في الأيام الخمسة التي تلت مقتله بدون امام^(١)، واستتر رؤوس الصحابة في بيوتهم هروباً من الاتهام بالتحريض والفتنة، وظل جثمان عثمان ثلاثة أيام دون ان يوارى الثرى خوفاً من سخط الثوار، ولما سمع بعض الثائرين عليه بأنه سيدفن «قعدوا له في الطريق بالحجارة... فلما خرج به على الناس، رجموا سريره، وهموا بطرحه»^(٢)، فكل

(١) يروي الطبري في تاريخه ان المدينة بقيت «بعد قتل عثمان خمسة أيام واميرها الغافقي بن حرب يلتمسون من يجيهم إلى القيام بالأمر فلا يجدونه» ٤/٤٣٢.

(٢) تاريخ الطبري ٤/٤١٢.

٢٤٠ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

تلك الاحداث تعني ان وضع الأمة الإسلامية قد تعقد للغاية بحيث لم يعد بوسع احد ان يتصدى لتلك الفتنة، وإعادة الأمور إلى نصابها، بالقود للحاكم المقتول، وتأمين أهل المدينة مما اعتراهم من خوف وهلع، فلا بد لذلك الطرف الدقيق الحساس من رجل حازم، يستطيع ان يقود الأمة إلى بر الأمان، فوق اختيارهم على علي عليه السلام.

لقد تردد علي عليه السلام كثيراً قبل ان يستجيب لنداءات الناس الملحة من كل صوب^(١) واضعاً نصب عينيه أمرين:

الأول: مسؤول إخماد الفتنة والقود من قتلة عثمان وتأمين الناس.

الثاني: العدل في العطاء.

ويحتاج الأمر الأول إلى الحكمة والتؤدة وسعة الصدر لاستلال ما في نفوس العامة من غيظ، مع الصبر في معالجة القضايا حتى تنكشف الجوانب المبهمة، لمعاقبة الجناة والعودة بالحياة إلى طبيعتها. ولكن رفض طرفي النزاع - الجاني وأهل المجني عليه - لتلك السياسة المرحلية المتأنية سيؤدي إلى وضع الأمة على طريق غامض مظلم، لتعارض اهداف طرفي النزاع، مما يعني ان قتل عثمان لم يكن الا بداية خطيرة كامنة في النفوس.

اما الأمر الثاني في تحقيق العدالة، فهو وان كان مطمع الثوار والفئات المستضعفة الناقمة على سياسة عثمان، الا أنه يتعارض تماما وطموحات القرشيين من امثال طلحة والزبير^(٢) الذين اذكوا نار الفتنة ضد عثمان لما وجدوا ان بين

(١) راجع تاريخ الطبري ٤/ ٤٢٧، ٤٢٨.

(٢) من أجل معرفة دور الزبير وطلحة في فتنة عثمان راجع قولها في ص ٢٥٣ وما بعدها من هذا

أمية قد استأثروا دونهم بالمال، لأن سعيهم في الخفاء، وان كان في الظاهر من أجل الحرص على مصالح الناس، فقد كان من أجل مصالحهم الذاتية، ثم ان قبولهم بالحق سيعرضهم للعقاب لأنهم، وان لم يباشروا قتل عثمان، فإنهم قد هياؤوا الظروف المناسبة لقتله بتأليب الثوار عليه. لذلك حاول علي عليه السلام رفض الخلافة مبيناً وجهة نظره في مستقبل الأمة بعد ان عايش ما انتاب المجتمع الإسلامي من هزات عنيفة عقيب مقتل عثمان، مما ادى إلى تهرب جميع الصحابة من المسؤولية التي عبر عنها - في احدى خطبه - بالغموض، لتعدد وجوهها، وتشكل الوائها، مما جعل العقول لا تستوعبها لما اكتنفها من تشويش، حجب الحقيقة خلف غيوم كثيفة داكنة^(١).

وفي مثل هذا الجو المضطرب، لا بد من منقذ يخرج الأمة من مأزقها الخطير، ولا بد ان يكون ذلك الإنسان مرضياً عند جميع عامة المسلمين، لا عند فئة معينة من الأستقرافية القرشية. لذلك - فمن الارجح - ان تردد علي عليه السلام في قبول الخلافة، هو خشيته من عدم اتفاعة في الرأي من حيث سياسة توزيع المال مع تلك الفئة، التي لن ترضى بسياسة تتعارض ومصالحها. وحتى يحاط لنفسه من الدخول مع تلك الفئة القرشية في مواجهة، فيما لو اضطر لقبول الخلافة، امتثالاً لالحاح عامة المسلمين، كان قوله «واعملوا اني ان اجبتكم ركبت بكم ما اعلم، ولم اصغ إلى قول القائل وعتب العاتب»^(٢)، ولقد قبلت تلك الفئة شرطه ذاك على دخن، بينما قبلته عامة الناس بابتهاج وسرور، ولكن علياً عليه السلام لم يرَ بدأً من التريث والنظر في واقع الأمة نظرة المتأمل، المتفكر في عواقب قبوله

(١) راجع خطب - ٩١.

(٢) راجع خطب ٩١.

٢٤٢ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

لقيادتها^(١)، إلا ان الحاح الجماهير - كما يبدو - كان أقوى من تريثه وتردده، فكانت البيعة له بالخلافة رغم امتناعه كما وصف ذلك في قوله «وبسطم يدي فكففتها، ومددموها فقبضتها»^(٢). فالبيعة لعلي عليه السلام انعقدت له باقتناع تام وطواعية وسرور «وكان أول من صعد المنبر طلحة فبايعه... ثم بايعه الزبير وسعد واصحاب النبي جميعاً»^(٣). ويستنتج من وصف علي عليه السلام لبيعته أن أكثر الناس استبشارها، الطبقات المستضعفة من المسلمين الذين وجدوا فيه الضامن لحقوقهم من غير محاباة لقريب أو تمييز بين مسلم وآخر بالأسبقية والصحبة، كما كانت استجابة الامصار الإسلامية لبيعته سريعة فيما عدا الشام^(٤) التي كانت تحت ولاية معاوية، مما يدحض القول بأن اكتفائه ببيعة الثوار واهل المدينة دون

(١) جاء عند ابن أعثم الكوفي في الفتوح ٢/ ٤٣٢ أنه لما رضي جمهور الناس بالبيعة لعلي عليه السلام بالخلافة قال لهم «أخبروني عن قولكم هذا رضينا به طائعين غير كارهين، أحق واجب هذا من الله عليكم أم رأي رأيتموه من عند أنفسكم؟ قالوا: بل هو واجب أوجهه الله عز وجل علينا، فقال علي عليه السلام فانصرفوا يومكم هذا إلى غد... فلما كان من الغد أقبل الناس إلى المسجد، وجاء علي بن أبي طالب عليه السلام فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس إن الأمر أمركم فاخترتوا لأنفسكم من أحببتهم، وأنا سامع مطيع لكم... فصاح الناس من كل ناحية وقالوا: نحن على ما كنا عليه بالأمس» فلقد أعطى علي عليه السلام لنفسه فرصة للتفكير كما أعطى للناس فرصة لمراجعة أنفسهم قبل الإقدام على بيعته كما نلاحظ من الرواية.

(٢) خطب - ٢٢٦ المطلع.

(٣) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة ١/ ٤٧، وراجع أيضاً ابن أعثم الكوفي: الفتوح ٢/ ٤٣١، العقد الفريد ٤/ ٣١٠.

(٤) راجع موضوع: تفريق علي عليه السلام عماله على الامصار بتاريخ الطبري ٤/ ٤٤٢، وراجع أيضاً ابن أعثم الكوفي ٢/ ٤٣٥ وما بعدها.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٢٤٣

سائر الامصار هو السبب في عدم الاعتراف بخلافته^(١) فالقضية التي كانت تشغل علياً عليه السلام وتقلقه، ليست بيعة الأمصار - كما نرى - ولكن كيفية التعامل مع رجال السياسة من الصحابة وغيرهم من علية القوم، الذين يرون لأنفسهم احقية التفضل ماديا ومعنويا على غيرهم من افراد الامة، خاصة ان سياسته التي اعلن عنها، في خطبته الأولى، بعد المبايعة له لا تتناسب وطموحات تلك الفئة فقوله «ان الله سبحانه انزل كتاباً هادياً، بين فيه الخير والشر، فخذوا الخير تهتدوا، واصدقوا عن سمت الشر تقصدوا... الفرائض الفرائض ادوها إلى الله تؤد بكم إلى الجنة، ان الله حرم حراماً غير مجهولٍ واحل حلالاً غير مدخولٍ»^(٢).

يعني الغاء الامتيازات والمفاضلة، والالتزام التام بالعمل بما جاء في الكتاب والسنة والمساواة التامة بين جميع المسلمين في الحقوق والواجبات، لأن الإسلام مسؤوليه التزامية، تعني اندماج طبقات المجتمع، في كل متكامل يزيل التمايز ويعطي لكل حق حقه، وذلك بالطبع لا يرضي أصحاب الطموحات المادية من القرشيين الذين يريدون خليفة يحافظ على امتيازاتهم ومكاسبهم أو على الأقل يترك لهم في ايديهم ما جنته من مغنم واستأثرت به من مال على حساب المستضعفين باسم الصحبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم والقراية منه، ولكن تصميم علي عليه السلام

(١) يقول شلبي أبو زيد في كتابه: الخلفاء الراشدون ص ١٥٦ «لم ينتظر علي عليه السلام حتى بايعه أهل الامصار ظنا منه ان بيعة أهل المدينة والثوار كافية في جعل أهل الامصار يعترفون بخلافته» وقد تناسى المؤلف ان الخلفاء الراشدين الثلاثة قد انعقد لهم البيعة وصحت خلافتهم ببيعة أهل المدينة، كما انه تجاهل في تحليله للاحداث ان جميع الامصار الإسلامية قد ارسلت ببيعتها للخليفة في المدينة فيما عدا الشام.

(٢) (٢) خطب - ١٦٨، فقرة ١.

على تجريد أولئك مما غنموه من أموال وضياع من غير استحقاق^(١)، والمحاولة من حد اطماعهم جعلهم يتألبون عليه ويحرضون الناس على محاربتة لعرقلة سياسته تلك، وقد استخدموا شتى الوسائل للوصول إلى غايتهم من ذلك:

- مطالبتهم إياه بالاقتصاص من قتلة عثمان في حينه، أي بعد توليه الخلافة مباشرة، لادراكهم ان ذلك لا يمكن تحقيقه الا بعد ان تهدا النفوس وتنجلي الحقيقة^(٢).

- التغاضي عما حققه الأمويون من مكاسب على حساب المسلمين أثناء حكم عثمان وهو ما لا يتسق والسياسة الدينية التي ترى الحق حقاً، والباطل باطلاً، مما جعله يرفض مطالبهم في اقراره لهم ما جنوه من اموال في حكم عثمان مقابل اقرارهم بالولاء له^(٣)، ومحاولة طرف ثان جنى مكاسب مادية على حساب الاقرار له بالخلافة كطلب طلحة والزبير الولاية^(٤)، وطلب معاوية اقراره على ولاية الشام^(٥) وهو ما يتعارض في اختيار ولايته ممن يرتضيه لدينه، لذلك لما يئس أولئك من حصولهم على ما يبتغون لجأوا إلى الحل المسلح عليهم يدركون من علي عليه السلام ما لم يدركوه منه بالاحتيال «فنكثت طائفة ومرقت اخرى، وقسط آخرون»^(٦).

(١) راجع مقولته في رد قطائع عثمان - خطبة ١٥.

(٢) راجع مقولته في ذلك خطب ١٦٩.

(٣) راجع ص ٢٥٧ من هذا البحث وما بعدها.

(٤) راجع ص ٢٥٣ من هذا البحث وما بعدها.

(٥) راجع ص ٢٧٠ من هذا البحث.

(٦) خطب ٣.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٢٤٥

وقد تتبعت نصوص (نهج البلاغة) الفئات الثلاث التي ذكرها علي عليه السلام في خطبته السابقة وهي: الناكثون والقاسطون والمارقون.

أولاً: الناكثون - أي أصحاب الجمل:

النكث بفتح الفاء - لغة: هو المخالفة بعد اظهار الاتفاق و«نكث العهد والحبل فانكثت، أي نقضه فانتقض»^(١) والناكثون الذين يعينهم علي عليه السلام «هم أهل وقعة الجمل لأنهم كانوا بايعوه ثم نقضوا بيعته وقتلوه»^(٢)، إذ لم يقبل طلحة والزبير سياسة علي عليه السلام التي لا تتفق ومصالحهما التي من اجلها ثورا الناس على عثمان، ومهدوا لقتله، لاستئثار اسرته بالثروات وولاية الامصار، ثم ان علياً عليه السلام لم يحقق لهما ما كان يطمحان إليه من ولاية فاستنجدا «في محاربتة وتاليب الناس عليه بعائشة»^(٣) بحجة استبداده بالحكم دون مشورة المسلمين، وإيوائه قتلة عثمان، فكان التظاهر عليه بقصد خلعه ورد الأمر شورى ليختار المسلمون خليفتهم^(٤)، والثأر لعثمان، ولكن أبعاد القضية - كما يراها علي عليه السلام - ليست حسب ما يدعيان، لأن الهوى، وعدم التبصر في العواقب هو الذي جعلها العوبة في يد الشيطان، «فركب بهم الزلل وزين لهم الخطل»^(٥). وتسيير امور الناس والحكم فيهم - في فكر علي عليه السلام - لا يكون وليد تحقيق الرغبات الجامحة والميول الذاتية، لأن

(١) صحاح الجوهري ١/ ٢٩٥.

(٢) ابن منظور: لسان العرب المحيط ٣/ ٧١٤.

(٣) أحمد امين: يوم الإسلام ص ٥٧.

(٤) راجع بشأن ذلك ما ورد عند ابن قتيبة في الإمامة والسياسة ١/ ٦٨.

(٥) خطب ٧.

أية سياسة تنبني على رغبات فئة معينة همها المحافظة على امتيازاتها ومصالحها، تؤدي بالمجتمع إلى التناقضات الطبقيّة التي ينجر عنها في نهاية الأمر تصدع في بنيته الأساسية. فتغليب الفتنة بشعارات براءة لا يغير من كونها فتنة القصد منها تفتيت وحدة المجتمع بضرب فتاته بعضها ببعض. فموقف الناكثين - من وجهة نظر علي عليه السلام - ليس موقفاً اجتهادياً لأنهم قد سبق أن طلبوا منه الاقتصاص من قتلة عثمان، فوافقهم على ذلك، وطلب المهلة حتى يستتب الامن، وتعود الأمور إلى مجاريها، فينجلي الغموض، وتتبدد غيوم الفتنة كيلاً يؤخذ البريء بالمدنب^(١)، إلا أنهم - فيما يبدو - لم يكونوا جادين فيما طلبوه، لأن القصد الحقيقي من سخطهم كما يقول علي عليه السلام طلب «هذه الدنيا حسداً لمن افاءها الله عليه»^(٢).

فطلحة والزبير حين بايعا علياً عليه السلام، كانا يظنان انه سيستجيب لرغباتهما في الإمرة، ولكنه رفض شرطهما عارضاً عليهما ان يكونا شريكاه «في القوة والاستقامة و(عوناه) على العجز والاد»^(٣)، لأن المشاركة في الإمامة غير مقبولة لا عقلاً ولا شرعاً إذ «لا يجوز الاشتراك فيها»^(٤). كما ان دوافعها شخصية، فحين لم يحقق رغبتهما اظهرا التآلب عليه، بحجة انها بايعا مكرهين^(٥)، وان كانت الوقائع التاريخية تشكك في ذلك، فالزبير - من وجهة نظر علي عليه السلام - قد أضمر في بيعته غير ما كان يظهر. وهو ادعاء متهافت إذا ما وضع في صور مناظرة، لأن الحجة تكون عليه لا له، وفي ذلك يقول علي عليه السلام

(١) راجع في ذلك الخطبة - ١٦٩.

(٢) خطب ١٧٠ - فقرة ٢.

(٣) حكم ٢٠٠.

(٤) الأحكام السلطانية ص ٩.

(٥) راجع ما قاله بشأن ذلك في تاريخ الطبري ٤/٤٢٦، وايضاً في كامل ابن الأثير ٣/٩٨.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٢٤٧

«يزعم أنه قد بايع بيده، ولم يبايع بقلبه، فقد اقر بالبيعة، وادعى الوليعة فليات عليها بأمر، والا فليدخل فيما خرج منه»^(١) لأن من واجب المدعي اثبات صحة ادعائه، وإلا فإن ما يدعيه باطل، فبيعة الزبير لعلي عليه السلام ملزمة وصحيحة، وما دام مقرا بها فمن المحتم عليه ان يقبل الحق، واذا ما احتوى كل من الزبير وطلحة بالسلطة التي يسعيان في الحصول عليها، فانها سينيان بنفسهما - كما يبدو من قول علي عليه السلام - من العقاب لمشاركتها في دم عثمان^(٢)، ولما لم يتمكننا من ذلك، اختلقا شبهة تلبس على الناس ما اقترفاه في حق عثمان تبرئهما من دمه، فالسياسة في مثل هذه الظروف تقتضي التمويه، فلم يكن بدأ من الحرب، بعد ان حاول علي عليه السلام ان يثنيها عن ذلك بالتفاهم وتحكيم العقل بقوله «واني لراض بحجة الله عليهم وعلمه فيهم...»^(٣) ولكنها أيا إلا الحرب.

فوقعة الجمل لم تنشب بسبب عدم انعقاد البيعة لعلي عليه السلام كما يزعم القائل «لا تكون البيعة الا باتفاق أهل الحل والعقد»^(٤) لأن ما أثر عن علي عليه السلام من أقوال تؤكد بيعة طلحة والزبير له بالخلافة^(٥)، ويعضد تلك الأقوال ما ذكرته المصادر التاريخية بشأن بيعتهما^(٦)، بالإضافة إلى ذلك فإن صاحب المقولة، لم يعرف أصحاب الحل والعقد، وكم عددهم آنذاك والكيفية التي يتم على

(١) خطب ٨.

(٢) رجع خطب ٢٢، فقرة ٢.

(٣) السابق.

(٤) فتحي عبد الكريم: الدولة والسيادة ص ٢٥٧.

(٥) راجع: رسائل - ٦، ٩، ٥٤،

(٦) راجع بشأن بيعة الزبير وطلحة لعلي عليه السلام: ابن أعثم الكوفي: الفتوح ١/ ٤٣١، ابن قتيبة الدينوري:

الإمامة والسياسة ١/ ٤٧، ابن الاثير: الكامل ٣/ ٩٨.

اساسها اجتماعهم، فطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص من أصحاب الشورى الذين بقوا على قيد الحياة، وقد بايعوا علياً عليه السلام كما بايعه كافة الأنصار سوى عدد قليل منهم^(١)، ثم ان جميع الامصار الإسلامية تبع المدينة، فالبيعة لعلي عليه السلام قد انعقدت بمبايعة من سموا بأهل الشورى، وأهل المدينة، ومن حضر من ثوار الامصار، ولم يحدث حدثاً يبطل خلافته، ولكن اصرار أصحاب الجمل على نكث بيعته، هو العامل الذي ادى إلى اضرام نار الحرب، بقتلهم المسلمين صبراً، واستيلائهم على بيت مال البصرة. يلخص علي عليه السلام ما احدثوه بالبصرة قبل قدومه إليها قائلاً «قدموا على عمالي، وخزان بيت مال المسلمين الذي في يدي، وعلى أهل مصر كلهم في طاعتي، وعلى بيعتي فشتتوا كلمتهم، وافسدوا على جماعتهم، ووثبوا علي شيعتي، فقتلوا طائفة منهم غدرًا، وطائفة عضوا على أسيافهم فضاربوا بها حتى لقوا الله صادقين»^(٢).

فبرغم تراكم الاحداث والغموض المحيط بالجو السياسي، فلقد كانت رؤية علي عليه السلام واضحة فكان يسير بخطوات ثابتة ومدروسة، يقول في هذا الصدد «ان معي لبصيرتي، ما لبست على نفسي، ولا لبس علي»^(٣). يقابله في الاتجاه الثاني التخبط حيث يقول الزبير قبل بدء المعركة «ما كنت في موطن منذ عقلت الا وأنا أعرف فيه أمري، غير موطني هذا»^(٤) مما يرجح عدم اثبات أصحاب الجمل على قاعدة صلبة في خروجهم على علي عليه السلام إذ لم يكونوا صادقين حتى مع بعضهم، فقد أثر عن المقرين منهم القول «والله لو ظفرنا لافتتنا، وما خلى الزبير بين طلحة والأمر، ولا

(١) راجع في ذلك الشأن قول ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٩٨/٤.

(٢) خطب ٢١٣.

(٣) خطب ١٠.

(٤) تاريخ الطبري ٤/٤٥٥، ٥٠٢.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٢٤٩

خلى طلحة بين الزبير والأمر»^(١) فهم حسب قول علي عليه السلام قد «أتلعوا أعناقهم إلى أمر لم يكونوا أهله فوقصوا دونه»^(٢).

فعلي عليه السلام لم يكن راغباً في الحرب، ولم يبدأها، وتكاد معظم المصادر التاريخية تتفق في ذلك مع ما أثر عن علي من أقوال، إلا أن الطرف المقابل هو الذي كان يصبر عليها لذلك فإن التعويل على الروايات الضعيفة التي تدعي أن إشعال تلك الحرب قد بدأ «من ذوي الاغراض الخبيثة من جيش علي عليه السلام، وهم أولئك الذين اشتركوا في حصار عثمان... فخافوا على أنفسهم إذا ما تم الصلح»^(٣) لا يثبت حجة، لأن الذين مهدوا لقتل عثمان هم المطالبون بالثأر له «فلم يكن احد من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم أشد على عثمان من طلحة»^(٤) كما كانت عائشة من أكبر المحرضين على قتله وهي القائلة قبل خروجها من المدينة إلى مكة أثناء حصر عثمان «اقتلوا نعتلاً فقد كفر»^(٥).

فوقعة الجمل كحدث مريع، أحدث صدعاً عميقاً في الصف الإسلامي، ولم يكن مقبولاً بحقائقه الأليمة، لأن في ذلك مساً بقدر الصحابة وخطاً من مكانة عائشة، ومن أجل تبرئة أولئك، عول على أسطورة (ابن سبأ أو ابن السوادء)^(٦) التي تفرد الطبري بروايتها، اعتماداً على سند ضعيف مصدره

(١) السابق.

(٢) خطب ٢١٤.

(٣) محمد الطيب النجار: علي بن أبي طالب نظرة عصرية ص ٩٠.

(٤) العقد الفريد ٤/٢٩٩، وقد أثر عنه لما صيب في وقعة الجمل بالسهم القاتل «اللهم خذ لعثمان مني حتى ترضى» الكامل في التاريخ ٣/١٢٤.

(٥) تاريخ الطبري ٤/٤٥٩.

(٦) ابن السوادء، أو عبد الله بن سبأ: «تنسب إليه الطائفة السبئية، وهم الغلاة من الرفضية، اصله

من أهل اليمن، وكان يهوديا من أمة سوداء، فأظهر الإسلام، طاف ببلاد المسلمين ليلفتهم عن طاعة الاثمة، ويلقى بينهم الشر، وكان قد بدا اولا بالحجاز ثم بالبصرة، ثم بالكوفة، ثم دخل دمشق في أيام عثمان بن عفان، فلم يقدر على ما يريد عند احد من أهل الشام، فاخرجه حتى اتى مصر فاعتمر فيهم واطهر مقالته بينهم ابن بدران «تهذيب تاريخ ابن عساكر ٧/ ٤٣١ - وقد وردت الاشارات عن عبد الله بن سبا وانسياحة في البلاد أيام عثمان وعلي (عليه السلام) في تاريخ الطبري (ت ٣١٠هـ) ٤/ ٢٨٣، ٣٢٦، ٣٣١، ٣٤٠، ٣٤٩، ٣٩٨، ٤٩٣، ٥٠٥. وتاريخ الطبري هو مصدر الاسطورة - كما نعتقد - وقد أخذها عنه الكثير من المؤرخين الذين اتوا من بعده، فسند الرواية التي عول ابن عساكر (ت ٥٧١) في شأن عبد الله بن سبا هو «روى سيف بن عمر بن أبي حارثة، وأبي عثمان قالوا...» ابن بدران - تهذيب تاريخ ابن عساكر ٧/ ٤٣٢، وهو سند رواية الطبري عن سيف، أم ابن الاثير (ت ٦٣٠) فقد ذكر اعمال عبد الله بن سبا والسبائية في حكم عثمان ومن ثم في خلافة علي (عليه السلام) - الكامل في التاريخ ٣/ ٥٧، ١٢٠، ٧٧، ٧٢، دون اسناد، لكنه ذكر في مقدمة تاريخه ١/ ٥ بأنه في تأليفه قد ابتدأ «بالتاريخ الكبير الذي صنفه الإمام أبو جعفر الطبري... (فأخذ) ما فيه من ترجمة لم (يخل) بترجمة واحد منها»، ويعرض ابن خلدون (ت ٧٣٢) (الرواية عبد الله بن سبا في موضوع «أمر الجمل» تاريخ ابن خلدون ٢/ ٦٠٦، ثم يقول في نهاية الرواية ٢/ ٦٢٢ «هذا أمر الجمل ملخص من كتاب أبي جعفر الطبري اعتمدنا للوثوق بسلامته»، واذا ما رجعنا إلى الطبري في مقدمة تاريخ ١/ ٨ فإنه يقول «فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه أو يستشعنه سامعه من أجل انه لم يعرف له وجهها في الصحة ولا معنى في الحقيقة، فليعلم انه لم يؤت في ذلك من قبلنا، وانما اتى من قبل بعض ناقله الينا، وانا انما ادينا ذلك على نحو ما ادي الينا» فهو يبريء ساحته ويلقي بالمسؤولية التامة على من أخذ عنهم من الرواة واذا ما عدنا إلى سند رواية عبد الله بن سبا كما أوردها الطبري، فسنجد أن مصدرها هو سيف بن عمر الضبي، الذي قال عنه الرازي (ت ٣٢٧) في كتاب الجرح والتعديل ٤/ ٢٧٨ «ضعيف الحديث.. متروك الحديث، يشبه حديثه حديث الواقدي»، وقال فيه ابن حجر (ت ٨٥٢) في كتاب تهذيب التهذيب ٤/ ٤٩٥ «سيف بن عمر البرجمي، ويقال السعدي، ويقال الضبعي، ويقال الاسدي الكوفي، صاحب كتاب الردة

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٢٥١

سيف بن عمر^(١)، ولكن ذلك لا يعبر عن الواقع، لأن الذين خرجوا إلى علي عليه السلام من أهل الكوفة لم يلبوا دعوته الا بعد جدل طويل وأخذ ورد، بمعنى انهم كانوا في بداية امرهم مترددين، وقد سجل التاريخ جانباً من ذلك الجدل^(٢)، وعليه فإن من خرج منهم إلى علي عليه السلام خرج مقتنعاً، ولو كانت هناك ايد خفية خائفة لسمع صوتها وبان تأثيرها في ذلك الجدل الذي اشترك فيه كل من عمار بن ياسر والحسن بن علي عليه السلام، وهاشم بن عتبة^(٣)، وصعصعة بن صوحان^(٤)،

والفتوح... ضعيف الحديث، ليس خير فيه... قال أبو داود: ليس بشيء. وقال النسائي والدارقطني: ضعيف... وقال ابن حبان: يروي الموضوعات عن الاثبات... وقالوا: انه كان يضع الحديث... وقال الحاكم: اتهم بالزندقة وهو في الرواية ساقط... مات زمن هارون»، فسند الرواية متهاافت، اضافة إلى ذلك، فإن كتب الطبقات والتاريخ المعول عليها والسابقة في تأليفها لتاريخ الطبري قد سكتت تماما عن ابن سبأ واعماله الشيعة تجاه الإسلام، فابن سعد (ت ٢٣٠) في الطبقات الكبرى ٣/ ١٩ وما بعدها و ٥٣ وما بعدها في سيرتي علي عليه السلام وعثمان؛ لم يات على ذكر ابن سبأ واسطوره أثناء ذكره لحوادث عصر كلا الخليفين، كما لم يذكر ذلك أيضاً البلاذري (ت ٢٧٩) في انساب الاشراف ٢/ ٣٠٥ وما بعدها، فالاسطورة كما نعتقد من نسج خيال سيف بن عمر ومن شايعه من مرتزقة الرواة وتنفق مع طه حسين بأن «اكبر الظن... ان خصوم الشيعة أيام الأمويين والعباسيين قد بالغوا في أمر عبد الله بن سبأ هذا، ليشككوا في بعض ما نسب من الاحداث إلى عثمان وولاته من ناحية، وليشنعوا على علي عليه السلام من ناحية اخرى، فإردوا بعض أمر الشيعة إلى يهودي اسلم، كيداً للمسلمين»، الفتنة الكبرى - عثمان ١/ ١٣٤.

(١) راجع الهامش السابق.

(٢) بشأن ذلك الجدل راجع تاريخ الطبري ٤/ ٤٨١.

(٣) هاشم بن عتبة - صحابي من أصحاب علي عليه السلام استشهد في صفين - راجع ترجمته في أسد الغابة ٥/ ٣٧٧.

(٤) صعصعة بن صوحان العبدي، كان مسلماً على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ولكنه لم يره، وهو من سادات

وأبي موسى الأشعري^(١)، ومالك الأشتر^(٢) ومحمد بن أبي بكر^(٣). ثم ان جيش علي (عليه السلام) - كما تحدثنا المصادر التاريخية - قد كان تحت قيادته المباشرة، ملتزماً بتعليماته، من ذلك انه قال للأشتر وقد كان على ميمنته يوم الجمل «احمل فحمل في اصحابه، فكشف من بازائه، ثم قال لهاشم بن عتبة... - وكان على الميسرة - أحمل فحمل في المضرية، فكشف من بازائه فقال علي (عليه السلام) لأصحابه، كيف رايتم ميسرتي وميمنتني»^(٤)، وفي ذلك ما يدل على انضباط قيادته، وائتمار جنده بإمرته، مما لا يدع مجالاً للدس بينهم، خاصة وان ساسته الحربية تعتمد الدفاع في أية حرب يجبر على خوضها، بالرغم من اعتقاده بسلامة موقفه لأنه يرى ان بدء العدو بالحرب حجة عليه لكونه البادئ، لذلك كان يوصي جنده في كل موطن قتال بقوله «لا تقاتلوا القوم حتى يبدأوكم، فإنكم بحمد الله على حجة، وترككم إياهم حتى يبدأوكم حجة أخرى لكم عليهم»^(٥)، فالقتال -

عبد القيس - كان من أصحاب علي (عليه السلام) توفي في أيام معاوية - أسد الغابة ٣/ ٢١.

(١) أبو موسى الأشعري - عبد الله بن قيس - صحابي استعمله الرسول ﷺ على ريد وعدن واستعمله عمر على البصرة وأقره عثمان عليها ثم عزله، وكان أحد الحكمين (ت ٤٢ هـ) أسد الغابة ٣/ ٣٦.

(٢) مالك الأشتر - أحد أشراف الأبطال المذكورين، كاد يهزم معاوية في صفين لولا رفع المصاحف. لما رجع من صفين جهزه علي (عليه السلام) واليا على مصر، فمات في الطريق مسموماً سنة ثمان وثلاثين - راجع سير أعلام النبلاء، ٤/ ٣٤.

(٣) محمد بن أبي بكر - من أصحاب علي (عليه السلام) - ولاء مصر، لما رجع معاوية من صفين جهزه جيشاً، فانهزم محمد وقتل واحرق جثمانه سنة ثمان وثلاثين. راجع ترجمته عند العماد الحنبلي - شذرات الذهب ١/ ٤٨.

(٤) العقد الفريد - ٤/ ٣٢٥.

(٥) تاريخ الطبري ٥/ ١٠، رسائل - ١٤.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٢٥٣
من وجهة نظر علي عليه السلام - هو الملاذ الاخير الذي يلجأ إليه مضطراً بعد ان تنفذ
كل جهوده السليمة، لأنه يرى نفسه هادئاً ومصلاًحاً لا متسلطاً يسعى إلى الحكم
بأية وسيلة (١).

فحرب الجمل قد خاضها علي عليه السلام مضطراً ليس بفعل المندسين في جيشه،
ولكن أراده طلحة والزبير ومعهما عائشة، هي التي حتمت عليه خوضها،
خاصة ان اقطاب حرب الجمل الثلاثة قد ادركوا ان المساومة مع علي عليه السلام على
حساب المباديء لن تجدي، فلجأوا إلى الحل المسلح لإقصائه حتى يتمكنوا من
تحاشي تهمة تاليهم على عثمان فيما لو استقر الوضع، وكى يصلوا إلى تحقيق
هدفهم المادي المشترك المتمثل في تمكنهم من السلطة فيما لو اتصروا عليه.

فطلحة بن عبيد الله التيمي، قد كان من اكبر المؤلبيين على عثمان، فهو الذي أمر
الثوار بتشديد الحصار عليه، ومنع الماء عنه، كما استولى على مفاتيح بيت المال أثناء
الحصر (٢)، وقد حاول علي عليه السلام ثنيه عن كل ذلك، ولكنه ظل مصراً على موقفه (٣)
ولما قتل عثمان ووجد اقبال الناس على علي عليه السلام بايعه معتقداً انه سينال الخطوة عنده
بحكم صحبته فطلب منه ان يوليه البصرة (٤)، فأبى عليه ذلك.

والزبير بن العوام كان من أكبر المعاضدين لعلي عليه السلام، والمساندين لحقه في
المطالبة بالخلافة منذ اليوم الذي تمت فيه البيعة لأبي بكر (٥) حتى الوقت

(١) راجع قول علي عليه السلام عن موقفه من الحرب - خطب ٥٤.

(٢) راجع العقد الفريد ٢٩٩/٤ وتاريخ الطبري ٣٧٩، ٤٠٧، والإمامة والسياسة ٣٨/١.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) راجع قول طلحة بشأن ذلك - تاريخ الطبري ٤/٤٠٥.

(٥) راجع موقفه من بيعة أبي بكر في: الإمامة والسياسة ١/١١.

الذي انعقدت فيه لجنة الشورى، فلقد كان من ضمن الستة الذين رشحهم عمر للخلافة، فتنازل عن حقه في تلك اللجنة لعلي عليه السلام^(١)، إلا أنه غير موقفه من علي عليه السلام بعد ان تمت البيعة له بعد مقتل عثمان، ويعزى ذلك التغيير - فيما نعتقد - إلى عدة عوامل، في مقدمتها العامل المادي، إذ لم يكن الزبير راضياً عن نظام المساواة لتعارضه مع مصلحته الذاتية^(٢)، كما ان علياً عليه السلام لم يحقق له رغبته في توليته الكوفة^(٣)، إذ يبدو من حوارهِ مع علي عليه السلام حول طلب الولاية، ان العامل المادي هو الذي اسخظه على عثمان، إذ يقول هو وطلحة لعلي عليه السلام بعد ان بايعاه «قد رايت ما كنا فيه من الجفوة في ولاية عثمان كلها، وعلمت رأي عثمان في بني أمية، وقد ولاك الله الخلافة من بعده، فولنا بعض اعمالك»^(٤)، ولما امتنع علي عليه السلام عن الإستجابة لما طلباه، قال الزبير متذمراً «هذا جزاؤنا من علي عليه السلام، أقمنا له في أمر عثمان حتى أثبتنا عليه الذنب، وسببنا له القتل، وهو جالس في بيته، وكفي الأمر، فلما نال ما اراد جعل دوننا غيرنا»^(٥)، أضف إلى ذلك تأثير ولده عبد الله - ابن اسماء شقيقة عائشة - عليه، فلقد كان الطموح إلى الإمارة يملأ حنايا الابن، بحيث لم يترك لأبيه مجالاً للتفكير في عاقبة مجابهة علي عليه السلام ونكث بيعته، ولإدراك علي عليه السلام مدى تأثير الابن على ابيه روي عنه قوله «ما زال الزبير رجلاً منا أهل البيت حتى نشأ ابنه المشؤوم عبد الله»^(٦). ولقد

(١) راجع ذلك عند - ابن عبد ربه - العقد الفريد ٤ / ٢٧٨.

(٢) راجع ص ١٤٨ من هذا البحث.

(٣) راجع أنساب الأشراف ٢ / ٢١٨.

(٤) شرح ابن أبي الحديد ١ / ٢٣١.

(٥) ابن قتيبة - الإمامة والسياسة ١ / ٥١.

(٦) حكم - ٤٦١.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٢٥٥

بذل علي عليه السلام كل ما في وسعه لصدد الزبير عما عزم عليه متبعاً أسلوب الملاينة المقرون بعنصر القرابة، ولكن كل ذلك لم يجد نفعاً، من ذلك أنه قبل بدء القتال قال لابن عباس حين أرسله للتفاهم مع أصحاب الجمل «لا تلقين طلحة، فإنك إن تلقه تجده كالثور، عاقصاً قرنه، يركب الصعب، ويقول: هو الذلول، ولكن الق الزبير، فإنه لين العريكة، فقل له: يقول لك ابن خالك: عرفني بالحجاز، وانكرتني بالعراق، فما عدا مما بدا»^(١) لكن الزبير لم يثب إلى رشده ويعتزل القتال، إلا بعد أن نشب القتال.

عائشة: بدأ صوتها يعلو في أيام حكم عثمان متخذاً جانب المعارضة فكانت «أشد الناس تأليباً عليه وتحريضاً»^(٢)، والسبب المادي - كما يتهمنا - هو الدافع وراء ذلك، لأن عثمان قد صيرها «اسوة غيرها من نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم»^(٣) بعد أن كان عطاؤها في عهد عمر يزيد عليهن بألفي درهم^(٤)، فدخلت معه في منافرات، وحرضت على قتله^(٥)، وكانت تتمنى لو حل في مكانه، طلحة بن عبيد الله التيمي^(٦) على اعتبار انها تيمية أيضاً فلما قتل عثمان ووصلها خبر مبايعة الناس علي عليه السلام، ادركت ان طموحتها في إرجاع الخلافة تيمية أصبح بعيد المنال^(٧)، هذا بالإضافة إلى ما كانت تحمله في نفسها على علي عليه السلام، فكتب السيرة

(١) خطب - ٣١.

(٢) ابن الأثير أسد الغابة - ٥٩١/٣.

(٣) تاريخ اليعقوبي ١٧٥/٢، وورد مثله عند ابن أعثم الكوفي في الفتوح ٤١٩/٢.

(٤) راجع سير اعلام النبلاء ١٨٧/٢.

(٥) راجع ص ٢٤٩ من هذا البحث.

(٦) راجع مقالاتها بشأن طلحة - تاريخ الطبري ٤٠٧/٤.

(٧) راجع مقالته بشأن مبايعة علي عليه السلام - تاريخ الطبري ٣٥٩، الإمامة والسياسة ٢٥/١، الكامل في

تحدثنا بأنها لم تكن تحب حتى ذكر اسمه^(١).

لقد تهيأت لأصحاب الجمل كل الظروف التي تتيح لهم محاربة علي عليه السلام، حين توفرت لهم الطاعة، والسخاء، والشجاعة، وقد اجمل علي عليه السلام تلك المزايا في قوله «اني منيت بأربعة: ادهى الناس، وأسخاهم طلحة، واشجع الناس الزبير، واطوع الناس في الناس عائشة»^(٢) والرابع يعلى بن منية^(٣) الذي وصفه علي عليه السلام بأسرع الناس إلى اشعال الفتنة.

فقضية حرب الجمل قد كانت محسومة بالنسبة لعلي عليه السلام، فهو لا يجد مبرراً في الخروج على السلطة ما دامت تسير بامور المسلمين بما يتماشى مع القرآن والسنة وتحقيق العدل للجميع فالتصدي للفتنة واخمادها واجب ديني في حالة عدم جدوى النصح، وهو ما يمكن استخلاصه مما أثر عنه عليه السلام من اقوال، فبصدد كشفه أساليب التضليل التي حاول بها أصحاب الجمل تمويه الحقيقة يقول «انا فقأت عين الفتنة، ولم يكن ليجترئ عليها احد غيري، بعد ان ماج غيبيها واشتد كلبها»^(٤)، والاجترأ الذي يقصده علي عليه السلام هو تبصره بملايسات الفتنة ومعالجتها بمقتضى الشرع. فإن تكن واقعة الجمل قد احدثت انقساماً في الصف الإسلامي، الا ان نتائجها لم تخل من ايجابيات، لم تكن لتعرف لولا تلك المعركة، لأن علياً عليه السلام قد

التاريخ ١٠٦/٣.

(١) راجع سيرة ابن هشام ٤/٢٩٨، وتاريخ الطبري ٣/١٨٩.

(٢) ابن عبد البر - الاستيعاب - بهامش الإصابة ٢/٢٢١.

(٣) يعلى بن منية - وهو اسم امه واسم ابيه أمية، استعمله عمر على بعض اليمن وكان على الجند باليمن حين بلغه قتل عثمان، فأقبل لنصره، ولكنه لم يدركه، فقدم مكة بعد انقضاء الحج، وأخذ يحرص على الثأر من قتلة عثمان، راجع ترجمته في أسد الغابة ٥/٥٢٣.

(٤) خطب - ٩٢.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٢٥٧

عامل أصحاب الجمل بعد هزيمتهم معاملة تكاد تختلف تماماً عما عهدته المسلمون في معاملتهم للمهزومين، حيث يجعلون من اراضيهم واموالهم غنيمة للمحاربين، ومن نسائهم واطفالهم واسراهم سبايا يحق بيعهم واسترقاقهم، ولكن علياً عليه السلام في حرب الجمل لم تأخذ بذلك الاسلوب، مما جعل أصحابه يستغربون تصرفه وينكرونه عليه بقولهم «تحل لنا دماءهم، ولا تحل لنا نساءهم؟ فقال: كذلك السيرة في أهل القبلة، فخاصموه، قال: فهاتوا سهامكم واقرعوا على عائشة... ففرقوا وقالوا نستغفر الله»^(١)، فحرب الجمل ونتائجها من وجهة نظر علي عليه السلام، مسألة فقهية، وضحت واستبانة حين باشرها بنفسه «اذ لم يكن المسلمون قبلها يعرفون كيفية قتال أهل القبلة»^(٢)، فقد أثر عن الشافعي قوله «لولا علي لما عرف شيء من أحكام أهل البغي»^(٣)، الا أنها وان حسمت في صالح علي عليه السلام فإنها لم تكن سوى تمهيد لحرب تزعمها من أسماهم علي عليه السلام القاسطين.

ثانياً: القاسطون - أي بنو أمية:

والقاسطون في اللغة هم الجائرون الباغون، وقد جاء في القرآن الكريم ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾^(٤)، «لذلك قيل: قسط الرجل: إذا جار واقسط: إذا عدل»^(٥). وفي التفريق بين معنى المفردتين يقول ابن

(١) المتقي الهندي - كنز العمال - ٣٣٧/١١.

(٢) شرح ابن أبي الحديد ٣٣١/٩.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) الجن / ١٥.

(٥) الراغب الاصفهاني - المفردات في غريب القرآن ٦٠٨.

منظور «اقسط يقسط، فهو مقسط إذا عدل، وقسط يقسط، فهو قاسط إذا جار، فكأن الهمزة في اقسط للسلب كما يقال شكاك إليه واشكاه»^(١). ومفردة قاسط التي تعني الجور كمصطلح سياسي، قد اطلقت على الأمويين ومن شايعهم لخروجهم على علي عليه السلام ومحاربتهم له في صفين، فقد أثر عنه قوله «عهد إلي رسول الله ﷺ أن أقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين»^(٢)، وذلك يكشف لنا عن موقف علي عليه السلام المتشدد تجاه الأمويين عامة وتجاه معاوية بن أبي سفيان على وجه الخصوص لم يكن بدافع العصبية أو حب التسلط، وإنما هو موقف تابع من اعتقاد ديني بحت، وان حاولت السياسة الباسه ثوب العصبية، ذلك الوتر الذي حاول الأمويون العزف عليه للوصول إلى ماربهم فكان البدء مطالبتهم الخليفة بالاقصاصة من قتلة عثمان الأموي، فجانب العصبية قد يكون له قيمته العالية في لقضية إذا ما نظرنا إليه من الزاوية الأموية، فقد حتموا بذلك كشعار من أجل معارضتهم لخلافة علي عليه السلام حين وضعوه كشرط لاقرارهم بخلافته وذلك منذ الأيام الأولى التي انعقد فيها الأمر له، فقد تخلف عن البيعة بعض الأمويين، فبعث إليهم ليكلّمهم في ذلك، فتكلم الوليد بن عتبة فقال «يا أبا الحسن، إنك وترتنا بأجمعنا، أما أنا فقتلت أبي صبراً يوم مكة، وخذلت أخي عثمان فلم تنصره، وأما سعيد بن العاص فقتلت أباة يوم بدر... وأما مروان فسحقت أباة عند عثمان لما رده إلى المدينة وضمنه إليه، ونحن نبايعك على ان تقتل من قتل صاحبنا... وعلى انك تسوغنا ما يكون منا وعلى انا ان خفناك على

(١) لسان العرب المحيط ٣/٨٦.

(٢) ابن الأثير أسد الغابة ٤/١١٥، لسان العرب المحيط ٣/٨٦، ويمكن مراجعة تخرجات أخرى

للحديث في: فضائل الخمسة من الصحاح الستة لمرتضى الحسيني الفيضو أبادي ٢/٣٩٦ وما

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٢٥٩

أنفسنا لحقنا بالشام عند ابن عمنا معاوية»^(١) فالشروط التي وضعها أولئك الرهط من الأمويين لم تكن في مجملها ذات طابع اسلامي، وانما هي مبنية على العصبية الجاهلية والمادة، وبعيدة عن مفهوم السياسة الدينية^(٢)، لذلك فهي تتعارض وفكر علي عليه السلام، وهذا ما أدى إلى رفضها جملة وتفصيلاً ويكمن ذلك في رده عليهم بقوله «اما ما ذكرتم اني وترتكبم فإن الحق وتركم، واما وضعي عنكم ما يكون منكم فليس لي ان اضع عنكم حقاً لله تعالى قد وجب عليكم، واما قتلي قتلة عثمان فلو لزمني اليوم قتلهم لقتلتهم امس، واما خوفكم اياي فإنني اؤمنكم مما تحافون»^(٣). فالجدل الذي دار بين علي عليه السلام وبين أولئك الأمويين يكشف تبين المواقف الفكرية عند كلا الطرفين، إذ بينما ينطلق فكر علي عليه السلام من قاعدة دينية اساسها الحق والمساواة، وينطلق فكر أولئك من قاعدة اساسها المصلحة الذاتية المتكونة من عناصر مادية واخرى عصبية.

لقد حاول الأمويون كبح جماح رغباتهم في فترة صدر الإسلام، وان لم يخفوا بعض تطلعاتهم التي كانت تصطرع في نفوسهم، فعثمان بن عفان وهو من الصحابة السابقين الأولين الذين دخلوا الإسلام طواعية وعن اقتناع، قد جاء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم هو وجبير بن مطعم^(٤) لما قسم صلى الله عليه وسلم سهم ذوي القربى بين

(١) ابن أعثم الكوفي - الفتوح ٢ / ٤٤١ .

(٢) راجع ص ١٩٥ وما بعدها من هذا البحث فقد فصلنا القول في واجب الحاكم في فكر علي عليه السلام.

(٣) ابن أعثم الكوفي، السابق ٢ / ٤٤١ .

(٤) جبير بن مطعم من علماء العرب وساداتهم، يؤخذ عنه النسب لقريش وللعرب قاطبة، كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم يد، وهو أنه كان أجار رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم من الطائف حين دعا ثقيفاً إلى الإسلام، وكان أحد الذين قاموا بنقض الصحيفة التي كتبتها قريش على بني هاشم وبني عبد المطلب، وكان إسلامه بعد الحديبية، وقبل الفتح، توفي سنة سبع وخمسين من الهجرة - ابن الأثير: أسد الغابة ١ / ٣٢٣ .

٢٦٠ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

بني هاشم وبني عبد المطلب، فقال له «يا رسول الله، هؤلاء بنو هاشم لا ينكر فضلهم لمكانك الذي وضعك الله به منهم، رأيت بني عبد المطلب؟ أعطيتهم ومنعتنا، وإنما نحن وهم منك بمنزلة واحدة»^(١)، ونحن إذ نورد هذا الشاهد لا نشك في إخلاص عثمان للإسلام وبذله الأموال الطائلة في سبيل إعلاء كلمته ولكن مبادرته الرسول ﷺ بذلك القول تعني التماس السؤدد بالاندماج فيمن خصهم الرسول ﷺ بالخمسة من ذوي قرباه.

لقد فقد الأمويون كل امتيازاتهم التي كانوا يتمتعون بها في الجاهلية بعد دخولهم الإسلام كرها فعدوا من الطلقاء، بعد ان سن عليهم الرسول ﷺ يوم الفتح^(٢)، ولا بد أن يكون ذلك قد ترك أثراً عميقاً في نفوسهم، وإن حاولوا اضماره والاندماج في المجتمع الجديد، كما حاول الرسول ﷺ بدوره استئلال النعمة من نفوسهم بتألفهم بالمال، فأعطى أبا سفيان من غنائم حنين «مائة بعير وأربعين أوقية، كما أعطى سائر المؤلفلة قلوبهم وأعطى ابنه يزيد ومعاوية»^(٣)، كما استعمل ﷺ منهم في بعض أعماله من ارتضى دينه ووثوقه من حسن إسلامه مثل إبان بن سعيد بن العاص^(٤) الذي ولاه ﷺ البحرين بعد أن «عزل عنها

(١) أبو عبيد: الأموال ٣٤١.

(٢) سموا بالطلقاء نسبة إلى قول رسول الله يوم الفتح في السنة الثامنة «يا معشر قريش ويا أهل مكة، ما ترون إني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم، ثم قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء»، سيرة ابن هشام ٥٥/٤، تاريخ الطبري ٦١ - المسعودي - مروج الذهب ٢/٢٩٧.

(٣) ابن عبد البر - الاستيعاب بهامش الإصابة ٢/١٩٠.

(٤) إبان بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس، أسلم قبل خير وشهداها مع رسول الله ﷺ وكان شديداً على رسول الله ﷺ والمسلمين قبل إسلامه، أسلم بعد أن عرف حقيقة النبي ﷺ من راهب بالشام واستعمله الرسول ﷺ على البحرين، وكان أحد من تخلف عن بيعة أبي بكر لينظر

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٢٦١

العلاء ابن الحضرمي»^(١)، وبعث خالد بن سعيد بن العاص^(٢) عاملاً على صدقات اليمن ولم يزل على عمله حتى توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم، واستعان بعثمان بن عفان على كتابة الوحي^(٣) وبخالد بن سعيد ومعاوية بن أبي سفيان في كتابة حوائجه^(٤)، كل ذلك - على ما نعتقده - في سبيل تأليف نفوس الأمويين، وادماجهم في الحياة الجديدة، فخبث طموحاتهم بعض الشيء وإن كانت لتظهر من الشاذين منهم على شكل تصرفات عدائية بقصد الاستهزاء بالإسلام، الإساءة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بسبب عدم مقدرتهم على التفاعل مع القيم الإنسانية التي حطت من مكانهم الاستعلائية لتفضل عليهم من كانوا عبيداً وسوقة من الفقراء، وذوي الأنساب الخاملة. فعبد الله بن أبي السرح أخو عثمان في الرضاعة، قد ارتد مشركاً وكان من كتبة الوحي «وصار إلى قريش بمكة فقال لهم: إني كنت أصرف محمداً حيث أريد، كان يملي علي عزيز حكيم، فأقول: أو

ما يصنع بنو هاشم، فلما بايعوا بايع، اختلف في سنة وفاته، فقيل سنة اثنتي عشر وقل سنة أربع عشرة بعد الهجرة... وقيل توفي سنة تسع وعشرين. أسد الغابة ١/ ٤٧.

(١) أسد الغابة ١/ ٤٧.

(٢) خالد بن سعيد بن العاص، من السابقين الأولين في الإسلام لم يتقدم عليه في ذلك سوى علي عليه السلام وأبو بكر وزيد بن حارثة وسعد بن أبي وقاص، هاجر إلى الحبشة فيمن هاجر إليها من المسلمين، شهد مع النبي صلى الله عليه وسلم بعض غزواته، وبعثه عاملاً على صدقات اليمن، ولم يزل بها حتى توفي الرسول صلى الله عليه وسلم فرجع وأخواه عمرو وإبان عن أعماهلم، وتاخروا عن بيعة أبي بكر حتى بايعت بنو هاشم، استشهد في وقعة اجنادين سنة ثلاث عشرة من الهجرة - أسد الغابة ٢/ ٩٨.

(٣) راجع الجهشيارى - الوزراء والكتاب ص ١٢.

(٤) السابق.

عليه السلام حكيم؟ فيقول: نعم، كل صواب»^(١)، وقد أهدر الرسول ﷺ دمه يوم الفتح لو لا الحاح عثمان بالشفاعة فيه^(٢). ومن ذلك أيضاً طردّه ﷺ الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس من المدينة، بسبب محاولته إيذاء الرسول ﷺ بالاستهزاء عليه، وتصفته على بيوته ونقل اخباره «إلى كبار أصحابه من مشركي قريش وسائر الكفار والمنافقين»^(٣).

فمن الملاحظ أن الرسول ﷺ قد سار في الأمويين بسيرة الترغيب تارة باستئلافهم وتقريب المؤمنين منهم، وباغداق الأموال على الذين لم يثبت الإسلام في نفوسهم، والترهيب تارة أخرى بالقتل والنفي، مما جعل أولئك الذين دخلوا في الإسلام كرهاً أن يتقبلوا الحياة الجديدة على مضض مع بذلهم كل ما في وسعهم من طاعة مشاركة تخفف عن كواهلهم وطأة الاستصغار الذي لحق بهم جراء دخولهم الإسلام مرغمين^(٤)، وحاولوا جاهدين كبح جماح طموحاتهم وإضمارها في أعماقهم، لذلك فما ان انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الاعلى وانعدت البيعة لأبي بكر حتى ارتفع صوت أبي سفيان بن حرب قائلاً لعلي عليه السلام «مال هذا الأمر في أقل حي من قريش، والله لئن شئت لأملأها عليه خيلاً ورجالاً»^(٥)، إذ تبدو العبارة وكأنها صادرة عن حمية جاهلية أو قل عصبية عشائرية يقصد به صيانة حقوق الهاشميين، ولكن الحقيقة من وجهة

(١) أسد الغابة ٣/٢٥٩.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) الاستيعاب بهامش الإصابة ١/٣١٧، وراجع ترجمته هناك أيضاً.

(٤) لمعرفة شعور الأمويين بعد دخولهم الإسلام راجع قول هند وأبي سفيان لابنهما معاوية حين استعمله عمر على مكة - العقد الفريد ٤/٣٦٥.

(٥) تاريخ الطبري ٣/٢٠٩.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٢٦٣

نظر علي عليه السلام ليست كذلك، لأنها وان كانت عصبية في ظاهرها، فما هي سوى فتنة اراد بها رأس الأمويين شق عصا المسلمين، لذلك بادره علي عليه السلام بالقول «يا أبا سفيان طالما عادت الإسلام واهله فلم تضره بذلك شيئاً، إنا وجدنا أبا بكر لها هلاً»^(١)، فعلي عليه السلام أدري بما يضمره الأمويون للإسلام، فلو كانت مقولة أبي سفيان تلك تعبيراً عن عصبية خالصة، لما سكت عندما خلى له أبو بكر ما كان في يده من الصدقات التي كلفه رسول الله صلى الله عليه وسلم بجمعها قبل وفاته وذلك امتثالاً لنصيحة عمر بأن «هذا قد قدم وهو فاعل شراً، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يستألفه على الإسلام، فدع ما بيده من الصدقة، ففعل، فرضي أبو سفيان وبإيعه»^(٢). مع ملاحظة التباين بين موقف علي عليه السلام، وبين موقف أبي بكر من تصرف أبي سفيان، فكلتا الشخصيتين تدركان تزعزع إيمان رأس الأمويين مع التباين في أسلوبهما في معالجة ذلك، فقد استخدم أبو بكر العامل المادي لقطع دابر الفتنة، ولكنه بذلك قوى العزم وانعش الأمل في نفوس الأمويين في تعويض ما افتقدوه من سلطان في ظل الإسلام، وذلك باتباعهم ذات الأسلوب ولكن بطرق مختلفة قد تكون أكثر احكاماً ودهاءاً، اما علي عليه السلام فقد حسم الأمر بفضح أساليب أبي سفيان وكشف نواياه الحقيقية تجاه الإسلام، في محاولة منه لواد أية طموحات غير مشروعة تعود بالضرر على الإسلام، خاصة وأن الإسلام لم يعد في حاجة إلى استتلاف المنافقين وضعفاء الإيمان، بعد ان اشتد عوده وكثرت اعوانه بشهادة عمر بن الخطاب في قوله «كان يتألفكم والإسلام يومئذ ذليل وان الله قد أعز الإسلام»^(٣)، فلم تعد الحاجة إليه، لأن المنافقين ومن تابعهم من ضعفاء

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) العقد الفريد ٤/ ٢٥٧.

(٣) ابن أبي الحديد ١٢/ ٥٩.

الإيمان أصبحوا قلة لا يشكلون أية خطورة على الإسلام.

ففي نفس الوقت الذي كان فيه الشيخان الأول والثاني قد ارتابا في نوايا أبي سفيان تجاه الإسلام في مطلع حكم أبي بكر كما اسلفنا، فإنهما قد قلدا الأمويين بعض الاعمال المهمة، وذلك على اعتبار ان الإسلام قد ازال ما في نفوس الأمويين^(١) من عصبية جاهلية، ولكن الخليفة الرابع لم يثق قط بمعظم الأمويين، خاصة أولئك الذين تأخر دخولهم في الإسلام من الفرعين السفياي والمرواني، إذ يقسم في أحد المواقف تأكيداً لمقولته «والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة ما أسلموا ولكن استسلموا وأسروا الكفر فلما وجدوا أعوانا أظهروه»^(٢).

فوثوق أبي بكر وعمر بالأمويين عامة وبمعاوية على وجه الخصوص لا يعني سلامة موقفهم بحيث يرتضيهم علي عليه السلام في معاونته على اعباء الحكم، فمعاوية الذي رفع راية العصيان في وجه علي عليه السلام، لا بد انه كان يتعجل موت عمر ويتمناه، وقد كان يتكلف ما يرضي عمر، لذلك فلقد تنفس الصعداء حين بلغة نبأ وفاة عمر وهو مازال على ولاية الشام، إذ اعتبر بقاءه في الولاية تزكية له فهو يقول لمن نفاهم إليه عثمان من اعيان أهل الكوفة حين عابوا سياسته وطالبوه بالاعتزال عن ولاية الشام «لقد رأى ذلك عمر بن الخطاب، فلو كان غيري اقوى مني لم يكن لي عند عمر هوادة ولا لغيري، ولم أحدث من الحدث

(١) لمعرفة رأي علي عليه السلام في الأمويين راجع: البلاذري - أنساب الأشراف ١٠٣/٢، صفين لابن

مزاحم ص ٢١٥، ٢٤، ٧٦، ٩١.

(٢) ابن مزاحم ٢١٥، رسائل - ١٦.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٢٦٥

ما ينبغي لي أن أعترل عملي»^(١)، ثم إن عثمان قد احتج بتلك الحجة^(٢) على علي عليه السلام حين ناقشه في شأن ولاته وبالأخص معاوية الذي كان يقطع الأمور باسم عثمان الذي لا ينكر عليه ذلك.

لقد وضحت نوايا الأمويين بجلاء في إبان حكومة عثمان، إذ لم يكن في مقدورهم اعتبار الحكم في ظل الشريعة الإسلامية على أنه خلافة، بل ملك، فقد استغل الأمويون قرابتهم من عثمان وحبه الشديد لهم اسوأ استغلال فأخذوا «يخضمون مال الله خضمة الابل نبتة الربيع»^(٣)، فسعيد بن العاص والي عثمان على الكوفة يرى ان سواد العراق «بستان لقريش»^(٤) اما مروان بن الحكم^(٥) فإنه يرى ان الخلافة الإسلامية لن تخرج من البيت الأموي الا بالدم معتبراً إياها سلطاناً وملكاً لا خلافة، وذلك بقوله وفي محضر من المسلمين في مسجدهم والحاكم حاضر «أما والله لا يرام ما وراءنا حتى تتواصل سيوفنا وتقطع أرامحنا»^(٦).

فالتسلط والمال هما الهدفان اللذان كان الأمويون يرمون إليهما، وهم في سبيل ذلك مستعدون لدوس القيم الإنسانية، باستخدام أساليب الزيف والتضليل،

(١) تاريخ الطبري ٤ / ٣٢٥.

(٢) راجع ص ٢٢٩ وما بعدها من هذا البحث فقد فصلنا القول في شأن ولادة عثمان هناك.

(٣) خطب - ٣.

(٤) تاريخ الطبري ٤ / ٣٢٣.

(٥) مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية. وهو ابن عم عثمان بن عفان، لم ير النبي ﷺ لأنه خرج إلى الطائف طفلاً لا يعقل لما نفى أباه الحكم، وكان مع أبيه بالطائف حتى استخلف عثمان فردهما واستكتب عثمان مروان - أسد الغابة ٥ / ١٤٤.

(٦) الزبير بن بكار: الأخبار الموفقيات ٦١٨. وقد ورد مثله في تاريخ الطبري ٤ / ٣٣٤.

٢٦٦ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

بحيث وصلت بمعاوية الجرأة ان يوهم طلحة والزبير بأنه بايع لهما بالخلافة على الشام شريطة استظهارهما طلب الثأر لعثمان والتمرد على خلافة علي عليه السلام لنقضها^(١)، غير آبه بما سيراك من دم، وبما سيحل بالاسلام من الكوارث، قد تؤدي إلى تمزيقه وتشتيت وحدته، كل ذلك في سبيل البقاء في السلطة، بعد أن عرف عزم علي عليه السلام على تجريده وبني أمية من المكاسب التي اجتنوها في عهد عثمان، لكونها من وجهة نظر الإسلام ثروات غير مشروعة، إذ يؤثر عن علي عليه السلام قوله في هذا الصدد «ألا ان كل قطعة اقطعها عثمان، ومال من مال الله فهو رد على المسلمين في بيت مالهم، والله لو رأينا نكح به النساء، وتفرق به في البلدان، لرددناه، لأن الحق قديم لا يخلق، وأن لكم في الحق سعة، ومن ضاق عنه الحق فالباطل أضيقت»^(٢).

فالعنصر المادي الذي حاول علي عليه السلام تجريد الأمويين منه، كان هو السبب المباشر في التصدي للتيار الديني الداعي إلى المساواة المتمثل في سياسته التي أعلنها في الأيام الأولى من قبوله الخلافة^(٣). وهو ما يدعوننا إلى طرح مقولة ابن خلدون «بأن الفتنة بين علي عليه السلام ومعاوية، وهي مقتضى العصبية، كان طريقهم فيها الحق والاجتهاد، ولم يكونوا في محاربتهم لغرض دنيوي، ولا لاثار باطل... وانما اختلف اجتهادهم في الحق، وسفه كل واحد منهم نظر صاحبه...»^(٤) على بساط المناقشة، فمفهوم العصبية في فكر علي بن أبي طالب عليه السلام - كما يبدو لنا - يختلف اختلافاً جذرياً عن مفهومها عند ابن خلدون، الذي يرى ان الدعوة

(١) راجع رسالة معاوية إلى كل من طلحة والزبير - شرح ابن أبي الحديد ١/ ٢٣١.

(٢) خطب ١٥. أورد الرضي القسم الأخير منها وأخذناها بتمامها من أبي هلال العسكري:

(٣) راجع خطب ١٦.

(٤) المقدمة ١/ ٢٦٩.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٢٦٧

الدينية لا يمكن ان تتكلم بالنجاح ما لم تعتمد على عصبية قومية^(١)، بانبا نظريته على الحديث الشريف «ما بعث الله نبياً إلا في منعة من قومه»^(٢)، بينما يرى علي عليه السلام إن الذين أرادوا الكيد بالاسلام وإطفاء نوره هم قوم النبي صلى الله عليه وآله وعشيرته من قريش إذ يقول في إحدى رسائله لمعاوية «فأراد قومنا قتل نبينا واجتياح أصلنا، وهموا بنا الهموم وفعلوا بنا الأفاعيل وأحلسونا الخوف، واضطرونا إلى جبل وعمر، وأوقدوا لنا نار الحرب»^(٣)، فالدين في نبذه للعصبية

(١) السابق ١/١٩٩، ٢٠٠.

(٢) السابق ١/١٩٩ - والحديث كما ورد بنصه عند أحمد بن حنبل - الذي انفرد بروايته - المسند ٢/ ٥٣٣ قال عليه السلام: قال لوط: لو ان لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد، قال: قد كان ياوي إلى ركن شديد، ولكنه عنى عشيرته، فما بعث الله عزوجل بعده نبيا الا في ذروة قومه، قال أبو عمر: فما بعث الله عز وجل نبيا الا في منعة من قومه«فمن الملاحظ أن الرسول صلى الله عليه وآله لم يقل «في منعة» ولكنه قال «في ذروة قومه» باضافة ذروة إلى قومه «وذروة كل شيء اعلاها»، ابن دريد - الجمهرة ٢/ ٣١٢، والذروة هنا - كما اعتقد - يقصد الرسول صلى الله عليه وآله بهاعلو النسب وعراقته، وقد كان اعلى قريشاً نسباً واطيبها ارومة، الا انه لم يكن الاقوى ولا الاغنى، بالاضافة إلى ان القول «في منعة من قومه» لم يكن - كما يبدو لنا - في حديث النبي صلى الله عليه وآله وإنما كان تعقيباً من الرواي على قوله صلى الله عليه وآله كما ان الحديث بمفهوم العصبية التي أرادها ابن خلدون، لا يتسق مع ما ورد في القرآن الكريم من آيات بشأن وضع الابناء في اقوامهم، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ﴾ هود/ ٨٩، فسياق الآية الكريمة يدل على ان العصبان والشقاق تجاه دعوات الرسل يأتي عادة من ذوي البأس والقوة في اقوامهم. انظر الأعراف/ ١٤٨ والتوبة/ ٧٠ وهود/ ٦٠ وق/ ١٢... ولو ان النبي صلى الله عليه وآله قد كان في منعة من قومه لما اضطرتة قريش هو صلى الله عليه وآله وآل بيته من الهاشميين والطلالين إلى الشعب ولما عرض نفسه على القبائل الاخرى في مواسم الحج، ولما اضطرتة قريش إلى الهجرة عن موطنه في نهاية المطاف.

(٣) رسائل ٩-

يميز مقاومة العشير وقتلهم بدافع الجهاد في سبيل الله وهو فحوى فكر علي عليه السلام الذي يعبر عنه بقوله «لقد كنا مع رسول الله ﷺ وان القتل ليدور بين الاء والأبناء والأخوان والقرباء، فما نداد على كل مصيبة وشدة إلا إيماناً ومضياً على الحق»^(١). فالعصية في مفهوم علي عليه السلام - كما يتهاً لنا - هي مجموعة من القيم الأخلاقية تعني التوق إلى بناء مجتمع مثالي يسير في ظل المبادئ الإسلامية. أما العصية الأموية فهي مبنية على القيم الجاهلية التي تعتمد على النظرة الضيقة المحصورة في نطاق مصلحة العشيرة، كما أن العصية الأموية لم تكن - في اعتقادنا - مبنية على أسس الاقتناع النفسي لكونها غلاًفاً خارجياً يقصد به المحافظة على المكاسب المادية، لذلك فإن ما اسماه ابن خلدون باجتهد معاوية لا يتسق مع معنى الاجتهد في الشريعة وهو «إعمال الرأي في التماس الحكم الشرعي»^(٢) في حالة عدم وجود نص الحكم لا في الكتاب ولا في السنة، ولكن القضية التي نشب النزاع بسببها بين علي عليه السلام ومعاوية حكمها ثابت شرعاً، كما يتهاً لنا، لأن الدعوة الأساسية التي عمد معاوية إلى تضليل جمهور أهل الشام والسذج من المسلمين، وطلاب الدنيا من ذوي المصالح، هي الثأر لعثمان من قتلته، وهي دعوى متهافتة من جميع جوانبها كما يتبين لنا من خلال ما تبودل من رسائل بين علي عليه السلام ومعاوية. فمعاوية من الناحية الشرعية ليس هو الولي بدم عثمان حتى يطالب بالثأر من قتلته لأن أبناء عثمان وأخوته أولى منه بذلك^(٣)، ثم ان علياً عليه السلام يفترض أنه لو قبل ولاية معاوية في المطالبة بدم عثمان على أساس القرابة، فعليه أولاً: أن يدخل فيما دخل فيه عموم الناس من بيعة ملزمة، ومن

(١) خطب - ١٢١.

(٢) محمد تقي الحكيم: مقدمة كتاب النص والاجتهد ص ٤٣.

(٣) راجع رسالة علي عليه السلام إلى معاوية: ابن أبي الحديد ٨٩/٣.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٢٦٩

ثم يحاكم القتلة أمام القائم بالأمر^(١)، إذ لا يحق شرعاً لأي فرد من أفراد الأمة مهما علت منزلته أن يقتصر من مجرم وأن يقيم حداً على زان أو أن يقتل قاتلاً في حالة وجود سلطة شرعية يمكنها القيام بذلك، لأن محاكمة الجناة في الإسلام وفي غيره من الشرائع السماوية والوضعية من اختصاص الحاكم، فقوله تعالى:

﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ﴾^(٢)،

وهي الآية التي اعتمد عليها معاوية في تضليله في المطالبة بالاختصاص من قتلة عثمان، لا تعني في تفسيرها: قيام أهل القتل وقرابته من الاختصاص له من قتلته بأنفسهم، بل عليهم أن يمثلوا ومن اتهموه بالقتل أمام الحاكم «فإن حكم بالحق استقيمت حكومته، وإلا فسق وبطلت إمامته»^(٣)، لذلك فإن ادعاء معاوية بالتظاهر من أجل دم عثمان، هو في تصور علي عليه السلام مثله مثل «خدعة الصبي عن اللبن في أول الفصال»^(٤)، تلك الخدعة التي حاول معاوية التستر بها للبقاء في ولاية الشام طيلة حياته وبدون أي التزام تجاه خلافة علي عليه السلام^(٥)، مما يعني استعدادة للسكوت عن عصبية في المطالبة بالتأثر من قتلة عثمان، فيما لو استجاب علي عليه السلام لطلبه.

فالغرض الدنيوي الذي حاول ابن خلدون تبرئة معاوية منه هو لب ثورته المفتعلة وهو في الوقت نفسه السبب المباشر الذي جعل علياً عليه السلام يقف منه موقف

(١) راجع قول علي عليه السلام لمعاوية في شأن عثمان وقتلته الرسالة رقم ٦٤.

(٢) الاسراء/٣٣.

(٣) ابن أبي الحديد ١٨/٢١.

(٤) رسائل - ٦٤، الفقرة الأخيرة.

(٥) في طلب معاوية ولاية الشام من علي عليه السلام بتلك الشروط راجع: ابن مزاحم - ص ٤٧٠.

٢٧٠ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

المتصلب، من أجل افشال مخططات الأمويين وعلى رأسهم معاوية الذي «قاد لمة من الغواة وعمس عليهم الخبر»^(١) فجعلهم لا يعرفون من يجاربون^(٢).

فمأرب معاوية من العصيان وتجريده الجيوش لمقاتلة علي عليه السلام - كما نرى - هو مأرب دنيوي، بينما نرى أن موقف علي عليه السلام المتشدد تجاه معاوية ومن شايعه من الأمويين موقف ديني بحت هدفه المحافظة على نصاعة تعاليم الإسلام، لأن الحزم عنده «أن يخطر أمر الدين ثم لا يفكر في الموت»^(٣).

فسياسة معاوية - كما تبدو من وجهة نظر علي عليه السلام - مبنية على التلون حسب مقتضيات الظروف، مع استخدام جميع الأساليب المتاحة التي تمكنه من غرضه، فتارة يطالب بدم عثمان وأخرى يلح على علي عليه السلام بإقراره على الشام، ثم أنه يهدد تارة ثالثة بالحرب، ويأمر بقتل النساء والأطفال وترويع الآمنين^(٤)، في الوقت نفسه الذي ينادي فيه بإنها الحرب، لما أحدثته من خسائر في الأرواح والأموال مستجيراً في ذلك برابطة الرحم^(٥). على ان موقف علي عليه السلام من كل تلك الاساليب المتلونة واحد لم يتغير، وهو اعتبار معاوية فرداً من أسرة هدفها جعل الإسلام مطية لتحقيق أغراضها، فوجودهم ضمن المجتمع الإسلامي فتنة

(١) خطب ١٥.

(٢) لقد مارس معاوية مع أهل الشام كل أساليب التضليل التي تنأى بهم عن معرفة حقيقة علي عليه السلام
راجع على سبيل المثال: ابن الاثير: الكامل في تاريخ ١٥٩/٣.

(٣) المبرد: الكامل في الأدب ١/٢٠٦.

(٤) قول علي عليه السلام «وقد بلغني ان الرجل منهم يدخل على المرأة المسلمة والاخرى المعاهدة...
الخطبة» خطب ٢٧. هو من الصور البشعة التي كان جنود معاوية يمارسونها أثناء غارتهم على اطراف بلاد الإسلام في خلافته.

(٥) يمكن استنتاج ذلك من رسالة رقم ١٧ وهي رد على رسالة من معاوية.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٢٧١

شغلت حيزاً واسعاً من فكر علي عليه السلام، فتكرر ذكرهم في نهج البلاغة ما يقارب من اربع وخمسين مرة في ثمانية وثلاثين نصاً أثرت عن علي عليه السلام ^(١)، مما يعني استيعاب قضيتهم لمساحة واسعة من فكره السياسي، ليس بصفتهم معارضة هدفها اثراء الحوار الفكري والسياسي، ولكن لكونهم خطراً يهدد الإسلام من الداخل، ويحاول تقويض دعائمه الروحية، لذلك فإن من أهم الأسباب التي جعلت علياً عليه السلام يقبل الخلافة، في وقت لم تكن فيه الا مجرد مشكلة سياسية معقدة تجلب المتاعب والمحن لمن يتقلدها، الا خوفه من استحواذ بني أمية عليها مما يتيح لهم تصريف شؤون الدين بحسب أهوائهم ^(٢).

لقد شكل الأمويون خطراً حقيقياً على الإسلام سبب لعلي عليه السلام قلقاً فكرياً، باستخدامهم الأساليب المتتوية للوصول إلى غاياتهم دون مراعاة لأية قيمة دينية، فمعاوية يعقد صفقة بينه وبين عمرو بن العاص حين يجعل مصر - التي لم تكن تحت إمرته - طعمة لعمرو بن العاص طيلة حياته في سبيل استمالاته إلى جانبة ضد علي عليه السلام ^(٣)، ثم أنه يعقد صفقة ثانية مثلها مع خالد بن المعمر ^(٤)

(١) راجع الخطب: ٤٣، ٥١، ٥٥، ٧٤، ٧٦، ٨٢، ٨٥، ٩١، ٩٥، ٩٩، ١٠٣، ١٠٥، ١٣٦، ١٥٦، ١٦٠، ١٦٢، ١٦٤، ١٦٨، ١٧٨، ١٩٨، ٢٣٦، والرسائل: ٦، ٩، ١٠، ١٥، ١٦، ٢٧، ٣١، ٣٢، ٣٦، ٤٣، ٥٣، ٥٧، ٦٣، ٦٩، والحكم: ١٢٠، ٤٦٤، مع ملاحظة أنه تارة يعبر عن ذلك ببني أمية، وتارة أخرى بأهل الشام وثالثة بمعاوية ويقصد من ذلك الأمويين على ما نعتقد.

(٢) راجع قول علي عليه السلام في ذلك عند: البلاذري، أنساب الأشراف: ١٠٣/٢.

(٣) راجع الإمامة والسياسة ٩٧/١.

(٤) خالد بن المعمر الدوسي، كان رئيس بكر بن وائل في عهد عمر، وكان خالد مع علي عليه السلام يوم الجمل وصفين م امرائه، وعلى ما يبدو لم يكن مخلصاً لعلي عليه السلام بدلالة قوله الشاعر لمعاوية (طويل) وقائله مجهول:

معاوي أمر خالد بن معمر
فإنك لولا خالد لم تؤمر

٢٧٢ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

قائد ميمنة علي عليه السلام ورأس من رؤوس ربيعة بصفين يجعل فيها خراسان طعمة له فيما لو تراجع عن مسيرته «وقد شارفوا أخذه»^(١)، كما كان يستخدم أساليب الكذب والتضليل فيما لو أعيته الحيل من استمالة الرجال، من ذلك ما ادعاه من دخول قيس بن سعد بن عباد^(٢) - والي مصر من قبل علي عليه السلام - في طاعته بعد ان يئس من استمالاته، مما أدى بعلي عليه السلام إلى عزله رغم اخلاصه، وذلك بإلحاح من بعض رجاله الذين انطلت عليهم خدعة معاوية وشكوا في نزاهة سعد وصدقة^(٣)، وهو ما كان معاوية يرمي إليه من وراء كذبه تلك، كما أنه استغل المال أبشع استغلال لشراء ضمائر ذوي الأطماع، فقد أخذ في مكاتبة وجوه أهل العراق، كالأشعث بن قيس وغيره، والبذل لهم بسخاء في سبيل تحذيل الناس عن علي عليه السلام، وبلغ به القول عن بذل الأموال في سبيل ذلك «والله لأستميلن بالأموال ثقات علي عليه السلام ولأقسمن فيهم المال حتى تغلب دنياي على آخرته»^(٤). لكن كل تلك الأساليب الملتوية التي اتبعها الأمويون بقيادة معاوية لم تكن لتخفي على علي عليه السلام، ولا على أولي العزم من أصحابه الذين عاشروا الأمويين

وقد أمره معاوية على أرمينية فوصل إلى نصيبين فمات بها - ابن حجر - الإصابة ١ / ٤٦١.

(١) ابن أبي الحديد ٥ / ٢٢٨.

(٢) قيس بن سعد بن عباد الأنصاري الخزرجي من فضلاء الصحابة، وهو من ذوي الرأي والمكيدة في الحرب، مع النجدة والشجاعة، وكان من النبي صلى الله عليه وسلم بمنزلة صاحب الشرطة من الأمير، مما يلي من أموره، صحب علياً عليه السلام لما بويغ له بالخلافة، واستعمله على مصر، فكأيد معاوية فلم يظفر منه بشيء، فكأيد علياً عليه السلام وأظهر أن قيساً قد صار معه يطلب بدم عثمان، فبلغ الخبر علياً عليه السلام، فلم يزل به محمد بن أبي بكر وغيره حتى عزله، صار مع الحسن بعد مقتل علي عليه السلام توفي سنة تسع وخمسين - أسد الغابة ٤ / ٤٢٤.

(٣) راجع البلاذري - أنساب الأشراف ٢ / ٢٨٨، ابن الأثير الكامل في التاريخ ٣ / ١٣٨.

(٤) ابن مزاحم - صفين ص ٣١٩ وص ٤٣٦.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٢٧٣

وخبروا نواياهم، فكان قول عمار بن ياسر «والله ما طلبتهم بدمه - أي دم عثمان - ولكن القوم ذاقوا الدنيا فاستحبوها واستمروها وعلموا ان الحق ان لهم حال بينهم وبين ما يتمرغون فيه من دنياهم»^(١) انعكاساً لفكر علي عليه السلام تجاه الأمويين، بحيث اعتبرهم فتنة لا بد من استئصالها من جذورها، أو على الأقل تبصير المسلمين بمدى خطورتها لأنها «فتنة عمياء، مظلمة عمت خطتها، وخصت بليتها وأصاب البلاء من أبصر فيها وأخطأ البلاء من عمي عنها»^(٢).

لقد بذل الأمويون كل ما في وسعهم من جهد لزعزعة علي عليه السلام عن موقفه الفكري تجاههم، فلم يتمكنوا من تغيير سياسته تجاههم، قيد أنملة، فاستمرت مقاومته، لا تجاههم المادي بكل ضراوة سواء أكان ذلك باللسان أم بالسيف، فلما احسوا بعدم قدرتهم على مقاومته وان نهايتهم قد قربت في صفيين، لجأوا إلى حيلة رفع المصاحف^(٣)، كورقة يدرأون بها الهلاك عن أنفسهم، مما فتح لعلي عليه السلام جبهة معارضة ثالثة، تولدت هذه المرة من بين أصحابه الذين حارب بهم أصحاب الجمل، والأمويين في صفيين، فاضطر غير راغب إلى مواجهة تلك المعارضة التي أطلق على رجالها: لقب المارقين.

ثالثاً: المارقون، أي الخوارج:

المروق هو الخروج من غير مدخله، والمارقة «الذين مرقوا من الدين لغلوهم

(١) السابق.

(٢) خطب - ٩٢

(٣) راجع ذلك مفصلاً عند نصر بن مزاحم - صفيين ص ٤٧٨ وما بعدها وتاريخ الطبري ٤٨ / ٥ وما

بعدها، وكامل ابن الأثير ٣ / ١٦٠.

فيه»^(١)، ولقد أطلق لقب المارقين على الخوارج لغلوهم في الدين، وتكفيرهم كل من يخالف عقيدتهم^(٢) وسموا أيضاً بالمحكمة الأولى لرفضهم صحيفة التحكيم^(٣) بعد أن أجبروا علياً عليه السلام على قبول عرض أهل الشام بتحكيم القرآن، إثر رفعهم المصاحف حين أوشكت أن تحل الهزيمة بهم، وأدركوا أن لا مفر من القيام بعمل يفت من عزيمة أصحاب علي عليه السلام، ويجول بينهم وبين النصر المحقق.

١- موقف علي عليه السلام من قضية رفع المصاحف:

قد يقال إن قضية رفع المصاحف في صفين، هي من وحي ساعة الهزيمة كما تذكر معظم المصادر التاريخية^(٤)، ولكن المرجح غير ذلك، لأن المفروض في أية قيادة عسكرية قبل عزمها على مواجهة عدوها أن تضع في حسابها احتمالي النصر والهزيمة، وتضع لكلا الاحتمالين خطته المناسبة. لذلك - فمن المعتقد - ان قضية رفع المصاحف كانت محسوبة تماماً، ومخطط لها من قبل، باتفاق قد يكون مجرد فكرة في البداية، ولكن استطالة أمد الحرب، جعل ذلك الاتفاق شبه مؤكد بالنسبة لمعاوية، والمخزليين في جيش علي عليه السلام، خاصة أن المصادر التاريخية تطلعنا

(١) لسان العرب المحيط ٣/ ٤٧٢.

(٢) راجع عقائد الخوارج عند الأشعري، مقالات الإسلاميين ص ٨٦ وما بعدها.

(٣) راجع: الشهرستاني: الملل والنحل ١/ ١١٥.

(٤) راجع ذلك عند: البلاذري: انساب الأشراف ٢/ ٣٢٣، الدينوري: أخبار الطوال ص ١٨٨

اليافعي: مرآة الجنان ١/ ١٣٨، أما ابن مزاحم - صفين، ص ٤٧٧ فيرى ان قضية رفع المصاحف

قد أعد لها من قبل.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٢٧٥

على جوانب كثيرة من الحوار المتبادل بين طرفي النزاع فجاء أثناء فترات الهدنة^(١).
ثم أن فكرة تحكيم القرآن - في حد ذاتها - ليست جديدة أو مفاجئة بالنسبة
لكلا طرفي النزاع، فلقد سبق ان عرضها علي عليه السلام على أصحاب الجمل، ولكن قبل
نشوب المعركة كحل يتفادى به احتكام المسلمين إلى السيف^(٢)، وليس عرضه
على معاوية الدخول فيما دخل فيه الناس، ثم محاكمة قتلة عثمان بالقرآن^(٣)، إلا
من قبيل حقن الدماء، لذلك فليس من المستبعد ان يعلم أهل الشام بما فعله
علي عليه السلام «من رفع المصاحف لأهل الجمل ففعلوا مثله»^(٤).

فالمفاجأة لا تكمن في رفع المصاحف، ولكنها تكمن في توقيت رفعها، وهو
مما أوقع كثيراً من فرق الجيش المنتصر في الإرتباك والحيرة، ثم توقفها عن مقاتلة
من لجأوا إلى القرآن حكماً. وهنا في هذا الموقف الدقيق والمحير تتجلى رباطة
جأش علي عليه السلام وبعض أصحابه المخلصين، بإصرارهم على مواصلة القتال حتى
النهاية، لا لأنهم لا يريدون النزول إلى حكم القرآن، ولكن مواصلة القتال
كما يقول «ليدينوا بحكم القرآن، فإنهم عصوا الله فيما أمرهم، ونقضوا عهده،
ونبذوا كتابه»^(٥)، إلا أن استطالة امد الحرب، وما أحدثته المفاجأة من تشتت
فكري، حال بين علي عليه السلام وبين اقناع أولئك المتمردين بالمضي في الحرب حتى

(١) راجع على سبيل المثال: الرسائل المتبادلتين بين علي عليه السلام ومعاوية في صفين - شرح ابن أبي الحديد
٢٥٠/١٧، بشأن تداخل طرفي النزاع وتسامح بعضهما عن بعض راجع: صفين - ص ٣٣٢،
٣٣٤، ٣٣٥، ٣٦٦، ٣٦٨، ٣٨٥.

(٢) راجع ذلك عند الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٥١١/٤، ابن أعمش الكوفي: الفتوح ٤٧٧/٢.

(٣) راجع قول علي عليه السلام لمعاوية بشأن ذلك: رسائل ٦٤، فقرة ٥.

(٤) أنساب الأشراف ٣٢٣/٢.

(٥) ابن مزاحم - صفين، ص ٤٨٩ - ٤٩٠.

نهايتها، في مقابل إصراره «جاءه زهاء عشرين ألفاً مقنعين في الحديد شاكبي السلاح سيوفهم على عواتقهم... فنادوه باسمه، لا بإمرة المؤمنين: يا علي عليه السلام أجب القوم إلى كتاب الله إذا دعيت إليه، والا قتلناك»^(١). مع ملاحظة أن ذلك الحماس الجامح لم يكن عن اقتناع إيماني، وإنما هو وليد عاطفة آنية، ناجمة عن نظرة سطحية في مجريات الحوادث.

فمحاربتهم لمعاوية ومن ناصره من أهل الشام، قد كانت نابعة من اعتقاد ديني هدفه ارجاعهم عن ضلالهم، وها هم قد تابوا إلى رشدهم، واستجابوا لما يراد منهم لذلك فمن الملزم الاستجابة لطلبهم بالنزول إلى حكم القرآن في قضية الحاكم المقتول (عثمان). وقد حاول علي عليه السلام جاهداً ثنيهم عن عزمهم، وحثهم على مواصلة القتال بتبصيرهم بحقيقة الأمويين من خلال مرارة تجربته معهم، فهم من وجهة نظره «ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن... والله ما رفعوها - أي المصاحف - إنهم يعرفونها ويعلمون بها، ولكنها الخديعة والوهن والمكيدة»^(٢)، فما اقدموا عليه بعد شعورهم بالهزيمة، كما يقول علي عليه السلام «ظاهرة إيمان وباطنه عدوان، وأوله رحمة وآخره ندامة»^(٣) لذلك فمن واجب أهل العراق، المضي فيما هم عليه من جهاد العدو حتى النهاية «دون الالتفات إلى ناعق نعق، ان أجيب أضل وان ترك ذل»، لكن جهوده في إقناعهم لم تفلح فأوقفهم تقديرهم المرتجل في شرك الخديعة التي حذرهم علي عليه السلام منها، والتي يمثل توقيت رفع المصاحف الجانب الأول منها، تلاه

(١) السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) خطب - ١٢١، فقرة ٢.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٢٧٧
اختيار من يمثل الطرفين في الحكم بالقرآن، في القضية المختلف فيها.

٢- اختيار الحكمين وموقف علي عليه السلام من ذلك:

بعد أن أجبر علي عليه السلام على وقف القتال، تبرع الأشعث بن قيس (١) بالوساطة بين علي عليه السلام ومعاوية، فاتفق هو ومعاوية على اختيار حكمين (٢)، مهمتهما فض نزاع الطرفين حسب شروط يتفق عليها. وقد حزم معاوية أمره على أن يكون عمرو بن العاص ممثلاً له في ذلك التحكيم (٣)، وتلافاً من وقوعه فيما لا يحمد عقباه من نتائج حاول ان يسد الباب في وجه علي عليه السلام، ويحول بينه وبين اختيار من يرتضيه حكماً، فاقترح على الأشعث، بطريق غير مباشرة، أبا موسى الأشعري (٤) ليقوم بمهمة تمثيل أهل العراق في التحكيم، وذلك بعد ان أجال فكره في رجال علي عليه السلام، قال للأشعث، على

(١) الأشعث بن قيس واسمه معدي كرب بن قيس، أسلم في السنة العاشرة من الهجرة، كان ممن ارتد بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فسير أبو بكر الجنود إلى اليمن، فأخذوا الأشعث أسيراً، فأحضر بين يديه فقال له: استبني لحربك وزوجني أختك، فأطلقه أبو بكر وزوجه أخته... توفي بعد علي عليه السلام بأربعين ليلة سنة اربعين من الهجرة - أسد الغابة ١/ ١١٨. قال الطبري في التاريخ ٣/ ٣٣٨: كان الأشعث «يلعنه المسلمون، ويلعنه سبايا قومه، وسماه نساء قومه: عرف النار - كلام يمان يسمون به الغادر»، وقال عنه ابن أبي الحديد ١/ ٢٩٧ «كان الأشعث من المنافقين في خلافة علي عليه السلام وهو في أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام كما كان عبد الله بن سلول في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كل واحد منهما رأس النفاق في زمانه».

(٢) راجع صفيين ص ٤٩٨، ٤٩٩.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) المصدر السابق نفسه.

سبيل الاقتراح المتضمن النصح «إن الناس قد ملوا هذه الحرب، ولم يرضوا إلا رجلاً له تقية، وكل هؤلاء لا تقية لهم - يعني رجال علي عليه السلام المخلصين - ولكن انظروا اين انتم من أصحاب رسول الله ﷺ، تأمنه أهل الشام، وترضى به أهل العراق، فقال عتبة: ذلك أبو موسى الأشعري»^(١)، فوجد الاقتراح قبولاً عند الأشعث، فكان معاوية ما أراد. فعلي عليه السلام على الرغم من انحراف أبي موسى الأشعري عن علي عليه السلام إلا ان الأشعث وبقيهه اليمانية^(٢) في جيشه، بالإضافة إلى القراء، قد ألزموه على قبوله رغم محاولاته المستميتة في رفضه، وتنبيه أولئك المتمردين بمغربة اختيارهم، عليهم يتركون له مجال ترشيح من يراه أهلاً لمواجهة دهاء عمرو بن العاص. لكن إرادته لم تفلح للمرة الثانية، فاستقر رأي الفريقين على الحكمين برضا معاوية، وسخط علي عليه السلام، ولم يبق إلا الاتفاق على شروط التحكيم وكتابتها.

٣- شروط التحكيم وما تنطوي عليه من أبعاد:

لقد تم بين قيادة العراق المتمثلة في الخلافة الشرعية وبين قيادة الشام المتمثلة

(١) ابن قتيبة - الإمامة والسياسة ١/ ١٢٩. أما عتبة الذي ذكر أبو موسى الأشعري تعقباً على حديث معاوية، فهو عتبة بن بي سفيان (ت ٤٤هـ) أخو معاوية - ترجمته في أسد الغابة ٣/ ٥٦٠، أما الاقتراح بترشيح أبي موسى الأشعري بالذات فلأنه منحرف عن علي عليه السلام، ثم انه ضعيف الشخصية بإزاء دهاء عمرو بن العاص. راجع بذلك الشأن ما قاله علي عليه السلام عنه في صفين ص ٤٩٩ وما أورده - ابن عبد البر عن انحراف الأشعري عن علي عليه السلام في: الاستيعاب بهامش الإصابة ٢/ ٣٧٢ وعن الخلل في شخصية أبي موسى الأشعري. راجع وصية معاوية لعمر بن العاص حين توجه إلى مكان التحكيم عند: ابن عبد ربه - العقد الفريد - ٤/ ٣٤٧.

(٢) إصرار اليمانية على أبي موسى الأشعري لأنه ياني - راجع صفين ص ٥٠٠.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٢٧٩

في الإمارة المتمردة، على صيغة التحكيم وشروطه التي من أهمها: رضا أهل العراق واهل الشام النزول «عند حكم القرآن، والوقوف عند أمره، وأن لا يجمع (بينهم) الا ذلك (وأَنهم) جعلوا كتاب الله فيما بينهم حكماً فيما (اختلفوا) فيه من فاتحته إلى خاتمته»^(١).

فالإختلاف الأساسي بين الطرفين هو مطالبة معاوية الاقتصاص من قتلة عثمان ليس غير، والقضية محسومة سلفاً من وجهة نظر علي عليه السلام، الذي لا يرى في مطالبة معاوية تلك أي مبرر للخروج على الخلافة الشرعية. وهذا ما جعل الحقيقة تتكشف لأولئك الذين اغتروا برفع المصاحف من أصحاب علي عليه السلام، فثابوا إلى رشدهم، ولكن بعد أن تم توقيع الصحيفة، مما لا يمكن معه نقضها إطلاقاً - على الأقل من وجهة نظر علي عليه السلام - لما تتضمنه من التزام خلقي فحواه المحافظة على العهد والتمسك بالمواثيق.

فلقد عاد أولئك الذين أرغموا عليها عليه السلام على ايقاف الحرب، يطالبونه باستئنافها مقرين بخطئهم، وبمشاركته الذنب معهم حين استجاب لهم، متأولين بذلك الاقرار بالذنب والتوبة عما بدر منهم^(٢)، لكن علياً عليه السلام لم يقبل عذرهم، ولا طلبهم باستئناف القتال - لا لأنه لا يرغب في مواصلتها - ولكنه ملتزم بعهد لا يمكنه نقضه، لأن في ذلك نقضاً لقوله تعالى:

﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾^(٣) مما يخالف منهجه الإسلامي.

(١) صفين ص ٤٩٩ وما بعدها.

(٢) راجع السابق ص ٥١٣ وما بعدها.

(٣) الإسراء / ٣٤.

خلاف علي عليه السلام مع الخوارج وما ولده من جدل:

إن المواجهة بين علي عليه السلام والخوارج تكمن في اختلاف وجهتي نظرهما من نواحٍ عدة فكرية تضمنتها صحيفة التحكيم بعد إقرارها، ويمكن تبيان ذلك الخلاف من خلال نقاط ثلاث هي:

١- مفهوم تحكيم القرآن كما نصت عليه الصحيفة: فقد تأول الخوارج ما جاء في صحيفة التحكيم بشأن رجوع الحكمين إلى القرآن فيما اختلف طرفا النزاع فيه، على أنه تناول على القرآن بقبول علي عليه السلام تحكيم الرجال فيه والوصاية عليه^(١). وهو تأويل ينم عن قصور في نظرهم الفكرية تجاه استنباط الأحكام من القرآن الكريم. وقد حاول علي عليه السلام ان يبينهم لذلك بقوله «أنا لم نحكم الرجال، وإنما حكمنا القرآن، وهذا القرآن هو خط مستور بين الدفتين، ولا ينطق بلسان، ولا بد له من ترجمان، وإنما ينطق عنه الرجال... وقد قال الله سبحانه:

﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾، ورده إلى الرسول ﷺ ان نأخذ بسنته»^(٢).

فصحيفة التحكيم لم توكل للحكمين الوصاية على كتاب الله، بل جعلتها ناطقين فيما اختلف الفريقان عليه، مما يعني الخطأ في فهمهم لمقولة «لا حكم الا الله» لأن الله سبحانه قد امضى حكم المخلوقين في كثير من الشرائع باستنباط الأحكام مما نص القرآن عليه.

(١) راجع بذلك الشأن الدينوري: الأخبار الطوال ص ١٩٦، ١٩٧.

(٢) خطب ١٢٥. والاية من سورة النساء/ ٥٩

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٢٨١

٢- إسقاط علي عليه السلام حقه في الخلافة بتخليه عن لقب أمير المؤمنين في الصحيفة: ويرى علي عليه السلام ان موافقته على محو اللقب من تلك الوثيقة لا يغير من واقع كونه الخليفة الشرعي وهو بعملة ذلك انما أخذ بسابقة حدثت للرسول صلى الله عليه وسلم من قبل، فقد وافق عليه السلام من محو لقب (رسول الله صلى الله عليه وسلم) من صحيفة صلح الحديبية، نزولاً عند رغبة الكفار، مما يعني ضمنا اعتبار علي عليه السلام بني أمية في عداد المنافقين الذين اظهروا الإسلام واسروا الكفر، مثلهم مثل الكفار الذين كتب الرسول صلى الله عليه وسلم معهم صحيفة صلح الحديبية^(١).

٣- موافقة علي عليه السلام على شرط الهدنة التي نصت الصحيفة عليها:

فقد نعي الخوارج على علي عليه السلام التزامه بفترة الهدنة التي نصت الصحيفة عليها - مما يعني من وجهة نظرهم - تساهله في طلب الحق، وقد بين لهم، أن سبب قبوله فترة الهدنة تلك، لا يعني تراخيه وفتوره عن مطالبة الحق، لكنه يعني افساح المجال للطرف المقابل في التفكير «لئيبين الجاهل ويثبت العالم، ولعل الله أن يصلح في هذه الهدنة أمر هذه الأمة، ولا تؤخذ بأكظامها فتعجل عن تبين الحق»^(٢).

ولكن إسقاط الحكمين رغبتها الذاتية في فحوى التحكيم، بعد فترة الهدنة أدى إلى توسيع هوة الخلاف بابتعادها عن مناقشة جوهر الخلاف الكامن فيما نصت عليه

(١) راجع محو النبي صلى الله عليه وسلم اسمه من صحيفة الحديبية، نزولا عند رغبة قريش وقوله لعلي (لتبتلين بمثلها). ابن الأثير الكامل في التاريخ ١٣٨/٢، ثم راجع موقف علي عليه السلام من كتابة وثيقة التحكيم، والجدل الذي دار بينه وبين عمرو بن العاص حين وافق على محو امرة المؤمنين من اسمه. صفين ٥٠٨، الأخبار الطوال ص ١٩٤، شرح ابن أبي الحديد ٥٣٢/٢.

(٢) (٢) خطب ١٢٥. والأكظام جمع كظم: مخرج النفس: والاخذ بالأكظام: المضايقة.

الوثيقة من شرط فحواه، جعل القرآن حكماً في ما اختلف الطرفان فيه. فكلا الحكيمين قد جاء إلى مكان التحكيم حاملاً خلفيات مسبقة، لا تمت لقضية الخلاف بصلة. فوثيقة التحكيم لم تنص اطلاقاً على مناقشة تغيير الخليفة، أو استحقاق الخلافة، ثم انها لا تحول الحكيمين حق التثبيت والخلع، فأهل الشام كانوا قد بايعونا معاوية على الأخذ بالثأر من قتلة عثمان^(١)، وكان ذلك مطلبهم حتى اليوم الذي توقف القتال فيه، مما يعني أن الخلاف الذي يجب أن يعرضه الحكمان على كتاب الله هو الحكم في (مقتل عثمان)، اما رغبة أبي موسى الأشعري في احياء سيرة عمر بن الخطاب^(٢)، ورغبة عمرو بن العاص في تثبيت معاوية حاكماً^(٣)، فذلك - من وجهة نظر علي عليه السلام - خروج عن روح الصحيفة، ونبذ لكتاب الله بتحكيم الرغبات والأهواء^(٤) لذلك فليس ثمة خدعة فيما صدر عن الحكيمين من حكم، فقد تكون الخديعة في توقيت ايقاف الحرب المفاجئ، وفي ترشيح أبي موسى الأشعري ممثلاً عن أهل العراق، وقد حاول علي عليه السلام تلافي كل ذلك في ابانه، الا ان نتيجة التحكيم لم تكن مفاجئة بالنسبة لعلي عليه السلام ولأصحابه المخلصين لعلمهم بدخيلة كلا الحكيمين.

لقد أحدثت نتيجة التحكيم شرخاً عميقاً في صفوف رجال علي عليه السلام، إلا انها لم تغير من موقفه الصلب تجاه معاوية في معاودة الكرة لإزالته ومن شايعه من القرشيين، لذلك فقد بذل كل ما في وسعه من جهد لإقناع الخوارج بالعودة إلى الجماعة، محاولاً توضيح ما وقعوا فيه من لبس بخلطهم بين مفهومي الحكومة والتحكيم. وجره ذلك إلى الدخول معهم في صراع فكري ثري وعميق، اتخذ

(١) راجع ابن مزاحم - صفين ص ٣٢، ٥٤١ وما بعدها.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) راجع خطب ١٢٥.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٢٨٣

مسارب متعددة يمكننا من خلالها استكناه فكره في محاربه لأهل الملة^(١)، وحقيقة الكفر والايان ومعنى التوبة^(٢). ويبدو أن تلك المناظرات الفكرية قد بلغت من الاتساع الحد الذي ادى بالخوارج إلى اللجوء إلى تأويل آيات القرآن الكريم بما يتناسب وميولهم الفكرية، مما حد بعلي عليه السلام إلى أن يوصي ابن عباس أثناء مناظرته مع الخوارج أن يعتمد على السنة دون القرآن بقوله «لا تخصمهم بالقرآن، فإن القرآن حمال، ذو وجوه، تقول ويقولون...، ولكن حاججهم بالسنة، فإنهم لن يجدوا منها محيصاً»^(٣)، وكاد ذلك الجدل أن يؤتى ثماره، حين عاد الخارجون عن الجماعة إلى صفوف أصحاب علي عليه السلام بعد ان اقنعهم بالاستغفار والتوبة^(٤).

موقف الأشعث بن قيس من عودة الخوارج:

لم تكن عودة الخوارج وانتظام أمر الإمام علي عليه السلام في صالح الأشعث ومن

(١) راجع المناظرات التي دارت بين الخوارج وعلي عليه السلام عند: السكوني: عيون المناظرات ص ١٦٩، ١٨٠، ١٨١.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) رسائل-٧٧.

(٤) يقول ابن أبي الحديد ٢/ ٢٨٠: حاول علي عليه السلام أن يسلك مع الخوارج مسلك التعريض والمواربة من ذلك أنهم قالوا له: تب إلى الله مما فعلت، كما تبنا ننهض معك إلى حرب أهل الشام فقال لهم كلمة مجملية مرسله، يقولها الأنبياء والمعصومون وهي قوله: استغفر الله من كل ذنب، فلم يتركه الأشعث، وجاء إليه مستفسراً وكاشفاً، وهاتكأ ستر التورية... ولم يستفسره عنها الا بحضور من لا يمكنه أن يجعلها معه هدنة على دخن... والجأه بتضييق الخناق عليه، أن يكشف ما في نفسه، فانتقض ما دبره وعادت الخوارج إلى شبهتها الأولى.

شايعة من أصحاب المصالح الخاصة الذين يعملون لمعاوية في الخفاء. لذلك فما ان سمع الأشعث نبأ عودتهم حتى أخذ يلح على علي عليه السلام، كي يجعله يفصح عن موقفه الذي حاول تعميته سياسة منه لاستمالة الخوارج، مما جعله في نهاية المطاف يصرح بما أضمّره^(١)، ويعترف بتمسكه بكل شروط وثيقة التحكيم، وانه لن يعدل عنها، ولن يعاود محاربة معاوية، إلا بعد انقضاء الهدنة وظهور نتيجة التحكيم، فكان لذلك العمل المتعمد من الأشعث أثره في انسلاخ الخوارج عن جماعة الإمام علي عليه السلام مرة ثانية، فاستجد الجدل بينه وبينهم، وتمكن من اقناع الكثير منهم^(٢) ولكن بقي عدد منهم لا يستهان به على موقفهم المتصلب من سياسته، مما حتم المواجهة الدامية معهم.

المواجهة الدامية وأسبابها:

لما يئس الإمام علي عليه السلام من اقناع البقية الباقية من الخوارج، تركهم وما هم عليه، متجنباً الدخول معهم أية حرب، فأجرى لهم الأرزاق مثلهم مثل غيرهم من المسلمين الداخلين في طاعته، شريطة ألا يثيروا أي مشاكل^(٣)، وكان غرضه تحييدهم، حتى يتسنى له التفرغ إلى معاوية مصدر الخطر الرئيسي على دولة الإسلام. لكن اصرارهم على المكابرة وتماديهم في العصيان والتأليب،

(١) انظر الهامش السابق.

(٢) بشأن جدل علي عليه السلام مع الخوارج الذي على أثره اقتنع بعضهم بالعودة إلى صفوفه راجع: ابن أعمش الكوفي: الفتوح ٢/٢٥١، ٢٥٢.

(٣) بشأن إجراء أرزاق الخوارج، راجع قول علي عليه السلام عند البلاذري أنساب الأشراف ٢/٣٥٩. وجاء عند المبرد: الكامل ٣/١١ قول علي عليه السلام بشأن الخوارج «لا أقاتلهم حتى يقاتلوني»

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٢٨٥

ومقاطعته أثناء صلواته^(١)، ووصمهم إياه بالكفر في ملأ المسلمين^(٢)، جعله ينذرهم مصوراً ما سيؤولون إليه، إن هم لم يرتدعوا^(٣)، لكنه في النهاية لم يجد بداً من الدخول معهم في معركة كادت تستأصلهم^(٤)، بعد أن أحدثوا أحداثاً تأولوها لا يمكن السكوت عنها.^(٥)

موقف علي عليه السلام من الخوارج بعد فراغه من محابتهم:

إن محاربة علي عليه السلام الخوارج وانتصاره عليهم، لم يسلبهم حقوقهم الشرعية في الوقت الذي كان يحض فيه على مقاومة الأمويين، فقله «لا تقاتلوا الخوارج بعدي، فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدرکه»^(٦)، هو من قبيل المقارنة بين موقفه من الخوارج اللذين «لم يطلبوا الباطل بكونه باطلاً، بل طلبوا الحق بالذات، فوقعوا بالباطل، ومن لم يكن غرضه الا الحق لم يجز قتله»^(٧)، وبين معاوية المشار إليه في المقولة (بمن طلب الباطل فأدرکه).

(١) حول مقاطعته في صلواته راجع ابن أبي الحديد ٢/٢٦٨ و٣١١، أما بشأن اتهامه بالكفر، فراجع استنكاره عليهم ذلك في خطب ٥٧، وتعقيب الخارجي على حديث علي عليه السلام في حكم ٤٢٨. وبشأن تحذيره لهم راجع خطب ٣٦.

(٢) انظر الهامش السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) كان ذلك في معركة النهروان سنة سبع وثلاثين هجرية. راجع تاريخ الطبري ٥/ ٨٤ وما بعدها.

(٥) راجع مثلاً تأولهم قتل عبد الله بن خباب، وقتلهم الخنزير: أنساب الأشراف ٢/ ٣٦٧ وما بعدها.

(٦) خطب ٦٠.

(٧) ميثم البحراني: شرح النهج ٢/ ١٥٥.

موقف الإمام علي عليه السلام من مناوئيه عامة:

اتخذت سياسة علي عليه السلام من مناوئيه موقفين مختلفين، فقد اعتبر محاربه لأصحاب الجمل ولأهل الشام من الفئة القرشية من قبيل ازاحة الباطل واحقاق الحق بالعودة بتعاليم الإسلام إلى أصلتها التي كانت على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

أما محاربه لمناوئيه من الخوارج، فلقد كانت من أجل تطهير صفوفه وتوحيد جبهته الداخلية للتفرغ للعودة لأهل الشام. وهو ان استطاع ان يحسم قضيته مع الخوارج جزئياً، الا انه لم يتمكن من الوصول إلى غايته من مواجهته لقريش، التي كانت إرادتها ان تكون جبهة واحدة تتصدى لكل من يعرض مصالحها الذاتية للخطر كائناً من كان.

رابعاً إرادة قريش ^(١) كما تبدو في فكر علي عليه السلام:

على الرغم من صعوبة الحياة، وجفاف الأرض وقلة المطر في ارض

(١) قريش: قبلية عربية عظيمة تتكون من تحالف عدة بطون يتنمون لأب واحد - على ما ذهب إليه جمهور النسايين - اما ما قيل في تسميتهم بقريش يمكن الرجوع إليه في المظان الاصلية وتنقسم القبيلة إلى قسمين عظيمين: قريش البطاح وهم الذين ينزلون الشعب بين اخشيبي مكة، وقريش الظواهر وهم الذين ينزلون خارج الشعب. ويرجع الفضل في اعزاز جانب قريش إلى قصي بن كلاب، فهو الذي جمعهم من متفرقات مواطنهم من شبة جزيرة العرب، واستعان بمن اطاعه من احياء العرب على حرب خزاعة التي كانت تهيمن على البيت العتيق، فطردهم عنه وتولاه وتراس على قومه بعد دماء غزيرة بينهم وبين خزاعة التي اقرت لهم بالسيادة على مكة في نهاية الأمر. ولما كانت قريش سكان الحرم وحامته، ولم يكن لهم زرع ولا ضرع فقد كانوا يميرون في الشتاء والصيف آمنين والناس يتخطفون من حولهم، فلا يتعرض الناس لهم، وبذلك اشتهرت قريش بالتجارة، حتى قيل أنها سميت بقريش اشتقاقاً من القرش أي الاكتساب، وقد اكتسبت قريش مكائنها بين العرب في الجاهلية لكونها محط البيت مجمع أهلتهم ومحط أسواقهم التجارية والأدبية، ثم انها اكتسبت مكائنها في الإسلام لكونها القبيلة التي ولد النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيها - راجع: القرطبي: الجامع لإحكام القرآن ٢٠/٢٠٢ وما بعدها، الفلقشندي: نهاية الأدب في معرفة انساب العرب ص ٣٦٤ وما بعدها، عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب ٣/٩٤٧ وما بعدها.

الحجاز فلقد تمكن القرشيون من تكوين مجتمع مستقر حول بيت الله الذي كانت العرب تؤمه من كل حذب وصوب وبفضل ذلك الاستقرار وقدسية الأرض تبوأ الحجاز مكانة استراتيجية هامة، إذ أصبحت همزة وصل لأهم طرق التجارة الصحراوية بين الشام واليمن والحبشة وفارس، فانتعشت الحياة في مكة، فقد افادها الاستقرار في نمو تجارتها الخاصة المعتمدة على أسواقها الموسمية^(١) التي يحضرها العرب لشراء ما يحتاجونه ومقايضة سلعهم بسلع اخرى، بالإضافة إلى عرضهم على قريش ما جادت به قرائحهم من أشعار، والتحاكم إليها وإلى قبائل العرب الأخرى بشأنها^(٢). ولأهمية التجارة في حياة قريش، فقد عقدت اتفاقيات سلام مع كل الممالك والامبراطوريات المجاورة، «فكان هاشم يؤلف ملك الروم، أي يأخذ منه حبلاً وعهداً يأمن به تجارته إلى الشام، واخوه عبد شمس كان يؤلف إلى الحبشة، والمطلب إلى اليمن ونوفل إلى فارس»^(٣) فتدقعت بسبب ذلك الثروات على الحجاز مما جعل قريشاً في بحبوحة من العيش والرخاء، فتولد عن ذلك التفاوت في طبقات المجتمع، فانقسم «في القرن السادس للمسيح إلى ثلاث فئات: الأولى قريش ولها كل الحقوق، والثانية حلفاء قريش وهم اناس من العرب، والثالثة العبيد الذين لا يملكون شيئاً حتى أنفسهم»^(٤) وعادة ما يؤدي مثل ذلك الانتعاش الاقتصادي إلى الميل إلى الاستقرار والدعة وتجنب التغيير، كما ان الميل إلى

(١) حول تعامل قريش واسواقها، راجع: كحالة: معجم قبائل العرب ٣/ ٩٤٩.

(٢) من ذلك قول ابن قتيبة: الشعر والشعراء ١/ ١٠١ «كان النابغة يضرب له قبة حمراء من آدم بسوق عكاظ، فتاته الشعراء فتعرض عليه اشعارها».

(٣) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ٢٠٤.

(٤) مغنية: التفسير الكاشف ٧/ ٦١٢.

المادة والتمرس بأعمال التجارة يتعارض والتقلبات الاجتماعية. لذلك رفض القرشيون الإسلام رفضاً قاطعاً، وقاوموه بضراوة، وتتبعوا مؤيديه والمؤمنين به بالتعذيب والقتل والسجن والتشريد، كل ذلك في سبيل ابقاء المجتمع المكي مستقراً في حياته الرتيبة التي ورثها الأبناء عن الآباء أجيالاً متعاقبة، خاصة ان عقلياتهم التجارية التي تضع المادة نصب العين كانت ترى في الرسالة زعزعة للاستقرار وتغييراً في التركيبة الاجتماعية تفقدتهم مكانتهم التي تبواتها كعقيدة دينية سمحة من أهم مبادئه المساواة بين الناس بمحو التفاضل والتفاخر وازالة التفاوتات الاجتماعية بالاتجاه نحو عبادة إله واحد، هو رب لكل البشر، مما يعني ان رعايتهم لما في الكعبة من اصنام سيزول، وستزول معه وصايتهم على أديان العرب، لذلك وقفت في وجه الإسلام جبهة متحدة، وقاومته بالمال والحرب مقاومة شعواء منذ بزوغ نوره، ولم تسلم بالأمر الواقع إلا بعد أن رأت جيوش الإسلام قد أحاطت بشعاب مكة، فكان دخولها الإسلام رهبة لا رغبة، فخدمت العصبية القرشية وبقيت جذوتها في النفوس متقدة نقمة على الهاشميين، وبالأخص النبي صلى الله عليه وآله وآل بيته عليهم السلام متحينة الفرصة ولو بعد حين.

لقد خسرت قريش كثيراً في مواجهتها المباشرة للنبي صلى الله عليه وآله، ففقدت كثيراً من أبطالها، ومن ثم مكانتها كمركز استقطاب للقبائل العربية، ورضخت في نهاية الأمر مرغمة لإدارة الله فأكسبتها تلك الحوادث الأليمة تجارب قيمة، فلم ترتد عن الإسلام حين ارتدت الكثير من قبائل العرب^(١)، ثم انها دعمت أبا بكر وساندت تثبيت حكمه حين وجدت مصلحتها تقتضي ذلك^(٢)

(١) راجع ابن الاثير: الكامل في التاريخ ٢/ ٢٢٠.

(٢) بشأن موقف قريش من بيعة أبي بكر ومعاضدتها حكمه، راجع ابن قتيبة: الإمامة والسياسة

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٢٨٩

وتعاونت مع عمر بن الخطاب بحذر شديد وفي حدود مصلحتها فلما احست بخطرته على طموحاتها، وتأكد لها أنه سيجعلها اسوة بغيرها^(١) دبرت اغتياله - فيما نعتقد - بيد غربية، وهي بمنأى عن الاتهام^(٢)، ثم تعاونت مع عثمان واطهرت له الود والاخلاص حين سمح لها بما لم يسمح به عمر من الإنسياع في الامصار الإسلامية واقتناء الضياع وامتلاك العبيد، وجمع الثروات، وبناء الدور الفخمة^(٣)، ولكن تفضيله فئة قرشية على أخرى جعله موضع سخط

١١/١ وما بعدها.

(١) جاء عند الطبري في تاريخه ٣٩٧/٤ ان عمر «لم يمت ملته قريش»، وروى يعقوب في تاريخه ١٥٤/٢ قول عمر في اخر سنة من حكمه «ان عشت هذه السنة ساويت بين الناس، فلم افضل أحر على أسود، ولا عربياً على عجمي وصنعت كما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر».

(٢) إن اغتيال عمر بن الخطاب على يد أبي لؤلؤة، ذلك العبد الذي قيل عنه أنه ربما كان مجوسياً أو مسيحياً، وتحت سمع المسلمين وبصرهم في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم لَمِنَ الأمور التي تبعث على الشك، وتطرح كثيراً من التساؤلات، إذ كيف تسنى لذلك العبد ان يقدم على الدخول إلى المسجد دون ان يلفت إليه الانظار، في وقت يقتضي تواجد جل المسلمين فيه، ثم ان الحوار الذي دار بين عمر والعبد لا يشكل دافعاً لقيام العبد بذلك العمل الجريء، اضافة إلى ذلك فإننا نستبعد ان يكون الاغتيال بدافع الشعوبية، لأن القاتل لم يكن في مستوى النضج الفكري بحيث يشكل عنده الدافع القومي هاجساً ينزع به إلى القتل، اصف إلى ذلك ان المصادر التاريخية لم تحدثنا ان القاتل مصاب بلوثة أدت به إلى الإقدام على ذلك، مما جعلنا نعتقد ان قريشاً هي التي دبرت مقتل عمر، فأغرت به ذلك العبد وهيأت له الظروف المناسبة بطريقة محكمة وذكية، لأنها احست بتهديد عمر لمصالحها المادية بالعودة بنظام توزيع الأموال كما كان عليه في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وأبي بكر - بشأن موقف عمر من قريش في آخر حياته - راجع تاريخ الطبري السابق، أما بشأن اغتيال عمر فراجع أحداث السنة الثالثة والعشرين هجرية في جميع المصادر التاريخية.

(٣) بشأن معاملة عثمان اللينة لقريش راجع تاريخ الطبري ٣٩٧/٤.

الفئة المفضولة^(١)، وتربص الفئة المفضلة^(٢) التي لا تهمها سوى امتيازاتها، فاتحدت الفئتان في الاهداف، فكانت النتيجة اغتيال الحاكم الثالث في منأى من اتهم قريش أيضاً. ولكنها أخطأت التقدير حين واجهت علياً عليه السلام في وقعة الجمل، مما جعلها تعود لمراجعة حساباتها ثانية، فتخفى وراء سياج متين من سياسة الخداع، بالالتواء على النص القرآني وتأويله بما يتناسب ومصحتها، فكان لها ما أرادت في صفين، حين استطاعت ان تقف حائلاً دون عودة الصف الإسلامي إلى وحدته في كنف السياسة الدينية المتمثلة في الخلافة.

ان اغتيال عثمان احدث ارباكاً في صفوف القرشيين المتربصين به، فطلحة الذي كان يتهيأ للأمر لم يتمكن من التحرك السريع لاحتواء القضية، وعائشة التي كانت تبارك طموحات طلحة، كانت غائبة عن ساحة الاحداث، هذا بالإضافة إلى الوجوم والهلع الذي حل بالناس أثر ذلك العمل المريع، فلم يعد زمام المبادرة في المرة الرابعة بيد قريش، التي عادة ما توجه السياسة الإسلامية في المدينة حيث تريد، لذلك توجه المسلمون المتواجدون المدينة عن بكرة أبيهم إلى علي عليه السلام لمبايعته، الأمر الذي لم يكن يخطر ببال قريش لأن زعامتها تدرك جيداً انه لو وليهم «لم تخرج من بني هاشم أبداً، وما كانت في غيرهم من قريش»^(٣). وقد ترتضي قريش علياً عليه السلام أو غيره من أفراد بني هاشم خليفة، فيما لو ترك لما ما تريد، الا ان زعامتها لم تنس مقولة عمر بن الخطاب لعلي عليه السلام قبيل وفاته «إنك

(١) راجع ص ٢٣٠ وما بعدها من هذا البحث.

(٢) بشأن موقف معاوية من مقتل عثمان، راجع تاريخ الطبري ٤ / ٣٦٨، وراجع أيضاً رسائل ٣٧.

(٣) تاريخ الطبري ٤ / ٢٣٣.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٢٩١

أحرى القوم أن وليتها أن تقيم على الحق المبين والصراط المستقيم»^(١)، فقريش لا تريد من الحق الا الذي يكون في صالحها. وذلك يتعارض تماما مع مبادئ علي عليه السلام في سياسته للناس، لذا «اجتهدت قريش كلها من مبدأ الأمر في اخماد ذكره وستر فضائله»^(٢).

فقريش عن بكرة ابيها لا تنكر فضل علي عليه السلام وسابقته وشجاعته وتشدده في ذات الله الا انها لا ترضى بتطبيق ذلك عليها. يقول عمرو بن العاص لمعاوية ضمن حوار دار بينهما حول تأمرهما على افشال خلافة علي عليه السلام «أما علي فلا تسوي العرب بينك وبينه في شيء من الاشياء، وأن له في الحرب لحظا ما هو لأحد من قريش، قال معاوية: صدقت، وانما نقاتله على ما في أيدينا، ونلزمه دم عثمان، فقال عمرو: وإن أحق الناس أن لا يذكر عثمان لا أنا ولا أنت، أما أنا فتركته عيانا وهربت إلى فلسطين، أما أنت فخذلته ومعك أهل الشام»^(٣). وفي الجانب الآخر من قريش تألبت على خلافته عائشة ومن ورائها طلحة والزبير وغيرهم من موتوري قريش من ذوي الثراء، لأنه لم يكن ليرخص لهم أن يثروا على حساب عامة المسلمين خاصة بعد أن عرفوا عزمه الأكيد على رده كل ما اقتطعه عثمان لأهله من قطائع وأموال من بيت مال المسلمين^(٤)، لذا «لم يحارب علياً عليه السلام من العرب أحد إلا قريش ما عدا يوم النهروان»^(٥)، وحتى يوم

(١) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة ٢٥ / ١.

(٢) ابن أبي الحديد ١٨ / ٨.

(٣) انساب الاشراف ٢ / ٢٨٧.

(٤) راجع خطبة ١٥.

(٥) ابن أبي الحديد ١٠ / ٢٢١.

النهران وان لم يتقابل فيه علي عليه السلام قريشاً وجهاً لوجه، إلا أن من حاربهم في تلك الموقعة، قد خرجوا عليه بتدبير ومكيدة من قريش في صفين^(١)، فالخوارج نتيجة طبيعية لما دبرته قريش لعلي عليه السلام، فلقد كانت إرادتها ان تبدأ القتال مع علي عليه السلام متى تشاء وبالأسلوب التي تشاء، وتنتهي القتال بالطريقة التي ترتئها في صالحها دون مراعاة لأية قيمة اسلامية، مما أودى بحياة آلاف من المسلمين في صفين^(٢)، كل ذلك في سبيل السلطة والمال.

لقد كانت شكوى علي عليه السلام من تألب قريش عليه وعلى حكومته ممضة ومؤلمة، فهي قد أضمرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم «ضروبا من الشر والغدر»^(٣)، فلما لم تتمكن من إصابته بشر ودخلت الإسلام مرغمة، صبت جام حقدتها على آل بيته عليه السلام في الوقت الذي كانت تتخذ من اسمه صلى الله عليه وسلم «ذريعة إلى الرياسة، وسلاماً إلى العز والإمرة»^(٤)، ولولا حصولهم على تلك الامتيازات لما «عبدوا الله بعد موته يوماً واحداً ولا رتدت في حاضرتها»^(٥). فمباهاة قريش بالإنتماء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وتصريحهم بحبه في الملأ، ما هو - في رأي علي عليه السلام - الا طلاء خارجي ليحققوا الشراء في الوقت الذي يطؤون فيه رقاب آل بيت الله صلى الله عليه وسلم ويحاولون اخماد ذكرهم^(٦).

(١) راجع ص ٢٧٤ وما بعدها من هذا البحث.

(٢) انقضت وقعة صفين عن سبعين ألف قتيل، خمسين ألفاً من أهل الشام، وعشرين ألفاً من أهل العراق - العقد الفريد ٣٤٣.

(٣) ابن أبي الحديد ٢٠/٢٩٨.

(٤) ابن أبي الحديد ٢٠/٢٩٨.

(٥) المصدر السابق نفسه.

(٦) أثر عن علي عليه السلام قوله ضمن المأثورات التي جمعها ابن أبي الحديد ٢٠/٣٠٨ «مالنا ولقريش يخضمون الدنيا باسمنا ويطؤون على رقباننا، فيا لله وللعجب، من اسم جليل لمسمى ذليل».

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٢٩٣

لذلك كان اصرار علي عليه السلام على مواجهتهم والحد من اطماعهم ووضعهم في المنزلة التي أرادها الإسلام لهم، فقريش الامس - من وجهة نظر علي عليه السلام - هي قريش اليوم، لم تتغير الا من حيث المظهر الخارجي، فالحمية الجاهلية مازالت مستكنة في نفوسهم لم يهدبها الإسلام، يقول لأخيه عقيل الذي اخبره بتسلل القرشيين من المدينة إلى معاوية تهافتاً على المادة «قد اجمعوا على حربي كإجماعهم على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلي»^(١)، إذ يفهم من القول السابق أن علياً عليه السلام يرى المبرر قوياً لقتال قريش، غير أنه بما يقال فيهم، وما يدعونه لأنفسهم من قرابة وصحبة، لا تحولهم امتلاك رقاب الناس، فإذا ما أرادوا فرض إرادتهم بالقوة، فإن القوة هي العلاج للحد من غلوائهم، يقول في إحدى خطبه عند خروجه لملاقاة أصحاب الجمل «مالي ولقريش، والله لقد قاتلتهم كافرين، ولأقاتلهم مفتونين»^(٢).

فقتاله لهم هو من أجل «استقامتهم على الدين ورجوعهم إلى الحق، عند الضلال»^(٣). فقريش كما يراه علي عليه السلام تقيس الحق بما يتلاءم ومصالحة ابنائهما، لذلك حالت بينه وبين حقه محاولة اكراهه على النزول عند رغبتها بتصرفها في حقه في الخلافة كما تشاء، كما في قوله «اللهم إني استعديك بك على قريش ومن اعانهم، فانهم قطعوا رحمي، وصغروا عظيم منزلتي، وأجمعوا على منازعتي أمراً هولي، ثم قالوا إن في الحق أن تأخذه وفي الحق أن تتركه»^(٤). ويجدر بنا أن نقف

(١) رسائل - ٣٥.

(٢) خطب - ٣٣.

(٣) شرح ميثم ٢ / ٧٥.

(٤) (٤) خطب ١٧٣، فقرة ٢. ويذكر ابن أبي الحديد بإسناده أن مثل هذه العبارة قد تكررت من علي عليه السلام

عند مفهوم الحق في هذا الموضوع الذي يرمي علي عليه السلام إليه، فابن أبي الحديد يخرج معنى الحق في المقولة على تأويل الأفضلية لأن «جملة الاستحقاق بالنص تكفير أو نفسيق لوجوه المهاجرين والأنصار»^(١). لكن الذي نفهمه نحن من القول بأن في السياق بعني الخصوصية التي لا يمكن تأويلها على أساس الأفضلية لأنه لو كان يقصد الأفضلية لذاتها لقال: أنا أفضلهم أو أنا أقربهم، أو أنا حقهم بالأفضلية مما يعني ان الحق مطلقاً دون الإضافة - كما نفهمه - يعني الاختصاص بالأمرة دون غيره بدلالة قوله في السياق «أجمعوا منازعتي أمراً هو لي» لما فيه من تأكيد الاحقية التي لا تحتاج إلى تأويل، فالقضية هنا لا يمكن اجراؤها كما يرى ابن أبي الحديد «مجرى الآيات المتشابهات التي لا يعمل بها ابداً»^(٢)، لأن «المتشابه من القرآن: ان أشكل تفسيره لمشابهته بغيره، اما من حيث اللفظ أو من حيث المعنى»^(٣)، ومقولة علي عليه السلام واضحة وجلية من ناحيتي الألفاظ والمعاني، خاصة ان علياً عليه السلام قد اتبع مقولته لمفهوم الحق عند قريش بالتصرف فيه «كما تشاء، بالأخذ والترك... وهذه شكاية ظاهرة لا تأويل فيها»^(٤). إلا ان علياً عليه السلام - كما يبدو في النهج - لم يكن يحمل لقريش أية ضغينة أو حقد لأن أخلاقه الإسلامية تسمو بروحه العالية عن ذلك، وهو الداعي إلى الحب بتؤدة والبغض بتؤدة أيضاً في قوله «أحب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغضك يوماً ما، وأبغض بغضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما»^(٥). فعلى

(١) ابن أبي الحديد - ٣٠٧/٩.

(٢) السابق ٣٠٧/٩.

(٣) الراغب الأصفهاني - المفردات في غريب القرآن ص ٣٧٣.

(٤) شرح ميشم - ٣/٣٣١.

(٥) حكم - ٢٧٦.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٢٩٥

الرغم من مواقف قريش العدائية تجاهه وتجاه حكومته، واستماتتهم في افشال امره، لم يحابهم الا مضطراً، بعد أن نفذت جميع أسلحة التفاهم معهم^(١)، يقول متألماً لمصارعهم حين نظر إلى قتلاهم في وقعة الجمل «والله لقد كنت أكره أن تكون قريش قتلى تحت بطون الكواكب»^(٢).

فمن مآثرات الإمام علي عليه السلام يمكن الاستنتاج أن المواجهة بينه وبين قريش قد ابتدأت منذ اليوم الذي انتقل فيه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى واستمرت حتى بلغت ذروتها إبان خلافته، حين حاول التصدي لها والحد من طموحاتها، لكنه لم يفلح في مساعيه، لأنها استطاعت أن تخلق له المشاكل ما حال بينه وبين تنفيذ سياسته ومن ثم التدبير لاغتياله بيد احد ممن خرجوا عليه من أصحابه، بعد أن أفلحت في تدبير قضية التحكيم تلك المأساة التاريخية الفظيعة، مما يعني أن قريشاً لا يمكنها أن تحقق إرادتها بالمواجهة المباشرة، لذلك كانت كثيراً ما تلجأ - للوصول إلى مآربها - بوضع يد غيرها في النار ثم تقف متفرجة لتقطف ثمرة غيرها، إلا أن الظروف المعقدة التي اختلقتها قريش لتعطيل أفكار علي عليه السلام السياسية لم تحل بينه وبين جهاده المستميت لتحقيق تلك السياسة.

(١) راجع ص ٢٤٩ وما بعدها من هذا البحث.

(٢) خطب ٢١٧.

الفصل الثالث

مؤسسات الدولة وسياستها الإدارية

في فكر الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام

بين الدولة والحكومة والسياسة

قد يتبادر إلى الأذهان ونحن نقرأ في (نهج البلاغة) بأن المفاهيم: دولة وحكومة وسياسة، تعني في مجملها معنى واحداً، لذلك لا بد لنا من الوقوف عند كل مفهوم من المفاهيم الثلاثة على حدة.

أ. الدولة:

تمكن النبي ﷺ سنة ٦٢٢ ميلادية من وضع أسس الدولة الإسلامية، في مجتمع متجانس، أساس المواطنة فيه المؤاخاة بين أفرادها، فالرسول ﷺ وإن لم يؤثر عنه أي تعريف لمفهوم الدولة، الا انه بالإمكان استنتاج مثل ذلك من الخطوات العملية التي باشرها بحيث نستطيع القول بأن دولة الرسول ﷺ قد خلقت مجتمعاً قوياً تمكن من نشر الإسلام في فترة قصيرة جداً بفضل التجانس البشري الكامن من أخوة الإسلام والإخلاص الصادق الذي انبت عليه تلك الاخوة،

ولكن ذلك التجانس قد بدأ في التداعي جراء الثروات المتدفقة بغزارة على ذلك المجتمع بعد الفتوحات الإسلامية العظيمة، فأخذت الطبقة في التبلور. ولم تكن مقولة عمر بن الخطاب، بعد ان عرضت عليه غنائم فارس، وفيها من أطيب الأطعمة التي لم يخبرها العرب من قبل «يا معشر المهاجرين والأنصار ليقتلن منكم الابن أباه والأخ أخاه على هذا الطعام»^(١)، والا احساس صادق بقرب ذلك. فقد تسلم علي عليه السلام مقاليد الدولة الإسلامية، وهي في طريق الانهيار لافتقاد المسلمين روح المؤاخاة، أساس المواطنة الإسلامية ويرجع سبب ذلك إلى الاتجاه المادي البحت، ونجوم النعرة القبلية ثانية بعد ان خمدت وكادت جذوتها تنطفئ.

تسلم علي عليه السلام مقاليد الدولة الإسلامية في السنة الخامسة والثلاثين هجرية، بعد تفكير عميق، وأخذ ورد^(٢)، لإحساسه بثقل مسؤولية إعادة بناء النسيج الداخلي من جديد، لأن التصور الواضح للدولة في فكر علي عليه السلام - طبقاً لنصوص النهج - هو الرجوع بالمواطنة داخل المجتمع الإسلامي إلى النهج الذي اختطه الرسول ﷺ. فلقد دخل علي عليه السلام الكوفة سنة ست وثلاثين هجرية وهي مقسمة إلى اسباع، بحسب الانتماء القبلي، والرابطة الاقليمية التي اختطها سعد بن أبي وقاص في السنة السابعة عشرة هجرية، حين باشر بتمصيرها^(٣)، هذا بالإضافة إلى غير العرب من المسلمين وغيرهم الذين استوطنوها، مما يعني في طياته افتقاد المواطنة الإسلامية داخل المجتمع الكوفي، الذي يمكن اعتباره

(١) المحب الطبري: الرياض النضرة ٢/٣٨٦.

(٢) راجع ص ٢٦٨ وما بعدها من هذا البحث.

(٣) راجع تمصير الكوفة: تاريخ الطبري ٤/٤٤، ٤٥، وما سنيون: خطط الكوفة ص ١٠.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٢٩٩

صورة مصغرة للمجتمع الإسلامي. فالتكتل الطبقي بين سكانها أعاد المؤاخاة الإسلامية فيها إلى ولاء قبلي، بالامتثال للزعامة القبلية ولرؤساء العشائر، فكان علي عليه السلام إذا ما أراد للدولة أن تستمر كما أراد رسول الله صلى الله عليه وآله لها والإسلام أن ينتشر، أن يقوم بإعادة بناء هيكل المواطنة المثالي بمجانسة أفراد المجتمع المتنافر عن طريق إعادة الأخوة الإسلامية إلى النفوس، وفك الهيمنة القبلية بتحويل الولاء للدولة، فهو في نفس الوقت الذي اضطر فيه إلى التعامل مع الزعامة القبلية بما يتماشى وروح الإسلام، قد بذل جهداً كبيراً في التنبيه للخطر الذي تشكله تلك الزعامات، والتحذير من مغبة الامتثال لها، لما في ذلك من هدم للمثل والقيم الإنسانية، من ذلك قوله «الا فالحذر الحذر من طاعة ساداتكم وكبرائكم الذين تكبروا عن حسبهم، وترفعوا فوق نسبهم، القوا الهجنة على ربهم... فإنهم قواعد أساس العصبية، ودعائم اركان الفتنة، وسيوف اعتزاء الجاهلية... لا تطيعوا الأذعياء الذين شربتم بصفوكم كدرهم، وخالطتم بصحتكم مرضهم وأدخلتم في حقكم باطلهم»^(١). فالدولة في فكر الإمام علي عليه السلام يجب أن تقوم على التجانس الإنساني داخل المجتمع، بصهر الطبقات في بوتقة المساواة، وإذابة فوارق الجنس، والتعصب للأخلاق الحميدة وهو ما يمكن ان نلمسه ضمن قوله لأبناء مجتمع الكوفة «فليكن تعصبكم لمكارم الخصال، ومحامد الافعال، ومحاسن الأمور التي تفاضلت فيها المجداء والنجداء من بيوتات العرب، يعاسب القبايل، بالأخلاق الرغبية والأحلام العظيمة، والأخطار الجليلة والآثار المحمودة، تعصبوا لخلال الحمد من الحق للجوار، والوفاء بالذمام، والطاعة للبر، والمعصية للكبر، والأخذ بالفضل، والكف عن

(١) خطب ٢٤٠، فقرة ٨.

البغي والاعظام للقتل، والانصاف للخلق، والكظم للغيط، واجتناب الفساد في الأرض»^(١)، فمن تلاحق العبارات وتتابع الجمل، بعطف بعضها على بعض، نحس ان علياً عليه السلام قد كان مشحوناً غيظاً بسبب ما الت إليه بنية المجتمع من تصدع، بحيث لم يعد للحكومة أية قيمة في ظل نظام قبلي، لا يرى الدولة ولا يفهم مقوماتها الا في حدود منظاره الضيق المتمثل في مصلحة القبيلة، مما يحول دون الانسجام بين افراد المجتمع الواحد، والدولة «كيما تضمن مرافقها العامة اقصى مردودها (يجب) ان تعمل على تأمين انسجامها مع الاوضاع الخاصة بالحياة المحلية وبالأدوات الاقليمية ذات المصالح المشتركة»^(٢).

لذلك كانت نظرة علي عليه السلام إلى الدولة نظرة مختلفة تماماً عن نظرة زعماء القبائل. فالمجتمع الكوفي - بل الإسلامي بأكمله - لم يكن قصراً على المسلمين العرب فهو مكون من خليط من اقوام غير متجانسة، منها فئات عربية ترى نفسها حاكمة لفضلها في نشر الإسلام، فمن حقها الاستئثار بكل الامتيازات، ومنها فئات غير عربية، دخلت الإسلام فراراً من الاضطهاد، وبحثاً عن العدالة والمساواة وفي ظل التعصب العربي لم تحصل على ذلك، ثم ان الفئات العربية داخل بنيتها الاجتماعية غير متجانسة أيضاً بسبب العصبية القبلية وتفاضل بعضها على بعض، هذا بالإضافة إلى عدم تجانسها أيضاً مع الفئات غير العربية، بسبب النظرة الإزدرائية لأولئك الاجانب، لذلك فإن الزعامات القبلية في المجتمع الكوفي ترى ان جميع امكانات الدولة يجب أن تكون تحت تصرفها ورهن إشارتها، حتى الحاكم - رأس الدولة وقودتها - لكونه عربياً يجب أن يكون قصراً على العرب

(١) خطب ٢٤٠، فقرة ١٦.

(٢) دوفابر - الدولة ٩١.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٣٠١

في القيام بمصالحهم واعطائهم دون غيرهم، على العكس من نظرة علي عليه السلام الذي يرى أن الانتماء الإسلامي أقوى وأمتن من انتماؤه العربي^(١) من ذلك «أن الأشعث قال له وهو على المنبر: غليتنا عليك هذه الحمراء، فقال علي عليه السلام: من يعذرني من هؤلاء الضياطرة، يتخلف أحدهم على فراشه وحشاياه كالعير، ويهجر هؤلاء للذكر، أطردهم؟ إني إن طردتهم لمن الظالمين، والله لقد سمعته - أي رسول الله صلى الله عليه وسلم - يقول: والله ليضربنكم على الدين عوداً كما ضربتموهم بدءاً»^(٢) إذ يبدو ان علياً عليه السلام يرى من منظوره الإسلامي بأن التجانس داخل الدولة لا يعني الانتماء إلى جنس مميز على غيره، ولهذا السبب بين للأشعث ولغيره من زعماء القبائل بأن احتواءه لأولئك غير العرب لتمسكهم بالدين بمعناه الصحيح واسلوبه القويم، فمقياس المواطنة كما يبدو لنا في فكر علي عليه السلام هو الاخوة في الدين، يقول رداً على المرأة العربية التي طلبت منه ان يفضلها في عطائها على غير العربية «قد قرأت ما بين اللوحتين، فما رأيت لولد اسماعيل على ولد اسحاق عليه السلام فضلاً ولا جناح بعوضة»^(٣)، إذ يمكن ان نستنتج من ذلك القول ان اندماج الاجناس في الدولة في كل متكامل، هو السياج المتين الذي يحفظ كيانها، ويوحد بين مواطنيها، مما يعني ان التصور السياسي لمفهوم الدولة وضح - على ما نعتقد - في فكر علي عليه السلام، وان لم يضعه في قالب اصطلاحي، لذلك

(١) راجع حكم ٩٤.

(٢) ابن الاثير: النهاية في غريب الحديث ٤٣٨/١ باب حمر، ٨٧/٣ باب ضطر، وابن أبي الحديد ١٢٤/١٩، ويعني بالحمراء: العجم والموالي، والضياطرة جمع ضيطر: الضخم الذي لا تنفع فيه. والحمراء أي الفرس، لحمرة لونهم.

(٣) البلاذري - انساب الاشراف ١٤١/٢.

٣٠٢ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

فإن مفردة (دولة)^(١) في نهج البلاغة لا تخرج في معانيها عما أورده القاموس اللغوي من (تحول أو نصره أو استيلاء أو تسلط)^(٢)، إلا ان المتعمق الدقيق لا يعدم الحصول على ما تعنيه المفردة بمفهومها الاصطلاحي كما في قوله «فإذا أدت الرعية إلى الوالي حقه... طمع في بقاء الدول»^(٣)، فالدول - على ما نظن - تعني في السياق العلاقات الترابطية بين الحاكم والمحكوم داخل اطار معين. ولكن أكثر ما ترد مفردة دولة في السياق - عند علي عليه السلام - بمعنى التسلط والحكم، كما في قوله للأشتر حين ولاه مصر «اني قد وجهتك إلى بلاد، قد جرت عليها دول قبلك»^(٤)، أي سُلط وحكومات مختلفة في احقاب متعاقبة، مع ملاحظة استخدامه لمفردة بلاد عوضاً عن اقليم أو دولة، إلا ان ذلك لا يعني التداخل بين مفهومي دولة وحكومة في فكر علي عليه السلام، فقد بينا فيما سبق مفهومه للدولة، مما يحتم علينا تبيان مفهوم حكومة عنده.

ب - الحكومة:

إذا كانت الدولة «هي البنية السياسية لما لها من عادات وتقاليد وبها تقتضيه

(١) وردت مفردة دولة في النهج بصيغة المفرد والجمع في سبعة مواضع: خطب ٤ وفي نهايتها وخطب ١٣١ فقرة ٢ وخطب ٢١٠ ورسائل ٥٣ فقرة ٤ ورسائل ٦٩ نهاية الفقرة الأولى، ورسائل ٧٢، وحكم ٣٤٦.

(٢) راجع باب - دول - في: لسان العرب المحيط ١/١٠٣٤، الطريحي: مجمع البحرين ٥/٥٧، المعجم الوسيط ١/٣٠٤.

(٣) خطب ١٢٠، وقد جاء في بعض الطبقات: طمع في بقاء الدولة.

(٤) رسائل رقم ٥٣، الفقرة ٤.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٣٠٣

من العلاقات بين الحكام والمحكومين»^(١)، فإن الحكومة هي المؤسسة التي تنظم العلاقات داخل الدولة، فالدولة كيان موجود بالفعل، أما الحكومة كمؤسسة موجودة بالقوة للحاجة الماسة إليها^(٢).

وقد ورد مفهوم (حكومة) في نهج البلاغة بما لا يختلف عن مفهومها المتعارف عليه وان ورد استخدام الإمامة^(٣) في كثير من المواضع بدلاً من (الحكومة) بتسمية القائم بالأمر (إمام) عوضاً عن تسميته (حاكماً) لما في معنى الإمامة من جمع بين شؤون الدنيا والدين، ولقد استوعب مفهوم الحكومة بكل مشمولاته مساحة واسعة من فكر علي عليه السلام، فتحدث عن أهميتها، وعن مكانة الحاكم بالنسبة للدولة وعن الصفات التي يجب ان تتوفر فيه، وعن المسؤوليات المناطة بالحكومة.

فعن أهمية الحكومة ووجوبها ومسؤولياتها كان حديثه مع الخوارج^(٤)، أما عن أهمية الحاكم ومنزلته كقائد الدولة فيمثله قوله «مكان القيم بالأمر مكان النظام من الخرز يجمعه ويضمه»^(٥)، فمحاسبة مركز الحاكم في فكر علي عليه السلام دقيقة للغاية على اعتبار أنه قلب الأمة والخيط الجامع لها، ولخطورة ذلك المنصب بالنسبة لصلاح الامة، فقد كان علي عليه السلام حريصاً على صيانتته عن كل ما يسيء. فلقد عرض عليه معاوية إقراره على ولاية الشام في سبيل عدم مقاومته والتأليب

(١) ما كيفر: تكوين الدولة ص ٥٠.

(٢) راجع ص ١٦٣ من هذا البحث.

(٣) راجع مفهوم الإمامة ص ١٥٤ وما بعدها من هذا البحث.

(٤) راجع ص ١٦٦ من هذا البحث.

(٥) خطب ١٤٦، الفقرة ١.

٣٠٤ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

على سلطته فكان رده «حاشى لله ان تلي للمسلمين بعدي صدرا أو وردا أو اجري لك على احد منهم عقدا أو عهدا»^(١). فالتسلط - في فكر علي عليه السلام - لا يكسب صاحبه الشرعية في تولي رقاب الناس، مهما بغلت قوته، لأن الحاكم من وجهة نظره من يستطيع امتلاك زمام نفسه وينأى بها عن شهوة الامتلاك لغاية إشباع رغبة جامحة في استعباد الناس والتصرف في حقوقهم، ولن يتأتى ذلك إلا لمن تتوفر فيه مزايا يستطيع من خلالها مباشرة الحكم، ومن تلك المزايا يتولد الرضا عن الحكومة، لأن العلاقة بين الحاكم والمحكوم ليست علاقة قهر وانما هي علاقة تبادل حقوق، فالحاكم على هذا الأساس مثله مثل أي فرد في الدولة وليس متميزاً على أحد إلا بكونه يحمل من التبعات ما لا يستطيع غيره تحملها، فمن منظور علي عليه السلام الديني «إن الله تعالى فرض على أئمة العدل أن يقدرُوا أنفسهم بضعفة الناس، كيلا يتبيغ بالفقير فقره»^(٢)، فمسؤولية الحكومة في فكر علي عليه السلام تكمن في امرين اساسيين: اقامة الحق بمفهومه الإسلامي ودفع الباطل، فإذا لم تتمكن الحكومة من الوفاء بذينك الشرطين فلا قيمة لها ولا جدوى من ورائها «قال عبد الله بن عباس... دخلت على أمير المؤمنين عليه السلام بذبي قار، وهو يخصف نعله، فقال لي: ما قيمة هذا النعل؟ فقلت: لا قيمة لها، فقال عليه السلام: والله هي احب الي من امرتكم، الا ان اقيم حقاً أو ادفع باطلاً»^(٣)، وإقامة الحق ودفع الباطل تعنيان في مضمونها - كما نعتقد - تنظيم العلاقات بين الافراد بأسلوب قويم ومحكم اساسه الحياة السعيدة لكل فرد من افراد الأمة، تقوم الحكومة بالتخطيط له ومن ثم تنفيذه، وذلك الأسلوب هو ما نعنيه بالسياسة.

(١) رسائل ٦٥.

(٢) خطب - ٢٠٣، ويقدرُوا - يقيسوا، ويتبيغ - يهيج به ألم الفقر.

(٣) خطب - ٣٣.

جـ- السياسة كما تبدو في نهج البلاغة:

تعني السياسة بالمفهوم الإصطلاحي: المنهاج أو الخطة التي تتبعها الحكومة لتدبير مصالح الناس وطريقة التفاهم معهم، والسياسية بمفهومها العام هي «القيام على الشيء بما يصلحه، واشتهرت عند أهل العصر في العمل لأمر الدولة داخلها وخارجها»^(١)، فهي إذن أسلوب تضعه الحكومة على أساس خطة محكمة تتفق ووضع الدولة من حيث الاقتصاد والاجتماع والامن، وتتلاءم مع المحيط الدولي الذي توجد الدولة ضمنه، ومن الملاحظ ان مفهوم السياسة ذلك يتعلق بالشؤون الدنيوية فقط، أما السياسة بالمفهوم الإسلامي فتعني - في اعتقادنا - ارتباطها ارتباطاً وثيقاً بالدين، لكونها - من وجهة نظر اسلامية - خطة أخلاقية تقوم على «استصلاح الخلق بإرشادهم إلى الطريق المنجي في العاجل والآجل»^(٢)، فهي بهذا المعنى تبع للدين، تسير في خطاه، وتستشير بهديه، وعلى ذلك يمكن التفريق بين السياسة بالمفهوم الأخلاقي، وبين السياسة بالمفهوم الانتهازي، المرتبط بالمصالح الذاتية لفئة معينة من الناس، والمبنية في مجملها على الاحتيال والخداع والمراوغة باتخاذ الدين وسيلة لما يقارب من الدنيا^(٣)، بإلباس الشهوات صبغة دينية تبرر المآرب المعوجة، فالدين «شيء والسياسة شيء آخر لو أريد من السياسة الغدر والنفاق والكذب والخداع»^(٤).

(١) أحمد رضا: معجم متن اللغة ٢٤٧/٣.

(٢) أبو البقاء الكفوي: الكليات ٣١/٣.

(٣) راجع حكم - ٤١٣.

(٤) باقر القرشي: النظام السياسي في الإسلام ص ٦٠.

وإذا ما أردنا الدخول في فكر علي عليه السلام السياسي، في ضوء ما ورد في النهج من نصوص يجب ان نضع في اعتبارنا أننا نبحث في سياسة دينية، الأخلاق دعامتها، والمبادئ السامية سياجها، فالنظرة الشمولية المتعمقة منحت المسؤولية في فكر الإمام علي عليه السلام اتساعاً لا يقتصر على العلاقات الإنسانية بين الحاكم والمحكوم فحسب، بل شملت كل ما يتعلق بالإنسان في محيطه، فضمن عرضه لسياسته في أوائل خلافته يقول «اتقوا الله في عباده وبلاده، فإنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم»^(١)، فالمسؤولية في السياق تعني الالتزام الذي يترتب عليه حال تركه أو اهماله المحاسبة والعقاب، أما المجتمع فقد استوعب جل فكر علي عليه السلام السياسي لكونه الركن الأساس الذي تقوم عليه دعائم الدولة. فبالقاء نظرة على ما ورد في خطبه ورسائله من وصايا إنسانية سنجد ان قضايا المجتمع قد كانت شغله الشاغل، كما أن استخدامه بكثرة المفردات (أمة، جماعة، رعية)^(٢) لدليل واضح على قيام سياسته على قواعد اجتماعية مرتبطة بالقاعدة المكونة من السواد الأعظم من الناس الفقراء والمعدمين، وهو كما نلاحظ يعول على تلك الطبقات ويستمد منها القوة الحقيقية لبقاء الدولة، ودلالة ذلك قوله لمالك الاشر حين ولاه مصر «إن سخط العامة يجحف برضا الخاصة، وان سخط الخاصة يغتفر مع رضا العامة، وليس احد من الرعية اثقل على الوالي مؤونة في الرخاء وأقل معونة في البلاء وأكره للإنصاف... من أهل الخاصة

(١) خطب ١٦٨.

(٢) من خلال احصائية قمنا بها في نصوص النهج وجدنا أن: كلمة أمة قد تكررت في ما يقارب تسعة وأربعين موضعاً، وأن كلمة جماعة قد تكررت في ما يقارب من خمسة وعشرين موضعاً، اما كلمة رعية فقد وردت في اربعة وتسعين موضعاً تقريباً.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب (عليه السلام) السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٣٠٧

وإنما عماد الدين وجماع المسلمين والعدة للأعداء العامة من الامة»^(١). لذا فقد سارت سياسته الاقتصادية إلى جانب أولئك المعدمين، برعاية شؤونهم، وتدبير مصالحهم، وعدم تمكين الفئات المتسلطة من التسلق على حسابهم، فالمال مال الجميع ليس لاحد فضل فيه على أحد، فحين طلب منه بعض أصحابه اسلاف بعض الزعامات القبلية وأشرف قريش بالمفاضلة في العطاء قال لهم «لا والله لا أفعل ما طلعت شمس... ثم سكت واجماً ثم قال: الأمر أسرع من ذلك، قالها ثلاث مرات»^(٢). فعلي (عليه السلام) يدرك تماماً انه يستطيع تحقيق النصر الشخصي في قضية الحكم بتوظيف المال توظيفاً سياسياً معوجاً، ولكن ذلك سيكون على حساب المبادئ والقيم فوجومه ثم تكراره عبارة «الأمر أسرع من ذلك» تحمل في طياتها - على ما نعتقه - شعوره بالألم لانزلاق القيم وترديها بأسرع مما يتصوره إنسان، علاوة على ما تتضمنه العبارة من تهيب وتخويف من كتاب الخالق سبحانه، مما جعله يتشدد في تسوير سياسته بسياج أخلاقي متين، ليتمكن - على الاقل - من ابقاء جذوة المبادئ متقدة في مواجهة ذلك التيار المتنامي للتكالب على السلطة وجمع الثروات واقتناء الضياع والاماء والعبيد على حساب الفئات

(١) رسائل - ٥٣، فقرة ٧، وسخط: تبرم وعدم رضا، ويحجف: يذهب ويزيل.

(٢) أخذنا هذا النص من ابن أبي الحديد ٢/٢٠٣ عن رواية علي بن محمد المدائني، وقد ورد هذا النص باختلاف في بعض عباراته في نسخ نهج البلاغة في باب الخطب تحت رقم ١٢٦. فقد ورد في نص النهج «والله لا اطوره به ما سمر سمير، وما أمَّ نجمٌ في السماء نجماً - بدلا من قوله عند ابن أبي الحديد: والله لا افعل...»، ثم أن الشريف الرضي لم يورد الزيادة التي أوردها ابن أبي الحديد وهي قول علي ثلاث مرات «الأمر أسرع من ذلك» وأما معنى لاح أي ظهر وبان، وواسيت - ساويت، وأطور به - لا أقر به، ما سمر سمير: السمير: الدهر - أي أبد الدهر ما قام وما بقي، وما أمَّ نجم: أي قصد وتقدم.

المستضعفة، فمن خلال نظرة فاحصة في المصطلح السياسي، في فكر علي عليه السلام، سنجد أن المفاهيم الأخلاقية في تلك النماذج تكاد تتقابل بين الإيجاب والسلب أو بمعنى أوضح، بين القيم الأخلاقية، وبين العيوب والسلبيات التي نجمت في المجتمع، مع ملاحظة تركيزه على الجوانب السلبية، مما يعني استفحال ذلك بين متلقي السلطة في عصره، وبتحول السياسة عند أولئك إلى مفهوم فارغ من أية قسمة أخلاقية، واهتبال الفرص للوصول إلى الغاية المنشودة بأية وسيلة، فالغدر والاحتيال، والخيانة، وإشاعة الفتن، ذكاء وفطنة وفهم. ففي معرض المقارنة بين مفهوم السياسة عنده، ومفهومها عند سياسي عصره يقول علي عليه السلام «أيها الناس، إن الوفاء توأم الصدق، ولا أعلم جنة أوفى منه، وما يغدر من علم كيف المرجع، ولقد أصبحنا في زمان قد اتخذ أكثر أهله الغدر كيساً ونسبهم أهل الجهل إلى حسن الحيلة، ما لهم، قاتلهم الله، قد يرى الحوّل القلب وجه الحيلة، ودونها مانع من أمر الله ونهيه، فيدعها رأي العين بعد القدرة عليها، ويتنهنز فرصتها من لا حريجة له في الدين»^(١)، فالحيلة والخداع والغدر والكذب لا تعني إلا هدرًا للأخلاق وهدماً للدين في قاموس علي عليه السلام السياسي، لأن مقياسه لرجل السياسة الصحيح هو الاتفاق بين ما يظهر وبين ما يبطن، لأنه هو ذاته «من تماسك الشخصية بحيث لا يتناقض أبداً، وهو من سلامة وأصالة الفكر بحيث لا يتعارض»^(٢)، لاقتران القول بالفعل في كل تصرفاته، وهو القائل

(١) خطب ٤١ - التوأم: الذي يولد مع الآخر في حمل واحد، والوفاء والصدق قرينان في المنشأ والجنة - بضم الجيم -: الوقاية، والمرجع - بكسر الجيم -: العودة لله سبحانه للحساب، الكيس - بفتح الكاف -: العقل، والحوّل القلب - بضم الأول وتشديد الثاني وفتح في اللفظين -: البصير بتحول الأمور وتقلبها، والحريجة: التحرج والاحتراز.

(٢) جورج جرداق: علي صوت العدالة الإنسانية ١/١٦٨.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٣٠٩

«من لم يختلف سره وعلانيته، وفعله ومقالته، فقد أدى الأمانة، وأخلص العبادة»^(١). فالإخلاص في القول وفي الفعل قيمتان خلقيتان مرتبطتان في فكر علي عليه السلام السياسي - بالأمة والعبادة.. ومن ذلك المنطلق الأخلاقي يقول عن سياسته إزاء سياسة معاوية «والله ما معاوية بأدهى مني، ولكنه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس، ولكن كل غدره فجرة، وكل فجرة كفره، ولكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة»^(٢). فمن ذلك نستنتج ان علياً عليه السلام قد كان على دراية تامة بما يحدث على الساحة الإسلامية من مراوغات وألعايب سياسية في عصره، وكان بإمكانه ان يتخذ من أساليب سياسته ما يثبت سلطته، ولكنه كان «ملجماً بالورع عن جميع القول والفعل إلا ما هو لله عز وجل، رضاً، وممنوع اليدين من كل بطش الا ما هو لله رضا»^(٣). ففكر علي عليه السلام السياسي - كما يبدو في نهج البلاغة - يتمثل في محاولة إصلاح ما فسد في دولة الإسلام، بإرجاع الحقوق إلى نصابها، وبناء المجتمع المثالي القائم على المؤاخاة في الله والتسامح والتعاون، فكان ان خطط للمؤسسات التنفيذية في حكومته ما يمكنها من تحقيق تلك السياسة.

(١) رسائل ٢٦، الفقرة الأولى.

(٢) خطب ١٩٤. ويفجر: يفسق ويكذب.

(٣) ابن أبي الحديد ١٠/٢٢٩.

مؤسسات الدولة في فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

من خلال قراءة متأنية في نهج البلاغة، يمكننا القول، إن الجهاز الحكومي الذي اعتمد عليه علي عليه السلام في تسيير شؤون الدولة الإسلامية يميل إلى البساطة، وإن هذا الجهاز مبني في الأساس على قيم أخلاقية عالية تضع في الاعتبار مصلحة عامة الناس قبل خاصتهم، فهو جهاز اجتماعي أخلاقي مكون من:

أولاً: الخلافة^(١):

أعلى مركز سياسي ديني في الدولة الإسلامية، وقد استحوذ على مساحة واسعة من فكر علي عليه السلام، فتكرر مصطلحها في النهج ما يقارب من إثني وسبعين مرة باسم (الإمامة) ومشتقاتها، كما تكرر ما يقارب من خمس وأربعين مرة اسم (خليفة) مشتقاته، ولو راجعنا النصوص التي عالج علي عليه السلام فيها مسألة الخلافة، فسنجد انه قد عالجها من جميع جوانبها من شروط استحقاق^(٢)،

(١) لمعرفة أهمية هذا المنصب وخطورته راجع ص ١٦٣ وما بعدها من هذا البحث.

(٢) راجع ص ١٧٢ من هذا البحث.

٣١٢ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

وطريقة انعقاد^(١)، هذا بالإضافة إلى حديثه بإسهاب عن المهام المناطة بالخليفة في عدة نصوص بحسب مقتضيات مناسباتها. فمن أساسيات تلك المهام عنده، رعاية «الجند والمصر، وبيت المال وجباية الأرض، والقضاء بين المسلمين والنظر في حقوق المطالبين»^(٢)، فالمهام المناطة بالخليفة - من وجهة نظر علي عليه السلام - شاملة لجميع شؤون الدنيا والدين، لذا يجب ان يكون متقلد ذلك المركز قدوة لجميع افراد الأمة في القول والفعل، فلا يستأثر بشيء دون أفقر الناس^(٣)، ولا يقوم بما لا يرضاه لأي فرد طبقا لقوله «إني والله ما أحثكم على طاعة الا واسبقكم إليها، ولا أنهاكم عن معصية الا وأتناهي قبلكم عنها»^(٤)، وعلى ذلك النهج الأخلاقي تبلور فكره في اختيار ولاته لكونهم يمثلونه ويقومون مقامه في ولايات الدولة.

ثانيا: الوالي:

يحتل الوالي مكانة كبيرة في حكومة الإمام علي عليه السلام، ويمكن اعتباره نائب الخليفة والقائم بمهامه في إدارة شؤون ولايته، ورعاية مصالح العباد فيها، ولأهمية الوالي كمنفذ لسياسة الحكومة - في فكر علي عليه السلام - فقد تكررت كلمة (والي وولاية) في النهج ما يقارب من خمس وثمانين مرة.

ومن خلال قراءة متمعنة في تلك النصوص يمكننا تلمس الأسلوب الدقيق

(١) راجع ص ١٨٣ من هذا البحث.

(٢) خطب ١١٨.

(٣) راجع ص ١٩٥ من هذا البحث.

(٤) خطب ١٧٧، الفقرة الأخيرة.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٣١٣

الذي يتبعه علي عليه السلام في اختيار ولايته، فمن الأولويات التي يضعها في اعتباره فيمن يرشحه للولاية «اللياقة الذاتية للحكم حسب سلوكه الطبيعي والاجتماعي، وحسب إيمانه العقائدي»^(١)، مما يعني دراسة حالته دراسة مستفيضة، من حيث مسلكه الإنساني وتصرفاته الاجتماعية، ومدى إخلاصه للعقيدة، على أن تكون الدراسة متبوعة بمراقبة دقيقة أثناء ممارسة مهام الولاية، لكون علي عليه السلام يرى أنه «إذا قوي الوالي في عمله حركته ولايته على حسب ما هو مركز في طبعه من الخير والشر»^(٢)، مما يعني في طياته أن الطبع يغلب التطبع، فما دام الإنسان بعيداً عن واقع العمل فقد تصدق الفراسة فيه، وقد تخون، خاصة إذا حاول التزيي بما ليس في طبعه، إذ سرعان ما ينكشف حين يباشر ما أوكل إليه من أعمال فتتبدى طموحاته في الظهور لتبين ما في دخيلته من ميول خيرة أو شريرة، لذا لم يرشح للولاية إلا من لدينه^(٣)، واضعاً شروطاً تكاد تكون نادرة إلا في القليل من الرجال، لأن طبعه المثالي ووجهه للإنسانية جعلاه يتوق دائماً إلى المثال في كل ما يتعلق بالإنسان ويمكن حصر الشروط التي يتوخاها علي عليه السلام في الوالي المثالي في النقاط الثمان التالية:

١- الإيمان القوي التام^(٤)

٢- الورع والنزاهة^(٥)

(١) مهدي محبوبة: ملامح من عبقرية الإمام ص ٨٣.

(٢) ابن أبي الحديد ٢٠/٢٦٩.

(٣) راجع ص ١٩٨ وما بعدها من هذا البحث.

(٤) راجع رسائل ٣٨- الفقرة الثانية في وصفه عليه السلام لملك الأشر.

(٥) المصدر السابق نفسه.

٣- الخوف المؤدي إلى محاسبة النفس على كل حقير أو عظيم (١)

٤- العدل بمعناه الشامل لكل الأشياء ولجميع أفراد الولاية الفقير قبل الغني والضعيف قبل القوي (٢)

٥- ثقافة واسعة تمكن الوالي من الدراية التامة بأحوال البلاد وما مر عليها وعلى مواطنيها من حكومات سابقة اتصفت بالعدل أو بالجور لمقارنة حكمه بحكم أولئك وتلمس الطريق الأصوب والأسلم في سياسته، من ذلك قوله للأشتر «اعلم يا ملك، أني قد وجهتك إلى بلاد قد جرت عليها دول قبلك، من عدل وجور، وان الناس ينظرون من أمورك في مثل ماكنت تنظر فيه من امور الولاية قبلك، ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم، وانما يستدل على الصالحين بما يجري الله لهم على ألسن عباده» (٣)

٦- الشجاعة والقوة والجرأة، ف«لا ينام أيام الخوف، ولا ينكل عن الاعداء ساعات الروع» (٤)

٧- الإثتار التام بأمر خليفة في كل ما يعترضه من مهام خطيرة تتعلق بالبلاد والعباد قبل ان يتخذ رأيه فيها (٥)

٨- ان يكون قدوة في القول والفعل بالنسبة لمواطني ولايته (٦)، متبعاً

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) راجع رسائل ٢٦، الفقرة الأولى، ورسائل ٧٦.

(٣) رسائل ٥٣، الفقرة الرابعة وما بعدها.

(٤) رسائل ٣٨.

(٥) راجع السابق الفقرة الثانية.

(٦) راجع رسائل ٤٥، الفقرة الثانية.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٣١٥

الصراحة بمكاشفتهم بالأموال المتعلقة بمصالحهم^(١)، إضافة إلى ذلك الحلم وسعة الصدر^(٢) والتعويل على استشارة أولي الألباب في المهمات^(٣)، وحضور البديهة عند كل ملمة، والنظر في مجريات الأحداث بحذر واناة ومعالجتها بما يتناسب والشرع حتى ولو كان في ذلك اجحاف بالحكومة واضرار بمصالحها الدنيوية^(٤).

وهو إذ يضع تلك الشروط الدقيقة فيمن يتوخاه لتحمل أعباء الولاية، لأنه يعتبره شريكه فيما اوكل إليه من امانة، يقول لعبد الله بن عباس واليه على البصرة «أربع أبا العباس، رحمك الله، فيما جرى على لسانك ويدك من خير وشر، فإننا شريكان في ذلك»^(٥)، والشراكة التي يقصدها علي عليه السلام، تعني أن مهام الوالي في ولايته تكاد تكون نفس مهام الخليفة، أي بمعنى أوضح انها ولاية اختيارية عامة^(٦)، حسب ما وضحه الماوردي الذي جعل اختصاص الوالي العام في سبع نقاط هي:

- ١- النظر في تدبير الجيوش.
- ٢- النظر في الأحكام وتقليد القضاة.
- ٣- جباية الخراج وقبض الصدقات وتقليد العمال فيهما، وتفريق ما استحق منها.

(١) راجع رسائل ٥٣، الفقرات ٤، ١٣، ٣٢.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) المصدر السابق نفسه.

(٥) رسائل ١٨، وأربع: أي أرفق عند حدود ما تعرف.

(٦) راجع الأحكام السلطانية، ص ٢٧.

٤- حماية الدين والذب عن الحريم.

٥- إقامة الحدود في حق الله.

٦- الإمامة في الجمع والجماعات.

٧- تسيير الحجيج^(١).

ولو نظرنا فيما أورده الإمام علي عليه السلام من اختصاصات الوالي فسنجدها تشمل - إضافة إلى ما أورده الماوردي - النظر في العلاقات الإنسانية بين الناس، والستر على عيوب الرعية ما أمكن^(٢)، ورعاية كل طبقة بما يصلحها^(٣)، بالإضافة إلى الطريقة المثلى في السياسة اتجاه العدو في وقت الحرب والسلم^(٤)، من صلح وكتابة معاهدات، إلى غير ذلك من شؤون تتعلق بمصلحة البلاد والعباد، وهو بذلك جعل مهمة الوالي متسعة باتساع ولايته، إذ يدخل ضمنها كل بيت من بيوتها، وتشمل الرعاية كل شخص، بل حتى البقاع وما يدب عليها من حيوان، وعلى ذلك فإن الشروط التي أرادها في شخص واليه في منتهى المثالية والندرة ولكنها هي المؤهلات لصاحبها للقيام بمهام الولاية طبقاً لمعاني الحق في فكر علي عليه السلام الذي يدرك تماماً بأن «الحق كله ثقيل، قد يخصه الله على اقوام طلبوا العافية، فصبروا أنفسهم ووثقوا بصدق موعود الله لهم»^(٥). وبطبيعة الحال فإن الاختصاصات الواسعة التي أوكلها علي عليه السلام لواليه تحتاج إلى جهاز إداري

(١) السابق.

(٢) راجع رسائل ٥٣، الفقرات: ٨، ١٤، ٣٣.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) المصدر السابق نفسه.

(٥) رسائل ٥٣، فقرة ٢٦.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٣١٧
محكم، حتى يتمكن من القيام بمسؤوليته على اكمل وجه.

ثالثاً: جهاز الدولة الإداري، كما يبدو في النهج:

تعتمد الحكومة في تسيير شؤون الدولة ومصالح الناس - كما يبدو في النهج
- على جهاز اداري مكون من: (١)

- ١- الوزارة.
- ٢- الجيش.
- ٣- القضاة.
- ٤- بيت المال.
- ٥- العمال.
- ٦- الدواوين.
- ٧- الرقابة الإدارية.

١- الوزارة (٢):

يختلف مفهوم الوزارة عند علي عليه السلام عنه عند الماوردي، فالماوردي يجعل الوزير
في مرتبة ثانية بعد الخلفية، ويضع للوزارة شروطاً تكاد تكون مقاربة لشروط

(١) سنشير إلى مصدر كل نقطة عند طرحها للمناقشة.

(٢) رسائل ٥٣، فقرة ١٠. والوزير لغة هو المساعد والمعين وفي التنزيل ﴿وَاجْعَلْ لِي وِزيراً مِنْ

أَهْلِي﴾... طه/٢٩ أي معينا ومساعداً.

انعقاد الإمامة فيها سوى النسب^(١). أما علي عليه السلام فيضع الوزير في مرتبة المستشار الذي لا تتعدى صلاحياته الاستشارة ويأتي في مرتبته دون الوالي، ويستدل على ذلك من قوله لمالك الأشتر «إن شر من كان للأشرار قبلك وزيراً»^(٢)، مما يعني ضمناً تفويض علي عليه السلام للوالي أمر اختيار المستشارين والوزراء الذين يعول على آرائهم وحكمتهم، وقد وردت مفردة (وزير) ومشتقاتها - كمصطلح سياسي في النهج - ما يقارب من اثنتين وعشرين مرة وهي تدل في معظم سياقاتها على ان أهمية الوزير تأتي دون أهمية الوالي، ولا تتعدى صلاحياته وصلاحيات المستشار سوى النصيح، وإبداء الرأي إذا طلب منه، من ذلك قوله للناس لما ارادوا مبايعته على الخلافة بعد مقتل عثمان «أنا لكم وزيراً خيراً لكم مني اميراً»^(٣) أي معاوناً ومستشاراً لكم، امدكم بالآراء التي تصلحكم في امور دينكم ودنياكم كما كنت في أيام الحكام السابقين، مع ملاحظة أن مصطلح (وزير) بمعنى النيابة العامة والمكانة المرموقة قد ورد في النهج في موضع واحد، على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم في شخص علي عليه السلام بقوله صلى الله عليه وسلم «إنك تسمع، وترى ما أرى، إلا أنك لست بنبي، ولكنك لوزير»^(٤) في شركك إياي في المعاونة والقوة وتثبيت دعائم الدين. أما الشروط التي يجب أن تتوفر في المستشار أو الوزير كما حددها علي عليه السلام فهي:

١- أن لا يكون بخيلاً أو جباناً أو حريصاً لأن «البخل والجبن والحرص

(١) راجع الأحكام السلطانية ص ٢٠، وطرحه لمفهوم الوزارة ذاك. مبني على ما تصوره. في العصور

الإسلامية المتأخرة وخاصة الأعصر العباسي.

(٢) رسائل ٥٣، فقرة ١٠.

(٣) خطب ٩١.

(٤) خطب ٢٤٠، فقرة ٢٧.

غرائز شتى بجمعها سوء الظن بالله»^(١).

٢- أن يكون ذا ماضي مشرف ونظيف ولم يشارك الأشرار في حكومات سابقة، حتى ولو كان مؤهلاً لذلك المنصب^(٢).

٣- ان يكون شديداً في أمر الله لا يوافق في الحق ولا يعرف سواه طريقاً^(٣).

٢- الجيش.

من خلال قراءتنا في نصوص النهج المتعلقة بالجند والحرب، نجد أن علياً عليه السلام قد أعطى المؤسسة العسكرية من الأهمية ما يضعها على رأس الطبقات التي يوصي عماله بها خيراً، يقول للأشتر «الجنود بأذن الله، حصون الرعية، وزين الولاية، وعز الدين، وسبل الامن، وليس تقوم الرعية الا بهم»^(٤)، فالجند - في فكر علي عليه السلام - للبناء والسلام والجهاد والمحافظة على الاستقرار والامن، مما يعني ضمناً أن لهم مؤسستهم الخاصة القائمة بذاتها التي عادة ما تكون تحت إشراف الوالي المباشر، ومن أهم الشروط التي يجب أن تتوفر لها كي تقوم بتأدية واجبها على أسس أخلاقية متينة:

- أن يكون الانخراط فيها تطوعياً، لأنها مؤسسة ذا طابع أخلاقي، هدفها الأسمى تثبيت القيم، وإزهاق الباطل، ويجدر بالمنتسب إليها أن يكون مؤمناً بذلك. وأن تكون المادة عنصراً ثانوياً بالنسبة إليه، لأن الجهاد بمعناه العقائدي يكون بقوة الإيمان بالقيم التي تدفع الإنسان إلى الاستشهاد في سبيلها، لذلك

(١) رسائل ٥٣، فقرة ٩.

(٢) راجع السابق، فقرة ١٠.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) السابق، فقرة ١٥.

٣٢٠ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

فقد وردت جميع الخطب الداعية إلى الجهاد في النهج، خالية من أية إغراءات مادية دنيوية.

- أن يكون الترابط بين الجند وقادتهم محكماً، لذلك فقد عول علي عليه السلام على قاعدة في اختيار قادة الجيوش قوامها الكفاءة القتالية المقرونة بالأخلاق العالية، يقول للأشتر «فولّ من جندك أنصحهم في نفسك لله، ولرسوله، ولإمامك، وأنقاهم جيئاً، وأفضلهم حلماً، ممن يبطئ عند الغضب، ويستريح إلى العذر ويرأف بالضعفاء، وينبو على الاقوياء»^(١) ذلك من الناحية الأخلاقية.

- أما اختيار القادة من حيث الخبرة فيلورها فكر علي عليه السلام في ذوي النسب والشرف السامق والمجد من الشجعان الكرام^(٢) الذين لا يبطرهم المركز لكونه لا يرفع من منزلتهم ولا يزيدهم شرفاً، وكما نلاحظ أن الخبرة والاخلاق عنصران متلازمان ومتداخلان عنده، بحيث يستعصي الفصل بينهما.

- ان تكون العلاقة بين قادة الجند وجندهم علاقة انسانية، تحكمها الرأفة والعطف والحب، بعيدة عن روح التسلط، فأفضل قادة الجند عند علي عليه السلام «من (واسى جنده) في معونته وافضل عليهم من جدته»^(٣).

- إن انخراط الجندي الطوعي في الجيش لا يعني حرمانه من المادة، فقد يتبادر إلى الذهن ان علياً عليه السلام لم يكن يضع للمادة أي اعتبار أو أي أثر في اصلاح الجند، ولكن الذي نقرأ في النهج يخالف ذلك، فعلي عليه السلام لم يقصر الدخول في الجنديّة على العمل المجاني، بل جعل التطوع في المقام الأول لكونه واجباً دينياً، يحتم

(١) رسائل ٥٣، فقرة ١٥. وأنقاهم جيئاً: أظهرهم صدرأً، وينبوا عليهم: يشتد عليهم.

(٢) راجع السابق فقرة ١٧.

(٣) السابق، الفقرات ١٦، ١٧، ١٨، وواساهم: ساعدهم وجدته. بكسر الجيم وفتح الدال: كرمه.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٣٢١

على كل مسلم قادر مباشرته إذا دعت الحاجة إلا أنه في الوقت نفسه قد وضع للمادة اعتبارها، وتأثيرها في الروح القتالية بالنسبة للجنود فهو يرى ان إعطائهم «ما يسعهم ويسع من وراءهم من خلوف أهلهم»^(١) يجعلهم يدركون أن من ورائهم حكومة تتفقد أمورهم الدنيوية بما يكفل لهم ولأولادهم ونسائهم وعجزتهم الحياة الكريمة، فيكون في ذلك اخلاصهم فيما كلفوا به من قتال في وقت الحرب، وتفانيهم في بث الطمأنينة واشاعة الامن بين الناس وقت السلم حيث «لا تظهر مودتهم الا بسلامة صدورهم»^(٢).

- ثم انه لما كان للحوافز المادية أثرها الفعال في اخلاص الجنود، فقد جعل لها علي عليه السلام مكانة، في فكره العسكري، بوصيته ولاته وامراء جنده ان يعرفوا «لكل امرئ ما ابلى»^(٣)، مع تجنب المحاباة على أساس المكانة والنسب حال تقسيم مثل تلك الحوافز إذ يجب ان يأخذ كل جندي حقه كاملاً، يقول ضمن عهده للأشتر «ولا يدعونك شرف امرئ أن تعظم من بلائه ما كان صغيراً، ولا ضعة امرئ ان تصغر من بلائه ما كان عظيماً»^(٤)، هذه بالنسبة لتكوين الجيش في فكر الإمام علي عليه السلام أما سياسته العسكرية فيمكن حصرها في محاور أربعة هي:

١- علاقة الخليفة أو القائد العام بأمراء الجيوش.

٢- علاقة أمراء الجيوش بالجنود.

(١) رسائل ٥٣، الفقرات ١٦، ١٧، ١٨، خلوف - بضم الخاء واللام -: جمع خلف، بفتح الخاء

وسكون اللام، وهو ما يتركه الجنود وراءهم من نساء واطفال وعجزة.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) المصدر السابق نفسه.

٣- الطلائع والعيون.

٤- الصفات التي ينبغي للجندي أن يتحلّى بها.

١- علاقة الخليفة بأمراء الجيش:

يبدو أن علاقة ولي الأمر أو الخليفة بقيادة الجند تنبني على تبادل الحقوق، في فكر علي عليه السلام الذي يرى ان من حق القادة الاطلاع على جميع أسرار الدولة العسكرية والأمنية، الا فيما يختص بحرب أو يتعلق بحكم من الضروري كتمانها حتى حينه، كما أن على الخليفة أو من يقوم مقامه ان لا يفضل قائداً على اخر في رتبته الا بما يمتاز به من بلاء ويلتزم أيضاً بأداء جميع حقوقهم المالية والقانونية كاملة، فإذا ما استوفوا كل ذلك فمن حق الخليفة عليهم «الطاعة، وأن لا ينكصوا عن دعوة ولا يفرطوا في صلاح وان يخوضوا الغمرات إلى الحق»^(١).

٢- علاقة أمراء الجيوش بالجند:

من واجب أمير الجيوش - في فكر علي عليه السلام - أن يراعي راحة جنده ولا يرهقهم بالقيام بمجهودات شاقة تحول بينهم وبين تأدية الواجب على أتم وجه، ففي أثناء سيرهم نحو معركة ما أو لإخماد فتنة في اقليم ما، يجب عليه ان يختار الاوقات المناسبة، ففي وصيته لأحد أمراء جيوشه يقول «لا تقاتلن الا من قاتلك وسر البردين، وغور بالناس ورفه في السير، ولا تسر أول الليل، فإن الله جعله سكناً، وقدره مقاما، فأرح فيه بدنك وروح عن ظهرك، فإذا وقفت حين

(١) رسائل ٥٠، فقرة ٣. بتصرف في النص بتحويل تاء المخاطبين إلى ياء المضارعة.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب (عليه السلام) السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٣٢٣

ينبطح السحر، أو حين ينفجر الفجر، فسر على بركة الله»^(١).

فالراحة البدنية والترويح عن الجنود، تجعلهم في حالة نفسية مرتفعة أثناء الحرب، ولكن ليس معنى ذلك استخدام الليونة التي تؤدي بالجندي إلى التهالك على ملذات الدنيا ومن ثم الانهيار، فعلي (عليه السلام) يرى ان من مميزات رجل الحرب ان يتحمل خشونة العيش وصعوبة الحياة^(٢)، والتعود على البعد عن الالهل، فكان إذا شيع جيشاً لحرب أو حشر جنداً في معسكر استعداداً لحرب، يوصيهم من ضمن نصائحه بقوله «اعذبوا عن النساء ما استطعتم»^(٣). إذن فراحة الجنود التي يرمي علي (عليه السلام) إليها، هي الاطمئنان النفسي والراحة الجسدية المبنيان على الرأفة والرحمة بجانب عدم التهالك على الشهوات المادية تهالكاً يؤدي بالجندي إلى الانهيار.

وعن علاقة القائد بجنده حين ملاقة العدو، يرى علي (عليه السلام)، ان من واجبه ان ينظم صفوفه باتخاذ الموقف الوسط من جنده ويضبط نفسه، ويكبح جماح حماسه باستخدام العقل، فلا يدنو من عدوه «دنو من يريد ان ينشب الحرب ولا (يتباعد) عنهم تباعد من يهاب البأس»^(٤)، ولا يغامر بالدخول مع العدو في

(١) رسائل ١٢، وسر البردين: أي وقت برودة الأرض والهواء من حر النهار بمعنى أن السير يكون إما في الصباح أو في العصر، وغور بالناس: أي أنزل بهم وقت القائلة في منتصف النهار حين يشتد الحر، ورفه: أي هون ولا تعب نفسك ولا جندك ولا دابتك، وينبطح: أي ينسبط وهو مجاز عن استحكام الوقت بعد مضي مدة منه أو بقاء مدة منه.

(٢) راجع مقولة علي (عليه السلام) في ذلك الشأن ضمن: رسائل ٤٥ الفقرة الثالثة.

(٣) حكم ٢٦٦. ومعناها كما يقول الشريف الرضي: اصدفوا عن ذكر النساء وشغل القلب بهن وامتنعوا عن المقاربة لهن، لأن ذلك يفت في عضد الحمية، ويقدم في معاهد العزيمة.

(٤) رسائل ١٢.

٣٢٤ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

حرب حتى يتلقى أمر القائد العام أو الخليفة^(١)، أما إذا اضطره العدو لذلك، فمن واجبه - إيثاراً للسلم - وحفاظاً على الأرواح.

- أن يدعوهم لما فيه خير وأمن البلاد والعباد، ولا يلجأ إلى الحرب إلا بعد أن يستنفذ كل ما لديه من أعذار سلمية^(٢)، لأن سلامة أرواح الناس - عند علي عليه السلام - فوق كل اعتبار، ما لم يتعارض ذلك مع الغاية النبيلة المتمثلة في احقاق الحق وتقوية دعائم الدين، فالقائد بالنسبة لجنوده أب رحيم^(٣)، وبالنسبة لأعدائه داعية سلام. أما الحرب فهي العلاج الأخير.

٣. الطلائع والعيون:

المخابرات العسكرية من أهم الدعائم التي اعتمدها الدول لحفظ أمنها منذ أقدم العصور^(٤)، إذ عن طريقها تعرف تحركات العدو، وما يمتلكه من سلاح وعتاد، ومواضع الضعف والقوة في دفاعاته، ورسم الخطط والخطط المضادة لهجوماته المباغتة. لذلك فقد اهتم بها علي عليه السلام اهتماماً عظيماً وجعلها ضمن مخططات مؤسسته العسكرية، فاستخدم العيون والطلائع فقد كانت له عيون بالشام ترصد له تحركات معاوية^(٥)، كما كانت له بعض العيون في

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) راجع رسائل ٥٣، الفقرة ١٦.

(٤) للاطلاع على قدم أنشطة الاستخبارات العسكرية - راجع عبد الله مناصرة الاستخبارات

العسكرية في الإسلام، ص ١٥ وما بعدها

(٥) راجع ابن مزاحم: صفين ص ٦٥ وما بعدها ورسائل ٣٣.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٣٢٥

جيش معاوية بصفتين^(١)، هذا بالإضافة إلى الطلائع التي كان يرسلها في مقدمة جيوشه كما فعل في صفين، يقول ضمن وصيته لجيش من جيوشه «اعلموا ان مقدمة القوم عيونهم وعيون المقدمة طلائعهم»^(٢)، وذلك يعني ان علياً عليه السلام قد كان على علم واسع بالشؤون العسكرية.

والجوسسة كعمل مشروع يراد منه الحفاظ على مصالح الأمة وحماية الإسلام، لم يقصرها علي عليه السلام على الناحية العسكرية من دون غيرها من النواحي الامنية الأخرى، ففي كتاب له لثقم بن العباس^(٣) واليه على مكة، يقول «أما بعد فإن عيني بالمغرب كتب إليّ يعلمني أنه وجه إلى الموسم أناس من أهل الشام»^(٤). لكن علياً عليه السلام لم يحاول استخدام الجوسسة لقمع على الإطلاق، لأنه كان يستنكف الإساءة لأي إنسان في سبيل توطيد سلطته، فهو كقائد يتحلى بروح الفروسية في أنبل معانيها يجد أن «الأم الناس من سعى بإنسان ضعيف إلى سلطان جائر»^(٥).

٤- الصفات التي ينبغي للجندي ان يتحلى بها في نظر الإمام علي عليه السلام:

مما أثر عن علي عليه السلام من توجيهات ونصائح كان يزود جنده بها أثناء توجههم

(١) راجع ابن مزاحم: السابق ص ٤٦٨.

(٢) رسائل ١١، والنص يحوي نصائح عسكرية جلييلة رغم صغر حجمه.

(٣) قثم بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم، ابن عم الرسول ﷺ، استعمله علي عليه السلام واليا على مكة فلم يزل واليا عليها حتى قتل علي عليه السلام، سار أيام معاوية إلى سمرقند فمات بها شهيداً. أسد الغابة ٣٩٢/٤.

(٤) رسائل ٣٣.

(٥) ابن أبي الحديد ٢٠/٣٠٣.

إلى أية معركة يمكننا التعرف على صفات الجندي المثالي عنده.

فعلي عليه السلام كما عرفنا لم يبدأ بحرب قط^(١) و«لم يقاتل يوماً من أهل القبلة ممن خالفه حتى يدعوهم»^(٢) إلى الاحتكام للعقل، لذلك فقد أراد لجنده أن يقتدوا به ويأخذوا بنهجه في ضبط نفوسهم وتحكيم عقولهم، ولا يبادروا بمقاتلة أعدائهم إلا إذا بدأوا هم بذلك، وينطلق من نظرية تلك على اعتبار أن في بدء القتال عدوانا، واستصغاراً للقيم، وانهما داخليا للنفس المعتدية يؤدي بها إلى الانهيار، جاء في نصحه لابنه الحسن عليه السلام قوله «لا تدعون إلى مبارزة، وإن دعيت فأجب، فإن الداعي باغ، والباغي مصروع»^(٣) لا اعتداده بشجاعته وقوته دون ارتكازه على قاعدة خلقية يؤدي به إلى الغرور فتكون هزيمته حتمية.

أما إذا اضطر الجند للدخول في مواجهة حتمية مع العدو، فمن واجب كل جندي أن يعرف موقعه، ويلتزم بتوجيهات قيادته، ليدفع عن نفسه الهلاك، ويحقق النصر. فقبل نشوب أية معركة يجب على جميع المقاتلين أن يلتزموا بقاعدة عسكرية فحواها تقدم أصحاب الدروع من الجند، وتأخر الحاسرين ممن ليس لديهم ما يدرأ عنهم ضرب السيوف وطعن الرماح^(٤).

هذا من ناحية التحرك العسكري في مواجهة العدو في أثناء بدء المعركة، أما من ناحية درء الجندي خطر الموت باتقاء الضربات القاتلة أثناء احتدام القتال،

(١) راجع ص ٢٥٢ وما بعدها من هذا البحث.

(٢) أبو يوسف: كتاب الخراج ص ٢١٤.

(٣) حكم ٢٣٢.

(٤) راجع خطب ١٢٤. وقد ورد ضمنها نصائح عسكرية أخرى تتعلق بالرايات وكيفية حملها ومن

هو المؤهل لتلك المهمة الخطيرة الصعبة.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٣٢٧

فيرى علي عليه السلام أنه من الأجدى بالجند في أثناء التحامهم بالأعداء، أن يعضوا على أضراسهم بشدة^(١) كي تمنح تلك العملية جماهم صلابة وقوة قد تحول دون سيوف الأعداء والقطع، ثم ان العض على الأضراس يزيد من شدة المقاتل في ضرب القطع، لما لتلك العملية من تأثير نفسي وجسمي في حشد القوة لمواجهة الصعوبات والتغلب عليها بإصرار. ويجب على الجند ان يتحاشوا رماح الأعداء أثناء اشتجارها بيقظة وانتباه واستخدام لياقتهم البدنية للإنعطاف عن استنها في خفة وحذق يجنبهم إصابتها^(٢).

ومن عوامل النصر - من وجهة نظر علي عليه السلام - العامل النفسي المتمثل في طرد الخوف والاقبال على القتال بقلوب قوية عزيمة صادقة، لذلك فمن الأجدى للجنود في أثناء احتدام القتال، غض أبصارهم عما تهرق من دماء، وتزهق من ارواح لأن ذلك كما يقول «أربط للجأش وأسكن للقلوب»^(٣)، إضافة إلى التزام السكينة والهدوء طرداً للفشل^(٤).

ولما كان تعاون الجند فيما بينهم من أهم عوامل النصر فلقد ركز عليه علي عليه السلام واطعاً نصب عينيه احتمال ان يصاب الجندي بأنهب نفسي في أثناء مشاهدته الموت من حوله، وفي مثل هذه المواقف يجب على أخيه الجندي أن يقف بجانبه ويشد أزره ليمنحه الإحساس بالاطمئنان، فيكون ذلك دافعاً له على مواصلة القتال، وفي ذلك يقول علي عليه السلام «وأي امرئ منكم أحس من نفسه رباطة جأش

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) خطب - السابق.

(٤) المصدر السابق نفسه.

عند اللقاء، ورأى من أحد إخوانه فشلاً فليذب عن أخيه بفضل نجدته التي فُضِّل بها عليه كما يذب عن نفسه»^(١).

ومن أهم الصفات التي يجب أن يتحلى الجند بها - من وجهة نظر علي عليه السلام - التزام أخلاق الفرسان بتجنبهم كل ما يحط من القيمة الأخلاقية، في أثناء المعركة وبعد أن تحسم لصالحهم، ويمثل ذلك قوله «إذا قاتلتموهم فلا تجهزوا على جريح، وإذا هزمتموهم فلا تتبعوا مدبراً، ولا تكشفوا سرّاً، ولا تدخلوا داراً، ولا تأخذوا من أموالهم شيئاً ولا تهيجوا امرأة بأذى، وإن شتمن أعراضكم وسبين أمراءكم وصلحاءكم»^(٢).

ففكر علي عليه السلام العسكري فكر تكاملي من حيث ممزجته بين السياسة العسكرية بشقيها الإداري والتربوي وبين الأخلاق المتمثلة في الإيمان بالقيم والتعاون والبناء، والأخذ بالأساليب الإنسانية في مواجهة الأعداء، لأن خبرته العسكرية وشجاعته «هما بمنزلة التعبير عن الفكرة، أو بمثابة العمل من الإدارة، لأن (محورها) الدفاع عن طبع في الحق وإيمان بالخير»^(٣).

٣. القضاء:

«كان الخلفاء في صدر الإسلام يباشرون بأنفسهم»^(٤)، ويرجع ذلك إلى الأهمية التي أولاها الإسلام له، وأسوة بالنبي ﷺ الذي كان يقضي بين المسلمين في المدينة بنفسه، ويرسل من يتوخى فيهم العلم والدراية والإنصاف من

(١) خطب ١٢٢.

(٢) رسائل ١٤.

(٣) جورج جرداق: علي عليه السلام صوت العدالة الإنسانية ٨٠ / ١.

(٤) المصدر السابق.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٣٢٩
صحابته للقضاء بين الناس في الولايات البعيدة، ومن أولئك الذين اعتمد
عليهم عليه السلام في القضاء «علي بن أبي طالب عليه السلام وهو من أجل القضاة»^(١). وقد
اهتم علي عليه السلام بالقضاء في دولته لسييين:

- الأول: مكانة القضاء كمنصب ديني يهم الناس كافة، بالفصل في
الخصومات، وأخذ الحق للمظلوم وردع الظالم، وإقامة الحدود بها يتطابق
واحكام القرآن والسنة.

- الثاني: مباشرته القضاء بنفسه على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وعهد الحكام الثلاث
من بعده. وتمرسه في ذلك جعله على دراية تامة بخبايا تلك الوظيفة الحساسة،
وما تحتاجه من علم وخبرة، وسعة اطلاع في طبائع البشر، لمعرفة ألعيب
المحتالين، إلى غير ذلك من أمور يحتاجها القاضي في أثناء مزاولته القضاء،
فمن خلال تجربته في مباشرة ذلك المنصب يقول علي عليه السلام «لو يعلم الناس ما في
القضاء، ما قضوا في ثمن بعرة، ولكن لا بد للناس من القضاء»^(٢)، لذلك يرى
علي عليه السلام: ان على القاضي ان يتحرى الحق وان يحكم بالعدل دون أي التباس،
لأن القاضي الجائر والقاضي المخطئ - وان كانت نيته العدل - كلاهما في النار من
وجهة نظر علي عليه السلام^(٣).

ويبدو ان الاغراءات المادية والسعي وراء الشهرة في صدر الإسلام أدى
بكثير من الناس إلى الجري وراء ذلك المنصب، مما جعل علي عليه السلام يحمل حملة
شعواء على مثل أولئك المتطفلين على الوظيفة، وقد ورد ذلك في نصين في النهج:

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٣٧٥.

(٢) وكيع: اخبار القضاة ١/٥، ٢١.

(٣) راجع السابق ١٨.

٣٣٠ فكر الإمام علي (عليه السلام) كما يبدو في نهج البلاغة

- الأول منها يبين خطورة القاضي الجاهل بعلم القضاء، وما ينجر عن جهله من كوارث على الناس، جاء في خاتمته «جاهل خباط جهالات، عاش ركاب عشوات، لم يعرض على العلم بضرر قاطع... لا يحسب العلم في شيء مما انكره، ولا من وراء ما بلغ مذهباً لغيره، وإن أظلم عليه أم أكتتم به لما يعلم من جهل نفسه، تصرخ من جور قضائه الدماء وتعج منه المواريث»^(١).

- اما النص الثاني فيتمثل في اختلاف الفتيا بين القضاة في قضية واحدة بعينها بحيث يحكم فيها كل قاض بخلاف حكم الآخر، ثم يجتمعون عند من «استقضاهم فيصوب آراءهم جميعاً، وإلهمم واحد، وكتابهم واحد. فأمرهم الله - سبحانه - بالاختلاف فأطاعوه، أم نهاهم عنه فعصوه»^(٢).

لذلك وضع شروطاً شاملة ودقيقة فيمن يصلح لتولي ذلك المنصب المهم

وهي:

١- شروط أخلاقية.

٢- شروط ثقافية.

٣- شروط نفسية.

أولاً- الشروط الأخلاقية:

وحصرها في وجوب كون القاضي من حيث اختياره، من أفضل الرعية عند

(١) خطب ١٧، فقرة ٢. تعج: يرتفع صوتها مولولة، ويقول محمد عبده أن «صراخ الدماء وعج

المواريث، تمثيل لحدة الظلم، وشدة الجور» راجع نهج البلاغة - بشرح محمد عبده ص ٦١ - الأندلس.

(٢) خطب ١٨، الفقرة الأولى.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٣٣١

ولي الأمر أخلاقاً^(١) وصورة هذه الأخلاق تتجلى في:

الصبر والتأني والثبات فلا «تضيق به الأمور»^(٢) في مجلس القضاء وأن لا يكون اعسر الخلق لجوجاً، حتى يمكنه تجنب استخدام أساليب الضغط في أثناء طلبه من أحد المتخاصمين الإدلاء بحجته، فهو بهذه الخصيصة الأخلاقية «ممن لا تمحكه الخصوم»^(٣). وإذا ما زل على أحد المتخاصمين وشعر بذلك فمن الواجب عليه أن يراجع نفسه فلا «يتهادى في الزلة»^(٤)، وإذا ما أخطأ واستبان فلا يصبر عليه «ولا يحصر من الفيء إلى الحق إذا عرفه»^(٥).

ثانياً. الشروط الثقافية:

بالإضافة إلى تبحر القاضي في الشريعة الإسلامية يجب أن يكون مزوداً بثقافة موسوعية عامة، فلا يقصر نظره في قضايا الناس على ما يستين له من براهين لأول وهلة، بل يجب أن يستقصي في دراسته لتلك البراهين كل الأدلة الشرعية الناتجة عنها «فلا يكتفي بأدنى فهم دون اقصاه»^(٦). وقد تشبه الأمور عليه ويلتبس الحكم، وفي هذه الحالة يجب أن يتحرز من الوقوع في الشبهات،

(١) راجع رسائل ٥٣، فقرة ٢٠.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) راجع رسائل ٥٣، فقرة ٢٠.

(٥) المصدر السابق نفسه.

(٦) المصدر السابق.

ولا بيت في حكم إلا بعد أن يطمئن إلى عدالته^(١). ثم أنه يجب أن يكون ممن يعتمد في قضائه على سماع جميع أقوال المتخاصمين^(٢)، ويزنها بميزان العدل بإرجاعها إلى الأصول المعتمدة، ومقارنتها بمثيلاتها، ومن ثم يصدر حكمه بناء على قوة الحجج، لا من حيث الجدال والمهاككة، وقوة الأسلوب، ولكن من حيث قوة المنطق ومطابقته للحق^(٣).

ثالثاً. الشروط النفسية:

إن النفس الإنسانية التي تجعل من المال هدفاً وغاية، قد تضطر إلى التخلي عن التزاماتها في سبيل ذلك، لذا فقد رأى علي عليه السلام ان يكون المؤهل لمنصب القضاء ممن لا «تشرف نفسه على طمع»^(٤). كما أن التبرم والضيق لا يتفقان وطبيعة العمل القضائي. فمن خاصية القاضي أن يكون منشرح الصدر يستمع إلى الخصوم بإصغاء دونما ملل «من مرجعة الخصم»^(٥) ويتحلى بضبط النفس «حتى تتكشف الأمور»^(٦)، ويجب ان يتمتع بمزايا الشجاعة والجرأة والصرامة في الوقوف بجانب الحق «عند اتضاح الحكم»^(٧). وينأى بنفسه عن الخيلاء

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

(٥) المصدر السابق.

(٦) المصدر السابق.

(٧) المصدر السابق.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٣٣٣

وينبذ النفاق والتزلف «فلا يزدهيه اطراء ولا يستميله إغراء»^(١).

وعلي عليه السلام حين يضع لمنصب القضاء تلك الشروط المثالية، فهو على وعي تام بأن الحصول على مثل أولئك الرجال قليل^(٢)، ولكن قلتهم لا تمنع من البحث عنهم بين الناس لحاجة المجتمع إليهم، إلا أنه في الوقت نفسه واحترافاً من الوقوع في الخطأ، واطمئناناً على حقوق الناس اوجب على ولي الأمر مراقبة القضاة، ومراجعة احكامهم من حين إلى حين^(٣).

وحين يجنب القضاة الانزلاق في هاوية الحاجة بقبول الرشاوي والاغراءات المادية فقد أوصى لهم من المال «ما يزيل (غلتهم) وتقل معه (حاجتهم) إلى الناس»^(٤).

ولاستقلالية القضاء مكانة عالية في فكر علي عليه السلام، لأنه - كما نتصور - يرى إبعاد القاضي من أي ضغط من شأنه التأثير في نزاهة الحكم بالإرهاب، أو بأية وسيلة أخرى، وحتى يكون حكم القضاة نافذاً في كل الأوقات، وعلى جميع الناس، فقد أوصى أولياء الأمور ممن يوكل إليهم اختيار القضاة، أن يكون أصحاب أولئك المناصب تحت إشرافهم المباشر^(٥) ولا يوكلوا أمر الإشراف عليهم من قبل هيئة معينة. وذلك حتى يقوى مركزهم، ويشعرون بأن وراءهم قوة تسندهم في حال ابتلائهم بقوة تحد من سلطتهم وتعطل احكامهم، وبذلك

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

(٥) المصدر السابق.

٣٣٤ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

يمكن القول ان علياً عليه السلام قد وضع دستوراً مثالياً متكاملأً، يتناسب ومثاليته المتناهية في حب الإنسان والإنسانية.

٤- بيت المال:

لا يكاد نهج البلاغة أن يمدنا بشيءٍ كثيرٍ عن المؤسسة المالية في فكر علي عليه السلام اعتماد جامع نصوصه منهجاً انتقائياً معيناً، حال بينه وبين نقل جميع ما أثر عن علي عليه السلام وقد أشار إلى ذلك في مقدمته^(١). إلا أننا لا نعدم الخطوط الأساسية العريضة لتلك المؤسسة من خلال الإشارات الخاطفة التي يرسلها علي عليه السلام في خطبه أو ضمن بعض رسائله ووصاياه وحكمه خاصة عهده للأشتر الذي وصلنا كاملاً وضمنه علي عليه السلام كثيراً من أفكاره في بناء الدولة وسياستها. فمن ذلك النص والنصوص الأخرى يمكننا استنتاج أهم موارد الخزينة (بيت المال) وطريقة جبايتها، والوجوه التي تصرف فيها، فأهم موارد الدولة المالية في عهد علي عليه السلام كما يتهيأ لنا هي:

١- الزكاة^(٢).

(١) راجع مقدمة نهج البلاغة في أية نسخة من نسخ نهج البلاغة وراجع أيضاً ص ١٢٣ من هذا البحث.

(٢) الزكاة أو الصدقة، يفترق الاسم ويتفق المسمى، ولا يجب على المسلم في ماله حق سواها، الأحكام السلطانية ص ٩٩، ويقول محمد جواد مغنية: الفقه على المذاهب الخمسة ص ١٦٦: ان الشيعة الإمامية والمالكية يوجبون الزكاة على الكافر كما يوجبونها على المسلم، ويوجب الشيعة الإمامية الخمس في كل ما يفضل عن مؤونة سنة الإنسان وعياله مهما كانت مهنته ومن أي نحو حصلت فائدته، سواء أكان من التجارة أو الصناعة أو الزراعة أو الوظيفة أو العمل اليومي، أو من الاملاك أو من الهبة أو من غيرها، ولو زاد على مؤونة سنته قرش واحد أو ما

٢- الجزية^(١).

٣- الخراج^(٢) والعشر^(٣).

٤- التجارة والصناعة.

ويمكننا مما بين أيدينا من نصوص استنتاج ملامح فكر علي عليه السلام في الكيفية التي اختطها لجميع تلك الضرائب، والسياسة التي يتبعها في صرف الأموال في وجوهها المستحقة والوازنة بين الداخل والخارج وحساب المستقبل.

١- الزكاة:

أو الصدقة، وينبع الاهتمام بها في الإسلام لكونها ضمن العبادات، وهي

يعادله فعليه أن يخرج خمسة - الفقه على المذاهب الخمسة، السابق ص ١٨٧. أما مذاهب السنة فيحددون الخمس في الأموال التي تجبى من الكفار من فيء وغنيمة، كما يبدو من كلام الماوردي في الأحكام السلطانية ص ١١٠. وقد عرضنا إلى اختلاف المذاهب الإسلامية في توزيع الخمس ضمن هذا البحث.

(١) الجزية: ضريبة مالية «موضوعة على الرؤوس، وتؤخذ مع بقاء الكفر وتسقط بحدوث الإسلام... وتجب على الرجال الأحرار» الأحكام السلطانية ص ١٢٧.

(٢) الخراج: هو ما وضع على رقاب الأرض من حقوق تؤدي عنها. والخراج يؤخذ على الكفر والإسلام بمعنى أن الأرض الخراجية تبقى على حالها من حيث اداء الضريبة المقررة عليها بغض النظر عن دخول مالكها الإسلام، أو شرائها من قبل مسلم. راجع السابق ص ١٢٤، ١٢٧.

(٣) العشر: هو ما يوظف على الأرض الميتة إذا ما أحيها مسلم بمدّها بالماء، وتعهّد تربيتها، واستغلال مواردها، فإن الإسلام يملكها له استناداً على قول الرسول صلى الله عليه وآله «من أحيأ أرضاً مواتاً فهي له». الأحكام السلطانية السابق ص ١٥٣، وذلك التملك يكون بشروط معتبرة في كتب الفقه - راجع السابق - وفيها لو أحيأ أحد المسلمين أرضاً مواتاً فهي ملك له شريطة أن يدفع لولي الأمر عشر ما تدره الأرض كضريبة سنوية - راجع السابق.

الركن الثالث في الإسلام، استناداً لقول النبي ﷺ «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت، وصوم رمضان»^(١). وقد أعطى علي عليه السلام للزكاة مكانة هامة، جعلته يتتبع جمعها من المسلمين منذ بداية العملية حتى اللحظة الأخيرة من توزيعها على مستحقيها. وجمع الزكاة في فكر علي عليه السلام، يقوم على دعامة أخلاقية متينة، تحول بين جامعيتها والقسرة في جبايتها، لأنها في الأساس تطهير للنفس من الشح، وابعادها عن حب الذات بالتكالب على المادة، ولن يتأتى ذلك إلا إذا كان المزكي ذا قلب سليم ونفس سمحة، فمن وصيته لعماله على الصدقات بأمرهم بالقول «عباد الله، ارسلني إليكم ولي الله وخليفته، لأخذ منكم حق الله في أموالكم، فهل في أموالكم من حق فتؤدوه إلى وليه، فإذا قال قائل: لا، فلا تراجع، وان انعم لك فانطلق معه»^(٢). ثم أن على ذلك العامل ألا يأخذ من المتصدق أكثر من حق الله المفروض في ماله^(٣). ولا يأخذ من المال إلا ما هو رضاً لصاحبه^(٤) إذ ليس تعني الموافقة على دفع الزكاة، بأن تقوم السلطة بمحاسبة المزكي محاسبة دقيقة باستخدام العسف والإرهاب، لذا يجب على العامل أن يأخذ ما أعطي، اعتماداً على صدق المزكي، وإخلاص إيمانه، وفي حالة امتلاك المتصدق إبلاً أو ماشية فعلى العامل أن لا يدخل إليها إلا بإذنه لأن «أكثرها له... فإذا أتيتها فلا تدخل عليها دخول متسلط عليه ولا عنيف به، ولا تنفرن بهيمة ولا تفرعها، ولا تسوءن صاحبها فيها، واصدع المال صدعين ثم خيره، فإذا اختار، فلا

(١) صحيح مسلم ١/٤٥.

(٢) رسائل ٢٥. وأنعم: أجاز بنعم.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) المصدر السابق نفسه.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٣٣٧

تعرضن لما اختاره، ثم أصدع الباقي صدعين ثم خيره، فإذا اختار فلا تعرضن لما اختاره، فلا تزال كذلك حتى يبقى ما فيه وفاء لحق الله في ماله فإن استقالك فأقله ثم اخلطهما ثم أصنع مثل الذي صنعت حتى تأخذ حق الله في ماله»^(١).
فالمثالية - كما نلاحظ - قد بلغت الذروة، فلم تقتصر عند علي عليه السلام على الموافقة على اداء الزكاة بل تعدتها إلى التخيير المتناهي في عدالته، وشملت أيضاً طريقة التعامل مع المال والحيوان، إلا أن ذلك لا يعني - في فكر علي عليه السلام - القبول بأي شيء لا يتناسب ومصلحة مستحقي الصدقة، ففي زكاة الحيوان، على سبيل المثال، يجب عدم قبول المعيب أو المريض^(٢)، إذ من واجب عامل الزكاة أن لا يقبل إلا ما هو صالح للناس.

ثم إن علياً عليه السلام في مثاليته، يسير مع عامله على الصدقات خطوة بخطوة خلال رحلته الشاقة، فينصحه بأن لا يوكل بما اجتمع عنده من مال المسلمين «إلا ناصحاً شفيقاً أميناً حفيظاً، وغير معنف ولا مجحف ولا ملغب ولا متعب»^(٣). كما يجب عليه أن يراعي الله فيما اجتمع عنده من حيوانات، حتى تصل إلى مستقرها، فتقسم على مستحقيها وهي سليمة غير متعبة^(٤).

فإذا اكتملت عملية جمع الزكاة في كل ولايات الدولة، واستقرت الأموال في بيوتها، فعلى القائم بالأمر أن يباشر بتقسيمها على السبعة الذين خصهم الله تعالى في قوله:

(١) السابق. وأصدع: أقسم، واستقالك: أي ظن في نفسه سوء الاختيار فطلب منك أن تعيد عملية القسمة.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) السابق. وملغب: المعى من التعب.

(٤) المصدر السابق نفسه.

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾^(١)، ولا أن يتعدى المسؤول في توزيعها أولئك السبعة. وكما يبدو من كلام علي عليه السلام في وصية أخرى إلى عماله على الصدقات، أن المتولي على جمع صدقات البقعة أو الحي، هو الذي يقوم بتوزيع ما اجتمع عنده على المحتاجين، والضعفاء، وذوي الفاقة، من أهل المنطقة ذاتها، كما ان على المتولي ان لا يأخذ حقه من الصدقات الا بإذن ولي الأمر، وبالمقدار الذي يفرضه له، وفي ذلك يقول لعامله على الصدقات «ان لك في هذه الصدقة نصيباً مفروضاً وحقاً معلوماً وشركاء أهل مسكنة وضعفاء وذوي فاقة، وإننا موفوك حقا فوفهم حقهم»^(٢). وعلى ذلك فإنه لا يرجع إلى بيت المال المخصص للزكاة الا ما زاد عن حاجة فقراء المنطقة التي جمعت منها، وهو ما يشير - حسب فهمنا - ان علياً عليه السلام قد خصص مقداراً معيناً لكل مستحق في دولة الإسلام، لأنه عادة ما يأمر ولاته بتوزيع الزكاة على مستحقيها، ثم يرسل ما تبقى عنده منها إلى عاصمة الدولة ليقوم الخليفة بتقسيمه بما يقيم التوازن بين الولايات كلها، إذ لا بد ان تكون الزكاة في ولاية ما أكثر منها في ولاية أخرى، لذا فقد اوجب على ولي الأمر أن يراعي ذلك أثناء جمع الصدقة وتوزيعها، واننا وان كنا لا نملك نصاً صريحاً بذلك في النهج، إلا أنه يمكن استنتاجه من قوله إلى قثم^(٣) بن العباس عامله على مكة «انظر إلى ما اجتمع عندك من مال الله فأصرفه إلى من قبلك من ذوي العيال والجماعة، مصيباً مواضع الفاقة والخلات، وما فضل عن

(١) التوبة/ ٦٠.

(٢) رسائل ٢٦، فقرة ٣.

(٣) راجع ترجمته في ص ٣٢٥ من هذا البحث.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٣٣٩

ذلك فاحمله الينا لنقسمه فيمن قبلنا»^(١)، والتقسيم فيمن قبله - على ما نعتقد - لا يعني الكوفة عاصمة الخلافة بالذات، بل يعني محاولة العدل في التوزيع بين فقراء المسلمين في كل بقاع الدولة.

٢- الجزية:

في اعتقادي أن أثر هذه الضريبة في موارد الدولة - على عهد علي عليه السلام - كان ضئيلاً نسبياً، لكون كثيراً ممن كانوا يدفعونها قد دخلوا الإسلام، إما تخلصاً من دفعها، فلم يبق من دافعها إلا قلة من اليهود والمسيحيين فيما عدا التغلبيين^(٢)، لذلك لا نرى للجزية أي ذكر في نصوص النهج، أو قد يكون ضمن النصوص التي لم تدخل ضمن اختيار الجامع^(٣).

٣- الخراج والعشر:

أو ضريبة الأرض، وقد أهتم المسلمون بها اهتماماً بالغاً لكونها المصدر الرئيس لتمويل مشاريع الدولة، وصرف مرتبات الجند والقضاة والعمال وغيرهم من الموظفين، ومن دواعي الاهتمام بها فقد دخلت تلك الضريبة في

(١) رسائل ٦٧، الفقرة الثانية، وقبلك - بكسر ففتح -: أي عندك، والفاقة: شدة الفقر والخلة - بفتح الخاء -: الحاجة.

(٢) صالح عمر بن الخطاب نصاري بني تغلب أن يضاعف عليهم الزكاة عوضاً عن الجزية شريطة ألا يشتركوا في حرب ضد المسلمين وأن لا ينصروا أولادهم. راجع الخراج لأبي يوسف ص ١٢٠.

(٣) راجع ص ١٢٣ وما بعدها من هذا البحث.

كتب الفقه الإسلامي كموضوع قائم بذاته، فافرد لها أبو يوسف^(١) (ت ١٨٢) فصلاً عرفها فيها، بالإضافة إلى كيفية جمعها من الفلاحين وملاك الأرض، والنواحي التي تصرف فيها تلك الأموال. كما عالج ضريبة الأرض أيضاً أبو عبيد القاسم بن سلام^(٢) (ت ٢٢٤)، وحظيت أيضاً باهتمام يحيى بن آدم^(٣) (ت ٣٧٠هـ)، وعرض الماوردي لها^(٤)، كما افرد الحافظ عبد الرحمن بن أحمد الحنبلي (ت ٧٩٥هـ) كتاباً، خاصاً بالخراج أسماه (الاستخراج في أحكام الخراج)، ولو رجعنا للنهج لنستقري فكر علي عليه السلام في ضريبة الأرض تلك، فسنجد إن اهتمامه قد انصب أولاً - وقبل جباية الأموال على العامل أو الفلاح، ومن ثم على الأرض التي يعملون عليها، وهما كما نلاحظ دعامة الثروة الرئاستان في المجتمع الزراعي، الذي كانت الدولة الإسلامية تعتمد عليه في معيشة سكانها، وفي إدارة دفة الحكم. يقول علي عليه السلام في عهده للأشتر «وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله، فإن في صلاحه وصلاحهم، صلاحاً لمن سواهم، ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم لأن الناس كلهم عيال على الخراج»^(٥)، فالخراج في النص كناية عن الأرض، وليست الضريبة المفروضة عليها، ثم إن أهل الخراج هم الفلاحون وتفقدتهم يعني اصلاح حالهم وتعهدهم بإنشاء القنوات، ومد الجسور، وحفر الآبار، واستصلاح الأرض، والوقوف إلى جانبهم في وقت الكوارث الطبيعية، من جفاف أو فيضان أو جراد، فإن كل ذلك يمكن الفلاح من زيادة إنتاجه، ويعني

(١) راجع كتاب الخراج ص ٣٣، ٤٧، ٦٣، ١٣٣.

(٢) راجع كتاب الأموال ص ٧٣، ٧٩، ٨٣، ١٠٢، ٥٢٤.

(٣) راجع كتاب الخراج ص ٢٢، ٦٣، ٨٤.

(٤) راجع الأحكام السلطانية ص ١٢٤ وما بعدها و ص ١٥٣ وما بعدها و ص ١٦٧ وما بعدها.

(٥) رسائل ٥٣، فقرة ٢٢.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٣٤١

في نهاية المطاف الزيادة في دخل الخراج، ومن أجل ذلك يقول علي عليه السلام للأشتر «وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج، لأن ذلك لا يدرك الا بالعمارة، ومن طلب الخراج بغير عمارة، اخرب البلاد واهلك العباد ولم يستقم امره الا قليلاً»^(١)، لأن العمال والفلاحين سيهجرون الأرض وبذلك تكثر المجاعات وينهدم الاقتصاد فيختل الامن، مما يدعو في النهاية إلى زوال نظام الحكم، فالعمران - كما يبدو في فكر علي عليه السلام - هو ما ينمي الدخل «وانما يؤتى خراب الأرض من اعواز أهلها، وانما يعوز أهلها لإشراف أنفس الولاة على الجمع، وسوء ظنهم بالبقاء وقلة انتفاعهم بالعبء»^(٢) وهو ما يعني ضمناً ان حكام السياسة المتعلقة لا يكمن في ارهاق العباد بفرض الضرائب وجمع الأموال للملء خزينة الدولة لأن دخل الدولة الحقيقي ورصيدا المالي هو الإنسان ذاته، فإذا صلح الإنسان وصلحت حاله، تمكن من العطاء بما يعود عليه وعلى البلاد بالخير العميم، وفي تاريخ الإنسانية من العبر الكثيرة التي يمكن للحكام الانتفاع بها لو تأملوها بعين العقل. على تلك الأسس الإنسانية المتينة باشر علي عليه السلام سياسته المالية تجاه الأرض مصدر الرزق الاساسي في عصره، فمن وصية له إلى عماله على الخراج يقول «ولا تبيعن للناس في الخراج كسوة شتاء ولا صيف، ولا دابة يعتملون عليها، ولا عبداً، ولا تضرب أحداً سوطاً لمكان درهم ولا تمسن مال احد من الناس مصل ولا معاهد، الا ان تجدوا فرساً أو سلاحاً يعدى به على الإسلام»^(٣)، إذ لا يمكن ان تؤخذ الضريبة من الإنسان

(١) المصدر السابق.

(٢) رسائل ٥٣، فقرة ٢٢. اعواز أهلها: جعلهم في حاجة مستديمة، اشراف: تطلع.

(٣) رسائل ٥١.

٣٤٢ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

على ضرورياته الحياتية «من غذاء أو كساء أو أثاث أو آلة أو حيوان»^(١). وبهذا الأسلوب المثالي السامح تدفقت الضرائب من خراج وعشر على بيت مال الدولة مما جعل العطاء يزيد ويكثر^(٢) إلى الحد الذي أدى بعلي عليه السلام إلى اطعام اليتامى والمساكين العسل^(٣).

٤- التجارة والصناعة:

هما من مصادر الدولة المهمة في عصر صدر الإسلام وان لم تكونا في مستوى الخراج أهمية. فقد كان عمر بن الخطاب يستوصي بالتجار، ويسهر على راحتهم، حتى بلغ به الأمر حراستهم وحراسة اموالهم بنفسه، فمما يؤثر عنه انه «كان يعس ليلاً، فنزلت رفقة من التجار بالمصلى، فقال لعبد الرحمن بن عوف، هل لك ان نحرسهم الليلة من السرقة؟ فباتا يحرسانهم ويصليان ما كتب الله لهما»^(٤)، ولأهمية التجارة في حياة الأمة وفي انتعاش اقتصاد الدولة، فقد أفرد لها علي عليه السلام مساحة من فكره الاقتصادي يمثله قوله لمالك الأشتر «ثم استوص بالتجار، وذوي الصناعات واوص بهم خيراً، المقيم منهم والمضطرب ماله، والمترفق ببدنه، فإنهم مواد المنافع وأسباب المرافق، وجلاها من المباعد والمطارح، في برك وبحرك وسهلك وجبلك حيث لا يلتئم الناس لمواضعها ولا يجترئون عليها»^(٥). فالتجارة بما يكتنفها من المخاطر والمغامرة بالأموال

(١) مغنية: في ظلال النهج ٤١/٤.

(٢) راجع انساب الاشراف ١٣٦/٢ وما بعدها.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) ابن أبي الحديد ١٢/١٤.

(٥) رسائل ٥٣، فقرة ٢٤، والمضطرب بهاله: الذي لا يستقر في بلد ما، والمترفق ببدنه: المتكسب من

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٣٤٣

من قبل التجار، إلا أنها ضرورية بل وأساسية في حياة الناس، لأنها توفر ما يحتاجونه من اله وكساء وطعام، هذا بالإضافة إلى ما تدره على بيت المال من دخل يتمثل في جباية الأسواق بالإضافة إلى الضرائب التي يدفعها التجار مقابل ما يجلبونه من مؤن وبضائع إلى البلاد، لذا من واجب الحكومة ان ترعاهم بما يكفل لهم الربح المعقول، وتجنبهم الخسارة، بتوفير الامن والحماية لهم، إذ لا يمكن أن تستقر تجارة إلا في مجتمع مستقر، ولا يمكن للتاجر أن يستثمر أمواله إلا إذا شعر بالأمان، لما في طبعه من حذر وحيطة وجبن، فالتجار على العموم - من وجهة نظر علي عليه السلام - «سلم لا تخاف بائقته وصلح لا تغشى غائلته»^(١).

لكن علياً عليه السلام لم يترك الحبل على غاربه للتجار، بحيث يمكنهم التصرف في الاسواق كما يشاؤون، فهو في الوقت نفسه الذي أحاطهم فيه بالرعاية، فإنه قد نبه إلى ان «في كثير منهم ضيقاً فاحشاً وشحاً قبيحاً، واحتكاراً للمنافع وتحكماً في البياعات»^(٢)، لذا فمن وجب ولي الأمر والسوق مفتوحة للجميع - ان يراقب الاسعار ويحول بين التجار والاضرار بالناس^(٣) فالتجارة وإن كانت ضرورية، ومصدراً مهماً من مصادر الدخل - كما تبدو في فكر علي عليه السلام - إلا أنها مقننة بما يتماشى ومثاليته المتناهية في تطبيق شرائع الإسلام طبقاً للكتاب والسنة.

أما الصناعة والصناع الذين وصى واليه الأشر بهم خيراً^(٤)، فإن الذي يقصده من وصيته تلك - كما نستخلص من سيرته^(٥) - أنه يريد بذلك حمايتهم

عمل يده من بناء ونجار وغيره، والمرافق: ما ينتفع بها من ادوات، جلاها: الذين يأتون بها.

(١) السابق، وبائقته: داهيته ومكره، وغائلته: عصبانه وتمرده.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) راجع السابق، مطلع الفقرة.

(٥) راجع ابن أبي الحديد ٢/١٩٩ - طريقة علي عليه السلام في تقسيم ما في بيت المال.

٣٤٤ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

وحماية صناعتهم من الانقراض، حتى لا يتضرر الناس ويتأثر الاقتصاد، فإن قلة الحاجة إلى بعض الصناعات في وقت ما لا يعني إهمالها وعدم رعايتها، فقد تكون تلك الصناعة متوفرة في إقليم ونادرة في إقليم آخر، فتعهدا وحمايتها يعني التكامل الاقتصادي فيما بين اقاليم الدولة المختلفة لأن «اختصاص بعض الأمصار ببعض الصنائع تدون بعض، وذلك أنه من البين أن أعمال أهل مصر يستدعي بعضها بعضاً لما في طبيعة العمران من التعاون»^(١). لذا كان علي عليه السلام - فيما نعتقد - يأخذ ضمن الجزية والخراج والزكاة، بعض الصناعات المتداولة في عصره. يقول أبو يوسف «كان علي بن أبي طالب عليه السلام فيما بلغنا يأخذ منهم (أي أهل الذمة) في جزيتهم الإبر والمسأل ويحسب لهم من خراج رؤوسهم»^(٢). وقد ورد عند البلاذري أن علياً عليه السلام كان «يقسم العطور بين نساءنا»^(٣) كما كان يقسم بينهن الإبر التي كان يأخذها «من اليهود مما عليهم من الجزية»^(٤) وهو بعمله ذلك إنما يهدف إلى تشجيع الصناعات والابقاء عليها باعتبارها أحد مصادر الدولة. تلك هي اذن مصادر المؤسسة المالية وكيفية جبايتها. كما تبدو في فكر علي عليه السلام - فما هي سبل صرفها؟

سياسة التصرف في موارد الدولة المالية كما تبدو في النهج:

يخلص القارئ المتسرع في سيرة علي عليه السلام أنه لم يكن يتمتع بفكر اقتصادي

(١) مقدمة ابن خلدون ٤٧٢.

(٢) الخراج ص ١٢٢، المسأل: ابر الخياطة الكبيرة التي يخاط بها الخيش:

(٣) أنساب الأشراف ١٣٧/٢.

(٤) المصدر السابق نفسه.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٣٤٥

قويم ولا بسياسة مالية محكمة، لعدم اهتمامه بالمال، فقد اشتهر عنه انه لا يرتاح وتطمئن نفسه حتى يقسم كل الأموال الواردة^(١). إلى بيت المسلمين، ثم ينضح ارضه بالماء ويصلي فيه^(٢) كما أثر أنه قد اقترح على عمر بن الخطاب، لما وردت إليه أموال الفتوح أن يقسمها في الناس حتى لا يبقى منها شيء^(٣)، ويروي أبو الاسود الدؤلي: أن علياً عليه السلام قد قسم كل ما وجد في بيت مال البصرة على أصحابه بعد وقعة الجمل^(٤). وتلك تصرفات لا تنم عن حنكة سياسية، وتمرس بأساليب الحكم لما فيها من عدم حساب للمستقبل، وإهمال لمشاريع الدولة، وتعطيل لأجهزتها، بسبب وفاض الخزينة من المال الذي تحتاجه لكل ذلك.

ولكن المتأمل فيما أثر عن علي عليه السلام في النهج يرى عكس ذلك، إذ يبدو ان بيت المال في أثناء خلافته كان مقسماً على أقسام ثلاثة هي:

الأول: ديوان الزكاة: وهو مؤسسة مالية قائمة بذاتها تختص بجمع الزكاة ثم توزيعها على مستحقيها بالعدل في جميع ارجاء الدولة الإسلامية تحت إشراف الخليفة واموال هذا الديوان لا يبقى علي عليه السلام منها شيئاً لكونها من المنصوص عليه في القرآن الكريم.

الثاني: ديوان العطاء: وهو مؤسسة مالية قائمة بذاتها أيضاً استحدثت

(١) راجع أبا عبيد: الأموال ص ٣٨٤، فقد روى ان علياً عليه السلام يفرض العطاء أكثر من مرة في العام.

(٢) راجع البلاذري - انساب الاشراف ٢/ ١٣٢.

(٣) راجع ابن أبي الحديد ١٢/ ٩٤.

(٤) السابق ١/ ٢٥٠.

٣٤٦ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

في عهد عمر بن الخطاب (١) ويدخل فيه أربعة أخماس (٢) ما يجبي من الغنيمة (٣) والفيء (٤) وتقسم في الجند بالسوية (٥)، وهو ما كان يتصرف فيه علي عليه السلام بإعطاء كل ذي حق حقه بالعدل بموجب ما يدخل فيه من مال وثمر وعسل وغيره من الصناعات. وجميع أموال هذا الديوان لا تدخل ضمن الصرف على مشاريع الدولة، لذلك يقوم علي عليه السلام بتقسيم جميع أمواله حتى لا يُبقي فيه شيئاً.

الثالث: بيت المال: أو خزينة الدولة، ومن مهامه الصرف على ديوان الجند وما يتعلق بمشاريع الدولة من اصلاحات واعمار، ودفع مرتبات الولاة والقضاة والعمال وغيرهم من موظفي الدواوين. ومصادر هذا الديوان خراج مالم يأخذه المسلمون من الكفار لا عنوة ولا صلحاً (٦)، وبالإضافة إلى الخمس (٧) الخامس من مال الفيء والغنيمة، وذبح بعد اقتطاع سهم ذوي

(١) راجع أبا عبيد، السابق ص ٢٣٦، وابن أبي الحديد ١٢ / ٧٥.

(٢) راجع يحيى بن آدم: الخراج ص ١٨.

(٣) الغنيمة: ما غلب عليه المسلمون بالقتال حتى يأخذه. السابق ص ١٧.

(٤) الفيء: ما صولخوا عليه دون قتال. السابق.

(٥) راجع السابق ص ١٨.

(٦) وهو ما هرب عنه أهله من مال وضياع، وتركوه من غير قتال، السابق ص ١٧.

(٧) يلاحظ هنا اختلاف المذاهب الإسلامية في سهم الرسول ﷺ من الخمس بعد وفاته «فذهب من يقول بميراث الأنبياء إلى انه موروث عنه مصروف إلى ورثته. وقال أبو ثور: يكون ملكاً للإمام بعده لقيامه بأمر الأمة مقامه، وقال أبو حنيفة: قد سقط لموته، وذهب الشافعي إلى ان يكون مصروفاً في مصالح المسلمين. والسهم الثاني سهم ذي القربى، زعم أبو حنيفة انه قد سقط حقهم منه اليوم، وعند الشافعي حقهم ثابت» الماوردى - الأحكام السلطانية ص ١١٠، ١١١.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٣٤٧

القريبى واليتامى والمساكين وابن السبيل بحسب ما ورد في قوله تعالى:

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ حُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ
وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾^(١) مع ملاحظة ان سهم الرسول عليه السلام قد
دخل ضمن اختصاصات ولي الأمر القائم بشؤون الدولة، يصرفه حيث تقتضي
مصلحة الإسلام. وبيت المال هذا هو ما يمكننا ان نطلق عليه - تجزأً - (وزارة
المالية) وهو أيضاً ما يمكننا ان نستنتج منه سياسة علي عليه السلام المتعلقة بتصرف
الشؤون المالية إبان حكمه.

فما يبدو من عهده لملك الأشر أن ميزانية الدولة عنده مقسمة كالتالي:

أولاً: الصرف على المشاريع العمرانية من طرقات وجسور وقنوات وتعهد
للأراض. وقد وضع ذلك كشرط أساس في العهد^(٢)، مما يعني ضمناً أن
العمران من أول واجبات الحكومة نحو البلاد.

ثانياً: أفراد ميزانية خاصة بالمؤسسة العسكرية^(٣)، يصرف منها على الجند

ويتفق الشيعة الإمامية من وجهة النظر القائلة بتوريث نصيب الرسول عليه السلام من الخمس لآل بيته عليهم السلام
استناداً لقول جعفر الصادق عليه السلام «الخمس لنا فريضة» الحر العاملي - وسائل الشيعة ٦/ ٣٣٧. وهم
إذ يقولون ذلك يعتقدون بعصمة الإمام مما يجعله يضع الخمس في صالح الإسلام وأهله، لذلك
يرى الخميني في كتاب الحكومة الإسلامية ص ٢٥ أن «الخمس مورد ضخم إنما هو من أجل
تسيير شؤون الدولة الإسلامية، وسد جميع احتياجاتها المالية، وأن هذه الأموال الطائلة ليست
لرفع حاجات سيد أو طالب علم... بل لسد احتياجات امة بأكملها» لكون الخمس من وجهة
نظر الشيعة اوسع في مفهومه مما هو عند السنة، راجع صفحة ٣٣٤ من هذا البحث وما بعدها.

(١) الأنفال / ٤١.

(٢) راجع رسائل ٥٣ - الفقرة ١، ٢٢.

(٣) راجع السابق، الفقرات ١٧، ٢٠، ٢١، ٢٥.

ورجال الامن، مع توفير ما تحتاجه الدولة من عتاد وسلاح.

ثالثاً: أفراد ميزانية خاصة لدفع مرتبات الموظفين، من قضاة وعمال ومراقبين وكتابة، وكل ما يتعلق بالدواوين الحكومية من خصوصيات^(١).

رابعاً: تخصيص ميزانية للصرف على العجزة والمسنين وذوي العاهات من مسلمين أو معاهدين يعيشون في كنف دولة الإسلام^(٢).

ثم ان فكر علي عليه السلام الاقتصادي لم تقتصر على جمع الأموال و صرفها بعد ذلك في وجوهها المستحقة، بل وضع في الاعتبار- كما نعتقد- ما يسمى في العصر الحديث بموازنة الداخل بالخارج، والحساب للمستقبل حتى تتجنب الحكومة أية ضائقة مالية، وتتفادى أية ازمة اقتصادية، وذلك انطلاقاً من فهمنا لقوله «ان من لم يحدّر ما هو صائر إليه لم يقدم لنفسه ما يجرزها»^(٣)، أي أن من لم ينظر بعين العقل إلى المستقبل ولم يحسب لعواقب الأمور، لم يستطع ان يجنب نفسه اللجوء إلى الحاجة والوقوع في الكوارث. وعلى هذا الأساس يمكن ان يقال - فيما نظن - ان سياسة علي عليه السلام المالية بما تضمنت من افكار مثالية، فهي أيضاً مبنية على نهج علمي وتخطيط سليم، انطلاقاً من لا إسراف ولا تقتير امتثالاً لقوله تعالى:

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا
مَّحْسُورًا﴾^(٤).

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) رسائل ٥١، الفقرة الأولى.

(٤) الاسراء/ ٢٩.

٥- العمال:

نعني بالعمال أولئك الذين يباشرون جمع الزكاة وجباية الخراج، ومراقبة الأسواق، وقد اهتم الفرس قبل الإسلام بالخراج، فوضعوا له الديوان بعد ان مسحوا الأرض واحصوا الأنفس، وعرفوا ما يمكن جبايته من كل فرد^(١)، وقد خصصوا رجالاً ذوي كفاءة لجمع الضرائب واشتروا فيهم الرأفة بالعباد، والأمانة للمحافظة على ما يجوبون من اموال^(٢)، ولما فتح المسلمون فارس، اقتبسوا ذلك النظام من الفرس^(٣)، فوضعوا على كل أرض ما يناسبها من خراج، وعلى كل إنسان لا يرغب في الدخول في الإسلام أن يدفع مقداراً معيناً من المال أطلق عليه (الجزية). وقد وكلت جباية الأموال في بدايتها إلى الولاة وتقديراتهم^(٤)، ومن ثم اختص بها موظفون خاصون تحت إشراف الخليفة أو الوالي، اقتداء بعمل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم^(٥). ولعمال الخراج، وغيرهم من مراقبي الاسواق، أهمية كبيرة في فكر علي عليه السلام، لاتصالهم المباشر بالناس على مختلف طبقاتهم، هذا بالإضافة إلى اطلاعه الواسع في أحوال الفرس، والنظام المالي

(١) راجع الجهشياري: الوزراء والكتاب ص ٤.

(٢) راجع السابق ص ٦.

(٣) راجع: دانيال دينيث: الجزية في الإسلام ص ٤٥ وما بعدها.

(٤) راجع ابن أبي الحديد ٢/٤٢، ٤٣، فقد جعل عمر بن الخطاب أبا هريرة عاملاً على هجر واليامة

وأقاصي البحرين بالإضافة إلى جباية أموالها وكذلك كان استعماله لعمر بن العاص على مصر.

(٥) من ذلك استعماله صلى الله عليه وآله وسلم «خالد بن سعيد عاملاً على صدقات اليمن وقبل على صدقات مذجح» ابن

الأثير أسد الغابة ٢/٩٨.

٣٥٠ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

عندهم، وأساليبهم في فرض الضرائب، وذلك عن طريق احتكاكه^(١) بهم، بمجالسته إياهم في مجتمع الكوفة، فأضاف ذلك رافداً ثريا إلى زاده الثقافي العميق الذي اكتسبه من الإسلام بمعاشرته الروحية للنبي ﷺ^(٢). خاصة وإن علياً عليه السلام قد كان يوصي ولاته بدراسة ماضي الأمم التي يتولون رعايتها، وما حدث عليها من عدل أو جور في ظل الحكومات المتعاقبة عليها^(٣)، حتى يتسنى لهم تفادي سخط الناس، مما يعني أنه كان يعمل بذلك. وعليه فإن علمه الواسع بشرائع الإسلام واستلهامه أحوال الماضين من خلال قصص القرآن الكريم وعبره، بالإضافة إلى اطلاعه على أحوال العناصر الأجنبية في مجتمع الكوفة، منحه كل ذلك زاداً فكرياً في معرفة أحوال الناس وطبائعهم، وطرق التعامل معهم، فأتاح له بذلك اختطاط سياسة ترتكز على التعامل مع الجميع على أسس إنسانية عمادها الأخلاق، فكان اختياره للعمال نابعاً من تلك الأسس الإيانية والاقتناع الفكري حين وضع شروط اختيارهم وصفاتهم، وكيفية التعامل معهم، لأنهم كما يقول «خزان الرعية، ووكلاء الأمة وسفراء الأئمة»^(٤). وأهم الشروط التي وضعها فيمن يتوخاه من رجال لهذا الجهاز المالي الدقيق هي:

الاعتماد على النزاهة في تعيين أفرادهم، بالبعد عن المحاباة والأثر والوساطة^(٥) مع تجنب الاستجابة لأي فرد يلح على العمل في هذا الجهاز، لأن من يتهالك

(١) أشرنا إلى ذلك في ص ٣٨٩ وما بعدها من هذا البحث.

(٢) راجع قول علي عليه السلام في علاقته بالرسول ﷺ: خطب ٢٤٠، فقرة ٢٦، ٢٧.

(٣) راجع رسائل ٥٣، فقرة ٤، ٣٨.

(٤) رسائل ٥١.

(٥) راجع رسائل ٥٣، فقرة ٢١.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٣٥١

في الحصول على مثل هذه الوظيفة دون غيرها- في فكر علي عليه السلام - ليس الا لأن في طبعه «جماع من شعب الجور والخيانة»^(١) ومحاولة الثراء على حساب الأمة. لذلك لا يصلح لمثل هذه الاعمال إلا «اهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة، والقدم في الإسلام المتقدمة، فإنهم أكرم أخلاقاً وأصح اعراضاً، وأقل في المطامع إشرافاً وأغلب في عواقب الأمور نظراً»^(٢)، لأن ارتواء نفوسهم وعمق تجربتهم ورسوخ أقدامهم في الإسلام، كل ذلك يجعلهم على فهم واسع لطبيعة الناس الذين سيتعاملون معهم، بالإضافة إلى ان التدين، وطيب العنصر، ومتانة الأخلاق من المزايا التي تردع صاحبها عن قبول الرشوة، والتعامي عن الحق، والجور على الناس.

أما الكيفية التي يجب على ولي الأمر التعامل بها مع أولئك الموظفين فإنها تتمثل - كما يراه علي عليه السلام - في منع نفوسهم من النظر إلى ما في أيدي الناس وتجنبيهم الاغراءات المادية التي تجعلهم عرضة للسقوط، وذلك بتوفير الرزق الكافي لهم «فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم، وغنى لهم»^(٣) عن الاختلاس والسرقة والنهب. وحتى إذا ما ارتكبوا خيانة اصبح ذلك «حجة عليهم»^(٤) في التنكيل بهم. ولكن العطاء المجزي ليس وحده كافياً، بل من واجب الدولة أن تتفقد أعمالهم ببث «العيون من أهل الصدق والوفاء»^(٥) لأن في شعورهم بالرقابة، رادع لهم لتفادي أي مسلك معوج يؤدي إلى العقاب.

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) رسائل ٥٣، فقرة ٢١.

(٤) المصدر السابق نفسه.

(٥) المصدر السابق نفسه.

٦- الكتاب:

اولى المسلمون الكتابة اهتماماً بالغاً، ففي صدر الإسلام وعلى عهد الرسول ﷺ باشر كثير من الصحابة الكتابة بين يديه، فقد كان «علي بن أبي طالب عليه السلام» و«عثمان بن عفان يكتبان الوحي»، فإن غابا كتبه أبي بن كعب وزيد بن ثابت، وكان خالد بن سعيد بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان يكتبان بين يديه في حوائجه»^(١).

ولأهمية الكتابة والكتب في الفكر الإسلامي، أفردت كتب الأدب أبواباً خاصة لدراسة أحكام تلك الصناعة وأهميتها وأثرها في العام والخاص من جمهور الناس^(٢)، كما أفردت كتب خاصة أخرى بأدب الكتاب ومعالجة أساليب الكتابة، إلى غير ذلك من أمور أسلوبية ولغوية وبلاغية تتعلق بشؤون المهنة^(٣)، إذ يبدو أنه كان للكتاب عندهم «احكام بينة كأحكام القضاة، يعرفون بها وينسبون إليها ويتقلدون سياسة الملك بها»^(٤) ومن أشهر رسائل الأدب العربي التي عرضت للكتاب وشؤونهم «رسالة عبد الحميد بن يحيى الكاتب»^(٥) (ت ١٣٢ هـ) الشهيرة، وقد عرض فيها لكل ما يتعلق بالكتاب

(١) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ١٢.

(٢) راجع على سبيل المثال موضوع «ادوات الكتابة والكتاب» عند: ابن عبد ربه - العقد الفريد ١٥٥/٤ وما بعدها، وراجع أيضاً الجهشيارى السابق - مقدمة الكتاب ص ١ وما بعدها وابن النديم - الفهرست ص ٧، وما بعدها.

(٣) من أشهر الكتب: أدب الكاتب لابن قتيبة، والاقتضاب في شرح أدب الكتاب - للبطلوسي (ت ٥٢١ هـ).

(٤) العقد الفريد ١٦٠/٤.

(٥) للاطلاع على نص الرسالة راجع الجهشيارى، السابق ص ٧٣ وما بعدها.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٣٥٣

من آداب، بحيث عدت دستوراً متكاملًا للكتّاب من حيث المضمون والشكل. وإذا ما نحن رجعنا إلى بلاغة عبد الحميد الكاتب فإنها - على ما نعتقد - رافد من روافد بلاغة علي عليه السلام فقد قيل لعبد الحميد «ما الذي مكنك من البلاغة، وخرجك فيها؟ فقال: حفظ كلام الأ صلح، يعني أمير المؤمنين عليه السلام»^(١). لذلك فلا عجب أن تأتي رسالته إلى الكتّاب - كما نتصورها - عبارة عن شرح مفصل لما عرضه علي عليه السلام من فكر عن مهنة الكتابة وأهميتها، وما يجب أن يتصف به الكتّاب من مواصفات والأسس التي ينبغي عليها اختيارهم. مع الوضع في الاعتبار أن علياً عليه السلام «من أهل هذه الصناعة»^(٢) إذ لم يقتصر عمله الكتابي في عهد الرسول صلى الله عليه وآله على كتابة الوحي، بل زاول أيضاً كتابة العهود. فهو كما تحدثنا كتب السير والتاريخ - الذي كتب معاهدة صلح الحديبية^(٣) بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وعليه فإن ما جاء في عهده للأشتر بشأن الكتاب نابع من تجربة واقتناع تام بمكانة الوظيفة. فوضع شرط الأخلاق الفاضلة على رأس شروط اختيار الكتاب^(٤) لما يحسه من شعور بأهمية مركزهم الذي يدخل ضمنه اسرار الدولة ومصالحها العامة، وكيفية التواصل بين القيادة والمصالح في طول البلاد وعرضها^(٥)، إلى غير ذلك من مهام بالغة في الدقة، لا يؤتمن عليها سوى الكتاب الشرفاء، الذين يعول على إخلاصهم، لشعورهم بأنهم ينطقون بلسان

(١) السابق ص ٨٢.

(٢) العقد الفريد: ٤ / ١٦١.

(٣) راجع على سبيل المثال: ابن هشام - السيرة - ٣ / ٣٣١، تاريخ الطبري ٢ / ٦٣٢، وقد عرضنا

صلح الحديبية في ص ١٤٢ الهامش (٢) من هذا البحث.

(٤) راجع رسائل ٥٣، فقرة ٢٣.

(٥) المصدر السابق نفسه.

٣٥٤ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

الحكومة في كل ما يصدر عنهم من قريب أو بعيد^(١). ومن مميزات المؤهل للوظيفة. في فكر علي عليه السلام - هو من يكون «ممتنا بكرامة»^(٢) من يعمل في خدمته، متجنباً للإجترأ عليه في خلاف حول موضوع ما «بمحضر ملاء»^(٣).

ومن يكون ذكياً نبيها لا يغفل أو يتساهل في مراجعة مكاتبات العمال «وإصدار جواباتها على الصواب»^(٤) بما يتماشى والسياسة التي يرسمها له ولي الأمر.

من يكون حازماً، ذا خبرة تامة بأساليب الكتابة التي لا يدخلها الخلل من حيث المنافذ القانونية، ولديه قدرة فائقة في التحكم بأساليب اللغة فلا «يضعف عقداً إعتقده ولا يعجز»^(٥) عن حل عقد يرى فيه مضرّة لأئمة وإمامه.

من يكون عارفاً بقدر نفسه، واثقاً من مقدراته على إداء ما يناط به من مهام كتابية، معتقداً بعلو مكانته عند من يباشر خدمته «لأن الجاهل بقدر نفسه يكون بقدر غيره أجهل»^(٦).

وتلك الشروط في مجملها تعني - عند الإمام علي عليه السلام - عدم الاعتماد على الفراسة وحسن الظن أثناء اختيار الكتاب، لأن التصنع والتظاهر بما ليس

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) المصدر السابق نفسه.

(٥) المصدر السابق نفسه.

(٦) المصدر السابق نفسه.

الباب الثاني: فكر علي بن أبي طالب عليه السلام السياسي كما يبدو في نهج البلاغة ٣٥٥

في الطباع من الأساليب التي يتبعها كثير من البشر للوصول إلى غاياتهم^(١)، لذلك فمن واجب المسؤول، وقبل ترشيحه مثل أولئك الذين يرغبون في الالتحاق بالخدمة، أن يباشر أولاً بدراسة ماضيهم الوظيفي واختيارهم بناء على «ما ولوا للصالحين»^(٢) قبله، لأنه بذلك يتمكن من توظيف «احسنهم كان في العامة أثراً وأعرفهم بالأمانة وجهاً»^(٣).

ولضبط الجهاز الوظيفي في الدولة ضبطاً حكيماً، يجب تحديد المسؤوليات بتعيين رئيس لكل شعبة، ويكون ذلك الرئيس ذا شخصية قوية متمرساً في وظيفته «لا يقهره كبيرها ولا يشث عليه كثيرها»^(٤)، وبذلك يضمن نجاح الجهاز الوظيفي وتتجنب الدولة ما لا يحمد عقباه.

٧- الرقابة الإدارية:

مهما بلغت مؤسسات الدولة من الجدية والاحكام والاخلاص، فإنها لا يمكنها الاسمرار في السير في الطريق السليم ما لم تكن تحت إشراف الخليفة^(٥) مباشرة، ولا يمكن للخليفة أو الحاكم أن يلم بكل التبعات الثقيلة الا بمعاونة من جهاز يمكن الاعتماد عليه في معرفة سير دواليب الدولة سيراً متوازناً وسليماً، لذلك - على ما نعتقد - استخدم على الرقابة الإدارية كمؤسسة قائمة

(١) المصدر السابق

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

(٥) راجع السابق فقرة ٢٧.

بذاتها، يمكنه من خلال موظفيها معرفة سير الولاية واحوال الولايات، إذ يبدو من كثير مما ورد في النهج من نصوص أنه، وعن طريق أولئك الرقباء، قد كشف كثيراً من ألعيب الولاية واختلاساتهم^(١) وقد بلغ من دقة أولئك المراقبين من اطلاعه حتى على فحوى الرسائل الخاصة التي كانت تصل إلى بعض عماله من اعدائه ومناوئيه^(٢). ويبدو أن جهاز المراقبة، عند علي عليه السلام، لا يقتصر على مراقب واحد لكل إقليم أو مؤسسة، لأن في ذلك - على ما نعتقد - اجحافاً بحق الوالي أو المسؤول، مما يجعل الحكم في حقه جائراً، فكان تعدد المراقبين^(٣) من أجل تفادي ذلك، كما أننا نفهم من سياق النصوص أن علياً عليه السلام قد اعتمد في اختياره للمراقبين الإداريين عدم معرفة بعضهم البعض^(٤)، حتى يتجنب الاتفاق فيما بينهم على باطل، وقد اشترط مسبقاً أن يكونوا من «أهل الصدق والوفاء»^(٥)، حتى إذا اجتمع رأيهم عند ولي الأمر على اتهام مسؤول بالتقصير أو الخيانة فإنه «يكتفي بذلك شاهداً»^(٦) لمعاقبة الجاني بما يستحق، وبذلك ضمن لنا علي عليه السلام - كما يتهيأ لنا - سياسة عادلة هدفها سعادة الإنسان، وبث الطمأنينة في نفسه ووضعه في المكانة المناسبة لإنسانيته، له من الحقوق مثل ما عليه من الواجبات.

(١) راجع على سبيل المثال: رسائل ٣، ٢٠، ٤٠، ٤١، ٤٣.

(٢) راجع رسائل ٤٤.

(٣) راجع رسائل ٥٣، فقرة ٢٤.

(٤) المصدر السابق نفسه.

(٥) المصدر السابق نفسه.

(٦) المصدر السابق نفسه.

سياسة الإمام علي (عليه السلام) بين المثال والواقع:

النجاح والفشل في عالم السياسة امران نسبيان، فقد يكون النجاح اخفاقاً من وجهة نظر معينة، وقد يكون العكس من وجهة نظر أخرى، ويرجع ذلك إلى مفهوم السياسة عند كلا وجهتي النظر، فالذي يرى ان السياسة تسلط ومكر واحتيال ودهاء، لا يقيم للأخلاق الفاضلة ولا للعدل أي وزن، باعتقاده أن أية سياسة لا تتفق مع مصلحته ومصلحة فئة معينة من الأمة محكوم عليها بالفشل، وجهة النظر تلك عادة ما تأخذ من فشل السياسة الأخلاقية على صعيد الواقع في كثير من الأحيان مثلاً.

أما أولئك الذين ينظرون إلى السياسة نظرة أخلاقية وينزهون أساليبها عن كل التواء، فإنهم لا يعتبرون إخفاق السياسي المثالي في تطبيق سياسته المثالية اخفاقاً للمثالية. والمتأمل في سياسة علي (عليه السلام) سيجد انها من النوع المثالي الذي لا يرى في التسلط أو شهوة الحكم غاية يركب إليها أية وسيلة، فقوله «لا يقيم أمر الله سبحانه، الا من لا يصانع ولا يضارع ولا يتبع المطامع»^(١) نابع من فكره الذي يؤمن به ويتبناه، ويسعى إلى تحقيقه على صعيد الواقع ويرجع ذلك - في اعتقادنا - إلى الانسجام التام في شخصيته بين الداخل والخارج، ولقد بذل كل ما في وسعه لخلق مثل ذلك الانسجام في أصحابه المقربين اولاً ومن ثم في رعيته عامة، ولكن الحظ لم يحالفه، لا لعب في أساليب التوصيل عنده ولكن العيب في اختلاف نفوس المسلمين في عصره، وقد شعر هو - ذاته - بذلك التغيير إلا انه لم يقبل لنفسه أن تتلون وفق مقتضيات الظروف، لارتكازه في سياسته على دعائم

(١) حكم ١٠٩، ويضارع - المضارعة المشابهة ويضارع يشبهه في عمله بالمبطلين.

٣٥٨ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

راسخة ومتينة، يقول لأصحابه «اني لعالم بما يصلحكم ويقيم أودكم، ولكني لا أرى أصلاحكم بإفساد نفسي»^(١)، لأن الاقتناع الذاتي بأساليب الإصلاح - في فكر علي عليه السلام - يختلف عما يريده أصحابه لكونهم يتصورون ان الإصلاح فيما يرغبون فيه.

لقد أراد لأولئك الأصحاب أن يكونوا بالنسبة إليه مثل أصحاب الرسول صلى الله عليه وآله بالنسبة للرسول صلى الله عليه وآله في اخلاصهم وتفانيهم للإسلام، دونما مقابل أو اجر، لكنه لم يستطع ان يحقق ذلك المجتمع، لأن الرجال الذين كانوا حول الرسول صلى الله عليه وآله كانوا ذوي نفوس مختلفة عن الرجال الذين كانوا حوله عليه السلام، لذلك راح علي عليه السلام شهيداً ضحية سياسته المثالية، ولكنه لم يخفق - كما نعتقد - في تخليد مبادئه من خلال التزامه السياسي الثابت في مجتمع مضطرب لأن «الالتزام بروح المبادئ التي ينطلق منها الحاكم، وتجسيدها على الصعيد العملي، وعدم التلاعب بمضمونها، هو النجاح في نظر الأخلاق ومقياسها وان خسر الإنسان جولة أو أكثر في سبيل ذلك»^(٢).

(١) خطب ٦٨، وأودكم: اعوجاجكم.

(٢) أحمد الوائلي: علي بن أبي طالب عليه السلام - نظرة عصرية حديثة ص ١٠٥.

الباب الثالث

فكر علي عليه السلام الاجتماعي

كما يبدو في نهج البلاغة

* الفصل الأول: المجتمع وحالته كما يبدو في فكر

علي عليه السلام.

* الفصل الثاني: القيم الخلقية كما تبدو في فكر علي عليه السلام.

* الفصل الثالث: التربية في فكر علي عليه السلام كما تبدو في

نهج البلاغة.

الفصل الأول

المجتمع وحالته في فكر علي عليه السلام

لا نتوقع ونحن نبحث في فكر الإمام علي عليه السلام الاجتماعي الحصول على تعريف نظري للمجتمع لأنه لم يكن منظراً. ولكن من خلال مزاولته للحكم ومما أثر عنه من أقوال، يمكننا تصور الملامح الأساسية لذلك الفكر المستنير بهدي القرآن الكريم والسائر في خطى السنة النبوية الشريفة. فالقرآن الكريم يدعو ضمن آياته إلى التجمع البشري ويشيد بالرابطة الإنسانية كما في قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾^(١) والآية بما تضمنته من معان سامية، دعوة لبناء مجتمع إنساني واحد أساسه العدل والتعاون والمحبة دون أي تمايز بين أفراده إلا بالعمل المثمر الذي يعود على الإنسانية بالخير العميم وما تكرر كلمة (الناس) في القرآن الكريم في ميتين وأربعين^(٢) موضعاً إلا دلالة على أن هدف الإسلام الأساسي هو بناء المجتمع المثالي «أمل الصفوة

(١) الحجرات / ١٣.

(٢) راجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم مادة (ن و س).

من المفكرين وحلم المصلحين»^(١). وقد تمكن الرسول ﷺ بالفعل من تحقيق ذلك الأمل في فترة وجيزة، حينما باشر في وضع اسس^(٢)، وذلك في السنة الأولى من الهجرة النبوية، بالمؤاخاة بين المهاجرين والوافدين على المدينة وبين الأنصار سكانها الاصليين، ثم بكتابة الوثيقة التي تنظم علاقات السكان من مهاجرين وأنصار ويهود. فبغض النظر عن التعريفات النظرية يمكننا القول، بأن الرسول ﷺ من خلال قيامه بذلك العمل العبقري الجبار، قد كان على دراية تامة بأهمية التجمع البشري في بناء المجتمع ولذلك فُرضت الهجرة إلى المدينة^(٣). واذا ما تمعنا في النصوص القرآنية والاحاديث النبوية، نخلص إلى نتيجة قوامها ان المجتمع في الفكر الإسلامي، يعني في الأساس تأمين الحياة الفردية والاجتماعية بأسلوب يتسم بالتوازن الذي يقتضي الا يكون الفرد أساساً في التشريع والحكم ولا يكون المجتمع هو الأساس الوحيد الذي تنبني عليه تشريعات الدولة، فالفرد بما له من خصائص إنسانية، هو عضو ضمن جماعة من الناس تتيح له ابراز تفرد وخصائصه على ان لا يكون ذلك التفرد على حساب الآخرين، فقول الرسول ﷺ «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم، وتعاطفهم، مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى سائر الجسد بالسهر والحمى»^(٤) يعني أن الرابطة الاجتماعية في البناء الإسلامي تجعل من الفرد جزءاً من كل متكامل من حيث التعاون والتعاقد والمساواة لأن «مفهوم المجتمع في الإسلام يقوم على امرين: التعادل بين الفرد ذاته وبين الفرد الآخر، والثاني: التوازن بين

(١) محمد جواد مغنية - التفسير الكاشف ١٤٧/٧.

(٢) راجع ص ١٣٦ وما بعدها من هذا البحث.

(٣) السابق.

(٤) صحيح مسلم ٩٩٩/٤.

الفرد والمجتمع»^(١) ولو تتبعنا الفكر الاجتماعي عند علي (عليه السلام) لوجدناه ينطوي على تلك الثنائية بمعناها الشامل، فالإنسان السوي في فكر علي (عليه السلام) هو من لديه القدرة على فهم نفسه، حتى يتمكن من التعايش مع غيره لأن «الجاهل بقدر نفسه يكون بقدر غيره أجهل»^(٢)، ومعرفة النفس تحقيق لمكانتها، ومتى استطاع الفرد أن يتحقق من مكانته في مجتمعه، فستكون علاقته بالآخرين سوية لا تشوبها شائبة ولا يعكر صفوها كدر وسيجنب نفسه التباغض والتحاسد محاولاً الدفع بالحياة إلى الإمام للرفع من مستوى المجتمع بوضع يده في يد الآخرين عن اقتناع جاعلاً نصب عينيه أن «من يقبض يده عن عشرته فإنها تقبض منه عنهم يد واحدة وتقبض منهم عنه ايد كثيرة»^(٣)، إذ لا يستطيع الإنسان العيش بمفرده دون تعاون الآخرين معه مهما بلغت امكانياته^(٤). فإذا تم التعاون بين الأفراد ينهض المجتمع، وتتوسع المسؤوليات لتشمل كل ما يحيط بالإنسان ويتعلق به من طبيعة وحيوان^(٥)، ومن خلال مباشرة الفرد لتلك المسؤوليات الواسعة يتحقق التوازن بين الفرج والمجتمع، ولكن ذلك التوازن لا يمكن ان يستقر ويستمر الا إذا أحيط بسياج من النظم تحمي حقوق الافراد وتصون مصالحهم المشتركة، وحتى لا يستغل القوي الضعيف فكانت فكرة الحكومة كرادع اجتماعي.

(١) سيد عبد الحميد مرسي - النفس البشرية ص ٣٠.

(٢) رسائل - ٥٣ فقرة ٢٣.

(٣) خطب - ٢٣ الفقرة الثالثة.

(٤) راجع بذلك الشأن ضرورة التجمع البشري - مقدمة ابن خلدون ص ٥٤.

(٥) راجع خطب - ١٦٨ الفقرة الاخيرة.

ضرورة الحكومة في فكر علي عليه السلام

تجنباً لتكرار ما عرضنا له بشأن ضرورة الحكومة في فكر الإمام علي عليه السلام^(١) يجدر بنا أن نشير إلى أن موضوع الحكومة وأن أدرج في فكر علي عليه السلام السياسي، إلا أن الجانب الاجتماعي هو الغالب عليه لكون سياسة علي عليه السلام اجتماعية بحتة، هدفها بناء المجتمع على أسس التكافل والتضامن والعدل، فلا القرابة تعطي لاحد حق الافضلية^(٢)، ولا تكون الصداقة مدعاة لإعطاء ما لا حق له فيه^(٣)، ولا الانتماء إلى جنس معين يعطي لأحد في التمايز على غيره^(٤) والحكومة العادلة هي التي تضمن كل ذلك فهي على هذا الأساس ضرورية، يقول علي عليه السلام: «لا بد من إمارة ولا يزال أمرنا متماسكاً ما لم يشتم آخرنا أولنا، فإذا خالف آخرنا أولنا وأفسدوا هلكوا وأهلكوا»^(٥) فالحكومة - كما يتضح من قول علي عليه السلام - مؤسسة اجتماعية هدفها تنظيم العلاقات، ومتى اختل النظام بين المؤسسة وبين أفرادها جراء انحراف في أحد الطرفين، فإن ذلك يؤدي حتماً إلى الفوضى واختلال النظام، لأن الحكومة - في فكر علي عليه السلام - لم تنشأ لحماية حقوق فئة معينة، ولا يمكنها أن تكون أداة توازن بين جميع فئات المجتمع إلا

(١) راجع ص ١٦٦ وما بعدها من هذا البحث.

(٢) راجع خطب - ٢٢١ - الفقرة الثانية ما جاء فيها بشأن معاملة علي عليه السلام لأخيه عقيل حين استباحه شيئاً من أموال المسلمين.

(٣) راجع خطب - ٢٢٥ - بشأن رد علي عليه السلام على صاحبه عبد الله بن زمعة حين استباحه العطاء من أموال المسلمين.

(٤) راجع ص ٢٤١ وما بعدها و ص ٣٠٠ وما بعدها من هذا البحث.

(٥) رواه ابن مزاحم في صفين ص ١٥ وليس في نهج البلاغة.

الباب الثالث: فكر علي عليه السلام الاجتماعي كما يبدو في نهج البلاغة ٣٦٥

إذا وضعت في حسابها أن النظام والقانون يطبقان على الجميع دون استثناء لأن الحكومة في الإسلام تقيم العلاقات بين الناس وتنظمها لصالح «الجميع بلا استثناء، إن أمكن، وإلا قدم صالح الأغلبية على الأقلية»^(١) فالحكومة بتلك الصورة تجعل الحاكم مراقباً لتصرفات الفئات المستغلة للحد من جموحها في التهادي في اقتناء الثروات على حساب الفئات المستضعفة لذلك رأى علي عليه السلام أن يوضح الصورة لأولئك المترفين حين عرضوا عليه الخلافة بعد مقتل عثمان وذلك في قوله «ألا لا يقولن رجال منكم غداً قد غمّرتهم الدنيا فاتخذوا العَقار وفجروا الأنهار، وركبوا الخيول الفارهة، واتخذوا الوصائفَ الرَّوِّقَةَ، فصار ذلك عليهم ناراً وشناراً، إذا ما منعتهم ما كانوا يخوضون فيه، وأصرتهم إلى حقوقهم التي يعلمون، فينقمون ذلك وينكرونه ويقولون: حرماً ابن أبي طالب حقوقنا»^(٢) وعليه فإن أسس العلاقات الاجتماعية بين الحاكم والامة في فكر علي عليه السلام تنحصر في نقطتين:

الأولى - بالنسبة إلى الحكومة:

أ- العدل واجتناب الظلم من قبل أولي الأمر وفقاً لقوله للأشتر «أنصف الله وأنصف الناس من نفسك ومن خاصة أهلك ومن لك فيه هوى من رعيتك فإنك إلا تفعل تظلم، ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده»^(٣) ولأهمية العدل العظيمة في فكر الإمام علي عليه السلام لم يجعل مسؤولية ممارسته قصراً

(١) محمد جواد مغنية - في ظلال النهج: ٩٧/٤.

(٢) رواها ابن أبي الحديد شرحه ٣٧/٧ وليست من ضمن نصوص نهج البلاغة.

(٣) رسائل - ٥٣ فقرة - ٦.

على أولي الأمر، فهو أيضاً من وجهة نظره - من مسؤولية العلماء - أي المثقفين اليوم - فردع الظالم والدفاع عن المظلوم طبقاً لقوله «ما أخذ الله على العلماء، أن لا يقاروا كُظّة ظالم ولا سغب مظلوم»^(١).

ب - التواضع وتجنب التكبر، والنأي بالنفس عن حب الاطراء، والفخر وعلي عليه السلام يرى «أن من أسخف حالات الولاية عند صالح الناس أن يظن بهم حب الفخر، ويوضع مرهم على الكبر»^(٢) لذلك فإنه يدعو أصحابه قائلاً «فَلَا تُكَلِّمُونِي بِمَا تُكَلِّمُ بِهِ الْجَبَابِرَةَ، وَلَا تَتَحَفَّظُوا مِنِّي بِمَا يَتَحَفَّظُ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ الْبَادِرَةِ، وَلَا تُخَالِطُونِي بِالْمَصَانِعَةِ، وَلَا تَظُنُّوا بِي اسْتِثْقَالاً فِي حَقِّ قَيْلٍ لِي»^(٣) فالحاكم من وجهة نظر علي عليه السلام خادم للمجتمع، وما يؤدي من أعمال لصالح الناس هي من واجباته الأساسية التي لا تدعوا إلى شكره والثناء عليه، حتى لا يظن أن ما قام به من الواجبات، إن هي الا تفضل منه فيغتر بذلك، وتتعالى نفسه ويتجبر ثم ينسى واجباته في خضم الشعور بتضخم الذات.

ج - المبادرة بإنجاز حقوق الناس دون تعطيل أو تسويق، حتى تتجنب الحكومة سخط عامة الناس الذي قد يؤدي إلى إفشال مخططاتها، ويخل بالنظام. فحين وسط الثوار علياً عليه السلام كي يعرض مظالمهم على عثمان قال له: «كلم الناس في أن يؤجلوني، حتى أخرج إليهم من مظالمهم» فقال علي عليه السلام: «ما كان في المدينة فلا أجل فيه وما غاب فأجله ووصول أمرك إليه»^(٤) وذلك يعني أن من واجب

(١) خطب ٣- فقرة ٢- والكظة - بضم الكاف - التخمة، والسغب - الجوع.

(٢) خطب ٢١٠ فقرة ٢-٣.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) خطب ١٦٥، الفقرة الأخيرة.

الحكومة الاسراع في إنجاز حاجات الناس وحل مشاكلهم.

د. علي الحاكم أن يستخبر عن أحوال الناس^(١)، لمساعدتهم في حل مشاكلهم، خاصة الفقراء والمحتاجين «من تقتحمه العيون وتقره الرجال»^(٢) بتكليف رجال اكفاء يوثق بهم لتقصي أحوالهم ودراسة أوضاعهم، ثم المباشرة في حل مشاكلهم بما يتماشى والحق، مع تجنب تقصي عورات الناس، واستخدامها كوسيلة من وسائل الارهاب، لأن في تجنب مثل تلك الاساليب إرساء لدعائم الثقة بين الحاكم والحكومة، ومحافظة على القيم الإنسانية التي اوصى الإسلام بها من نبذ للتجسس والغيبة لما تنطويان عليه من تفتيت لأواصر المجتمع وفي ذلك يقول للأشتر «ان في الناس عيوباً، والوالي أحق من سترها، فلا تكشفن عما غاب عنك منها فإنما عليك تطهير ما ظهر لك... فاستر العورة ما استطعت يستر الله منك ما تحب ستره من رعبتك»^(٣) فعلي عليه السلام يدرك أن أي مجتمع لا يخلو من العيوب، فعلى الحكومة صيانة كرامة الأفراد، وعدمك التشهير بهم، لأن للحاكم عيوبه أيضاً، فمتى شرع في البحث عن سقطات الناس، فإن الناس سيقترفون اثره في البحث عن سقطاته^(٤)، وفي ذلك مدعاة لهدم الشقة بين الحاكم والمحكوم، وهو ما سيؤدي في النهاية إلى انهيار المجتمع، وتصدع قيمه. هـ - وعلى القِيم بالأمر والحاكم أن لا يستغل سلطته ليولي رقاب الناس أهله وقربته، ليستمد منهم القوة على عامة الناس، فلا بد له ان يلزم «الحق من

(١) راجع ما ورد بشأن ذلك في رسالة رقم ٥٣ الفقرة ٢٤.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) السابق فقرة - ٨.

(٤) السابق.

٣٦٨ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

لزمه من القريب والبعيد»^(١) ويضع قرابته واصحابه في مواضعهم المناسبة من المجتمع وبذلك ينأى بالحكومة عن مواضع التهم ويجنب أجهزتها مزالق المفاضلة بين الناس على أساس من الوساطة والمحسوبية والقرابة.

الثانية: بالنسبة للمجتمع:

أ- إطاعة أولي الأمر، والامتثال لأوامر الحكومة ونواهيها فيما تسنه من نظم وقوانين تنظم العلاقات الاجتماعية بين مختلف الفئات، شريطة أن تفني الحكومة بكل التزاماتها تجاه الأمة، وفي هذا الصدد يقول علي عليه السلام متمثلاً ما لأولي الأمر من حقوق على المجتمع «أما حقي عليكم فالوفاء بالبيعة والنصيحة في المشهد والمغيب، والإجابة حين ادعوكم والطاعة حين آمركم»^(٢) وهو بهذا يتمثل جميع الواجبات المفروضة على المجتمع تجاه الحكومة. إذ لا يمكن للحكومة ان تؤدي واجبها على أكمل وجه دون تجاوب من المحكومين، على أن تكون تلك الاستجابة متمشية مع الحق والشرع، وقد أدرج علي عليه السلام ذلك الشرط في كتابه إلى أهل مصر حين ولى الأشرع عليهم وذلك في قوله «أطيعوا أمره فيما يوافق الحق»^(٣) فطاعة أولي الأمر أو الحكومة مقرونة - في فكر علي عليه السلام - بالتزام الحكام العدل قولاً وفعلاً وفقاً لقول الرسول ﷺ «لا طاعة لمن لم يطع الله»^(٤).

ب - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: يرى علي عليه السلام أن الأمر بالمعروف

(١) المصدر السابق فقرة - ٣١.

(٢) خطب ٣٤ الفقرة الأخيرة.

(٣) رسائل ٣٨ الفقرة الثانية.

(٤) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/٢١٣.

والنهي عن المنكر من صميم واجبات كل فرد من أفراد الأمة وليس قصراً على الحكومة أو على فئة معينة، لذلك فمن واجب كل قادر ان يباشر بالإصلاح في مجتمعه قولاً وعملاً قدر استطاعته وبالأسلوب المتاح له وقد يتردد الفرد عن قول الحق خوف التنكيل أو البطش والغيلة، سواء أكان ذلك من لدن السلطة المتعسفة، أم من لدن أفراد متسلطين لهم وجاهتهم لدى السلطة، لكن علياً عليه السلام بمنطقة الثوري الحاسم لا يرى في التردد والسكوت والخوف أية جدوى «لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر- من وجهة نظره - لا يقربان من أجل»^(١) أي أن السكوت عن قول الحق والرضوخ للباطل لن يقدموا أو يؤخرا أجل الإنسان المقدر له، ولأهمية دينك العنصرين في فكر علي عليه السلام فقد عدّهما من دعائم الجهاد على اعتبار انهما فرض كفاية كما في قوله «الجهاد على أربع شعب، على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصدق في المواطن، وشنان الفاسقين، فمن أمر بالمعروف شد ظهور المؤمنين، ومن نهى عن المنكر، أرغم أنوف الكافرين...»^(٢) وقد اعتبرهما من الجهاد لكونهما تضحية بالنسبة للإنسان في بحياته وبإلهه، إذا باشرهما على أصولهما، خاصة في المجتمعات الفاسدة، لأنها يمسان القاعدة العريضة بين أبناء المجتمع، ويؤثران في تصرفات الناس وأخلاقهم «فالأمر بالمعروف مصلحة للعوام والنهي عن المنكر ردع للسفهاء»^(٣) وعلى ذلك فإن تركهما أو التغاضي عنهما يعني الاختلال في بنية المجتمع بانتشار الظلم واستفحال الفساد، وهو ما يتنافى ومبادئ الإسلام التي

(١) حكم، ٣٨٠.

(٢) حكم، ٣١، والمواطن: المواضع، ويقصد بها في السياق مواطن القتال في سبيل الحق والشنان-

البغض.

(٣) حكم، ٢٥١.

٣٧٠ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

أرادت للإنسان الكرامة في مجتمع متضامن يصون حقوق جميع الناس، وعلي عليه السلام يصر على زرع هذين المبدأين في نفوس الجميع لأنه يدرك تماماً ان في تركهما انهماياراً حتمياً في قيم المجتمع خضوعاً للفرد واستسلامه للواقع بكل سيئاته مما يتيح للانتهازيين والظلمة التسلق على اكتاف المستضعفين وهضم حقوقهم، فتقلب أوضاع المجتمع وتدهور قيمه وتعمه الفوضى. يقول علي عليه السلام «ان أول ما تغلبون عليه من الجهاد، الجهاد بأيديكم، ثم بألستكم، ثم بقلوبكم، فمن لم يعرف بقلبه معروفاً، ولم ينكر منكراً، قلب فجعل اعلاه اسفله واسفله اعلاه»^(١) فكلمة الحق الصادقة والنصيحة المخلصة من أهم الأسس التي تبنى عليها شخصية الفرد في فكر علي عليه السلام، وأفضل النصح وأعزه وأقومه - عنده - يتجسد في «كلمة عدلٍ عند إمامٍ جائرٍ»^(٢).

فإذا ما التزمت الحكومة بواجباتها تجاه الأمة وأدّت الأمة ما عليها من واجبات «صلح بذلك الزمان وطمع في بقاء الدولة»^(٣) ويبدو من نصوص نهج البلاغة ان حكومة علي عليه السلام قد ادت كل ما عليها من التزامات تجاه الأمة، إلا أن الأمة لم تؤد التزاماتها، فانقلب الوضع كما يقول علي عليه السلام «لقد أصبحت الأمم تخاف ظلم رعاتها، وأصبحت أخاف ظلم رعيتي»^(٤) مما يعني في طياته، انحدار المجتمع الإسلامي في هاوية التمزق، ولكن قبل الدخول في وصف الحالة الاجتماعية في مجتمع الكوفة - من منظور علي عليه السلام - يجدر بنا التعرف على الشرائح التي تكون ذلك المجتمع منها.

(١) حكم، ٣٨١.

(٢) حكم، ٣٨٠.

(٣) خطب ٢٦ الفقرة الثالثة.

(٤) خطب، ٩٦، الفقرة الأولى.

الشرائح التي تكون منها مجتمع الكوفة:

الكوفة مدينة استحدثها المسلمون في السنة السابعة عشرة للهجرة في عهد عمر بن الخطاب وذلك - فيما يبدو - بعد انتصارهم على الفرس في معركة جلولاء،^(١) وكان الغرض من انشائها في بداية الأمر عسكرياً، وذلك «ان عمر بن الخطاب كتب إلى سعد بن أبي وقاص يأمره ان يتخذ للمسلمين دار هجرة وقيروانا وان لا يجعل بينه وبينهم بحراً... فتحول إلى الكوفة فاخطتها، واقطع الناس المنازل، وانزل القبائل منازلهم»^(٢) ومعنى ذلك ان الكوفة اصبحت قاعدة لإمداد المسلمين بالجيش، ومقراً للغنائم التي يغزونها من الجانب الشرقي وبطبيعة الحال، فإن ذلك ساعد على وفود كثير من العناصر غير العربية، وسرعان ما تحول ذلك المعسكر البسيط إلى مدينة عامرة، تعج بالناس على مختلف ثقافتهم ومستوياتهم المعيشية، فاتبعت اتساعاً عظيماً في مدة قصيرة، فتحول المعسكر البسيط إلى ولاية ذات أهمية، تحسب الدولة لسكانها ألف حساب، ويستجاب لمطالبهم تفادياً لسخطهم وثورتهم، بحيث اصبحت عمر بن الخطاب، برغم ما أثر عنه من حزم، يشكو من ذلك المجتمع، فقد أثر عنه قوله «من عذيري من أهل الكوفة ان استعملت عليهم القوي، فجروه وان وليت عليهم الضعيف حقروه»^(٣). والسبب - كما نعتقد - هو ان

(١) جلولاء: مقاطعة من مقاطعات «السواد في طريق خراسان، بينها وبين خانقين سبعة فراسخ... وبها كانت الواقعة المشهودة على الفرس سنة ١٦، فاستباحهم المسلمون فسميت جلولاء الواقعة،

لما أوقع بهم المسلمون» معجم البلدان ح/ ١٥٦.

(٢) البلاذري - فتوح البلدان ص ٣٨٧.

(٣) السابق.

٣٧٢ فكر الإمام علي عليه السلام يبدو في نهج البلاغة

مجتمعها يعيش مرحلة انتقالية تفرض على الفرد ان يتعايش مع أجناس مختلفة في العادات والتقاليد والدين واللغة، وقد يساعد على كشف ذلك اطلالة سريعة على الأجناس التي تكون منها ذلك المجتمع إذ يمكن اجمالها في خمسة:

١- الأرستقراطية العربية.

٢- الموالي.

٣- العرب البدو والذين يعتمدون على الولاء القبلي.

٤- الفرس والنبط والسيان وغيرهم ممن ظلموا متمسكين بديانتهم.

٥- العرب غير المسلمين من نصارى تغلب ونجران.

ومن الملاحظ من التقسيم السابق فقدان الرابطة الإنسانية التي دعا الإسلام إليها بين الاجناس، فمن خلال دراستنا لكل فئة على حدة يمكن الكشف عن العلاقات الاجتماعية في الكوفة.

١- الأرستقراطية العربية:

لقد قسمت الكوفة منذ نشأتها الأولى على أساس قبلي، إذ يقال ان سعد بن أبي وقاص لما أراد تمصير الكوفة وجد ان جانبها الشرقي خير من الجانب الغربي، وتفاديا للفتنة والنزاعات القبلية في جيشه المكون من قبائل يمنية واخرى نزارية، فقد أقرع فيما بينهم، فصارت القرعة في صالح أهل اليمن «فصارت خططهم في الجانب الشرقي، وصارت خطط نزار في الجانب الغربي» (١)، ثم استحدث داخل ذلك التقسيم تقسيما آخر كان الغرض منه تسهيل توزيع

(١) السابق ص ٣٨٨.

الباب الثالث: فكر علي عليه السلام الاجتماعي كما يبدو في نهج البلاغة..... ٣٧٣

الغنائم على القبائل فقسمت إلى سبعة أسباع، وأنزلت كل قبيلة منزلتها من ذلك التقسيم^(١) «بحسب النسب والحلف»^(٢) ويلاحظ أن تعداد رجال تلك القبائل في بداية استيطانها الكوفة، لا يزيد على العشرين ألف رجل^(٣)، وقد انبثقت من زعامة هذه القبائل الأرستقراطية العربية، فاستقر في نفوس أولئك وأبنائهم بأنهم أشرف مقاماً، وأصرح نسباً من القبائل الأخرى، ثم الاستعلاء بالمقام والأفضلية على الأجناس الأخرى المستضعفة.

٢- الموالي:

الولي هو الحليف، والمولى ابن العم، والمولى: «المعتق انتسب إلى نسبك، ولهذا قيل للمعتقين الموالي»^(٤) وعلى هذا فإن الولاء ينقسم على قسمين: ولاء الحلف، وولاء العتاقة^(٥). ويأتي على ضربين:

الأول منها: وهو ولاء العربي للعربي، وهذا النوع من أقدم الأنواع التي تعاقدت عليها القبائل العربية منذ الجاهلية. وقد تقسمت القبائل العربية

(١) راجع السابق ص ٣٨٧.

(٢) راجع ماسنيون - خطط الكوفة ص ٩.

(٣) عن الشعبي قال: «كنا - يعني أهل اليمن) اثني عشر ألفاً، وكانت نزار ثمانية آلاف، الا ترى أنا أكثر أهل الكوفة، ولقد خرج سهمنا بالناحية الشرقية فلذلك صارت خططنا بحيث هي» فتوح البلدان ص ٣٨٩.

(٤) لسان العرب المحيط ٣/ ٩٨٥.

(٥) حلف بالعتاق أي الإعتاق، وهو ان يعتق السيد عبده فيتحالف ذلك العبد معه وينضوي تحت حمايته - راجع لسان العرب المحيط ٢/ ٦٨٧ وراجع أيضاً بشأن ولاء العتاقة: احسان النص -

العصبية القبلية ص ٦٧.

بعد صلح الحديبية في تحالفها مع بعضها البعض على قسمين: قسم تحالف مع قريش^(١) والقسم الثاني تحالف مع الرسول ﷺ^(٢)، وقد ورد في الحديث الشريف ان «كل حلف كان في الجاهلية فلا يزيده الإسلام إلا شدة، ولا حلف في الإسلام»^(٣).

الثاني: الولاء الذي يعقد بين العرب وبين الداخلين في الإسلام من العناصر الاجنبية «وهذا الضرب من الولاء انما هو صورة جديدة من ولاء الحلف المعروفة في الجاهلية»^(٤) وهو ما نرمي إليه أيضاً في دراستنا هذه، إذ لما استوطنت القبائل العربية بالكوفة تحالفت معها بعض العناصر الفارسية من جميع الطبقات الاجتماعية التي دخلت الإسلام، وقد استمد ذلك التحالف قيمته ومثاقه من خلال المكانة الاجتماعية التي ينضوي المتحالفون تحتها. فالدهاقين^(٥) الذين دخلوا الإسلام طواعية «لم يعرض لهم عمر بن الخطاب ولم يخرج الأرض من تحت ايديهم، وازال الجزية عن رؤوسهم»^(٦)، وقد شكل أولئك، فيما نعتقد طبقة خاصة من الموالي لها امتيازاتها واحتفاظ اصحابها باقطاعاتهم وما عليها من عبيد، ولا بد انهم قد تحالفوا مع بعض القبائل العربية الفاتحة للمحافظة على اموالهم، وفي محاولة من أولئك المالي لتحسين مركزهم

(١) تحالفت بنو بكر مع قريش ودخلوا في عهدهم - راجع - السيرة، لابن هشام ٣/ ٣٣٢.

(٢) دخلت خزاعة في حلف مع الرسول ﷺ - راجع السابق.

(٣) ابن أبي الحديد ١٨/ ٦٧.

(٤) احسان النص - السابق ص ٦٧.

(٥) الدهاقين - دهقان، بكسر الدال أو فتحها: التاجر - فارسي معرب لسان العرب المحيط ١/ ١٠٢٥،

وقيل: زعيم فلاحي العجم، ورئيس الاقليم - الزاوي - ترتيب القاموس المحيط ٢/ ٢٢٢.

(٦) فتوح البلدان السابق ص ٣٧٠.

الباب الثالث: فكر علي عليه السلام الاجتماعي كما يبدو في نهج البلاغة..... ٣٧٥

المالي، فقد استطاعوا ان يكونوا لهم مكانة اجتماعية مرموقة، ولكنها دون المكانة التي تسنمتها الارستقراطية العربية. هذا بالإضافة إلى اربعة الاف من خاصة الجند في الجيش الفارسي، الذين اعتزلوا الفرس بعد انهزام قائدهم رستم في القادسية^(١)، ودخلوا الإسلام وشاركوا المسلمين في فتح المدائن^(٢)، بعد ان استأمنوا «على ان ينزلوا حيث احبوا ويفرض لهم في العطاء، فأعطوا الذي سألوه، وحالفوا زهرة بن حوية السعدي من بني تميم، وانزلهم سعد بحيث اختاروا، وفرض لهم الف الف (درهم) وكان لهم نقيب»^(٣) يتولى شؤونهم. وقد شكل أولئك أيضاً طبقة خاصة من المحاربين الموالي لهم من الحقوق ما للنخبة العربية، ولكنهم دونهم في المستوى الاجتماعي، هذا بالإضافة إلى الحرفيين، والصناع والتجار والفلاحين الذين «كانوا يحالفون العرب ويدخلون في ولائهم لحمايتهم، ويعدونهم ساداتهم»^(٤).

(١) القادسية: منطقة «بينها وبين الكوفة خمسة عشر فرسخاً - لها عدة اساء - وفيها كان يوم القادسية بين المسلمين والفرس في أيام عمر بن الخطاب في سنة ١٦ هجرية وكان الفتح للمسلمين وقُتل رستم جازويه، ولم يبق للفرس بعده قائمة، معجم البلدان ٤ / ٢٩١.

(٢) المدائن: قاعدة ملك الأكاسرة الساسانية، كان كل واحد منهم إذا ملك بيني لنفسه مدينة إلى جنب التي قبلها، وكان فتح المدائن كلها على يد سعد بن أبي وقاص في صفر سنة ١٦ في أيام عمر بن الخطاب... فلما ملك العرب ديار الفرس واختطت الكوفة والبصرة انتقل إليها الناس عن المدائن - معجم البلدان ٥ / ٧٤.

(٣) فتوح البلدان ص ٥٩٤ وزهرة بن حوية السعدي - بفتح جاء حوية وكسر الواو، وقد على النبي ﷺ من قبل ملك هجر فاسلم... وكان على مقدمة سعد في قتال القادسية... عاش حتى كبر، وقتله شبيب بن يزيد الخارجي... أيام الحجاج - أسد الغابة ٢ / ٢٦٠.

(٤) أحمد أمين فجر الإسلام ص ١٨١.

ومن الملاحظ مما سبق، إن تركيبة الجنس الفارسي التي شكلت الموالي قد كانت مقسمة في داخلها إلى طبقات تحكمها وتحدد امتيازاتها مكانة الطبقة الاجتماعية من منظور النخبة العربية الحامية لكل تلك الطبقات، مما جعل صراع ذلك الجنس يتسم بالازدواجية، فهو من ناحية صراع داخلي بين الفرس أنفسهم، وهو من ناحية أخرى صراع المغلوب للغالب العربي.

٣- العرب البدو والذين يعتمدون على الولاء القبلي:

ويشكل أولئك الغالبية العربية في المجتمع الكوفي، فقد هجروا الصحراء فراراً من شظف العيش، وطمعاً في الثراء الذي كانوا يرجونه من وراء الجهاد، إلا أنهم قد أصيبوا بنخبة أمل لكونهم لم يحققوا ما كانوا يطمحون إليه بسبب فئة معينة من النخبة العربية بالقسط الوافر من الفيء والغنيمة، مما أحال أولئك البدو إلى التبليل وعدم الثبات في موافقهم، فأصبح ولاؤهم مساومة المنتفعين من زعامة العرب، ومن الطبيعي ان يولد ذلك حقداً في نفوس أولئك البدو على الزعامة العربية المتمثلة في قريش «فعدوها غاصبة وتمنوا زوال سيادتها وعلنوا ان اموال الفيء والغنائم هي لهم وليست للحكومة فهي اموال المسلمين»^(١) وقد بين علي (عليه السلام) خطورة أولئك البدو الذين اغتالوا عثمان، وملكوا على الناس كل مسلك في المدينة^(٢).

٤- الفرس والنبط والسريان وغيرهم ممن ظلوا متمسكين بدياناتهم:

وأولئك هم الذين يشكلون الطبقة المسحوقة، وهم الغالبية في العراق

(١) النعمان القاضي - الفرق الإسلامية في الشعر العربي ص ٣٥.

(٢) راجع خطب ١٦٩.

الباب الثالث: فكر علي عليه السلام الاجتماعي كما يبدو في نهج البلاغة..... ٣٧٧

ويطلق عليهم أهل السواد^(١) لاشتغالهم بالزراعة، وهم خليط من الفرس عبدة النار، ونبط السواد من بقايا الأرمن^(٢) والسريان^(٣) من بقايا أسرى جند يسابور^(٤)، والنازحين من أهالي حران^(٥) ونصيبين^(٦)، ويمكننا التنف التاريخية التي بين أيدينا استنتاج ان سواد العراق قد كان مشحوناً بالفتن، ومصدر قلق للسلطة، ومن ذلك انه «شكا أهل السواد إلى علي عليه السلام فبعث مئة فارس فيهم ثعلبة بن يزيد الحماني، فلما رجع ثعلبة قال في مسجد بني همام: علي أن لا أرجع إلى السواد مما أرى فيه من الشر»^(٧) ففي الشاهد ما ينبىء عن غليان تلك الطبقة،

(١) سواد كل شيء: كورة ما حوله من القرى والرساتيق (جمع رستاق - بضم الراء - القرى) وأهل السواد: الفلاحون وساكنوا القرى راجع مادة (سود) في تاج العروس ٢٢٨/٨.

(٢) تاريخ الطبري ١/٦١١ وقد ورد ذكر انباط السواد أيضاً في فتوح البلدان ص ٣٦٦ وذلك يرجع كثرتهم في قرى العراق ابان الفتح الإسلامي وسموا بالارمن نسبة إلى أرم مدينتهم وللإطلاع على تاريخ الأنباط ولعرفة أصولهم راجع: كارل بروكلمان - تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٢٠- ٢١ وجرجي زيدان - العرب قبل الإسلام ص ٩٥ وما بعدها.

(٣) بشأن السريان راجع: دى بور - تاريخ الفلسفة الإسلامية ص ١٩ وما بعدها.

(٤) جند يسابور: مدينة بخورستان بناها الملك الفارسي سابور بن أردشير فنسبت إليه واسكن فيها سبي الروم، وطائفة من جنده - معجم البلدان ح/ ١٧٠.

(٥) حران: قصبه ديار مضر، بينها وبين (مدينة) الرها، وبين الرقة يومان، وهي على طريق الموصل والشام، كانت منازل الصابئة، وهم الحرانيون - معجم البلدان ٢/ ٢٣٥، وبشأن عقائد الصابئة راجع - الشهرستاني - الملل والنحل ٢/ ٥ وما بعدها.

(٦) نصيبين: مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام بينها وبين الموصل ستة أيام، كانت تابعة للروم ثم افتتحها كسرى أنوشروان وافتتحها المسلمون صلحاً سنة سبع عشرة هجرية بعد تمصير الكوفة - معجم البلدان ٥/ ٢٨٨.

(٧) أبو يوسف - الخراج ص ٣٧، وثعلبة بن يزيد الحماني الكوفي، كان على شرطة علي عليه السلام وكان غالباً

بعد ان فاضت مرارة العسف بها، وأهلب نفوس أبنائها الاضطهاد الموجه من قبل السادة الفاتحين، أو من يقوم مقامهم من الدهاقين أو جامعي الضراب، ويبدو أن استخدام العسف والتعذيب لتحصيل الخراج قد كان منذ عهد عمر بن الخطاب، رغم الوصايا التي كان يزود بها عمال الخراج، باستخدام الرأفة واللين والرحمة أثناء استجلابه^(١)، من ذلك أنه قد مر بطريقه إلى بيت المقدس سنة خمس عشرة هجرية بقوم «اقاموا في الشمس يعذبون، فقال عمر: ما بال هؤلاء يعذبون؟ فقيل: عليهم خراج»^(٢) وقد انكر الخليفة ذلك وأمر بإطلاق سراحهم لعدم قدرتهم على اداء ما عليهم، امتثالاً لروح الإسلام بالرحمة والرأفة بالعباد.

٥- العرب غير المسلمين من نصارى الحيرة ونجران وتغلب:

يحدثنا البلاذري عن وجود كثير من الأديرة^(٣) بالقرب من الكوفة قبل تمصيرها، علاوة على ذلك فإنها متاخمة للحيرة^(٤)، قاعدة الملوك اللخمييين^(٥)

في التشيع، قال البخاري: في حديثه نظر، لا يتابع وقال عنه النسائي: ثقة - ابن حجر - تهذيب التهذيب ٢٦/٢ وراجع ترجمته أيضاً في اعيان الشيعة ٤/٢٥، فقد سرد المصادر التي ترجمت إليه ولم يورد سنة وفاته.

(١) راجع بشأن استجلاب الخراج في فكر عمر: يحيى بن آدم - الخراج ص ٧٦ - ٧٧.

(٢) الواقدي - فتوح الشام ١/٢٣٧.

(٣) راجع البلاذري - فتوح البلدان ص ٣٩٧، ٣٩٨.

(٤) الحيرة: مدينة على ثلاثة أميال من الكوفة على موضع يقال له النجف، زعموا ان بحر فارس كان يتصل به - معجم البلدان ح/٣٢٨.

(٥) للاطلاع على نسب اللخمييين - راجع ابن حزم الأندلسي - جمهرة أنساب العرب ص ٤٢٢ وما بعدها.

الباب الثالث: فكر علي (عليه السلام) الاجتماعي كما يبدو في نهج البلاغة ٣٧٩

العرب الذين انضوا في «آخر الأمر تحت لواء المسيحية»^(١) بالإضافة إلى أولئك فقد نرح إلى العراق نصارى نجران، بعد ان اجلاهم^(٢) عمر بن الخطاب عن شبه الجزيرة العربية امثالاً لوصية رسول الله ﷺ بذلك. وقد استوطنوا العراق «قرية تدعى نهرابان... من كورة البهقباذ من طاسيج الكوفة»^(٣) ولقد عد أولئك النصارى من أهل ذمة وفرضت عليهم الجزية. اما نصارى بني تغلب فقد كان لهم وضع خاص، يختلف عن بقية أهل الذمة يحدثنا ابن قيم الجوزية انهم انتقلوا «في الجاهلية إلى النصرانية، وكانوا قبيلة عظيمة لهم شوكة قوية، واستمروا على ذلك حتى جاء الإسلام ووصلحوا على مضاعفة الصدقة عليهم عوضاً عن الجزية»^(٤) شريطة ان لا ينصروا اولادهم ولا يمنعوا احداً منهم رغب في الإسلام. بالإضافة إلى قلة من اليهود، الذين اجلاهم رسول الله ﷺ

(١) بروكلمان - تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٢٨.

(٢) بشأن اجلاء عمر بن الخطاب لنصارى نجران عن ارض اليمن بشبه جزيرة العرب راجع:

١- أبو عبيد: الأموال ص ١٠٨ وما بعدها.

٢- أبو يوسف: الخراج ص ٧١ وما بعدها.

٣- ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة ١/ ١٧٧ وما بعدها.

(٣) ياقوت - معجم البلدان ٥/ ٢٦٩، والبهقباذ - بالكسر فالسكون فالضم - فارسي معرب اسم

لثلاث كور ببغداد من اعمال سقي الفرات، منسوبة إلى قباذ بن فيروز والد كسرى انوشروان.

وتقع القرية التي استوطنها النجرانيون بعد نزوحهم عن نجران اليمن في البهقباذ الاسفل الذي

تقع فيه كورة الكوفة، والطسوج - بفتح الطاء وتضعيف السين وضمها فارسي معرب - الناحية

والجمع طاسيج - تاج العروس ٦/ ٨٦.

(٤) ابن قيم الجوزية - أحكام أهل الذمة ١/ ٧٥ ويمكن مراجعة الشروط التي صالحهم عليها عمر

في المصدر نفسه ص ٧٦ وما بعدها أما مساكن تغلب فكانت بالجزيرة الفراتية بجهات سنجار

ونصبين، وتعرف بديار ربيعة كحالة - معجم قبائل العرب ١/ ١٢٠.

٣٨٠ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

عن قراهم بالمدينة^(١). وأجلاهم عمر بن الخطاب عن شبه الجزيرة العرب
امتثالاً لوصية الرسول ﷺ. ذلك هو إذن مجتمع الكوفة حين قدم إليها علي عليه السلام
بعد وقعة الجمل.

مجتمع الكوفة في فكر علي عليه السلام:

دخل علي عليه السلام الكوفة «يوم الاثنين لإثنتي عشرة مضت من رجب سنة
ست وثلاثين»^(٢) ليتخذها عاصمة له فاستقبله القراء والأشراف^(٣) واهل
السواد^(٤)، فاستطاع من تلك اللقاءات ان يستطلع الوضع عن كثب ويتعرف
على مجريات الأمور، إذ كان يدرك تملل الناس من السيادة العربية، واستئثار
الأشراف بالأموال دون الفقراء، والعسف في استخراجها من أهل السواد، وما
السبب في مقتل عثمان، الا استئثار بني أمية بالأموال دون غيرهم^(٥)، ثم إن
ثورة أهل الجمل المفتعلة ومناهضتهم إياه، الا لأنه أراد أن يجرمهم الامتيازات
التي استأثروا بها ويساويهم بعامية المسلمين في الحقوق والواجبات^(٦) فإذا ما
نحن استقرانا فكره بشأن طبقات مجتمع الكوفة، فسنجد انه قد كان على دراية
تامة بمشاكل كل فئة وما يداخل نفوس أبنائها من آمال وآلام، وقد حاول أن

(١) بشأن إجلاء رسول الله ﷺ بعض اليهود عن المدينة. راجع طبقات ابن سعد ٢/٢٩ وبشأن إجلاء
اليهود عن شبه جزيرة العرب في عهد عمر بن الخطاب راجع - أحكام أهل الذمة ١/١٨٣.

(٢) ابن مزاحم - صفين ص ٣.

(٣) السابق ص ٣.

(٤) المصدر السابق ص ١٤.

(٥) راجع ص ٢٣٠ وما بعدها من هذا البحث.

(٦) راجع ص ١٤٨ وما بعدها من هذا البحث.

يضع النقاط على الحروف بالحد من غلواء المتمادين، والوقوف بجانب حقوق المستضعفين، فكان معه «العبيد والموالي والأعراب والمحرومون. وهؤلاء كانوا خائفين متبرمين لا يرضون عن حظهم من العيش»^(١). وحتى يحقق علي عليه السلام الانسجام الذي يتوخاه لذلك المجتمع، فقد استخدم أسلوب الإصلاح التدرجي. فبدأ أولاً بمعالجة داء العصبية المستشري في أعضاء الزعامة القبلية.

١- موقف علي عليه السلام من العصبية القبلية:

استشرت العصبية في مجتمع الكوفة وفي غيره من المجتمعات الإسلامية، وقد اجج لهيها وأحياها في النفوس، ما أحدثه ولاة عثمان الأمويون من أحداث في الأمصار حين عدوا أنفسهم طبقة خاصة لها امتيازاتها^(٢)، فاستحالت العصبية القبلية إلى تيار جارف لا يمكن الحد منه والتصدي له، إذ انها اسدلت بحجبها المقيته على الحق كل سبيل. فالأشعث بن قيس^(٣)، احد زعماء اليمانية في الكوفة، يقوده التعصب الأعمى ليمانيته إلى فرض أبي موسى الاشعري ليمثل أهل العراق في التحكيم لأنه يمانى ليس غير، ولا تهمه بعد ذلك النتائج التي سينجر عنها ذلك الاختيار، فحين رشح علي عليه السلام عبد الله بن عباس للتحكيم عارضه الاشعث مقسماً «لا والله لا يحكم فيها مضرين... والله لأن يحكما ببعض ما نكره وأحدهما من أهل اليمن، احب الينا من ان يكون

(١) النعمان القاضي - الفرق الإسلامية في الشعر الأموي ص ٤٧.

(٢) راجع ص ٢٣٠ وما بعدها من هذا البحث.

(٣) راجع ترجمته في هامش ص ٢٧٧ من هذا البحث.

٣٨٢ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

بعض ما نحب في حكمها وهما مضرين»^(١). ثم ان التنافس على المكانة الأثيرة عند الخليفة والنزول على طاعته مرتبط عند الزعامات بالعصبية القبلية. إذ لما حاول معاوية اشعال نار الفتنة بالبصرة لإخراجها عن طاعة علي عليه السلام سنة ثمان وثلاثين^(٢)، انقسمت فيها القبائل العربية على قسمين أحدهما ظل على بيعته لعلي عليه السلام، والآخر انضم إلى معاوية، وقد انحازت قبيلة تميم إلى جانب معاوية، وعاضدت رسوله وعامله عبد الله بن الحضرمي^(٣) على زياد بن أبيه^(٤)، عامل علي عليه السلام على البصرة نيابة عن عبد الله بن عباس في أثناء غيابه عنها، فلما أحس التميميون في الكوفة بنية علي عليه السلام على ارسال قوة معظم رجالها من الأزدي لإخماد الفتنة، أرسلوا إليه شيث بن ربعي التميمي^(٥) ليحول دون ذلك بوصفه الإزد

(١) ابن مزاحم - صفين ص ٥٠٠.

(٢) راجع بشأن ذلك - تاريخ الطبري ١١٠ / ٥ وما بعدها، وابن أبي الحديد ٣٤ / ٤ وما بعدها.

(٣) عبد الله بن عامر بن الحضرمي استعمله عثمان على مكة وبقي والياً عليها حتى قتل عثمان سنة خمس وثلاثين، وهو من اوائل الذين استجابوا للعائشة في تحريضها على نكث بيعة علي عليه السلام، شارك في حرب الجمل، ثم لجأ بعد الهزيمة إلى معاوية الذي أرسله سنة ثمان وثلاثين لأثارة الفتنة بالبصرة لإخراجها عن طاعة علي عليه السلام، فلقي حتفه هو وجماعة من أنصاره حرقاً على يد جارية بن قدامة السعدي أحد أصحاب علي عليه السلام المخلصين. راجع - ابن الأثير الكامل في التاريخ ٣ / ٩٥، ١٠٦، ١٨٢.

(٤) زياد بن أبيه: وقيل تارة زياد بن امه، ولما أستلحقه معاوية قال أكثر الناس زياد بن أبي سفيان، وكان قيل استلحقه ينسب لأبيه عبيد، الذي كان عبداً، وبقي حياً حتى أيام زياد في الرق، فاتباعه واعتقه، كان زياد شجاعاً فصيحاً، وتجلت مواهبه منذ أيام عمر بن الخطاب واستعمله علي عليه السلام على إقليم فارس تحول إلى معاوية إثر مقتل علي عليه السلام، بعد أن أستلحقه، وولاية العراقيين، البصرة والكوفة وبقي فيها حتى وفاته في سنة ٥٣ هجرية - راجع ترجمة كاملة عند: ابن عبد البر الاستيعاب بهامش الإصابة ١ / ٥٦٧، وشرح ابن أبي الحديد ١٦ / ١٧٩.

(٥) شيث بن ربعي التميمي اليربوعي: بفتح الشين المعجمة والباء الموحدة - أحد الأشراف الفرسان،

بالبعداء البغضاء، فلم يتمالك مخنف بن سليم الأزدي^(١). وفي محضر علي عليه السلام - ان يرد عليه بقول «ان البعيد البغيض من عصى الله وخالف أمير المؤمنين، وإن الحبيب القريب من أطاع الله ونصر أمير المؤمنين وهم قومي وأحدهم خير لأمر المؤمنين من عشرة من قومك»^(٢) فمن تلك المشادة يمكن استخلاص ما تنضح به نفوس الزعامة القبلية عصبية، ومحاولة الاستثثار بالمكانة السامية في نفس الخليفة عن طريق الخدمات المغموسة حتى نهايتها في تلك العصبية المقيتة. لقد بلغت العصبية ذروتها وكشرت عن أنيابها في أواخر خلافة علي عليه السلام. بحيث «كان الرجل يخرج من منازل قبيلته فيمر بمنازل أخرى، فينادي باسم قبيلته: يا للنخع مثلاً، أو يا لكندة، نداءً عالياً يقصد به الفتنة واثارة الشر»^(٣).

لقد بذل علي عليه السلام كل ما في وسعه من جهد لإخماد تلك العصبية، والعودة بالعرب إلى ما جاء به الإسلام من أخوة، واستخدام من أجل ذلك كل ما لديه

كان ممن خرج على علي عليه السلام وانكر التحكيم، ثم تاب وأتاب توفي في سنة سبعين هجرية وكان فيمن قاتل الحسين بن علي عليه السلام في كربلاء - الإصابة ١٦٢ / ٢.

(١) مخنف بن سليم الأزدي: له صحبة، وكان نقيب الأزد بالكوفة، استعمله علي بن أبي طالب عليه السلام على مدينة أصفهان، وشهد معه الجمل وصفين، وكانت معه راية الأزد يوم صفين وقد حدد الزركلي وفاته في سنة ست وثلاثين في وقعة الجمل والصواب انه توفي بعد معركة صفين أي بعد سنة سبع وثلاثين لأن ابن مزاحم في صفين ص ٨ - يذكر وجوده ضمن أشرف الكوفة حين دخلها علي بعد حرب الجمل. وجاء في ص ١٠٤ كتاب من علي عليه السلام إلى مخنف بن سليم يدعوه فيه إلى القدوم إليه بالكوفة ليسير ضمن جيشه الذي جهزه لمحاربة معاوية. راجع: أسد الغابة ١٢٨ / ٥، وأعلام الزركلي ١٩٤ / ٧.

(٢) ابن أبي الحديد ٤ / ٤٥.

(٣) السابق ١٦٦ / ٣، وقد رد علي عليه السلام تلك الأفعال بخطبة بليغة حلل فيها معاني العصبية اطلق عليها (القاصعة)، ذكرنا فقرات منها في ص ٢٩٩ وبعدها من هذا البحث.

من الاساليب المتاحة المشروعة من ذلك محاولته الغاء المواطنة المبنية على أساس الانتماء القبلي، بفك العلاقة بين الفرد وبين الزعامة القبلية عن طريق المساواة بين الناس في الحقوق^(١)، وبالذعوة إلى مقاومة تلك الدعوات الهدامة، وإبادتها من النفوس بالقوة كما في قوله «إذا رأيتم الناس بينهم الثائرة، وقد تداعوا إلى العشائر والقبائل، فاقصدوا لمهامهم ووجوههم بالسيف حتى يفزعوا إلى الله وإلى كتابه وسنة نبيه، فأما تلك الحمية من خطرات الشيطان فانتهوا عنها»^(٢). ولإحساسه الملح بالحاجة إلى تلاحم الأمة الإسلامية في ظروفها الصعبة التي تعيشها، وهي على مفترق الطريق بين الخلافة الدينية وبين الملك العضوض لجأ أيضاً إلى كتابة حلف بين أهل اليمن، وبين ربيعة من أهم بنوده «أنهم على كتاب الله، يدعون، ويأمرون به، ويحيون من دعا إليه وأمر به، ولا يشتركون به ثمناً قليلاً، ولا يرضون به بديلاً، وانهم يد واحدة...»^(٣). ويبدو ان أسلوبه في مناهضة الزعامات القبلية ومواقفته لطموحاتها لم يرق للكثير، فأخذوا يتسللون^(٤) إلى معاوية جرياً وراء المادة، وإشباع غرور التسلط الذي مكنهم منه معاوية ولكناعلياً عليه السلام - كما يبدو - وقد نجح نجاحاً جزئياً في مساعيه للقضاء على تلك العصبية، فقد تمكن بعد كفاح مرير أن يجمع شتات المجتمع مرة ثانية ويعددهم للمسير إلى معاوية، إذ يحدثنا التاريخ أنه في أيامه الأخيرة، قد أفلح في جمع كلمة المسلمين، وتوحيد صفوفهم، ومكنه ذلك من أن يعقد «للحسين عليه السلام في عشرة آلاف، ولقيس بن سعد في عشرة آلاف، ولأبي أيوب الأنصاري في

(١) راجع ص ٣١٧-٣١٨ من هذا البحث.

(٢) ابن أبي الحديد ٤ / ٤٥.

(٣) رسائل - ٧٤.

(٤) راجع رسائل - ٧٠.

الباب الثالث: فكر علي عليه السلام الاجتماعي كما يبدو في نهج البلاغة ٣٨٥

عشرة آلاف ولغيرهم على أعداد آخر، وهو يريد الرجعة إلى صفين، فما دارت الجمعة حتى ضربه... ابن ملجم... فتراجعت العساكر (فكانت) كالأغنام التي فقدت راعيها، تتخطفها الذئاب من كل مكان^(١).

٢- موقف علي عليه السلام من الموالي ومن أهل السواد:

حين استقر العرب بالعراق بعد فتح فارس كونوا لهم مجتمعاً خاصاً بهم ولم يكونوا يسمحوا لغيرهم ممن دخل الإسلام من الأمم الأخر بمحاربتهم، فوضعوا الحواجز الاجتماعية بينهم وبين الموالي، على اعتبار أنهم دونهم في المكانة فلم يسمحوا بالإختلاط بهم وتجنبوا مجالستهم، واعتبروا الصلاة وراءهم تواضعاً وتقرباً إلى الله^(٢)، وحالوا دون التزاوج معهم، خاصة بالنسبة للرجال منهم، حيث حالوا بينهم وبين الزواج من العربيات، من ذلك أن سلمان

(١) خطب ١٨٤ - تعليق راويها في نهايتها، أما أبو أيوب الأنصاري فاسمه خالد بن زيد الأنصاري الخزرجي النجاري شهد سائر المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وكان مع علي بن أبي طالب عليه السلام ومن خاصته، شهد معه الجمل وصفين، وكان على مقدمته يوم النهروان، غزا أيام معاوية أرض الروم مع يزيد بن معاوية سنة إحدى وخمسين وتوفي عند مدينة القسطنطينية - أسد الغابة ٢٥/٦. وعبد الرحمن بن ملجم المرادي، خارجي كان ضمن ثلاثة من الخوارج تعاقدوا في مكة على قتل علي عليه السلام ومعاوية وعمرو بن العاص، وتعاهدوا على القيام بذلك في شهر رمضان في الليلة التي قتل فيها علي عليه السلام وكان عبد الرحمن بن ملجم هو المتكفل بقتل علي عليه السلام، واستطاع ان يصل إلى غرضه، اما صاحبا وهما، البرك بن عبد الله التميمي، المتكفل بقتل معاوية وعمرو بن بكر التميمي المتكفل بقتل عمرو بن العاص، فلم يفلحوا، وقتل عبد الرحمن بن ملجم بعد وفاة علي عليه السلام سنة أربعين - مقاتل الطالبين ص ٤٣ وما بعدها.

(٢) راجع العقد الفريد ٣/ ٤١٣.

٣٨٦ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

الفارسي^(١)، وهو من كبار الصحابة المقربين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، خطب ابنة عمر بن الخطاب «فوعده بها، فشق ذلك على عبد الله بن عمر، فلقي عمرو بن العاص، فشكا إليه ذلك، فقال له: سأكفيك، فلقي سلمان، فقال له: هنيئاً لك يا أبا عبد الله، هذا أمير المؤمنين يتواضع لله عز وجل في تزويجك ابنته، فغضب سلمان وقال: لا والله لا تزوجت إليه ابداً»^(٢) وكان عبد الله بن عمر يستنكف من ان يناسب سلمان لكونه فارسياً، وفي ذلك دلالة على تجنب العربي من تزويج ابنته لغير العربي مهما بلغت منزلته وسمت مكانته، وقد بلغ التعصب بالعرب إزاء الموالي إلى القول «لا يقطع الصلاة الا ثلاثة: حمار، أو كلب، أو مولى»^(٣) كما أثر عن معاوية، أنه لما وجد كثرة الموالي، خطرت له فكرة ابادة قسم منهم، وترك قسم اخر لإقامة السوق وعمارة الطريق»^(٤) وقد ثناه الاحنف بن قيس^(٥) عن فكرته تلك. لذلك فلا عجب أن تلتف

(١) سلمان الفارسي: أبو عبد الله ويعرف بسلمان الخير، اصله من فارس وكان مجوسياً، رحل إلى الشام وتحول إلى النصرانية هنالك، اسلم على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة، أول مشاهدته مع الرسول صلى الله عليه وسلم الخندق، ولم يتخلف عن مشهد بعد الخندق، كان من خيار الصحابة وزهادهم وفضلائهم، وذوي القرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم توفي سنة خمس وثلاثين في اخر خلافة عثمان - ابن الأثير أسد الغابة ٤١٧/٢ وما بعدها.

(٢) ابن عبد ربه - العقد الفريد ٦/٩٠ وجاء عند أبي نعيم الحافظ (ت ٤٣٠) في كتابه حلية الأولياء ١٨٦/١ - ان الذي رفض الزيجة عمر بن الخطاب وليس ابنه عبد الله.

(٣) العقد الفريد ٣/٤١٣ .

(٤) المصدر السابق نفسه.

(٥) الأحنف بن قيس: والاحنف لقب له، لحنف (اعوجاج) كان برجله ادرك النبي صلى الله عليه وسلم ولم يره، كان أحد الحكماء الدهاة العقلاء، وكان فيمن اعتزل الحرب بين علي عليه السلام وعائشة، وشهد صفين مع

الباب الثالث: فكر علي عليه السلام الاجتماعي كما يبدو في نهج البلاغة..... ٣٨٧

أولئك الحمراء^(١) حول الإمام علي عليه السلام، والقعود إليه والاستماع لوعظه، فقد وجدوا في شخصه المنقذ والمنفذ الحقيقي لمبادئ الإسلام على أصولها، خاصة بكسره طوق العادات الجاهلية بتزويج ابنه الحسين - سبط رسول الله ﷺ - من إحدى بنات كسرى^(٢) اللواتي سبين في عهد عثمان بن عفان، وقد عرضنا فيما سبق لرد علي عليه السلام الغاضب على مقولة الأشعث بن قيس «غلبتنا عليك هذه الحمراء»^(٣) فقد كان علي عليه السلام يجالسهم ويتحدث معهم ويستقرئهم أحوال ملوكهم السابقين وسياستهم^(٤) بما يشعرونهم بقيمتهم الإنسانية مثلهم مثل أي مسلم آخر، فاحبوه، واخلصوا له وانعكس ذلك الحب فيما بعد على أحفاده الذين بلغوا مكانة سامقة في نفوس أهالي فارس^(٥).

فإذا كان الموالي وهم من المسلمين، قد لقوا من العرب الهوان والذل، فما بالك بأهل السواد من غير المسلمين، ولا خالني اجانب الصواب، إذا قلت إن العرب قد عدوا أولئك من رقيق الأرض مثلهم مثل أي متاع يباع ويشترى، ويعمل به سادته ما يشاؤون، مما جعل نفوس أولئك تمتلئ بالحقد والضغينة، والألم لأنهم خرجوا من ربقة الذل في ظل الحكم الفارسي إلى الرق والامتهان

علي عليه السلام، وبقي إلى امارة مصعب بن الزبير على العراق وتوفي سنة سبع وستين - أسد الغابة ١/ ٦٨.

(١) الحمراء - لقب كان يطلق على الموالي من الفرس - راجع ص ٣٠١ من هذا البحث.

(٢) أم علي بن الحسين هي (سلافة) من ولد يزيدجرد، معروفة النسب وكانت من خيرات النساء، وكان يقال لعلي بن الحسين عليه السلام، ابن الخيرتين، لقول «رسول الله ﷺ» الله من عباده خيرتان، من

العرب قریش ومن العجم فارس - المبرد - الكامل في الأدب ٢/ ١٢٠، ١٢١.

(٣) راجع ص ٣٠١ من هذا البحث.

(٤) راجع بن مزاحم - صفين ص ١٤.

(٥) راجع - جليل منصور العريض - التفجع في شعر الشريف الرضي ص ٣٤.

والتعذيب في ظل النظام الإسلامي الداعي إلى المساواة خاصة انهم قد وجدوا ان دخولهم الإسلام لم يغير من اوضاعهم الاجتماعية كطبقة منبوذة من عبيد الأرض، لا حول لها ولا قوة، واجبها الوحيد خدمة السادة الجدد، وتوفير الراحة لهم. ولو ان التاريخ الإسلامي قد اغفل وصف تبرمهم وثوراتهم - لكونه تاريخ حكام لا تاريخ شعوب - إلا أن ذلك التبرم والضيق يمكن تصوره من خلال مواقفهم المعادية للتسلط العربي منذ البداية، خاصة تجاه بني أمية الذين حاولوا بينهم وبين الدخول في الإسلام طمعاً في الجزية التي يؤدونها، والتي ستسقط لا محالة عنهم بإسلامهم^(١)، لذلك اعتمد المختار^(٢) عليهم اعتماداً أساسياً وانتصر بهم في عدة مواجهات^(٣) ضد عبد الملك بن مروان، إلا ان المختار بتقريب أولئك منه ألب على نفسه الارستقراطية العربية التي تضررت مصالحها، بفعله، فتسببت في نهاية الأمر إلى سقوطه^(٤).

فحين دخل علي عليه السلام الكوفة كان على دراية تامة بما آلت إليه حال أهالي

(١) راجع بشأن وصية عمر بن عبد العزيز إلى عامله على خراسان - تاريخ الطبري ٥٥٩/٦، وبشأن عسف عمال بني أمية وظلمهم للرعية راجع فحوى رسالة عمر بن عبد العزيز إلى عامله على الكوفة - تاريخ الطبري ٥٦٩/٦. بشأن أخذ الأمويين الجزية ممن اسلموا - راجع أحكام أهل الذمة ٥٩/١.

(٢) المختار بن أبي عبيد مسعود الثقفي، ولد عام الهجرة، وليست له صحبة، وكان قد خرج يطلب بثأر الحسين بن علي عليه السلام، واجتمع عليه كثير من الشيعة بالكوفة فغلب عليها، وطلب قتلة الحسين فقتلهم وقتل بالكوفة سنة سبع وستين، وكانت امارته على الكوفة سنة ونصف السنة - أسد الغابة ٥/١٢٢، ١٢٣.

(٣) راجع - الدينوري - الأخبار الطوال ص ٢٩٣ و ٢٩٩ وما بعدها.

(٤) المصدر السابق.

الباب الثالث: فكر علي عليه السلام الاجتماعي كما يبدو في نهج البلاغة..... ٣٨٩

السواد من بؤس وشقاء وتبرم ينذر بثورة، لذلك كان من الأولويات الهامة التي باشرها أن «حشر أهل السواد، فلما اجتمعوا اذن لهم، فلما رأى كثرتهم»^(١) وعدم استطاعته من الاستماع إلى شكواهم وتظلماتهم طلب منهم ان يسندوا أمرهم إلى أرضاهم في نفوسهم، كل ذلك من أجل وضع الحلول المناسبة لمشاكلهم بما يرضي الله، ويتمشى مع عدالة الإسلام، وبالفعل فقد باشر ذلك بصفة مستمرة طيلة عهده، فمما يؤثر في ذلك أنه كتب إلى كعب بن مالك^(٢) وهو احد عماله «أما بعد فاستخلف على عملك وأخرج في طائفة من اصحابك حتى تمر بأرض السواد كورة كورة فتسألهم عن عمالهم، وتنظر في سيرتهم حتى تمر بمن كان فيما بين دخلة والفرات»^(٣).

كما ان احتكاكه المباشر بهم مكنه من التعرف على اساليبهم المتتوية في التهرب من اداء ما عليهم من الخراج والجزية، مما جعله يستعمل معهم سياسة العطف والرحمة الممزوجة بالحزم حتى لا يفلت زمامهم من يده، فهو في الوقت الذي يأمر فيه عماله بالحزم والشدة على أولئك الفلاحين والصناع الا انه لا يرضى ان

(١) ابن مزاحم - صفين - ص ١٤ .

(٢) كعب بن مالك الأنصاري، كناه الرسول ﷺ أبا عبد الله، شاعر مشهور، شهد العقبة وبايع بها، وتخلف عن بدر وشهد ما بعدها، وتخلف عن تبوك، وهو أحد الثلاثة الذين تاب الله عليهم، وقد أخرج أبو الفرج الأصبهاني في كتابه الأغاني سند شامي فيه ضعف وانقطاع، أن حسان بن ثابت وكعب بن مالك والنعمان بن بشير دخلوا على علي عليه السلام، فناظروه في شأن عثمان، وأنشده كعب شعرا في رثاء عثمان ثم خرجوا من عنده فتوجهوا إلى معاوية فأكرمهم - ابن حجر - الإصابة ٣/ ٣٠٧ والراجع بشأن كعب أنه صحب علياً عليه السلام وولاه بعض سواد العراق، كما ورد عند القاضي أبي يوسف، في كتاب الخراج ١١٨، وتوفي كعب في حكم معاوية.

(٣) القاضي أبو يوسف - الخراج ص ١١٨ .

٣٩٠ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

يؤخذ منهم سوى ما يمكنهم دفعه قدر استطاعتهم^(١)، وتلك هي عين العدالة الاجتماعية في الإسلام.

فالحزم مطلوب - في فكر علي عليه السلام الاجتماعي - ولكن الرأفة والرحمة مطلوبتان أيضاً فكفر أولئك لا ينقص من حقوقهم الإنسانية، شكا إليه بعض أهل السواد من رؤساء الفلاحين غلظة احد ولاته فكتب إليه «أما بعد فإن دهاقين أهل بلدك شكوا منك غلظة وقسوة واحتقاراً وجفوة، ونظرت فلم أرهم لأن يدنوا لشركهم ولا أن يقصوا ويجفوا لعهدهم، فالبس لهم جلباباً من اللين تشوبه بطرف من الشدة، وداوك لهم بين القسوة والرأفة...»^(٢).

فمن الملاحظ في فحوى الرسالة ان علياً عليه السلام قد جعل اللين جلباباً للوالي وجعل الشدة طرفاً من ذلك الجلباب، وتلك اعلى مراتب التربية الاجتماعية، لكون الارحاء واللين إذا لم يحاط بالحزم في أي أمر يتعلق بالنظام، فإنه لا محالة يؤديان إلى الفوضى والانفلات، سواء على المستوى الفردي أو الجماعي، مع الوضع في الاعتبار اشارة علي عليه السلام إلى كون أولئك كفاراً لا يعني على الاطلاق سلبهم حقوقهم الاجتماعية في العيش كمواطنين، مثلهم مثل أي إنسان لأن الناس من وجهة نظر علي «صنفان: إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق»^(٣) ويجب التعامل معهم على ذلك الأساس، وقد نبع موقف علي عليه السلام من

(١) راجع بشأن ذلك حكاية علي عليه السلام مع الرجل الثقفي الذي استعمله على عكبرا وهي بلدة من نواحي دجيل بينها وبين بغداد عشرون فرسخاً - معجم البلدان ٤/ ١٤٢ عند ابن القيم الجوزية في أحكام أهل الذمة ٥٩.

(٢) رسائل - ١٩.

(٣) رسائل - ٥٣ فقرة ٣.

أهل السواد على أنهم من الصنف الثاني، الذي يجب أن ترعى حقوقه من أجل الرابطة الإنسانية، ومن أجل احترام ارادة الله سبحانه وتعالى في خلقه.

٣- موقف الإمام علي (عليه السلام) من العرب البدو:

يصف ابن خلدون البدو «بطبيعة التوحش الذي فيهم، أهل انتهاب وعبث، ينتهبون ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا ركب خطر... (وأنهم) إذ تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب، والسبب في ذلك انهم امة وحشية، باستحكام عوائد التوحش واسبابه فيهم، فصار خلقا وجبله، وكان عندهم ملذوذاً، لما فيه من الخروج عن ربة الحكم وعدم الانقياد للسياسة، وهذه منافية للعمران»^(١)، وذلك الوصف الواقعي لم يأت عند ابن خلدون من فراغ، إذ لا بد أنه قد عايش البدو واحتك بهم وعانى منهم جراء رحلاته الطويلة^(٢) وتقلبه في مناصب القضاء^(٣) بالإضافة إلى احتكاكه المباشر بالمغول^(٤) كما تحدثنا سيرته، ثم ان قراءته في التاريخ وسبر اغوار احداثه، جعله يمعن الفكر في الاجتماع البشري بعين الباحث الدقيق^(٥)، فاستطاع ان يصور الحقيقة بأمانة وصدق، ودراستنا لحال الأعراب الذين كانوا يستوطنون الكوفة دليل على ذلك، ان أولئك رغم انتقالهم من الصحراء إلى المجتمع الحضري، فإن ذلك الانتقال لم يغير من طبائعهم

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٨٦، ١٨٧.

(٢) حول رحلات ابن خلدون المتعددة راجع تاريخه ٧/ ٤٣٧، ٥٤٨، ٥٥٧، ٦٤٨، ٦٥٧.

(٣) بشأن تولي ابن خلدون منصب القضاء راجع تاريخه ٧/ ٥٦٣، ٧١٤، ٧٤١.

(٤) بشأن مقابلة ابن خلدون التتار أو المغول راجع تاريخه ٧/ ٧٢٨، أما بشأن التتار وكيف بدأت هجماتهم على البلاد الإسلامية فراجع - ابن أبي الحديد ٨/ ٢ وما بعدها.

(٥) لمعرفة منهج ابن خلدون في فلسفته لتاريخ الشعوب والأمم - راجع المقدمة ص ٦ وما بعدها.

بسبب تفوقهم على أنفسهم عن طريق التكتل القبلي، فلم تعمل الحضارة في حياتهم وعاداتهم، لكونهم قد انتقلوا من الصحراء على شكل جماعات، وحملوا معهم طباعهم وعاداتهم التي ورثوها فأصبحت جبلة فيهم لا يمكن تغييرها، الا بالاحتكاك المباشر بالحضارة وهذا ما لم يفعلوه لتعارضه واساليبهم في الغزو والاستيلاء والنهب، فعلى سبيل المثال، عدم تعريقهم بين الحملات العسكرية المراد منها إعادة أولئك المحاربين من البدو ما أبداه علي عليه السلام تجاه أهل البصرة من تسامح بعد وقعة الجمل سنة وست وثلاثين، فقد احل علي عليه السلام لجيشه الاستيلاء على كل ما في معسكر المناوئين له، دون اسر الرجال وسبي النساء، أو مصادرة ما حوته مساكنهم من اموال، فقد كان علي عليه السلام ينظر لأولئك نظرة الخارجين عن الصف الإسلامي، لا نظره إلى الكافرين أو المرتدين، وذلك امتثالاً لما ورد في الذكر الحكيم:

﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾^(١) وقد عمل علي عليه السلام بحكم الآية الكريمة بتمامه، فحاول الاصلاح بين الفتتين على أساس أن كليهما تدينان بالإسلام، ولكن أولئك الأعراب الذين ملكت المادة عليهم كل سبيل لم يقبلوا ذلك منه، بقولهم باستنكار «ما أحل لنا دماءهم وحرم علينا امواهم»^(٢) لأنهم لم يشربوا الإسلام في قلوبهم، وأقصروا نظرهم على الجانب المادي، ومن المعتقد أن الجدل قد استمر بينهم وبين علي عليه السلام ولم يقتنعوا بوجهة نظره إلا بعد أن قال لهم «هذه عائشة رأس القوم

(١) الحجر / ٩.

(٢) العقد الفريد ٤ / ٣٣١.

أنتساهمون عليها؟^(١). يبدو أن الطابع البدوي قد غلب المجتمع الكوفي، بحيث أثر في أخلاق المجتمع وسار بالقيم نحو التداعي، مما جعل علي عليه السلام يتصدى له بكل قوة متبرماً من ذلك «اعلموا أنكم صرتم بعد الهجرة اعراباً، وبعد الموالاة أحزاباً، لا تعقلون من الإسلام إلا اسمه، ولا تعرفون من الإيمان إلا رسمه تقولون النار ولا العار، كأنكم تريدون ان تكفئوا الإسلام على وجهه، انتهاكاً لحريمه، ونقضاً لميثاقه الذي وضعه لكم حرماً في أرضه»^(٢).

لقد كان أولئك الأعراب يعرضون ولاءهم على من يصدق عليهم وكان علي عليه السلام على دراية تامة بأساليبهم في تقربهم إلى الولاة والحكام، لذلك لاحقهم وتتبع تحركاتهم، خاصة ان انتقلهم إلى المجتمع المدني لم يشذب اخلاقهم، ولم يغير من عاداتهم، فعنصر الغزو الذي تشبعت به نفوسهم، قد شذب الإسلام بعض جوانبه، إلا أنه ما برح يراود نفوسهم، لذلك سلكوا أسلوباً آخر للكسب على حساب الأمة بإغراء ولاة الاقاليم بتبينهم - فمن خلال رسالة كتبها علي عليه السلام إلى واليه علي أردشير خرة^(٣) نستنتج ان ذلك العامل - بما تحمله نفسه من روح البداوة كان يغدق العطاء من اموال المسلمين على من اعتماه من اعراب قومه، لذلك كتب إليه علي بأسلوب مشحون بالغضب يتهدده متوعداً «فو الذي فلق

(١) السابق.

(٢) خطب - ٢٤٠، فقرة ٢٣.

(٣) أردشير خرة: بفتح الألف وسكون الراء وفتح الدال وكسر الشين وياء ساكنة في (اردشير): وخاء مضمومة، وراء مفتوحة مشددة وها (خره)، وهو اسم فارسي مركب معناه بهاء اردشير، و اردشير اسم الملك من ملوك الفرس، و اردشير خره من أجل كور فارس وتدخل ضمنها كثير من المدن الهامة كشيراز وكازرون وغيرها - معجم البلدان ١/ ١٤٦، أما عامل علي عليه السلام عليها فقد كان مصقلة بن هبيرة الشيباني فسترده ترجمته في ص ٣٩٦ هامش (٢) من هذا البحث.

٣٩٤ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

الحبة، وبرا النسمة، لئن كان ذلك حقاً، لتجدن لك علي هوانا، ولتخفن عندي ميزانا»^(١). وقد ظل أولئك الأعراب عقبة كأداء في خطط علي عليه السلام الإصلاحية، خاصة بعد أن انضوى معظمهم تحت راية الذين خرجوا على علي عليه السلام بعد قضية رفع المصاحف في صفين، وبعد مهزلة التحكيم، وحدثوا أحداثاً منافية للروح الإسلامية^(٢) ولم يتمكن الإمام علي عليه السلام من إعادة صف المجتمع الكوفي إلا بعد قضائه على معظمهم في وقعة النهروان^(٣) سنة تسع وثلاثين، ولكن لم يحالفه الحظ في إتمام خطه الإصلاحية حين استشهد على يد واحد من أولئك الخوارج في السنة الأربعين هجرية.

٤- موقف الإمام علي عليه السلام من العرب غير المسلمين من نصارى تغلب ونجران:

لا نكاد نعر على أي نص في نهج البلاغة يتعلق بموقف علي عليه السلام من نصارى العرب، وان مجمل ما ورد في النهج يتعلق بأهل الذمة والمعاهدين وكل ذلك يندرج تحت وصاياهم، بالرأفة بهم وتجنب تكليفهم بما لا يطيقون إلى غير ذلك من وصايا إنسانية^(٤) إلا أننا لا نعدم نصوصاً في المصادر الأخرى تضع أقدامنا على الطريق، في مجال التعرف على موقف علي عليه السلام من أولئك العرب. فإذا كان

(١) رسائل-٤٣

(٢) بشأن فتنة الخوارج في خلافة علي عليه السلام والسبب في محاربتهم إياهم راجع: الدينوري- الأخبار الطوال من ص ٢٠٢ حتى ص ٢٠٧.

(٣) النهروان: وأكثر ما يجري بها على اللسان بكسر النون، وهي كورة واسعة بين بغداد وواسط من الجانب الشرقي، حدها الأعلى متصل ببغداد، وفيها عدة بلاد متوسطة، وكان بها وقعة لأمر المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام مع الخوارج مشهودة. معجم البلدان ٥/ ٣٢٤، ٣٢٥.

(٤) راجع رسائل- ٥١ و ٥٣ فقرة ٤

علي عليه السلام عاملهم معاملة إنسانية أساسها العطف والرحمة، فإن ذلك لا يعني انه قد ترك لهم الحبل على الغارب يعملون ما يشاؤون، فقد جعلهم تحت بصره وسمعته، لأنه يدرك بحسه العربي، ما يصطرع في نفوس أولئك العرب من قهر وضيم وصغار وقوعهم تحت طائلة القانون الذي يجرمهم من مزاوله الكثير من عاداتهم وتقاليدهم، ولا يسمح بها إليهم الا في حدود ما عاهدوا عليه في سبيل ابقائهم على نصرانيتهم^(١). ونفسية العربي عادة ما يراودها التمرد، مما جبل عليه من إباء وشيم ينفرانه من الخضوع والاستكانة، وأولئك النصارى مثلهم مثل القبائل العربية الأخرى لكونهم أبناء بيئة واحدة، فتمردهم على السلطة لا بد أن يكون حتماً، وان اتخذ أساليب مختلفة تنأى بهم عن الغزو والسبي، خاصة وانهم وجدوا ان علياً لم يكن دون غيره ممن سبقه في حزمه تجاههم، فقد شاهدوه وهو يحرق بيده قرية مسيحية في سواد الكوفة اشتهرت بصناعة الخمر وهو بعمله ذاك ينفذ شريعة الإسلام على اعتبار «أن الخبيث يأكل بعضه بعضاً»^(٢)، فكما يبدو أن نصارى تغلب قد احسوا بانشغال المسلمين ببعضهم البعض بفتنة عثمان بحرب الجمل وبالمشادات الكلامية ومن ثم العسكرية بين علي عليه السلام ومعاقبة ففسخوا ما عاهدوا عليه عمر بن الخطاب، بأن يدفعوا ضعف الزكاة بدلاً من دفعهم الجزية شريطة ألا ينصروا أولادهم، لأن علياً عليه السلام قد كان منشغلاً عنهم، ولن يطالهم عقابه، ولكنه كان على علم بنقضهم العهد إذ أثر عنه بشأن نصارى تغلب قوله «لئن تفرغت لبني تغلب ليكونن لي فيهم رأي: لاقتلن مقاتلتهم، ولا سبين ذراريرهم، فقد نقضوا العهد وبرئت منهم الذمة

(١) بشأن الشروط المفروضة على أهل الذمة راجع - ابن القيم - أحكام أهل الذمة ٦٥٧/٢ وما بعدها.

(٢) السابق ٧٢٩/٢.

حين نصرُوا أولادهم»^(١) فلما أحسوا بموقف علي عليه السلام، منهم، أخذوا يكيّدون له في الخفاء، بالوقوف بجانب معاوية كيلا يمكنه من التفرغ لهم، فعمل كثير منهم جواسيس لمعاوية في الكوفة، من ذلك أن مصقلة بن هبيرة الشيباني^(٢)، لما هرب من علي عليه السلام ولجأ إلى معاوية كتب لأخيه نعيم بن هبيرة^(٣) «مع رجل من نصارى تغلب... أما بعد، فإني كلمت معاوية فيك فوعدك بالكرمة، وهناك بالإمارة فاقبل ساعة تلقي رسولي»^(٤) فاطلع نعيم علياً على الكتاب وخبر الرسول التغلبي، فكانت نهاية ذلك الرسول الهلاك بعد أن قطع علي عليه السلام يده جزاء فعلته تلك وعلى العموم فقد نال نصارى تغلب حظوة عند الأمويين فيما بعد مكافأة على مواقفهم السابقة، فأباحوا لهم كل ما عاهدوا على تحريمه^(٥)

(١) أبو عبيد: الأموال ص ٢٤ وجاء مثله في أحكام أهل الذمة ٧٩/١.

(٢) مصقلة بن هبيرة الشيباني: كان من رجال علي بن أبي طالب عليه السلام ثم هرب إلى معاوية بعد أن اشترى سبي بني ناجية من عامل علي عليه السلام واعتقه، فلما طالبه علي عليه السلام ببقية المال بعد أن دفع قسطاً منه، لم يتمكن من سداده ففر إلى معاوية وكان في صفين قتل ومعظم جيشه في فتح طبرستان. راجع نسبه وخبره مع بني ناجية عند ابن أبي الحديد ٣/١٢٧. أما ترجمته فراجعها عند الزركلي - الأعلام ٧/٢٤٩.

(٣) نعيم بن هبيرة الشيباني: من أهل بيت وعدة في جاهلية والاسلام. راجع بشأن نسبه: جمهرة انساب العرب لابن حزم الاندلسي ص ٣٢١. كان شيعياً ولعلي عليه السلام مناصحاً، وهو ممن شاركوا في ثورة المختار للثأر من قتلة الحسين عليه السلام، قتل سنة ست وستين في معركة دارت في الكوفة بين أصحاب المختار وبين شيعة الأمويين، وكان قائداً لتلك المعركة، راجع: تاريخ الطبري ٥/١٣٠ و٦/٢٤، ٢٥.

(٤) شرح ابن أبي الحديد ٣/١٤٦.

(٥) بشأن انحياز بعض نصارى تغلب إلى معاوية ضد علي عليه السلام راجع - البلاذري - أنساب الأشراف ٢/٤٦٩. ويروى أن الاخطل التغلبي يجاهر بطلب شرب الخمر في مجلس عبد الملك بن مروان

من قبل من سبق أمير المؤمنين عليه السلام من قبل.

أما نصارى نجران فلم يكن لهم من الحقوق مثل ما كان لنصارى تغلب، فقد كانوا يدفعون الجزية مثل بقية أهل الذمة إلا أن الذي بقي أثره في نفوسهم، ولم يستطيعوا نسيانه، قيام عمر بإجلائهم عن موطنهم نجران اليمن فأخذوا يتحينون الفرصة للعودة إلى بلادهم، فظنوا انها مؤاتية بتولي علي عليه السلام الخلافة، وكأنهم بذلك يريدون - بدهاء وخبث - ان يرد علي عليه السلام على عمر ذلك بالسماح لهم بالعودة، فطلبوا منه ان يكتب لهم عهداً بذلك شاكين إليه تصرف عمر، فبادر علي عليه السلام إلى زعيمهم بالقول «فلم يرجعهم إلى ديارهم»^(١). فالنصارى العرب وان لم يرد لهم ذكر في نهج البلاغة الا ان دورهم - فيما يبدو - كان منحصراً في الكيد للإسلام في الخفاء، وانتهاز الفرص لتقضى العهود مما ادى بعلي عليه السلام إلى موافقتهم لمنعهم عما يرمون إليه.

ذلك إذن موقف الإمام علي عليه السلام من الفئات التي تكون مجتمع الكوفة منها، وهو - كما رأينا - مجتمع متباين في عاداته وفي تقاليده مختلف الديانات، غير منسجم في العلاقات بين أفراده. وقد عاشه علي عليه السلام بكل إحساساته فبذل كل ما في وسعه من جهد لإعادة بنيته المتداعية، التي شبهها بالثوب البالي، الذي كلما خيط من

فلا يناله أي عقاب ثم أنه يمدح عبد الملك وهو سكران فيغدق عليه الخفية الأموي ويزيد في جائزته - وفي ذلك مثل على تساهل الأمويين مع التغلبيين النصارى، راجع الأغاني ١/ ٢٩٣ ويشجع الأمويون غير المسلمين على البقاء في دياراتهم بفرض الجزية عليهم وان دخلوا في الإسلام وهذا بطبيعة الحال ساعد أولئك النصارى على تنصير أولادهم وهو ما يتنافى و شروط عمر بن الخطاب على التغلبيين راجع - أحكام أهل الذمة ١/ ٥٩ و ص ٢٦٣ من هذا البحث.

(١) راجع أبو يوسف - الخراج ص ٧٤ .

ناحية تهزج وتمزق من ناحية أخرى^(١)، فكان وصفه لحالة ذلك المجتمع وليد معاناته في تقويم ما انتابه من اعوجاج، أو بالأحرى محاولة مستميتة وصبورة لإعادة بنائه بفضح عيوبه لاطلاع الناس عليها وتبصرهم بخطورتها.

حالة المجتمع كما تبدو في فكر علي عليه السلام

عاش علي عليه السلام مجتمع الكوفة بكل فئاته لإحساسه التام بمسؤوليته كحاكم، من الواجب عليه أن يلتم بجميع المشاكل ويضع لها الحلول المناسبة. ومن خلال احتكاكه المباشر أمكنه التعرف على حالة المجتمع من جميع جوانبها، كما مكنته ذلك من الدخول في نفوس الناس وسبر أغوارهم إزاء تيار المادة الجارف، الذي يمدى بكل فرد - من ذلك المجتمع - إلى النظرة للحياة من الزاوية التي يرى فيها مصلحة لغرض النظر. في معظم الأحيان عن القيم والأخلاق، فشاع في جنبات ذلك المجتمع الاستغلال والفساد والقهر والمغالبة، فأحال ذلك الوضع المزري الناس كما يرى علي عليه السلام إلى «كلاب عاوية، وسباع ضارية، يهر بعضها على البعض، ويأكل عزيزها ذليلها، ويقهر كبيرها صغيرها، نعم معقلة، وأخرى مهملة قد أضلت عقولها، وركبت مجهولها، سروح عاهة، بواد عث، ليس لها راع يقيمها ولا ميسم يسميها»^(٢) فالصورة التي رسمها

(١) راجع: خطب - ٦٨.

(٢) رسائل ٣١ - الفقرة ١٩. وضارية مولعة بالافتراس، يهر - بكسر الهاء أو بضمها: أي يمقت ويكره، ومعقله - بتشديد القاف: - مشدودة بالعقال، وهو حبل يربط به رجلا الناقة الاماميتان للحد من سرعتها أثناء السفر عليها، وكنى على الابل المعقلة عن الضعفاء من أبناء المجتمع الذين لا حول لهم ولا قوة، والمهملة: المطلق سراحها، وهي كناية عن الأقوياء الجبابرة، وأضلت عقولها: أضاعت عقولها وتخبطت في الطريق المجهول، والسروح - بضم السين جمع سرح بفتح

علي عليه السلام لحالة المجتمع الإسلامي في عصره تبدو قائمة، ولكنها واقعية - على الأقل - من وجهة النظر المثالية التي تبناها علي عليه السلام، وسار على هديها للقضاء على الفساد الاجتماعي وليس أدل على ذلك من مقارنته بين ماضي الإسلام المفعم بالحب والاخلاص للمبادئ، وبين الواقع المؤلم المليء بالرزايا والمحن وانعدام الأخلاق. فرجال الأمس في صدقهم لم يكونوا كرجال اليوم في كذبهم ونفاقهم، يقول علي عليه السلام بأسلوب ملؤه الأسى والتحسر «اين خياركم وصلحاءكم، وأين أحراركم وسمحاؤكم، وأين المتورعون في مكاسبهم المنتزهون في مذاهبهم، أليس قد ظعنوا جميعاً... وهل خلفتم إلا في حثالة لا تلتقي بدمهم الشفتان استصغاراً لقدرهم وذهاباً عن ذكرهم»^(١). فامتزاج الأسى بالازدراء لم يتولد في نفس علي عليه السلام لولا حبه غير المحدود للإنسانية، وإيمانه الصادق المتين بقيم الإسلام الأخلاقية، فما فعله من كشف لعيوب المجتمع وسلبياته، ووصفه ما آلت إليه حاله من تدهور، لم يكن يقصد من ورائه سوى النقد البناء، بفضح ما يعتور الطبقات الاجتماعية من عيوب، وعادات هدامة، وليس ثمة سبيل للقضاء عليها الا بإشهارها، وتبصير الناس بما يكتنفها من اخطار لعلمهم يعون وينظرون فيها نظرة واقعية، ويعرفون على ضوء كل ذلك السبيل القويم الذي أرداه الإسلام للمجتمع. لقد استمر علي عليه السلام في نقده العنيف للمجتمع وكشف عيوبه بإصرار دؤوب ليس له حدود، ونعتقد أن ذلك النقد قد انبنى على خمسة محاور، كل محور منها نتيجة للذي قبله وهي:

فسكون: وهو المال، السائم من إبل وحيوان وعاهة: آفة ومرض، أي أنهم يسرحون برعي

المتاعب، والوعث: الرخو اللين الذي يصعب السير فيه.

(١) (خطب - ١٢٩، والحثالة - بضم الحاء الرديء من كل شيء.

١- استفحال الجهل والاستبداد بالرأي:

الجهل عاهة اجتماعية مزمنة وخطيرة فإذا ما طبقت على مجتمع ما، فنهايتها الحتمية الزوال والاندثار، لكون كل فرد من أفراد ذلك المجتمع - وبسبب جهل - يركب رايه ويتخبط في ضلاله بجانب تخبط الآخرين من ابناء مجتمعه، في ظلمة دامسة وذلك يؤدي، بطبيعة الحال، إلى التوقع دخل الذات والتشيث بالرأي محافظة على الكيان الفردي. ومعظم فئات مجتمع علي عليه السلام من ذلك النوع الجاهل بعواقب الأمور، مما أدى إلى تشعب الطرق بينه وبينهم، فانعدمت مقدرته على التفاهم مع جهلهم لأنهم «يعملون في الشبهات ويسيرون في الشهوات، المنكر عندهم ما أنكروا، مفزعهم في العضلات أنفسهم، وتعويلهم في المبهات على آرائهم، وكان كل أمرى إمام نفسه، قد أخذ منها فيما يرى بعري ثقات، واسباب محكمة»^(١) والاستجابة لشهوات النفس والنزول على رغباتها من أكبر معاول الهدم لكيان الفرد ركيزة المجتمع الأساسية، فإذا ما افتقد الفرد توازنه، انعكس ذلك الاختلال على المجتمع بقدر دوره وفاعليته، ما يؤدي في نهاية الأمر إلى شيوع الفوضى وانعدام رابطة التعاون.

٢- شيوع الفوضى وانعدام رابطة التعاون:

النظام من أهم العوامل الحضارة، وشيوعه في مجتمع ما يحتاج إلى مستوى ثقافي معين، والتزام خلقي يجعل من كل إنسان نعمة متجانسة في جوقه المجتمع بكل فئاته، والفردية وإن كانت تلزم صاحبها بالإحساس بكيانه وتفرد، إلا

(١) (خطب ٨٧، والمعضلات: الشدائد المغلقة، والتعويل: الفرع والاعتقاد.

أنها في الجانب الآخر يجب ان تذوب في كيان المجتمع وتتفاعل معه بالأخذ والعطاء، ولا يتأتى ذلك لمجتمع جاهل، لأن الجهل ضد النظام، لذلك فقد صور علي عليه السلام مجتمعه الجاهل بانفلاته من النظام «كالإبل ضل رعاتها، فكلما جمعت من جانب انتشرت من آخر»^(١) فالإبل هم عامة الناس الذين يجهلون مصائبهم بانقيادهم إلى زعاماتهم بالتعصب لهم ولآرائهم عن جهل لأن أولئك الزعماء، والقادة الذين يجرون وراء مطامعهم الشخصية، إنما يقودونهم لتحقيق مآربهم الشخصية، فالمجتمع بفئاته المتفككة الأوصال في صوب، والقيادة المستنيرة في صوب آخر، والمداراة والتؤدة في معالجة الاوضاع من لدن تلك القيادة لا تجديان نفعاً، ولا تعودان بفائدة في مجتمع لا تكاد نظرة جل أفراده أن تتخطى ذواتهم في نطاق دائرة الانتفاء الضيقة التي حصرها نفوسهم، مما جعل رابطة التعاون بين الفئات المختلفة، مبنية على أسس من المصالح الذاتية البحتة التي في معظمها لا تراعي القيم، ولا تأخذ من النظم إلا ما يتناسب وهواها، فتستحيل تلك النظم والقيم إلى أساليب جوفاء مائعة باعتماد تفسيرها من قبل أفراد المجتمع تفسيراً معكوساً، ومخالفاً عما تنطوى عليه من معان سامية هدفها سعادة الجميع.

٣- تقهقر المثل وانقلاب أوضاعها:

إن التراجع في مثل المجتمع وتحويلها لتلائم فئة معينة، ما هي في الحقيقة الا نتيجة حتمية لشيوع الفوضى وانعدام روح التعاون في بنيتها، لأن غلبة الذاتية تجعل كل فرد ينظر إلى القيم الاجتماعية من الزاوية التي تلمسها ومصالحته، فإذا تعذر عليه

الوصول إلى غايته، وحالت النظم الاجتماعية بينه وبين تحقيق رغباته، فإنه يلجأ إلى لي تلك النظم وتمويه الحقيقة^(١) بما يكسب أفعاله الشرعية، على الأقل من الوجهة الخارجية، بالباس الحق ثوباً شفافاً من الباطل، والمزج بين القيم الإنسانية والأفعال اللاإنسانية، فيلتبس الأمر على عامة الناس من الجهال فينقلب الحق باطلاً، والباطل حقاً، وقد عانت حكومة علي عليه السلام من استفحال هذه الظاهرة في المجتمع الإسلامي، فعبر عنها بقوله «انا قد اصبحنا في دهر عنود، وزمن كنود، يعد فيه المحسن مسيئاً، ويزداد فيه الظالم عتوا، لا ننتفع بما علمنا، ولا نسأل عما جهلنا، ولا نتخوف من قارعة حتى تحل بنا»^(٢) فالانقياد الأعمى والإصرار على الجهل، ما هو إلا قلب لموازين القيم، وعدم تدبر العواقب والحساب لها، فإذا ما وقعت فجأة، قام الناس وقعدوا في محاولة منهم لمصانعتها والاحتيال عليها، هروباً من حلها حلاً جذرياً يلزم كل فرد بنظام معين أساسه التعاون والصدق ووضع الحق في نصابه، مما لا يتلاءم والمصالح الفريدة التي لا يمكن أن تتحقق إلا في ظل التفكك الاجتماعي للنفاق فيه مكان الصدارة فتتهزع القيم وتضيع الحقوق.

٤- غلبة النفاق وبروز ظاهرة العصيان وانعدام الرحمة:

ونتيجة لتفقهير القيم فلقد غلب على المجتمع الإسلامي - في عهد علي عليه السلام - النفاق والخضوع الكاذب، والتملق للزعماء ذوي العصبية القبلية، المتظاهرين بالإصلاح، كأصحاب الجمل^(٣)، ومعاوية ومن شايعه من المؤلفقة قلوبهم^(٤)

(١) راجع - خطب ٤١.

(٢) خطب ٣٢ الفقرة الأولى، والعنود: الجائر، والكنود: الكفور، القارعة: الخطب والمصيبة.

(٣) راجع ص ٢٤٥ وما بعدها من هذا البحث.

(٤) راجع ص ٢٥٧ وما بعدها من هذا البحث.

الباب الثالث: فكر علي عليه السلام الاجتماعي كما يبدو في نهج البلاغة..... ٤٠٣

الذين ألبوا الناس على العصيان وألبسوا على المسلمين أمورهم - كل ذلك رغبة في الوصول إلى قلوبهم، وتحقيق المطامع المادية من السير في ركابهم، والنفاق كظاهرة اجتماعية سيئة موجودة، تقود الفرد إلى التعامل مع مجتمعة بشخصيتين متناقضتين، لأن ما يعبر اللسان عنه، يختلف تمام عما يضمره في داخله، فيكون الكذب هو أساس المعاملة بين مختلف فئات المجتمع، فتتعدم روح الإخلاص فيما بينهم، أما لرغبة، أو لرغبة، فيترتب على ذلك غربة المصلحين وضياع جهودهم، بغلبة الرياء والمداهنة، وقد اكتوى علي عليه السلام بذلك فجسده نقداً عنيفاً في قوله «اعلموا - رحمكم الله - أنكم في زمان، القائل فيه بالحق قليل، واللسان عن الصدق قليل، واللازم للحق قليل، أهله معتكفون على العصيان، مصطلحون على الإدهان فتاهم عارم، وشائبهم آثم، وعالمهم منافق، وقارئهم معاذق، لا يعظم صغيرهم كبيرهم، ولا يعول غنيهم فقيرهم»^(١)، ومجتمع بمثل تلك الصفات، جُبل أفراده على الأعمال السيئة، والصفات الرديئة، يفتقر إلى الحب والاحترام والتعاون وتبنى العلاقات فيه على المداهنة والغش والبغض لا بد أن يكون خلواً من روح التكافل الاجتماعي.

٥- انعدام روح التكافل الاجتماعي:

الاخوة في الإسلام تعني السلام والحب بأوسع معانيهما، والتكافل في جميع ميادين الحياة بين مختلف الفئات الاجتماعية، فأساس قوة المجتمع من وجهة نظر الإسلام التعاون على فعل الخير، ونبذ الشر طبقاً لقوله تعالى:

(١) خطب ٢٣ - الفقرة الثانية - وكيلى - ضيف غير قاطع، معتكفون - مداومون ومستمرون، الإدهان

- الغش، وإظهار الشيء على غير حقيقته، العارم - الخبيث الشرير، معاذق غشاش ومذق اللبن

خلطه بالماء، يعول يطعم ويكسي.

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾^(١) وهي دعوة صريحة لا لبس فيها يهدف الإسلام منها تماسك البنية الاجتماعية بشد بعضها البعض، ولكن المجتمع الذي عاش علي عليه السلام ضمنه - فيما يبدو - لم يعرف أكثر أفراده من الإسلام الا اسمه^(٢)، فأصبحت النفوس تنضح بالخبث، واستكن السوء والشر والاستغلال في ضمائر الأقوياء، فانعدمت بسبب ذلك مقومات التكافل الاجتماعي المبني على حاجة الناس لبعضهم البعض، لكون طبيعة العمران تقتضي ذلك التعاون^(٣)، مما يعني ضمناً أن الترابط الاجتماعي ظاهرة فطرية في الإنسان، ولا يستطيع معرفة مدى قوتها أو ضعفها الا من خلال ممارسة الفرد لها داخل البناء الاجتماعي الذي يؤثر فيها سلباً وإيجاباً، ويعتبر التجانس^(٤) من أهم العناصر التي تؤكد التكافل الاجتماعي في الفرد، ولما كان التجانس أنواعاً من حيث القومي ومن حيث اللغة، ومن حيث الطبقة الاجتماعية، فقد تصور علي عليه السلام - كما يبدو لنا - إن أنواع التجانس تلك كلها جانبية إزاء مفهوم الإسلام للتجانس الوارد في الآية الثالثة عشرة من سورة الحجرات، فالآية الكريمة تقرر في مضمونها بأنواع التجانس، ولكنها تضعه كمقياس للرابطة الاجتماعية، لأن التعاون الذي هو أساس التكافل الاجتماعي هو القاعدة التي يرتكز عليها الإسلام في بناء المجتمع ويؤيد ما ذهب إليه من تفسير سياق الآية في قوله تعالى:

(١) المائدة / ٢.

(٢) راجع خطب - ٢٤٠ فقرة ٢٠.

(٣) راجع ص ٣٦٢ وما بعدها من هذا البحث.

(٤) راجع المواطنة في مفهوم علي عليه السلام ص ٣١٧ من هذا البحث.

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾^(١). وإذا ما نحن تحولنا بفكرتنا تلك، لنسبر على ضوئها فكر علي عليه السلام إزاء الأسباب التي أدت إلى فصم عرى التكافل في مجتمعه، فسنجد ان ذلك يكمن في التناقض بين معرفة الأخوة الإسلامية وبين تطبيقها على صعيد الواقع، خاصة بالنسبة لأولئك العرب الذين يرون أنفسهم أفضل من غيرهم، ويمكننا استخلاص ذلك من قوله «إنما أنتم اخوان على دين الله، ما فرق بينكم الا خبث السرائر، وسوء الضمائر، فلا توازرون، ولا تناصحون ولا تباذلون ولا توادون»^(٢) فأولئك الناس الذين يتحدث علي عليه السلام إليهم، يعرفون حقيقة الإسلام الاجتماعية، ولكنهم لا يعملون بتعاليمه، لأنها - كما يتهيأ لهم - تنقص من مصالحهم، وتحد من طموحاتهم، ولا تمكنهم من فرض نفوسهم كأسياذ كل حسب منزلته الاجتماعية^(٣).

لقد ولد ذلك التفتت في بنية المجتمع الإسلامي - في عهد علي عليه السلام - ظواهر اجتماعية خطيرة من ظلم وجوع وفقر واستبداد، فانجر عن تفشي تلك الظواهر بروز طبقة عريضة من عامة الناس الذين اسماهم علي عليه السلام بالهمج الرعاع لأنهم «أتباع كل ناعق يميلون مع كل ربح»^(٤) وأولئك الناس يشكلون البنية التحتية للمجتمع من عمال وفلاحين وصناع وبنائين وخبازين ونساجين، وتوفير الفراغ لأولئك وعدم مراقبتهم في اعمالهم فيه مضره للمجتمع، وهدم

(١) الحجرات/١٣.

(٢) خطب ١٢٢، الفقرة الثانية - وتوازرون - بفتح التاء والواو - تتعاونون، وتباذلون - بفتح التاء والباء، تنفقون الأموال في الله على بعضكم البعض.

(٣) راجع - تصنيف الناس في فكر علي عليه السلام وطريقة تفكير كل صنف، خطب ٣٢ الفقرة الثانية والثالثة.

(٤) حكم - ١٤٥.

أركانه بنقص احتياجاته لأنهم كما يرى علي عليه السلام «إذا اجتمعوا ضروا»^(١) لما يحدثوه باجتماعهم من فوضى تسبب في زعزعة الأمن، واختلال النظام، وتعطيل الخدمات العامة، وحتى نجس المجتمع ما ينجم عن اجتماعهم من مضرة، يتحتم على الحكومة تفريقهم لأنهم إذا تفرقوا نفعوا، لرجوع كل منهم إلى مهنته «فيتنفع الناس بهم»^(٢). ولكن ذلك لا يعني أن علياً عليه السلام برأيه ذاك يريد أن يجعل من أولئك طبقة دنيا همها الوحيد تهيئة احتياجات الطبقات العليا والسهر على مصالحها فهو لا يقصد من تفريقهم تفتيت الرابطة الاجتماعية، والقضاء على روح التعاون بين الفئات المختلفة، ولكنه يرمي من وراء ذلك التفريق اشغال كل فرد بتأدية واجبه تجاه غيره في مجتمع يصون الحقوق، وعلى ذلك فإن النظام ويحافظ على مصالح الجميع دون استثناء ولا تفضيل على ذلك فإن النظام الطبقي بمفهومه التمايزي يختلف اختلافاً جذرياً عن المفهوم الإنساني للطبقات الاجتماعية عند علي عليه السلام.

(١) حكم-١٩٧.

(٢) حكم-١٩٧.

الفصل الثاني

القيم الخلقية كما تبدو

في فكر علي عليه السلام

إذا ما أردنا الدخول في فكر علي عليه السلام الأخلاقي - كما ورد في نهج البلاغة - يجب أن نضع جانباً التعريفات والنظريات الفلسفية لعلم الأخلاق لأننا لن نجد فيما أثر عن علي عليه السلام أي تعريف فلسفي، لكون النهج يعرض علينا من خلال نصوصه، ما أثر عن علي عليه السلام من مآثرات تتعلق مباشرة بالقيم الخلفية التي يجب ان تمارس على ارض الواقع في المجتمع، فإذا كان الفلاسفة والأخلاقيون قد حاولوا تعريف القيمة فإن علياً عليه السلام قد باشر من خلال مسؤولياته كقائد اصلاح، في وضع القيمة موضع التنفيذ، بحث يتعذر علينا فهم أبعادها وآثارها إلا من خلال الممارسة التطبيقية لها لا من خلال دراستها دراسة نظرية^(١) بمقارنتها

(١) يقسم الأخلاقيون علم الأخلاق على قسمين: نظري وعملي، والأخلاق النظرية - كما اعتقد - هي تعريف فلسفي للفضائل وعلاقتها ببعضها البعض ودراسة تاريخها من حيث أزلتها، ووصف آثارها في النفس الإنسانية وهي كما نلاحظ دراسة فلسفية محضة المراد منها التعرف على القيم بوصفها وصفاً خارجياً عن طريق التعريفات النظرية. مع الإدراك بأن هذه التعريفات

بمثيلاتها أو بما يقابلها من أفعال، يجدر التنبيه بأن فلاسفة الأخلاق أنفسهم، يدركون تماماً بأن دراساتهم ونظرياتهم لن تجدي نفعاً ولن تؤتي ثمارها إلا إذا طبقت، يقول أرسطو «في الشؤون العملية ليس الغرض الحقيقي هو العلم نظرياً بالقواعد، بل هو تطبيقها، ففيما يتعلق بالفضيلة، لا يكفي أن نعلم ما هي، بل يلزم زيادة على ذلك رياضة النفس على حيازتها»^(١) وفي نفس المساق يأتي

لا تعلم الإنسان الأخلاق، ما لم يباشر الفضائل مباشرة عملية، راجع على سبيل المثال معاني العادة والخير في الباب الأول والثاني والثالث من الكتاب الأول من (علم الأخلاق لأرسطو) وبصدد الفصل بين الأخلاق النظرية والأخلاق العملية يقول (أمانويل كانت) في كتابه (تأسس ميتافيزيقيا الأخلاق) ص ٩ (أما والقانون الخلقي في نقائه واصالته - وعلى هذين يعول السلوك العملي - يمكن البحث عنه في غير فلسفة نقية خالصة فلا بد لهذه الميتافيزيقية أن تسبقه وتتقدم عليه، وبغيرها لن تقوم لفلسفة أخلاقية وجود، بل إن الفلسفة التي تخلط تلك المبادئ الخالصة بالمبادئ التجريبية لا تستحق أن تسمى فلسفة «فالمقولة تعول على الدراسة في أصل القانون الخلقي دراسة ما وراثية، ومن ثم فإنها تفصل بين المبادئ الخالصة - التي اعتقد إنها المثال الذي يبحث الإنسان عنه ويتوق إليه والمبادئ التجريبية التي تنتج عن راسة الأخلاق كما تلحظ مباشرة الإنسان لها مع ملاحظة أن (كانت) في تسميته للأخلاق العملية بالتجريبية لأنها «تتناول بالبحث فكرة ومبادئ إرادة خالصة ممكنة» بل «تتناول أفعال وشروط فعل الإرادة الإنسانية بوجه عام» ص ١١ وهذا في حد ذاته فصل بين الأخلاق النظرية المتمثلة في الفلسفة، والأخلاق العملية كواقع محسوس في حياتنا العملية، ومن الذين قسموا الأخلاق إلى هذين القسمين محمد عبد الله دراز في كتابه (دستور الأخلاق في القرآن) فقد أفرد باباً للأخلاق العملية، اقتصر فيه على نصوص من القرآن الكريم - من ص ٧٢٥ حتى ص ٧٧١. وبشأن تقسيم الأخلاق إلى نظري وعملي - راجع أيضاً منصور رجب - تأملات في فلسفة الأخلاق ص ٣٨ وما بعدها.

يقول علي «العلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل»^(١) فالعلم النظري في فكر علي (عليه السلام) ليس بذي قيمة ولا تأثير إذا لم يقرن بالتطبيق، ومن هذا المنظور كان يباشر بتطبيق ما يقوله مبتدئاً بنفسه لأنه القدوة والرائد طبقاً لقوله «إني والله لا أحثكم على طاعة الا وأسبقكم إليها، ولا أنهاكم عن معصية إلا وأتناهى قبلكم عنها»^(٢) وهذا يعني أننا في دراستنا للجوانب الأخلاقية في فكر علي (عليه السلام) - كما بثها في مآثوراته - سنتناولها بالبحث باعتبارها أخلاق عملية محاطة بسياج متين من الدين، مع دراسة لظروف تحصيلها من حيث الغريزة والاكْتساب، ومن ثم نوعية اختصاصها بالفرد وبالمجتمع وبالتالي المرتكزات الأساسية لتلك القيم ومدى ملائمتها لواقع الإنسان.

١- العلاقة بين الأخلاق والدين في فكر علي (عليه السلام):

يكاد الكثير من علماء الأخلاق أن يميزوا بين الأخلاق الدينية وبين الأخلاق في القانون الوضعي^(٣)، ولكننا بدراستنا للأخلاق الإسلامية لا نجد «ثمة تمييز بين القانون والواجب الخُلقي»^(٤). فإذا كان أولئك ينظرون إلى الدين نظرة تجريدية، فإن بنظرهم تلك لا يمكن تطبيقها على الإسلام لأنه «على العكس م ذلك، ظاهرة مجسدة تماماً وينبغي ان يدرك بكليته وخارج حدود الزمان»^(٥).

(١) حكم - ٣٧٢.

(٢) خطب ١٧٧ - فقرة ٣.

(٣) للاطلاع على تلك الآراء كاملة من الناحيتين التاريخية والفلسفية راجع - وليام ليبي - المدخل إلى علم الأخلاق ص ٤٤٥ وما بعدها - ترجمة - علي عبد المعطي أحمد.

(٤) مارسيل بوازار - إنسانية الإسلام ص ١٨.

(٥) المصدر السابق، ص، ٣٨.

٤١٠ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

فالقائمة الأخلاقية من المرتكزات التي انبت عليها دعائم الإسلام منذ بداية ظهوره وانتشاره، فحين سأل نجاشي الحبشة الذي لجأوا إلى بلاده من المهاجرين الأولين عن دينهم الذي فروا به من اضطهاد قريش، أجابه جعفر بن أبي طالب^(١) بالقول «كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام... حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله نوحده ونعبده، ومخلع ما كنا نعبد واباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وامرنا بصدق الحديث واداء الامانة وصلة الرحم وحسن الجوار، واكلف عن المحارم، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات...»^(٢) فالعقائد والعبادات ليست مجرد طقوس إليه يمارسها المسلم، إذ يجب أن تدرك معانيها وأن تطبق تطبيقاً عملياً كيلا تكون معان مجردة، فمعنى الإيمان كما يقول علي عليه السلام: «معرفة بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان»^(٣) فهناك تلازم تام بين المعرفة والقول والعمل، فقول علي عليه السلام على سبيل المثال للإنسان «لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً»^(٤) مبنية على مضمون عملي يكمن في العبادات المتمثل في قول المسلم

(١) جعفر ابن أبي طالب بن عبد المطلب بن هشام القرشي الهاشمي، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله وأخو علي ابن أبي طالب عليه السلام لأبويه، وهو جعفر الطيار، كان أشبه الناس برسول الله صلى الله عليه وآله خلقاً وخلقاً، اسلم بعد إسلام أخيه علي عليه السلام بقليل، روي ان أبا طالب رأى النبي صلى الله عليه وآله وعلياً عليه السلام يصليان، وعلي عليه السلام عن يمينه، فقال لجعفر: صل جناح ابن عمك وصل عن يساره، وله هجرتان: هجرة إلى الحبشة، وهجرة إلى المدينة، استشهد في غزوة مؤتة سنة ثمان هجرية - راجع: أسد الغابة ١ / ٣٤١ وما بعدها.

(٢) ابن هشام - السيرة ١ / ٣٥٩، ٣٦٠.

(٣) حكم - ٢٢٥ - وراجع أيضاً الحكمة ١٢٢.

(٤) رسائل - ٣١ - فقرة ٢١.

في صلواته الخمس يومياً «الله أكبر، ومعناه أن العقل الفاعل إذا تفكر في عمق المقولة سيجد نفسه قد اوجد الباب في وجه كل عبودية... وانه اعلن نفسه وحقق ذاته حراً بشكل أساسي^(١) وهذه الحرية المؤمنة تعطي الإنسان احساساً بالأمان فيندفع إلى الاصلاح والبناء داخل المجتمع نفس مطمئنة دون رهبة من أية قوة مهما عظمت، ومن خلال ذلك الاعتقاد الحر يبني اقتناعه على «أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خلقان من خلق الله وانهما لا يقربان من أجل ولا ينقصان من رزق»^(٢) لاعتقاده القوي الراسخ بأن المحيي والرزاق هو الله سبحانه. فالقاعدة الأخلاقية الإسلامية كما نستخلصها من فكر علي عليه السلام مشيدة على «معايير الهي وعقلي وتنطلق منه إلى التطبيق العملي»^(٣) فالشيء يوصف بأنه لقي أو غير خلقي، وعطي قيمته من هذه الناحية أو تلك، من خلال ممارسته كواقع، ويشمل ذلك - كما يرى علي عليه السلام - كل ما نص عليه من عقائد وعبارات وأوامر ونواهي، ويمكن استنتاج ذلك من قوله «فرض الله الإيثار تطهيراً من الشرك، والصلاة تنزيهاً عن الكبر، والزكاة تسبباً للرزق، والصيام ابتلاء لإخلاص الخلق، والحج تقربه للدين، والجهاد عزا للإسلام، والأمر بالمعروف مصلحة للعوام، والنهي عن المنكر ردعاً للسفهاء، وصلة الرحم مناة للعدد، والقصاص حقناً للدماء، وإقامة الحدود إعظاماً للمحارم، وترك شرب الخمر تحصيماً للعقل، ومجانبة السرقة إيجاباً للعفة، وترك الزنا تحصيماً للنسب، وترك اللواط تكثيراً للنسل، والشهادة استظهاراً على المجاحدات، وترك الكذب تشريفاً للصدق والسلام اماناً من المخاوف، والامانات نظاماً للأمة، والطاعة

(١) إنسانية الإسلام السابق ص ١١٦.

(٢) خطب ١٥٦ - الفقرة ٥٠.

(٣) محمد جواد مغنية - فلسفة الأخلاق في الإسلام ص ٢١.

تعظيماً للإمامة»^(١) فشمولية النص قائمة على نظام محكم من التلازمات الدينية ونتائجها الاجتماعية بحيث لا يمكن بأية حال من الأحوال تجزئة المضمون إلى وحدات دينية وأخرى أخلاقية، وهذا يوصلنا - كما نعتقد - إلى نتيجة مفادها، ان فكر علي عليه السلام الأخلاقي بما حواه من شمولية وثراء نابع في الأساس - من معتقد ديني راسخ على قواعد متينة مرتكزاتها أن «لا تمييز في العقيدة الإسلامية بين الواجب القانوني والواجب الخلقى»^(٢) وقد توحى كلمة واجب في السياق على الالتزام الآلي اللاواعي بالنسبة للأخلاق، مما يحيل القيم إلى قوانين قسرية، لا دخل للإرادة الواعية في رفضها لكونها نابعة من إرادة إلهية، فإلى أي مدى يصدق ذلك على فكر علي عليه السلام الأخلاقي؟

٢- الإلزام الأخلاقي كما يبدو في فكر علي عليه السلام:

من خلال دراستنا للأخلاق الإسلامية كما وردت في القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، يمكن أن نخلص إلى ان مباشرة المسلم لها والسير على هديها ينبع من اقتناع داخلي يلزمه بالتقيد بالقيم ويفرض عليه احترام الأخلاق بحيث يجعل من نفسه خصماً وحكماً في الوقت نفسه، فقول الرسول ﷺ «إذا أراد الله بعبد خيراً جعل له واعظاً من نفسه يأمره وينهاه»^(٣) يعني بأن الإنسان مزود بقدرات ربانية خفية تتحكم في سلوكه، وتبصره بالطريق السوي دون أي توجيه خارجي قسري، بناء على الحرية المستنيرة التي وهبها الله للإنسان، وهي التي

(١) حكم - ٢٥١.

(٢) انسانية الإسلام السابق ص ١٨.

(٣) المتقي الهندي - كنز العمال - ٩٥ / ١١.

الباب الثالث: فكر علي عليه السلام الاجتماعي كما يبدو في نهج البلاغة..... ٤١٣

تحدد له واجبه الذي في مقدوره مباشرته أو غير مباشرته بمحض إرادته أما قول القائل: «صار واجباً بالإيجاب، حديث محض، فإن ما لا غرض لنا آجلاً وعاجلاً في فعله وتركه، فلا معنى لانشغالنا به، واجبه علينا غيرنا أو لم يوجبه»^(١). ولو رجعنا إلى نظرة علي عليه السلام إلى معنى الالتزام الأخلاقي، لوجدناه لا يجيد عن النظرة السابقة، فالإنسان هو الذي يلزم نفسه، وإرادته الحرة - باختيار السبيل السليم و «من كان له من نفسه واعظ، كان عليه من الله حافظ»^(٢) فالمرابعة مستمرة في كل وقت وكل مكان، منعقدة بكامل اعضائها انى سلكت بنا السبل، كما نفهمه من قوله «اتقوا معاصي الله في الخلوات، فإن الشاهد هو الحاكم»^(٣). فالمسؤولية الأخلاقية هي التي تؤدي بحكم الفاعل على نفسه حيث يستحيل إلى سائل ومسؤول في ان واحد، ويمكن استخلاص ذلك من قول علي عليه السلام «الكلام في وثائق ما لم تتكلم به، فإذا تكلمت به صرت في وثاقه»^(٤)، فالإلزام الخلقي - في فكر علي عليه السلام يكمن - ان صح التعبير - في الوجوب الاختياري، بمعنى أن النهج السوي المؤدي إلى السعادة يمكن للإنسان تمييزه واختياره، فالأوامر الإلهية لا تتسم بالإلزامية القسرية، فالخالق جل شأنه قد «أمر عباده تحييراً، ونهاهم تحذيراً»^(٥)، وعلى هذا الأساس الأخلاقي المبني على الاقتناع الفكري، لم يلزم علي عليه السلام احداً بالبقاء في جانبه، لا عن طريق الإرهاب، ولا عن طريق الاغراءات المادية وقد ترك لكل فرد في حكومته أن يختار طريقه بحرية بناء على الوازع

(١) الغزالي - احياء علوم الدين ٤ / ٤.

(٢) حكم - ٨٧، ٣٣٢.

(٣) حكم - ٨٧، ٣٣٢.

(٤) حكم - تنسيق الحكم ٣٨٧، ٧٦.

(٥) حكم - تنسيق الحكم ٣٨٧، ٧٦.

الأخلاقي الكامن في اعماقه، ورسالته إلى واليه على المدينة سهل بن حنيف، حين اعلمه بتسلل بعض رجاله خفية إلى معاوية، خير مثال لما نحن بصددده^(١) مما يرمي إليه علي عليه السلام من وراء الغرض الوارد في صدر النص.

ولما كان الأمر والنهي الأخلاقيان نابعين من اختيار الفرد واقتناعه فلا بد لنا من معرفة المنابع التي تستقي منها الافراد والجماعات قيمها، كما ورد في فكر علي عليه السلام.

٣- منابع القيم الخلقية في فكر علي عليه السلام كما تبدو في نهج البلاغة:

لكي نتمكن من معرفة القيم الأخلاقية في فكر علي عليه السلام، فلا بد لنا - أولاً أن نقرر ما إذ كانت الأخلاق من وجهة نظر علي عليه السلام نظرية أم مكتسبة^(٢)، وهنا تستوقفنا الآراء الإسلامية فيما يتعلق بذلك الشأن، فقد ورد في الذكر الحكيم «وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا»^(٣). وتفسير أهل السنة للآية - كما يبدو - يتفق والنظرة القائلة، بأن الأخلاق فطرية في الإنسان وعلى ذلك يجمع المفسرون بأن «الله تعالى خلق في المؤمن تقواه وفي الكافر فجوره»^(٤)، اما الشيعة فيرون ان الأخلاق اكتساب على أساس التفسير القائل بأن الله تعالى عرف النفس «طريق الفجور والتقوى وان احدهما قبيح والآخر حسن،

(١) راجع رسالة رقم ٧٠.

(٢) للأخلاقيين آراء متضاربة حول القول بفطرية الأخلاق واكتسابها يمكن الاطلاع عند: مسكويه - تهذيب الأخلاق ص ٥١ وما بعدها، ومحمد بيضار - العقيدة والاخلاق ص ٢٢٦ وما بعدها.

(٣) الشمس/٧، ٨.

(٤) تفسير الرازي ٩٣/٣١ / وراجع أيضاً تفسير القرطبي ٧٦، ٧٥ / ٢٠، وتفسير ابن كثير ٦ / ٤٢٠.

وممكنها من اختيار ما شاء منهما»^(١) فالقدرة على الاختيار متساوية في كلا الاتجاهين «وإنه خلق سبحانه في نفس الإنسان الاستعداد للفجور والتقوى معاً لأن الإنسان إنما يكون إنساناً بحريته وارادته»^(٢) ويكاد المعتزلة يتفقون مع الشيعة في الاكتساب، مع فارق في تحديد معنى الإرادة عند الإنسان^(٣)، أما إذا ما تركنا التفسير القرآني جانباً لنستقرئ فكر الأخلاقيين المسلمين فسنجد مسكويه يقسم الأخلاق على قسمين: طبيعي ومكتسب^(٤)، إلا أننا نعتقد بأن وجهة نظره تتمثل في أن الاكتساب هو الجانب الرئيسي في عملية اقتناء الأخلاق لأننا بمقارنتنا بين تعريف الغزالي للأخلاق وبين تعريف مسكويه لها نجد أن التعريفين يتفقان بأن الأخلاق «هيئة في النفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة من غير حاجة إلى فكر ولا رؤية»^(٥) ويعرفها مسكويه بأنها «حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا رؤية»^(٦) ولو حاولنا فهم فحوى التعريفين من وجهة نظر الغزالي فسنجد أن قوله «هيئة في النفس راسخة» تعني أن النفس الإنسانية مزودة بجهاز غامض يمكنها من التقبل والاكتساب، وليس أدل على ذلك من تقسيمة هيئة الإنسان في اقتناء الأخلاق إلى أربعة أقسام:

«الأول - فعل الجميل والقيح (معاً).

(١) الطبرسي - جوامع الجامع ٢ / ٨٥٠.

(٢) محمد جواد مغنية - التفسير الكاشف ٧ / ٥٧١.

(٣) راجع ص ١٦٦ وما بعدها من هذا البحث وراجع معنى اللطف الذي يعول عليه الشيعة ص ١٨٣ من هذا البحث.

(٤) راجع تهذيب الأخلاق ص ٥١.

(٥) إحياء علوم الدين ٣ / ٥٢.

(٦) تهذيب الأخلاق ص ٥١.

الثاني - القدرة عليهما (معاً).

الثالث - المعرفة بهما.

الرابع - هياة النفس بها تميل إلى أحد الجانبين»^(١).

فالشروط الاربعة بحسب ترتيبها تدل على القدرة والاختيار وهما عنصرا الاكتساب. أما ما ورد في التعريفين من قول بأن الأفعال «تصدر من غير حاجة إلى روية أو فكر» فليس المقصود منها - كما نعتقد العمل الآلي غير المدبر، وإنما يقصد بها التلقائية المتعلقة، لكون الإنسان في نظر الغزالي يستطيع التظاهر بالكرم وهو غير كريم، فالتظاهر هنا مدبر عن غير اقتناع، أما الكرم التلقائي فهو المدبر باقتناع ويصدر من الإنسان دون أي تعقيد أو ربط بالمظاهر الخارجية المقصود منها تبيان أثر الفعل»^(٢)، وعليه فإن أغلب الأخلاقيين المسلمين يقولون بالاكتساب الأخلاقي، ثم أن للرسول ﷺ من الأحاديث الشريفة ما يؤيد القول باكتساب الأخلاق من ذلك ما روي عنه ﷺ «مثل الجليس الصالح والجليس السوء مثل صاحب المسك، وكير الحداد، لا يعدمك من صاحب المسك، اما تشتريه أو تجد ريحه، وكير الحداد يحرق بيتك أو ثوبك أو تجد منه ريحا خبيثة»^(٣) ورحم الله البوصيري حيث يقول (بسيط):

والنفس كالطفل ان تهمله شب على حب الرضاع وأن تفضمه ينظمه^(٤)

فالأخلاق ممارسة واكتساب، وهو ما يمكن استخلاصه من فكر علي عليه السلام،

(١) احياء علوم الدين ٥٢/٣.

(٢) راجع السابق.

(٣) كنز العمال ٩/٩.

(٤) ديوان البوصيري ص ١٩١.

الباب الثالث: فكر علي عليه السلام الاجتماعي كما يبدو في نهج البلاغة..... ٤١٧

ليس في نهج البلاغة فحسب، فقد ورد عند ابن عبد البر القرطبي «قال علي رضي الله عنه في قوله عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾... علموهم وادبوهم»^(١) فالوقاية من النار في فكر علي عليه السلام لا تكون الا عن طريق التعليم والتأديب، والتعليم عملية اكتساب كما يفهم من سياق الأمر في تعليقه على الآية الكريمة، ثم ان قوله «ان لم تكن حليماً فتحلم»^(٢) يعني ان التخلق هو البداية في طريق اكتساب الاخلاق، بمحاولة تدريب النفس على تقبلها بإيمان واخلاص. ولكون «الحكمة ضالة المؤمن»^(٣) في فكر علي عليه السلام، فإنه يحض على اصطيادها والافادة منها عن أي طريق ومن أي شخص حتى وان كان منافقاً «فإن الحكمة تكون في صدر المنافق فتلجج في صدره، حتى تخرج فتسكن إلى صواحبها في صدر المؤمن»^(٤). ومصادر اكتساب الأخلاق متعددة واهمها:

أ. الوراثة والبيئة:

تعرف الوراثة علمياً بأنها «انتقال صفات مميزة للفرد من جيل إلى جيل»^(٥) ويقسمها علم النفس على نوعين:

١- بيولوجية: وهي «ما تنتقل من الوالدين إلى المواليد بواسطة المورثات»^(٦)

(١) بهجة المجالس / ١ / ١١٢

(٢) حكم - ٢٠٥.

(٣) حكم، ٧٧.

(٤) حكم، ٧٨.

(٥) يوسف خياط - معجم المصطلحات العلمية ص ٧١٥.

(٦) فاخر عاقل - معجم علم النفس ص ٥٢. والبيولوجية، Biologic هي الأحيائية ومشتقة من

٢- اجتماعية: وهي «انتقال العادات والافكار عن طريق الاحتكاك الحضاري»^(١).

وعلى ذلك فإن الاكتساب هو العنصر الرئيسي في كلا النوعين، وقد ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ما يؤيد الاكتساب الوراثي، إذ يمكن استخلاص فكرة الاكتساب البيولوجي من قول رسول الله ﷺ «تزوجوا في الحجز الصالح فإن العرق دساس»^(٢) وروي عنه أيضاً ﷺ قوله «اختاروا لنطفكم»^(٣). كما يمكن استخلاص الاكتساب بالوراثة الاجتماعية من قوله تعالى ﴿قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾^(٤) فالسير على طريق الأجداد وانتهاج سبيل الآباء في الأخلاق والعادات من الموروثات الاجتماعية.

وإذا ما استفتينا فكر علي عليه السلام في نهج البلاغة، فلن نجد أثراً للمورث البيولوجي، لا لأن علياً عليه السلام - كما نعتقد - لم يتحدث في ذلك، ولكن اختيار نصوص النهج على أسس بلاغية، جعل جامعه يغفل كثيراً من النصوص التي لا تدخل ضمن منهجه^(٥). على أننا لا نعدم النصوص الكثيرة التي تقول بأثر المجتمع في تشكيل عادات الفرد وأخلاقه. فالشر كخلق سيء يتولد في نفس الفرد جراء احتكاكه بالأشرار، فكما يقول ضمن نصيحة له «إياك ومصاحبة

علم الأحياء المصطلح على تسميته Biology

(١) فاخر عاقل - معجم علم النفس ص ٥٢.

(٢) المتقي الهندي - كنز العمال ١٦/٢٩٦.

(٣) الكليني: فروع الكافي ٥/٣٣٢.

(٤) الزخرف ٢٢.

(٥) راجع ص ٣٧، ٣٨، ١٢٣ وما بعدها من هذا البحث.

الباب الثالث: فكر علي عليه السلام الاجتماعي كما يبدو في نهج البلاغة..... ٤١٩

الفساق فإن الشر بالشر ملحق»^(١). فالعادات والتقاليد والاخلاق مورثات اجتماعية تنتقل بين الافراد مثلها مثل الوراثة المادية، كما يتبين من قول علي عليه السلام بأن «الضعائن تورث كما تورث الأموال»^(٢) أي تنتقل بين الأبناء جيلاً بعد جيل، فالبيئة الاجتماعية من العوامل الهامة التي تشكل اخلاق الفرد، وهي وان لم تستطع التشكيل الكلي، فقد تترك اثرها البالغ «فإذا احسست من راك ياكداد ومن تصورك بفساد فاتهم نفسك بمجالستك العامي أو السيء الفكر، وتدارك اصلاح مزاج تخيلك بمكاثرة أهل الحكمة، ومجالسة ذوي السداد، فإن مفاوضتهم تريح الرأي المكدود، وترد ضالة الصواب المفقود»^(٣) فمن المقولة نخرج بنتيجتين هما:

١- ان الإنسان - في فكر علي عليه السلام - يكتسب الكثير من العادات واخلق ممن يخالطهم من ابناء مجتمعه.

٢- انه يمكنه التحكم في تلك المكتسبات بقبول الصالح ولفظ الطالح بإعمال الفكر.

واذا كان للوراثة الاجتماعية اثرها البين في اخلاق الفرد فإن للبيئة الطبيعية أثرها أيضاً على سلوكه وتصرفاته.

والبيئة أو المحيط كمصطلح علمي «يشمل كل الحوادث الفيزيائية والكيميائية والبيولوجية والاجتماعية التي تؤثر من الخارج على العضويات»^(٤) والذي

(١) رسائل - ٦٩ - المقطع الاخير.

(٢) شرح ابن أبي الحديد ٢٠ / ٣٠٢، ٣٣٩.

(٣) شرح بن أبي الحديد ٢٠ / ٣٠٢، ٣٣٩.

(٤) معجم علم النفس ص ٤٠.

٤٢٠ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

نرمي إليه هنا البيئة الطبيعية (الفيزيولوجية). إذ يرى علماء الاجتماع والأخلاق العرب أن لتلك البيئة اثرها في ترقيق الأخلاق وخشوتتها^(١). ومن الطريف في هذا المجال ان الشاعر علياً بن الجهم^(٢) قدم من البادية إلى بغداد لمدح المتوكل العباسي^(٣)، قال فيه متمثلاً صور البادية واخلاقها: (حفيف)

انت كالكلب في حفظك للود وكالتيس في قراع الخطوب
انت كالدلو لا عدمنك دلوا من كبار الدلا كثير الذنوب^(٤)

وقد انكر عليه الحضور ذلك، ولكن المتوكل ادرك ان امامه شاعراً جيداً يحتاج إلى صقل حضاري فهياً له كل اسباب البيئة الحضرية من نعيم وخضرة

(١) راجع على سبيل المثال: رسائل اخوان الصفا ١/ ٣٠٢، مقدمة ابن خلدون ص ١٠٩ وما بعدها.

(٢) علي بن الجهم: من شعراء العصر العباسي المجيدين، له اختصاص بالمتوكل العباسي (ت ٢٤٧) اشتهر بانحرافه عن علي بن أبي طالب، كان من ناقلة خراسان إلى العراق، ثم نفاه المتوكل إلى خراسان سنة اثنين وثلاثين ومائتين لأنه هجاه، ثم رجع إلى العراق ثم خرج إلى الشام، وحاول العودة إلى العراق بعد ان بارح حلب، فخرجت عليه جماعة من بني كلب وقتلته في شعبان سنة تسع واربعين ومئتين - راجع ابن خلكان - وفيات الاعيان ٣/ ٣٥٥.

(٣) جعفر بن المعتصم الملقب بالمتوكل عاشر حكام بني العباس، تولى الخلافة بعد اخيه هارون بن المعتصم الملقب بالوائق في سنة ثلاث وثلاثين ومئتين، وكان شديد الانحراف عن آل علي عليه السلام... وقال من يعتذر له، انه كان كاخيه المأمون في الميل إلى بني علي عليه السلام، وانما كان حوله جماعة منحرفون عن أهل البيت عليه السلام فكانوا دائماً يحملونه على الوقعة بهم. كان بينه وبين ابنه محمد الملقب بالمتنصر - مباينة وكان كل منهما يكره الآخر، فتآمر الابن مع جماعة من الأمراء على قتل المتوكل وكبير أمرائه الفتح بن خاقان، فهجموا عليها في مجلس شراب وفتكوا بها واشاعوا ان الفتح بن خاقان قد قتل المتوكل، فقتلوه به وذلك في سنة سبع واربعين مئتين. راجع ترجمته في السابق ١/ ٣٥٠.

(٤) راجع بشأن الابيات والحكاية بتامها ابن عربي - محاضرات الابرار ٨/ ٢.

الباب الثالث: فكر علي عليه السلام الاجتماعي كما يبدو في نهج البلاغة..... ٤٢١

وزهور، واختلاط بالطبقات الرفيعة، وبعد ستة اشهر من ذلك انشد المتوكل قصيدته المشهورة (طويل)

عيون المهابين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري^(١)

وفي ذلك من الدلالات على أثر البيئة في اخلاق الفرد وتصرفاته واسلوب تعامله. والقرآن الكريم - كما نعتقد - يشير إلى ذلك ففي قوله تعالى:

﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبَثَ لَا يُخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا﴾^(٢)

ما يوضح ما نحن بصدد تبينه، دون تحميل النص القرآني على النظريات الحديثة، إذ نلاحظ من خلال التفسير المأثور ان معنى الآية عبارة عن تمثيل لقب المؤمن والكافر والبر والفاجر بالأرض التي خلق الجميع منها^(٣) مما يعني ان البيئة لها دخل في تشكل خلق الفرد، وفي مآثورات الرسول ﷺ ما يشير إلى ذلك في قوله ﷺ «ان الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود، وبين ذلك، والسهل والحزن، والحبيث والطيب، وبين ذلك»^(٤)، فكما يبدو من الحديث الشريف ان للوراثة والبيئة اثرهما في الشكل الخارجي للإنسان بالإضافة إلى تأثيرهما في

(١) راجع بشأن الايات والحكاية بتامها ابن عربي - محاضرات الابرار ٨/٢.

(٢) الاعراف / ٥٨.

(٣) محمد جواد مغنية - التفسير الكاشف ٣ / ٣٤٣، وقد أورد خلاصة ما في التفاسير المأثورة -

راجع على سبيل المثال: القرطبي - الجامع لأحكام القرآن ٧ / ٢٣١، الطبري - مجمع البيان ٧ /

٨٤ راجع أيضاً - محمد رشيد رضا - تفسير المنار ٨ / ٤٨٢ فقد علق على الآية الكريمة بأنها

تشير إلى الوراثة، وهو - بحسب رايه - ما قال به علماء الاجتماع والفلاسفة العرب وما اثبتته

التجار من بعد.

(٤) المتقي الهندي - كنز العمال ٦ / ١٢٨.

تصرفاته و اخلاقه، على اعتبار ان التربية هي الاصل وان «جميع الأرض» مختلف البيئات الطبيعية. وذلك بطبيعة الحال احتمال يمكننا على ضوءه الدخول في فكر علي عليه السلام، لمعرفة موقفه من ذات الموضوع الذي نحن بصدده، فلقد أورد جامع نهج البلاغة نصا يكاد يستلهم معانيه مما ورد في الحديث الشريف السابق، مما يعني ان علياً عليه السلام قد كان ينهل من معين الرسالة النبوية، فقولته «انما فرق بينهم مبادئ طينهم، وذلك انهم كانوا فلقة من سيخ ارض وعذبا، وحزن تربة وسهلها، فهم على حسب قرب ارضهم يتقاربون، وعلى قدر اختلافها يتفاوتون...»^(١) ما هو الا تفصيل وتوضيح لمجمل ما ورد في السنة النبوية الشريفة، مما يحدو بنا إلى الاعتقاد، بقول علي عليه السلام بتأثير البيئة الطبيعية متمزجة بالوراثة الكامنة في الطينة الاصلية التي شكل الله سبحانه وتعالى منها الإنسان.

ب - ترويض النفس:

ان الحرية التي اودعها الله سبحانه، الإنسان، تمده بطاقات عظيمة، تمكنه من أقلمة حياته في أية بيئة ينتقل إليها، مهما كانت مميزاتها الطبيعية والقانونية والاخلاقية، وقد يجد في نفسه - في البداية - بعض الصعوبات التي تعيقه عن تحمل الجديد، ولكنه سرعان ما يجد نفسه قد انقادت إلى ما تعاقدت عليه الجماعة سواء ابت أم رضيت، مما يعني ان بإمكان الفرد ان يتحكم في ارادته ويعود نفسه على نمط معين من العيش إذا ما اراد لذلك، بترويضها، وجعل ما تشتهيه، أو ما تسول به له، تحت سلطان العقل، الذي هو بمثابة الكابح والمنظم لكل الشهوات كي تتناسب والقانون الاجتماعي للوسط الذي يعيش فيه، وقد

(١) خطب - ٢٣١.

الباب الثالث: فكر علي عليه السلام الاجتماعي كما يبدو في نهج البلاغة..... ٤٢٣

جاء في الذكر الحكيم من الآيات التي تؤيد القول بمقدرة الإنسان على ترويض نفسه والتحكم في الحد من شهواتها^(١)، كما في قوله تعالى:

﴿وَالكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾^(٢). فالغيظ وهو «درجة

متعاطمة من الغضب»^(٣) يمكن للإنسان إذا ما غلب عقله على عاطفته ان

يطفئ نائثرته ويقبرها داخل نفسه بردعها وتصيرها وتهوين الوقوع عليها، لذلك

فإن قوة الإنسان الحقيقية - من وجهة نظر الإسلام - ان يتمكن من التصدي

لرغباته، وجعلها في المستوى المعقول الذي أراده الله لها فإن «خير الأمور

اوسطها»^(٤). ويفهم مما أثر عن الرسول ﷺ، ان ليست الشجاعة في قوة

الجسم والبطش، ولكن الشجاعة الحقة تكمن في القدرة الفائقة على التحكم

في النفس وكبح جماحها^(٥) لترضخ لنداء العقل وتستجيب للوازع الأخلاقي

الذي يهيء لها جو التعايش ضمن المجتمع باتزان. وبشأن ترويض النفس -

كما يبدو في فكر علي عليه السلام - يقف سائلاً إياها «متى اشفي غيظي إذا غضبت؟

أحين أعجز عن الانتقام فيقال لي: لو صبرت؟ أم حين أقدر عليه فيقال لي:

لو عفوت؟»^(٦) وهنا تتابنا فكرة الصبر الاجباري، والعمو الاختياري،

إذ في كلا الموقفين يتجلى صراع العاطفة والعقل، وفي كلا الموقفين يتضح

(١) كما في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَيَٰنَ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾

ونهي النفس ردها وترويضها، النازعات / ٤٠، ٤١.

(٢) ال عمران / ١٣٤.

(٣) معجم علم النفس ص ٩٤.

(٤) من حديث شريف رواه الراغب الاصفهاني - محاضرات الأدباء / ١ / ٤٤٩.

(٥) راجع قول الرسول ﷺ «ليس الشديد... الحديث» كنز العمال ٣ / ٥٢١.

(٦) حكم - ١٩٢.

الترويض النفسي، ولكن الترويض في حالة الاجبار والقسرة لا يكون انتصاراً ولكنه انكسار ينكبت في الاعماق، ويتحول إلى شهوة في الانتقام حال الشعور بالقوة، اما في حالة العفو الاختياري، فيشعر الإنسان بالراحة والطمأنينة بنزع شهوة الانتقام من النفس تلقائياً لا عن طريق الضغط الخارجي وبهذا يتمكن الإنسان من تعويد نفسه على ما يطابق الخير والواقع في آن واحد. وقد تبنى علي عليه السلام، ومن منطلق قوة الاختيار الثاني، فهو الخليفة الذي تجرى بين يديه ثروات الدولة الإسلامية يقول مقسماً «وأيم الله - يمينا أستثني فيها بمشيئة الله - لأروضن نفسي رياضة تهش معها إلى القرص، إذا قدرت عليه مطعوماً، وتقنع بالملح مأدوماً، ولأدعن مقلتي كعين ماء نضب معينها»^(١)، وهو حين يعاهد نفسه على ترويضها، لا يقصد تجويعها أو اizardها، ولكن الرياضة في مثل موقفه ذاك مسؤولية تجاه من ولي امرهم من الفقراء والمستضعفين، حين يرى ان من الواجب عليه ان لا يقنع بالمنصب دون ان يشارك جميع طبقات الأمة الآمهم، فالجوع هنا جانب من الجوانب الخلقية التي ارتضاها لنفسه في محاولة منه لترويض نفوس الطبقات الفقيرة حتى يتمكن من تعديل حالهم، لذلك نجده في كثير من وصاياه، وحكمه^(٢)، يحض على الترويض النفسي، منه قوله

(١) رسائل ٤٥ فقرة ٥. وتهش: أي تنبسط وتفرح من شدة الحرمان، ومطعوماً حال من القرص أي مأكولاً، ومأدوماً، حال من الملح: أي ما يؤدم به القرص، لأدعن مقلتي كعين ماء نضب معينها: أي لأترك عيني مثل عين غار معينها أي ماؤها الجاري، ويقول محمد عبده: «اي ابكي حتى لا تبقى دمع» شرح النهج ص ٥٠٩ الاندلسي - ونحن لا نتفق معه في ذلك لعدم اتفاق السياق مع ما رمى إليه، ونعتقد ان علياً عليه السلام قد اراد بالقول: استفراغ كلما في العين من نظرات الطمع والقناعة بأقل القليل.

(٢) راجع خطب ٧٥، ٨٢ فقرة ٨، ٨٦ الفقرة الأولى، وايضا شرح ابن أبي الحديد ٢٠ / ٢٥٨ حكمة

«من كان له من نفسه واعظ، كان عليه من الله حافظ»^(١) فالواعظ المنطلق من داخل النفس ذاتها يجنبها كل المداحض والمزالق وضمن وصيته لابنه الحسن عليه السلام يقول «اخي قلبك بالموعظة، وامته بالزهادة، وقوه باليقين، ونوره بالحكمة... ومرارة اليأس خير من الطلب من الناس، والحرقة مع العفة خير من الغنى مع الفجور...»^(٢) فالخير كامن في اعماق الإنسان وإثارته فيه لا يكفي ما لم تروض النفس عليه بإظهار كفعل وتصرف، وان احتاج إلى مشقة وجهد، فبال تكرار يستحيل إلى عادة وينغرس كجبله، يتوق الإنسان إلى مزاولتها كلما عاش نشوة مردودها في نفسه وفي الناس، فيستحيل الفعل إلى قدرة يتمثلها الناس في تصرفاتهم وافعالهم.

جـ - القدوة الحسنة:

القدوة هو المثال أو النموذج والاقْتداء، هو النظر في اقوال وافعال ذوي الأخلاق الفاضلة والاعمال الحميدة، والاختذ بأحسنها، فلكل انسان، مهما عظم شأنه، قدوة، حتى النبي صلى الله عليه وسلم، فقد جاء في قوله تعالى:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ اِقْتَدِهِ﴾^(٣) فالآية الكريمة، أمر من الله سبحانه إلى رسوله صلى الله عليه وسلم، بأن يأخذ بمسلك من سبقه من الرسل، والسير على نهجهم، والاسلام يلزم الفرد المسلم بالاقْتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم، في أقواله وأفعاله

رقم ٢٥، وص ٢٩٦ حكمة رقم ٣٨٢.

(١) حكم- ٩٧.

(٢) رسائل ٣١، فقرة ٢٢، ٤.

(٣) الانعام/ ٩٠.

وأخلاقه، فقد أثر عن الرسول ﷺ «فمن اقتدى بي فهو مني ومن رغب عني فليس مني»^(١)، لذلك فقد اتبع علي عليه السلام الرسول ﷺ «اتباع الفصيل أثر امه»^(٢). فكان ﷺ قدوته ومثله الأعلى الذي لم يجد عن سنته ما في قوله إلى طلحة والزبير ضمن حوار بينه وبينهما بعد توليه الخلافة «لما أفضت إلي، نظرت إلى كتاب الله وما وضع لنا وأمرنا بالحكم به فاتبعته، وما استن النبي فاقته»^(٣). ولقد كان من أهم أهدافه أن يسير بالأمة على الدرب الواضح الذي اختطه الرسول ﷺ، فما أثر عنه في ذلك قوله «اقتدوا بهدي نبيكم فإنه أفضل الهدى، واستنوا بسنته فإنها أهدى السنن»^(٤). فمن خلال معاشته للنبي ﷺ وممارسته العملية لأخلاقه والارتواء من معينها الصافي الثر، تكون لديه اقتناع تام بتأثير القدوة في تصرفات الفرد، ويبدو ذلك ضمن وصيته لابنه الحسن عليه السلام بقوله «واعلم يا بني أن أحب ما أنت آخذ به إليّ من وصيتي، تقوى الله والاعتصام على ما فرضه الله عليك، والاحذ بما مضى عليه الأولون من آباءك، والصالحون من أهل بيتك»^(٥) فالإقتداء بالمثال الجيد يمد الأخلاق بشمولية واتساع، مثلها في ذلك مثل الإفادة من تجارب الآخرين يتأملها بإمعان ومن ثم إضافة خلاصتها إلى التجربة الخاصة، فتصير أكثر عمقاً، وأشد احكاماً لذلك فلا بد ان يكون «لكل امام ماثور يقتدي به ويستضيء بنوره»^(٦) فمن الاجدى ان يختار الفرد

(١) مسند الإمام أحمد ٥/٤٠٩.

(٢) خطب - ٢٤٠ - الفقرة ٢٦.

(٣) خطب - ١٩٩.

(٤) خطب - ١٠٩.

(٥) رسائل - ٣١ الفقرة ٧.

(٦) رسائل - ٤٥ - فقرة ٢.

قدرته الصالحة التي تستطيع أن تمده بروافد غنية من مخزونها الأخلاقي الذي يعود عليه بالسعادة ويجعله منسجماً مع أفراد مجتمعه.

جماع القيم الخلقية في فكر الإمام علي (عليه السلام)

علاوة على ذلك، يتضمن النهج أيضاً أساليب أخرى يمكن اعتبارها من المصادر الهامة في اكتساب الاخلاق، كالنظر في سير الماضين والاتعاظ بما حدث لهم إذ يعد علي (عليه السلام) العيش بالروح والفكر مع أولئك الماضين جزءاً هاماً من تجاربه الحياتية الخصبة. ويمكن استخلاص ذلك من قوله ضمن وصيته لابنه الحسن «اي بني، وان لم اكن عمرت عمر من كان قلبي، فقد نظرت في اعمالهم، وفكرت في اخبارهم، وسرت في آثارهم، حتى غدوت كأحدهم، بل كأني بما انتهى الي من امورهم قد عمرت مع أولهم إلى آخرهم، فعرفت صفو ذلك من كدره ونفعه من ضرره»^(١). وبتبصره ذاك، وعمق نظرتة في مجريات الحوادث، يرى أن من اللازم على الإنسان المتدبر في أمور الحياة، أن يجول بعقله في التاريخ، ليتعظ بحوادثه ويتأملها بروية وعمق، لأنه يستمد منها الكثير من الخبرات والقيم الإنسانية التي تكون له زاداً فكرياً يعول عليه في مسيرة حياته، فمن منطلق تجربته يقول لابنه الحسن «آخ قلبك بالموعظة... وأعرض عليه أخبار الماضين، وذكره بما أصاب من كان قبلك من الأولين، وسر في ديارهم وآثارهم، فأنظر فيما فعلوا، وعما انتقلوا، واين رحلوا ونزلوا، فإنك تجدهم قد انتقلوا عن الأحبة، وحلوا ديار الغربة وكأنك عن قريب قد صرت كأحدهم»^(٢) فالتأمل

(١) رسائل ٣١- الفقرة ٤، ٦.

(٢) رسائل ٣١- الفقرات ٦، ٤.

في التاريخ - كما يفهم من كلام علي عليه السلام - يمنح الفرد دفعات من الإيمان المتأني، الذي يكسبه حب الخير للناس، والتفاني في خدمتهم لأن تشبع روحه بالإيمان يجعله يدرك انه لا يملك مما تحت يديه شيئاً الا ما كتب له التصرف فيه، حتى حياته. فخلاصة العبرة تأمل استبطاني عميق في مجريات الحوادث لكسب الخبرة العملية التي هي بمثابة الزاد العقلي والروحي الذي يغذي روح الإنسان، ويحافظ على اتزانها إزاء مغريات الحياة، وينحو بها إلى التعايش في المجتمع بما يتناسب والمثل العليا التي يطمح علي عليه السلام إلى إرسائها. ثم إن هناك الاكتساب الخلفي عن طريق النصيحة المباشرة التي يحتاجها جل الناس، ولكن لا يعيها من وجهة نظر علي عليه السلام الا العقلاء، أما «البهائم لا تتعظ الا بالضرب»^(١).

تلك إذن هي أهم المصادر التي يكتسب منها الفرد قيمة الخلفية، كما يبدو في فكر علي عليه السلام، وهذا ينقلنا بدوره إلى تأمل تلك القيم. والحقيقة التي يجب ان توضح في هذا المجال ان ما ورد في النهج من نصوص قد بني على دعائهم أخلاقية هدفها كرامة الإنسان وتوفير السعادة له، بحيث لا يمكن لدراستنا الإمام يبحث كل تلك القيم، فمن مكارم الأخلاق التي عرض لها النهج «السخاء، والحياء، والصدق، والأمانة، والتواضع، والغيرة، والشجاعة، والحلم، والصبر، والشكر»^(٢) ويتحدث علي عليه السلام عن اهمية بعض القيم الخلقية فيقول «الجود حارس الأعراض، والعلم فدام السفية، والعفو زكاة الظفر، والسلو عوضك عمن غدر، والاستشارة عين الهداية... والصبر يناضل الحدثان، والجزع من أعوان الزمان، واشرف الغنى ترك المنى... ومن التوفيق حفظ التجربة، والمودة

(١) رسائل ٣١- الفقرة ٢٤.

(٢) شرح ابن أبي الحديد ٢٠/٣٧٥.

قراية مستفاداً، ولا تأمنن ملولا»^(١) فتلك إذن بعض القيم الخلقية التي نجدها ماثورة في تضاعيف نصوص النهج القصيرة والطويلة، خطب كانت أم رسائل أم وصايا أم حكم، وهي تارة ما تكون موجهة إلى فرد بعينه، وتارة أخرى نجدها موجهة إلى جميع أفراد الأمة، ولكن بتأملنا في تلك القيم الخلقية مجتمعة يمكننا اجمالها - كما يتهيأ لنا - في ثلاث هي: العدل، والحق، والتقوى.

١- العدل:

يعد حكماء اليونان العدل من الفضائل الأربع الرئيسية^(٢)، والثلاث الباقية عندهم هي: الحكمة، والشجاعة، والعفة ويعرفه أرسطو (ت ٣٢٢ ق.م) على أنه «ذلك الكيف الأخلاقي الذي يحمل الناس على اتیان اشياء عادلة والذي هو العلة في فعلها وفي ارادة فعلها»^(٣) فالعدل عند أرسطو - على ما يبدو - ليس ملكة فطرية لأنه حالة أو كيف، يمكن إدراكه من الأمور المضادة له، أي من الظلم، وهو على كل حال تعريف فلسفي، يكاد يقترب في مفهومه من التعريف اللغوي القائل بأن العدل «هو ما قام في النفوس أنه مستقيم وهو ضد الجور»^(٤) فهو إذًا إحساس أو حالة داخلية، وقد عرفه المعجم بما يقابله في اللغة، ولم يحاول ان يبين لنا أنواع العدل، أما التعريف الكلامي فلا يمت إلى دراستنا عن العدل الأخلاقي بأية صلة، لأن العدل عند المتكلمين يبحث

(١) حكم-٢٠٩.

(٢) راجع - خياط - معجم المصطلحات العلمية والفنية ص ٤٣٤.

(٣) علم الأخلاق ٥٥ / ٢.

(٤) لسان العرب - مادة عدل.

«في العلوم المتعلقة يتنزه الباري عن فعل القبيح والاخلال بالواجب»^(١)، ولكن من خلال تعريفهم يمكن ان نخلص إلى ان العادل هو الذي يحاول تجنب فعل القبيح، وينأى بنفسه عن الاخلال بالواجب^(٢)، الا اننا مازلنا ندور في فلك التعريف الفلسفي للعدل، والتقصير على التنظير، علاوة على ذلك فإننا لم نتمكن من معرفة الميادين الأخلاقية التي توصلنا إلى ادراك مفهوم العدل كقيمة خلقية، مما يلجئنا إلى الاستعانة بالتعريف الشرعي، فقد يكون أكثر تحديداً ووضوحاً بقوله ان العدل «عبارة الاستقامة على طريق الحق بالاختيار عما هو محظور ديناً»^(٣) فالعدل من وجهة نظر اسلامية قيمة خلقية ذات اهمية كبيرة جدا بالنسبة للفرد والمجتمع على السواء، حتى لنكاد نتصور استحالة الحياة في مجتمع يفتقر إلى ايسر قواعد العدل، وهو على ما يبدو من خلال ممارسته «نوعان: نوع يوصف به الفرد فيقال انسان عادل، ونوع يوصف به المجتمع والحكومة»^(٤). وقد امرنا القرآن الكريم بمباشرة العدل في جميع مجالات الحياة، ونظراً لقيمته الأخلاقية الهامة والكامنة اولاً وقبل كل شيء في تفاهم الفرد مع نفسه كما في قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾^(٥)

ويبرز العدل أيضاً كمنظم للمجتمع في مجال العلاقات الاسرية، حيث يرى

(١) الطريحي - مجمع البحرين ٥/ ٤٢٠، ٤٢١.

(٢) راجع - الشريف المرتضى - رسائل الشريف المرتضى ٣/ ١٢، القاضي عبد الجبار - فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ص ٣٤٨.

(٣) مارسيل بوزار - إنسانية الإسلام ص ١٣٠.

(٤) أحمد أمين - كتاب الأخلاق ٢٢٠.

(٥) النساء / ١٣٥.

الباب الثالث: فكر علي عليه السلام الاجتماعي كما يبدو في نهج البلاغة..... ٤٣١

الإسلام استحالة تحقيقه، إذا ما تفرعت الميول وتعددت الاتجاهات ففي مجال تعدد الزوجات جاء في الذكر الحكيم قوله تعالى:

﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾^(١). فاستحالة تحقيق العدل في العلاقات الاسرية ينتج، كما يبدو من فهمنا للآية الكريمة، من تحكيم العاطفة وتغليبها على العقل، لذلك جاء الأمر بالعدل حتى في الأقوال مهما كانت النتائج المترتبة على ذلك دون وضع أي اعتبار لأية صلة في قوله تعالى:

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾^(٢)، وإذا ما تركنا العدل الأخلاقي في نطاق الاجتماعي الضيق المحصور في الأسرة، فإن الإسلام يوسع من دائرته لجعله يشمل جميع العلاقات الإنسانية بأوسع معانيها، ففي مجال القضاء والحكم يقول عز وجل:

﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾^(٣)، ولم يقصر الإسلام طلب العدل على القضاة وحدهم، بل جعله من مسؤولية الشهود أيضاً كما ورد في الذكر الحكيم:

﴿وَأَشْهِدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾^(٤). ثم ان العدل يجب أن يكون العنصر الأساسي في المعاملات بين الناس، بضبطها ضبطاً محكماً، تحت إشراف عدول لا يزيغ بهم الهوى كما في قوله تعالى:

(١) النساء / ١٢٩.

(٢) الانعام / ١٥٢.

(٣) النساء / ٥٨.

(٤) الطلاق / ٢.

﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾^(١). والكتابة هنا تشمل - كما نعتقد جميع المعاملات التجارية والصنعية والاقتصادية وحتى الاتفاقيات السياسية، وكل ما يربط الإنسان بأخيه الإنسان من علاقات ومعاملات. والعدل الساسي في الإسلام يقتضي أيضاً التصدي للمعتدى وإن كان مسلماً، وردعه بالوقف في صف العدل، دونما تمييز لفئة لإرضاء فئة أخرى كما في قوله تعالى:

﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾^(٢). ولكن ليس معنى هذا ان الإسلام يقصر العدل على المسلمين دون المشركين، لأن العدل في المفهوم الإسلامي «حق طبيعي للإنسان يستمد بمقتضى كونه انساناً لا بمقتضى انه مسلم، ونظر فيه إلى الحق الاناني العام من غير نظر إلى لون أو جنس أو دين»^(٣). فالحكم بمقتضى الشريعة الإسلامية ينص على ان العدل ليس قصراً على فئة اجتماعية معينة، فقوله تعالى:

﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾^(٤) شامل لجميع الناس، وإذا كان أفلاطون قد عد ان «الفضيلة في النفس هي العدالة»^(٥) فإن الإسلام قد احكم العمل بتلك الفضيلة، فقد ورد العدل في القرآن الكريم في معظم الحالات

(١) البقرة/ ٢٨٢.

(٢) الحجرات/ ٩.

(٣) محمد أبو زهرة - المجتمع الإنساني في ظل الإسلام ص ٢٠١.

(٤) النساء/ ٥٨.

(٥) جمهورية افلاطون ٩.

بصيغة الأمر مما يعني في حد ذاته وجوب العمل به في كل الأحوال وعلى جميع المستويات، لذلك رفض النبي صلى الله عليه وسلم رفضاً قاطعاً توسط اسامة بن زيد في شأن المرأة المخزومية التي سرقت^(١)، لكونها شريفة جاعلاً العدل يأخذ مجراه.

وإذا ما استفتينا فكر علي بن أبي طالب عليه السلام بشأن فضيلة العدل، فسنجد أنها قيمة أخلاقية تتسع لتشمل جميع النواحي الإنسانية، وهو في هذا المجال يسير في ظل النص القرآني وعلى نهج السنة النبوية الشريفة، مع محاولاته في إعطاء المفهوم قيمته الإنسانية المتناسبة وعصره، لذلك لم يأت العدل في قوالب الأمر لسن تشريعات، ولكنه ورد ضمن النصوص التطبيقية لتلك التشريعات، ويبدو لنا من النصوص التي بين أيدينا ان علياً عليه السلام يعد العهد من الدعوات الأخلاقية الهامة التي يقوم المجتمع عليها، فإذا ما اختلت تلك الدعامة أو تضعضعت «كثُر الإدغال في الدين، وتركت محاج السنن، وفعل بالهوى، وعطلت الأحكام وكثرت علل النفوس، فلا يستوحش لعظيم حق عطل، ولا لعظيم باطل فعل، فهنالكَ تذلل الابرار وتعز الأشرار»^(٢) لذلك فقد باشر بتنفيذ العدل من ذ الوهلة الأولى التي تسلم فيها مقاليد الخلافة غير آبه بما سيجره ذلك عليه من فتن فد تزعزع السلطة من تحت رجله، فرد إلى بيت مال المسلمين كل القطاعات التي اقتطعها عثمان لبني أمية وغيرهم قائلاً بكل حزم «والله لو وجدته قد تزوج به النساء وملك به الاماء، لرددته، فإن في العدل سعة، ومن ضاق عليه العدل فالجور اضيق»^(٣) فمفهوم العدل - في فكر علي عليه السلام - لا يمكن إدراكه -

(١) راجع الخبر في: سنن النسائي ٧٢ / ٨ وما بعدها، سنن ابن ماجه ٨٥ / ٢.

(٢) خطب - ٢١٠ - فقرة ٢.

(٣) خطب - ١٥.

كما نعتقد - إلا من خلال مباشرته العملية له قولاً وفعلاً، لأنه جزء لا يتجزأ من تصرفاته الحياتية سار معه رحلته الطويلة منذ مقتبل العمر حين زاول القضاء على عهد رسول الله ﷺ، حتى آخر ساعة في حياته وهو يوصي بالتعامل مع قاتله بالعدل^(١)، لذلك فنظرته الثابتة إلى العدل تتمثل في قوله «العدل صورة واحدة، والجور صور، لهذا سهل ارتكاب الجور، وصعب تحري العدل، وهما يشبهان الإصابة في الرماية والخطأ فيها، وإن الإصابة تحتاج إلى ارتياض وتعهد، والخطأ لا يحتاج إلى شيء من ذلك»^(٢) فالعمل بالعدل - في فكر علي عليه السلام - صعب والسير في طريقه شاق، لأنه يحتاج إلى ترويض النفس على نبذ شهواتها، وتبصيرها الطريق القويم، وحثها على السير فيه، بعكس الجور الذي لا يحتاج فعله إلى أي مجهود فطرته كثيرة وسهلة ومحبة إلى النفوس في الغالب. لذلك فإن ترحي العدل في مجتمع ذي طرق متشعبة وأساليب ملتوية يغدو ضرباً في المخاطرة، فلا نستغرب إذن من «تبني الفكر الشيعي مفهوم العدل الاجتماعي، وارتكاز على العقلانية»^(٣) لأن ذلك الفكر - على ما نعتقد منبثق «من فهم صحيح للروح الإسلامية»^(٤)، التي تميز آل البيت عليه السلام وعلى رأسهم علي عليه السلام الذي نجد للعدل في فكره ميداناً واسعاً منه:

١- العدل مع النفس: ويقصد منه المصالحة مع النفس بالنحو بها منحاً مستقيماً يوازن علاقتها بالآخرين بحيث لا تأخذ أكثر مما تستحق ولا تفرط في حقوقها على سبيل إرضاء الغير فقول له لابنه الحسن عليه السلام «اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك

(١) راجع رسائل ٤٧ فقرة ٨، ٩.

(٢) شراح ابن أبي الحديد ٢٠ / ٢٧٦.

(٣) محمود اسماعيل - سوسيولوجيا الفكر الإسلامي ١ / ١٤١.

(٤) المصدر السابق.

الباب الثالث: فكر علي عليه السلام الاجتماعي كما يبدو في نهج البلاغة..... ٤٣٥

وبين الآخرين»^(١) يعني بناء النفس من الداخل على أسس موضوعية تتقبل العطاء بنفس الروح التي ترغب بها في الاخذ، فتؤدي ما عليه وتأخذ ما إليها بكل رحابة صدر، فالعدل في المصالحة مع الذات - كما نفهمه من خلال فكر علي عليه السلام - ينطوي على كل القيم الخلفية من صدق، وأمانة وإخلاص، ووفاء، وشجاعة، لأن الإنسان العادل هو الذي يمكنه أن يوازن بين الحق نفسه وبين حقوق الآخرين من حوله وفق معايير أخلاقية ثابتة قوامها الخير والحب للجميع.

٢- العدل الاجتماعي: العدل في فكر علي عليه السلام - كما سبق صورة واحدة^(٢)

ليس فيه ثمة تدرجات تفاضلية، لا بد ان نشير هنا ان العدل الاجتماعي، ما هو الا امتداد للخطة المستقيم الذي تسير سياسته فيه، لأن العمل العادل هو الذي «يضع الأمور في مواضعها»^(٣) والامور في السياق تعني الشمولية والاتساع لتجعل من «العدل سائساً عاماً»^(٤) يهدف إلى تحقيق السعادة والخير والحب لجميع الناس. والعدل الذي يتوق علي عليه السلام إلى تحقيقه، يشمل حتى الحيوان فضمن وصيته إلى عمال الصدقات، فيمن يولونه مسؤولية حراسة ما يجبي من إبل ومواشي يشترط فيه «الا يحول بين ناقة وفصيلها، ولا يمصر لبنها فيضر ذلك بولدها، ولا يجهدا ركوباً، وليعدل بين صواحبه في ذلك»^(٥).

ويصل العدل ذروته في قوله «والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت

(١) رسائل - ٣١ فقرة ١٣.

(٢) راجع ص ٤٣٣ من هذا البحث.

(٣) حكم - ٤٤٦.

(٤) حكم - ٤٤٦.

(٥) رسائل - ٢٥ وفصيل الناقة: ولدها وهو رضيع، ويمصر: يقلل - يبالغ في حلبها حتى يقل اللبن

في ضرعها.

أفلاكها على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلت»^(١) فالعدل قيمة أخلاقية واحدة في موطن من مواطن الحياة، لا يمكن تجزئتها، أو العمل بمضمونها حسب نسب متفاوتة وهي في فكر علي عليه السلام، كما نلاحظ في نصوص النهج - نابعة من اقتناع ذاتي وإيمان راسخ وتام لا يمكن زعزعته تحت أية ظروف، ويمثل ذلك قوله «والله لأن أبيت على حَسَكِ السعدان مسهداً، واجر في الاغلال مصفداً احب الي من ان القى الله ورسوله يوم القيامة ظالماً لبعض العباد»^(٢) لذلك فقد جاهد قولاً وفعلاً من أجل وضع فكره العادل موضع التنفيذ سواء في معاملاته الخاصة أو العامة أو على مستوى الحكم في الاقاليم الإسلامية.

أ. فعلى المستوى القضائي، فقد وضع شروطاً متناهية في دقتها فيمن يرشح لمنصب القضاء^(٣)، ثم انه جعل المراقبة دائمة ومتسمة^(٤)، كما أنه باشر القضاء بنفسه ابان خلافته في كثير من المواطن، انطلاقاً من اقتناعه التام بأن العدل يجب ان يأخذ مجراه مهما كانت الظروف^(٥).

ب. وعلى المستوى الاجتماعي العام فقد باشر بإقامة العدل مبتدئاً بالأسواق

(١) خطب - ٢٢١ - الفقرة الثانية، وجلب شعيرة: قشرتها

(٢) خطب - الفقرة الأولى، وحسك السعدان: شوكة، والسعدان نبت صحراوي له شوك ترعاه الابل، والسهاد: السهر، الاغلال: السلال توضع في الأعناق، المصفد: المقيد.

(٣) راجع ص ٣٢٨ وما بعدها من هذا البحث.

(٤) راجع السابق.

(٥) راج حكايته مع المرأة التي اتته متظلمه من قسوة زوجها وموقفه من ذلك عند: ابن شهر آشوب مناقب آل أبي طالب ١ / ٣٧٤، وراجع أيضاً قوله في عهده للأشتر بأن افساح المجال للضعفاء

للتظلم عنده مباشرة، من دون أية مراقبة أو حجاب - رسائل ٥٣ - الفقرة - ٢٦.

الباب الثالث: فكر علي عليه السلام الاجتماعي كما يبدو في نهج البلاغة..... ٤٣٧

المحك الحقيقي لشرائح المجتمع والميزان الذي تتنافس الاطماع فيه، لامتلاك زماما المادة على حساب الكادحين والمستضعفين، فقد كان يجوب الاسواق بنفسه^(١)، لمراقبة الاسعار وفض الخصومات من أجل ارساء دعائم العدل، كما كان يتشدد في تنبيه ولاته على القيام بذلك كما في قوله للأشتر «وليكن البيع سمحا بموازين عدل»^(٢). واهتمام علي عليه السلام بالعدل في الأسواق لأنها الاماكن التي تتواجد فيها كل الطبقات الاجتماعية للتعامل فيما بينها بالأخذ والعطاء، ولا يتأتى ذلك الا في جو يتميز بالأمن والطمأنينة والثقة، والعدل هو الذي يمنح تلك الميزات للمتعاملين، لأن تطبيقه يكسبهم الراحة النفسية، وعدم الشعور بالغبن أثناء المعاملات والمبادلات.

٣- العدل في ميدان السياسة: من العسير علينا ونحن نبحت في فكر علي عليه السلام الأخلاقي، ان نقول بوجود عدل اجتماعي وآخر سياسي، لأن سياسة علي عليه السلام في الاصل سياسة اجتماعية، تضع مصلحة عامة الناس من الطبقات الفقيرة في مقدمة الأولويات^(٣)، حتى لنكاد نشعر بالصعوبة إذا ما حاولنا الفصل بين عنصر السياسة وعنصر الاجتماع في ميدان الأخلاق الا ان ذلك لا يحول بيننا وبين تسلط الضوء على الفكر الأخلاقي العادل الذي يغلب الطابع السياسي عليه. فمن أهم ما يجب ان يتميز به الحاكم العادل في سياسته للرعية - ان يعمل بالعدل في كل صغيرة وكبيرة من أفعاله، حتى في النظر إلى رعيته، فلا يميل به الهوى إلى النظر بازدراء إلى الفقير لفقره، والبشاشة والترحاب بالغني لكثرة

(١) راجع البلاذري - انساب الاشراف ٢/ ١٢٩.

(٢) رسائل - ٥٣ - الفقرة ٢٤.

(٣) راجع السابق - الفقرة ٧.

امواله وعلو منزلته، إذ يجب ان تكون نظرته لكلا الطرفين متماثلة، يقول لمحمد بن أبي بكر في عهده إليه حين ولاه مصر «اخفض لهم جناحك، والن لهم جانبك، وابسط لهم وجهك، واس بينهم في اللحظة والنظرة، حتى لا يطمع العظماء في حيفك لهم، ولا ييأس الضعفاء من عدلك عليهم»^(١) فالسياسة العادلة - في مبدأ علي عليه السلام - ان لكل المواطنين اما القانون سواء، مسلمين وغير مسلمين وعدم دخول هؤلاء الإسلام لا يفقدهم حقوقهم الإنسانية^(٢)، فالناس كما يقول علي عليه السلام ضمن عهده للأشتر: صنفان «اما اخ لك في الدين أو شبيه لك في الخلق»^(٣). فالحكومة الحقيقية هي التي تقدر العدل^(٤)، وتختار لحكمها رجالاً يعرفون طريقه ويسرون على نهجه. ولن يتأتى لهم ذلك - كما يرى علي عليه السلام - الا إذا عرفوا أن يأخذوا العدل من نفوسهم، ومن خاصة أهلهم واقاربهم^(٥) لله ولجميع الناس، ومن لم يؤد ذلك تاماً ففقد ظلم نفسه وظلم عباد الله «وكان الله حرباً حتى ينزع أو يتوب»^(٦). فعلي عليه السلام يأمر واليه بالعدل بين رعيته، يكلم فيه الضمير ويرحك داخله الوازع النفسي مصدر القيم الخلقية، فهو لم يتهدده بالعقاب المادي المتمثل في العزل وفي المصادرة، لابل يلجأ إلى الترهيب النفسي المتمثل في قدرة الله سبحانه بإنزال العقاب الدائم المستمر على الجور

(١) رسائل - ٢٧ - الفقرة الأولى.

(٢) راجع رسائل - ١٩.

(٣) رسائل - ٣٥ - الفقرة ٤.

(٤) راجع السابق - الفقرة ٢٦.

(٥) راجع السابق - الفقرة ٦.

(٦) السابق - فقرة ٤ وفقرة ٦.

الباب الثالث: فكر علي (عليه السلام) الاجتماعي كما يبدو في نهج البلاغة..... ٤٣٩

والجائر^(١)، فالعدل - في فكر علي (عليه السلام) - ميزان الأخلاق، الذي يعدل كل مائل في المجتمع سواء أكان مادياً أم معنوياً، وهو على سعة ميادينه، فإن منبعه الإيمان بقدره الإنسان على تمييز الصواب من الخطأ، والسير في طريق الصواب المتضمن كل القيم الأخلاقية، وهو في جوهر توأم الحق.

٢- الحق:

الحق من أسماء الله الحسنى ويعني «الموجود المتحقق من وجوده والهيته»^(٢) وللحق معان متعددة يمكن معرفتها من خلال السياقات التي ترد فيها، فعلم القانون - على سبيل المثال - يعرف الحق «بأنه مصلحة ذات قيمة مالية يحميها القانون»^(٣)، فهو يحصره في النواحي المادية، ويربطه بالقانون سواء أكان وضعي أم تشريعي وقد يعرف «فلسفياً ما طابق الذهن والواقع ويقابل الباطل»^(٤)، «وحقائق الإيمان، أركانه وهو التصديق بوجود الله تعالى وبوحدانيته واعتبار اسمائه الحسنى»^(٥)، ويأتي بمعنى المطابقة والموافقة والثبوت^(٦)، ويطلق الحق أيضاً «على الأقوال والعقائد والأديان والمذاهب»^(٧) على أساس أنها تتضمن

(١) يناسب ذلك قوله «اذكر عند الظلم عدل الله فيك، وعند القدرة قدرة الله عليك» شرح ابن أبي الحديد ٢٠ / ٣٢٨.

(٢) الطريحي - مجمع البحرين ٥ / ١٤٨.

(٣) عبد الزاق السنهوري - مصادر الحق في الفقه الإسلامي ١ / ٩.

(٤) يوسف خياط - معجم المصطلحات العلمية والفنية ص ١٧١.

(٥) الطريحي، السابق ٥ / ١٤٨.

(٦) راجع: أحمد رضا - معجم متن اللغة ٢ / ١٣٢.

(٧) منصور رجب - تأملات في فلسفة الأخلاق ص ٣٤٢.

٤٤٠ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

ذلك، «والحقيقة في مصطلح العلماء ما قابل المجاز»^(١)، ويأتي الحق أيضاً بمعنى العدل كما في قوله تعالى:

﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾^(٢)،

ويأتي بمعنى الصدق كما في قوله تعالى:

﴿حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ﴾^(٣)، ويأتي الحق بمعنى المنزلة

والقيمة المعنوية كما في قوله تعالى:

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾^(٤).

فالحق كقيمة خلقية يكون جماع من الصدق، والعدل، والرضاء، والنأي بالنفس عن الأنانية، وتجنب الشح، وفرونته تجعل معانيه تتضمن الاخذ والعطاء. وإذا كان العدل يهدف إلى ارساء الطمأنينة في النفس فإن الحق بشموليته على العدل وتضمنه معاني التبادل الذاتي، هو العامل المحرك للفرد والمجتمع في طريق التفاهم والبناء، إذ لا يمكن لأي فرد أو أية فئة ان تطالب بحقوق معينه، الا في مقابل تأديتها لواجبات تترتب على تلك الحقوق.

وهذا التبادل بمفهومه العملي، هو ما يرمي إليه علي عليه السلام من مفهومه للحق، فقوله «الحق واسع الأشياء في التواصف واضيقها في التناصف»^(٥) يعني ان الحق كنظرية متمثلة في الوصف القولي، هو من الاتساع بحيث لا

(١) الطريحي، السابق / ٥ / ١٤٨.

(٢) ص / ٢٦.

(٣) الاعراف / ١٠٥.

(٤) الزمر / ٦٧.

(٥) خطب - ٢١٠ - الفقرة الأولى.

يقاس ولا يحدد، ولكن سرعان ما يضيق وتنكر كل صفاته إذا ما اريد له يوجد في حيز التطبيق. ويريد علي عليه السلام من وراء تبيانه لتلك الخاصية، الحق العملي البعيد كل البعد عن الاقوال كما في قوله بأن الحق «لا يجري لأحد الا جرى عليه، ولا يجري عليه الا جرى له»^(١) فهو أخذ وعطاء مستمران باستمرارية الحياة، وبين جميع البشر، وعلى جميع المستويات الاجتماعية لأنه دستور حياة، ولا يمكن لأي فرد مهما علت منزلته وسمت مكانته، ان تكون له حقوق، دون ان تكون عليه واجبات تسمى حقوقاً بالنسبة للغير، و«لو كان لاحد ان يجري له ولا يجري عليه، لكان ذلك خالصاً لله سبحانه وتعالى دون خلقه لقدرته على عباده ولعدله في كل ما جرت عليه صروف قضائه»^(٢) هو ما لم يلزم به الله عباده لتدبروا معنى الحق في علاقتهم ومع نفوسهم لذلك «جعل حقه على العباد ان يطيعوه، وجعل جزاءهم مضاعفة الثواب»^(٣) فالحق - كما يبدو لنا في فكر علي عليه السلام - ليس مجرد ألفاظ جوفاء أو معنى خالٍ من مضمونه العملي لذلك فهو لا يعرف بالرجال كما يتراءى للبعض - من خلال منطقتهم أو ما يحدثنا به التاريخ من سيرهم، ولكن الرجال يعرفون بالحق^(٤) أثناء مباشرتهم له، وفهمهم ابعاده، ونزولهم عند حدوده، بإيمان وصدق عزيزة لأنه «ثقيل مرئ»^(٥)، ثقيل لأن النفس تأباه إذا تعارض مع مصالحها ولكنه حسن العاقبة، لأنه يكبح من جماح شهواتها، ويجد من تمردها، ويجعلها تحت

(١) خطب - ٢١٠ - الفقرة الأولى.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

(٤) راجع حكم - ٢٧٠.

(٥) حكم ٣٨٢.

٤٤٢ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

سلطان العقل، لذلك فعلى سبيل الجدال تجنباً للرديلة يقول علي عليه السلام «إلا وأنه من لا ينفعه الحق يضره الباطل»^(١) ولا مرء فإن الباطل وان حسن مظهره، فإن مباشرته لا بد وان تؤدي إلى مضرة، وفي المقابل لا يعني ان العمل بالحق لا يعود بالنفع على مباشرته، لأن الحق في حد ذاته غايته الخير بمعناه الواسع. وبتتبعنا للحق كمنبع من منابع القيم الخلقية - في فكر علي عليه السلام - سنجد أنه بمثابة الحزم الضوئية المنبعثة من مصدر واحد يلم في داخله كل ما أمكنه من المعاني الخيرة التي تهدف إلى بناء الإنسان وسعادته بتكوينه تكويناً متوازناً مع نفسه ومتسقاً في علاقاته بالآخرين. والحقوق التي يتعين على الفرد مزاولتها لتكتمل سعادته - كما يرى علي عليه السلام - متعددة منها:

أ. حق الله:

يتجلى الرب على عباده في جميع نواحي الحياة المتعلقة بمعيشتهم على الأرض، وقد عرض علي عليه السلام في نهج البلاغة إلى كثير من هذه الحقوق التي منها: حقه سبحانه وتعالى على عباده في التعرف على ذاته وقد اوكل علي عليه السلام تلك المعرفة إلى القرآن الكريم وإلى السنة النبوية الشريفة، يقول لمن سأله عن وصف الرب سبحانه «فانظر أيها السائل، فما ذلك القرآن عليه من صفته فأتم به واستضى بنوره، وما كلفك الشيطان علمه مما ليس في الكتاب عليك فرضه، ولا في سنة النبي ﷺ وائمة الهدى اثره، فكل علمه إلى الله سبحانه، فإن ذلك منتهى حق الله عليك»^(٢) فمن حق المسلم ان يفكر في الذات الإلهية،

(١) خطب ٢٨.

(٢) خطب - ٩٠ - الفقرة ٢.

ولكن في حدود ما رسمه الدين بمصدره الرئيسيين، وذلك حسماً للخلاف وتجنباً من المروق، فمن حق الله عليك حتى تعبدته حق عبادته ان تعرفه. واذا كان ذلك حقه سبحانه نحو ذاته القدسية فإن من حقوقه على العباد نحوهم، مراعاة بعضهم البعض، بالتناصح فيما بينهم، وبذل العون إلى محتاجهم وضعيفهم، والعلم بما سنه الله من حقوق دون الاخلال بشيء منها^(١) ومن حقوقه سبحانه، ما فرضه على عباده من نصيب فيما رزقهم من مال، وهو حق من الأهمية بمكان، لأن صيانة المجتمع من الانزلاق في هاوية الشح والفوضى والتسلط والحسد تتوقف على أدائه فهو في أساسه تطهير للنفس بالنسبة للمعطي والسمو بها عن التكالب الدؤوب على شهوات الدنيا، وهو في ذات الوقت طمأنة لنفس الفقير بتحسيسه بأن هناك ثمة من يعطف عليه ويحاول التخفيف من محنة الفقر التي يعيشها، وبهذا الحق الإلهي يزول الحقد والحسد، باستجابة النفس لنداء الواجب والحب فيأمن الغني على ماله ويطمئن الفقير على حاله، لذلك نجد علياً عليه السلام ومن منطلق اسلامي سمي الزكاة (حق الله)، فضمن وصيته لعماله على الصدقات، يأمر كل منهم إذا وصل إلى مكان عمله وتجمع الناس حوله بالقول «أرسلني إليكم ولي الله وخليفته، لأخذ منكم حق الله في أموالكم، فهل لله في أموالكم حق فتؤدونه»^(٢) والسؤال في السياق يدل كما يبدو، أن الزكاة في فكر علي عليه السلام، وإن كانت واجبة على كل مسلم في ماله نصاب يستحق إخراجها، إلا أنها لا تؤخذ منه كرهاً لأن في إخراجها بطريق الإكراه ما يفقدها قيمتها الأخلاقية، فالافتناع الداخلي من لدن الإنسان بأنها

(١) يمكن استخلاص كل ذلك من - الخطب ٩٨ فقرة ٩، ١٧٨، ٥ فقرة ١٩٢، ٣ فقرة ٢١٠، ٣ فقرة ٣،

٢١١ فقرة ١، ٢٣٩ فقرة ٣، والحكمة رقم ٢٤٣.

(٢) رسائل - ٢٥.

حق الهي هو المحرك لقيمتها الأخلاقية، فحق الله سبحانه على الإنسان، يجب أن ينبع من فكر الإنسان، والاختناع الذاتي بذلك الحق دون أي تأثير خارجي كما يرى علي عليه السلام وهو القائل «من عرف نفسه فقد عرف ربه»^(١)

ب - حق النفس:

النفس الإنسانية، منبع كل خير وحكمة وعلم وهي في الوقت نفسه «مثار الجهل والضلال والشقاء والشر»^(٢) والقائد المحرك لكلا المتقابلين فيها، إحساس الفرد الداخلي بالمسؤولية، وهذا الإحساس هو مصدر الحق الذي خوله الله سبحانه وتعالى الإنسان، فإذا ما أراد التعايش في مجتمع تحكمه الأخلاق فعليه أولاً أن يبدأ بنفسه لأن «معلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال من معلم الناس ومؤدبهم»^(٣) فالحق الأولي والرئيسي البدء بالنفس، وقد اجمل علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام حقوق النفس في قوله «وأما حق نفسك عليك، فإن تستوفيها في طاعة الله، فتؤدي إلى لسانك حقه، وإلى رجلك حقها، وإلى بطنك حقه، وإلى فرجك حقه، وتستعين بالله على ذلك»^(٤). فالملاحظ هنا أن حق النفس يشمل كل ما يصدر عن الإنسان من قول أو فعل أو تصرف، وحتى التفكير الذي يسبق الاقدام على عمل ما، هو حق من حقوق النفس، فتجنب الغرور والزهو من حقوقها «لأن الشيء الذي لا يحسن أن يقال وإن كان حقا

(١) ابن أبي الحديد ٢٠ / ٢٩٢.

(٢) حسن السيد علي القبانجي - شرح رسالة الحقوق ١ / ٧٢.

(٣) حكم - ٧١.

(٤) ابن شعبة الحراني - تحف العقول ص ١٨٥.

مدح الإنسان نفسه»^(١)، وحفظ اللسان في جميع المواطن حق من حقوقها لأنه «ما شيء أحق بطول سجن من لسان»^(٢) كما يقول علي عليه السلام، لأن سجن اللسان فيه صيانة للنفس من التلف، وتجنب الكوارث، وحفظ الأعراس، فرب «قول أنفذ من صول»^(٣). ولكل الحواس أهميتها في ضبط حقوق النفس، فإذا كان لكبح جماح اللسان قيمته الأخلاقية فإن للسمع والرؤية - كما يرى علي عليه السلام - قيمتها في التفريق بين ما هو حق وما هو باطل، من ذلك قوله «انه ليس بين الحق والباطل إلا أربعة أصابع، الباطل أن تقول سمعت، والحق أن تقول رأيت»^(٤). وكما نلاحظ فإن المقولة تحوي صورة من أروع الصور الحسية القريبة من تصور كل إنسان، إذ بوضع أصابع الكف الأربع على الخد بين الأذن والعين يعرف الحق من الباطل، فالرؤية في مجال الشهادة حق، أما السماع فباطل. ففكر علي عليه السلام تجاه حق النفس ينطلق - كما نعتقد - من كون الإنسان فرد في مجتمع تؤثر علاقته مع نفسه على علاقاته بالآخرين سلباً وإيجاباً بمدى معرفته لنفسه وما عليه من حقوق نحوها.

ج - حق الوالد وحق لولد:

إذا تمكن الإنسان من إيفاء نفسه حقها بإنزالها المنزلة التي تستحقها، استطاع أيضاً من إيفاء حق الآخرين عليه ابتداءً بمحيطة الأسرى. فمن

(١) ابن أبي الحديد ٢٠ / ٢٩٧.

(٢) السابق ٢٠ / ٢٦٣.

(٣) حكم - ٤٠٢.

(٤) خطب - ١٤١.

الحقوق الأخلاقية الواجبة على الإنسان تجاه أسرته، حق الولد على الوالد، ولا نعني بالحق هنا تهيئة الملبس والمسكن، فتلك حقوق مفروغ من تأديتها تجاه من نعوّلمهم، ولكن ثمة حقوق أخلاقية الهدف من ورائها اعداد الفرد ليتحمل مسؤوليته في المجتمع، وهي الحقوق التي يرمي علي عليه السلام إلى توضيحها من خلال فكره الأخلاقي حين يقول «حق الولد على الوالد أن يحسن اسمه ويحسن ادبه ويعلمه القرآن»^(١). فحقوق الابن على أبيه تتمثل في إعداده للحياة، وتهيئة نفسه تهيئة سوية. فتحسين الاسم يعني في مضمونه تجنيبه الانفعالات النفسية، من مضايقات الناس، الذين يجنحون إلى كل ما هو حسن وجميل، وينفرون من كل ما هو قبيح في منظره وفي تسميته، ثم ان الأدب المتضمن جميع القيم الخلقية والمعاملات الإنسانية، يكسب الإنسان القبول والاحترام في مجتمعه، اما العلم فهو السلاح الذي يستطيع به دفع غائلة الزمن بتخطي صعوبات الحياة، ويلاحظ ان علياً عليه السلام قد قصر واجب الأب على التعليم الأساسي ابتداء بالقرآن الكريم، لكون ذلك التعليم الابتدائي يأتي من الاكتساب المفروض والمقرون بالمراقبة، لأن سن المتعلم تتطلب ذلك، اما اكتساب التعليم التالي لتلك المرحلة فينبع من ذات الفرد، وإقناعه الفكري بتوجيه نفسه بنفسه. وفي المقابل أيضاً فإن للوالد على الولد حقوقاً يجب أن يستوفيها كلامة من أهمها، في فكر علي عليه السلام، الطاعة، «في كل شيء إلا في معصية الله سبحانه»^(٢) وتأدية الطاعة بمفهومها الشامل لا تعني - كما نعتقد - رد الجميل على ما بذله الوالد تجاه ولده، لأن ما أعطاه الأب لابنه، هو في جوهره حق من حقوقه الإنسانية، وأما ما يقوم به

(١) حكم-٤٠٧.

(٢) حكم-٤٠٧.

الباب الثالث: فكر علي عليه السلام الاجتماعي كما يبدو في نهج البلاغة ٤٤٧

الابن تجاه أبيه من طاعة فهو حق من حقوق الأب الطبيعية، لأن الأب في أوامره ونواهيه، إنما يضع مصلحة الابن فوق مصلحته الذاتية، وتتمثل القيمة الحقيقية للابن في نفس الأب في قول علي عليه السلام لابنه الحسن ضمن وصيته له «... وجدتك بعضي، بل وجدتك كلي، حتى كأن شيئاً لو أصابك أصابني وكان الموت لو أتاك أتاني»^(١) فالحقوق التي يعنيها علي عليه السلام ويوجب على الابن تأديتها، إنما يعني قبوله للنصح وتمثله للأخلاق، علاوة على ذلك البر به وبأمه واحترام التقاليد الأسرية، فمتى صار التجاوب بين الأطراف داخل المجتمع الصغير منسجماً بتأدية حقوق كل لكل، فإنه لا محالة من انعكاس ذلك التجاوب على جميع محاور المجتمع الكبير ابتداء بالأصدقاء.

د- حق الصديق:

الصدقة من العلاقات المقدسة التي حض الإسلام على التمسك بها وتعهدا ورعايتها^(٢)، وقد أولاهآ آل البيت أهمية كبيرة وجعلوا لها من الحقوق ما يصعب حصره ويثقل تحمله إلا على أولي العزم من المخلصين في إيمانهم، الذين يتحلون بأعلى درجات الكمال الأخلاقي، فمما يؤثر عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قوله في حق الصديق «أن تحب له ما تحب لنفسك وتكره له ما تكره لنفسك... وأن تتجنب سخطه وتتبع مرضاته وتطيع أمره... وأن تعينه بنفسك ومالك ولسانك ويدك ورجلك... وأن تكون عينه ودليله ومرآته...

(١) رسائل - ٣١ فقرة ٢.

(٢) للأهمية التي أولاهآ الإسلام للصدقة فقد عد الرسول ﷺ أن من بر الابن بوالديه في حياتها

ومماتها إكرام أصدقائها - راجع مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٤٩٨.

ان لا تشبع ويجوع، ولا تروى ويظمأ، ولا تلبس ويعرى... ان يكون لك خادم وليس لأخيك خادم، فواجب ان تبعث خادمك فيغسل ثيابه ويصنع طعامه ويمهد فراشه... ان تبر قسمه، وتجيب دعوته وتعود مريضه، وتشهد جنازته، واذا علمت ان له حاجة تبادره إلى فضائها ولا تلجئه ان يسألكها، ولكن تبادره مبادرة»^(١). وقد تكون تلك الحقوق فوق طاقة الإنسان العادي، الا انها تهدف إلى ارساء دعائم مجتمع قوي متضامن لو أخذ بمعظمها، وفكر جعفر الصادق عليه السلام تجاه الصديق لم يكون سوى رافد من روافد فكر جده علي عليه السلام في تقديسه للصدقة^(٢) التي أجمل حقوقها في قوله «لا يكون الصديق صديقاً حتى يحفظ اخاه في ثلاث: في نكته، وغيبته، ووفاته»^(٣) فالحقوق التي ذكرها علي عليه السلام تحوي جميع القيم الخلفية التي يحتاجها الفرد في بناء علاقات قوية ومتينة يشعر من ممارستها لها بإنسانية، فيعمل بتلقائية ورحابة صدر على تعميق جذورها، فتمتد لتشمل جميع الناس، في مجتمع مثالي يرتكز على الحب والخير والصلاح، فلا أنانية، ولا استئثار يضيع الحقوق اتكالا على ما بين الأصدقاء من علاقات^(٤).

فالصدقة إذا ما بنيت على دعامة أخلاقية راسخة وقوية فستبقى ثابتة تحت أية ظروف. والصديق الذي يتوخاه علي عليه السلام لنفسه، ويريد من جميع الناس ان يكونوه، هو الذي بادر برسمه وعدد مزاياه في نص متكامل اراد من خلاله ان

(١) الكليني- أصول الكافي ٢/ ١٦٩.

(٢) راجع ص ٤٨٦ من هذا البحث.

(٣) حكم- ١٣٢.

(٤) راجع رسائل ٣١- فقرة ٢٣.

يجسد صورة الصديق المثالي الذي يتوخاه^(١)، فحقوق الصداقة في جوهرها حقوق أخلاقية، حاول علي عليه السلام جاهداً ترسيخها في نفوس الناس، توطئاً لبناء مجتمع سليم تحكمه الأخلاق وتقيده القيم.

هـ - حق المجتمع:

تتكون العلاقات الاجتماعية السليمة من توازن الفرد مع نفسه ومن ثم مع محيطه الأسري فمعارفه وصداقاته، فينعكس ذلك التوازن على المجتمع، لأن الإنسان وفي خضم اختلاطه وتعامله يدرك بما لديه من خلفيات أخلاقية مكتسبة، حقوق الآخرين عليه، ومن ثم يعرف ان مركزه الاجتماعي يجب ان يتولد من دوره داخل المجتمع، فلا يرضى بالوساطة أو المحسوبية للوصول إلى المركز، لأن لكل فرد حق، وحقه هو أن يأخذ نصيبه وافيا شريطة أن لا يكون على حساب حقوق الآخرين لأن «بلوغ أعلى المنازل بغير استحقاق أكبر أسباب الهلكة»^(٢). والهلكة التي يرمي علي عليه السلام إليها - كما نعتقد - هي الانهيار الأخلاقي الذي يصيب المجتمع بتفشي الرشوة والتفسخ الأخلاقي، وشيوع الفوضى والجهل بين من أنيطت بهم مسؤوليات بناء المجتمع لافتقارهم إلى الكفاءة التي تؤهلهم للقيام بمهامهم، ولاتقاء ذلك يرى علي عليه السلام أن من حق المجتمع عليك أن تدقق في الأمور وأن تضع كل شيء في موضعه المناسب بالأخذ والعطاء المتكافئين طبقاً للإمكانات المتاحة من علم وخبرة وإدراك واطلاع، بحيث يكون الدافع الداخلي هو المحرك لكل فرد في معرفة قدراته

(١) راجع حكم - ٢٩٧.

(٢) ابن أبي الحديد - ٢٠ / ٢٨٧، ٣٢١.

دون الميل إلى هوى النفس وذلك هو المؤهل الاجتماعي الحقيقي، كما نفهمه من قول علي عليه السلام «انظر ما عندك فلا تضعه إلا في حقه، وما عند غيرك فلا تأخذه إلا بحقه»^(١) فقوله (عندك وعند غيرك) يعني العلاقة الاجتماعية الترابطية بين الفرد والمجتمع المتمثل في الغير، وهذه العلاقة - كما يتهيأ لنا من المقولة - لا تقتصر على النواحي المادية، بل تتعداها إلى جميع الحقوق الاجتماعية والاخلاقية. والحقوق الاجتماعية والاخلاقية في فكر علي عليه السلام كما هي مبثوثة في النهج - متنوعة بتنوع أساليب الحياة. ومنها:

و- حق العلم:

العلم - في فكر علي عليه السلام - من الأمور العقلية التي تحتاج إلى ممارسة ومران دائمين، ومن حقه على الفرد صيانتته من التدنيس، ورفعته فوق مستوى المادة، وعدم استخدامه في مضرة الآخرين، أو حتى اتاحته للذين يجهلون قيمته ولا يعرفون مدى خطورته، فيتخذونه سلماً للوصول إلى غاياتهم الدنيئة ويمكننا إدراك ذلك من قوله «لا تحدث بالعلم السفهاء فيكذبونك، ولا الجهال فيستثقلونك، ولكن حدث به من يتلقاه من أهله بقبول معهم... فإن لعلمك عليك حقاً، كما ان في مالك عليك حقاً»^(٢)، فالعلم بالنسبة للعالم، كالمال بالنسبة لأي إنسان يمتلكه، يجب ان يراعيه بصيانتته ووضعته في مواضعه السليمة التي لا تجلب للناس المضرة والشر. ومن حقوق العلم الأخلاقية أيضاً، حق العالم على المتعلم، وكما يبدو في فكر علي عليه السلام، فإن ذلك الحق يجب أن ينبع من ذات

(١) ابن أبي الحديد - ٢٠ / ٢٨٧، ٣٢١.

(٢) السابق.

الباب الثالث: فكر علي عليه السلام الاجتماعي كما يبدو في نهج البلاغة ٤٥١

المتعلم باقتناعه بأهميته في عملية التحصيل فالتحصيل العلمي الخالص لوجه العلم - يجدر بطالبه أن يراعي حق من يأخذ عنه «بألا يكثر عليه السؤال، ولا يعنته في الجواب، ولا يغتاب عنده احداً، ولا يطلب عشرته...»^(١) بالإضافة إلى تعظيمه وتوقيره، طالما صان ذلك العالم علمه وراعى فيه حدود الله.

حق الأمة وحق الوالي

لكن الحياة لا تستقر، والإنسان لا يطمئن، والأعراض لا تصان والعلم لا ينتشر إلا إذا ضمنت الحكومة حقوق الناس، وضمن الناس حقوق الحكومة، وتبدو هذه الحقوق المتبادلة من أهم الحقوق الأخلاقية في فكر علي بن أبي طالب عليه السلام، ويمكن استخلاص ذلك من قوله «وأعظم ما افترض سبحانه من تلك الحقوق حق الوالي على الرعية وحق الرعية على الوالي فريضة فرضها الله - سبحانه - لكل على كل، فجعلها نظاماً لإلفتهم وعزاً لدينهم... فإذا ادت الرعية إلى الوالي حقه، وأدى الوالي إليها حقها عز الحق بينهم، وقامت مناهج الدين، واعتدلت معالم العدل... فصلح بذلك الزمان»^(٢) فالعمل بالدين، وانتشار العدل وصلاح المجتمع كلها عناصر خلقية، تعتمد في الدرجة الأولى على تبادل حقوق التزاميه تفرضها طبيعة الحياة على كلا الطرفين لأنهما يكملان بعضهما بعضاً ابتغاء الخير والسعادة للإنسان والإنسانية، وهذه الحقوق - كما يراها علي عليه السلام - هي:

(١) السباق ٢٠/٢٧٣، ٢٦٩.

(٢) خطب - ٢١٠ فقرة ٢ وراجع أيضاً ضمن الخطبة ما سيؤول إليه المجتمع من انهيار في حالة تضييع الوالي لحق الرعية وتضييع الرعية لحق الوالي في نفس الفقرة.

أولاً - حق الأمة على الوالي:

لن نعرض هنا الا للحقوق المتصلة اتصالاً مباشراً بالجانب الأخلاقي^(١)، المتمثل - أولاً وقبل كل شيء - في وجوب تواضع الحاكم للمحكومين، وعدم الترفع عليهم وازدراؤهم بالنظر إليهم من عمل بحكم مركزه السياسي، يقول علي عليه السلام بشأن الحقوق المفروضة على الوالي «أن لا يغيره على رعيته فضل ناله ولا طول خص به، وأن يزيده ما قسم الله له من نعمة دنوا من عباده وعطفا على إخوانه»^(٢) ويترتب على ذلك رفع الظلم عن كاهل المستضعفين برد الحقوق وإنصاف المظلوم والانتصاف من الظالم^(٣)، دون اعتبار لقراية أو صداقة أو محسوبية بالزام «الحق من لزمه من قريب أو بعيد»^(٤) بالإضافة إلى ذلك فمن حق الأمة على الوالي إرشادهم بالنصيحة الخالصة، وإزالة الجهل من نفوسهم، وزرع الفضيلة ونشرها فيما بينهم^(٥) باللين والعطف أو بالقوة إن اقتضت الضرورة لذلك فإذا ما تأكدت تلك الحقوق من قبل الحكومة تجاه المحكومين، وجب على المحكومين في المقابل تأدية ما عليهم من الحقوق تجاه الحكومة.

(١) لأننا عرضنا للحقوق من الناحية السياسية في ص ٣٦٤ وما بعدها من هذا البحث.

(٢) رسائل - ٥٠.

(٣) راجع الخطبة - ١٣٦.

(٤) رسائل - ٥٣ الفقرة ٣١.

(٥) راجع الحقوق التي فرضها علي عليه السلام لرعيته على نفسه ضمن الخطبة ٣٤، الفقرة ٢.

ثانياً - حق الوالي أو الحكومة على الأمة:

ويكمن ذلك الحق - كما يبدو في فكر الإمام علي (عليه السلام) - في ثلاثة بنود يجمعها قوله «الوفاء بالبيعة، والنصيحة في المشهد والمغيب والاجابة حين (يدعون) والطاعة حين (يؤمرون)»^(١) ذلك على أساس أن الحكومة قد أدت حقوقها وقامت بالتزاماتها تجاه الأمة.

فالحق بمعناه الخلقى في فكر الإمام علي (عليه السلام) - كما يبدو في نهج البلاغة- واسع وعميق ومتعدد الميادين التي يصول الإنسان فيها ويجول، آخذاً في طريقه بجميع القيم الإنسانية التي يحتاجها الفرد كزاد يغذي الروح لتتمكن من الثبات بإحكام في مواجهة مغيرات الحياة، متفاعلة مع مجتمعتها تفاعلاً إيجابياً يعود بالخير العميم على كل الشرائح الاجتماعية. ولكن لن يتأتى للعدل والحق أن يسانا إلا إذا جعلنا من التقوى سياجاً لهما.

ثالثاً - التقوى:

يفسر المعجم اللغوي التقوى بالحدزر والخوف^(٢)، وهو بذلك لا يعطي للمعنى بعده الأخلاقي، اما المعنى الشرعي للتقوى فهو «حفظ النفس مما يؤثم بترك المحظور»^(٣) وهو تعريف يتفق مع التعريف الأخلاقي الحديث لهما، والمتمثل في القول بأنها «سلطة تطالب من اعماق القلب، بتقديم حسابات، ويقوم اساسها الأول ذو الجوهر الديني في النفس الإنسانية التي لا تنفك تنفذ

(١) خطبة ٣٤ الفقرة ٢.

(٢) راجع لسان العرب المحيط ٣/ ٩٧١، المعجم الوسيطة ٢/ ١٠٥٢.

(٣) الراغب الاصفهاني- المفردات في غريب القرآن ص ٨٣٣.

وتراقب»^(١)، فالتقوى على هذا الأساس شعور داخلي تكمن فيه «قوة من غريب امرها انها تجمع بين هذه السلطات الثلاث: السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية والسلطة القضائية»^(٢) فعن طريق هذا الشعور تميز بين الخير والشر، وبها أيضاً تنزع إلى طريق الصواب، فبالتقوى يتمكن الفرد من الحكم على صحة الطريق الذي يسلكه في معاملات وتصرفاته، فهي تعاقب عقاباً معنوياً قوامه وخز الضمير، وتثيب ثواباً معنوياً أساسه الاطمئنان وراحة الضمير. فالتقوى بمفهومها هذا، أصل الأخلاق، فلو تصورنا أن القيم الخلقية مجموعة من الفروع والأعصان المورقة والمغدقة فإن التقوى ستكون لا محالة الجذع الذي تنبثق من أصوله تلك الأغصان وتتغذى منه، فهي الشريان الحيوي الذي يمد الأخلاق بالنبض ويجعلها في كفاح دائم ومستمر ضد كل أساليب الحياة الملتوية، في كل زمان، وفي أي مكان، لأنها «عبارة عن ترك جميع الذنوب والمعاصي، وفعل ما يستطاع من الطاعات... واتقاء الأسباب الدنيوية المانعة من الكمال وسعادة الدارين بحسب سنن القوم»^(٣) فهي على ذلك ضابطة ومنظمة لحياة الإنسان في جميع نواحي الحياة الدنيوية، وإعداده لثواب الآخرة بتبصيره بالموبقات في الحياة الدنيا، وليس ادل على ذلك من قوله تعالى:

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ

(١) مارسيل بوزار - انسانية الإسلام ص ٦٠.

(٢) منصور رجب - تأملات في فلسفة الأخلاق ٢٢٨.

(٣) محمد رشيد رضا - الوحي المحمدي ص ٢١٣.

وَلَقَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ
الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ»^(١). فالتقوى، كما عدد
القرآن الكريم منحها - إيمان صادق وتضحية بلا حدود، وقيم أخلاقية شاملة،
فهي شعور مختلط يكمن فيه الدين بجميع أبعاده وقيمه. لذلك عدّها علي عليه السلام،
هي والورع «مخ الإيمان... وهما من افعال القلوب»^(٢) لأنهما ينبعان من ذات
الإنسان، وبهما يتمكن من موازنة حياته مع نفسه ومع الجماعة من حوله.

لقد ركز علي عليه السلام على التقوى كأساس لكل المعاملات الإنسانية والعلاقات
الاجتماعية، حتى غدت من السعة والانتشار في نصوص النهج بحيث نشعر
بنبضها ونحس حيويتها في كل تعبير أخلاقي حاول علي عليه السلام بثه في رعيته،
وحض ولاته على الأمصار من خلاله، فوردت التقوى بصيغة الأمر المفرد
والجمع، وبوصف قيمتها ومردودها الأخلاقي فيما يقارب من ثمانية وثمانين
موضعاً^(٣). وهو وإن لم يصف التقوى بالهيئة التي وصفها القرآن الكريم بها،

(١) البقرة/ ١٧٧.

(٢) شرح ابن أبي الحديد ٢٠ / ٣٤٧.

(٣) راجع الخطب: ٣ الفقرة ٢، ١٦ الفقرة الأولى في موضعين، والفقرة الثانية، ٢٤، ٢٧ الفقرة
الأولى، ٣٢ الفقرة الثالثة، ٤٠ الفقرة الأخيرة، ٤١، ٦٣ في موضعين، ٧٩، ٨٢ الفقرة الثانية
والسادسة في موضعين والثامنة والتاسعة والعاشر، ٩٣، ٩٧، ١٠٩ الفقرة الأولى والثانية،
١١٠، ١١٣ الفقرة الثانية والثالثة والرابعة، ١١٥ الفقرة الأولى، ١١٩، ١٣٠، ١٣٢ الفقرة
الثانية، ١٤٤ الفقرة الثالثة، ١٤٥ الثانية، ١٥١ الثانية والثالثة، ١٥٨ الثالثة في موضعين، ١٦٢
الثانية ١٦٨ الرابعة، ١٧٥ الثالثة ١٧٨ السادسة، ١٨٤ الخامسة، ١٨٥ الثالثة في ثلاثة مواضع،
١٨٧ صدر الكلام في موضعين، ١٨٨ الثانية ١٨٩ الرابعة، ١٩٠ الثانية، ١٩٢ الثانية في ثلاثة
مواضع والثالثة، ١٩٣ الثانية، ٢٢٧، ٢٢٥، ١٩٨ الأولى: ٢٣٦ الأولى، ٢٣٨ الثالثة، ٢٣٩ الثالثة

إلا أنه قد عدّها علاجاً للقلب وللروح والجسد والنفس كما في قوله «إن تقوى الله دواء داء قلوبكم وبر عمى أفئدتكم وشفاء مرض أجسادكم، وصلاح فساد صدوركم، وطهور دنس أنفسكم وجلاء عشاء أبصاركم، وأمن فزع جأشكم وضياء سواء ظلمتكم»^(١) فباستيعاب دقيق وشامل قد ضمن التقوى في المعاني الإنسانية التي يحتاجها الفرد والمجتمع كزاد روحي هدفه السعادة والخير ونكران الذات، بتجنب الانانية والبغضاء والحسد على اعتبار انها علاج كل داء أخلاقي فردي كان أم اجتماعي، أما تركه لوصف فروع التقوى، وتركيزه على مفعولها فلاّن - كما نعتقد - يدرك ان من يستمعون إليه، يفترض فيهم معرفة معاني القرآن الكريم، لأنهم مسلمون، لذلك ترك أمر التفاصيل داخل التقوى إلى القرآن مركزاً على آثارها الأخلاقية. فالتقوى هي «الفضيلة الأم التي تتكاثف فيها كل الوصايا»^(٢) الأخلاقية، كما تبدو في فكر علي عليه السلام، وهي أيضاً الأساس الذي يربط الإنسان بمختلف علاقاته الاجتماعية كما في قوله «لا يهلك على التقوى سنخ أصل ولا يظماً عليها زرع قوم»^(٣) فهي منبع كل حقيقة أخلاقية، وهي المعول عليها في فكر علي عليه السلام، لبقاء شجرة القيم في ورائها وأصالتها، تظل الإنسانية بقيئها، وتعتمد على عمقها في النفس لتثبيت كل ما

في ثلاثة مواضع ٢٤٠ الثانية. ورسائل: ١٢، ٢٥، ٢٦، ٢٧، الثانية ٣٠، ٣١ الثالثة والسابعة، ٣٢، ٤١، ٤٥ الثانية والسابعة، ٤٧ الأولى والثانية، ٥٣ الثانية، ٥٥، ٥٦. حكم: ٩٣، ١١١، ٢٠١، ٢٠٨، ٢٤١، ٢٦٨، ٣٥٠، ٣٧٦، ٣٧٧، ٣٩٥، ٤١٨.

(١) خطب - ١٩٢ - فقرة ٢، جلا - كشف واطهار - عشاء، يعشو، عشوا، ساء يصره ليلاً أو نهاراً، جأشكم - خوفكم.

(٢) محمد دراز - دستور الأخلاق في القرآن ص ٦٨١.

(٣) خطب ١٦ فقرة ٢ - والنسخ الأصل والمثبت لكل شيء.

هو خير، لذلك فإن انطباع معالمها في نفوس الناس، ينجر عنه تفشي النفاق، والضلال والزلل، والتلون والفتنة والكيد والحسد، فيحل الدمار والدموع والظلم والباطل بأساليبه المختلفة^(١) وذاك هو الانهيار الحقيقي الذي ليس بعده قائمة، لأن «التقى رئيس الاخلاق»^(٢) والموجه لها والمتحكم في زمامها.

لقد عرض الإمام علي عليه السلام في خطبه ورسائله ووصاياه وحكمه لجميع القيم الخلقية من شجاعة، وصدق وامانة ووفاء وكرم وتواضع وحلم... إلا أنه قد جمع تلك القيم في العدل والحق اللذين يرتضعان من أم الأخلاق التقوى فجمعا معها كل المعاني الإنسانية والقيم الخلقية التي تهدف في الأساس إلى تنشئة الإنسان وتربيته تربية مثالية.

(١) راجع خطب ١١٨ فقرة ٢.

(٢) حكم-٤١٨.

الفصل الثالث

التربية في فكر علي بن أبي طالب عليه السلام

كمات تبدو في نهج البلاغة

التربية ومراميها الأساسية

التربية عملية معقدة تتداخل ضمنها عدة علوم انسانية ترمي «الى مساعدة الطفل والمراهق والبالغ على تكوين شخصيتهم وتنميتها»^(١) من حيث العقل والسلوك والوجدان والعلاقات الاجتماعية، وهي من وجهة نظر إسلامية، موازنة الفرد نفسه بين المطالب الدنيوية والمطالب الأخروية طبقاً لقوله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾^(٢).

وذلك التوازن الدقيق يقتضي، بطبيعة الحال، تدريب ومران، على يد جهات عدة، إذ لا يتأتى للفرد أن يعلم نفسه بنفسه، ولا بد له - على الأقل - في البداية من يأخذ بيده ويضعه على الطريق، وذلك العمل من أولويات الواجبات التي تناط بالأسرة في الإسلام، فمن واجب الآباء أن يراعوا أبنائهم في كل مرحلة من

(١) يوسف خياط - معجم المصطلحات العلمية ص ٢٦١.

(٢) القصص / ٧٧.

مراحل نموهم، ويغذوهم بما يحتاجونه من زاد ثقافي وأخلاقي بما يتناسب كل مرحلة، فبصدد مراحل النمو وعلاقتها بالتربية يقول جعفر الصادق عليه السلام «يشعر الغلام لسبع، ويؤمر بالصلاة لتسع، ويفرق بينه في المضاجع لعشر، ويحتلم لأربعة عشرة سنة، ومنتهى طوله لاثنتين وعشرين سنة، ومنتهى عقله لثمان وعشرين سنة الا التجارب»^(١) فالتربية كما نلاحظ متمشية مع نمو الفرد، بحيث لا تنفك عن مراقبته منذ طفولته الأولى حتى سن المراهقة، ومن ثم تزويده بالخبرات التي تمكنه من العيش في محيطه الذي ينشأ فيه، ذلك من ناحية السلوك الاجتماعي وعلاقته بتطور السن، الا ان السلوك لا يكون كافياً ما لم يكن مقروناً بالثقافة ومرحلية توصيلها، وهنا أيضاً يستوقفنا قول الإمام جعفر الصادق عليه السلام «الغلام يلعب سبع سنين، ويتعلم الكتاب سبع سنين، ويتعلم الحلال والحرام سبع سنين»^(٢) وقد يبدو العلم في المقولة مقصوراً على العلوم الدينية، الا اننا بتوسعنا في الكلام عن التربية سنجد ان جده علي بن أبي طالب عليه السلام قد كان يعني بالعلم في مقولاته المتعددة جميع المعارف الدينية والدينية، فقوله «تعلموا العلم، ولو لغير الله فإنه يصير الله»^(٣) يعني به - كما نعتقد - جميع اصناف العلوم العقلية والنقلية، والتي إذا ما استخدمت لمصلحة الإنسان فهي لله سبحانه وتعالى. فالأهداف الأساسية في التربية الإسلامية تنشئة فرد متزن السلوك حسن الخلق صحيح الجسم سليم العقل مثقف، وفي مجال عمله على وجه الخصوص، وهذه المسؤولية الخطيرة - كما تبدو في فكر علي عليه السلام - ليست قصرًا على الأسرة وحدها، لأنه يرى - كما نعتقد - ان تهيئة الحياة السعيدة وإزالة

(١) الكليني - فروع الكافي ٦ / ٤٦، ٤٧، ويثغر - تسقط أسنانه لتنبت مكانها أسنان أخرى.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) شرح ابن أبي الحديد ٢٠ / ٢٦٧.

الجهل من النفوس، والمحافظة على القيم، هي من حقوق الأمة التي يجب ان تلتزم بها الحكومة، ففي تبيانها الحقوق الملزم بأداتها تجاه من يحكمهم يقول «اما حقكم علي فالنصيحة لكم، وتوفير فيئكم، وتعليمكم كيلا تجهلوا، وتأديبكم كيما تعلموا»^(١) فالتوجيه والتعليم والتأديب هي ركائز التربية التي الزم بها نفسه كحقوق واجب عليه الوفاء بها نحو الأمة، وللاهتمام البالغ الذي اولاه للتربية، فقد اعتبرها انبل الصناعات، على اعتبار أن «لكل شيء صناعة، وحسن الاختيار صناعة العقل»^(٢) أي تنشئة الإنسان بتنمية مداركه، وتقويم أخلاقه، منذ نعومة أظافره. ويمكن دراسة الجوانب التربوية - كما تبدو في نهج البلاغة - في عنصرين متكاملين، يهدفان إلى نتيجة واحدة غايتها الإنسان وسعادته.

العنصر الأول: وينصب على تنمية شخصية الفرد

بهدف بنائها بناء تكاملياً يتناسب وظروف العصر الذي يعيش الفرد فيه، انطلاقاً من قوله إلى الآباء «لا تقسروا أولادكم على آدابكم فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم»^(٣) وهو لا يعني بمقولته بأن يترك الحبل على الغارب للأبناء كما يشاؤون متكرين لأصالتهم، نابذين تقاليدهم، فالهدف الذي يرمي إليه علي عليه السلام من المقولة - كما نعتقد - هو محاولة الآباء التفاهم مع العصر الذي يعيشه الأبناء بما يتماشى والتطورات العصرية التي تحدث فيه، شريطة عدم التنكر للأصالة، وإيمانه بمزايا تطور العصر فيه تربية الأبناء، لم يحجب رؤاه

(١) خطب - ٣٤ - الفقرة ٢.

(٢) شرح بن أبي الحديد ٢٠ / ٣٣٤.

(٣) شرح بن أبي الحديد ٢٠ / ٢٦٧.

الفكرية عن ان «من كرم المرء بكأؤه على ما مضى من زمانه، وحينه إلى اوطانه، وحفظ قديم اخوانه»^(١) فالتطور - كما يبدو في فكر علي عليه السلام - يجب أن يكون نابعاً من الدخول مع الارتباط بالجذور، التي تمنح الإنسان هويته المتميزة من حيث التفرد بخصائص معينة تمنحه الاستقلالية، في الوقت نفسه الذي تمده فيه بميزات مشتركة مع بقية أبناء مجتمعه، تجعل منه فرداً عاملاً. فانسجام التمايزات الفردية مع الخصائص الاجتماعية العامة تجعل الفرد متوازناً من حيث متطلباته الفردية وضروراته الاجتماعية، إلا أن نصوص نهج البلاغة لا تمدنا بنظريات مباشرة ومحددة في مجال التربية المتخصصة بتنمية الشخصية، واعدادها للحياة، ولكن بتتبعنا لما ورد ضمن تلك النصوص من نصائح عملية تتصل بمسؤوليته كولي أمر لجميع عامة المسلمين، يمكن ان نستنتج كثيراً من المتطلبات التربوية التي تهدف إلى تنمية الشخصية تنمية متزنة، وأهم ما أمكننا التوصل إليه في الشأن يتمثل في أربعة محاور:

الأول - التربية البدنية:

يعطي الإسلام أهمية كبيرة جداً، لسلامة جسم الفرد، ويعتبرها من المميزات الرئيسية فيمن يناط به أي عمل، لاعتباره سلامة الأعضاء، وصحة جسم، احد عنصري الكفاءة والقيادة، وفي قوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾^(٢) ما يوحي، بأن المؤهل لخدمة الناس يجب ان يتمتع بالكفاءة العلمية بمعناها الشامل

(١) السابق ٢٠ / ٢٧٤.

(٢) البقرة/ ٢٤٧.

الباب الثالث: فكر علي عليه السلام الاجتماعي كما يبدو في نهج البلاغة ٤٦٣

بالإضافة إلى صحة الجسم وسلامة الاعضاء، لذلك فقد حرص الرسول ﷺ على إقران التربية الدنية بالتربية العلمية كما جاء في قوله ﷺ «حُقُّ الولد على والده أن يعلمه الكتابة والسباحة والرماية»^(١) ويعد الفقهاء المسلمون سلامة أعضاء الجسم وحواسه من الشروط الرئيسية التي يجب أن تتوفر فيمن يرشح لمنصب الخلافة^(٢). وإذا ما رجعنا إلى نهج البلاغة لنستفتيه بشأن التربية البدنية، فنسجد ان كل ما ورد فيه من نصوص تكاد تعالج الموضوع من نواح ثلاث هي:

أ. ناحية وقائية: يرمي الإمام علي عليه السلام من ورائها إلى تبصير الناس بكيفية المحافظة على اجسامهم من تقلبات الجو كما في قوله «توقوا البرد في أوله، وتلقوه في آخره، فإنه يفعل في الأبدان كفعله في الأشجار، أوله يحرق وآخره يورق»^(٣) وقد بنى استنتاجه ذلك - كما يتهيأ لنا - من خلال تأملاته الطبيعية أثناء مباشرته العمل في زراعة الأرض، ورؤيته عن كثب أثر التقلبات الجوية في الطبيعة.

ب. ناحية نفسية: وتعالج ما أصاب المجتمع من هزات عنيفة جراء تدفق الثروات، والتي أدت بالفرد إلى التكالب على الدنيا باقتناء الضياع وجمع الأموال^(٤) والنظر إلى ما في أيدي غيره من الناس^(٥)، مما أشاع الجشع والحسد والحقد كأمراض نفسية تززع كيان الفرد وتحطم معنوياته من الداخل، لعدم قدرته على نيل ما يتمناه، مما يحيل حياته إلى جحيم دائم، وعذاب مستمر،

(١) المتقي الهندي - كنز العمال ٦/ ٤٤٣.

(٢) راجع ص ١٧٠-١٧١ من هذا البحث.

(٣) حكم - ١٢٦.

(٤) راجع ص ١٠١ وما بعدها من هذا البحث.

(٥) راجع خطب - ٢٣ - فقرة ١.

لا بد من تأثيره على صحته وتصرفاته بتفشي السرقة^(١) والرشوة، وارجع الإمام علي عليه السلام كل ذلك إلى الحسد الذي نبه إلى خطورته في مواضع متعددة من النهج من ذلك قوله «العجب لغفلة الحساد عن سلامة الأجساد»^(٢) وهو يرى في موضع آخر من النهج ان «صحة الجسد من قلة الحسد»^(٣).

ج - ناحية عسكرية: وتمثل وجهة نظر علي عليه السلام تلك، من تصور عميق لحالة الانهيار التي أشرف المجتمع عليها، جراء تمرغ أفرادها في النعيم، ونبذهم الحياة الجادة وراء ظهورهم، بالتكالب على اقتناص الملذات، والجلوس حول الموائد المليئة بما لذ وطاب من المأكولات^(٤)، والتهرب بكل الوسائل من الدفاع عن البلاد في حالة الدعوة لذلك^(٥)، وفي نهج البلاغة من الأمثلة التي حاول علي عليه السلام من خلالها علاج هذه المشكلة بإثارة النخوة الإسلامية^(٦) وإرجاع روح الفروسية العربية إلى نفوس شغلها حب الحياة عن أداء الواجب. وأوضح نص تربوي يبين فكر علي عليه السلام العسكري، المبني على تربية الاجسام على الخشونة وتعويدها حياة القوة المقرونة بجشوبة العيش قوله لمن عاب عليه أسلوبه في المأكل والملبس «ألا وإن الشجرة البرية اصلب عودا، والروائع الخضر أرق جلودا، والنباتات البدوية أقوى وقودا، وأبطأ خمودا»^(٧) فالصورة تعني تعويد

(١) راجع رسائل - ٤٠، ٤١، ٤٣.

(٢) حكم - ٢٢٣.

(٣) حكم - ٢٥٥.

(٤) راجع رسائل - ٤٥ - الفقرة ١.

(٥) راجع على سبيل المثال خطب - ٢٩.

(٦) راجع على سبيل المثال - خطب ٢٧، ٣٤، ٩٦، ١٠٩.

(٧) رسائل - ٤٥ - الفقرة ٣.

الابدان الخشونة حتى تتمكن من التأقلم مع كل وضع، وتستطيع مواجهة غائلات الزمن بكل رحابة صدر وتتصدى لإغراءات المادة بكل حزم، اما النعيم والترف فيحيل الأجسام إلى لليونة والترف، فتميل إلى الدعة والاتكالية «فتذهب خشونة البداوة، وتضعف العصبية والبسالة»^(١) فتكون النهاية الحتمية التي كان علي عليه السلام يحاول تجنبها الأمة بتربية الأجيال تربية تعتمد البساطة أسلوباً، وهو وان لم يستطع التصدي للتيار الجارف، فقد ترك فكراً يمكننا عده زاداً تربوياً تبني عليه أفكار الأجيال اللاحقة بما يتناسب وتطور الحياة.

الثاني - تربية عقلية:

شرف الله سبحانه العقل وأعلى من شأنه، وجعله من اعظم ما خلق من الأشياء، من ذلك ما رواه الكليني من حديث قدسي عن جعفر الصادق عليه السلام عن الرسول صلى الله عليه وآله قال «لما خلق الله العقل أستنطقه ثم قال له اقبل، فأقبل، ثم قال له: ادبر فأدبر، ثم قال له: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقا هو أحب إلي منك، ولا أكملتك لا فيمن أحب، أما أني إياك أمر، وإياك أنهى، وإياك أعاقب، وإياك أثيب»^(٢) لذلك فقد أمرنا الله سبحانه بإعمال العقل للوصول إلى الإيمان به، كما ورد في قوله تعالى:

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾^(٣)، كما حثنا سبحانه بالرجوع إلى العقل كما في قوله:

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٧٦.

(٢) الكليني - اصول الكافي / ١ / ١٠.

(٣) العنكبوت / ٢٠.

﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾^(١)، ويرى الرسول ﷺ أن قيمة الإنسان تكمن في حسن تصرفه وصلاح عقله، كما في قوله: «إذا بلغكم عن رجل حسن حالٍ فانظروا إلى حسن عقله فإنما يجازى بفعله»^(٢) لذلك اهتم آل البيت ﷺ بتربية العقل، على رأسهم الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، فمن مآثوراته التي بين فيها صفات العاقل ما رواه الكليني «إن من علامة العاقل أن يكون فيه ثلاث خصال: يجب إذا سُئِلَ وينطق إذا عجز القوم عن الكلام، ويشير بالرأي الذي يكون فيه صلاح أهله، فمن لم يكن فيه من هذه الخصال الثلاث شيء، فهو أحمق»^(٣)، فالعاقل على ذلك الأساس هو من يتمكن من العمل بجميع المزايا الإنسانية والأخلاقية ويتمكن أيضاً من تأدية التزاماته تجاه ربه وتجاه نفسه، وتجاه مجتمعه بصدق وإخلاص، والعقل بكل ما أودعه الله فيه من طاقات وملكات لا حدود لها، فإنه يستطيع ان يمد الإنسان بالإرادة على فعل كل ما فيه مصلحته ومصلحة من حوله، شريطة ان يراعي بالتنمية وبالتوجيه السليم الذي يعود على الفرد وعلى المجتمع بالصلاح والسداد، لذلك فقد جعل علي عليه السلام للتربية العقلية مكانة في فكره التربوي، من ذلك انه اعتبر العقل - وبطريقة عملية - الموجه الحقيقي الصادق لكل تصرفات الإنسان المتعلقة بوجوده وبجميع شؤون حياته. فالعقل - في الإمام فكر علي عليه السلام - موجه عادل ومرتز فهو «لا يغش من أستنصحه»^(٤) وبالتالي فإن العقلانية هي السمة التي

(١) الروم / ٢٨.

(٢) الكليني - أصول الكافي ١ / ١٢ - أي يجازى بأعماله بقدر عقله، فكل من كان عقله أكمل، كان ثوابه اجزل.

(٣) السابق ١ / ١٩.

(٤) حكم - ٢٨٩.

تميز الإنسان عن سائر الحيوانات، لأن العقل يتعلم ويتعظ بالآداب «والبهائم لا تتعظ الا بالضرب»^(١) فالتهديب والتعليم بالكلام وبالممارسة يجديان فيمن يُعمل عقله ويتأمل في الأشياء ومردوداتها، فيكون تعامله معها مبني على أسس موضوعية قوامها التفكير المتأن المتعقل، فالعقل كما يراه علي عليه السلام، هاد ودليل^(٢) يمكن الاعتماد عليه في جميع مسالك الحياة، فهو يؤدي إلى الإيمان القوي الراسخ بالخالق سبحانه، فيما لو أعمل الإنسان عقله، وتأمل فيما حوله، واستبطن ذاته، وتفكر في نشأته، ونشأة الكون من حوله، وقد استخدم علي عليه السلام في كثير من نصوص نهج البلاغة، الأساليب المثيرة للتفكير والداعية للتأمل^(٣)، كوسيلة من وسائل التربية المؤدية إلى الإيمان من ذلك قوله في نشأة الإنسان «أيها المخلوق السوي، والمنشأ المرعي في ظلمات الارحام، ومضاعفات الاستار، بدئت من سلالة طين، ووضعت في قرار مكين إلى قدر معلوم... فمن هداك لاجتراء الغذاء من ثدي مك؟ وعرفك عند الحاجة مواضع طلبك وإرادتك...»^(٤) والإجابة عن الاسئلة تقتضي التفكير الموصل لا محالة إلى وجود خالق مدبر، يجدر بالإنسان شكره وطاعته والإيمان به، وهي زاوية من زوايا التربية العقلية في فكر علي عليه السلام.

ونظرة الإنسان إلى نفسه بعين العقل والتفكير، قبل الإقدام على أي عمل، والوقوف عند المجهول دون حيرة أو تردد^(٥)، كل ذلك يجعل من الفرد قوة

(١) رسائل - ٣١ - الفقرة ٢٤.

(٢) راجع على سبيل المثال: رسائل ٧٨، حكم ٣٨، ٩٦، ٢٨٩.

(٣) راجع على سبيل المثال خطبة - ٢٢٠ - وما تضمنته من اسئلة تأملية.

(٤) خطب - ١٦٤ فقرة ٣.

(٥) راجع رسائل ٣١ - الفقرة - ٤، ٧.

دافعة تكبح الشهوات، وتناهى بالنفس عن المزالق، فمن مستلزمات انسانية الإنسان ان يحذر في كل تصرف إزاء نفسه وإزاء غيره «حذر الغالب لنفسه، المانع لشهوته، الناظر بعقله»^(١) لأن الاستجابة لنداء النفس شهوة، والشهوة نوع من أنواع العشق «ومن عشق شيئاً أعشى بصره، وأمراض قلبه، فهو ينظر بعين غير صحيحة، ويسمع بأذن غير سمیعة، قد حرقت الشهوات عقله»^(٢)، وحتى بتفادى الإنسان ما تجلبه النفس من وبال الشهوات، عليه ان يجمعها، ولن يتأتى ذلك - كما يبدو لنا في فكر علي (عليه السلام) التربوي - الا بالاعتماد على هدي العقل، إذ يقول «كفاك من عقلك ما أوضح لك سبيل غيك من رشذك»^(٣).

ومعيارية العقل في فكر علي (عليه السلام) التربوي، ترى ان بإمكان الفرد ان يتفاعل مع مجتمعه ويعيش مع جميع فئاته عيشة يسودها الحب والاحترام إذا ما عول على فكره في تكوين علاقاته، واضعاً في اعتباره امكانية التعامل مع كل فرد بحسب مستواه العقلي، وتتمثل وجهة نظر علي (عليه السلام) حول تلك الفكرة في ان «التودد نصف العقل»^(٤).

وواقع الحياة - كما يبدو في فكر علي (عليه السلام) - سعي انساني دوؤوب من أجل العيش الكريم، في ظل علاقات متكاملة بين المخلوق وربّه، وبين الفرد ونفسه، وبين الفرد ومجتمعه، ثم ان الفرد محتاج - أثناء رحلته الحياتية الشاقة - إلى جانب من الراحة الجسمية والعقلية، لدفع الملل والسأم والرتابة عن حياته، ويمكن

(١) خطب - ١٦٢ فقرة ٣.

(٢) خطب - ١٠٨ - فقرة ٣.

(٣) حكم - ٤٢٩.

(٤) حكم - ١٤٠.

الباب الثالث: فكر علي (عليه السلام) الاجتماعي كما يبدو في نهج البلاغة..... ٤٦٩

للإنسان تهيئة متطلباته تلك تهيئة سليمة وعادلة بإعمال العقل، ونستطيع استخلاص ذلك من قوله «ليس للعاقل ان يكون شاخصا الا في ثلاث، مرمة لمعاش، أو خطوة في معاد، أو لذة في غير اثم»^(١).

وخلاصة التربية العقلية - كما تبدو في فكر علي (عليه السلام) - ان على الإنسان ان يحرص على استغلال كل طاقاته الفكرية للتفاعل مع مجتمعه بالمساهمة البناءة والإفادة من تجارب الآخرين إفادة عملية، لأنه يرى ان «العقل حفظ التجارب، وخير ما جربت ما وعظك»^(٢) أي ما أفدت منه، فالعقل العالم العامل، هو الحريص على الإفادة من كل ما اكتسبه من الحياة من تجارب و«الشقي من حرم نفع ما أوتي من العقل والتجربة»^(٣). فالتربية الجسمية والتربية العقلية هما العنصران الرئيسيان لبناء الشخصية - كما يبدو لنا في فكر علي (عليه السلام) التربوي لأن العقل السليم في الجسم السليم، وإذا ما أتيح للعقل أن يعمل فإنه سيكون أرضاً خصبة للتربية العلمية.

الثالث - تربية علمية:

يضع الإسلام العلم في منزلة سامقة، لما له من أهمية في حياة الأفراد والأمم، وتتجلى هذه الأهمية في أن آية نزلت من السماء، قد اسندت العملية التعليمية إلى الله سبحانه وتعالى في قوله:

(١) حكم - ٣٩٦ - المقطع الثاني.

(٢) رسائل - ٣١ - فقرة ٢٢.

(٣) رسائل - ٧٨.

﴿أَفْرَأَ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾^(١). ولأهمية

العلم في حياة البشر فقد كرم الله العلماء، ورفع من مكانتهم لقوله تعالى لا:

﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾^(٢). وهذه

الدرجات جعلت مقارنتهم بغيرهم من بقية الناس في غير مكانها لقوه تعالى:

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٣) وبطبيعة

الحال فإن الاستفهام في الآية يتضمن نوعاً من التهكم، مما يعني ضمناً تعذر

المقارنة بين منزلة العالم وغيره من بقية الناس، لأن المسؤولية المناطة بالعلماء

جداً خطيرة في جميع مجالات الحياة، لكونهم العقل المدبر الذي يخطط لجميع

ميادين الحياة، بحيث يمكن عدّهم صنّاع الحضارة والقادة الحقيقيين للبشرية

وبناء العقول الذين يعول على علمهم في انتشال العقول من براثن الجهل

ووضع الإنسانية على الطريق الصحيح، لذلك فقد عدّهم الرسول ﷺ «ورثة

الأنبياء»^(٤) والوراثة العلمية أعلى وأندر من جميع الموروثات المادية الآيلة

إلى الزوال حتماً مهما طال مكثها وبقي أثرها، وبسبب اهتمام الإسلام بالعملية

التعليمية، فقد حاول العلماء المسلمون وضع الخطوط الرئيسية للمزايا

والشروط التي يجب ان تتوفر في شخصية العالم الحق، مستلهمين ذلك من

القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وما أثر عن الصحابة والتابعين من

اقوال وافعال، واهم هذه الشروط هي:

(١) العلق / ٣، ٤، ٥.

(٢) المجادلة / ١١.

(٣) الزمر / ٩.

(٤) سنن ابن ماجة / ١ / ٨١.

الباب الثالث: فكر علي عليه السلام الاجتماعي كما يبدو في نهج البلاغة ٤٧١

١- النأى بالنفس عن حب الظهور، وتجنب الاطراء «إذ ينبغي ان يكون تعليمه لوجه الله تعالى، لا يريد بذلك رياء ولا رسماً ولا عادة ولا زيادة ولا جاه»^(١).

٢- نبذ التكبر عامة وتجاه المتعلمين على وجه الخصوص «بإجراء المتعلم منه مجرى بنيه»^(٢).

٣- عدم الجري وراء المادة والتكالب على حب المال «بقطع الطمع عن المتعلمين والرفق بهم في التعليم والتواضع لهم والعطف عليهم وتقريب الفقير لفقره»^(٣).

٤- الإخلاص في التعليم بأن «لا يدخر نصحه عن المتعلم، وزجره عن الأخلاق الرديئة بالتعريض أو التصريح، ومنعه أن يتشوف إلى رتبة فوق استحقاقه»^(٤).

٥- اطلع الواسع في أساليب التربية والعمل بكل أسلوب في موضعه، فلا يقيم أسلوب التصريح مقام أسلوب التعريض، ولا الفعل موضع القول إذا كان القول مجدي، ويأتي بالثمرة المطلوبة^(٥).

٦- مراعاة متطلبات الوضع وحاجة المجتمع، إذ ينبغي من العالم ان يكون ملماً بحاجات العصر، فيوجه المتعلمين الوجهة الصحيحة، بالأساليب المقنعة مع الوضع في عده «ما يهم الطالب في الحال اما معاشه أو معاده، ويعين له ما

(١) طاش كبرى زادة - مفتاح السعادة ١/ ٣٩، ٤٠.

(٢) طاش كبرى زادة - مفتاح السعادة ١/ ٣٩، ٤٠.

(٣) السابق ١ / ٤١، ٤٢.

(٤) السابق ١ / ٤١، ٤٢.

(٥) راجع السابق ١/ ٤٢.

يليق بطبعه من العلوم»^(١).

٧- الإمام التام بأساليب العملية التعليمية من حيث التدرج في توصيل المعلومات بحسب السن، وبحسب المستوى الثقافي، والتقبل الفكري^(٢).

٨- الاتزان الشخصي بعدم مخالفة القول للفعل، لأن العالم قدوة لذلك يجب ان تكون «عنايته بتزكية اعماله أكثر منه بتحسين علمه ونشره»^(٣).

٩- ضبط النفس وكظم الغيظ، وتجميل خرق المتعلمين، ومحاولة توصيل المعلومات لهم بالإعادة لهم والشرح، مع مراعاة مستوياتهم الإدراكية^(٤).

تلك اذن هي خلاصة الشروط التي يجب ان تتوفر في المتصدر لتعليم الناس في الفكر الإسلامي. واذا ما حاولنا استفتاء فكر علي عليه السلام بشأنها، فلن نجد في نصوص نهج البلاغة ما يوضح ذلك مباشرة، لأن علياً عليه السلام قد تكلم عن التعليم بخطوط عريضة ترسم لنا فكره الذي يمكننا من خلاله استنتاج، إن سياسته التربوية ما هي إلا جزء لا يتجزأ من سياسته العامة في إدارة شؤون الدولة، بحيث لا يمكن الفصل بين أقواله وبين المجتمع الذي قبلت فيه، لتوحد شخصيته، واندماجها في ذلك المجتمع ومعايشتها مشاكله بكل أبعادها، لذلك فإن شخصية العالم في فكر علي عليه السلام - كما تبدو في نهج البلاغة - يمكن إدراك ملامحها وتكوين فكرة شبه متكاملة عنها من خلال وصفة لإيجابيات عصره وسلبياته.

فمن حديثه عن صفات المتقين الذين يعول عليهم في هداية الناس وتبصرهم

(١) السابق / ١ / ٤٣.

(٢) راجع السابق ص ٤٤.

(٣) السابق / ١ / ٤٨.

(٤) راجع السابق / ١ / ٥١ وما بعدها.

الباب الثالث: فكر علي عليه السلام الاجتماعي كما يبدو في نهج البلاغة..... ٤٧٣

بشؤونهم الدينية والدينية يقول «فمن علامة أحدهم، انك ترى له قوة في دين، وحزماً في لين، وإيماناً في يقين، وحرصاً في علم، وعلماً في حلم»^(١) ومن الملاحظ ان قوة الدين تجعل الفرد تقياً ورعاً يبذل علمه لكل من يطلبه دون الجري وراء شهرة، ثم ان الحزم المشوب باللين يجعل تربيته للمتعلمين متوازنة لا هي إلى الافراط تميل ولا إلى التفريط ترجح، والايان اليقيني بقدرته تجعله في موضع حصين عن النقد والتجريح، لأنه سيعتمد على تلك القدرة المؤمنة في التوصيل، دونما تحميل نفسه فوق طاقتها، وجعلها موضع اتهام وإزدراء المتعلمين، كما ان الإيـان بمحدودية طاقة النفس يشعرها دائماً بالنقص، مما يؤدي بها إلى الحرص الدائم على الجري نحو الكمال في طلب العلم، والجري وراء الاستزادة شعور بالنقص، مما يؤدي بدوره إلى التواضع، وهنا تستوقفنا مقولة لعلي عليه السلام تتعلق بشخصيات العلماء وعلاقتها من حيث التكبر والتواضع بالانتماء الاجتماعي وهي ان «السفلة إذا تعلموا تكبروا... والعالية إذا تعلموا تواضعوا»^(٢) وهي لا يقصد بالسفلة والعالية - كما نعتقد - انه يضع سلماً اجتماعياً يصنف به الناس إلى درجات تفاضلية، لأن السفلة في السياق تعني (الانتهازيين)، ذوي النفوس المريضة، والإيمان المترزع، الذين يجعلون من العلم وسيلة يركبونها للوصول إلى مآربهم الشخصية، وغاياتهم الدنيئة، وهؤلاء من وجهة نظر علي عليه السلام ليسوا بعلماء الا في مفهوم أشباه الناس^(٣)، وهم أولئك الذين لا يفقهون معنى العلم، ولا يدركون ابعاده وخطورته، لأنهم ينبهرون بالتشديق بالعبارات الرنانة الغامضة، التي تبلغ بالفرد المدعي من الغرور غاية لا «يرى من وراء

(١) خطب - ١٨٧ - فقرة ٣.

(٢) شرح ابن أبي الحديد ٢٠ / ٢٩٠.

(٣) راجع - خطبة ١٧ - الفقرة الثانية.

ما بلغ مذهبا لغيره، فإن اظلم عليه أمر اکتتم به، لما يعلم من جهل نفسه»^(١) فالغرور والاصرار على الخطأ - كما يقول علي عليه السلام - يجعلان من «العالم المتعسف شبيه بالجاهل المتعنت»^(٢) والتعنت جماع من مساوي الأخلاق، المتمثلة في التكبر، والتسلط والاصرار على الخطأ والتهاذي في طريقه، وعدم الشعور بالنقص للاستزادة، كل تلك المساوي تجعل المتعلم ينبد العالم وعلمه.

والتعويل على العالم وعلمه في فكر علي عليه السلام من المهمات الأساسية في الحياة الإنسانية، إذ يستطيع العالم إذا ما أخلص لعلمه، أن يجعل منه منقذا وهادياً في مجال تخصصه، أما زلته فيعدها «كانكسار السفينة تغرق ويغرق معها خلق»^(٣) فالعالم واستعماله علمه استعمالاً قوياً - مع إدراك تام منه بمسؤولية العملية التعليمية - في اعتبار علي عليه السلام، من أولويات مقومات الدين والدنيا الأربعة، ويمثل ذلك قوله «قوام الدين والدنيا بأربعة: عالم مستعمل علمه، وجاهل لا يستنكف ان يتعلم، وجواد لا يبخل بمعرفه، وفقير لا يبيع آخرته بدنياه. فإذا ضيع العالم علمه، استنكف الجاهل أن يتعلم، وإذا بخل الغني بمعرفه، باع الفقير آخرته بدنياه»^(٤). وتضييع العالم لعلمه، يتمثل في بذله لمن لا يستحقه، وتمريغه على اعتبار السلاطين جرياً وراء الشهرة والمال، والبخل به على محتاجيه من بقية الناس، واستغلاله في تدمير الإنسانية، وتلك الصفات هي التي غلبت

(١) السابق الفقرة نفسها.

(٢) حكم - ٣٢٨.

(٣) شرح ابن أبي الحديد ٢٠/٣٤٣.

(٤) حكم - ٣٧٨.

على علماء عصره وشكلت خطراً مخيفاً على المجتمع^(١) فخوف علي عليه السلام على الأمة في عصره لم يكن مما اعلن عن اعدائه ووضع سيفه على عاتقه جرياً وراء المركز والمادة، فإن مثل ذلك عدو ظاهر لا تخشى غائلته ويمكن صدّه، ولكن الذي يخاف منه ولا يمكن معرفته بسهولة ورد كيده في الحال هو «كل منافق الجنان عالم للسان»^(٢) مما يعني ان شخصية العالم هي التي توجه العلم وترسم طريقه، ونعتقد أن لعنصر المادة دوره الكبير في تشكيل أخلاق العلماء في عصر علي عليه السلام، مما حدا به إلى عقد مقارنة بين قيمة العلم، وقيمة المال، وكأنه يريد من رواء تلك المقارنة، أن يطهر شخصية العالم من دون المادة ولينأى بعلمه عن كل منزلق لا أخلاقي، وضمن هذه المقارنة يقول «العلم خير من المال، العلم يحرسك وانت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو بالإنفاق، وصنيع المال يزول بزواله»^(٣) فالمال في فكر علي عليه السلام - كما يظهر - مقود، والعلم هو القائد، لأن المال عادة ما يكون بيد مالكة، يمكنه صرفه حيث يشاء وكيف يشاء، بالإضافة إلى أنه عرض زائل لا يمكن للإنسان المحافظة عليه أو صيانتها مهما بلغ حذره، أما العلم الحقيقي، فهو الذي يخلق صاحبه، وبينه بناء داخلياً يجعل منه انساناً يستطيع أن يخلق ويبتكر، فيضفي على الإنسانية الحياة، فكلما كان استغلاله لعلمه قوياً كلما اتسع افقه، فنشر العلم وبذله يزيده نهاء بلا حدود.

ويضع الإمام علي عليه السلام سلطان العلم في مواجهة سلطان المال ويعقد مقارنة بينهما يبين من خلالها أثر كل منها في تشكيل شخصية الفرد فيقول «معرفة العلم

(١) ذكر ابن أبي الحديد في شرحه ٤/٦٣ بعضاً ممن باعوا علمهم على معاوية من الصحابة والتابعين.

(٢) رسائل - ٢٧.

(٣) حكم ١٤٥ الفقرات ٢، ٣، ٤، ٥.

دين يدان به، يكسب الإنسان الطاعة في حياته، وجميل الأحداث بعد وفاته، والعلم حاكم، والمال محكوم عليه... هلك خزان الأموال وهم احياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، اعيانهم مفقودة، وامثالهم في القلوب موجودة»^(١) فاعتباره العلم دين، يقتضي من العالم ان يجمع في شخصه كل ما يعنيه الدين من معان سامية خاصة وان «فضل العلم خير من فضل العبادة»^(٢) كما يقول رسول الله ﷺ مما يعني ان العالم بمكانته في المجتمع وتأثيره في حياة الناس، افضل من المتعبد القابع في زاوية، همه طلب النجاة لنفسه بالصيام والقيام، فمكانة العالم وشخصيته تكمنان في علمه، وهو الذي يحدد قيمته ومركزه الاجتماعي الذي يبقى فيه مادام مخلصاً لعلمه، وتدوم استمراريته بعد وفاته فيما ترك من فكر مصان بالأخلاق ومحاط بالرعية ممن يحملونه عنه فيستمر في الزكاء بالتنقل في الزمن بين الاجيال. فالمقارنة بين الفكر والمادة - عند علي عليه السلام - متولدة من حاجة ماسة إلى علماء يستطيعون اداء واجباتهم التعليمية بإخلاص، وذلك بعد أن قاست نفسه آلام الغربية في مجتمع لم يضع معظم علمائه القيمة الحقيقية للعلم، ولم يحاولوا صيانتها، فعلى سبيل المثال باع بعض العلماء والمحدثين فتاواهم^(٣)،

(١) حكم ١٤٥ الفقرات ٢، ٣، ٤، ٥.

(٢) الماوردي - أدب الدنيا والدين ص ٣٨.

(٣) من ذلك ما روي، ان معاوية بن أبي سفيان قد «بذل لسمرة بن جندب مئة الف درهم حتى يروي ان هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب عليه السلام ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ البقرة/ ٢٠٤، ٢٠٥، وان الآية الثانية نزلت في ابن ملجم، وهي قوله تعالى «ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله»... البقرة/ ٢٠٧، فلم يقبل، فبذل له مائتي الف درهم فلم يقبل، فبذل له ثلاثمائة الف فلم يقبل، فبذل له اربعمائة

وسخروا علمهم إلى من يريده بالقدر الذي يناولونه من امواله .

ومن أهم مميزات شخصية العالم - في فكر علي عليه السلام - أن يكون عاملاً بعلمه، لأن العلم والعمل - من وجهة نظره - قرينان متلازمان، إذ لا جدوى من علم لا يستفاد منه، فالعلم كما يراه علي عليه السلام «يهتف بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل»^(١) إذ لا جدوى ولا طائل من كون العالم حافظاً للتجارب، عارفاً بتفاصيلها، ملماً بدقائقها، وانما العالم الحقيقي من استفاد وأفاد، وانتفع ونفع، وتمكن من تطبيق علمه، ويمكن استخلاص ذلك حسب فهمنا - من قول علي عليه السلام «وناظر قلب اللبيب به يبصر أمده، ويعرف غوره ونجده»^(٢) . ويرى علي عليه السلام ايضاً، انه لا جدوى على الإطلاق من عمل بغير علم، وتتمثل وجهة نظره تلك في ان «العامل بغير علم كالسائر على غير طريق، فلا يزيده بعده عن الطريق الواضح الا بعداً عن حاجته، والعامل بالعلم كالسائر على الطريق الواضح»^(٣) .

فالتربية العلمية في فكر علي عليه السلام تهدف إلى جعل العالم والمتعلم مثلاً متكاملًا من حيث العطاء والأخذ في جميع ميادين الحياة العملية والأخلاقية والإنسانية، على أساس أن العلم هو المحور الذي به تستقيم الحياة وتنمو ولا يمكن أن يتطور ويشمر الا إذا صانته أيد أمينة ووجهته نحو خير البشرية، لذلك فقد كان حريصاً كل الحرص على تعليم الناس، وحثهم على سؤاله في كل وقت فلم يكن «أحد من الناس يقول سلوني غير علي بن أبي طالب»^(٤)، وقد كان دائماً يطلب المزيد، فحين

الف فقبل، وروي ذلك - شرح ابن أبي الحديد ٤ / ٧٣ .

(١) حكم - ٣٧٢ .

(٢) خطب ١٥٤ - فقرة - ١ .

(٣) خطب ١٥٤ - فقرة، ٣ .

(٤) ابن عبد البر - جامع بيان العلم وفضله ١ / ١١٤ .

سأله بعض الصحابة عن السبب في غزاره علمه قال «كنت إذا سألت أعطيت، وإذا سكتت ابتديت، وبين الجوانح علم جم فاسألوني»^(١)، فقد كان مثال شخصية العالم والمتعلم الذي يريد من العلماء الاحتذاء حذوه بإثراء العقل وتزويده بالعلوم والخبرات على الدوام، وبذل العلم في كل وقت لمن طلبه وسار نحوه.

الرابع - تربية إنسانية:

نعني بالتربية الإنسانية، كل العناصر التربوية التي تهدف لانتشال الإنسان من مهاوي الخوف والسمو بالنفس وصيانة الكرامة والتبصير بأساليب الحق، والتربية الإنسانية - في فكر علي (عليه السلام) - بمفهومها الذي نهدف إلى تسليط الضوء عليه، هي في الحقيقة جانب من جوانب فكره الأخلاقي المتوحد، مع نظرتة المؤمنة بقيمة الإنسان كمخلوق حر، محفوظ الكرامة مصان الحقوق، سواء اكان مسلماً أم كافراً، عربياً أم أعجمياً، قرشياً أم غير قرشي، وقد ركز علي (عليه السلام) تركيزاً بالغاً على هذا الجانب التربوي، كل ذلك في محاولة منه لكسر حاجز الخوف، الذي فرضته قریش على بقية العرب^(٢) بتسلطها واستئثارها، ومن ثم امتهان العرب واحتقارهم للأجناس غير العربية الأخرى^(٣)، على اعتبار فضلهم في نشر الإسلام، وفي طرق ثالث تسلط المسلمين على غير المسلمين^(٤) من الأجناس الأخرى واعتبارهم رقيق ارض فاستحال المجتمع إلى نظام هرمي، تتسلط فيه كل فئة على الأخرى،

(١) تفسير الفخر الرازي ٣١ / ٢٢١.

(٢) بشأن حالة العناصر المكونة للمجتمع في عصر علي (عليه السلام) وعلاقتها ببعضها البعض راجع هذا

البحث ص ٣٧١ وما بعدها.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) المصدر السابق نفسه.

الباب الثالث: فكر علي عليه السلام الاجتماعي كما يبدو في نهج البلاغة ٤٧٩

مما ولد التكبر والازدراء والاحتقار والاستغلال في مقابل الخضوع والاستكانة والخوف، فالعلاقات الإنسانية لم تعد مبنية على أسس من المساواة والحب، بل على الاستبداد والاستغلال التدرجي كل حسب منزلته الاجتماعية، فامتنت كرامة الإنسان، وضاعت حقوقه، وأخذت المبادئ الإسلامية في التراجع، لتحل محلها الرغبات الذاتية. عاش علي عليه السلام هذه المشاكل بكل أحاسيسه، وكان يشعر في قرارة نفسه أنه لا بد من مواجهة التيار إذا ما أريد أن تعود للإسلام نصاعته، بتنبية الأمة إلى الخطر المحدق بها، ومحاولة الرفع من المعنويات وبث روح النخوة والحماس، وقد أكثر من مثل تلك الأساليب في خطبه الجهادية^(١)، وما تقرّعه المستمر لأصحابه بسبب تقاعسهم عن صد غارات معاوية^(٢)، وتصلهم من القيام بواجب الجهاد، إلا صورة من صور التربية الإنسانية التي كان المجتمع في ميسس الحاجة إليها في عصره، إذ يمكننا من خلال تعمقنا في فهم مضامين هذه الخطب أن نعيش آلام علي عليه السلام النفسية بسبب ما أصاب المجتمع من تخاذل وجبن وابتكالية، فمن باب التقرّيع واللوم بقصد إثارة الحمية وبث الحماس، والتبصير بقيمة الإنسان الحقيقية يقول «أيها الناس، لو لم تتخاذلوا عن نصر الحق، ولم تهنوا عن توهين الباطل، لم يطمع فيكم من ليس مثلكم، ولم يقو من قوي عليكم»^(٣)

(١) راجع على سبيل المثال - خطب ٢٥، ٢٧، ٢٩، ٣٤، ٥١، ٥٥، ٦٧....

(٢) هي حروب خاطفة شنها معاوية على اطراف البلاد الخاضعة لحكم علي عليه السلام، وكان ذلك بعد القبول من صفين واختلاف الحكمين، وكان قصد معاوية من ورائها بث الرعب والفرع في أصحاب علي عليه السلام وشغلهم عن الالتفاف حوله حتى لا يعود لمحاربتة مرة ثانية، وبشان هذه الغارات وما احدثه فيها أصحاب معاوية من قتل ونهب ودمار، راجع: البلاذري - انساب الاشراف - ٢/ ٤٣٧ وما بعدها.

(٣) خطب - ١٦٧ - فقرة ٣.

فكما يرى علي عليه السلام، فإن انهزامية نفوس أصحابه لم تتولد عن قوة العدو المقابل، لأن ذلك العدو لم يكن في قوتهم، ولكنها متولدة من تراجع النفوس عن قيمتها الاصلية في معرفة الحق والتصدي للباطل - فخلاصة التعبير أن علياً عليه السلام كان يريد ان يعيد إلى أصحابه الثقة في أنفسهم بينائها بناءً انسانياً يقتضي معرفة الإنسان لقيمته الذاتية دون الاعتماد على الغير في تقييمها حسب معايير اجتماعية متميزة، تتناسب والمصلحة الشخصية لذلك الغير، ومحاولة بناء شخصية الإنسان، وتربيته تربية أخلاقية تقوم على المبادئ والقيم، في العصر الذي استخلف علي عليه السلام فيه، هي من أعسر الأمور التربوية وأصعبها، لا لكون القيم الإنسانية التي نادى علي عليه السلام بها غريبة على مجتمعه أو جديدة عليه، ولكنها في مجملها تتعارض وتطلعات المادية التي جلبتها الفتوح، فركن الإنسان إلى الدعة وانطفأت في نفسه جذوة الفروسية، ولم يعد يعبأ بالجهاد الذي اعتبره الإسلام من أوجب واجبات الإنسان المسلم، فالمادة قد هدمت ما بناه الإسلام، ومنطق العقل يرى أن الهدم أيسر وأسرع من البناء، خاصة إذا كان ذلك البناء يتعارض وتطلعات الإنسان الذاتية، فإنسان عصر علي عليه السلام، يدرك تماماً أن ما يرمي إليه علي عليه السلام من إصلاح هو الصواب، ولكن ذلك الادراك لا يعدو ان يكون ومضات سريعة، يعدو بعدها إلى الانجذاب نحو بريق المادة والركون إلى حياة الدعة والراحة، مما يحيل القيم الأخلاقية إلى عبء ثقيل، وهذا بدوره يجعل محاولة إعادة بناء تلك القيم وزرعها في النفوس عسيراً جداً، ويفهم ذلك من التوبيخ الحاد الذي طالما وجهه علي عليه السلام لأصحابه كما في قوله «قبحاً لكم وترحاً حين صرتم غرضاً يرمى، يغار عليكم ولا تغيرون، وتُغزَوْنَ ولا تُغزَوْنَ، ويعصى الله وترضون، فإذا أمرتكم بالسير إليهم في أيام الحر، قلتُم: هذه حمارة القيظ، أمهلنا يسبخ عنا الحر، وإذا أمرتكم بالسير إليهم في الشتاء قلتُم: هذه صبارة القر، أمهلنا حتى ينسلخ عنا البرد، كل هذا فرارا من الحر والقر،

فإذا كنتم من الحر والقر تفرون، فأنتم، والله، من السيف أفر»^(١) فعلى عهد الرسول ﷺ وإبان الفتوحات الإسلامية على عهد أبي بكر وعمر، لم تكن العوامل الطبيعية لتحول بين الفرد المسلم والجهاد، ولكن الركون إلى الدعة هو الذي أدى به إلى ذلك الاتجاه، فلم يعد يعرف معنى الكرامة التي تدفعه للذود عن حياضه وصيانة مبادئه، مما أحال كثيراً من أساليب التربية الإنسانية - عند علي عليه السلام - إلى ضربات عنيفة، حاول بها استنهاض الفرد بإثارة مشاعرة، ومحاوله تحسيسه بقيمته كإنسان^(٢)، مع تجنبه كثيراً من السلبيات التي - قد يعدها - بعض ساسة عصره من أساسيات البناء، فعلي عليه السلام لم يرض لنفسه بأن تكون أساليبه التربوية مشادة على التناقضات والزيغ، لأنه يتعامل مع الواقع بشخصية واحدة ترمي إلى اقناع الإنسان بإنسانيته من داخل نفسه، بدون تغذيتها بأية عناصر خارجية تضيف عليها نوعاً من الطلاء الخارجي الزائف. على اعتبار ان البناء الحقيقي للفكر الإنساني الحر لا يمكن ان يكون في اتجاهين مضادين، وبمعنى اوضح، فإن الاصلاح لا يمكن أن ينبثق من نفس فاسدة، إلا إذا كان زيفاً، من ذلك قوله لأصحابه «إني لعالم بما يصلحكم ويقيم أودكم، ولكني لا أرى إصلاحكم بإفساد نفسي»^(٣).

وإذا ما تركنا جانباً التربية الإنسانية في خطب علي عليه السلام الجهادية، وبحثنا عنها في

(١) خطب - ٢٧ - فقرة ٢. ترحاً - بالتحريك - أي همماً وحنناً، والغرض - ما ينصب ليرمى بالسهم ونحوها، ويعصى الله - اشارة إلى ما ان يفعله جيش معاوية من نهب وسلب وقتل في المسلمين والمعاهدين، حمارة القيط - بتشديد الراء - شدة الحر، يسيخ - بالخاء المعجمة يخف، صبارة الشتاء - بتشديد الراء - شدة برده، والقر - البرد.

(٢) راجع على سبيل المثال الفقرة الثالثة من الخطب السابقة، ومدى ما فيها من تقرير حاد المراد به الاستنهاض وإثارة الحمية.

(٣) خطب - ٦٨.

مأثوراته الأخرى في نهج البلاغة فسنجد أنها في مجملها تنبني على قاعدتين:

أ- نظرة الإنسان إلى نفسه من الداخل والوقوف عند الموقف الذي يصونها ويحسسها بقيمتها في الوسط الاجتماعي الذي تعيش فيه وذلك من عدة جوانب أهمها:

- تحسيس الإنسان بكرامته، بنبذه للذل والجن: فترية النفس على الأنفة والإباء من الأسس التربوية التي أنبنى عليها فكر علي (عليه السلام) كما في قوله «لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً»^(١) والحرية التي يعينها علي (عليه السلام) هي كرامة الإنسان وحفظ ماء وجهه ونأيه بها عن كل ما يهينها، بإكرام نفسه ورفعها عن الدنيا مهما كانت المغيرات، وبذلك يشعر في قرارته بالعزة والإباء فلا يقبل أي امتهان، لأنه «لا يمنع الضيم الذليل»^(٢) فالشعور بعزة النفس يطلق الإنسان من سجن ذاته، ويكسر جدار الخوف، ويتفاعل مع بقية أفراد مجتمعه كند، لا كخادم ذليل، فيقدم على اقتحام صعاب الحياة بثقة مؤمنة غير جامحة.

- فلا تلجئه الحاجة إلى الخضوع، ولا الثراء إلى احتقار الناس، فمن أقبح الصفات التي تتلم شخصية الإنسان «الخضوع عند الحاجة، والجفاء عند الغنى»^(٣).

- ولا يركب في سبيل الوصول إلى غايته طرق النفاق والتلون والزيف لأن «نفاق المرء ذلة»^(٤) والذل يعني المهانة وفقدان الإنسان اعظم نعمة منحها الله

(١) رسائل - ٣١ - فقرة ٢١.

(٢) خطب - ٢٩.

(٣) رسائل ٣١ - فقرة ٢٤.

(٤) ميثم البحراني - شرح المئة المختارة للجاحظ ص ١١٢، .

له وهي الحرية خاصة وان «عبد الشهوة أذل من عبد الرق»^(١) في فكر علي عليه السلام.
- والوفاء بالعهد من أهم مزايا التربية الإنسانية في فكر علي عليه السلام، لأنه يرى أن من واجب الإنسان حتى يصون عرضه ويحفظ مكانته في مجتمعه أن لا يعدّ بشيء لا يستطيع الإيفاء به فإن «المسؤول حر حتى يعدّ»^(٢) مما يعني أن حرّيته المعنوية وحرّيته الأخلاقية مرتبطتان كل الارتباط بفكره ولسانه فما دام قد وعد بشيء فقد صار رهناً لما وعد به، ولا يستطيع الفكك من أسرهِ إلا بعد أن يفِي به.
- وحتى لا يتورط أو يقع فيما ليس في مقدوره الوفاء به، بالإضافة إلى تجنبه كل ما يمس ذاته فعليه ان يراقب نفسه، ولا يخطو بها خطوة الا بعد ان يعرف موضع قدميه بغض النظر عما يفعله الآخرون، لأن كل فرد معني بذاته تجاه تصرفاته وأخلاقه، ويمكن استخلاص ذلك من قول علي عليه السلام «حاسب نفسك لنفسك، فإن غيرها من الأنفس لها حسيب غيرك»^(٣).

- ثم ان مجالسة الفرد لبعض من الناس، قد يشعره بأنه دونهم في السمو فقسول له نفسه، مقاربتهم للوصول إلى نفوسهم باستصغار نفسه، محاولاً ابتداء الحكايات اللافتة للانتباه والقيام بتصرفات تحط من القدر، وتلافياً لذلك يقول علي عليه السلام «إياك ان تذكر من الكلام ما يكون مضحكا وان حكيت عن غيرك»^(٤) فان قيمة المرء تكمن في احترامه لنفسه.

- واحترام النفس هو محاولة النأي بها عما يجلب لها الدمار جراء الارهاب

(١) السابق، ١١٧.

(٢) السابق، ١٥٢.

(٣) خطب - ٢١٩. فقرة ٢.

(٤) رسائل - ٣١. فقرة ٢٤.

الفكري، الذي يحيل الإنسان إلى تناقضات تدمر حياته، لأن ذلك يجبره على التخلي عن فكره من أجل الحفاظ على نفسه، لذلك يرى علي عليه السلام ان من واجب الفرد، عند عزمه على ابداء وجهة نظره، أو نشره لفكر ما، مراعاة جو التقبل، وليكن على حذر من التفوه بشيء من ذلك «في مجالس الخوف فإن الخوف يذهل العقل الذي منه نستمد، ويشغله بحراسة النفس عن حراسة المذهب الذي تروم نصرته»^(١) فالفكر الحر لا يمكن له ان يتعرع ويتشر في بيئة يسودها الخوف.

- والإنسان في فكر علي عليه السلام طاقات من العمل المرتبط بوقت محدد لا يتقدم عليه ولا يتأخر عنه، فالتربية الإنسانية، إيمان راسخ بقيمة الوقت، ويمكن أن نستنتج ذلك من قوله «امض لكل يوم عمله، فإن لكل يوم ما فيه»^(٢).

- فإذا شعر الإنسان بقيمة نفسه، وصانها عن كل الدنيا وحافظ على كرامته بالانفلات من ربة الذل وكسر حواجز الجبن والخوف، وحافظ على كلمته ووفى بوعدده، وادى عمله بصدق وإخلاص ونزاهة في وقته. فقد استطاع - كما يبدو لنا في فكر علي عليه السلام - أن يحقق إنسانيته بتصالح ذاته مع ذاته.

ولكنه أيضاً محتاج إلى خصائص تربوية أخرى تحقق وجوده ضمن مجتمعه بإقامة علاقات سوية ومتوازية بالتعاقد السوي مع محيطه.

ب - نظرة الإنسان إلى نفسه ضمن مجتمعه: ونقصد من وراء هذا المحور تبيان فكر علي عليه السلام لتربية الإنسان من خلال علاقاته الإنسانية ضمن الجماعة التي يعيش فيها، وما يجب عليه نحو هذه الجماعة من أخلاقيات روحية لا تمت

(١) شرح ابن أبي الحديد ٢٠ / ٢٨١.

(٢) رسائل - ٥٣ - فقرة ٢٧.

للمادة بأية صلة، فلا دخل لها في رابطة ولا الاحتياج لأننا بصدد الفكر المنصب على تربية النفس، بتعويدها التوازن السوي الممكن لها من التصالح مع محيطها بتحقيق علاقات تحفظ لكل فرد في المجتمع مكانة مهما كانت منزلته الاجتماعية من المنظورات المادية، أو العرقية أو القبلية أو حتى الدينية، ويمكن استخلاص هذا الجانب التربوي من قوله لابنه الحسن عليه السلام «يا بني إجعل نفسك ميزانا فيما بينك وبين غيرك، فأحب لغيرك ما تحب لنفسك، وأكره له ما تكره لها، ولا تظلم كما لا تحب أن تظلم، وأحسن كما تحب أن يحسن اليك»^(١)، فلقد وضع علي عليه السلام بتصويره لميزان العلاقات البشرية الخطوط الرئيسية للتربية الإنسانية من وجهها الثاني المتمثل في علاقة الفرد بالجماعة. ومن خلال تتبعنا لنصوص نهج البلاغة المتعلقة بالمحور التربوي الذي نحن بصده نخلص إلى أنه ينبني على علاقات ثلاث:

الأولى - علاقات أسرية: وترمي إلى جعل الأسرة - نواة المجتمع - بيئة يشيع في جنباتها الحب، حيث يكون رب الأسرة باراً بها، معيناً لأفرادها على تحمل اعباء الحياة، موسعاً عليهم بقدر استطاعته، موزعاً حبه على الجميع بعدل وانصاف، نائياً بنفسه عن كل بغض وحقد وكرهية، وقد ورد في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله «خيركم خيركم لأهله وانا خيركم لأهلي»^(٢) والخير في سياق الحديث الشريف يعني - كما يبدو لنا - جماع معاني التربية الاسرية، وقد جاء النهي في قول علي عليه السلام «لا يكن أهلك أشقى الخلق بك»^(٣)، ليلقي ضوءاً على ما حواه

(١) رسائل - ٣١ - فقرة ١٣.

(٢) المتقي الهندي - كنز العمال ١٦ / ٣٧١.

(٣) رسائل - ٣١ - فقرة ٢٣.

الحديث الشريف من معان بعيدة الأثر في بلورة علاقات الفرد، لأن الإنسان الذي لا يتمكن من تكوين علاقات منسجمة مع أهله - أقرب الناس إليه لا يمكنه على الإطلاق من إقامة علاقات متوازنة مع محيطه خارج نطاق أسرته.

الثاني - علاقات تحكمها الصداقة: حظيت الصداقة بمكانة عظيمة في فكر

علي عليه السلام التربوي، حتى ان المتتبع لموضوعها في النهج وفي غيره من النصوص التي أثرت عن علي عليه السلام، يكاد يشعر بأنه يضعها في مرتبة أعلى من مرتبة الأخوة الحقيقية حين يقول «الصديق نسيب الروح والأخ نسيب الجسم»^(١) والعلاقات الروحية عادة ما تكون أوثق وأقوى من رابطة الدم، لما تشتمل عليه من تبادل في العواطف وتوافق في الأفكار، وانسجام في التصرفات، والصداقة بمعناها الحقيقي الذي يريده علي عليه السلام، توفّق جسده في نص متكامل، نحت فيه بفكره الصفات الحقيقية التي كان يطلبها في الصديق^(٢)، إلا أن تلك الصفات قد تبدو نادرة إن لم تكن مستحيلة التحقيق، إلا أن الواقعية التي يتميز بها فكر علي عليه السلام عامة والتربوي على وجه الخصوص، قد مكنته من التعامل مع واقعه في بلورة الهيكل التربوي الذي يجب أن تبني عليه علاقة الصداقة كمطلب اجتماعي ملح بالنسبة للإنسان لقوله «أعجز الناس من عجز عن اكتساب الأخوان، وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم»^(٣) فعده عدم القدرة على تكوين الصداقة عجزاً، وتضييعها بعد اكتسابها اعجز العجز، يوحى بضرورتها وأهميتها بالنسبة للإنسان السوي المتزن، القادر على التفاعل مع محيطه بأسلوب

(١) شرح ابن أبي الحديد - ٢٠ / ٣٠٠.

(٢) راجع حكم - ٢٩٧.

(٣) حكم - ١٢.

يمكنه من إذابة الهواجس والشكوك، وتغليب النية الحسنة في علاقة الصداقة قولاً وفعلاً فمن المفروض على من يعرف معنى الصداقة الحق، ويحرص على استدامتها أن لا يتعجل باتخاذ القرارات التي تثلم من قيمتها الروحية، إلا بعد أن يتيقن بأن الطرف المقابل ليس في مستوى تلك العلاقة السامية، بحيث يكون حرصه على التواصل امتن واقوى واوكد من القطيعة، يقول علي عليه السلام «ضع أمر أخيك على أحسنه، حتى يأتيك ما يغلبك منه، ولا تظن بكلمة خرجت من أخيك سواء، وأنت تجد لها في الخير محملاً»^(١) أي كن ذا نفس سمحة وجد المبررات الخيرة لكل تصرف منه، مهما كان وقعه على نفسك، حتى تتأكد مما يقصده، ومن ثم اتخذ موقفك المتعقل المناسب تجاهه، كما أن من حق الصداقة إيجاد المخرج السليم لحديث الصديق وتأويلة تأويلاً خيراً، فلا يعطي الإنسان للنميمة والوشاية أية طريق للحط من قيمة الصداقة لأن «من أطاع الواشي ضيع الصديق»^(٢).

لقد وضع علي عليه السلام دستورا متكاملا لعلاقة الصداقة ضمن الوصية التي كتبها لابنه الحسن عليه السلام ويمكن بلورته وتوضيحه في النقاط التالية:

١- يجدر بالصديق من أجل المحافظة على الصداقة والوفاء لعهداها - ان يراعي صديقه في كل الأحوال، وأن يجد له من المبررات والأعذار ما يبقى على جبل الود متصلا مهما كانت الظروف وفي هذا القول «إحمل نفسك من أخيك عند صرمة على الصلة، وعند صدوره على اللطف والمقاربة، وعند جموده على البذل، وعند تباعده على الدنو، وعند شدته على اللين، وعند جرمه على

(١) الكليني - أصول الكافي ٢ / ٢٦٢.

(٢) حكم: ٢٣٨.

العدر حتى كأنك له عبد، وكأنه ذو نعمة عليك»^(١) شريطة أن يكون مثل ذلك الصديق ممن يعرف قيمة الصداقة، ويصون حقوقها، ويلتزم بمبادئها، ولا يستغلها في تحقيق مآرب شخصية، وفي هذا يقول علي عليه السلام «إياك أن تضع ذلك في غير موضعه، أو أن تفعله بغير أهله»^(٢).

٢- اجتناب صداقة من يَكُنُّ البغض والعداوة لأحد الأصدقاء المخلصين حتى لا تسوء نفسه، وتكون موضع تهمة، أو قد تسمع من ذلك الشانئ من السعاية ما يوغر صدرك أو يفث من قوة صداقتك وذلك يقول «لا تتخذن عدو صديقك صديقاً فتعادي صديقك»^(٣).

٣- استعمال الصراحة والصدق في بذل النصيحة دون أدنى تحفظ أو مجاملة، مهما كان وقعها على نفسه، لأنه إذا كان صديقاً حقيقياً، فستكشف له بصيرته مدى حبك له وخوفك عليه ويكمن ذلك في قول الإمام علي عليه السلام «محض أخاك النصيحة حسنة كانت أو قبيحة»^(٤).

٤- صيانة حقوق الصديق المادية والمعنوية، وعدم التفريط في شيء منها اعتماداً على متانة العلاقة، لأنه «ليس لك بأخ من أضعت حقه»^(٥).

٥- عدم البدء بقطيعة الصديق مهما كانت الظروف، مع محاولة بذل كل جهد لإبقاء العلاقة متواصلة، بتحمل الإساءة منه ومحاولة مقابلتها بالإحسان إبقاء

(١) رسائل ٣١ فقرة ٢٣.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

(٤) السابق.

(٥) السابق.

على الود، وتمكيننا لدوامها متينة وقوية، وفي حالة الاضطرار إلى قطعها، فليبق على بعض الود ما يمكن من خلاله عودتها إلى حالها يوماً ما^(١).

٦- والصدقة إخلاص في المغيب والمحضر، ورعايتها تتطلب من الفرد أن يحافظ عليها في مال الصديق وعرضه وعهده لأن «الصديق من صدق غيبه»^(٢). فالصدقة كجانب من جوانب التربية الإنسانية- في فكر الإمام علي عليه السلام- هي- كما نلاحظ- باب مشرع على مصراعيه نحو المجتمع، فإذا ما استطاع الفرد استلها مبادئها وتشبعت بروحه بمثلها فأحاط نفسه بصداقات متينة ومتنوعة استطاع ان يفتح بروحه نحو المجتمع، وأن يتفاعل مع بقية أفراد بروح مشبعة بالعزم والثقة والاطمئنان.

الثالثة- تربية إنسانية تحكمها العلاقات الاجتماعية: السلطة في فكر الإمام علي عليه السلام نموذج للتربية الإنسانية التي تجسد العلاقات الاجتماعية على أسس من التكافل ونبذ شهوة التسلط وعدم استغلال المركز الوظيفي استغلالاً سلطوياً يسيء إلى كرامة الإنسان، بإشعاره أنه في منزلة لا تتناسب وما فرضه الله له من حقوق. ففي منصرفه إلى صفيين استقبله في الطريق دهاقين الأنبار^(٣) فترجلوا له خاشعين مسرعين، فسألهم باستغراب «ما هذا الذي صنعتموه؟ فقالوا: خلق منا نعظم به أمراءنا، فقال: والله ما ينتفع بهذا أمراؤكم، وإنكم لتشقون على أنفسكم في دنياكم، وتشقون به في آخرتكم، وما أخسر المشقة وراءها العقاب،

(١) راجع السابق.

(٢) السابق.

(٣) الأنبار- مدينة على الفرات في غربي بغداد- راجع معجم البلدان ١/ ٢٥٧.

٤٩٠ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

وأربح الدعة معها الأمان من النار»^(١) فتعظيم غير الله مذلة تحط من قيمة الإنسان في الدنيا لاستصغار نفسه، وتورده العقاب في الآخرة، ولا تزيد في قيمة الشخص المعظم، ولا ترفع من قدره، لذلك فقد نهاهم عما لا يجدي نفعاً ولا يزيد من مكانته، في الوقت نفسه الذي يؤدي بهم إلى المذلة وازدراء النفس والحط من قيمتها.

وبذات الأسلوب يتعامل علي عليه السلام مع (حرب بن شرحبيل الشبامي)^(٢) حين ترجل يتبعه وهو راكب، فقد قال له «ارجع فإن مَشِيَّ مثلك مع مثلي فتنة للوالي ومذلة للمؤمن»^(٣) لأن ذلك الفعل من أحد سادات العرب وأشرفهم يشعر الراكب بالزهو والخيلاء والغرور، ويشعر المترجل بين يديه بالمهانة والاستصغار، وهذا يتعارض وأساليب التربية التي ينبنى فكر علي عليه السلام عليها، وبذلك الأسلوب كان يوصي عماله في تعاملهم مع كل الناس، من ذلك قوله ضمن عهده لبعض عماله على الصدقات «آمره أن لا يجبههم، ولا يعضههم، ولا يرغب عنهم تفضيلاً بالإمارة عليهم، فإنهم الإخوان في الدين والأعوان على استخراج الحقوق»^(٤).

فالمكانة مهما سمت وعظمت، فإنها لا تعطي لصاحبها الحق في امتهان كرامة

(١) حكم-٣٧.

(٢) حرب بن شرحبيل الشبامي - بكسر الشين المعجمة وفتح الباء بعدها - نسبة إلى شبام موضع باليمن - راجع معجم البلدان ٣/ ٣١٨، لم أعثر له على ترجمة، اعتبره الأمين في أعيان الشيعة ٤/

٦١١ من شيعة علي عليه السلام، على اعتبار ان الشباميين قد كانوا يتشيعون لعلي عليه السلام.

(٣) حكم-٣٣٠.

(٤) رسائل - ٢٦ فقرة ٣، وجبهه - ضرب جبهته إذلاً وازدراء، وعضهه: عامله بخشونه، ولا يرغب عنهم - لا يتجافى عليهم ويتكبر.

غيره والخط من قدره، لأن الناس في الحق سواء وإن التكبر والنظر إلى الناس من عل من مركبات النقص التي يحاول بها الشخص مواراة عيوبه كما يقول علي عليه السلام انه «لما عرف أهل النقص حالهم عند أهل الكمال، استعانوا بالكبر، ليعظم صغيراً، ويرفع حقيراً، وليس بفاعل»^(١).

فالإنسان السوي - من وجهة نظر علي عليه السلام - هو المقتدر على التعامل مع مجتمعه على أسس أخلاقية تصون مكانته كإنسان من خلال احترامه لنفسه بمحافظته على كرامة غيره، على أساس أن التربية الإنسانية هي محاولة انسجام دائم ومستمر بين كل الناس وفي كل الأوقات لقوله «خالطوا الناس مخالطة، إن متم معها بكوا عليكم، وإن عثتم حنوا إليكم»^(٢) وهو عين ما قاله فيه أصحابه المخلصون بعد أن افتقدوه إذ يصف ضرار الضابي^(٣) علاقة علي عليه السلام بأصحابه فيقول «كان فينا كأحدنا، يبيننا إذا سألناه، وينبئنا إذا استبأناه، ونحن مع تقريبه إيانا وقربه منا، لا نكاد نكلمه لهيئته، ولا نبتدئه لعظمته، يعظم أهل الدين ويجب المساكين، لا يطمع القوي في باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله»^(٤).

(١) شرح ابن أبي الحديد - ٢٠ / ٣٢٧.

(٢) حكم - ٩.

(٣) ضرار بن ضميرة الضبائي أو الضابي - لم نعثر له على ترجمة، قال عنه المسعودي، في مروج الذهب

٢ / ٤٣٣ انه «كان من خواص علي عليه السلام» كما أشار عبد الزهراء الحسيني في مصادر: نهج البلاغة

١ / ٥٠ الهامش انه «مولى أم هاني بنت أبي طالب».

(٤) الحصري القيرواني - زهر الآداب ١ / ٤١، وراجع النص أيضاً في مروج الذهب السابق.

العنصر الثاني - الأساليب التربوية التي كما تبدو في فكر علي عليه السلام:

يحتوي نهج البلاغة على بعض النصوص التي تمكن الدارس من التعرف على كثير من الأساليب التربوية كما تبدو في فكر علي عليه السلام وذلك إذا ما أضفنا إليها بعضاً من مآثوراته التي حفظتها لنا المصادر الأخرى، ويمكن تقسم تلك الأساليب على قسمين:

القسم الأول: أساليب تربوية تختص بالمعاملة:

وقد ابتدأنا بها لأنها في اعتقادنا الأساس الأول في العملية التربوية، لأنها تختص بتشكيل شخصية المتعلم، وإعداده لتقبل العلم. وتحدد مسؤوليتها كما نستخلصها من فكر علي عليه السلام، في الأسرة أولاً، وفي المعلم من ناحية ثانية، فبالنسبة للأسرة يرى علي عليه السلام - كما نفهم مما لدينا من نصوص - أن توصيل العلم والأخلاق للحدث في نطاق الأسرة يحتاج إلى مستوى معين من الثقافة التربوية التي تتطلب من ولي الأمر أو الأب، أن يجعل من نفسه طفلاً في مرحلة ما وصديقاً وصاحباً في مرحلة أخرى، حسب أعمار ابنائه الذين يقوم بتربيتهم، فقولُه «من كان له ولد صبا»^(١) أي نزل إلى مستواه، وتحدث إليه بمقدار فهمه حتى يتمكن من كسب ثقته وحبه، والتعرف على مشاكله عن كثب، ومحاولة حلها معه بالتوجيه السليم والأخلاق الحميدة. وتصايب الاب لابنه يحتم عليه ان يعيش عصره، وينظر بمنظار زمان ذلك الابن، ويفكر بعقليته، أي لا يكون جباراً مستبداً بفرض افكاره، إذ يجب عليه ان يضع في اعتباره ان الأفكار التي

(١) الكليني - الفروع من الكافي / ٦ / ٥٠.

يتبناها ويعتقدها قد لا تتناسب مع عصر ابنائها فالأبناء - كما يبدو في فكر علي عليه السلام - ليسوا صورته طبق الأصل مكررة من الآباء حتى يتقبلوا منهم كل أفكارهم، فكما ان الإنسان يتطور من حيث السن والادراك والعقل، فإن العصر أيضاً يتطور، فما كان بالأمس مقبولاً في عرف الآباء فليس بالضرورة قبوله اليوم في عرف الأبناء، لذلك يرى علي عليه السلام انه من الضروري ان لا يقسر الآباء أبناءهم على عاداتهم لأنهم «مخلوقون لزمان غير زمانهم»^(١)، فالإنسان بفكره وروحه ابن عصره الذي يعيش فيه لأن «الناس بزمانهم اشبه منهم بآبائهم»^(٢) أي «ان نفوسهم أكثر انفعالاً واطوع لأخلاق زمانهم وعاداتهم وزيمهم وحالاتهم منها لعادات الآباء وحالاتهم»^(٣). وكما يولي علي عليه السلام اهمية لدور الأسرة والاب على وجه الخصوص في العميلة التربوية، فانه يعطي للمعلمين دوراً، يكاد لا يقل عن دور الاب ويسلط الضوء في هذه الناحية على أساليب العقاب سواء كان بالضرب أم بالكلام، فقوله «لا تستعمل الفعل حيث ينجح القول»^(٤) يعني عدم استخدام العقاب البدني كأسلوب في التربية، الا بعد استنفاد كل أساليب النصيح والاقتناع مع المتعلم، فإذا ما انصاع المتعلم لأمر معلمه بالكلام فلا داعي بعد ذلك للوم والتقريع فما «عفا عن الذنب من قرع به»^(٥). والعقاب كرادع تأديبي يرحى من ورائه الاصلاح، يجب ان لا يعمل به الا بعد ان يستنفذ المؤدب كل وسائل التفاهم، التي بينها، اعطاء المذنب فرصة للتفكير والمراجعة،

(١) شرح ابن أبي الحديد ٢٠/٢٦٧.

(٢) ميثم البحراني - شروح المئة كلمه لأمر المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام من جمع الجاحظ ص ٩٤.

(٣) السابق.

(٤) شرح ابن أبي الحديد ٢٠/٢٧٨، ٣٤٢.

(٥) شرح ابن أبي الحديد ٢٠/٣٢٨، ٣١١.

وفي هذا المجال يقول علي عليه السلام «لا تتبع الذنب بالعقوبة واجعل بينهما وقتاً للاعتذار»^(١) ثم ان أساليب المعاملة في فكر علي عليه السلام درجات متفاوتة، يجب على المربي أن يكون على دراية تامة بها، كما يجب ان يكون عارفاً بنفس من يتصدر لتهديبهم واضعاً في اعتباره انهم نماذج بشرية مختلفة الامزجة والطباع، فمنهم الخير الذي قد لا يستحق من العقاب الا ما هو في حدود التلميح، وفي حالات نادرة جداً، ومنهم من لا يجدي معه الا أسلوب الترغيب والترهيب، ومنهم من لا يردعه سوى العقاب الصارم، ومن خصائص الوظيفة التربوية ت كما يرى علي عليه السلام - ان يعامل «الاحرار بالكرامة المحضه، والاوساط بالرغبة والرغبة، والسفلة بالهوان»^(٢) إلا أن ذلك لا يعني التماهي في الشدة إلى اقصى غاياتها، إذ من واجب العربي أن يكون متعقلاً في عقابه متزناً في عتابه لأن التماهي في العقاب قد يخرج المعاقب عن التزانه فيتماهى في خطئه بإصرار وعناد، لذلك يقول علي عليه السلام للمربي «اذا عاتبته الحدث، فاترك له موضعاً من ذنبه، لئلا يحمله الاخراج على المكابرة»^(٣). ثم ان العفو عن المذنب والتغاضي عن هفواته يجب ان يكونا نافذين، حال العمل بهما، وعلى هذا يجدر بالمربي ان لا يعاود المعاتبة على ذنب مضى وصدر عفو فيه، لأنه «ما عفا عن الذنب من قرع به»^(٤) واذا اراد المعلم تبصير المتعلم بأخطائه، وتوجيه النصح له وارشاده، فمن الاجدى ان يختار الوقت المناسب والمكان المناسب، فلا يحاول اعطاء نفسه قيمة بإظهار سلطته في توجيه المواعظ والكشف عن عيوب المتعلم في ملاء من الناس لأن

(١) السابق.

(٢) شرح ابن أبي الحديد ٢٠/٣٣٣، ٣٤٢.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) المصدر السابق نفسه.

«النصح بين الملاءم»^(١) كما يقول علي عليه السلام، فخلاصة فكر علي عليه السلام في هذا الجانب التربوي هو المام المرابي بأساليب المعاملة قبل ان يكون عالماً حتى يتمكن من التقرب من المتعلمين ليوصل إليهم علمه.

القسم الثاني - أساليب تربوية تختص بالعملية التعليمية:

العملية التعليمية جانب هام من جوانب التربية في فكر علي عليه السلام، فهو يرى ان أجدى التعليم وأثبته وأقواه ما بدئ به في الصغر، لأن «قلب الحدث كالأرض الخالية، ما القى فيها من شيء قبلته»^(٢) وعليه يجب على المرين المبادرة بحرث هذه الأرض وزرعها بالمجدي من العلوم، ونعتقد ان لدى علي عليه السلام اقتناع تام بأهمية التعليم منذ الصغر، فإذا كان قد شبه قلب الطفل بالأرض البكر، فانه قد شبه الطفل أيضاً بالطينة الطبيعية التي يمكن للصانع تشكيلها ونقش ما شاء فيها، وشبهه بالغصن اللدن الذي يقبل الماء والتربة، فيمد جذوره وتورق براعمه، ويتجلى ذلك ضمن قوله «اطبع الطين مادام رطبا، واغرس العود ما دام لدنا»^(٣). ونستطيع أن نستخلص مما ورد في نهج البلاغة بشأن العملية التعليمية، بأنها يجب أن تكون متناسبة وحاجة الوضع القائم بالابتداء بتعليم ما هو ضروري للحياة، وما يتناسب ومقتضى الحال كما في قوله ضمن وصيته لابنه الحسن عليه السلام «رأيت حيث عناني من أمرك ما يعني الوالد الشفيق واجمعت عليه من أدبك ان يكون ذلك وأنت مقبل العمر، ومقبل الدهر، ذونية سليمة، ونفس صافية، وأن

(١) ميشم البحراني - شرح المئة كلمة ص ١٥٠.

(٢) رسائل - ٣١ فقرة ٥.

(٣) شرح ابن أبي الحديد ٢٠ / ٣١٥.

ابتدئك بتعليم كتاب الله عز وجل، وتأويله، وشرائع الإسلام واحكامه، وحلاله وحرامه، لا أجاوز ذلك بك إلى غيره، ثم أشفقت أن يلتبس عليك ما اختلف الناس فيه من أهوائهم وآرائهم مثل الذي التبس عليهم، فكان أحكام ذلك على ما كرهت من تنبيهك إليه أحب الي من اسلامك إلى أمر لا آمن عليك به الهلكة»^(١) فالذي يمكن استنتاجه - حسب فهمنا للنص - أن الظروف وحاجة المجتمع هما اللذان يقرران نوعية التعليم، ويجب على المربين مراعاة ذلك أثناء وضع خططهم ورسم مناهجهم، فتخصيص علي عليه السلام العلوم الدينية بتقديم الأهم على المهم ليس إلا أنه يراعي حاجة العصر، لذلك فنحن لا نتفق مع الشيخ محمد جواد مغنية في قوله بأن «الإمام يوصي بوجه عام أن يلحق الطفل أولاً أصول الإسلام الضرورية، ويمرن على السلوك الشرعي حتى إذا تقدمت به السن تعلم القرآن والشريعة»^(٢)؛ لأن ما عده تلقيناً للطفل من علوم، لا يمكن أن تكون في مستوى سهولة تعلم القرآن، وقد نص كثير من المفكرين المسلمين ممن اهتموا بالتربية على الابتداء بتعليم الطفل القرآن كأساس لجميع العلوم الدينية^(٣)، وكما يبدو من المقولة، فقد أراد علي عليه السلام ذلك بالفعل إلا أنه قد رجع عن إرادته تلك أخذاً بتعليم ابنه من العلوم التي تمكنه من التعايش بين الناس في مجتمعه. ولكن ذلك لا يعني - في فكر الإمام علي عليه السلام - إكراه المتعلم على الأخذ بنمط من التعليم يتعارض مع ميوله، فبجانب احتياجات العصر يجب أن يضع المربون في اعتبارهم استعدادات المتعلم وميوله فإن «للقلوب شهوة، وإقبالاً وإدباراً فأتوها من قبل

(١) رسائل ٣١-فقرة ٦.

(٢) في طلال نهج البلاغة ٤٩٣/٣.

(٣) راجع مقدمة ابن خلدون ص ٤٧٠.

شهوتهما واقبالها، فإن القلب إذا أكره عمي»^(١). علاوة على ذلك فإن هناك الكثير من الملاحظات التربوية الجديرة باهتمام المرين منها:

محاولة تحبيب العلم وتقريبه إلى نفوس المتعلمين بالمراوحة بين ما هو مفيد وبين ما هو طريف ومحجب إلى النفوس، لأن الجدل المتواصل، يكبد الفكر ويتعب النفس، فيتتابها الملل والسأم فتأبى التقبل، فالأذهان تحتاج إلى الراحة كما تحتاج إلى ذلك الابدان وهو ما يمكن استخلاصه من قول علي عليه السلام «ان هذه القلوب تمل كما تمل الابدان، فابتغوا لها طرائف الحكمة»^(٢).

ويجب على المرين ان يعرفوا - كما يبدو في فكر الإمام علي عليه السلام - ان العلم لا يتمثل في الحشو الكثير، والمطولات المملة أو المختصرات المخلة، بل يجب ان تكون قواعده في أساليب واضحة، ومحددة، لا تشتت ذهن المتعلم لأنه «اذا ازدحم الجواب خفي الصواب»^(٣)، أي انه كلما كانت الاجابات على المسألة والقضية العلمية متعددة الجوانب متشعبة الطرق كلما خفيت الحقيقة المرجوة منها. ومما يجب على المرين ان يأخذ به - كما يبدو في فكر علي عليه السلام - تعويد المتعلمين على المناظرة بإزالة عقد الخوف والخجل من نفوسهم، فلسان المرء كما يقول علي عليه السلام - بضعة منه «لا يسعده القول إذا امتنع، ولا يمهلُه النطق إذا اتسع»^(٤) ومرجع ذلك الامتناع أو الاتساع إلى العادة التي يربى الإنسان عليها منذ بداية حياته في مراحل التعليم الأولى، حين يحتاج إلى توضيح ما يهم عليه بطريق

(١) ١٩١، ٨٩.

(٢) ١٩١، ٨٩.

(٣) حكم - ٢٤٢.

(٤) خطب - ٣٢٠ الفقرة الأولى.

السؤال والمناقشة، وحتى يستطيعوا ذلك، فإن علياً عليه السلام يجذب تعويدهم منذ حداثة سنهم على «المراء والجدل»^(١) كي تنفك عقدة الستهم.

ومن المهام المناطة بالمربي - كما يبدو في فكر علي عليه السلام - أيضاً - تعويد المتعلم على البحث فيما هو مكلف به ومسؤول عنه، بمعرفة كل ما يحيط به من سلبيات وإيجابيات، وتحديد كل ذلك في إطاره السليم، والقيام بأدائه كاملاً بثقة وصدق وإخلاص وذلك ما يمكن استخلاصه من قوله لابنه الحسن عليه السلام «اعلم يا بني أن أحب ما أنت آخذ به إلي من وصيتي تقوى الله والاقتصار على ما فرضه الله عليك»^(٢)، أي ما أنت مسؤول عنه ومكلف بأدائه من واجبات مقرونة بجماع الأخلاق المتمثلة في التقوى تلك اذن هي بعض الملامح التربوية التي امكن استقصاؤها من فكر علي عليه السلام كما بدت لنا وهي - كما نعتقد - لم تكن مقولات نظرية لأراء خالية من مضمونها العملي، لأن علياً عليه السلام قد باشر في تطبيقها. ويمكن ملاحظة ذلك من السياقات التي وردت فيها تلك المقولات مع الأخذ بعين الاعتبار مناسباتها.

فنظرة علي عليه السلام إلى المجتمع - كما نتصورها - نظرة شاملة وعميقة في الوقت ذاته وملتزمة أيضاً التحاماً تاماً بسياسته العامة التي تهدف إلى السعادة والحياة الأفضل، فالإنسان الذي يمكننا نتصوره من خلال نهج البلاغة «كائن مصانة حقوقه... مطمئن إلى ان حكومته لا تجفو فتقطعه عنها وعن المجتمع بهذا الجفاء، وهو مطمئن إلى انه مساو لجميع المواطنين... وهو واثق بأن حقوقه

(١) شرح ابن أبي الحديد ٢٠ / ٣٨٥.

(٢) رسائل - ٣١ فقرة ٧.

صغيرها وكبيرها، قليلها وكثيرها لن تذهب عنه إلى سواه»^(١) إلا ان ذلك المجتمع المتكامل الذي اراد له علي (عليه السلام) الوجود، لم يتسن له تحقيقه ليس لأن سياسته الاجتماعية جديدة بالنسبة للمجتمع، لأن الرسول (صلى الله عليه وآله) قد باشر في تطبيقها وعمل على تدعيم قواعدها إلا أن إرهاصات التغيير المتمثل في تهيئة العرب إلى تقبل تحويل الخلافة الإسلامية إلى ملك عضوض، يعتمد على سياسة بذل المال في غير حقوقه بسخاء كان أقوى وأشد من أن تقف المبادئ في وجهه لصدده. ولكن ذلك لا يعني فشل سياسة علي (عليه السلام) الاجتماعية لأن مقياس الفشل والنجاح بالنسبة للأفكار بخلودها في انتظار تطبيقها.

(١) جورج جرداق - علي (عليه السلام) صوت العدالة الإنسانية ٢/ ٢٧٨.

الباب الرابع

القضايا الكلامية

والتأملات الكونية

كما تبدو في نهج البلاغة

- الفصل الأول: القضايا الكلامية المتعلقة بالعبادة.

- الفصل الثاني: التأمل وتداعي الأفكار والغيبات كما

تبدو في فكر علي عليه السلام.

- الفصل الثالث: نظرة علي عليه السلام إلى الحياة كما تبدو في

نهج البلاغة.

إن تأمل الإمام علي عليه السلام العميق في معاني القرآن، واستلهامه الدقيق لجوانب كثيرة من تاريخ البشرية، أمدا ما ورثه عن رسول الله صلى الله عليه وآله من علم بروافد ثرة في مجال ما سمي فيما بعد بالقضايا الكلامية المتعلقة بالعتيدة، علاوة على أثرها الجلي فيما أثر عنه من وصف الطبيعية وتأملات كونية. على أن هذه الموضوعات الفكرية، لم يتناولها علي عليه السلام لمجرد التنظير، أو لطرح قضايا من أجل الجدل، فليس ثمة ما يدعو إلى ذلك وهو المشغول إلى أخص قدميه بأعباء السياسة والحكم وتجهيز الجيوش، واعادة بناء المجتمع، ولكن حاجة العصر الملحة للكلام في مثل هذه القضايا، وتوضيح ما أبهم على المسلمين منها، هو ما حتم عليه القول فيها بكثرة لاقتناعه بأهمية العصر لها، فلقد كانت تلك القضايا وخاصة ما يتعلق بالعتيدة منها، شغله الشاغل، والهاجس الذي ظل يلح عليه حتى آخر لحظة من حياته، وأول هذه القضايا التي اولاهها علي عليه السلام جانبا كبيرا من اهتماماته، القضايا المتعلقة بالعتيدة.

الفصل الأول

القضايا الكلامية المتعلقة بالعقيدة

الخالق - الملائكة - الرسل - الإنسان

الكلام في الاصطلاح الفلسفي، هو كل صياغة لغوية تنبني على أسس منطقية أو جدلية، ويختص في أغلب الأحيان بمعالجة المسائل الاعتقادية^(١)، ويعزو الشيعة والمعتزلة أصول هذا العلم إلى علي بن أبي طالب عليه السلام، فالتوحيد والعدل وغيرهما من الأصول الاعتقادية ما عرفت - كما يرى كل من الشريف المرتضى (ت ٤٣٦هـ)^(٢) وابن أبي الحديد (ت ٦٥٥هـ)^(٣) - الا عند الإمام علي عليه السلام دون غيره من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبشأن ذلك يقول العقاد أيضاً «عنه أخذ الحكماء الذين شرعوا علم الكلام قبل ان يتطرق إليه علم فارس أو علم يونان»^(٤). لكن تلك الاقوال لا تعني ان علياً عليه السلام بتطرقه في خطبه

(١) راجع - دي بور - تاريخ الفلسفة في الإسلام ص ٩٥ وما بعدها.

(٢) راجع أمالي المرتضى ١/١٤٨ وما بعدها.

(٣) راجع شرح النهج ٦/٣٤٦.

(٤) عبقرية الإمام علي عليه السلام ص ٣١.

إلى أمور العقيدة، يعتبر من المتكلمين بالمعنى الاصطلاحي الذي تحمله الكلمة في جوانبها المنطقية أو الفلسفية، لأن كلامه في العقيدة - كما نعتقد - ما هو الا امتداد لفكره الشامل لقضايا السياسة والاجتماع والاخلاق والتربية، لكون ذلك الفكر نابعا من الدين، ويسير في ظلاله، وقضايا العقيدة هي أصل الدين، مما يحتم على كل مسلم الإمام بها بالقدر الذي يستوعبه عقله من فهم يؤدي به إلى الإيمان الصحيح وهو ما كان علي عليه السلام يرمي إليه من النصوص التي اثرت عنه بشأن قضايا الخالق، والملائكة والرسل والإنسان، وعلي عليه السلام من خلال هذه النصوص، يحاول أن يتحدث مع العقل ليقنعه بالتمسك بطريق الإيمان بالله، فكيف عالج تلك القضايا الأربع: الخالق - الملائكة - الرسل - الإنسان.

أولاً - الخالق

تتفق جميع الفرق الإسلامية على أن معرفة الله سبحانه وتعالى، هي ركن الإيمان الاساسي والاول، فالفرق بين المسلم والكافر شهادة «أن لا إله إلا الله» وتقتضي تلك الشهادة معرفة حقيقية بالخالق. وعلى الرغم من أن هذه المعرفة من الأمور التي يمكن للإنسان الاهتداء إليها بفطرته من خلال تأملاته فيما حوله من ابداعات كونية، الا انها قد تزعزع ايمانه وتؤدي به إلى مهاوي الكفر والاحاد، فيما لو حاول قياس ما اهتدى إليه من معرفة، بنفسه ككائن مقتدر له من الصفات والمزايا والطاقات ما يشعره بالتفرد وتقديس الذات، مما يجعله يلغي من ذاكرته وجود إله قادر، وقد يؤدي به فكره إلى المقارنة بين الموجودات وموجودها إما عن جهل، وإما عن مكابرة لشعور بتضخم الذات، وفي كلتا الحالتين يطلق على الله سبحانه وتعالى أوصافاً حسية، وقد عرض علي عليه السلام إلى

الباب الرابع: القضايا الكلامية والتأملات الكونية كما تبدو في نهج البلاغة..... ٥٠٧

قضية الصفات ضمن كثير من نصوص النهج يمكننا من خلالها استخلاص فكره في هذا الجانب.

صفات الخالق في فكر علي عليه السلام:

يبدو أن علياً عليه السلام قد سلك نهجاً فكرياً واحداً فحواه نفي كل الصفات التي تخطر على بال العبد، أثناء تصوره للخالق جل شأنه لقوله أن «كمال الإخلاص (الله) نفي الصفات عنه»^(١) وينبني فكره ذلك على أن الصفات المتخيلة لا يمكن أن تكون إلا للأعراض التي تمكن الناظر إليها من مقارنتها بما حوله من مرئيات، فالتصدي لوصف ذات الخالق سبحانه يعني مقارنتها بتصورات مشابهة لها، فتبني على ذلك نتائج خطيرة تنفي فكرة التوحيد أساس العقيدة الأول، وفي هذا المجال يقول علي عليه السلام «فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه، ومن قرنه، فقد ثناه، ومن ثناه فقد جزأه، ومن جزأه فقد جهله، ومن جهله فقد أشار إليه، ومن أشار إليه فقد حده، ومن حده فقد عده»^(٢)، فالملاحظ أن المقولة مبنية على أسباب تؤدي إلى نتائج فكرية طبيعية بسيطة، مصوغة في قوالب بعيدة عن أية تعقيدات فلسفية، لأنها تأخذ من واقع المستمع إليها أمثلة للبرهنة عليها، مع وضع الثقافة الدينية للمتلقي في الاعتبار، وهي في نهايتها تقول بالتوحيد.

التوحيد كما يمكن إدراكه من فكر علي عليه السلام:

تتفق جميع الفرق الإسلامية على أن التوحيد، هو الركن الأول في العقيدة

(١) خطب - ١. فقرة ١.

(٢) المصدر السابق نفسه.

الإسلامية، بشهادة قول رسول الله ﷺ «بني الإسلام على خمسة. على ان يوحد الله، واقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان والحج»^(١) ويرى الشيعة الإمامية ان قول كلمة التوحيد بإخلاص وصدق تدخل الجنة، ويروون في ذلك عدة احاديث نبوية منها قوله ﷺ «من قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة، وإخلاصه أن تحجزه لا إله إلا الله عما حرم الله عز وجل»^(٢). وقد وضعت بعض فرق المرجئة التوحيد في مرتبة سامقة جعلته كل الإيما ن ومنتهاه «وان العبد إذا مات على توحيدة لا يضره ما اقترف من الآثام واجترح من السيئات»^(٣). وفي اعتقادنا ان علياً عليه السلام هو أول من فصل القول في التوحيد بعد ان كان مجملاً في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، إذ كان معناه مقصوداً على الشهادة بالوحدانية، وعدم الشرك بالله.

وبالتمعن فيما أثر عن علي عليه السلام من نصوص، نجد أن فكره قد امتد ليرز لمسلمي عصره جل ما ينطوي عليه التوحيد من معان فكرية تؤدي إلى الاقتناع الخالص المتين به وفي محاولة منا لفهم ذلك، تمكنا من الاهتداء إلى مقاصد ثلاثة للتوحيد في فكر علي عليه السلام:

الاول - توحيد الذات:

ينفي علي عليه السلام عن الله سبحانه العددية لقوله «الأحد بلا تأويل عدد»^(٤) لأن

(١) صحيح مسلم - ١ / ٤٥.

(٢) الصدوق - التوحيد - ص ٢٨.

(٣) الشهرستاني - الملل والنحل / ١ / ١٤٠.

(٤) خطب ١٥٢ - فقرة ١.

الباب الرابع: القضايا الكلامية والتأملات الكونية كما تبدو في نهج البلاغة..... ٥٠٩
العددية تعني في مضمونها - كما يرى علي عليه السلام - القلة والكثرة والتجزئة فالواحد بطبيعة الحال أول الأعداد وهو أقل من الإثنين، ويمكن تجزئته، وهو ما يستحيل تطبيقه على الله سبحانه.

ثم ان توحيد الذات يعني، أن لا شريك لله ولا مثيل له ولا يتصور شبهه كما في قوله «أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الأول لا شيء قبله، والآخر لا غاية له»^(١)، فاعتبار أولويته ونهايته مطلقة تقتضي بذاته الدوام الأبدي، لأنه سبحانه «لو سبقه العدم وانتهى إليه لكان حادثاً، ولا بد لوجود الحادث من سبب»^(٢) فإذا لم يكن سبب وجوده ذاتياً فلا بد من احتياجه إلى غيره، ولا بد لغيره أن يحتاج في وجوده إلى غيره... وهكذا إلى أن تنتهي إلى سبب الأسباب المتمثل في الذات التي تؤثر ولا تتأثر وهو ما يمكننا استخلاصه من قول علي عليه السلام «الأول لا شيء قبله، والآخر لا غاية له»^(٣).

الثاني - توحيد الصفات:

يطلق العقل الإنساني على الله سبحانه صفات متعددة كالعدل، والقدرة، والحلم، والعلم، والقوة... وتعداد هذه الصفات لا يعني وجود كل صفة في ذات الله منفردة، إذ لو كانت كذلك لتباينت في ضعفها وقوتها ولظهر أثر ذلك التباين على ما في الكون من مخلوقات، لذلك يرى علي عليه السلام ان هذه الصفات إنما هي في حقيقتها صفات ذهنية من ابتكار العقل الإنساني، لذلك فإن كل الصفات

(١) خطب - ٨٤ - فقرة ١ .

(٢) محمد جواد مغنية في ظلال النهج ١/ ٤١٩ .

(٣) خطب - ٨٤ - فقرة ١ .

مهما تناهت في التعداد والمثالية فهي موحدة في ذاته سبحانه، لأن «التعدد إنما هو نوع من أنواع الكمال لا في ذات الكمال المطلق الذي هو المبدأ الأول لكل كمال»^(١) ويمكن فهم ذلك من قول علي عليه السلام، بأن «كل عزيز غيره ذليل، وكل قوي غيره ضعيف، وكل مالك غيره مملوك، وكل عالم غيره متعلم، وكل قادر غيره يقدر ويعجز»^(٢). مما يعني ان كل تلك الصفات عين ذاته لا تناقض بينها ولا تعددية فيها، فقولنا: الله سبحانه، نعني به القوي العزيز الجبار المتكبر....

الثالث - توحيد الأفعال:

ونقصد به تأثير الله سبحانه في الوجود، فهو سبحانه الذي خلق الإنسان واهمه خاصية التفكير، واقدره على الاختيار، وخلق النار ومنحها خاصية الاحتراق، وخلق الشمس والقمر، ومنحها خاصية الإنارة، فالأفعال وعللها نابعة من توحيد ذاته سبحانه وتعالى فهو وحده الذي لا يفتقر إلى معونة أحد، ونخلص إلى ذلك من قول علي عليه السلام «المنشئ أصناف الأشياء بلا روية فكر آل إليها... فتم خلقه بأمره وأذعن لطاعته، وأجاب إلى دعوته، لم يعترض دونه ريث المبطع، ولا اناة المتلكئ، فأقام من الأشياء أودها... وفرّقها أجناساً مختلفات في الحدود والأقدار والغرائز والهيئات»^(٣). مما يعني توحيد الأفعال في القدرة الإلهية من جميع جوانبها وبدقائق تفاصيلها.

وقد يبدو الفكر متناقضاً، بين قول علي عليه السلام بحرية الإنسان في اختيار أفعاله

(١) محمد جواد مغنية - فلسفة التوحيد والولاية ص ٤٩.

(٢) خطب ٦٤.

(٣) خطب - ٩٠ فقرة ٣.

الباب الرابع: القضايا الكلامية والتأملات الكونية كما تبدو في نهج البلاغة..... ٥١١

فيما سبق^(١) وبصنع الله سبحانه وتعالى أفعال العبد هنا مما يوحي بالإلحاء المؤدي إلى فكرة القضاء والقدر اللازمين على الفرد، ولإزالة هذا اللبس، يجب ان ندرك أن توحيد الافعال بالنسبة للإنسان، لا يعني أنه سبحانه قد ألجأ الإنسان إلى انتهاج طريق محدد في افعاله، فخلق الافعال هنا يعني ان الله سبحانه قد خلق افعال العبد واقدره على اختيار الأصلح منها بالتمييز بينها، والأخذ بما شاء منها، مما يعني أن القدر ليس لازماً، وإلا بطل الثواب والعقاب وهو ما يمكن إدراكه من قول علي عليه السلام لمن سأله «أكان مسيرنا إلى الشام بقضاء من الله وقدر»^(٢) فأجابه علي عليه السلام بالإنعام على سؤاله «فقال الشيخ، عند الله أحسب عنائي، ما لي أجزر»^(٣) أي أنني كنت مرغماً على ذلك وليس بمحض اختياري، فبادره علي عليه السلام بما يزيل لبسه ويطمئن نفسه، بما في معناه، أن القدر الذي يعنيه ليس بلازم للعبد،^(٤) لأنه لو كان كذلك لما كان أي معنى للعقاب والثواب، إذ لا جدوى من المحاسبة ما دمنا مرغمين بالسير في طريق مرسوم معين، فالله سبحانه وتعالى خلق الأفعال وخلق لها الأسباب وأودع في الإنسان مقدرة التمييز والاختيار، وبموجب ذلك الاختيار يحاسب، أي بمعنى أن أفعال العباد وأسبابها مقدرة، خالقها واحد هو الله. هذا بالنسبة للإنسان، أما بالنسبة للظواهر الطبيعية الأخرى فقد خلقها الله وأودعها خواصها المتمايزة عن غيرها، إذ لا يمكن الفصل بين الجسم، وخاصيته، وتتضح تلك الفكرة من قول علي عليه السلام

(١) راجع ص ٢٠٢ من هذا البحث.

(٢) أمالي المرتضى / ١، السكوني - عيون المناضرات - ص ١٧٧.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) راجع حكم - ٧٦. وقد اقتصر الرضي على الجزء الذي أوضحنا معناه، أما بقية الرواية فيمكن

مراجعتها في المصدرين السابقين.

٥١٢ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

«جعل شمسها آية مبصرة لنهارها، وقمرها آية محوطة من ليلها وأجراها في مناقل مجراها وقد ر سيرهما في مدرج درجها ليميز بين الليل والنهار»^(١).

ولو تأملنا في مقاصد التوحيد الثلاثة التي استنبطناها من مآثورات النهج، لوجدنا انها كلها في حقيقتها ترمي إلى هدف واحد كان علي عليه السلام يلح على تثبيته في النفوس، وهو تنزيه الله سبحانه وتعالى عن الصفات ويجمل ذلك كله في قوله «التوحيد ان لا تتوهمه»^(٢) أي لا تطلق عليه من الصفات المتخيلية المستوحاة من التصورات الإنسانية، وتأكيداً لفكرة التوحيد تلك، فقد عالج قضية نفي الصفات من جميع وجوهها.

نفي الصفات عن الخالق جل شأنه:

إن نفي الصفات عن الله سبحانه وتعالى يقتضي - أولاً إزالة ما تنطوي عليه العقول من أوهام وتصورات تجعل منه شكلاً معيناً، وفي هذا يقول علي عليه السلام «لا تنعقد القلوب منه على كيفية»^(٣) لأن الكيف أو الشكل هما «هيئة قارة في محل»^(٤) مما يعني امكانية تجزئتها وتحديد مكانها، وهذا لا يجوز على الله سبحانه، فهو تعالى، بعيد عن الأوهام التي لا تدرك إلا ما كان ذا وضع معين، أو مادة مشكلة، والباري، كما يقول علي عليه السلام «لا تقع الأوهام له على صفة»^(٥)

(١) خطب - ٩٠ - فقرة ٤.

(٢) حكم - ٤٧٩.

(٣) خطب - ٨٤ - فقرة ١.

(٤) الخوئي - منهاج البراعة - ٦/ ١١٦.

(٥) خطب - ٨٤ - فقرة ١.

الباب الرابع: القضايا الكلامية والتأملات الكونية كما تبدو في نهج البلاغة..... ٥١٣

لأنه مجرد عن كل الصفات الزائدة التي تتصف بها الأوضاع المادية. فوجوده ليس محدثاً لكون المحدث هو ما يتولد عن العدم، والله كما يقول علي عليه السلام «كائن لا عن حدث، موجود لا عن عدم، مع كل شيء لا بمقارنة، وغير كل شيء لا مزايلة»^(١) فهو واجب الوجود بالذات، ووجوب وجود ذاته تقتضي أن يكون في كل مكان ومع كل شيء، فقول علي عليه السلام في دعائه «اللهم أنت الصاحب في السفر، وأنت الخليفة في الأهل لا يجمعها غيرك...»^(٢) هو تعبير عن فكرة نفي الحيز من جسمية وجهة عن الخالق. لأن جمع علي عليه السلام بين حكمي الخلافة والاستصحاب ينزهان الله عن الجهة والجسمية، وقد بنى فكرته تلك على توع من البرهان العقلي البسيط، خلاصته عدم إمكانية الإنسان من أن يكون موجوداً في مكان ما ومصاحباً للآخرين في مكان آخر في وقت واحد^(٣)، وهذا يقتضي ان يدرك الإنسان ان قدرة الله فوق كل قدرة، فهو «الأول الذي لم يكن له قبل فيكون شيء قبله، والآخر الذي لم يكن له بعد فيكون شيء بعده»^(٤). فالزمانية التي نتصورها في الظرفين (قبل، بعد) ما هي إلا معان ابتكرها العقل الإنساني لوصف الزمن المتعلق بحياته، ولا يمكن ان يوصف بهما الله الذي «ما اختلف عليه دهر فيختلف منه الحال، ولا كان في مكان فيجوز عليه الانتقال»^(٥) أي ان وجود الله اعظم من ان يقرن بالدهر أو يوصف بالزمانية، مما يعني الثبات في دوامه، والاتحاد في مكانه.

(١) خطب - ١. فقرة ١.

(٢) خطب - ٤٦.

(٣) راجع السابق.

(٤) خطب - ٩٠ - فقرة ١.

(٥) المصدر السابق نفسه.

ونفي الجسمية والزمانية والمكانية عن الخالق يقتضي أن «لا يوصف بشيء من الاجزاء ولا بالجوارح والاعضاء ولا بعرض من الاعراض»^(١) والمقولة واضحة بحيث لا تحتاج إلى تحميلها ابعادا فلسفية أو وضعها ضمن براهين منطقية، فهي في مجملها تعني ان الله منزه عن كل ما يتصف به الإنسان من أعضاء وحواس مضمرة تقتضي التفكير والتخطيط والحركة للشروع في أي عمل يريد انشاءه، إذ يقول علي عليه السلام انه سبحانه قد «خلق الخلق من غير روية، إذ كانت الرويات لا تليق الا بذوي الضمائر، وليس بذئ ضمير في نفسه»^(٢) فالإضمار يعني التفكير والاجالة، وذلك من طبيعة المخلوق، وعلي عليه السلام هنا يريد ان ينفي عن الله سبحانه كل صفة أودعها خلقه. فهو سبحانه لا يجري عليه الاعياء كما يجري على ذوي الاوصال والاعضاء من الحيوانات، لأنه سبحانه ليس بذئ جسم حتى يجهد العمل، وفي هذا يقول علي عليه السلام «لم يؤده خلق ما ابتداء ولا تدبير ما ذراً»^(٣) ثم أن إبلاغه سبحانه أوامره ونواهيته إلى مخلوقاته، لا تتكون من أصوات ولا ألفاظ لأنه سبحانه ليس بذئ لسان، فالخالق كما يقول علي عليه السلام «يجبر لا بلسان وهوات ويقول لا بلفظ»^(٤) فالكلام المكون من أصوات مسموعة ذات حروف ملفوظة لا يصدق في حق الله لانتفاء الية الكلام المتكونة من لسان وهوات عنه جلت قدرته.

فقدرته سبحانه لا تحدها حدود، وصفته بعيدة كل البعد عن تصورات

(١) خطب - ٢٣٤ - فقرة ١.

(٢) خطب - ١٠٧ - فقرة ١.

(٣) خطب - ٦٤.

(٤) خطب - ٢٣٤ - فقرة ١، واللهمات - جمع لهاة بفتح اللام: اللحمة المشرفة على الخلق وتساعد على

الباب الرابع: القضايا الكلامية والتأملات الكونية كما تبدو في نهج البلاغة..... ٥١٥

عقولنا الكلية وعمله ليس له أمد ولا نهاية، إذ يقول علي (عليه السلام) في ذلك «قد علم السرائر، وخبر الضمائر، له الإحاطة بكل شيء»^(١) فعلمه بالأشياء عند حدوثها هو عين علمه بها قبل حدوثها، لأنه سبحانه قد خلقها وقدر لها ذلك فهو سبحانه «الأول الذي لم يكن له قبل فيكون شيء قبله والآخر الذي ليس له بعد فيكون شيء بعده»^(٢) فهو كما نلاحظ قد وظف فعل الكينونة توظيفا استمراريا بصياغته في المضارعة وتكراره بالإيجاب والسلب حتى يتمكن من خلال تلك الصياغة من التعبير عن فكرته التي تعني أزلية الخالق وتنزيهه عن أية اعتبارات اضافية تحدثها العقول.

فالاستدلال عليه وعلى وجوده - سبحانه - لا يمكن تقديره الا من خلال التأمل في الوجود وما يحويه من آيات عظيمة تدل عليه فنذكر بقلوبنا عظيمته ونهتدي بعقولنا إلى قدرته، فقد «دلت عليه اعلام الظهور»^(٣).

فعلي (عليه السلام) لا يحاول اخضاع الخالق - جلت قدرته - للعقل بتحويله إلى مادية جدلية، كما هو عند المتكلمين والفلاسفة، لأن هدفه الاساسي من كل ما ذكره من أفكار بشأن الخالق، هو توعية مسلمي عصره إلى حقيقة الإيمان، وذلك بعد ان أخذت الهواجس تنتاب النفوس، والشكوك تتلاعب بها، فوجد لزماً عليه محاولة إزالة تلك الحيرة^(٤) بتوضيح السبيل إلى الإيمان الروحي التام

(١) خطب - ٨٥ - فقرة ١.

(٢) خطب - ٩٠ - فقرة ١.

(٣) خطب - ٤٩.

(٤) يمكن استخلاص انشغال علي (عليه السلام) بقضية الإيمان بالخالق من قوله من وصيته لابنه الحسن «رأيت حيث عناني من امرك... ان ابتدئك بتعليم كتاب الله... لا اجاوزك إلى غيره ثم أشفقت أن يلتبس عليك ما اختلف الناس فيه من أهوائهم وآرائهم الذي التبس فكان أحكام ذلك على ما كرهت

بالقدرة الإلهية، التي تنحسر العقول وترتد عنها خاسئة، إذا ما حاولت البحث في كنهها، وهو في كل ذلك يستقي معاني النص القرآني الذي يجمع كل تلك الأفكار في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(١).

ثانياً. الملائكة:

الإيمان بالملائكة من صلب العقيدة الإسلامية لقوله تعالى:

﴿أَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾^(٢) علماً بأنه لا سبيل إلى معرفة حقيقتهم إلا عن طريق القرآن الكريم، فمن يؤمن بما جاء به القرآن الكريم من أخبار يتحتم عليه الإيمان بالملائكة. وقد أشار علي عليه السلام إلى عجز الإنسان عن وصف الملائكة، وذلك على سبيل تحدي قدرته ضمن قوله «إن كنت صادقاً أيها المكلف لو صف ربك، فصف جبريل، وميكائيل... والملائكة المقربين»^(٣)، لذلك لم يؤثر عنه وصف أشكالهم وهيئاتهم، إلا في حدود ما أورده القرآن الكريم عنهم. فعن خلقهم فقد جعل زمنه سابقاً لخلق آدم، وهو ما يتناسب وما ورد في قوله تعالى:

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾^(٤) فالأمر صادر

من تنبيهك له أحب الي من اسلامك إلى أمر لا امن عليك به الهلكة»، رسائل ٣١ - فقرة ٦.

(١) الشورى / ١١.

(٢) البقرة / ٢٨٥.

(٣) خطب - ١٨٤ - فقرة ٤.

(٤) الحجر / ٢٩.

الباب الرابع: القضايا الكلامية والتأملات الكونية كما تبدو في نهج البلاغة..... ٥١٧
من الله إلى ملائكته بالسجود لآدم، وذلك يقتضي عقلا ان يكونوا قد خلقوا
قبله، ثم إن عليا عليه السلام قد نفى عنهم الصفات الإنسانية في تكاثرهم «فلم يسكنوا
الأصلاب، ولم يضمّنوا الأرحام، ولم يخلقوا (من ماء مهين) ولم يتشعبهم (ريب
المنون)^(١) وكل ذلك مستنبط من آيات متعددة تنفي في مجملها صفات الإنسان
عن الملائكة^(٢). وقد قسمهم من حيث اختصاصهم بالله سبحانه على أربعة
أقسام هي:

١- المختصون بعبادة الله سبحانه وتسيحه وذلك في قوله: «منهم سجدوا لا
يركعون وركوع لا ينتصبون، وصافون لا يتزايلون، ومسبحون لا يسامون، ولا
يغشاهم نوم العين، ولا سهو العقول...»^(٣)

٢- القائمون بأمر الوحي وتبليغ الرسالات، وقد وصفهم بقوله «ومنهم
أمناء وحيه، وألسنة رسله»^(٤).

٣- القائمون بحفظ العباد من المخاطر والمهالك، والمراقبون لأعمالهم، وخدم
الجنة وقد قال فيهم «ومنهم الحفظة لعباده، والسدنة لأبواب جنانه»^(٥).

(١) خطب - ١٠٨ - فقرة ٢.

وقد تضمن المقولة من القرآن الكريم، وحسب ترتيب الورود في السياق: السجدة / ٨، الطور ٣٠.

(٢) راجع: الأنعام / ٩، الإسراء / ٤٠، ٩٠، الزخرف / ١٩.

(٣) خطب - ١ - فقرة ٣ وصافون: قائمون صفوفًا، لا يتزايلون: لا يتفارقون.

(٤) خطب - ١ - فقرة ٣.

يرى محمد عبده في شرحه للنهج ص ٢٨ الإحالة أن هؤلاء هم الامناء على وحي الله لأنبيائه، وأنهم الألسنة

الناطقة في افواه رسله، والمختلفون بالأقضية إلى العباد، وهم يقضي الله على من يشاء بما يشاء.

(٥) المرجع السابق. ويرى محمد عبده ان هذا الفئة من الملائكة هم حفظة العباد كأنهم قوى مودعة في

أبدان البشر ونفوسهم، ويحفظ الله الموصولين بها من المهالك والمعاطب، ولولاهم لكان العطب

٤- القائمون بحمل العرش: كأنهم القوة العامة التي افاضها الله في العالم الكلي، فهي الماسكة له الحافظة لكل جزء منه»^(١) وقد ورد ذكرهم في قوله: «ومنهم الثابتة في الأرضين السفلى اقدمهم، والمرقة من السماء العليا اعناقهم والخارجة من الاقطار اركانهم والمناسبة لقوائم العرش اكتافهم»^(٢).

والتقسيمات الأربعة السابقة لا تعدو كونها تفصيلاً لمجمل ما ورد في القرآن الكريم، صاغه علي عليه السلام بأسلوب تصويري يهدف منه إيقاظ الإيمان في النفوس، دون اللجوء إلى الماروائيات البعيدة عن روح الدين. أما قضية المفاضلة بين الملائكة وآدم، التي أثارت جدلاً واسعاً في أوساط الفقهاء والمتكلمين المسلمين»^(٣)، فلم نجد لها أي صدى فيما أقر عن علي عليه السلام من نصوص في النهج.

أصق بالإنسان من السلامة، كما أنهم من خدمة الجنة، يحفظون ما عهد إليهم، ويوقومون على خدمته.

(١) محمد عبده - شرح النهج ص ٢٨ ط - الأندلس.

(٢) (٢) خطب - ١ - فقرة ٣، والعرش بحسب التأويل كناية «عن العز والسلطان... وعرش الله ما لا يعلمه البشر على الحقيقة الا بالاسم، وليس كما تذهب إليه اوهام العامة فإنه لو كان كذلك لكان حاملاً له تعالى عن ذلك لا محمولاً... وقوله تعالى ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ...﴾ البروج / ١٥)... وما يجري مجراها - قيل هو اشارة إلى ملكه وسلطانه»، الراغب الاصبهاني - المفردات في غريب القرآن ص ٤٩٣ - ٤٩٤ - وعلى هذا المحمل يمكن تأويل العرش عند علي عليه السلام لأنه ينفي عن الله كل الصفات مكانية وزمانية ويمكن استخلاص ذلك مما ورد عند الكليني في اصول الكافي ١٢٩/١ وما بعدها.

(٣) بشأن الملائكة واختلاف الاقوال فيهم وفي خلقهم يراجع - تفسير الرازي ١٧٤/٢ وما بعدها، وقد تطرق إلى الموضوع أيضاً محمد جواد مغنية في تفسير الكاشف ٨٢/١.

ثالثاً - الرسل والأنبياء

عرض علي عليه السلام في كثير من خطبه إلى الرسل والرسالات وقد استحوذ النبي محمد صلى الله عليه وآله على النصيب الأوفى من فكره، وقد ركز على عدة جوانب اعتقادية يمكن حصرها في أربعة هي:

الأولى: أهمية الرسول والمهام المناطة بهم:

يستنتج من كلام علي عليه السلام الذي تناول فيه واجبات الرسل، أن الله سبحانه وتعالى حين خلق الإنسان، واسند إليه خلافة الأرض، أخذ عليه وعلى ذريته ميثاقاً بتوحيده، والايان به، بفطرته التي فطره الله عليها دون حاجة إلى هاد يرشده، وقد اودع الله ذلك الميثاق عقل الإنسان بهدايته إلى التأمل فيما حوله من آيات وامثال وعلامات تدل على عظمة الخالق وقدرته والفكرة - كما نعتقد - تسبق وما ورد في قوله تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ (١). وقد استجاب الإنسان في بداية أمره لذلك الميثاق الإلهي، الا انه سرعان ما استحكمت الشهوات بنفسه، وملكت عليه ملذات الدنيا لُبُّه، فأدار ظهره لذلك الميثاق فنسيه، بمرور الأزمان وتعاقب الأجيال، فكان لا بد من تذكيره، وإقامة الحججة عليه قبل محاسبته، وإيقاع العقاب عليه، ومن أجل ذلك كما يقول علي عليه السلام «بعث (الله) فيهم رسله، وواتر إليهم أنبياءه، ليستأدوهم ميثاق فطرته ويذكروهم منسي

٥٢٠ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

نعمته، ويحتجوا عليهم بالتبليغ، ويشيرون لهم دفائن العقول، ويروهم الآيات المقدره...»^(١) فأهمية الرسل تكمن في تبصير الناس وتذكيرهم بواجباتهم نحو خالقهم سبحانه، فهم هداة البشرية، يتشلون النفوس من برائن الجهل ويأخذون بالأيدي إلى الخير والصلاح والعدل، ويصّرون الناس سبيل الفلاح بإثارة العقل والتأمل في خلق الله.

ولأهمية دور الرسل بالنسبة لهداية الإنسانية في أحقابها المختلفة يرى علي عليه السلام ان الله سبحانه «لم يخل... خلقه من نبي مرسل، أو كتاب منزل، أو حجة لازمة، قائمة»^(٢) فاستمرارية تواتر الرسل في فترات مختلفة لحاجة البشرية إليهم كهداة، من الدعامات الرئيسية التي انبنى عليها فكر علي عليه السلام الاعتقادي، ولأهمية مكانتهم، فقد تطرق علي عليه السلام إلى قضية تنزيههم.

الثاني: تنزيه الأنبياء والرسل:

اسبغ علي عليه السلام على الأنبياء صفات أخلاقية هي الغاية في مثاليتهما - لكونها كما يرى، القدرة المحتدأة، فاختيارهم كهداة للبشرية من لدن الله سبحانه وتعالى، جعله يتعهدهم برعايته ويحيطهم بعنايته، منذ نشأتهم الأولى، وفي ذلك يقول علي عليه السلام «استودعهم في افضل مستودع، واقرهم في خير مستقر، تتناسخهم كرائم الاصلاب، إلى مطهرات الارحام، كلما مضى منهم سلف، قام منهم بدين الله خلف»^(٣) فهم على هذا الحال، منزهون عن كل الدنيا التي تسيء إلى

(١) خطب - فقرة ٥ - ويستأدوهم - يطلبوا منهم أداء الميثاق الذي أخذه الله على آدم من قبل.

(٢) المصدر السابق.

(٣) خطب - ٩٣ - فقرة ٢.

الباب الرابع: القضايا الكلامية والتأملات الكونية كما تبدو في نهج البلاغة..... ٥٢١

اصولهم، محاطون برعاية الأهمية في مختلف اطوار حياتهم التكوينية، فأصلهم معرفة في الكرم وطيب العنصر، يتنقلون في الاجيال حتى يبعثهم الله سبحانه، وتستمر رعايته لهم في الدنيا منذ يوم ولادة كل واحد منهم فيزودهم بأداب الهية، واخلاق قدسية، تقوم الملائكة برعايتها، وتعهداها، وفي ذلك يقول علي عليه السلام بشأن رعاية الله للرسول صلى الله عليه وسلم «لقد قرن الله به صلى الله عليه وسلم من لدن ان كان فطيمًا، أعظم ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم، ومحاسن اخلاق العالم ليله ونهاره»^(١)، وهو ما يمكن ان نطلق عليه تجوزا معنى العصمة، لأن التربية المرعية من قبل الملائكة لا بد ان تحيط صاحبها بسياج من الأخلاق التي تحول بينه وبين مواجهة الخطأ منذ نشأته الأولى وعلى ذلك السبيل يمكن الاعتقاد بقول علي عليه السلام بتنزيه الأنبياء.

الثالث - علاقة الزهد بالنبوة:

إن الأخلاق المتناهية في سموها ومثاليتها، تردع نفوس أولئك النخبة من البشر عن الرضوخ إلى الاهواء والجري وراء اللذات، فالزهد في كل ما هو زائل من نعيم الدنيا من أبرز سمات الأنبياء الأخلاقية كما يرى علي عليه السلام، فموسى عليه السلام «كان يأكل بقلة الأرض، ولقد كانت خضرة البقل ترى من شفيف صفاق بطنه لهزالة وتشذب لحمه»^(٢) كما بلغ الزهد بنبي الله داود إلى درجة انه «كان يعمل سفائف الخوص بيده، ويقول لجلسائه: ايكم يكفيني بيعها ويأكل

(١) خطب - ٢٤٠ - فقرة ٢٦.

(٢) خطب - ١١ فقرة ٦، ٧، ٨، ٩، الصفاق - على وزن كتاب: هو الغشاء الرقيق الذي تحت الجلد،

والتشذب، التفرق.

قرص الشعير من ثمنها»^(١) أما عيسى عليه السلام فقد «كان يتوسد الحجر، ويلبس الخشن ويأكل الجشب»^(٢) أما الرسول صلى الله عليه وسلم فقد «قضم الدنيا قضمًا، ولم يعرها طرفًا، أهضم أهل الدنيا كشحًا، وأخصهم من الدنيا بطنًا»^(٣) وهذا التناهي في الزهد لم يكن - كما يرى علي عليه السلام - تسليماً لأمر واقع، لأنه اختيار فيه تثبيت حقيقة رسالاتهم، وصدق اخلاصهم، لأنه «لو أراد الله سبحانه لأنبيائه حيث بعثهم، ان يفتح لهم كنوز الذهبان ومعادن العقيان، ومغارس الجنان لفعل»^(٤) ولو انه سبحانه هياً لهم كل ذلك النعيم الدنيوي، ومنحهم السلطة والهيمنة على الناس، لبطل الثواب والعقاب، لأنهم سيستخدمون الرهبة والرعبة في تثبيت دعائم رسالاتهم، وهذا يتنافى وجوهر الإيمان الفطري المبني على الاقتناع الذاتي، البعيد عن أية تأثيرات خارجية. فالزهد والقناعة وقوة الإرادة، كل ذلك من دلائل النبوة، كما يرى علي عليه السلام، وفي ذلك يقول ان «الله سبحانه جعل رسله اولي قوة في عزائمهم، وضعفة فيما ترى الاعين من حالاتهم، مع قناعة تملأ القلوب والعيون غنى، وخصاصة تملأ الابصار والاسماع اذى»^(٥).

(١) السابق، والسفائف جمع سفيقة: منسوجات الخوص.

(٢) السابق، والجشب بكسر الشين: الغليظ الخشن.

(٣) السابق، ويقضم يأكل على اطراف اسنانه، أي لم يملأ منها فمه، واهضم على وزن افعل من الهضم، وهو خمص البطن أي خلوها وانطباقتها، والكشح، ما بين الخاصرتين إلى الضلع الخلفي، واهضمهم: اخواهم واخلاهم.

(٤) (٤) خطب ٢٤٠ - فقرة ١١.

(٥) المصدر السابق.

الرابع - المعجزات وأهميتها بالنسبة للرسول:

زود الله سبحانه وتعالى رسله بالإضافة إلى قوة إيمانهم ومثانة اخلاقهم وقدرتهم الخارقة على تحمل المشاق - بالقدرة على الاتيان بأعمال خارقة للعادة، متعذر على الإنسان العادي القيام بمثلها، مهما كانت قوته العقلية، والغاية منها إدهاش النفوس وإثارة العقول وتأكيدا لنبوة أولئك الرسل، وهي وإن ظهرت على أيدي أولئك فإنها خارجة عن حكم طباعهم الإنسانية لأنها مستوحاة من قدرة الله، مما ينأى بها عن معاني السحر وغيرها من امور الشعوذة، فالفرق بين المعجزة على حقيقتها، والسحر بما يغلفه من كذب وزيف ينحصر في وجهين، كما يرى الماوردي^(١).

الأول: ان الشعبذة كذب وزيف وتضليل يمكن للعقلاء كشفه وإظهار زيفه ولا يمكن ان ينظلي الا «على الغر والجهول، فتخالف المعجزة التي تذهل لها العقول».

الثاني: ان الشعبذة والسحر يمكن اكتسابهما بالتعلم والممارسة والمران و«المعجزة مبتكرة لا يتعاطها غير صاحبها ولا يعارضها أحد بمثلها».

واذا ما عدنا لفكر علي عليه السلام لنستفتيه في المعجزة، كدليل من دلائل النبوة، فسنجد انه قد عرض لها بجميع تفاصيلها السابقة، لا على أساس البحث في فحواها، ولكن على أساس روايتها كشاهد لا كفقيه أو متكلم. فبالإضافة إلى معجزة القرآن التي زود الله بها رسوله صلى الله عليه وسلم في مواجهته لتحدي الكفار، فقد ظهرت على يديه معاجز طبيعية واخرى على شكل تنبوءات مستقبلية شاهد

(١) يراجع - اعلام النبوة ص ٢١، ٢٢.

علي عليه السلام قسما منها، ورواها بدقائق تفصيلاتها في مجال حديثه عن علاقته برسول الله ﷺ وتصديقه برسالته، كمعجزة الشجرة واستجابتها لأمر الرسول صلى الله عليه واله وسلم بالانقلاع والانشطار والتحرك^(١) وذلك بناء على طلب الرهط من قريش، تدعيها للقول بنبوته، وكان قبل قوله ﷺ لهم متنبئا بمآلهم، وبما سيقومون به تجاه رسالته من اعمال عدائية «أتؤمنون وتشهدون بالحق، قالوا: نعم، قال: فإني سأريكم ما تطلبون، وإني لأعلم أنكم لا تفيئون إلى خير، وأن فيكم من يطرح في القلب ومن يجزب الأحزاب»^(٢).

فالرسل والرسالات من القضايا التي استحوذت على جانب هام من فكر علي عليه السلام الاعتقادي، الا انه لم يفلسف تلك القضايا في قوالب كلامية لمجرد الجدل، فهو قد آدمج كل ما يتعلق بالأنبياء والرسل من افكار ضمن خطبه ووصاياه، للتذكير بجلال اعمالهم والحض على الاخذ بمنهاجهم والاقداء بسيرهم. وقد يكون فعله ذلك دافعا لاستنباط بعض الجوانب الفلسفية والاخرى الكلامية المتعلقة بالرسل والرسالات.

رابعا - الإنسان

استوعبت قضايا خلق الإنسان ونشأته، ووصف انفعالاته ومصيره، على جزء كبير من فكر علي عليه السلام، وقد عالجها من منظور اسلامي بحت، وذلك تمشيا

(١) راجع خطب - ٢٤٠ فقرة ٢٧،

(٢) المصدر السابق نفسه، ويطرح في القلب - أي يقتل في بدر (٢هـ)، ويعني بالقلب - بئر بدر، ويجزب الاحزاب - أي يجرض اعداء الإسلام ويمدهم بالقوة والمال سعيا في اخماده ويعني بذلك غزوة الاحزاب (٥هـ).

الباب الرابع: القضايا الكلامية والتأملات الكونية كما تبدو في نهج البلاغة..... ٥٢٥
مع منهجه الارشادي كقائد ومرشد، ويمكن استنتاج هذا الجانب من فكره
بتتبعنا النقاط التالية:

أ. خلق الإنسان^(١):

لا يكاد فكر علي عليه السلام يخرج عن المنهج الذي رسمه القرآن الكريم لخلق الإنسان، الا في بعض التفاصيل التي يمكن اعتبارها تفسيرات وتوضيحات لجوانب أجملها القرآن الكريم، منها انه جعل خلق الأرض اسبق من خلق الإنسان كما في قوله «ثم جمع من حزن الأرض وسهلها وعذبها وسبخها تربة سنها بالماء حتى خلصت، ولاطها بالبله حتى لزبت، فجعل منها صورة ذات احناء ووصول واعضاء وفصول، اجمدها حتى استمسكت واصلدها حتى صلصلت لوقت معدود، وامتد معلوم. ثم نفخ فيها من روحه، فتمثلت انسانا ذا اذهان يجيلها، وفكر يتصرف بها، وجوارح يخدمها، وادوات يقلبها، ومعرفة يفرق بها بين الحق والباطل»^(٢) فعلي عليه السلام قد اقتبس كل افكاره من الذكر الحكيم كما استعار أيضاً بعض الفاظه، كما في قوله «سنها بالماء حتى خلصت، ولاطها بالبله حتى لزبت»^(٣) فكثير من الفاظه مستعار من قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾^(٤) وقوله تعالى:

(١) حول قضية ابتداء خلق البشر في رأي فلاسفة المسلمين القدامى وغيرهم من أصحاب الديانات الاخرى يمكن مراجعة - شرح ابن أبي الحديد / ١ / ٣٠ وما بعدها.

(٢) خطب - ١ - فقرة - ٤.

(٣) خطب - ١ - فقرة - ٤.

(٤) الحجر / ٢٦.

﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾^(١) ويمكن الاستنتاج من تقديم علي عليه السلام لخلق الأرض على خلق الإنسان عدة معان، منها ما هو مبني على اختلاط انواع التربة التي خلق الله منها الإنسان وقد بينا جانباً من ذلك فيما سبق^(٢). ومنها ما هو مستخلص من قوله بالوان التربة التي عجت منها طينة الإنسان^(٣)، وهو السبب في تباين الوان الجنس البشري. ومنها ما هو مبني على فكرة خلق الله سبحانه وتعالى البيئة الملائمة لكل مخلوق من مخلوقاته، فالبيئة الصالحة لعيش الإنسان، هي الأرض التي عجن من طينها.

ب. أصل العصية:

إن قصة سجود الملائكة لآدم، بناء على أمر الله، وتمرد إبليس على ذلك الأمر، قد ذكرها القرآن الكريم بتفاصيلها، وقد عزا إبليس عدم امتثاله لأمر السجود، إلى أنه مخلوق من نار فهو افضل من آدم المخلوق من طين، مع ان الله سبحانه لم يقل بالتفريق في حكمه بين خلقه كما يقول علي عليه السلام، فإن «حكمه في أهل السماء، واهل الأرض لواحد»^(٤) لذلك اعتبر قول إبليس بالمفاضلة هو مصدر العصية واصل الحمية التي يمقتها الرب، فإبليس في فكر علي عليه السلام هو «امام المتعصبين، وسلف المستكبرين، الذي وضع أساس العصية»^(٥).

(١) الصافات/ ١١.

(٢) راجع ص ٤٢٢ من هذا البحث.

(٣) راجع المعنى في: خطب ١ - فقرة ٤.

(٤) خطب - ٢٤٠ - فقرة ٥، ٢.

(٥) المصدر السابق.

الباب الرابع: القضايا الكلامية والتأملات الكونية كما تبدو في نهج البلاغة..... ٥٢٧
وتعصبه ذلك جعله يمقت آدم، ويحقد عليه منزلته عند الله، فأغواه وزين له
المعصية فالعناصر الرئيسية للقصة موجودة في القرآن الكريم، إلا أن علياً عليه السلام
قد وظّفها توظيفاً فكرياً فحواه ان العصبية للجنس خارجة عن طبيعة الإنسان
الخيرة وقد اكتسبها من جريه واره اهوائه المتمثلة في إبليس.

ج - إهباط آدم إلى الأرض:

إن ما يمكن استنتاجه من فكر علي عليه السلام، هو أن أمر الله آدم بالنزول إلى
الأرض، لم يكن جزاء الزلة التي اقترفها بمعصيته لله سبحانه، لأنه سبحانه
قد تاب عليه قبل امره بالنزول، وهذا ما يمكن فهمه من قوله: «ثم بسط الله
سبحانه له في توبته، ولقاه كلمة رحمته، ووعدته المرد إلى جنته، وأهبطه إلى دار
البلية وتناسل الذرية»^(١)، وهو التفسير المنطقي السليم لما وورد بشأن ذلك
في القرآن الكريم - كما نعتقد - لا كما قال ابن أبي الحديد «أن ذلك أحد قولي
المفسرين»^(٢) لأنه قد عد الأمر الأول بالإهباط في قوله تعالى:

﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾^(٣) انه
قد حدث قبل التوبة، ولكن الآية الكريمة في سياقها التام، بضمها إلى ما قبلها
توحي بأن لا تناقض بينهما وبين غيرها من الآيات التي قالت بحدوث التوبة
قبل الأمر بالإهباط بدليل قوله تعالى:

﴿فَتَلَقَىٰ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * قُلْنَا

(١) خطب - ١ - فقرة ٤.

(٢) شرح ابن أبي الحديد ١/١٠٢.

(٣) البقرة / ٣٦.

اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا»^(١) وهو على تأويل الفخر الرازي «إن آدم وحواء، لما أتيا الزلّة، أمرا بالهبوط فتابا بعد الأمر بالهبوط. فأعاد الله تعالى الأمر بالهبوط مرة ثانية، ليعلم أن الأمر بالهبوط ما كان جزاء على ارتكاب الزلّة... بل الأمر بالهبوط باق بعد التوبة، لأن الأمر كان تحقيقاً للوعد المتقدم عليه في قوله:

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٢). وعلى هذا فاهباط آدم إلى الأرض - كما يبدو في فكر علي عليه السلام - هو متسق مع فكرته القائلة بخلق الإنسان من مختلف تربة الأرض، لتلائم عيشه في كل بيئاتها المتخلفة، هذا بالإضافة إلى ان نظرة علي عليه السلام المؤمنة لا تتسق والقول: بأن الاهباط إلى الأرض هو لمجرد العقاب، لأن العقاب لا يستحقه الا المذنب ذاته، ولا دخل لذريته ممن لم يرتكب اثما لتشملهم نتيجة الذنب، لأن ذلك يتنافى وعدل الباري الذي مثله قول علي عليه السلام «ارتفع عن ظلم عباده»^(٣)

د- مميزات الإنسان:

يتميز الإنسان في فكر علي عليه السلام بظاهرتين متقابلتين هما القوة والضعف. فهو من ناحية أولى، يعتبره من أقوى مخلوقات الله على وجه الأرض، إذا ما قورنت امكانياته العقلية والجسدية بكل ما في الوجود من خلق، بما في ذلك قوى الطبيعة، ويمكن استخلاص ذلك من قوله «أشد الأشياء الإنسان، لأن أشدها - فيما يرى - الجبل والحديد ينحت الجبل، والنار تأكل الحديد، والماء يطفى النار،

(١) البقرة، ٣٧، ٣٨.

(٢) تفسير الفخر الرازي ٢٨/٣ والآية ضمن المقولة: البقرة/ ٣٠.

(٣) خطب - ٣٣. فقرة - ١.

الباب الرابع: القضايا الكلامية والتأملات الكونية كما تبدو في نهج البلاغة..... ٥٢٩

والسحاب يحمل الماء، والرياح تفرق السحاب، والإنسان يتقي الرياح» (١) أي بإمكانه السيطرة على كل شيء في الطبيعة، وتسخيره لحاجته، وذلك بقوة عقله، ولولا ذلك ما استطاع ان يحافظ على بقاءه عبر العصور المختلفة، وكان مصيره الانقراض، فالقوة بمعناها العام كما نستخلصها من مقولة علي عليه السلام هي حاجة غريزية وضرورية، لإثبات الوجود والمحافظة على بقاء النوع، والتدرج في مراقبي الكمال.

وفي مقابل هذه القوة، فإن الإنسان من الضعف بحيث لا يمكنه دفع غائلة الموت عن نفسه، ليس ادل على ذلك من أن أتفه الأشياء واحقرها تؤثر فيه، وقد تقضي عليه، وفي هذا يقول علي عليه السلام «مسكين ابن آدم، مكتوم الأجل، مكنون العلل، محفوظ العمل، تؤلمه البقة وتقتله الشرقة وتنتنه العرقة» (٢).

وهذا التقابل بين القوة والضعف، ليس خارجا عن طبيعة الإنسان لأنه - كما يرى علي عليه السلام - قد خلق وجوانحه تنطوي على أنواع مختلفة من التضاد العجيب، لأن النفس الإنسانية لا تستقر على حال ولا يرضيها نمط معين من العيش، ويعبر علي عليه السلام عن فكره ذلك بقوله «لقد علّق بنيات هذا الإنسان بضعة هي اعجب ما فيه، وذلك القلب، وله مواد من الحكمة وازداد من خلافها فإن سمح له الرجاء أذله الطمع، وان هاج به الطمع أهلكه الحرص، وان ملكه اليأس قتله الأسى وان عرض له الغضب اشتد به الغيظ، وان اسعده الرضى نسي التحفظ...» (٣) وهكذا، فالنفس الإنسانية في شغل دائم، وجهد مستمر

(١) شرح ابن أبي الحديد ٢٠ / ٢٨٠.

(٢) حكم - ٤٢٧.

(٣) حكم - ١٠٧.

٥٣٠ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

بين أمل ورجاء وحزن وفرح، مع محاولة حثيثة لمعرفة المصير، والجري وراءه في
ذهول أو محاولة التهرب منه بالتغافل عنه ولكن لا بد من موافاته، لأنه القدر
الحتمي كما نستخلص ذلك من فكر علي عليه السلام.

هـ - المصير:

يقول علي عليه السلام ضمن وصيته لابنه الحسن عليه السلام «اعلم يا بني أن أمامك طريقا
ذا مسافة بعيدة، ومشقة شديدة، وأنه لا غنى بك فيه عن حسن الارتداد، وقد
بالغك من الزاد مع خفة الظهر، فلا تحملن على ظهرك فوق طاقتك، فيكون
ثقل ذلك وبالاً عليك»^(١) فالدنيا - كما تبدو في المقولة - معبر مفروض على
الإنسان اجتيازه، وتحمل مشاقه، ولكي يعبره الإنسان دون عناء، ولا مشقة
فمن الواجب عليه ان لا يحمل نفسه فوق طاقتها، وان يتزود من ذلك الطريق
بما يقيم اوده، ويصلح عيشه، تاركا لغيره ان يعيش، فالنهاية حتمية والفرار منها
موافاتها وفي ذلك يقول علي عليه السلام «كل امرئ لاق ما يفر منه في فراراه والاجل
مساق النفس، والهرب منه موافاته»^(٢).

ومعرفة حقيقة الموت بعيدة المنال عن فكر الإنسان العاجز عن معرفة حقيقة
ذاته، فلا مجال اطلاقا للبحث فيها، لأن ذلك لن يوصل إلى أية غاية، ويجسد
فكرته تلك في قوله عن نفسه «كم اطردت الأيام أبحثها عن مكنون هذا الأمر،
فأبى الله، الا اخفاءه! هيهات علم مخزون»^(٣) فالأمر الذي حاول علي عليه السلام

(١) رسائل - ٣١ - فقرة ١٥.

(٢) خطب - ١٤٩ فقرة ١.

(٣) خطب - ١٤٩ فقرة ١، ٢.

الباب الرابع: القضايا الكلامية والتأملات الكونية كما تبدو في نهج البلاغة..... ٥٣١

معرفته هو سر الموت، ولكن فكره بما اشتمل عليه من طاقات علمية عميقة لا حدود لها، قد وقف دون الإحاطة إزاء هذا السر الإلهي، لذا فإن أقل ما يمكن أن يستفيدة المرء من تجربة الموت في حياته هو النظر في الموت ذاته من خلال غيره، وفي ذلك أكبر العظات وأعظمها لو تأمل فيها الإنسان، وتعبيراً عن تلك الفكرة يقول علي عليه السلام وهو في النزاع الأخير قبيل وفاته «إنما كنت جارا جاوركم بدني أيام، وستعقبون مني جثَّ خلاء، ساكنة بعد حراك وصامتة بعد نطق، ليعظكم هدوئي، وخفوت إطراقي، وسكوت أطرافي، فإنه أوعظ للمعتبرين من النطق البليغ والقول المسموع»^(١). فإمعان الفكر والتأمل الواعي هو سبيل الإنسان للوصول إلى الإيمان، وهو ما يمكننا تلمسه في الفصل التالي.

(١) المصدر السابق نفسه.

الفصل الثاني

التأمل وتداعي الأفكار، والغيبيات، كما تبدو في فكر علي عليه السلام

إن قضية الإيمان بالله وتوحيده من أهم المحاور التي دارت حولها الأفكار في النهج، حتى أننا نكاد نلمحها في كل نص من نصوصه، فمن النادر جداً، أن نجد نصاً تخلو مقدمته من تمجيد الله، والحض على شكره ببيان نعمه وأفضاله، إلا أن هناك نصوصاً قائمة بذاتها قد اختصت بمعالجة قضية الإيمان، أودعها علي عليه السلام كثيراً من طاقاته الفكرية التي يرمي من ورائها إلى إبقاء جذوة الإيمان متفقدة، بعد أن كادت تحمد في النفوس جراء انفتاح الإسلام على أفكار الأمم الأخرى، والانشغال بالمادة، والركون إلى البذخ، والابتعاد، في كثير من الأحيان، عن روح النص القرآني، بمحاولة البحث في ذات الله بالجدل، إلى غير ذلك من عوامل استحدثتها ظروف النقلة المفاجئة، وأدت بإيمان الفرد إلى التقهقر. فانبثق لدى علي عليه السلام اقتناع بمعالجة القضية من جذورها بشتى وسائل الاقتناع، من ذلك طرح قضية الإيمان من خلال الحديث المباشر عن الخالق، ونفي الصفات عنه وخلق الملائكة والكون، وأهمية الرسل، وقد عرضنا لذلك

فيما سبق، ومن وسائل المعالجة أيضاً التي أخذ بها، أسلوب إثارة الحواس والفكر نحو التأمل، بإجمال فكرة التوحيد في مقولات عامة، ثم محاولة تقريبها إلى الأذهان بتوظيفها في أمثلة تأملية تقرّبها من ذهن المسلم، فكانت الأوصاف الطبيعية احدى تلك الوسائل

أ. الأوصاف الطبيعية والغاية منها في فكر علي عليه السلام

إن عنوانه الشريف الرضي لبعض خطب النهج بعناوين موضوعات الوصف التي عرض إليها علي عليه السلام لا يعني على الإطلاق، أن علياً عليه السلام قد أورد ذلك الوصف كغاية في حد ذاته، بمعنى آخر أن موضوعات الوصف تلك لا تشكل نصوصاً قائمة بذاتها من حيث بنائها الفني، فهي مدرجة ضمن نصوص دينية الغاية منها التوعوية وترسيخ العقيدة، فاقتطاع تلك الأوصاف من سياقها، يفقدها وظائفها التأملية، لأنها - كما نعتقد - أمثلة عملية تطبيقية الغاية منها تقريب ما أجملته مطالع الخطب التي وردت فيها، من أقوال في التوحيد، إلى اذهان المستمعين، ليتسنى الاقتناع بها، والتأثر بها ورد فيها، باستثارة العقل، فموضوع وصف الطبيعة وبعض الكائنات، من العناصر الهامة لتقريب قضية الإيمان، وهو في النهج من جنس المثل في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة^(١).

(١) مما جاء في القرآن الكريم من وصف للجنة قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنهَارٌ مِنْ حَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ محمد / ١٥، كما ان اوصاف الجنة في الاحاديث المروية عن الرسول ﷺ كثيرة يمكن ادركها من قوله ﷺ: «قال الله عز وجل: اعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» صحيح

فمن خلال ملاحظتنا للبناء المحكم الذي تميزت به نصوص النهج - رغم الحذف الذي أجراه الرضي على كثير منها نرى أن نسيجه الأسلوبى من الترابط بحيث لا يمكن فصل هذا الجانب التأملى من فكر علي عليه السلام، عن البناء العام لفكره، فما انساب في تلك النصوص من اوصاف جمالية، مرتبطة في سياقه العام بالفكر الاجتماعى المتبلور في احد جوانبه بمعالجته لظاهرة تغلب الطابع المادى على الطابع الروحى، الذى على اساسه قاس علي عليه السلام إيمان أفراد المجتمع حين قسمهم من حيث العبادة إلى ثلاثة أقسام ضمنها قوله «أن قوماً عبدوا الله رغبة فتلک عبادة التجار، وإن قوماً عبدوا الله رهبة فتلک عبادة العبيد، وان قوماً عبدوا الله شكراً فتلک عبادة الأحرار»^(١) فالتقسيم في المقولة يعكس من أحد جوانبه الحالة الاجتماعية وعلاقتها بالتطلعات المادية، وهذا ما يمكن تطبيقه - من وجهة نظرنا - على ما ورد من أوصاف جمالية ضمن نصوصها التي وردت في سياقاتها، الغاية من روائها التأمل في أقرب الأشياء، وأحقر الأشياء، وأعجب الأشياء، ليصل العقل في النهاية إلى إدراك الخالق العظيم من خلالها. فالثلاث فئات التي ذكرها علي عليه السلام في مقولته تعبد الله ولكن بتفاوت. تحكمه ظروف المستمع النفسية التي ترجع في الأساس إلى الطبيعة التي جبل عليها كل فرد، ولا بد من التحدث إليه ضمن الفئة التي ينتمي إليها بالأسلوب الذي يناسبه وإلا فلا جدوى من التحدث إليه، فقد عالج علي عليه السلام قضية الإيمان من أجدى زواياها بأسلوب التوصيل الذي يصلح لإقناع كل فئة على حدة، ويمكن إدراك أساليبه تلك من تبعا لما عرض إليه من أوصاف جمالية في سياقاتها:

أولاً- أسلوب الترغيب (عبادة التجار):

جبلت النفس الإنسانية على حب الذات والجري وراء كل ما فيه متعة ولذة وجمال فهي عادة ما تنبسط وتستجيب إذا ما أحست بما يدفعها نحو راحتها ويثير فيها كوامن الحوافز نحو هدفها، وكلما نجحت في الحصول على ما تشتتهي سعى بها ذلك إلى طلب المزيد، ومن ورائها الدافع المنطوي على المغريات يحثها فالترغيب في الشيء البعيد المثال هو حافز طبيعي للإنسان يجري وراءه، ويثابر في الحصول عليه، لذلك ورد مثل ذلك الأسلوب الترغيبي ضمن آيات كثيرة في القرآن الكريم بتصوير الجنة، وما يحف بها من حدائق غناء تجري خلالها انهار من خمر وعسل ولبن^(١)، إلى غير ذلك من مغريات مادية تجعل الفرد يستجيب لنداء ربه عن طريق الترغيب، وقد ورد مثل ذلك أيضاً ضمن كثير من الأحاديث النبوية الشريفة وقد انعكس هذا الأسلوب الترغيبي على ما أثر عن علي عليه السلام من خطب، فمن أبرز النصوص التي تجلّي فيها عنصر الترغيب، الخطبة التي ضمنها وصف الطيور عامة، والطاووس منها على وجه الخصوص لما في خلقه من ابداعات تجتذب النفوس وتحير العقول، وفي اعتقادنا، ان اختيار علي عليه السلام الطاووس كمثال دون غيره من الطيور ذوات الألوان الزاهية، هو غاية في التوفيق، خاصة أنه ركز على الناحية الجمالية فيه، بوصف ألوانه وصفاً رائعاً ودقيقاً من أجل تهيئة النفوس، وإعداد العقول لموضوع الإيمان الذي من أجله أورد علي عليه السلام ذلك الوصف، الذي استفرد فيه كل ما أمكنه من طاقات لغوية، مستلهاً معاني القرآن الكريم مستنجداً بأساليبه ليستجيب ذلك المثل لما يرمي إليه من أهداف دينية. مع ملاحظة أن الخطبة التي نحن بصدددها ليست بكاملة،

(١) أنظر في القرآن الكريم - محمد/ ١٥.

الباب الرابع: القضايا الكلامية والتأملات الكونية كما تبدو في نهج البلاغة ٥٣٧

لأنها لم تبدأ بالتحميد والصلاة على الرسول ﷺ، حيث ابتدأت بالوصف مباشرة إذ جاء في مطلعها «إبتدعهم خلقا جديدا من حيوان وموات، وساكن وذوي حركات، واقام من شواهد البيئات على لطيف صنعته وعظيم قدرته»^(١) فمطلع النص ناقص من حيث استيحائه للفكرة القائم عليها، والتي تبدو ومعالمها من خلال السياق الترغيبى المتمثل في أسلوب الاستدراج المرحلي، من وصف عام للطيور مع تركيز على اشكالها، وعجيب ألوانها بأسلوب يدعو إلى التأمل كما في قوله «ونعقت في اسماعنا دلائله على وحدانيته وما ذرا من مختلف صور الأطيوار التي اسكنها أخاديد الأرض وخروق فجاجها، ورواسي أعلامها، من ذوات أجنحة مختلفة وهيئات متباينة... كونها بعد إذ لم تكن في عجائب صور ظاهرة... ونسقتها على اختلافها في الأصابع بلطيف قدرته، ودقيق صنعته، فمنها مغموس في قالب لون لا يشوبه غير لون ما غمس فيه...»^(٢) ثم يمضي في أسلوب الاستدراج بعد الوصف العام إلى تخصيص الوصف في الطاووس مركزا على عجيب شكله، وجمال ألوانه مفتتحاً ذلك الوصف بقوله «ومن أعجبها خلقا الطاووس، الذي أقامه في أحسن تعديل، ونضد ألوانه في أحسن تنضيد بجناح أشرح قصبه، وذناب أطال مسحبه، إذا درج إلى الأثنى نشره من طيه وسما مطلا به على رأسه»^(٣) ويمضي في وصف حركاته، وإبداع الخالق في

(١) خطب - ١٦٦ - الفقرة ١ .

(٢) السابق وذرا: خلق، وأخاديد - جمع أخدود: الشق في الأرض، والخروق: الأرض الواسعة تخترق فيها الرياح، والفجاج - جمع فج: الطريق الواسع، والاعلام: جمع علم وهو الجبل، ونسقتها: رتبها، والأصابع، مفردة صبغ وهو اللون وما يصبغ به.

(٣) السابق، نضد: نظم ورتب، واشرح قصبه، أي داخل بين آحاده ونظمها على اختلافها في الطول والقصر، إذا درج إلى أثناه: إذا مشى إليها نشر ذلك الذنب بعد أن كان مطويا يسحبه لطوله.

تنسيق ألوانه، مستلها البيئة في تشبيهاته، حتى إذا أحس بانشداد مستمعه إليه بعد ان أخذه في رحلة تأملية عاد به إلى الواقع المرجو من كل ذلك الوصف في قوله «فسبحان الذي بهر العقول عن وصف خلق جلاه للعيون، فأدر كته محدود ومؤلفا ملونا، وأعجز الألسن عن تليخيص صفته، وقعد بها عن تأدية نعتة» (١).

ثم يستطرد في تسييحه مستعرضا في عجالة خاطفة خلق أصناف أنواع أخرى من الحيوان، حتى إذا أحس من مستمعه الاقتناع الممزوج بالتأمل، دخل به إلى غرضه الرئيسي، وهو الإيثار عن طريق الترغيب بعد ان هيا نفسه إلى ما يريد بثه فيها متابعا نهجه الاستدراجي التأملي وذلك بالانتقال إلى وصف الجنة في قوله «فلو رميت ببصر قلبك نحو ما يوصف لك منها، لعزفت نفسك عن بدائع ما أخرج إلى الدنيا من شهواتها ولذاتها وزخارفها، ولذهلت بالفكر في اصطفاق أشجار غيبت عروقها في كئيب المسك على سواحل أنهارها، وفي تعليق كبائس اللؤلؤ الرطب في عساليجها وأفنانها، وطلوع تلك الثمار مختلفة في غلف أكمامها...» (٢) كل ذلك أعده الله سبحانه كما يقول علي عليه السلام: «لم تزل الكرامة تتهادى بهم حتى حلوا دار القرار، وآمنوا نقلة الأسفار، فلو شغلت قلبك أيها المستمع بالوصول إلى ما يهجم عليك من تلك المناظر المؤنقة، لزهقت

(١) المصدر السابق نفسه. بهر العقول: قهرها وردها، جلاله - بتشديد اللام وفتحها: كشفه.

(٢) السابق - فقرة ٥. وعزفت: نبذت وكرهت، اصطفاقي الأشجار: حفيفها، والكئيب: جمع كئيب:

التل، عساليجها - جمع تكسير مفردة عسليج بضم فسكون فضم، أو عسلوج: وهو الغصن اللدن

الناعم، أفنانها - جمع تكسير مفردة فنن: الغصن، وغلف - بضمين جمع غلاف - هو الوعاء النباتي

الذي يحفظ طلع النخلة فيها، والإكمام - جمع كم بكسر الكاف - وهو غطاء النوار، والمؤنقة:

المعجبة.

الباب الرابع: القضايا الكلامية والتأملات الكونية كما تبدو في نهج البلاغة..... ٥٣٩

نفسك شوقاً إليها، ولتحملت من مجلبي هذا إلى محاورة أهل القبور استعجالاً بها. جعلنا الله وإياكم ممن يسعى بقلبه إلى منازل الأبرار برحمته»^(١)، فالرحلة التأميلية التي أخذ علي عليه السلام بلب مستمعه إليها جذابة ومغرية، والوصف كان محوراً والنفس الطامعة في نعيم الله كانت الجائلة في ربوعها، ونعيم الفردوس هو جزاء تلك النفس على إيمانها لله.

ثانياً - أسلوب الترهيب (عبادة العبيد):

استنار علي عليه السلام بهدي القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة في توظيفه وصف بعض مخلوقات الله كأمثلة ضمن أساليب الترهيب التي حاول من خلالها دحض مزاعم من انكر وجود الخالق، وكفر بنعمه العميمة، وقد تجل ذلك بوضوح في خطبته التي ضمنها وصف النملة والجرادة ومخلوقات أخرى، وقد وظف ذلك الوصف - لغرضه الترهيب - توظيفا محكما، يتعذر معه فصله عن سياقه، وتشريجه كجزء منفرد، بتركيز الضوء على ما فيه من دقة متناهية لأن هذا الوصف لم يكن مقصوداً لذاته، ثم ان تميزه بالجمال والشمولية، يمنح السياق الذي ادرج فيه بعداً تأملياً، القصد منه هز النفوس بجعلها تجنح إلى التفكير في المصير من خلال امعان النظر فيما اودعه الخالق في هذا الكون من ابداع يحار منه العقل وتذهل له النفس، فساق في جادة الإيمان متحاشية العذاب، ومقرة بالربوبية.

فبعد تحميد الله، وتنزيه ذاته عن كل الصفات العقلية المتخيلة، وبعد الصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم، وذكر بعض فضائله، يدخل علي عليه السلام في موضوع الوصف، بعد ان يقدم له بمقدمة مقتضبة، يمكن اعتبارها الحمة الرابطة بين فكرة التوحيد التي

(١) المصدر السابق نفسه.

وردت في الصدر، وبين الوصف التالي لها إذ يكمن ما أجمله سابقاً ويريد عرضه لاحقاً بضرب الامثلة التي تثبت صحة فكره وتعضده من الناحية الإقناعية فيقول «ولو فكروا في عظيم القدرة، وجميم النعمة لرجعوا إلى الطريق، وخافوا عذاب الحريق، ولكن القلوب عليلة، والبصائر مدخولة، الا ينظرون إلى صغير ما خلق»^(١)، ثم يباشر بالدخول في وصف جسم النملة واستشعاراتها، وحركتها في جريها وراء تحصيل رزقها في أوقات تدرك بقدرة من الله أوانها، فتعمل جاهدة في جمع قوتها وادخاره لفصول يتعذر فيها العمل^(٢)، ثم ينتقل إلى مقارنة سريعة بين النملة في صغر حجمها وبين النخلة في كبر حجمها وهيئتها وشكلها، دون الدخول في تفاصيل جزئية، لأنه يرمي من وراء ذلك اطلاق العقل لتأمل التفاصيل وكشفها بمفرده، وفي ذلك يقول «ولو ضربت في مذاهب فكرك لتبلغ غاياته، ما دلتك الدلالة الا على أن فاطر النملة هو فاطر النخلة لدقيق تفصيل كل شيء وغامض اختلاف كل حي، وما الجليل واللطيف، والثقل، والخفيف، والقوي والضعيف في خلقه الا سواء»^(٣).

إلا أن الاضطراب سرعان ما يسود فقرات الوصف، حين يتقدم وصف الكون على وصف الجراد، مع ملاحظة أن الترتيب المنطقي للأفكار يحتم الانتقال من العام إلى الخاص، كما عهدنا ذلك في الخطبة التي حوت وصف الطاووس، أو من الصغير إلى الكبير بالتدرج، ونعتقد أن هذا التقديم والتأخير في ترتيب الأفكار ضمن كثير من نصوص النهج لم يكن من فعل علي عليه السلام لأنه لا يتناسب

(١) خطب - ٢٣٣ فقرة ٣ ومدخولة - معيبة.

(٢) راجع السابق - نفس الفقرة.

(٣) راجع السابق.

الباب الرابع: القضايا الكلامية والتأملات الكونية كما تبدو في نهج البلاغة ٥٤١

والتسلسل الفكري الذي عهدناه فيما وصلنا عنه من خطب ورسائل ووصايا متكاملة البناء^(١)، مع ترجيحنا ان ذلك من فعل جامع النهج، الذي أشار في مقدمته إلى مثل ذلك الأسلوب في تنسيق المادة^(٢) لتتفق ومنهجه الانتقائي.

فالجرادة هي المثل الثاني الذي عرض علي عليه السلام إلى وصفه للتدليل على قدرة الله وعظمته، وقد ضمنه - فيما نعتقد - نوعا من عقاب الله المبطن في وصفه لما تحدثه الجرادة في الزرع من دمار، ووقوف الإنسانية إزاء ذلك المخلوق الصغير مكتوفة الأيدي، وهو مجرد اعتبار وتأمل، في نوعية العذاب الذي يمكن لله صبه على من يجحد نعمه، مهيباً لذلك أتفه الأسباب واحقرها، ويمكن استخلاص ذلك من قوله «يرهبها الزراع في زرعهم، لا يستطيعون ذهابها ولو أجلبوا بجمعهم، ترد الحرت في نزواتها وتقضي منه شهواتها، وخلقها كله لا يكون إصبعا مستدقة»^(٣).

ويلى وصف الجرادة والحديث عنها، حديثه عن السماء والكون وذلك في عجالة تأملية غايته منها بثّ الرهبة والخوف في نفوس مستمعيه من غضب الله وعذابه ونقمته بانياً حديثه على قاعدة متينة من الإيثار العقلي الممزوج بما يناسب المخاطب من تهديد ووعيد، لإنكاره وجود الخالق، مع أن الشواهد الكونية من حوله لو تأملها بعين عقله، واستلهم مكوناتها ببصيرته دون أية مكابرة لتوصل إلى فكرة الخالق الواحد، وفي ذلك يقول علي عليه السلام «فالويل لمن أنكر المقدر، وجحد المدبر، زعموا أنهم كالنبات ما لهم زارع، ولا لاختلاف

(١) راجع على سبيل المثال - خطب ٣، ٢٤٠ ورسائل - ٣١، ٥٣.

(٢) راجع ص ٣٨، ١٢٣ وما بعدها من هذا البحث، فقد عرضنا لذلك بالتفصيل.

(٣) خطب - ٢٣٣ - فقرة ٥، وذها: دفعها، ونزواتها - وثباها ونزا على الشيء وثب عليه.

صورههم صانع، ولم يلجأوا إلى حجة فيما ادعوا، ولا تحقيق لما ادعوا. وهل يكون بناء من غير بان، أو جنانية من غير جان»^(١) وبهذا يصل علي عليه السلام بالوصف إلى غايته المطلوبة، بزرع الخشية في النفوس لتجنبيها مغبة الانزلاق في مهاوي الكفر بكفرانها الخالق وجحود نعمه.

ثالثاً - أسلوب الإقناع الذاتي (عبادة الأحرار):

من ناحية ثالثة، وفي سياق التوعية إلى وجود الخالق سبحانه، ونفي الصفات عنه وتوحيده، اتبع علي عليه السلام أسلوب الوصف كعامل ايقاظ للفكر بتأمل الكون، ولكنه لم يقرن ذلك الوصف بأي عامل ترغيبي أو ترهيب، لأنه في هذا الجانب يتحدث إلى عقول تواقفة إلى المعرفة من أجل المعرفة لذاتها، فالتأمل في مثل حالات أولئك يحتاج إلى المثير العقلي الذي يدهش، وهو في الوقت نفسه قريب من تناول الفكر، وقد وجد علي عليه السلام في توظيف وصف الخفافش لمثل تلك الشريحة الإنسانية بغيته، لأن خلقه يدعو إلى التأمل ويثير الاستغراب، فتصرفاته تختلف في شكلها وطبيعتها عن بقية مخلوقات الله الأخرى الموجودة في الكون وتحت نظر المخاطبين.

فبعد الحمد له والقول بعجز العقول عن وصفه، وادراك كنهه ينتقل علي عليه السلام إلى فقرة ثانية يسترسل فيها بالحديث عن عظمته جل شأنه يبدوها بقوله «هو الله الحق المبين، احق واين مما ترى العيون، لم تبلغه العقول بتحديد فيكون مشبها، ولم تقع عليه الاوهام بتقدير فيكون ممثلاً»^(٢) ويمضي في أساليب التنزيه تلك

(١) المصدر السابق نفسه، ولم يلجأوا: لم يستندوا، وادعوا: حفظوا.

(٢) خطب - ١٥٥ - فقرة ٢.

الباب الرابع: القضايا الكلامية والتأملات الكونية كما تبدو في نهج البلاغة..... ٥٤٣
حتى يبلغ الغاية في شد الأفكار إليه بالتأمل في فحوى المعاني القدسية المطلقة،
إلى أن يصل إلى قضية الخلق، ذلك المشكل الذي استعصى على العقل البشري
إدراكه ومعرفة سره، مدججاً إياه في البناء الفكري لموضوع التوحيد، مبنيًا ضمن
ذلك القدرة الربانية في خلق الأشياء بلا نماذج تماثلها، دون استعانة بفكر
يتأملها ولا معاونة من شريك يقاسم الخالق في فطرتها «فتم خلقه بأمره، وأذعن
لطاعته، وأجاب ولم يدافع، وانقاد ولم ينازع»^(١).

وحتّى للعقول نحو التأمل، ينزل عليّ عليه السلام بمستمعه من المطلق إلى الواقع
متخذًا من عجائب خلق الخفاش مثلاً على القدرة الربانية، وتتمثل جوانب
الاستثارة والاستغراب في خلق هذه الحيوانات كما يرى عليّ عليه السلام:

١- أنها لا تتمكن من الطيران والسعي وراء رزقها الا في المساء عند غروب
الشمس، بعكس مخلوقات الله الاخرى خاتماً بهذه الفكرة بقوله «فسبحان م
جعل الليل لها نهاراً ومعاشاً والنهار سكناً وقراراً»^(٢)

٢- وأن هذه الخفافيش يمكنها الطيران مثلها في ذلك مثل بقية خلق الله من
الطيور ولكن أجنحتها كما يصفها عليّ عليه السلام «من لحمها تعرج بها عند الحاجة إلى
الطيران كأنها شظايا الأذان»^(٣) فهي ليست برقيقة ولا غليظة ومترابطة فيما بينها
بعروق رقيقة، وهي ليست مكونة من ريش، فهي لا تحتاج في طيرانها إلى قوادم
وخواف.

٣- ومن العجيب في خلقها أيضاً كما يقول عليّ عليه السلام إنها «تطير وولدها

(١) خطب - ١٥٥ - الفقرات، ٣.

(٢) المصدر السابق فقرة ٢.

(٣) المصدر السابق.

لاصق بها، لاجئ إليها، يقع إذا وقعت، ويرتفع إذا ارتفعت، لا يفارقها حتى تشتد أركانها، ويحمله للنهوض على جناحه، ويعرف مذاهب عيشه ومصالح نفسه» (١).

وبعد رحلة التأمل تلك من خلال وصف عجيب خلق الخفاش، يعود علي عليه السلام بمستמעه إلى موضوع الإيمان الذي هو بصدد محاوره العقول في فحواه، وكأنه يريد ان يقول لمستמעه من خلال ما عرض له من وصف، انك متى أنعمت النظر فيما حولك، وتأملت بقلب واع الكون وما فيه من كائنات، لا بد ان تصل إلى الإيمان الفطري بعظمة الخالق وتوحيده.

فالإيمان هو القضية الكبرى التي عاجلها علي عليه السلام بمختلف الأساليب الفكرية، فكان الوصف والتأمل أحد تلك الأساليب.

فقضية الإيمان كجانب فكري رئيسي يجب أن ينظر إليها في النهج في اطارها المتكامل، والوصف جزء متمم لها، أو بعبارة أوضح، موظف توظيفاً محكماً لإضاءة الجوانب الفكرية في النص. هذا بالإضافة إلى جانب ثان يتمثل في تداعي الأفكار في تفسير الآيات القرآنية الذي يمكن عده رافد فكرياً آخر من روافد معالجة قضية الإيمان في فكر علي عليه السلام.

ب - تداعي الأفكار في تفسير آيات القرآن الكريم

المتعلقة بمعاني الحياة والموت والإيمان

تكاد معظم كتب الرجال التي ترجمت لعلي عليه السلام تجمع على القول بغزارة

الباب الرابع: القضايا الكلامية والتأملات الكونية كما تبدو في نهج البلاغة..... ٥٤٥

علمية في مجال الفقه والفرائض والقضاء والتفسير^(١)، فما يروى عن ابن عباس في ذلك قوله «قسم علم الناس خمسة أجزاء فكان لعلي عليه السلام منها أربعة أجزاء ولسائر الناس جزء وشاركهم علي عليه السلام في الجزء فكان أعلمهم»^(٢) وفي مجال علوم القرآن يقول علي عليه السلام عن نفسه «والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيم أنزلت وأين أنزلت»^(٣)، كما يرى الشيعة أنه أول من صنف في التفسير^(٤)، وقد حفظ لنا نهج البلاغة ثلاثة نصوص في التفسير هي:

١- ما قاله بعد تلاوته: ﴿أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾^(٥).

٢- ما قاله عند تلاوته: «يسبح له فيها بالغدو والاصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله»^(٦).

٣- ما قاله عند تلاوته: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ رَبِّكَ الْكَرِيمَ﴾^(٧).

ويمكن عد استرسال علي عليه السلام في التعليق على تلك الآيات، نموذجاً من نماذج تفسيره للآيات المتعلقة بالجانب التأملي المنطوي على معاني الإيمان والحياة والموت، والمبني في أساسه على الأساليب البيانية التي تعتمد إلى تفتيق المعاني،

(١) راجع سبط بن الجوزي - تذكرة الخواص ص ٥١ - الكنجي - كفاية الطالب ص ١٧٩ المحب الطبري - ذخائر العقبى ص ٧٧.

(٢) ابن عساکر - ترجمة الإمام علي عليه السلام من تاريخ دمشق ٣ / ٤٥ - بتحقيق محمد باقر المحمودي.

(٣) أبو نعيم الحافظ - حلية الأولياء ١ / ٦٨ وجاء مثله عند ابن عبد البر - الاستيعاب بهامش الإصابة ٣ / ٤٣.

(٤) راجع: حسن الصدر - تأسيس الشيعة لفنون الإسلام ص ٣١٦ وما بعدها.

(٥) خطب - ٢١٨ والآية من سورة التكاثر / ١، ٢.

(٦) خطب - ٢١٩ - والآية من سورة النور / ٣٦، ٣٧.

(٧) خطب - ٢٢٠ - والآية من سورة الانفطار / ٦.

وتجسيدها في صور تطلق للفكر العنان لينساح في سباحات دينية تتناسب وما يكمن في الآيات المفسرة من تعبيرات عميقة. وعلي عليه السلام حين يتناول هذا الجانب القرآني بالتحليل لا يقف عند حدود المعاني القاموسية بل يضرب بفكره في اعماق الكلمة، متأملاً طاقاتها شاحداً ايها كي تستجيب للمعاني التي يريد من خلالها تجسيد كل ما يهز الاعماق ويثير الاحساس ويطلق للعقل عنان التفكير فيما وراء المحسوس ويكفي ان تأخذ الآية الأولى كنموذج لذلك النوع من التفسير التأملي.

فكلمة المقابر وعلاقتها بالبشر في قوله تعالى:

﴿الْهَآكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾^(١) لم تقصر على المعنى الظاهر للموت، بل سلكت ايجاءاتها تأملاً عميقاً في معنى الحياة، واستبطاناً في فحوى الموت، لتجسد ما تزخر به الآية الكريمة من طاقات معنوية تسلك طريقها إلى النفوس، وتوقظ الاحساس بسيطرة أساليب الانشاء على النص التفسيري، حين ورد التعجب في صدره ليلقي بالمستمع في بحر متلاطم من الاستغراب الذي يشد الانتباه، ويجذب الاسماع ويطلق للعقول عنان التأمل كما في قوله بعد عرض الآية على الاسماع مباشرة «يا له مرمماً ما أبعد وزوراً ما أغفله، وخطوا ما أقطعه، لقد استحلوا منهم أي مذكر، وتناوشوهم من مكان بعيد»^(٢)، فقد بنى علي عليه السلام السياق الفكري لمطلع التفسير على مقولة فحواها عدم جدوى فخر الأحياء بأسلافهم من الموتى، والتخلي عما استطعموه من أفعال وآثار خلفوها ورائهم، والأجدى لأولئك الأحياء التأمل في حالهم ومآل مصيرهم، بالاتخاذ

(١) التكاثر / ١، ٢.

(٢) خطب - ٢١٨ - فقرة ١.

الباب الرابع: القضايا الكلامية والتأملات الكونية كما تبدو في نهج البلاغة..... ٥٤٧

من حال أولئك الموتى في مقرهم الابدي عظام وعبر، وتمكنهم من تلافي ما فرط منهم من اعمال لا يرضاها الله قبل مباغته الموت لهم.

فالتقريع على تفريط الفرد فيما وهبه الله من نعم مقابل الإيمان، والتباهي بعصبيية الأنساب والأصول هو المعنى العام للآية، إلا أن علياً عليه السلام لا يكتفي بذلك المعنى حين يقرر بأسلوب تأملي مناسب، أن لا جدوى من التفاخر بالأنساب من خلال أولئك الموتى، ولا طائل من التباهي بما خلفوه من آثار تركوها بعد فراقهم، لأن الأجدى من وجهة نظره «لأن يكونوا عبراً من أن يكونوا مفتخراً»^(١).

ومن خلال عبارات تأملية تتداعى أفكار علي عليه السلام لتأخر بالباب مستمعيه في رحلة استبطانه عبر المقابر ليستنطقها حال أولئك المفتخر بهم من الموتى وعلاقتهم الحقيقية بأولئك الذين يفتخرون بهم، فتجيب قائلة «ذهبوا في الأرض ضلالاً، وذهبتم في أعقابهم جهالاً، تطأون في هامهم، وتستثبتون من أجسامهم، وترتعون فيما لفظوا، وتسكنون فيما خربوا، وإنما الأيام بينكم وبينهم بواك ونوائح»^(٢) فالتصاعد الأسلوبي يصل بالتأمل إلى ذروته حين ينتقل علي عليه السلام بفكره، من استنطاق الجهاد إلى تصوير رحلة الموت الرهيبة في بطن الأرض، حيث تعبت الدود في أجساد لتوها قد أودعت التراب، وأخرى محا معالمها التراب، وهتكها البلى، بتقادم العهد عليها، بحيث يعجز الفكر عن

(١) راجع السابق.

(٢) خطب - ٢١٨ - فقرة - ١.

والضلال - بضم الضاد وتشديد اللام وفتحها - جمع ضال - أي ضائع وتائه غير مهتد. وتطأون هامهم: تدرسون وتمشون عن رؤوسهم، والهام - جمع هامة أعلى الرأس، وتستثبتون من أجسادهم أي تبنون وتنشؤون من تراب أجسادهم، وترتعون فيما لفظوا: أي تأكلوه وتتلاذذون بما طرحوه وخلفوه.

شرح معاني الموت في رحلته التأملية الطويلة كما صورها فكر علي عليه السلام.

على أن علياً عليه السلام لا يترك مستمعه وحيدا في خضم تأملاته العميقة تلك دون ان يشركه في تصوره للموتى في قبورهم في قوله «فلو مثلتهم بعقلك، أو كشف عنهم محجوب الغطاء لك، وقد ارتسخت اسماعهم بالهوام فاستكت، واكتحلت أبصارهم بالتراب فحُسفت، وتقطعت الألسنة في أفواههم بعد ذلاقتها... لرأيت أشجان قلوب، وأقذاء عيون، لهم في كل فضاة صفة حال لا تنتقل، وغمرة لا تنجلي، فكم أكلت الأرض من عزيز جسد، وأنيق لون...»^(١) فالحال قد تبدل، والسعي الدؤوب وراء مقتنيات الدنيا قد توقف، والجمال قد تشوه، وقد ران الهدوء الأبدي على كل شيء من حولهم، فلم تعد العواطف توقظهم ولا تغير الأجواء يمللمهم من سباتهم العميق، فلا جديد يغير من حالاتهم في مقامهم الأدبي حتى يوم يبعثون.

على أن استرسال علي عليه السلام في تصور حال الموتى في قبورهم من خلال تداعي معاني الآية الكريمة، هو امتداد لدورة الحياة المستمرة كما تصورها فكره، فالبدائية والنهاية متعاقبتان في دورة مستمرة لا تتوقف، ويمكن للمتأمل أن ينظر إليهما في تعاقبهما من أية زاوية يشاء، لذلك لم يتقيد في عرضه للحياة والموت، بالترتيب العقلي المتصور، حين بدا تفسيره بأسلوب التقريع عن طريق اثاره مستمعه من خلال أساليب التعجب التأملية المتعاقبة تلا ذلك باستنطاق الأرض عن حالها

(١) السابق - فقرة - ٤ - وارتسخت، مبالغة في الرسخ أي نضوب مستودع قوة السمع، وذهاب مادته بفعل عوثر الديدان والهوام فيه، واستكت الأذن: صمخت، وحسفت العين: أي انفقأت وتشوهت بفعل التراب وذلاقة اللسن: قوة نطقها.

الباب الرابع: القضايا الكلامية والتأملات الكونية كما تبدو في نهج البلاغة..... ٥٤٩

إزاء الموتى، ثم بوصف الموتى في أجدانهم، وأثناء عبورهم البرزخ^(١)، خاتماً تأملاته الفكرية في معاني الآية الكريمة بوصف بداية نهاية الإنسان وما يعتبر من أوصاب وعلل ونكسات صحية تتلوها سكرات الموت ومن ثم الفراق الأبدي فيقول عليه السلام في خاتمة ذلك «فبينما هو كذلك على جناح من فراق الدنيا، وترك الأحبة، إذ عرض له عارض من غصصه، فتحيرت نوافذ فطنته، وييست رطوبة لسانه، فكم من مهم من جوابه عرفه فعيي عن رده ودعاء مولم بقلبه سمعه فتصام عنه! من كبير كان يعظمه أو صغير كان يرحمه»^(٢). فتفسير علي عليه السلام هذه الجوانب الماورائية وربطها بالواقع، لم يعد مجرد توضيح المعاني من خلال شرح مقتضب، فقد استحال إلى طاقات من المعاني الإيحائية الموجهة توجيهها فكرياً عمقياً وواعياً، الهدف منها ايقاظ حس الإنسان بالتحديث إلى نفسه لزرع الإيمان والخشية في اعماقها، والأخذ بيده إلى الصلاح والخير عن طواعية واقتناع. ولو تأملنا في تفسيره للآيتين الأخريين لوجدنا أنها لا تتعدان في مهجها الفكري عما

(١) وردت كلمة البرزخ عند علي عليه السلام ضمن التفسير في قوله عن الموتى انهم «سلكوا في بطون البرزخ سبيلا سلطت الأرض عليهم فيه» وقد فسر ابن أبي الحديد البرزخ بتفسيرين: بمعنى القبر، وما بين الدنيا والآخره من وقت الموت إلى البعث شرح النهج ١١/١٤٥، أما ميشم فقد أخذ بالمعنى الثاني المتمثل فيما بين الدنيا والآخره من وقت الموت إلى البعث. شرح ميشم ٤/٥٩ ورجح المعنى الثاني أيضاً الخوئي في منهاج البراعة ١٤/٢١٧، ٢١٨. وأخذ كل من محمد عبده في شرحه ص ٤١٦ ط الأندلس، ومحمد جواد مغنية. في ظلال النهج ٣/٢٨٩ المعنى الأول المتمثل في القبور، ونحن نرجح ان معنى البرزخ هو ما أخذ به كل من ميشم والخوئي وهو المدة الزمنية التي يقطعها الميت بين وفاته حتى يوم بعثه على اعتبار قول علي عليه السلام سلكوا والسلوك معناه المشي، ولو أنه عنى القبر لقال سلكوا بطون البرازخ بصيغة الجمع ليتفق مع الفعل سلكوا.

(٢) خطب - ٢١٨ - فقرة ٤ في نهايتها، ونوافذ فطنته: افكاره الصائبة وعي: عجز.

أورده فيما عرضنا له إلا بالقدر المؤدي إلى الغاية الأساسية التي يتوجه بها النص القرآني من معانٍ إيجابية، حيث تكون الآية هي المنطلق للتعبير الفكري عن معاني الإيمان والحياة والموت والعقيدة وغير ذلك من موضوعات تأملية أخرى. هذا وقد عرضت نصوص النهج - من ناحية ثالثة - إلى عدة قضايا غيبية، كالحديث عن مصير الخوارج مستقبلاً^(١) والفتنة التي سيحدثها الأمويون^(٢)، وما ستصير إليه البصرة^(٣)، وما سيؤول إليه الوضع الإسلامي على أيدي الترك وغيرهم^(٤)، إلى غير ذلك من تنبؤات، يجدر الوقوف على حقيقتها من وجهة نظر علي عليه السلام.

ج - القضايا الغيبية في فكر علي عليه السلام

إن الإيمان بالغيب هو من صلب العقيدة الإسلامية وهو من المسلمات التي لا تقبل الجدل كما في قوله تعالى في وصف المؤمنين حقيقة:

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾^(٥).

والمقصود بالغيب، كما نفهمه هو كل ما لا يمكن للحواس معرفته، ولا للتجارب الوصول إلى غايته، «فالإيمان بالغيب هو الاعتقاد بوجود وراء المحسوس»^(٦) وعلم الغيب بمعناه الماورائي من اختصاص الخالق سبحانه من دون غيره من

(١) راجع خطب - ٣٦، ٥٧، ٥٨، ٥٩.

(٢) راجع خطب - ٩٢ فقرة ٢.

(٣) راجع خطب - ١٣ وفي تنبئه بها سيحصل بالكوفة مستقبلاً راجع خطب ٤٧.

(٤) راجع خطب - ١٢٨.

(٥) البقرة/٣.

(٦) تفسير المنار/١/١٢٧.

المخلوقات مهما تسامت مكانتها وذلك بناء على قوله تعالى:

﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾^(١) وعلى ذلك

فإن جميع الرسل والانبياء لا يعلمون الغيب، وفي قوله تعالى لرسوله ﷺ:

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى التَّفَاقِي لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾^(٢) ما

يؤكد عدم احاطة الانبياء بعلم الغيب، لأن فحوى الآية يؤكد عدم اطلاع الرسول ﷺ على خبايا المنافقين في المدينة من حوله رغم أنهم أقرب الناس إليه، كما ورد في القرآن ما مفاده ان قريشا قد طلبت من الرسول ﷺ ان يعلمها - إذا كان رسولا حقا - بأوقات الرخص والغلاء، والخصب والإجذاب، فكان رد النبي ﷺ على طلبهم من خلال قوله تعالى:

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ

لَأَسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾^(٣). إلا ان ذلك لا ينفي ان يطلع الله

سبحانه أنبياءه على بعض الجزئيات الغيبية، كبراهين تعضد صدق رسالاتهم كما في قوله تعالى:

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ

يَسْأَلُكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾^(٤) فالرسول ﷺ قد كان يعرف

بعض الجزئيات الغيبية بإيحاء من الله سبحانه مما يعني ان معرفته تلك مكتسبة،

(١) النمل / ٦٥.

(٢) التوبة / ١٠١.

(٣) الاعراف / ١٨٨ وراجع سبب نزول الآية عند: الطبري - مجمع البيان / ٩ / ٧٨.

(٤) الجن / ٢٧، ٢٦.

٥٥٢ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

وقد ذكر الماوردي جانباً من المعرفة المكتسبة تلك^(١)، التي يمكن من خلالها الدخول إلى موضوع الغيبيات في فكر علي عليه السلام.

لقد حاول بعض الدارسين لشخصية علي عليه السلام، تحليل بعض جوانبها النفسية لتعليل القضايا الغيبية التي صدرت عنه^(٢)، كما حاول فريق آخر منهم الغاء ذلك الجانب الغيبي فيما أثر عن علي عليه السلام من نصوص لا اعتقادهم بأنه مدسوس عليه^(٣)، إلا أننا نرجح صحة ذلك الجانب من الأقوال المنسوبة إليه، أو على الأقل الجزء الأكبر منها، ويؤيد ترجيحنا ذلك قرائن منها:

أولاً - تأليه علي عليه السلام:

إذ تكاد كثير من كتب السير التي ترجمت لعلي عليه السلام تذكر أنه قد أحرق قوماً الهوه^(٤)، وقد بقيت عقيدة تأليهه في فرق بعد مماته ذكرها الشهرستاني^(٥)، وتقديس الفرد بجعله في مرتبة الإله لا يتولد عند الناس من فراغ، ولولا مشاهداتهم لصدق بعض نبواته، وظهور بعض الخوارق في أفعاله وأقواله لما

(١) راجع أعلام النبوة ص ١٠٦ وما بعدها.

(٢) راجع بشأن ذلك ما قاله في علي عليه السلام عبد الفتاح عبد المقصود - الإمام علي عليه السلام ١/ ٩٤ وراجع ما قاله بشأن تحليل علم علي عليه السلام بالمغيبات - الحوئي - منهاج البراعة ٣/ ١٤٠، ومغنية - في ظلال النهج ١/ ١٠٩، ويؤيد ذلك ويعضده ما قاله ابن خلدون - في كرامات أهل البيت عليه السلام في مقدمته ص ٤١٦.

(٣) راجع بشأن ذلك - العقاد - عبقرية الإمام علي عليه السلام ص ١٤٠، وأحمد الحوفي - بلاغة الإمام علي عليه السلام ص ٩٨.

(٤) راجع ابن عساكر - ترجمة الإمام علي عليه السلام من تاريخ مدينة دمشق ٣/ ١٧٩ بتحقيق المحمودي.

(٥) راجع - الملل والنحل ١/ ١٧٥ وما بعدها.

الباب الرابع: القضايا الكلامية والتأملات الكونية كما تبدو في نهج البلاغة..... ٥٥٣

غلوا فيه، ولا نظن ان قوله «سيهلك في صنفان: محب مفرط يذهب به الحب إلى غير الحق، ومبغض مفرط يذهب به البغض إلى غير الحق، وخير الناس في حالا النمط الاوسط فالزموه»^(١) الا وليد استنتاجاته مما يدور حول شخصه من حب بلغ التقديس وبغض بلغ حد الكراهية والحققد.

ثانياً: تكرار دفع تهمة الكذب عن نفسه:

إن تكرار دفع تهمة الكذب^(٢) عن نفسه في مواضع عدة من النهج لم ترد عرضاً ودوناً أسباب، فلولا إحساسه بذلك الاتهام الموجه إلى شخصه، لما حاول تفنيد كل مقولة تمس بمصداقية أقواله، التي لم تصل عقول كثير منهم إلى مرتبة إدراك أبعادها في ظل فهمهم لظواهر القضايا، دون التعمق فيها بأفكارهم للاطلاع على ما يكتنف خلفياتها من أخطار مستقبلية تتهددهم، ويمكن ادراك ذلك من قوله موبخاً من كذبه من أهل العراق «لقد بلغني أنكم تقولون: علي يكذب، قاتلكم الله تعالى فعلى من أكذب؟ أعلى الله؟ فأنا أول من آمن به أم على نبيه؟ فأنا أول من صدقه كلا والله ولكنها لهجة غبتم عنها، ولم تكونوا أهلها»^(٣) فاللهجة التي غاب عنها أولئك، هي بعض قضايا الغيب التي كان يحدثهم بها وهي التي أدت بجزء منهم إلى تكذيبه لعدم استيعاب عقولهم لها.

(١) خطب - ١٢٧ - فقرة ١ .

(٢) راجع على سبيل المثال - خطب - ١٦ - فقرة ١ وخطب - ٣٧ - وحكم - ١٥٥ .

(٣) خطب - ٧٠ .

ثالثاً - معنى الغيب في فكر علي عليه السلام:

عرض علي عليه السلام في أحد أحاديثه لأصحابه إلى ما سيحدث بالبصرة من فتن دموية جراء الاضطهاد والظلم الذي سيقع على الفقراء والمستضعفين من سكانها، كما تحدث عن فتن سيحدثها جنس من الأتراك في فترة من فترات الإسلام، فقال له رجل كلبى من أصحابه «لقد أعطيت يا أمير المؤمنين علم الغيب، فضحك عليه»، وقال للرجل يا اخا كلب، ليس هو بعلم غيب، وانما هو تعلم من ذي علم، انما علم الغيب، علم الساعة، وما عدده الله سبحانه بقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ من ذكر أو انثى، وقبيح وجميل، وسخي وبخيل وشقي وسعيد... فهذا علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، وما سوى ذلك فعلم علمه الله نبيه، فعلمنيه، ودعالي بأن يعيه صدري، وتضطم عليه جوانحي»^(١) فعلم الغيب كما يبدو من قول علي عليه السلام، هو العلم بالكليات دون الاستعانة بمعلم، أي انه ذاتي ولا يجوز العلم الذاتي الا في الله سبحانه، لأن كل عالم غيره متعلم فعلي عليه السلام يقر بأن علمه مكتسب، والعلم المستفاد من الغير لا يجوز ان يسمى غيباً «وإن كان إطلاقاً على أمر غيبي لا يتأهل للاطلاع عليه كل الناس»^(٢) وإقرار علي عليه السلام بصحة اكتسابه تؤيده نصوص من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، من ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى:

﴿لَتَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيهَا أُذُنٌ وَأَعْيَةٌ﴾^(٣) فقد قال جُل المفسرين، أنه لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ «سألت الله أن يجعلها أذنك يا علي، قال

(١) خطب - ١٢٨ والآية من سورة لقمان / ٣٤.

(٢) ميشم البحراني - شرح النهج / ١ / ٨٤.

(٣) الحاققة / ١٢.

الباب الرابع: القضايا الكلامية والتأملات الكونية كما تبدو في نهج البلاغة ٥٥٥

علي عليه السلام: فما نسيت شيئاً بعد ذلك، وما كان لي أن أنسى»^(١)، كما ورد على لسان علي عليه السلام في نهج البلاغة قول رسول الله صلى الله عليه وآله له: «إنك تسمع ما أسمع، وترى ما أرى إلا أنك لست بنبي»^(٢) فالذي نفهمه مما وورد بشأن الغيبات في فكر علي عليه السلام، أن اكتساب بعض الجزئيات الغيبية عن طريق التعلم من متلقي الوحي صلى الله عليه وآله، لا يكسب المتعلم صفة عالم الغيب. فهو على هذا لم يقل بعلمه الغيب، إلا أنه حاول توظيف ما تلقاه عن الرسول صلى الله عليه وآله من علم، في قضية التوعية إلى ما سيؤول إليه مصير المجتمع فيما لو انحاز أبناؤه عن جادة الحق بظلم بعضهم بعضاً، وميلهم به عن أصحابه والمؤهلين له، ومنهم شخصه كوارث لعلم النبي صلى الله عليه وآله وحكمته، وقد ورد شيء كثير من ذلك في حق نفسه خاصة، وآل بيته على وجه العموم^(٣)، ومن ذلك ما ورد بشأن المهدي المنتظر عليه السلام.

د - المهدي المنتظر عليه السلام كما يبدو في فكر علي عليه السلام

من ضمن قضايا التنبؤ بالمستقبلات التي عرض إليها علي عليه السلام في النهج، وصف مُصلح يظهر بعد فتن تنشب في كل مكان يستغيث الناس من شرورها، حيث تسفك الدماء، وينبذ القرآن، ويعمل بالرأي، ويتبدد المسلمون هلعا وخوفا في أقاصي البلاد، من ذلك قوله «يعطف الهوى على الهدى، إذا عطفوا الهدى على الهوى ويعطف الرأي على القرآن إذا عطفوا القرآن على الرأي، حتى

(١) تفسير الرازي ١٠٧/٣٠ وجاء مثله عند: القرطبي - الجامع لأحكام القرآن ١٨/٢٦٤ وعند ابن

كثير - تفسير القرآن العظيم ٦/٢٥٥.

(٢) خطب - ٢٤٠، فقرة ٢٧.

(٣) يمكن ملاحظة ذلك في - خطب - ٢ فقرة ٢، ٨٦ فقرة ٣، ٤، و ٩٢ فقرة ١.

تقوم الحرب بكم على ساق، باديا نواجذها، مملوءة اخلافها، حلوا رضاعها، علقما عاقبتها، إلا وفي غد - وسيأتي غد بما لا تعرفون - يأخذ الوالي من غيرها عمالها على مساوى أعمالها، وتخرج له الأرض أفايذ كبدها، وتلقي إليه سلما مقاليدها، فيريكم كيف عدل السيرة ويحي ميت الكتاب والسنة»^(١). فكل من تناول فحوى المقولة من شراح النهج متفق على أن عليا (عليه السلام) يقصد منها، وصف أمام منتظر، أو قائم ينادي العمل بالقرآن، وأحياء السنة^(٢) إلا أن وجهة نظر الشيعة حول ظهور ذلك القائم تختلف عنها عند المعتزلة الذين يرون كما يقول ابن أبي الحديد «أن في ذلك إشارة إلى إمام يخلقه الله تعالى في آخر الزمان»^(٣)، بينما يرى الشيعة الإمامية أنه قد عنى بذلك الإمام المنتظر فحسب، وهو عندهم الثاني عشر الغائب، والموجود بين ظهرائي الناس^(٤)، والذي لا بد من أن يعلن عن نفسه يوما ما ليملاً الدنيا عدلاً، بعد ان ملئت ظلماً وجوراً، فالمهدية

(١) خطب - ١٣٧ - فقرة ١، ٢، ويعطف الهوى على الهدى يقهر الهوى وهو العمل بالرأي ويشنيه ويجعله منقاداً إلى العمل بهدي القرآن والسنة وكذلك قوله: يعطف الرأي على القرآن - أي يقهره بتغليب حكم القرآن عليه، والساق الشدة، والنواجد أفضى الأضراس وهو كناية عن بلوغ الحرب شدتها، ومملوءة اخلافها، والاختلاف جمع خلف: حملات ضرع الناقة، وهو كناية عن اشتداد الفتن، وعلقم عاقبتها: أي مرة نهايتها والعاقبة هي النهاية، وقوله «يأخذ الوالي... أعمالها» أي أن الإمام المنتظر (عليه السلام) يأخذ العمال والأمراء على سوء أعمالهم ويعاقبهم بها، والأفايذ جمع فلذ، وهو كناية عن الكنوز التي تظهر للقائم.

(٢) راجع - الراوندي - منهاج البراعة ٢/٦٢، شرح ابن أبي الحديد ٩/٤٠، شرح ميشم البحراني ٣/١٦٨ - محمد عبده - شرح النهج هامش ٢٤٩ ط الأندلس.

(٣) شرح النهج ٩/٤٠.

(٤) للاطلاع على عقيدة الإمامية في المهدي المنتظر (عليه السلام)، راجع - رسائل الشريف المرتضى ٢/٢٩٣

كعقيدة، موجودة في فكر علي (عليه السلام) كما نعتقد، خاصة انه يرى ان الائمة المصلحين موجودون في كل عصر، بهدف تبصير الناس بأمر دينهم ودنياهم، حتى لا تكون للناس حدة على الله، من ذلك قوله، «اللهم بلى، لا تخلوا الأرض من قائم بحجة، إما ظاهراً مشهوراً، أو خائفاً مغموراً»^(١)، ومهما يكن أولئك الذين يعينهم علي (عليه السلام)، سواء أكانوا الأئمة عند الشيعة، أم أنهم «الأبدال الذين وردت الأخبار النبوية عنهم، أنهم في الأرض سائحون، فمنهم من يعرف ومنهم من لا يعرف»^(٢) كما يرى المعتزلة حسب تفسير ابن أبي الحديد، فإن الفكرة تتضمن تصريح بوجود الإمامة في كل زمان حتى قيام الساعة، فإذا ما أخذنا ماثورات علي (عليه السلام) في المهديّة، كلها في سياق واحد، ونظرنا إليها من خلال بنائها الفكري سنجد أن هذه النصوص تتبلور في عناصر أهمها:

١- إن الله سبحانه وتعالى لا يخلي الأرض من قائم مطلق بأمر الدين في أي زمان، وأي مكان، إذ لا بد من وجود ذلك المصلح الظاهر المعلن عن نفسه في حالة شهوره بالأمان^(٣)، أو الداعي إلى شريعة السماء في السر في حالة سيطرة الجبابة والظغاة على مقاليد الأمور وهيمنهم على مصائر الناس بالقوة والقهر والظلم.

٢- إنه إذا عرف الإنسان إمام وقته، فلا بد له من محاولة الرجوع إليه لأخذ أمور دينه عنه، والاستجابة لتلبية ندائه في حالة الحاجة لمواجهة أعداء الدين والظالمين من الأمراء والسلاطين، ويمكن الوصول إلى فكرته تلك من قوله

(١) حكم- ١٤٥- فقرة ٦.

(٢) شرح النهج ٣٥١/١٨.

(٣) راجع حكم- ١٤٥- فقرة ٦.

«والهجرة قائمة على حدها الأول، ما كان الله في أهل الأرض حاجة من مستسر الأمة، ومعلنها. ولا يقع اسم الهجرة على أحد، إلا بمعرفة الحجة في الأرض، فمن عرفها وأقر بها فهو مهاجر»^(١) مع ملاحظة أن علياً عليه السلام قد أشار إلى ضرورة الهجرة، وهو لا يعني بها الهجرة من مكة إلى المدينة، لأن تلك الهجرة قد بطلت بعد الفتح، بناء على قول الرسول صلى الله عليه وسلم «لا هجرة بعد فتح مكة»^(٢) ولكنه يعني بالهجرة إلى إمام الوقت كأساس تجمعي كان هو في حاجة إليه، للوقوف في وجه الخارجين عن سلطته، على اعتبار نفسه وآل بيته عليهم السلام هم الذين أوكل الله إليهم حماية الدين بعد الرسول صلى الله عليه وسلم^(٣).

انه برغم الاضطهاد والظلم للذين وقعا على آل البيت عليهم السلام، فإن الله سبحانه سيعيدهم إلى المكانة التي بوأهم إياها بفضل إيمانهم وصبرهم، ويفهم ذلك من قوله «لتعطفن الدنيا علينا بعد شماسها، عطف الضروس على ولدها»^(٤) وتلا عقب ذلك:

﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾^(٥). فالمهدي المنتظر عليه السلام المبشر به، كما يبدو لنا في فكر علي عليه السلام من آل البيت عليهم السلام، وهو ما تضمنه قوله «يا قوم هذا تضمنه منا ابان ورود كل موعود،

(١) خطب - ٢٣٧ - فقرة ٢ والامة - بكسر الهمزة - الحالة.

(٢) سنن النسائي ١٤٦/٧.

(٣) راجع الخطبة ٨٦ - فقرة - ٣، ٤.

(٤) حكم - ٢٠٧ - الشماس - بكسر الشين، امتناع ظهر الدابة عن الركوب، والضروس - بفتح فضم -

الناقة السيئة الخلق التي تعصى حالها.

(٥) القصص / ٥.

الباب الرابع: القضايا الكلامية والتأملات الكونية كما تبدو في نهج البلاغة ٥٥٩

ودنو طلعة ما لا تعرفون، ألا وأن منا أدركها منا يرى فيها بسراج منير، ويجذو فيها على مثال الصالحين، ليحل فيها ربقا، ويعتق فيها رقا، ويصدع شعبا، ويشعب صدعا في سترة عن الناس، لا يبصر القائف اثره، ولو تابع نظره»^(١).

٤- إنه لن يكون ظهوره إلا بعد فتن ناتجة عن ظلم العباد واستحرار القتل فيهم، ويكون ظهوره ناهية ذلك الظلم^(٢) واستتاب الأمن والرجوع إلى الدين على أصوله الأولى التي جاءت بها رسالة محمد ﷺ، فيعم الرخاء جراء ذلك كل أرجاء المعمورة.

فعميقة المهدي المنتظر ﷺ - كما نتصورها من خلال فكر علي ﷺ - لا تكاد تتعد في مفهومها عما بشر به القرآن الكريم من مستقبل سعيد للإنسانية في ظل الإيمان. كما في قوله تعالى:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾^(٣)، وعماء جاء بشأنها في السنة النبوية المطهرة، كما في قوله ﷺ «أبشركم بالمهدي يبعث على اختلاف من الناس وزلازل فيملا الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً،

(١) خطب - ١٥٠ - فقرة ١ - ابان - بكسر فتشديد - وقت، ودنو - قرب، ومنا - يعني بالضمير فيه من آل البيت وهو المهدي المنتظر ﷺ، ليحل ربقا - يفك الناس من أسر الاستغلال والربق - بكسر الراء وسكون الباء، هو حبل فيه عدة عرق يوضع في رقاب العبيد، ويصدع شعبا ويشعب صدعا، يفرق جمع الضلال ويجمع متفرق الحق، القائف الخبير بمعرفة الإثارة، والقيافة - علم تتبع إثارة المشاة من إنسان وحيوان في الصحراء وهو من أشهر علوم العرب.

(٢) راجع خطب - ١٣٨ - فقرة ٢.

(٣) النور / ٥٥.

٥٦٠ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

وظلما، يرضى عنه ساكن السماء وساكن الأرض...»^(١) إلا أن عليا عليه السلام لم يذكر ضمن نصوص النهج التي جاءت في المهدي، لا صفاته ولا شكله^(٢) كما هو موجود فيما أثر عن الرسول صلى الله عليه وسلم من حديث^(٣).

تلك هي إذن أهم القضايا الغيبية والأخرى الماورائية التي استخلصناها من فكر علي عليه السلام، وهي على ما تبدو لم تكن لمجرد الجنوح إلى استعراض فلسفة ما أو لأخذ الفكر الإنساني نحو اتجاه جدلي معين من أجل مناصرة فرقة معينة، لأنها -كما نتصورها- دعوة صادقة إلى التمسك بالدين والرجوع إلى طريق الإيمان، في كل الأحوال، وتحت كل الظروف، لأن العاقبة - كما يراها علي عليه السلام - لا بد أن تكون في صالح المتقين المؤمنين الذين ينظرون إلى الدنيا نظرة تختلف في مفهومها عما ينظر إليها غيرهم من الناس.

(١) الهيثمي - مجمع الزوائد ٧/٣١٦، رواه الترمذي وغيره باختصار كثير، ورواه أحمد بأسانيد، وأبو يعلى باختصار كثير ورجالها ثقات.

(٢) ان عدم ورود نصوص تتحدث عن صفات المهدي في نهج البلاغة لا يعني ان عليا عليه السلام لم يتطرق إلى ذلك، فنهج البلاغة لم يجمع كل ما أثر عن علي عليه السلام من اقوال، ففي اصول الكافي ١/٣٣٩ وما بعدها - احد مصادر الحديث عند الشيعة الإمامية احاديث وخطب لعلي عليه السلام، يذكر فيها صفات المهدي وكيفية ظهوره.

(٣) راجع المقدسي - عقد الدر في اخبار المنتظر ص ١٦، ٢٤.

الفصل الثالث

نظرة علي عليه السلام إلى الحياة كما تبدو في نهج البلاغة

إذا ما أردنا سبر غور فكر علي عليه السلام في محاولة للاطلاع على تصوره للحياة
يجدر الوقوف عند ثلاث نقاط هي:

١- مفهوم الدنيا في فكر علي عليه السلام.

٢- فكر علي عليه السلام بين التصوف والزهد.

٣- الأسلوب الحكمي كما يبدو في فكر علي عليه السلام.

مع ملاحظة أن النقاط الثلاث من الترابط بحيث لا يمكن فصل بعضها
عن بعض، لأنها تشكل في مجموعها نظرة علي عليه السلام المتوحدة إلى الحياة، فمفهوم
الدنيا على اتساعه وشموليته وعمقه، هو واسطة العقد بين تقييمه للحياة
وبين أسلوبه الحكمي المتولد من نظرتة إلى الدنيا بمفهومها الواسع من ناحية،
وتجاربه الحياتية من ناحية ثانية، تلك التجارب التي استوعبت معاشته، بكل
إحساساته، الدعوة الإسلامية منذ بداية بزوغها، حتى الوقت الذي بدأت فيه
تتفتح على الحضارات الأخرى، وما أحدثه ذلك التفتح من نقلات خطيرة في

الفكر العربي الإسلامي بالاتجاه نحو التكالب على المادة، والتمتع بما في الحياة من ملذات إلى أقصى حد ممكن، مما جعل التركيبة الفكرية للفرد المسلم ترجح كفة الجانب المادي على الجانب الروحي، فتأثرت جراء ذلك بنية الإسلام كدين ثوري، إذ بدأت جذوة الجهاد تخدم في النفوس، بركون العربي المسلم إلى الدعة، وحب الحياة، فأخذ يتهرب من واجب الجهاد بشتى الحجج الواهية، تارة بتقلبات الطقس^(١)، وأخرى بالنأي بالنفس عن الفتنة، لتفادي سل سيف في وجه أخية المسلم^(٢)، وثالثة لتلافي النقص في العدة والعتاد^(٣)، إلى غير ذلك من أعدار واهية جمعها علي عليه السلام في حب الدنيا والإنبهار بزخرفها والتشبث بها^(٤) فاستحالت الدنيا في فكر علي عليه السلام إلى رمز يمثل الشر في معظم جوانبه، مع تمثيله للخير بالنسبة للذين يفهمون الدنيا على حقيقتها، ومن خلال ذلك المفهوم ببعديه الخير والشرير يمكننا التعرف على الدنيا في فكر علي عليه السلام.

١- الدنيا في فكر علي عليه السلام

وردت كلمة (دنيا) مفردة ومضافة في نهج البلاغة في مئتين وثمانية وعشرين موضعاً تقريباً، هذا عدا الضمائر التي تعود عليها^(٥)، ومن خلال تتبعنا

(١) راجع الخطبة ٢٧ نهاية الفقرة الثانية.

(٢) راجع في شأن ذلك ما قاله أبو موسى الأشعري لأهل الكوفة عند الدينوري - الأخبار الطوال ص ١٤٥.

(٣) راجع رد أصحابه على دعوته إلى العودة لقتال أهل الشام بعد انتهائهم من حرب الخوارج - أبو حنيفة الدينوري - الأخبار الطوال - ص ٢١١.

(٤) راجع تعليقه للفتن التي نشبت في خلافته - الخطب الثالثة، فقرة ٣ - مطلع الخطبة ٣٤.

(٥) من احصائية قسمنا بها في النهج رصدنا خلالها كلمة (دنيا) وجدنا انها قد وردت مفردة أو مضافة فيما يقارب من مئتين وثمانية وعشرين (٢٢٨) موضعاً، كما تكرر أيضاً بصيغة ضمير

الباب الرابع: القضايا الكلامية والتأملات الكونية كما تبدو في نهج البلاغة..... ٥٦٣

لانتشارها الواسع ذاك، وجدنا أنها تحمل كثيراً من المعاني التي يمكن حصرها في ثلاث مجموعات متجانسة حاول علي عليه السلام من خلالها تسليط الضوء على جميع جوانبها الإيجابية والسلبية بنظرة ملؤها الإيمان المفعم بحب الإنسانية. فالناظر بإمعان في معاني المجموعات الثلاث كما وردت في النهج، يتصورها ذات وجوه مختلفة، ومعان متباينة، وأوصاف متداخلة، تغلب العتمة والتيئيس على معظمها، إلا أنها ترد في مواضع قليلة جداً، حاملة في طياتها معاني الحب والإيمان، وهي في ناحية ثالثة، ذات صور متباينة لا تستقر على حال، لأنها جوهر زائل تنقصه الديمومة، ويمكن ملاحظة تلك المعاني من خلال الحزم الثلاث التالية:

الأولى - الدنيا المكانية:

والمقصود بها كل الكون الذي خلقه الله وفي مقدمته الأرض، التي أهبط الله إليها الإنسان لتكون مقراً لابتنائه، فالدنيا بهذا المعنى الواسع تشمل كل ما يتعلق بالحياة الطبيعية للإنسان من مسكن ومأكل وشراب ولباس، وهواء، وشمس وقمر وكواكب، وكل ما في الطبيعة مما يحتاجه الإنسان ليتأقلم وحياته التي يريد الله له، ويمكن تتبع هذه المعاني بكل اتساع وشمولية في فكر علي عليه السلام من خلال موضوع خلق الكون، كما ورد في النهج^(١)، وهو ما يمكن تسميته

الغائبة فيما يقارب من ستمئة وواحد وعشرين (٦٢١) موضعاً، هذا بالإضافة إلى تكرار ما يشير إليها من أسماء، ومعان مثل: دار العبرة، دار البلية، باحة الاحتشاد... وهو ما يستشف منه اهتمام علي عليه السلام بهذا الجانب الخطير، الذي حاول عن طريق الحديث المتكرر فيه كشف عيوب الجانب المادي - الذي استفحلت شروره وبانت تأثيراته السلبية في روح المحارب المسلم - بإخلاده إلى الدعة.

(١) يمكن مراجعة ذلك في: الخطبة رقم - ١، والخطبة رقم ٩٠ - المسماة بخطبة الأشباح.

بالجانب التأملي المصور لقدرة الله تعالى، ويهدف علي عليه السلام من ورائه - كما تتصور - تمكين العقل إلى الوصول من تلقاء نفسه إلى فكرة التوحيد، بالنظر في ابداعاته المتوحدة التي تستعصي في استجابتها وتكوينها على أي فكر إنساني مها تناهت قدرته، وتسامت عبقريته.

ولكن هناك جانباً إيمانياً آخر عاجله علي عليه السلام عن طريق خلق الدنيا كمكان، ويتمثل في العلاقة الترابطية بين ذلك المكان الدنيوي وبين الإنسان الذي من أجله خلقت تلك الدنيا، إذ ليس يكفي أن يعرف الإنسان قصة الدنيا، بل يجب أن يعرف أيضاً أن الله سبحانه وتعالى، كما يقول علي عليه السلام «هو الذي أسكن الدنيا خلقه»^(١) مما يعني أن أولئك الخلق هم من ضمن ذلك الكون الموحد، المكمل لبعضه بعضاً، والمخلوق بقدرته سبحانه، إذ لا مجال للشك على الإطلاق، بأن الخلق، وكل ما يتعلق بهم من أشياء حياتية هي من تدبير الله وإحكامه ويتضح ذلك من قول علي عليه السلام «خلق الخلق... ووضعهم من الدنيا مواضعهم»^(٢) أي هيأ لهم المواضع المناسبة التي تمكنهم من التأقلم مع محيطهم بقدرته التي طالت كل شيء في الوجود، من جامد ومتحرك وموات وذي روح، ويمكن استخلاص ذلك من قول علي عليه السلام «انقادت له الدنيا والآخرة بأزمته»^(٣)، وعلي عليه السلام حين يركز على ذلك الجانب يريد أن يصل بنا إلى نقطة ذات أهمية كبرى تكاد تكون مرتكزه الفكري بالنسبة لاعتبار المعنى المكاني للدنيا. فإذا كان المكان في الفكر الإنساني المحدود، يعني الاستقرار المقرون بالديمومة والراحة والاطمئنان فإنه

(١) خطب - ١٨٥ - فقرة ١.

(٢) خطب - ١٨٧ - فقرة ١.

(٣) خطب - ١٣٣ - فقرة ١.

الباب الرابع: القضايا الكلامية والتأملات الكونية كما تبدو في نهج البلاغة..... ٥٦٥

يعطي الدنيا بعدا مكانيا لا يقترنه بأية استمرارية بتعبيره عن ذلك بقوله «ان الدنيا لم تخلق لكم دار مقام»^(١) لأنها من وجهة نظره «دار فناء وعناء»^(٢) ويستحيل استمراريتها على نمط معين فمكانيتها لا تعني الثبات والديمومة، فهي من هذه الناحية «دار دول»^(٣)، لذلك يجب على من يعيش على أديمها أن يضع في اعتباره، أن الركون إلى مغرباتها والجري وراء ملذاتها والتكالب على مقتنياتها في ظل فكرة الخلود التي تراوده، ما هي إلا حلم بعيد المنال، لأنها كما يقول علي عليه السلام «دار لا يسلم منها الا فيها»^(٤) وبإمكان الإنسان إدراك ذلك بمجرد تفكيره في خلق الكون من حوله، فقد يستبعد عقله المحدود فكرة فناء هذا الكون المحكم الذي يستعصي انحلاله أو تفكيكه، أو حتى تغيير توازنه، لكنه لو أمعن النظر، ومد بصيرته إلى ما وراء المجردات لتوصل من خلال ذلك - كما يقول علي عليه السلام - إلى أن «ليس فناء الدنيا بعد ابتداعها بأعجب من إنشائها واختراعها»^(٥) لأن الله سبحانه قد حدد لكل خلق خلقه وقتا لا يمكنه تعديه، إذ لا أزلية ولا دوام إلا له سبحانه وتعالى، فكما يقول علي عليه السلام، فإن الفناء في نهاية الأمر يعم كل شيء «وإن الله سبحانه يعود بعد فناء الدنيا ولا شيء معه»^(٦). والفكرة ببعدها المكاني المتضمن قضية الخلق زمانيا ليست من ابتداع علي عليه السلام، لأنها مطابقة لمعاني القرآن الكريم المتمثلة في قوله تعالى:

(١) خطب - ١٣٢ - فقرة ٢.

(٢) رسائل - ٧٢.

(٣) خطب - ٦٢ - المطلع.

(٤) المصدر السابق نفسه.

(٥) خطب - ٢٣٤ - فقرة ٣.

(٦) السابق - فقرة ٤.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيَهَا فَاِنَّ * وَيَبْقَى وَجْهَهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾^(١) أما

الغاية التي من أجلها كان تركيز علي عليه السلام على فكرة الدنيا المكانية وزوالها فهي: إنه ما دام مآل الدنيا إلى الزوال، وما دام الإنسان غير مستقر عليها فعليه أن يقوم بواجبه تجاهها، في حدود ما فرضه الله عليه، ولا يتهادى في التكالب عليها، والركون إلى مغرياتها لتمثل زوالها أمامه من خلال قصور شيدت ثم هجرت فأصابها البلى، ومقتنيات استمات أصحابها في جمعها فبددها ورآتهم من بعدهم، وجبارة تسلطت فكان مصيرهم الفناء^(٢)، مبلغ مستقر الإنسان في هذه الدنيا، أن يأخذ ويعطي بما يتناسب ومكانته الإنسانية، متمثلاً دوره عليها في حدود ما رسمه الله له، ومن خلال هذا المعنى، تدخل الآخرة في مقابل الدنيا باعتبارها دار خلود متصلة في جوهرها بعمل الدنيا، والمسافة الفاصلة بينها مسافة زمانية يقطعها الإنسان بعمره المقدر، فيتعاقق المكان بالزمان ليشكلا مصير الإنسان الأبدى بعد دنياه الفانية.

الثانية - الدنيا الزمانية:

الزمن عنصر أساسي في فكر علي عليه السلام لأنه كما يرى مرتبط ارتباطاً محكمًا بحياة الإنسان من جميع جوانبها، فالصلاة وهي ركن تعبدي في الإسلام، إلا أنها تعني عند علي عليه السلام مقياساً يمكن من خلاله معرفة مدى التزام الفرد بالوقت المحدد لكل عمل يناط به، فإذا كان الفرد ملتزماً بصلواته في أوقاتها المحددة، من دون تقديم ولا تأخير، فهو بلا شك يقدر قيمة الوقت فيباشر أعماله في

(١) الرحمن / ٢٦، ٢٧.

(٢) راجع على سبيل المثال - خطبة - ٨٢ - الفقرة ٧ - ورسالة - ٣ - فقرة ٢.

إبانها، ويمكن استخلاص ذلك من قوله ضمن وصيته لمحمد بن أبي بكر حين ولاه مصر «صل الصلاة لوقتها المؤقت لها، ولا تعجل وقتها لفرغ، ولا تؤخرها عن وقتها لاشتغال، واعلم ان كل شيء من عملك تبع لصلاتك»^(١) فالزمن على هذا الأساس مقياس لصدق الفرد مع ربه ومع نفسه ومع غيره من الناس، ولأهمية الزمن العظيمة في فكر علي^(عليه السلام) اعتبر الإنسان ذاته وقتا في قوله «انما الناس في نفس معدود وأمل معدود، واجل محدود فلا بد لأجل ان يتناهى، وللنفس ان يحصى ولأمل أن ينقضي»^(٢). فكل شيء في الوجود مقرون بزمن له بداية ونهاية، حتى الوجود ذاته، فإنه يمثل في أحد جوانبه زمنا كما يرى علي^(عليه السلام)، ويمكننا استنتاج ذلك من تتبعنا إلى التقابل بين الدنيا والآخرة فيما اثر عنه من نصوص في النهج، فعدم استمرارية الدنيا، والتقلب في أحوالها، يعني - كما يظهر لنا - استحواذ الزمانية على شمولية الدنيا المكانية، على أساس اعتبارها دار مجاز، في مقابل الثبات المكاني الكامن في الآخرة كما في قوله «أيها الناس، انما الدنيا دار مجاز، والآخرة دار قرار، فخذوا من ممركم لسفركم»^(٣)، فالمجاز بأبعاده المعنوية يعني الحركة ضمن المكان، والحركة تعني الزمن، فالدنيا تعني الزمن الذي يقطعه الإنسان من دون العودة إليه، ولما كان ذلك الزمن لا يمكن أن يعود بالنسبة للإنسان، فيجب عليه أن يستغله استغلالا حسنا في إبانته كما يرى علي^(عليه السلام)، وفي ذلك يقول «أن السعداء بالدنيا غدا، هم الهاربون منها اليوم»^(٤) فالسعادة الابدية مرتبطة بالمستقبل المتمثل في الغد المتعلق بنتائج ماضي الدنيا

(١) رسائل- ٢٧- فقرة ٤.

(٢) شرح ابن أبي الحديد ٢٠ / ٢٨١.

(٣) خطب- ١٩٧- المطلع.

(٤) خطب- ٢٢٠- فقرة- اخرها.

آنية بالهروب منها في وقتها الآني، فالزمن الدنيوي ببعديه الآني والمستقبلي في تداخل وتمازج ولكن النتائج بينهما في تقابل أبدي أيضا، لأنها يمثلان الدنيا والاخرة فهما «عدوان متفاوتان وسبيلان مختلفان، فمن أحب الدنيا وتولاها، أبغض الآخرة وعادها، وهما بمنزلة المشرق والمغرب»^(١) والتفاوت والاختلاف فيما بينهما بالنسبة للإنسان يكمن أساسا في حركة العمل الإنساني عبر الدنيا الزمانية التي تتحول الحياة عبرها إلى سباق مع الزمن الكامن فيها، فالحرص على الامساك بالزمن وإيقاف دوران عجلته من الأمور المستحيلة، لأنه لو حدث فإنه يعني تغيير نظام الكون بإيقاف عجلة الدنيا المستمرة في دورانها، إلا أن سعي الإنسان نحو ذلك الهدف لا يتوقف، لأنه يمثل حقيقة الإنسان في حاجة المستمر في طلب المزيد من ذلك الوقت الدنيوي، الذي عادة ما يكون في مقابلة دائمة مع ذلك السعي كما يصوره قول علي عليه السلام «من طلب الدنيا طلبه الموت حتى يخرجها عنها، ومن طلب الآخرة، طلبته الدنيا حتى يستوفي رزقه منها»^(٢). لذلك فمن الاجدى للإنسان في دنياه هذه، ان يدرك تماما، أن الزمن الدنيوي بما ينطوي عليه من إغراءات، هو في جوهره خسارة مؤقتة في مقابل ربح ابدى. وفي هذا المعنى يقول «اعلموا أن ما نقص من الدنيا وزاد في الآخرة خير مما نقص من الآخرة وزاد في الدنيا»^(٣) على اعتبار أن الدنيا كزمان هي في الواقع عمر الإنسان منذ يوم ولادته حتى يوم وفاته، إذ انه بموته كما يقول علي عليه السلام «تختم الدنيا، وبالدنيا تحرز الآخرة»^(٤) فالدنيا الزمانية على هذا المعنى

(١) حكم-١٠٢.

(٢) حكم-٤٤٠.

(٣) خطب-١١٣.فقرة ٤.

(٤) خطب-٥٦.فقرة ٣.

باقية ما بقي وجود الإنسان مستمرا لأنها دنياه.

الثالثة - الدنيا وصف:

لم تكن الدنيا مجرد زمان أو مكان في فكر علي عليه السلام، لأنه من ناحية ثالثة اضفى عليها اوصافا حسية ومعنوية، فهي تارة ذات طعم لذيد يستسيغه المتذوق، ولون بهيج يروق للناظر، فيسلم لها قياده دون ان يعلم ان ذلك الطعم السائغ واللون الرائق، ما هو في حقيقته الا مظهرها الخارجي الزائف، الذي سرعان ما تتبدى عيوبه وتتكشف مساوئه ففي معرض تحذير الناس منها يقول «اني أحذركم الدنيا، فإنها حلوة خضرة، حفت بالشهوات وتحببت بالعاجلة، وراقت بالقليل، وتحلت بالآمال، وتزينت بالغرور»^(١). وهي تارة ثانية متشكلة في اوصاف شتى، طبيعية مرئية، ومسموعة وذات حركة. وهي في اوصافها تلك، ينقصها الثبات، وتفتقر إلى الحقيقة والصدق، والموضوعية. فصفاها مختلطة وممتزجة بحيث يتعذر تصنيفها، فهي طبيعية كونية من ناحية، وانسانية آخذة بزبي محارب همه الاعتداء والسلب والنهب تارة ثانية، أو متشكلة في زي امرأة ذات طبيعة مغرية، وهي من ناحية ثالثة حيوان شرس لا يمكن ترويضه. والخلاصة انها جملة من السيئات التي تحاول غواية الإنسان وصدده عن كل ما فيه مصلحته وسعادته فهي كما يراها علي عليه السلام «برقها خالب، ومنطقها كاذب، واموالها محروبة، واعلاقتها مسلوبة... وهي المتصدية العنون، والجاحمة الحرون، والمائقة الخؤون والجحود الكنود، والعنود الصدود، والحيود الميود، حالها إلى انتقال، ووطأتها زلزال، وعزها ذل، وجدها هزل، وعلوها سفل، دار حرب

(١) خطب- ١١٠ فقرة- ١.

وسلب ونهب، وعطب»^(١).

وتلازم النظرة الغاضبة المقرونة بالحذر والحيطه جل مآثورات علي عليه السلام في الدنيا، لأنها كما يراها «مثل الحية، لين مسها، قاتل سمها»^(٢)، لذلك كان يتمنى لو استطاع التمكن منها، لخلص الإنسانية من أذاها، ولفك الناس من ربقة ذها، ولجنبهم الوقوع في حبالها، وتتجلى أمنيته تلك في قوله «والله لو كنت شخصاً مرئياً وقالباً حسيماً، لأقتم عليك حدود الله في عباد غررتهم بالأمان، وأمم القتهم في المهاوي، وملوك اسملتهم إلى التلف»^(٣).

فكما يبدو في النهج فإن علياً عليه السلام قد قبر داخل نفسه كل شهوة دنيوية، مهما تناهت في الاغراء، فلقد تصورها في شكل فتاة في ريعان الشباب، تلاحقه عارضة نفسها عليه، محاولة إيقاعه في حبالها بشتى الوسائل المغرية، ولكنه حسم أمره معها حين خاطبها قائلاً «يا دنيا، يا دنيا، اليك عني، أبي تعرضت؟ أم إليّ تشوقت، لا حان حينك، هيهات، غري غيري، لا حاجة لي فيك، قد طلقتك ثلاثاً لا رجعة فيها»^(٤) فهو في طلاقه للدنيا، ومحاولته اقامة حدود الله عليها،

(١) خطب - ٢٣٩ - فقرة ٣، وخالب - خادع، ومحروبة - منهوبة، واعلاقتها - مقتنياتهما، والمتصدية - المرأة التي تتعرض للرجال لإغرائهم، والعنون - بفتح فضم - صيغة مبالغة من الفعل عن أي اعتراض، والعنون الدائمة الاعتراض، والجامحة - الدابة الصعبة التي يستعصي ركوبها، والحرون - الدابة التي إذا طلبت منها السير وقفت معاندة، والمائقة - الكاذبة - والخؤون - المبالغة في خيانتها، والجحود - المنكرة للنعمة، والكنود الكافرة بالنعمة، والعنود - الدائمة العناد، والميود - مبالغة من ماد، الدائمة الاضطراب التي لا تستقر على حال.

(٢) رسائل - ٦٨.

(٣) رسائل - ٤٥ - فقرة ٤.

(٤) حكم - ٧٥.

من المثالية بحيث يريد أن يقيم كل أود في الحياة من حوله مع وضعه في الاعتبار أن الإنسان العادي لا يمكنه الزهد في الدنيا والنأي بنفسه عن لذاتها لأنه يرى ان «الناس ابناء الدنيا ولا يلام الرجل على حب امه»^(١) فلو استطاع الإنسان نبذ الدنيا التي خلق من أديمها، لأمكنه الاستغناء عن حبه لأمه التي أنجبته ورضع لبنها وذاك مستحيل، وقد تبدو الفكرة متناقضة، خاصة حين نرى علياً عليه السلام يمنح الدنيا أوصافاً ناصعة بهية، تتناقض تماماً مع ما أطلقه عليها من أوصاف تزهيدية لا تقيم لها وزناً ولا تجعل له أية قيمة، فمن أوصافه المشرقة للدنيا قوله «الدنيا دار صدق لمن صدقها ودار عافية لمن فهم عنها ودار غنى لمن تزود منها، ودار موعظة لمن اتعظ بها، مسجد احباء الله، ومصلى ملائكة الله، ومهبط وحي الله ومتجر أولياء الله»^(٢)، لكن بتأملنا في النصوص التي أثرت عن علي عليه السلام في الدنيا مجتمعة، نعتقد أنه لا تناقض في أفكارها، خاصة إذا وضعنا في الاعتبار، أن الدنيا التي يمدحها علي عليه السلام ويذمها هي دنيا الإنسان، أي زمن بقائه من يوم ولادته حتى يوم وفاته، وان المطلوب منه في دنياه الزمانية تلك ان يفهمها على حقيقتها، بفهم دوره فيها، والفهم هنا يعني، تحكيم العقل، وكبح جماح الشهوة، دون مغالبة أو تسلط، أو جشع، أو حشد، ويمكن ملاحظة ذلك في فكر علي عليه السلام، بالعودة إلى النص السابق، والتأمل في الايجابيات التي اسبغها على الدنيا بقوله عنها انها (دار صدق، عافية، دار غنى، دار موعظة) لمن اعمل فكره بصدق في كل تلك الصفات وفهمها فهماً حقيقياً، بنظرة محايدة بعيدة عن كل اغراء يحيلها حية سامية أو حيوان جموح، فتطبيق الدنيا بالنسبة إليه شخصياً عزوف عنها وعن ملذاتها، أما بالنسبة

(١) حكم-٣١١.

(٢) حكم-١٢٩.

إلى غيره من عامة الناس فيعني فهمها على حقيقتها والأخذ منها بما يضيفي على النفس السعادة والطمأنينة، بجانب راحة الضمير وعمل حساب النفس بالتوازن بين المادة والروح طبقا لقوله تعالى:

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ
كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾^(١). وهو ما يمكن استخلاصه من فهمنا للدنيا كما وردت في فكر علي عليه السلام، الذي يرى ان الذين فهموا الدنيا فهما عميقا هم أولئك الذين «ذهبوا بعاجل الدنيا، وآجل الآخرة، فشاركوا أهل الدنيا في دنياهم ولم يشاركهم أهل الدنيا في آخرتهم، سكنوا الدنيا بأفضل ما سكنت وأكلوها بأفضل ما اكلت، فحظوا من الدنيا بما حظي به المترفون... ثم انقلبوا منها بالزاد المبلغ والمتجر الرابع»^(٢). تلك هي الدنيا في فكر علي عليه السلام ليس في نظره إليها ثمة تشاؤم ولا هروب، شريطة أن ننظر إليها من خلال ما قاله فيها مجتمعا دون تجزئة تحيل البنية الفكرية إلى عناصر متفككة لا تمثل الحقيقة إلا من إحدى جوانبها، مما ينأى بها، عن التكامل والوضوح، ومن خلال ذلك الفهم الواضح للدنيا كما بدت في فكر علي عليه السلام يمكننا التعرض إلى ما ورد عنده من أفكار زهدية كانت أم صوفية.

٢- فكر علي عليه السلام بين التصوف والزهد:

يبدو أن فكر علي عليه السلام من الثراء والشمولية والعمق بحيث حاولت كل فرقة من الفرق الإسلامية أن تنسب إليه أسلوبها الفكري بالنهل من ثرواته

(١) القصص/٧٧.

(٢) رسائل-٢٧- الفقرة ٢.

الباب الرابع: القضايا الكلامية والتأملات الكونية كما تبدو في نهج البلاغة..... ٥٧٣

بما يتناسب ومنهجها، وقد حدثنا ابن أبي الحديد عن ذلك بالتفصيل^(١)، وبصدد علم التصوف يقول فيه «اعلم ان الكلام في العرفان، لم يأخذه أهل الملة الإسلامية الا من هذا الرجل (يعني علياً عليه السلام) ولعمري لقد بلغ منه أقصى الغايات، وأبعد النهايات»^(٢) وابن أبي الحديد حين يتبنى تلك الفكرة، لم تتولد عنده من فراغ، لأننا لو رجعنا إلى ما أثر عن الصوفية من أقوال، فسنجد أنهم يعتبرون علياً عليه السلام، قطبهم الذي أخذوا عنه علمهم إذ يرى ابن الفارض^(٣) (ت ٦٣٢) أن علياً عليه السلام قد تصدى لإيضاح مشكل تأويل القرآن بعلمه الذي تلقاه عن النبي ﷺ بوصية منه كما في قوله (طويل)

وأوضح بالتأويل ما كام مشكلا علي، بعلم ناله بالوصية^(٤)

وعلم التأويل الذي يعنيه ابن الفارض، هو ما يوافق في اصطلاح الصوفية (علم الحقيقة) الذي يختص به العارفون منهم، على أساس تقسيم الناس بحسب معرفتهم الله سبحانه، على ثلاثة اقسام^(٥) كما ورد عند ابن عطاء الاسكندري الشاذلي^(٦)، (ت ٧٠٩) وهو مستوحى، على ما نعتقد، من تقسيم علي عليه السلام للناس من ناحية المعرفة إلى ثلاثة اقسام «عالم رباني، ومتعلم على سبيل النجاة، وهمج رعاع»^(٧) ولمنزلة علي عليه السلام العملية في الفكر الصوفي، فقد عدّوه «النبأ

(١) راجع شرح النهج ١/١٧ وما بعدها.

(٢) شرح النهج ١١/٧٢.

(٣) راج ترجمته - عند عباس القمي - الكنى والألقاب ١/٣٦٣.

(٤) ديوانه ص ١٠٥ - صادر.

(٥) راجع ذلك التقسيم عند: أبي بكر محمد الكلاباذي - التعرف لمذاهب أهل التصوف ص ٦٤.

(٦) راجع ترجمته عند: عباس القمي - الكنى والألقاب ١/٣٤٥.

(٧) حكم - ١٤٥ - فقرة ٢.

العظيم، وفلك نوح، اي: الجمع والتفصيل، باعتبار الحقيقة والشريعة، لكونه جامعاً لهما»^(١).

لذا فقد تركت مآثورات علي عليه السلام بصماتها واضحة فيما رواه المتصوفة من اقوال في الزهد والتقشف ونبد الدنيا، منها على سبيل المثال، ما رواه الشريف المرتضى من أن جل مآثورات الحسن البصري (ت ١١٠) «في المواعظ وذم الدنيا... مأخوذ لفظاً ومعنى أو معنى دون لفظ من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام»^(٢)، وقد أورد من كلام الاثنين نهاذج تؤكد ذلك، ومنه أيضاً ما روي عن مالك بن دينار^(٣) (ت ١٣٠ هـ) قوله لرغيف خبز اشتهاه «اشتھيك منذ أربعين سنة فغلبتک، حتى كان اليوم وترید أن تغلبني، إليك عني»^(٤) وهو مستوحى من كلام علي عليه السلام «لأروضن نفسي رياضة تهش معها إلى القرص إذا قدرت عليه مطعموما، وتقنع بالملح مأدوما»^(٥).

ومن أخذ بقسط وافر من معاني علي عليه السلام، المتصوفة الزاهدة، رابعة العدوية^(٦) (ت ١٨٠ هـ) من ذلك ما روي عنها «من أحب شيئاً أكثر من ذكره»^(٧) وهو متأثر بقول علي عليه السلام «من عشق شيئاً اعشى بصره وامرض قلبه»^(٨)، ومنه قولها

(١) تفسير ابن عربي ٢/٧٥٥.

(٢) أمالي المرتضى ١/١٥٣.

(٣) راجع ترجمته في سير أعلام النبلاء ٥/٣٦٢.

(٤) أبو نعيم الحافظ - حلية الأولياء ٢/٣٦٢.

(٥) رسائل - ٤٥ فقرة ٥.

(٦) راجع ترجمتها في سير أعلام النبلاء ٨/٢٤١.

(٧) السابق.

(٨) خطب - ١٠٨ فقرة ٣.

الباب الرابع: القضايا الكلامية والتأملات الكونية كما تبدو في نهج البلاغة..... ٥٧٥

أيضاً «ان السلامة من الدنيا ترك ما فيها»^(١) وهو مأخوذ من قول علي عليه السلام «الا وان الدنيا دار لا يسلم منها إلا فيها»^(٢).

ولذي النون المصري^(٣) (ت ٢٤٠) الكثير من الاقوال المتأثرة في معانيها بما يروى عن علي عليه السلام أيضاً: من ذلك ما قاله في سبب نصب العباد وضايمهم في هذه الدنيا «ذكر المقام، وقلة الزاد وبعد السفر»^(٤) ويكاد يكون تأثره بمعاني علي عليه السلام بينا، في ذكره لصفات المؤمنين، وإن كان بين أسلوب التناول بون شاسع تكاد معاني ذي النون تتضاءل إزاء معاني علي عليه السلام^(٥).

إضافة إلى ذلك فلقد حاول معظم المتصوفة التزيي بمثل ما كان علي عليه السلام يلبس «حتى انهم لما اسندوا الباس خرقة التصوف ليجعلوه أصلاً لطريقتهم وتحليتهم وقفوه على علي رضي الله عنه»^(٦)، وكأنهم استلهموا ذلك من تصرفه الكامن في قوله «والله لقد رقت مدرعتي حتى استحيت من راقعها، ولقد قال لي قائل: ألا تنبذها عنك؟ فقلت: اغرب عني، فعند الصباح يحمد القوم السرى»^(٧).

ومحاولة لتوكيد نسبة التصوف لعلي عليه السلام، فلقد تناول بعض شراح نهج البلاغة

(١) ابن الجوزي - صفة الصفوة - ٢٩/٤.

(٢) خطب - ٦٢.

(٣) راجع ترجمته في سير اعلام النبلاء ١١/٥٣٢.

(٤) أبو نعيم السابق ٩/٣٤٦. وقارن القول بما ورد بنفس المعنى عند علي عليه السلام حكم - ٧٥.

(٥) يمكن المقارنة بين القولين بمراجعة مقولة ذي النون في حلية الأولياء ٩/٣٤٦، ٣٤٩ بما ورد من صفات ضمن الخطبة ٢٨٧.

(٦) مقدمة ابن خلدون ص ٦٣٠.

(٧) خطب - ١٦١ - فقرة ٢.

نصوصاً منه، بتحليل معانيها تحليلاً صوفياً، متأولين بعض تعبيرات علي (عليه السلام) على أنها مصطلحات صوفية قد ابتكرها للغرض ذلك.

يتناول ابن أبي الحديد النص السادس والثمانين من باب الخطب بالتحليل والشرح، سالكا في ذلك أسلوب المتصوفة في تأويل المعاني معلقاً على النص بقوله «وأعلم أن هذا الكلام منه أخذ أصحاب علم الطريقة والحقيقة علمهم، وهو تصريح بحال العارف ومكانته من الله تعالى»^(١) وتبلغ تأويلات المتصوفة ذروتها في شرح النص عند ميثم البحراني، حيث تكرر تعبيرات الصوفية ومصطلحاتهم مثل (شروق المعارف الإلهية على مرآة سره، استكثر من ذكره حتى صار الذكر ملكة له، وتجلي المذكور في أطوار ذكره، الكمالات النفسية التي تفاض على العارف، الوصول إلى مراحل عزة الله، وتوجيه سره إلى مطالعة أنواره واستشرافها، قد وقف عليها العارفون ودخلوا منها إلى حضرة جلال الله...»^(٢) إلى غير ذلك من مصطلحات صوفية (كالعارف والسالك، والاشراق)^(٣) بحيث استحال النص إلى معرض للفكر الصوفي.

(١) شرح ابن أبي الحديد ٦/٣٦٥ وللاطلاع على الشرح كاملاً من ص ٣٦٧ حتى ٣٧٢.

(٢) شرح ميثم البحراني ٢/٢٩١، ٢٩٢.

(٣) العارف - من المعرفة التي يقسمها الصوفية على قسمين:

أ. معرفة استدلالية، وهي معرفة الخالق سبحانه بالاستدلال بالآيات على خالقها، وهي درجة الراسخين في العلم.

ب. معرفة شهودية ومبناها الاستدلال بالله سبحانه على الآيات التي خلقها، وهي درجة الصديقين أصحاب المشاهدة، وهم العارفون عند الصوفية. راجع: التهانوي - كشف اصطلاحات الفنون ٢/٩٩٥-٩٩٦. والسالك: في المفهوم الصوفي هو الذي يطهر نفسه من جميع الدنيا الدنيوية بسلوك الطريق الاقوم، وهو الانتقال من منزل عبادة بالمعنى وانتقال بالصورة من عمل مشروع

لكن لو تأملنا النص بنظرة محايدة، خالية من كل أفكار مسبقة، بعيدة عن أية تأويلات لمعاني مفرداته وعباراته، سنجد أنه لا يغدو كونه وصفا مثاليا لعباد الله المتقين، الذين كان يتمنأهم علي عليه السلام فيمن حوله من رجال. بعد ان عايش نماذج منهم في واقع الحياة ممثلين في صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم، ممن عمّر الإيمان قلوبهم، فاستحال الإسلام في نفوسهم إلى علم مقرون بعمل، وتركوا الحياة ولم يرزأوا من حطام الدنيا شيئا، فإيمانهم لم يكن سلبيا استبطانيا مقصورا على التأمل والرحلات الروحية، فالواحد منهم كما يصفه علي عليه السلام «مصباح ظلمات كشاف عشوات مفتاح مبهمات دفاع معضلات، دليل فلوات»^(١) أي أنه بجانب إيمانه العميق وتورعه عن المحظورات، فإنه متفاعل مع مجتمعه تفاعلا تاما بحيث لا يترك مجالا لمشاركة في اصلاح أو بناء إلا أمه، ويتجلى ذلك بمعنى من خلال صيغ المبالغة «كشاف، مفتاح، دفاع» اي انه في تواصل تام ومستمر مع الناس في كل طريق يؤدي إلى الخير والسعادة، وتفاعله ذاك، جعله كما يقول علي عليه السلام يلزم نفسه «العدل، فكان أول عدله نفى الهوى عن نفسه يصف الحق ويعمل به، ولا يدع للخير غاية إلا أمها، ولا مظنة إلا قصدها»^(٢) وكل تلك الصفات تنفي عنه السلبية التي تقبع الإنسان داخل ذاته، ففكرة النص كما نتصورها، بعيدة عن الفكر الصوفي المحبوس داخل التأمل الروحي والمقصود على الزهد السلبي، وليس أدل على ذلك بأن الفكرة الثانية من النص المتممة له تعمد إلى

على طريق القرية من الله إلى عمل مشروع بطريق القرية إلى الله بفعل وترك... وانتقال من مقام إلى مقام ومن اسم إلهي إلى اسم، ومن تجل إلى تجل، ومن نفس إلى نفس - التهانوي السابق ٦٨٦/١، وسعاد الحكم - المعجم الصوفي ص ٥٨٥.

(١) خطب - ٨٦ - فقرة ١.

(٢) خطب - ٨٦ - فقرة ١.

وصف حال الجهال بحقيقة الإيمان في شخص من «تسمى عالماً»^(١) فمضمون النص هو كشف لحقيقة العالم وفهمه للحياة من منظور اسلامي، وقد تناوله علي عليه السلام بالعلاج من زاويتي الايجابية والسلبية، في محاولة منه لتبصير أصحابه بالعالم العارف بقيمة الحياة المتزن في معاملاته وفي أسلوب عيشه بما يرضي ربه ويعود بالنفع على مجتمعه.

واستكمالا لما قيل عن فكر علي عليه السلام التصوفي، نخرج على قوله «قد اجبى عقله، وأمات نفسه حتى دق جليله، ولطف غليظه، وبرق له لامع كثير البرق، فأبان له الطريق، وسلك به السبيل، وتدافعته الابواب إلى باب السلامة، ودار الإقامة، وثبتت رجلاه بطمأنينة في دار القرار والأمن والراحة، بما استعمل قلبه، وأرضى ربه»^(٢). فلقد أوردنا النص كاملا، كما ذكره الشريف الرضي وهو على ما يبدو مجتزأ من خطبة أو موعظة، أو رسالة، لأن سياقه يشعرنا انه مفصول عن كلام سابق عليه، كان بودنا لو عثرنا عليه، لنكون صورة كاملة عن فكرة النص، نستطيع على ضوءها معرفة مراد علي عليه السلام من وصفه ذلك، ومن هو المعنى بتلك الصفات، وعلى كل فالنص بشلكه الذي بين أيدينا، قابل للتأويل بحسب وجهة نظر قارئه والمتأمل في عباراته، فابن أبي الحديد قد وجه معانيه توجيها صوفيا خالصا، حين الحق به فصلا في مجاهدة النفس^(٣) وثنان في الرياضة النفسية^(٤) وثالث في تأثير الجوع في صفاء النفس^(٥)، ورابع في

(١) السابق - فقرة ٢.

(٢) خطب - ٢١٦.

(٣) راجع شرح النهج ١١ / ١٢٧.

(٤) المصدر السابق نفسه ١١ / ١٣٤.

(٥) المصدر السابق نفسه ١١ / ١٣٧.

الباب الرابع: القضايا الكلامية والتأملات الكونية كما تبدو في نهج البلاغة..... ٥٧٩

المكاشفات الناشئة عن الرياضة النفسية^(١)، وكلها تتعلق بفلسفة التصوف، وفي ظل تلك الفصول الأربعة قام بشرح النص، فاستحال من وجهة نظره إلى صفات (العارف) في المفهوم الصوفي، في سلوكه الطريق للوصول إلى ذات الله، بأعمال العقل ومجاهدة النفس بالجوع والعطش وحرمانها ملاذ الحياة، والتدافع في رحلة النفس من باب إلى باب، بعد اشراق نور الإيمان في قرارة النفس بعد ترويضها، فاستجابت وثبتت بطمأنينة وراحة على اعتبار الذات القدسية، فالبراق اللامع ضمن النص كما يراه ابن أبي الحديد «هو حقيقة مذهب الحكماء وحقيقة قول الصوفية أصحاب الطريقة والحقيقة»^(٢) والتدافع من خلال الأبواب هو «من مقام من مقامات القوم إلى مقام فوقه»^(٣) وهو ما يطلق عليه الصوفية عبارة (الرحلة الروحية)^(٤).

وبنفس الأسلوب يتناول ميثم البحراني شرح النص بالتمهيد له بالقول «هذا فصل من أجل كلام له في وصف السالك المحقق إلى الله، وفي كيفية سلوكه، وأفضل أموره»^(٥).

ونحن لا نتفق مع الشارحين فيما ذهبوا إليه من تأويل، ذلك أن قول علي عليه السلام بإحياء العقل، من وجهة نظرنا، هو أعماله في التدبر، وتغليب حكمه في التصرفات الإنسانية على وساوس النفس بكتبها وهو ما كنى عنه بالقول

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) شرح ابن أبي الحديد ١١/١٣٧.

(٣) المصدر السابق نفسه ١١/١٤١.

(٤) الرحلة - راجع سالك ص ٥٧٦ إحالة (٣) من هذا البحث، هامش - ب - فانتهال السالك من مقام إلى مقام، هو ما يسمى بالرحلة عند المتصوفة.

(٥) شرح ميثم ٤/٥٣.

(وأما نفسه) أي زجرها وصددها، أما قوله (حتى دق جليله ولفظ غليظه) فليس يعني به مجاهدة النفس «بالجوع والعطش والسهر والصبر على مشاق السفر والسياحة»^(١) بل المقصود به صفاء فكره، وتواضع نفسه، فاستطاع ان يشق طريقه في الحياة باستنارة عقله، بمأمن عن كل ما يسيء إليه ويزل قدمه، فكانت راحته بإرضاء ضميره في تعامله مع الناس، وسلامة نفسه بسلوكه الطريق التي ترضي ربه، فالنص في أساسه مبني على فكرة علي عليه السلام في تعامل الفرد مع المجتمع من حوله، بحيث يمكننا اعتبار فكرة النص، تتمثل في توجيه تربوي للفرد ضمن الجماعة، من خلال اعمال العقل في التصرفات الفردية وتلافي السقوط في مهاوي الشهوة، والنأي بالنفس عن الانانية وحب السيطرة في التعامل مع الحياة، وهو ما تتفق فيه مع ما ورد عند محمد جواد مغنية: بأن غرض علي عليه السلام من النص «ان يكون كل مسلم صورة مثل للإسلام على طراز»^(٢) ذلك المسلم الذي وصفه.

ثم ان قول علي عليه السلام «لو كشف لي الغطاء ما ازدت يقيناً»^(٣) لا يحمل في مضمونه أي بعد صوفي حتى لو حاولنا تعسف تأويله، لأن الحرف (لو) يحول دون ذلك التأويل على أساس أن معرفة ما وراء المحسوسات هو من المستحيلات فعلي عليه السلام يقصد من المقولة، ان إيمانه بالله سبحانه وتعالى قد بلغ من القوة والمتانة والأحكام، مما لا يحتاج معه إلى مزيد من البراهين الماورائية التي تقوي من دعائم ذلك الإيمان.

(١) شرح ابن أبي الحديد ١١/١٣٧.

(٢) في ظلال نهج البلاغة ٣/٢٨٤.

(٣) شرح ميشم المئة المختارة ص ٥٢.

أما قول علي عليه السلام بترقيع مدرعته^(١)، فهو تعبير عن زهد في زخارف الدنيا مختص بشخصه أي انه سلوك ذاتي قصره علي عليه السلام على نفسه من منطلق مسؤوليته كإمام قدوة لجميع الناس، والذين اغلبهم من الفقراء والمعدمين، والفكرة نابعة من اقتناعه المتمثل في قوله «ان الله تعالى، فرض على أئمة الحق أن يقدرُوا أنفسهم بضعفة الناس، كيلا يتبيغ لفقير فقره»^(٢)، فتصرف علي عليه السلام كما يبدو من المقولة هو تعبير فكري لما يجب ان يعمل به أولو الأمر تجاه رعاياهم بحسب مقتضيات العصر، وبحسب الظروف التي يعيشها الناس ويمكن استخلاص ما يؤيد مقولتنا من خلال مناقشة جرت بين رجل وبين جعفر الصادق عليه السلام حفيد علي عليه السلام، فحواها قول الرجل للصادق عليه السلام «اصلحك الله، ذكرت أن علي بن أبي طالب عليه السلام، كان يلبس الخشن، ويلبس القميص بأربعة دراهم، وما أشبه ذلك، ونرى عليك اللباس الجيد؟... فقال له: إن علي بن أبي طالب عليه السلام كان يلبس ذلك في زمان لا ينكر، ولو لبس مثل ذلك اليوم لشهر به، فخير لباس كل زمان لباس أهله»^(٣).

وبعد أن نفينا التصوف عن فكر علي عليه السلام يمكننا الدخول في فكره الزهدي من خلال فهمنا لفلسفة الزهد عند آل البيت عليهم السلام في ضوء مقولة الصادق عليه السلام تلك.

استوعب الوعظ بالزهد وذم الدنيا مساحة واسعة في نهج البلاغة^(٤)، وقد بلغت تلك النصوص - مع كثرتها - الذروة في توظيف المعاني، حتى ليكاد المتأمل

(١) راجع المقولة في ص ٥٧٥ من هذا البحث.

(٢) خطب - ٢٠٣ ويتبيغ - بهيج.

(٣) الكليني - الكافي ٦ / ٤٤٤.

(٤) راجع علي سبيل المثال لا الحصر: خطب - ٦٣، ٨٠، ٨١، ٨٢، ١٠٢، ١١٠، ١٦١.

فيها يحس داخل قرارة نفسه أنها صادرة عن «من لاحظ له في غير الزهادة، ولا شغل له بغير العبادة، وقد قبع في كسر بيت، أو انقطع إلى سفح جبل، لا يسمع إلا حسه ولا يرى إلا نفسه»^(١) ولدقة في المباني التي بلغت كثير من تلك النصوص فيتناول علي عليه السلام لمعاني الزهد، ووصف الدنيا، ومال الإنسان، فقد علق ابن أبي الحديد على واحد منها بقوله «من أراد أن يعظ ويخوف ويقرع صفاء القلب، ويعرف الناس قدر الدنيا، وتصرفها بأهلها، فليأت بمثل هذه الموعظة، في مثل هذا الكلام الفصيح وإلا فليمسك... وأقسم بمن تقسم الأمم كلها به لقد قرأت هذه الخطبة منذ خمسين سنة وإلى الآن أكثر من ألف مرة، ما قرأته قط إلا وأحدثت عندي روعة وخوفا وعظمة، وأثرت في قلبي وجيبي، وفي أعضائي رعدة»^(٢) مما يعني أن كثرة النصوص من حيث الكم، لم تخل بمضامينها من حيث الكيف، وهذا بطبيعة الحال، ما جعل الزهاد والمتصوفة ينهلون منها ما يتفق وأفكارهم، جاعلين من علي عليه السلام قدوتهم من خلال ما أثر عنه من أقوال، دون قرنها بتصرفاته وأفعاله، إذ من المفروض على المقتدي أن يأخذ بأفكار المقتدي به متكاملة من حيث القول المقرون بالعمل، لذلك لا بد لنا من الوقوف على بعض الجوانب الخاصة من سيرة علي عليه السلام، والتي تمثل مفهومه للتفاعل مع محيطه من خلال نظرتة للجانب المادي كطرف مقابل للجانب الروحي الذي يمثل الزهد أهم أركانه.

لقد استطاع علي عليه السلام بكده وعمله يده - أن يمتلك ضياعا، خارج المدينة وفي

(١) الشريف الرضي - مقدمة نهج البلاغة - ص ٢٠ - ط - الأندلسي.

(٢) شرح ابن أبي الحديد ١١/١٥٢، ١٥٣.

الباب الرابع: القضايا الكلامية والتأملات الكونية كما تبدو في نهج البلاغة..... ٥٨٣

ينبع^(١) وكانت هذه الضياع تدر عليه - حسب ما يرويه هو بنفسه - أربعين ألف درهم في العام^(٢)، ولكنه لم يكن يأخذ منها إلا مبلغ الكفاف، حتى أنه لما تولى الخلافة، وانتقل إلى الكوفة، كان لا يأخذ من أموال المسلمين شيئاً، فقد كان ينفق على نفسه وعلى عياله مما تدره عليه ضياعه في المدينة، وذلك بالقدر الذي يكاد يقيم أوده ومن معه من أهله، موقفاً بقية أمواله على فقراء المدينة ومساكينها^(٣)، وهذا التصرف من قبل علي عليه السلام نابع من إيمانه بقيمة المال من وجهة نظر إسلامية، متمشية مع قول الرسول ﷺ لقيس بن عاصم بشأن المال الذي يجوز للمسلم امتلاكه «نعم المال أربعون والكثير ستون، وويل لأصحاب لمئين، إلا من أعطى الكريمة، ومنح العزيزة، ونحر السمينة، فأكل وأطعم القانع والمعتز»^(٤)، فالرسول ﷺ لم يحرم الثراء حين قصر التملك على ستين ناقة، ولكنه توعد بعذاب الله أولئك الذين لا يستغلون ثروتهم في صالح المجتمع، ومساعدة المحتاجين طبقاً لقوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(٥) وهو ما يمكن استخلاصه من فكر علي عليه السلام حين حاد أحد أصحابه بالبصرة في مرض ألم به فوجد اتساع داره، فقال له «ما كنت تصنع

(١) راجع ص ١٦١ من هذا البحث وأيضاً مقولته عما تدره عليه ضياعه من أموال ص ٩٨.

(٢) راجع: أحمد بن حنبل - كتاب الزهد ص ٥١.

(٣) راجع رسائل - ٢٤.

(٤) أمالي المرتضى - ١ / ١٠٧ ويمكن مراجعة الخبر بتوسع هناك أيضاً، والمعتز: الفقر المتعرض للمعروف دون أن يسأل.

(٥) التوبة / ٣٤.

بسعة هذه الدار في الدنيا؟ وأنت إليها في الآخرة كنت أحوج؟ بلى إن شئت بلغت بها الآخرة، تقري فيها الرحم، وتطلع منها الحقوق مطالعها، فإذا أنت بلغت بها الآخرة»^(١)، فالدار باتساعها المبالغ - فيه تمثل - من وجهة نظر علي عليه السلام - بذخا مبالغ فيه، إذا استغلت في الصالح العام، الا ان ذلك لا يعني أن علياً عليه السلام يرى أن من واجب كل إنسان، ان يعيش عيشة الكفاف، ويضيق على نفسه وعلى أهله بسكنى الدور الضيقة، وهو القائل «الدار الضيقة العمى الاصغر»^(٢) فالمقولة تفند القول بعدم توسع الإنسان على نفسه. ثم إن علياً عليه السلام من ناحية ثانية، ينهى عن الرهينة والانقطاع إلى العبادة، والزهد في ملذات الحياة، فحين سمع بأن أحد أصحابه قد لبس العباءة وتخلّى عن ملذات الدنيا، قال له «يا عدي نفسه لقد استهام بك الخبيث، أما رحمت أهلك وولدك أترى الله أحل لك الطيبات وهو يكره أن تأخذها، أنت أهون على الله من ذلك»^(٣). لما نزع الزهدي في فكر علي عليه السلام مبني على فهم حقيقي للحياة على أساس حاول علي عليه السلام الاخذ بيد ابناء مجتمعه للرجوع بهم إلى جادة الإيمان فهو نتيجة لتطور الظروف الاجتماعية أثر تدفق الثروات على العرب المسلمين من ناحية، واختلال التوازن في بنية المجتمع في صالح فئة معينة من ناحية اخرى، وهو ما عبر عنه علي عليه السلام بقوله «اضرب بطرفك حيث شئت من الناس فهل ترى الا فقيرا يكابد فقرا، أو غنيا بدل نعمة الله كفرا»^(٤) أي أن المجتمع قد بلغ ذروة التناقض الخطير بانتشار الفقر والجوع بين عامة الناس في مقابل استئثار فئة قليلة من الأغنياء،

(١) خطب- ٢٠٣.

(٢) شرح ابن أبي الحديد ٢٠ / ٣٤١.

(٣) خطب- ٢٠٣.

(٤) خطب- ١٢٩.

الباب الرابع: القضايا الكلامية والتأملات الكونية كما تبدو في نهج البلاغة ٥٨٥
بالمال وانفاقه على ملذاتها وتدعيم مصالحها الذاتية غير مكترثة بمعاناة الفقراء
وحرمانهم.

ففكرة الزهد المنتشرة في النهج، تعني الاعتدال في الانفاق كيلا تحتل احدى
كفتي الميزان لصالح فئة اجتماعية على حساب الفئات الاخرى، وبتعبير اخر ان
الاستمتاع المفرط في مقتنيات الحياة من قبل شريحة من شرائح المجتمع، لأبد
وان يكون على حساب شرائح أخرى محرومة من امس ما تحتاجه، وهو ما عبر
عنه علي عليه السلام في قوله «ما جاع فقير، الا بما متع به غني»^(١) أي ان التخمّة لا
يمكن ان تكون الا على حساب الجوع - فالدنيا التي يزهدّ علي عليه السلام الناس فيها
«هي دنيا المتخمين من أكل الحرام والمنغمسين في الرذائل والآثام»^(٢) والجديرة
بأن تنبذ لضالة الجانب الروحي فيها أو انعدامه منها.

فالزهد - كما يصوره فكر علي عليه السلام - ليس هروباً بترك الدنيا والتفرغ للعبادة
خوفاً من الحساب، ولا هو تصوف غايته صفاء النفس بانفصالها عن عالم
المادة للوصول إلى رحاب الله من خلال شطحات لا تناسب والمسؤولية التي
اناطها الله بالإنسان في تعمير الأرض، وقد مر بنا مقولته التي فحواها استطاعة
المؤمن الاستمتاع بما في الدنيا بأحسن ما يستمتع به غيره، وفوزه بالآخرة دون
ذلك الغير، فاستطاع الفوز بالدنيا والآخرة، لأنه قد عرف كيف يتعامل مع
الدنيا^(٣) وذلك التعامل هو احد جانبي الزهد الذي يرمي علي عليه السلام إليه ضمن
قوله «الزهادة قصر الأمل، والشكر عند النعم، والتورع عن المحارم»^(٤) أي

(١) حكم - ٣٣٦.

(٢) محمد جواد مغنية - في ظلال نهج البلاغة ٢ / ١٤٧.

(٣) ذكرت المقولة ص ٥٧٢ من هذا البحث.

(٤) خطب - ٨٠.

عدم التهالك على الدنيا واجتناب كل ما يسيء إلى الإنسانية سواء على الصعيد الفردي في شخص الزاهد، أم على الصعيد الاجتماعي في تعالي الأفراد مع بعضهم البعض، انطلاقاً من المفهوم الإسلامي المتمثل في ربط الإنسان بواقعه ليؤثر فيه ويجوله إلى واقع يتأجج فيه الخير والعمل الصالح»^(١)

اما الجانب الثاني من التفكير الزهدي في حد ذاته ضرب من الجهاد الداخلي في محاولة لموازنة النفس بين المادة والروح وذلك كما يتبين لنا من تعريف علي عليه السلام له بقوله «الزهد كلمة بين كلمتين في القرآن الكريم، قال سبحانه ﴿لَكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ ومن لم يأس على الماضي، ولم يفرح بالآتي، فقد أخذ الزهد بطرفيه»^(٢). فالزهد بحسب ما يبدو في المقولة، تعامل مع واقع الحياة، يوازن النفس من الداخل بحيث لا تنجح إلى اليأس إذا ما خسرت أو منيت بالفشل، فتصاب بالإحباط والسقوط، ثم أنها لا تتهدى في السرور والفرح لمجرد حصولها على نجاح جزئي، فتصاب بالغرور، فتنسى في خضم سرورها متابعة الطريق مكثفة بها وصلت إليه، فالنجاح والإخفاق أمران محتملان وكلاهما يعادل الآخر في احتمال وقوعه، لذا يجب على الإنسان في هذه الحالة ان يكون واقعيًا في تعامله مع الحياة دون إفراط ولا تفريط فإن استطاع ذلك، فقد تمكن من الأخذ بطرفي الزهد.

ويمكن استخلاص مفهوم آخر للجانب الجهادي لمعنى الزهد في فكر علي عليه السلام، وهو الداعي إلى بذل الروح في سبيل نصرته الدين، والذود عن المبادئ السامية، والدفاع عن حياض الوطن، على اعتبار أن الحياة نفق يعبره الإنسان

(١) بسام مرتضى - فلسفات اسلامية ص ٣٧.

(٢) حكم - ٤٤٨ - والآية من سورة الحديد/ ٢٣.

الباب الرابع: القضايا الكلامية والتأملات الكونية كما تبدو في نهج البلاغة..... ٥٨٧

بأعماله للوصول إلى الحياة الحقيقية والابدية، والجهاد بالنفس من أقوم السبل وأعظمها للوصول إلى تلك الحياة الخالدة من وجهة نظر الإسلام، على اعتبار أن الجهاد عملية تجارية مردودها الربح الخالد العائد على العبد من قبل خالقه كما في قوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ (١).

وعلى ذلك فقد تدافع المسلمون الأوائل في طريق الجهاد، بإيمان ليس له حدود وحماس منقطع النظير يبذل النفوس في سبيل الاستشهاد، لكون أكثرهم من الفقراء والمستضعفين الذين سحقتهم الحياة، وذاقوا مرارة العيش، فتاقوا إلى حياة أفضل، فاستفاد الدين أيما فائدة من حماسهم ذلك، إذ انتشر في فترة وجيزة في بقعة من المعمورة شملت أملاك أعظم امبراطوريتين شريقتين. ولكن سرعان ما خبا ذلك الحماس، وضعفت روح المقاومة حين ذاق أولئك المحاربون حلاوة الحياة، فبخلوا بنفوسهم، فوجد علي عليه السلام نفسه بين رجال متخاذلين يتهربون من الجهاد بشتى الوسائل والحجج (٢)، لذلك كان التزهيد في الدنيا ومقتنياتها وتكراره في خطبه ورسائله ووصاياها، محاولة لإعادة جذوة الحماس إلى النفوس، وحثها على الجهاد بالترغيب في الآخرة ونعيمها، تذكيرا بما ورد في القرآن الكريم بشأن ذلك وأسوة بالمسلمين الأوائل الذين وصفهم في معرض المقارنة بمن حوله من الرجال بقوله «لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، فما أرى أحد يشبههم منكم لقد كانوا يصبحون شعثا غربا، وقد باتوا سجدا وقياما، يراوحون بين جباههم وخدودهم، ويقفون على مثل الجمر من ذكر

(١) التوبة / ١١١.

(٢) راجع خطب ٢٧، فقرة ٢ وقد عرضنا لها في ص ٤٨٠ من هذا البحث.

معادهم...»^(١) فالوصف هنا - بما يحويه من معان زهدية عميقة، في مقابلته بحال أصحابه في تقاعسهم عن الجهاد بخلا بأنفسهم وركونهم للحياة بما يكتنفها من ذل وهوان في حقيقته دعوة من خلال التفرغ للزهد في الدنيا والإقبال على الآخرة للتخلي بزهد رجال الرسول ﷺ، الذين باعوا أرواحهم لله في سبيل الحصول على الحياة الأبدية، بعكس رجاله الذين رضوا «بالحياة الدنيا من الآخرة عوضاً، وبالذل من العز خلفاً»^(٢).

فالزهد في فكر علي عليه السلام هو محمول لربط الإنسان بواقعه بعري متينة من الإيمان الواعي القائم على دعائم روحية ومادية متعادلة ومتمازجة في آن واحد. أما أسلوبه الزهدي الصارم في مأكله وملبسه، فلم يكن يعني به أية صورة من صور التصوف، ولم تصدر منه أية دعوة لأصحابه باحتذاء أسلوبه المتكشف في الحياة، اللهم إلا لولاته على الأقاليم، بهدف تذكيرهم، حتى لا ينسوا، في خضم تدفق المال، عامة الناس من الفقراء والمحتاجين على أساس أنه لا يحس بألم الفقير إلا الفقير فالدعوة الزاهدة في النهج مبنية على علم مقرون بعمل، غايته سعادة الفرد في ظل مجتمع يضع المادة في مكانتها التي ترقى بإنسانيته أثناء تصرفه فيها مهما كان حجمها، فيكون مستعداً للبدل والعطاء تحت أية ظروف، سواء أكان ذلك بالروح أم بالمال على أساس إيمانه بفناء كليهما - وهذا الإيمان المتفاعل مع قيم الحياة الواقعية ينأى بمفهوم الزهد الذي يدعو علي عليه السلام إليه عن معنى التصوف الذي يحيل الحياة إلى نوع من التعبد الروحي الخالص، مما يتنافى وجوهر الإسلام على عدم الفصل اطلاقاً بين المادي والروحي، لأنها «درجتان

(١) خطب - ٩٦ - فقرة - ٤.

(٢) خطب - ٣٤ - فقرة - ١.

الباب الرابع: القضايا الكلامية والتأملات الكونية كما تبدو في نهج البلاغة..... ٥٨٩
من درجات الوجود»^(١) وذلك الفهم الواعي لطبيعة الحياة هو الذي جعل
للحكمة قيمتها الفكرية في النهج.

٣. الأسلوب الحكمي كما يبدو في فكر علي عليه السلام

بلغت الحكم المنسوبة إلى علي عليه السلام ذروتها من حيث الكم والانتشار، حتى لا
نكاد نجد كتابا من كتب التراث العربي، سواء أكان موضوعه «الأدب»^(٢)، أو
السياسة^(٣)، أو الأخلاق^(٤)، أو الفلسفة^(٥)،... يخلو من قول مأثور منسوب
إلى علي عليه السلام، إضافة إلى تلك الكتب^(٦) التي تنافست فيما بينها لجمع أكبر قدر

(١) محمد باقر الصدر فلسفتنا ص ٣٣٦.

(٢) راجع الحصري القيرواني - زهر الآداب ١/٤٣، المارودي - تسهيل النظر وتعجيل الظفر - ص
٤٠، ٩٠، نصير الدين الطوسي - أخلاق محتشمي ص ٣٦ بالإضافة إلى معظم أبواب الكتاب،
مسكويه - الحكمة الخالدة ص ١١٠ وما بعدها.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) المصدر السابق نفسه.

(٥) المصدر السابق نفسه.

(٦) من القدماء الذين اهتموا بجمع حكم الإمام علي عليه السلام: الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) في كتابه (المئة
الكلمة المختارة لأمر المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام) وقد قام بشرح مختارات الجاحظ كثير من
الأدباء نذكر منهم: ميثم البحراني (ت ٦٧٩ هـ) في كتابه: شرح المائة كلمة - طبع في إيران - وقد
عني بنشره مير جلال الدين الحسيني سنة ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م) مع شرحين آخرين للمئة كلمة،
إحدها لمؤلف مجهول الوفاة اسمه كما ذكر في نهاية الشرح عبد الوهاب ولد خوجة أمير إدرنه،
وهو إبراهيم بن يسير باشان أما الكتاب الثالث ضمن المجموعة فهو: مطلوب كل طالب من
كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، بشرح (الوطواط) محمد بن محمد رشيد الدين (ت ٥٧٣).

ممكن من تلك المأثورات الحكمية. على أن ذلك الكم من الحكم والتي يرجح نسبة معظمه إلى علي عليه السلام، لم يكن في أكثره سوى خطب، ووصايا^(١) جزأها أولئك المؤلفون في جمل وعبارات اختاروا منها بغيتهم، وما يتناسب ومناهجهم التأليفية، مما يوصلنا إلى نتيجة مفادها ان معظم تلك الأقوال الحكمية المنثورة في طيات الكتب، أو المجموعة في شكل جمل وعبارات متفرقة، هي في الأصل عبارات مفصولة عن سياقاتها العملية، بحيث يمكن النظر في مضامينها من بعدين:

فمن خلال السياق الذي وردت العبارة فيه، يمكن إدراك مدى فاعليتها لحظة قولها، وتأثيرها في الوقت المرتبط بمناسبتها.

أما في حالة قراءتها كوحدة منفصلة عن سياقها ومناسبتها فيمنحها بعدا انسانيًا آخر، يتضمن معنى حياتيا تأمليا يحاول المتطلع فيه، فهم واقعه في ضوء

وضم كتاب الأمدي (ت ٥٥٥) (غرر الحكم ودور الكلم) ما يقارب من احد عشر الف ومئة وثمان وسبعين حكمة ومقولة منسوبة لعلي عليه السلام، ومعظمها توزيع للخطب والوصايا المأثورة عن علي عليه السلام في شكل جمل وعبارات قصيرة مرتبة على حروف المعجم وكان غرض المؤلف من تأليف الكتاب فيما يبدو من مقدمته تبيان قصور باع الجاحظ والكتاب في نشرته الأخيرة من توزيع دار القارئ - بيروت ١٩٨٧ هذا وقد ختم ابن أبي الحديد (ت ٦٥٣) شرحه للنهج بألف عبارة قصيرة لعلي عليه السلام اختارها بنفسه ضمنها حكما وأدعية. وفي العصر الحديث، جمع علي النجدي وزميلاه ألفا وثمانمئة وثلاثين حكمة ضمن كتابهم (سجع الحمام في حكم الإمام) من طبع دار القلم - بيروت - د.ت. ويبدو من مقدمة الكتاب أن طبعته الأولى قد صدرت ١٩٦٧. تلك بعض المؤلفات التي اعتنت بجمع حكم الإمام علي عليه السلام.

(١) راجع على سبيل المثال - القاضي القضاعي (ت ٤٥٤) - دستور معالم الحكم - ط دار الكتاب العربي - بيروت ١٩٨١ - ما ورد من حكم في الباب الرابع من ص ٥٩ حتى ص ٦٦ وقارن ذلك بما ورد من حكم ضمن الرسالة (٣١) في النهج، فسجد ان مؤلف الكتاب قد قام بتوزيع الوصية في كتابه بحسب المنهج الذي رسمه لنفسه.

ذلك التعبير المنسجم مع ما يصطرع بداخله.

فقول علي عليه السلام «ما غُزي قوم في عقر دارهم إلا ذُلوا»^(١) قد ورد عند علي عليه السلام ضمن خطبة بغرض توبيخ أصحابه لتواكلهم وتحاذلهم عن دفع الغارات عن أطراف بلادهم، مما جعلهم غرضاً لطمع الأعداء في كل وقت، فاستحالت حياتهم إلى رعب وذل وخوف، فالعبارة من حيث سياقها العملي ضمن النص وصف لتحصيل حاصل يراد به إثارة النخوة وبث الحماس. أما العبارة في سياقها التأملي مقطوعة عن مناسبتها، فتفتق في ذهن المتأمل فيها إبعاداً معنوية يمكن الاستفادة منها كأسلوب عسكري يحاول من خلاله القادة المسؤولون تجنب أوطانهم الدمار والذل بنقل الحرب إلى أرض الأعداء بأية وسيلة ممكنة. فصدق التجربة ولد في أرجائها الحرارة والحماس في مناسبتها من ناحية، وتاح لها الخلود كعبارة منفردة من ناحية أخرى لصلاحيته مضمونها في كل زمان. كما ان قوله «سل تفقهاً ولا تسأل تعنتاً»^(٢) هو تعبير عن تبرمه ممن كان يسأله لمجرد المكابرة والتصيد لا بقصد التعلم، فكانت المقولة تعبيراً عن ضيق علي عليه السلام بأسلوب السائل المبني على الإثارة، وقد بقيت العبارة حاملة تلك الإثارة الكامنة في كلمة (تعنتاً) بحيث يمكن قولها إلى كل لجوج، يرمي من وراء أسئلته الإثارة وتصيد الأخطاء.

فالحكمة على هذا الأساس عملية من كلا جانبيها: الواقعي، المتمثل في مناسبتها والتأملي، المتمثل في ممارستها بالأخذ بفحواها في المناسبة المشابهة لها في أثناء التعامل مع الحياة، وانسيابها المنسجم ضمن مناسبتها ينأى بها عن الصياغة

(١) خطب - ٢٧ - فقرة ٢.

(٢) حكم - ٣٢٨.

المرتبلة المنتقاة الخالية من أي مضمون عملي، لأنها تعبير صادق عن خلاصة تجربة ناضجة وعميقة، قد تبدو في كثير من الأحيان، أقدم من قائلها لما تحويه من أبعاد زمانية ضاربة في اعماق تاريخ الإنسانية، مما يعني أن تجربة قائلها الحياتية أكبر من سنة المعاش، وعلي عليه السلام في تصوره لحجم تجربته وعمقها، على وعي تام، وفي ذلك يقول «إني وإن لم أكن عمّرتُ عمّرَ من كان قبلي، فقد نظرت في أعمالهم وفكرت في اخبارهم، وسرت في آثارهم، حتى عدت كأحدهم، بل كأني بما انتهى إلي من أمورهم قد عمرت مع أولهم إلى آخرهم، فعرفت صفو ذلك من كدره، ونفعه من ضرره»^(١) فنظرة علي عليه السلام إلى الحياة - كما يبدو من المقولة - لم تكن محددة ببعدها الآني، وتجربة لم تكن محصورة في النطاق الضيق لحياته كإنسان، فهي مزيج من الممارسة المعاشة ممن خلال التعامل مع الواقع، والتأمل العميق في تجارب الأقدمين، ومن خلال تلك التجربة تولدت أساليبه الحكمية النابضة بالحياة، فالكثرة من حيث الكم، لا تعني عنده رصف الكلمات، وتدبيج العبارات لمجرد الوعظ السلبي، والداعي إلى الوضوح والاستكانة والتسليم بالأمر الواقع، شأنها شأن أية عبارة تصدر عن فيلسوف أو حكيم، لأنها في جلها لا تعتمد على الأحلام والتخيل في تصورها للحياة، لانطلاقها من واقع الحياة في حركتها ضمن جميع الاتجاهات الزمانية والمكانية وهي ليست فتوية موجهة لطبقة معينة، لا فردية يقصد بها شخص ما لذاته، لأنها بالنسبة لقائلها ذات ابعاد فكرية منسجمة مع نظرتة المتوحدة للحياة، ويمكن تتبع ابعادها، وتأثيراتها النفسية في نقاط ثلاث:

الأولى - الحكمة السياسية:

والمقصود بها العبارات الحكمية التي تتضمن جوانب من فكر علي عليه السلام السياسي أثناء مزاولته الحكم في مختلف ميادينه، فمن ذلك ما هو متعلق بالشؤون الإدارية، المتمثلة في توجيه ولاته، باتباع السياسة الحكيمة والصائبة في أثناء ممارستهم الحكم في ولاياتهم على الصعيدين الداخلي تجاه مواطنيهم والخارجي تجاه الأعداء، كالتحرز في إبرام المعاهدات معهم، كما في قوله «اعتصموا بالذمم في أوتادها»^(١) أي لا تتعاهدوا إلا مع من تشقون في وفائه والتزامه وصدقه.

والمشاورة وتقليب الأمور قبل الأقدام عليها من أهم العناصر التي يجب أن تأخذ بها القيادة الحكيمة كوسيلة من وسائل الاشراف في الحكم، ولبذل الجهد في تلافي الأخطاء بأنجع الأساليب، وفي ذلك يقول علي عليه السلام «من استقبل وجوه الآراء عرف مواقع الخطأ»^(٢) أي أن من يضع نصب عينيه آراء متعددة من أجل حل معضل ما، فلا بد من وصوله إلى بغيته من خلال مشاوراته.

والرضوخ إلى الحق مهما كانت مرارته، من أهم الدعائم التي تنبني عليها الحكومة الصالحة إذ يرى علي عليه السلام «أن الحق ثقيل مريء والباطل خفيف وبيء»^(٣) مما يعني عنده، عدم المكابرة إذا ما عرف الإنسان جانب الحق لقوله «من أبدى صفحته للحق هلك»^(٤) أي من حاول انكار الحق والتصدي له بعد

(١) حكم - ١٥٩ - راجع مناسبة هذه الحكمة عند ابن أبي الحديد ١٨ / ٣٧٢ ط إحياء التراث.

(٢) حكم - ١٧٧.

(٣) حكم - ٣٨٢ - ومريء - هنيء حميد العاقبة، وبيء - من الوباء أي المرض، أي وخيم العاقبة.

(٤) (٤) خطب - ١٦ - فقرة ٢، وحكم - ١٥٨ - من أبدى صفحته للحق - أي من كاشف الحق مصارحا

تأكد منه كان مصيره السقوط مهما أبدى من مقاومة. مع ملاحظة أن تخصيصنا الحكمة لميدان معين هو السياسة، لا يحددها في ذلك المجال بالذات لأنها كمقولة عملية صالحة للتعامل بها في جميع ميادين الحياة بما يتطابق ومناسبتها على المستويين الفردي والاجتماعي.

وقد يبدو على الحكمة في بعض جوانبها نوع من لمقاومة السلبية التي تجعل الفرد خانعا مستسلما، ولكن هذه الفكرة سرعان ما تتبدد، إذا ما وجدناها في الجانب الآخر تدعو إلى القوة المتعلقة، المتمثلة في الحزم، فالتعامل بأسلوب أخلاقي متحضر، لا يمنع الإنسان من الدفاع عن نفسه ومواجهة الشر بمثله إذا لم يجد وسيلة أخرى لدرء الخطر عن نفسه، وهو عين ما يمكن استنتاجه من قول علي عليه السلام «ردوا الحجر من حيث جاء، فإن الشر لا يدفعه إلا الشر» (١)، وعلي عليه السلام هنا لا يدعو إلى ما يسمى في العصر الحديث بالعنف، لأن قوله ذاك نابع من فكر إسلامي واضح يمثله قوله تعالى:

﴿فَمَنْ اَعْتَدَىٰ عَلَيَّكُمْ فَاَعْتَدُوا عَلَيَّ بِمِثْلِ مَا اَعْتَدَىٰ عَلَيَّكُمْ﴾ (٢)

ذلك هو جانب من جوانب السياسة في مآثورات علي عليه السلام الحكيمية.

ويتمثل الجانب الثاني في أسلوب تعامل الحاكم مع المحكوم من وجهة نظر علي عليه السلام وهي مبنية في جوهرها على ما انتهينا إليه عند استعراضنا لفكر علي عليه السلام السياسي (٣) ذلك بحيث يمكننا القول ان الحكمة في هذا الجانب، لا تعدو كونها خلاصة لذلك الفكر المقرون بالممارسة الميدانية للحكم، والمتمثلة

(١) حكم-٣٢٢.

(٢) البقرة/١٩٤.

(٣) راجع ص ١٣٨ وما بعدها من هذا البحث.

الباب الرابع: القضايا الكلامية والتأملات الكونية كما تبدو في نهج البلاغة ٥٩٥

في احترام الإنسان وصيانة حقوقه، ونأي الحاكم بنفسه عن كل ما يترتب عليه من هدم في بنية المجتمع، فالخلاصة التي توصل إليها علي عليه السلام من خلال ممارسته للحكم، انه إذا ما اريد لأية دولة البقاء قوية من حيث اقتصادها وامنها، يجب أولاً وقبل كل شيء احترام حقوق الناس وقد أودع علي عليه السلام فكرته تلك في قوله «إن العسف يعود بالجللاء، والحيف يدعو إلى السيف»^(١) فالحكمة ذات المضمون السياسي، في النهج - منسجمة تماماً مع فكر علي عليه السلام السياسي، سواء أكانت مقولته متعلقة بشخصه ذاتياً أم كانت مطلقة تعني الحكم بمعناه الواسع في جميع ميادين الاقتصادية أو الإدارية أو العسكرية.

الثانية - الحكمة الاجتماعية:

وهي التي ترمي إلى توضيح الأسس التي ينبغي أن تبني عليها العلاقات بين الناس، بمعرفة كل فرد حقوقه وواجباته كي ينتظم المجتمع، ويسود التعاون والمحبة والوئام مختلف فئاته، والمستخلص من فكر علي عليه السلام في هذا الجانب، ان توفير الطمأنينة للمواطنين من أهم العوامل المهيئة لخلق ذلك المجتمع، ولا يمكن الوصول إلى ذلك الا بإزالة الغربة من النفوس، لأنها من أهم عوائق البناء، وليس ثمة غربة للمواطن في وطنه كما يرى علي عليه السلام مثل الفقر وفي ذلك يقول «الغني في الغربة وطن، والفقر في الوطن غربة»^(٢)، فتوفير العيش الكريم للمواطن من أهم دعائم المواطنة، ويرى علي عليه السلام ان للإنسان دوره أيضاً في اسعاد نفسه واسعاد الناس من حوله إذا ما توفر له العيش الكريم، وذلك إذا

(١) حكم - ٤٨٥.

(٢) حكم - ٥٤.

استطاع الانفاق بتعقل وحكمة، فبصدد ذلك يقول «كن سمحا ولا تكن مبذرا وكن مقدرًا ولا تكن مقترًا»^(١).

ولأهمية المال البالغة في بناء العلاقات الاجتماعية يرى علي عليه السلام وجوب سياسته بالعلم، حتى لا يستحيل إلى وبال على المجتمع، وفي هذا يقول «من أتجر بغير فقه فقد ارتطم بالربا»^(٢)، أي استحال إلى مستغل هممه الربح والجمع على حساب الناس، مع الملاحظ ان الطابع الاجتماعي العام، هو الذي يحكم الأسلوب الحكمي المعالج للناحية المادية. على أن هناك طابعا فرديا يحاول علي عليه السلام من خلاله إبراز فكرة إدماج الفرد في المجتمع من حيث التعامل بأسلوب فعال يجنبه العزلة، ويحتم عليه التعاون. فمفهوم الصداقة في فكر علي عليه السلام الحكمي، يعني التعاون التام وفي كل الظروف، ومن حكمته في الصداقة قوله «لا تكون الصديق صديقا حتى يحفظ اخاه في ثلاث: في نكته، وغيبته، ووفاته»^(٣).

ويرى علي عليه السلام أيضاً انه لا يمكن تفاعل الفرد في المجتمع، تفاعلا ايجابيا، الا بالإقدام على العمل بثقة في النفس، وإصرار، وعزيمة، لأن الفشل والنجاح مقرونان بعمل دؤوب يحرك الإنسان استخلاصا من قوله «فزنت الهيبة بالخبية، والحياء بالحرمان»^(٤).

والدين كأسلوب الحياة متكامل الجوانب، استأثر بمكانة سامقة في فكر علي عليه السلام إذ يرى ان على الفرد إذا ما اراد ان يعيش في انسجام تام مع بقية افراد

(١) حكم-٣٣.

(٢) حكم-٤٦.

(٣) حكم-١٣٢.

(٤) حكم-٢١.

الباب الرابع: القضايا الكلامية والتأملات الكونية كما تبدو في نهج البلاغة..... ٥٩٧

مجتمعه، ان يعرف الإسلام على حقيقته من خلال فهمه لأصل الإيمان المنبثق من حكمته القائلة «الإيمان ان تؤثر الصدق حيث يضرك على الكذب حيث ينفعك، وأن لا يكون في حديثك فضل عن عملك، وأن تتقي الله حديث غيرك»^(١) وهو بهذا يضع مفهوما للإيمان يختلف في أسلوبه عما يتصور أنه مجرد طقوس خالية من كل مضمون اجتماعي أخلاقي؛ لأنه يرى فيه معرفة يقينية مقترنة بعمل مثمر وجاد يمثله قوله «كم من صائم ليس له من صيامه الا الجوع والظمأ وكم من قائم ليس من قيامه إلا السهر والعناء حبذا نوم الاكياس وإفطارهم»^(٢) والأكياس هم العقلاء العالمون العاملون، فالفاعلية الإيمانية في فكر علي عليه السلام تكمن في العمل بالعلم. ولو تتبعنا الحكمة الاجتماعية باتجاهاتها المتعددة المتنوعة في النهج فسنجدها في مجملها تصورا لواقع اجتماعي، الهدف منه التعاون المنسجم بين كل الطبقات الإنسانية، من خلال جعل المادة وسيلة بناء والعمل غاية للتطور.

الثالثة - الحكمة الأخلاقية:

قد يتبادر إلى الذهن هنا أن المقصود بالحكمة الأخلاقية هو الوعظ المصوغ في قوالب تعبيرية بديعة، ولكن بتتبعنا لمختارات الرضي الحكيمية في النهج نجد ان مثل تلك الحكم الأخلاقية المبنية على النصح المباشر تشكل نسبة ضئيلة إذا ما قورنت بالحكمة الأخلاقية في سياقها العملي، المبني على ما يمكن اعتباره دراسة للنفس الإنسانية في أثناء احتكاكها بالحياة، فمحاولة انصهار الإنسان

(١) حكم-٤٦٧.

(٢) حكم-١٤٣.

في المجتمع، تحتم عليه اتباع أسلوب معين من أهم مزاياه التحكم في الأعصاب وضبط النفس، وإذا لم يتمكن من ذلك، فسيكون مآله الانتهاك والفشل لأنه سيدمر حياته من الداخل وقد أوجز علي عليه السلام ذلك في قوله «الحدة وضرب من الجنون، لأن صاحبها يندم، فإن لم يندم فجنونه مستحكم»^(١)، لذا فالأجدر بالفرد أن لا يفعل، ولا يكابر، ولا يتعصب لرأيه، أو لعلمه، دونها استناده إلى حجة مقنعة وهو ما عبر عنه علي بقوله «اللجاجة تسل الرأي»^(٢) أي ان الخصومة تعصبا لغير الحق تشتت الفكر وتؤاى به عن الصواب.

والنجاح في الحياة بالنسبة لأي فرد، مرتبط بالعمل الدؤوب المقرون بالصبر وقوة الاحتمال، وسعة الصدر، ولكن قد لا ينال الإنسان بعزيمته الصادقة وإيمانه المتين كل ما يطمح إليه من أهداف، إلا أنه لا بد أن يحقق جزءا من طموحاته تلك، وهي حقيقة يجب على كل فرد عامل أن يتدبرها، بنظرته إلى الحياة بواقعية، وعلي عليه السلام قد عرف تلك الحقيقة من واقع احتكاكه بالحياة، فجاءت حكمه مطابقة في مضمونها حقيقة ارتبطت بالإنسان مذ عرف الحياة، وذاق طعم النجاح والفشل، وستبقى ملازمة إياه ما بقي الوجود وهي المعاني التي صاغها في قوله «من طلب شيئا ناله أو بعضه»^(٣) والطلب هنا لا يعني الاستجداء، بل يعني المثابرة والإصرار والجد.

وإيمان علي عليه السلام بالإنسان وكرامته، تجعل من حكمته، ومضات مضيئة في ظلام الامتهان والاستغلال والزيف، لذا فهي تهون على الفرد الفشل المادي

(١) حكم-٢٥٤.

(٢) حكم-١٨٣.

(٣) حكم-٣٩٣.

الباب الرابع: القضايا الكلامية والتأملات الكونية كما تبدو في نهج البلاغة..... ٥٩٩

الذي يجره إلى إهدار كرامته، وسفح ماء وجهه عند من لا يقيم للإنسانية أي وزن، انطلاقاً من مقولته «فوت الحاجة أهون من طلبها إلى غير أهلها»^(١)، ان الثراء في تجربته علي عليه السلام الحياتية والثقافية والدينية أسبغ على أقواله الحكمية خصائص منها:

أ- الحكمة لم تعد قولاً فلسفياً مصوغاً في قوالب لغوية جاهزة، لأنها قبل أن تنبثق إلى الوجود كمقولة، هي تصرف حكيم، عاشه علي عليه السلام بكل إحساساته، ومن بلورة في مقولة نابعة من تأمل عميق في أثر الحدث المناسب لها.

ب- إن انبثاق الحكمة من تجربة عايشها علي عليه السلام، جعل لها بعدين دالين:

الأول منهما آني حاول علي عليه السلام من خلاله بث الحيوية في الكلمة ابان مناسبتها بغرض اثاره نفس المتلقي، لجعله يفعل معه بالموقف الذي يعيشه، فيضمن استجابته، لما تتضمنه المقولة من حفز واستنهاض.

أما الثاني فيكمن في خلود النبض والحيوية ضمن المقولة، فتستحيل إلى حكمة ذات تأثير دائم ومستمر، خاصة بالنسبة للمواقف المشابهة لمناسبتها في كل زمان ومكان.

ج- إنها تتميز بالعفوية والبعد عن التكلف، مما يجعل قابلية التأثير بها والتجاوب معها يسيراً وسهلاً.

فحكمة علي عليه السلام مجموعة من القيم الإنسانية، للوصول بالإنسان إلى مراقبي الحق والعدل والتقوى في ظل مجتمع آمن، فهي في أبعادها السياسية والاجتماعية والأخلاقية تمثل الانسجام التام لفكره، بحيث لا يمكن فصلها عنه، لأنها خلاصة ذلك الفكر المثالي الشامل الممثل لنظريته لمعظم نواحي الحياة

٦٠٠ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

قولا وعملا والمنطلق من مقولته «الداعي بلا عمل، كالرامي بلا وتر» (١) وهو ما يجعلنا في نهاية المطاف، وبعد جولتنا في كثير من نواحي ذلك الفكر، نتساءل عن الأساليب التي صاغه علي عليه السلام فيها، ومدى ملائمة تلك الصياغة لحمل مضامينه والتعبير عن مشاعر صاحبه، وهو ما سنعرض إليه في دراستنا للأساليب التعبيرية في نهج البلاغة.

الباب الخامس

الأساليب التعبيرية في نهج البلاغة

الفصل الأول: الأنواع الأدبية وخصائصها التعبيرية

الفصل الثاني: أبرز الخصائص الأسلوبية في النهج

الفصل الثالث: أبرز الخصائص الفنية في النهج

الفصل الأول

الأنواع الأدبية في النهج وخصائصها التعبيرية

نعني بالأنواع الأدبية في مجال دراستنا لنهج البلاغة، كل ما ورد بين دفتيه من نصوص نثرية سواء كانت خطباً أو عهدوداً، أو رسائل، أو وصايا أو حكماً. فإن لكل نوع من هذه الأنواع خصائصه المتميزة التي تقتضي منا تناولها بالدراسة استكمالاً لدراستنا فكر علي عليه السلام، لأن الكلمة بوتقة الفكر، والأسلوب روح المفكر والأديب.

أ- الخطابة

تعد الخطابة في نهج البلاغة من أهم المصادر التي يعول عليها في دراسة فكر علي عليه السلام كما لاحظنا ضمن الابواب السابقة، فهي الوعاء الذي صان جانبا كبيرا من ذلك الفكر الذي صبه علي عليه السلام في قوالب تعبيرية يمكن عدّها غاية في الروعة والابداع لاعتقاده القوي بأن «الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت

٦٠٤ فكر الإمام علي (عليه السلام) كما يبدو في نهج البلاغة

في القلب»^(١). لذلك فقد شحذ طاقات الكلمة بإبداعها أفكار مغلقة بروحه وإحساساته، لتصل إلى مستمعه بصدق وأمانة من خلال خطبه المتناسقة في عناصرها المتنوعة في موضوعاتها، المتدفقة في عطاها.

أ. العناصر التي تتكون منها الخطبة عند علي (عليه السلام):

بنى ميشم البحراني شرحه لمعظم خطب نهج البلاغة على منهج منطقي^(٢)، قوامه المقدمات والاقيسة والتأج على اعتبار ان الخطابة «جزء من صناعة المنطق»^(٣). وبعيدا عن تلك التعقيدات، فإن الخطبة كفن مسموع تتكون من عناصر أربعة هي:

. الأول: المقدمة:

وعادة ما يودع الخطيب فيها الملامح العامة للقضية التي يريد طرحها على مسامع الجماهير، ويعمد إلى إحطتها بنوع من التشويق والترقب لجذب الانتباه وشد النفوس. والمقدمة في أغلب الأحيان تكون قصيرة، مكثفة في عبارات موحية، ومشحونة بانفعالات الخطيب وحماسة لقضيته، فكلما كان تأثيرها بالغا استطاع الخطيب استقطاب انتباه المستمعين إليه، لأن العبارة إذا ما انطلقت على سجيته، محددة لمقصد الخطيب منها ومنسجمة مع تفكيره مصوغة بانفعالاته النفسية، فإن ذلك يمنح الثراء لإيحاءاتها ويرسخ من تأثيرها في النفوس. ولو تأملنا في مقدمة الخطيب التي وردت في النهج لوجدنا انها متفقة مع موضوعاتها

(١) شرح بن أبي الحديد ٢٠/٢٨٧. وقد نسبها الجاحظ في البيان والتبيين ١/٨٣ إلى عامر بن قيس.

(٢) يمكن ملاحظة ذلك في شرح ميشم لأية خطبة، خاصة الخطب الطويلة المتكاملة.

(٣) ابن رشيد. تلخيص الخطابة ص ١٨.

تما الاتفاق، وعلاوة على ذلك فإنه برغم تقادم العهد على تلك الخطب كنصوص مسموعة، إلا ان النبض والحيوية ما يزالان يعملان تأثيرهما في نفس القارئ، بحيث ينتابه شعور الانفعال الذي كان الخطيب يعيشه في أثناء الأداء في محاولة منه للسيطرة على النفوس، وجذبهم نحوه ليتأتى له ابلاغ افكاره والاقناع بقضيته بشده الانتباه إليه منذ الوهلة الأولى من خلال مقدمات مقتضبة وموحية ومناسبة في آثارها لموضوع الخطبة الخاصة بها.

فمن مقدمات خطب علي عليه السلام «اما بعد فإن المر ينزل من السماء إلى الأرض، كقطرات المطر، إلى كل نفس بما قسم الله لها من زيادة أو نقصان، فإن رأى أحدكم لأخيه، غفيرة في أهل أو مال، فلا تكونن له فتنة»^(١)، فالربط في المقدمة بين كلمة (امر)، وبين صورة المطر في نزوله، كصورة محسوسة في تباينها بين الكثرة والتوسط والقلة من حيث نزوله على بقاع من الأرض دون اخرى، يوحي لا محالة ان موضوع الخطبة هو التفاوت في توزيع الله سبحانه وتعالى لأرزاق العباد، وعلاقة ذلك بتهديب النفوس بالعمل، والرضى بما قسمه الله لكل فرد، والتعاون والتآزر بين افراد المجتمع والنأي بالنفوس عن الحقد والضغينة والحسد. فالمقدمة بسلاستها وانسياب عباراتها، هي مدخل هادئ لتهيئة نفس مطمئنة راضية تقبل التعايش مع غيرها في حب وتعاون وسلام، وهو ما كانت الخطبة ترمي إليه في موضوعها الأساسي.

إلا أن الهدوء يتلاشى ويحل مكانه الغضب المفعم بالأسى في مقدمة خطبة أخرى، حيث يقول «ما هي إلا الكوفة، أقبضها وأبسطها، إن لم تكوني إلا أنت،

(١) خطب- ٢٣- وغفيرة: كثرة أو زيادة.

تهب أعاصيرك فقبحك الله»^(١)، فالكلمات تكاد تنفجر بالغضب في الدعاء على أهل الكوفة بالقبح، والملاحظ ان علياً عليه السلام قد استخدم المجاز للتعبير عن تبرمه وسخطه في قوله «ما هي الا الكوفة» ويعني بذلك رجالها، ولتشخيص المعاني وبث الحياة فيها، لجأ إلى الالتفات^(٢) بتحويله دفعة الخطاب من الكلام عن الغائب، وتوجيه الحديث إلى المخاطب المتمثل في الكوفة بقوله «ان لم تكوني...»، والأسلوب بما ينطوي عليه من مجاز وتجسيد يوحي بعجز القائد عن التصرف بما تحت يده من سلطان واسع، الا في حدود لا تكاد تتعدى مساحتها قبضة اليد مقارنة باتساع ذلك السلطان، ويعود سبب ذلك إلى عدم تجاوب أصحابه معه وعدم اطاعتهم لأوامره.

وفي مقدمة لخطبة ثالثة يقول «الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح والحدث الجليل...»^(٣)، فالافتتاحية هادئة يسري الحزن في عباراتها، وتتضمن التسليم بقضاء الله وقدره في كل الاحوال، وتوحي بأن ثمة حادثة خطيرة قد وقعت، وان الخطيب يمهد لها بنفس مؤمنة مطمئنة، لتصل إلى مستمعه بهدوء بعيداً عن أي انفعال، لما تتضمنه من حض على الصبر وتمسك بعرى الإيمان تحت أي ظرف.

فللمقدمة من الدقة في تحديد الهدف، وجذب الانتباه، وشد الأسماع ما

(١) خطب ٢٥-فقرة(١).

(٢) الالتفات هو انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الأخبار وعن الأخبار إلى المخاطبة وما يشبه ذلك... ابن المعتز- البديع ص ٥٨.

(٣) خطب ٣٥-فقرة(١). والخطب الفادح: الأمر العظيم المهبط، والحدث - بفتح الحاء والذال -

الحادث، ويقصد بكل ذلك ما وقع من أمر الحكيمين، والشاهد من مقدمة خطب قاهها علي عليه السلام بعد استخباره بنتيجة التحكيم.

يجعلها توحى - للمتأمل فيها - بالمواقف والمناسبات التي من أجلها صيغت وذلك لصدق عباراتها، وما تنطوي عليه من إحياءات تجسد إيمان قائلها.

ولكن المقدمة قد لا تكون ضرورية بالنسبة لعلي عليه السلام، خاصة في خطبه التي يعلم مستمعه بفحوى أفكارها. أو إذا كانت ضرورة المناسبة تقتضي الدخول في الموضوع مباشرة.

- الثاني: الموضوع:

وهو العنصر الاساسي للخطبة لأن بداخله يعرض الخطيب العناصر الفكرية للقضية التي يريد طرحها على مستمعه، ويستخدم لذلك وسائل اقناعية متنوعة تتناسب ومستوى المستمع الثقافي، مع صبغ تلك الأفكار بانفعالاته وإحساساته، باثا في الكلمات قبسات من روحه، فكلما كان الخطيب صادقا فيما يقوله مؤمنا به، فإن ذلك الصدق والإيمان ينعكسان على مستمعه، فيتحقق التجاوب والانسجام بين الطرفين ويؤدي ذلك بالمستمع إلى الاستجابة باقتناع وطواعية. ولا يتأتى للخطيب ذلك الا إذا تمكن من إيصال أفكاره إلى مستمعه بالتدرج المستساغ، مع ربط بين الأفكار من حيث الأسباب والنتائج وتفادي أية فجوات تحدث تشتتا، كالاتطراد، أو الاسهاب في شرح فكره على حساب أفكار أخرى، أو حتى الفتور في أساليب التوصيل والتعبير لسبب طارئ.

فمن تأملنا في موضوع تلك الخطب، نجد انها لا تطرح الموضوع بكل ثقله الفكري جملة واحدة على المستمعين، وانما تأخذ بأساليب التدرج المترابط مما يعني ان علياً عليه السلام في خطبته - رغم ارتجاله لها - لا يجعل من نفسه اسيرا لعاطفته، بل من القوة ورباطة الجأش واليقظة بحيث يجعل من عقله حكما في موازنة تلك

٦٠٨ فكر الإمام علي (عليه السلام) كما يبدو في نهج البلاغة

العاطفة، مما يؤدي بالموضوع إلى الانسجام التام بين الفكر والعاطفة. فلو انعمنا النظر في خطبته المسماة «القاصعة»^(١) التي فحواها نبذ العصبية وما تنطوي عليه من اخلاق ذميمة واطوار مدمرة، وربط سياقها الموضوعي بمناسبتها، فسنجد تلاهما قويا بين عناصرها، بحيث يستعصي علينا دراستها مجزأة. فالخطبة على الرغم من طولها مترابطة العناصر، متسلسلة الأفكار، بناها علي (عليه السلام) على ستة عشر عنصرا متفاوتة الحجم، وذلك بعد مقدمة موجزة وموحية بفحوى الموضوع جاء في مطلعها «الحمد لله الذي لبس العز والكبرياء، واختارهما لنفسه دون خلقه، وجعلهما حمى وحرما على غيره، واصطفاها لجلاله»^(٢)، وقد جاء هذا التكييف في عبارات المقدمة متفقا في معالجته لمشكلة العصبية وخطورتها ضمن العناصر التالية:

١- اعتبار إبليس رأس العصيان وأصل العصبية.

٢- ابتلاء الله خلقه وامتحانه مدى قدرتهم على مقاومة النزوات وعلاقة ذلك بالعصبية.

٣- النتيجة المترتبة على تعزز المخلوقين وتكبرهم.

(١) خطب - ٤٢٠ .. ويقول ابن الحديد بشأن تسميتها بـ (القاصعة): من قولهم: قصعت الناقة بجرتها، وهو ان تردها في جوفها، أو تخرجها من جوفها فتملاً فها، فلما كانت الزواجر والمواظ في هذه الخطبة مرددة من اولها إلى اخرها شبهها بالناقة التي تقصع الجرة ويجوز ان تسمى بالقاصعة، لأنها كالقائلة لإبليس واتباعه من أهل العصبية، من قولهم: قصعت القملة، إذ هشمته وقتلتها، ويجوز ان تسمى القاصعة، لأن المستمع لها، المعتبر بها يذهب كبره، ونخوته فيكون من قولهم: قصع الماء عطشه، أي أذهبه وسكنه. شرح النهج ١٢٨/١٣ وتكاد المعاني الثلاثة تكون صائبة إلا أن أقرها لروح الخطبة المعنى الثاني.

(٢) خطب ٢٤٠ - الفقرة الأولى.

٤- التحذير من مغبة الوقوع في حبال الشيطان لأنه أصل العصبية وأن عصبيته وليدة حقه على الإنسان.

٥- التحذير من التكبر والغطرسة والافساد في الأرض.

٦- حض الناس على عدم الاستجابة للداعين إلى العصبية من زعماء السوء.

٧- الاعتبار بما أصاب الماضين من ويلات ومحن جراء التعصب والتكبر.

٨- تواضع الأنبياء والرسل وأثر ذلك في نفوس الزعماء والملوك الذين يستمدون سلطانهم من قهر الناس واستعبادهم.

٩- قسمة الكعبة المشرفة وأهميتها لا يكمن في موضعها ولا شكل هندستها، ولكن قدسيتها تكمن في أنها موضع أمن وطمأنينة وتجمع للإنسانية.

١٠- التحذير من ظلم العباد والتكبر عليهم واستلابهم حقوقهم.

١١- القيمة الكامنة في الفرائض، من كسر لشهوات النفس وكبح لجماحها.

١٢- تقدير المال كعنصر من عناصر العصبية، ومآله الحقيقي.

١٣- مصائر الأمم الماضية حين أحلت العصبية في تعاملها محل الإيمان.

١٤- التفكير في النعمة التي أنعمها الله على العرب برسول الله ﷺ بانتشاله إياهم من مهاوي العصبية، وما صاروا إليه من نعم جراء ذلك.

١٥- لوم وتوبيخ المنغمسين في العصبية من عرب الكوفة واعتمادهم عليه كمصدر قوة.

١٦- دوره في اطفاء نائرة العصبية، وعلاقته بذلك منذ بزوغ نور الإسلام.

على أن ذلك الطول لم يفقد موضوع الخطبة تماسكها ولا حيويتها المتدفقة حماسا.

فاندماج علي عليه السلام التام في الموضوع احوال الخطبة - رغم تقادم عهداها - إلى نص متجدد في معانيه ومبناه. فالتوحد بين عاصرها والتسلسل المترابط بين افكارها، والتدرج إلى النتائج في سلاسة، يكاد ينجر على معظم ما ورد في نهج البلاغة من خطب، والسبب هو معاشة علي عليه السلام لموضوعاتها معاشة تامة بالاحتكاك المباشر بالأحداث المسببة لقولها، مما جعل نتائج تلك الخطب وخواتمها ماثلة في فكره من خلال التأمل العميق الواعي في الاحداث، وهو ما يمكن استخلاصه من خواتم خطب النهج.

- الثالث: الخاتمة:

تتميز خواتم خطب علي عليه السلام بالتنوع في أساليبها، فمنها ما كان يلخص آراءه فيه، كما يرد عادة في خطبه ذات الموضوعات التأملية: من ذلك خطبته التي ختمها بقوله «فتبارك الله الذي يسجد له من في السماوات والأرض طوعا وكرها، ويعفر له خدا ووجهها، ويلقي إليه بالطاعة سلما وضعفا، ويعطي له القياد رهبة وخوفا، فالطير مسخرة لأمره، أحصى عدد الريش منها والنفوس، فهذا غراب، وهذا عقاب، وهذا حمام وهذا نعام...»^(١). فالمتتبع لموضوع الخطبة التي وردت فيها تلك الخاتمة، يجد أن عليا عليه السلام قد كان يرمي من ورائها الابقاء على جذوة التأمل ماثلة في النفوس، لأنه قد اجمل معاني الخطبة بتركيز دقيق بعد ان عرض إلى التفاصيل في صلب الموضوع.

وقد تكون الخطبة وعظية زجرية يرمي علي عليه السلام منها بث الرهبة من عذاب الله في نفس مستمعه، وقدرة علي عليه السلام في هذا الصدد تفوق كل تصور، لإيمانه

(١) خطب ٢٣٣ - الفقرة الأخيرة.

العميق الصادق، وامتلاكه ناصية أساليب اللغة، والتصرف فيها، ومقدرته على صبغها بإحساساته وعاطفته، ففي خطبة متكاملة موضوعها تفسير قوله تعالى:

﴿الْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾^(١)، قد جسد تدرج خطوات سريان الموت في الإنسان خطوة خطوة، ملاحقا إياه في تأملاته وتصرفاته وتطلعاته في أثناء المرض حتى لحظات الاحتضار الأخير، وكأنه عاش التجربة بكل أهوالها وما يكتنفها من مجهول، فأعاد تصويرها بأسلوب تقشعر منه الأبدان، وبعد أن وصل بمستمعه إلى الذروة، لم يتركه دون أن يبقي الصورة مجسدة في أعماقه من خلال خاتمة خاطفة مليئة بالموضات السريعة في قوله «وأن للموت لمرات هي أفضع من أن تستغرق بصفة أو تعتدل على عقول أهل الدنيا»^(٢).

وقد تكون خاتمة الخطبة نتيجة تصويرية منتزعة من واقع تأملات المستمع خاصة إذا كان موضوع الخطبة يتعلق بمحاولة كشف علاقة الفرد بمجتمعه واثر البيئة في تلك العلاقة ومثال ذلك قوله في خاتمة خطبة موضوعها مفهوم الطاعة من خلال علاقة الفرد بالمجتمع «واعلم ان لكل عمل نباتا، وأن كل نبات لا غنى به عن الماء، والمياه مختلفة، فما طاب سقيه طاب غرسه، وحلت ثمرته، وما خبث سقيه، خبث غرسه، ومرت ثمرته»^(٣) فالنتائج التي أجملتها الخاتمة، قد تكون ماثلة أمام عين ناظرها ولكنه لا يعيرها اهتمامه إلا إذا استثير عقله نحوها، وهذا ما فعله علي عليه السلام في خاتمة خطبته.

(١) التكاثر/١،٢، وراجع معالجة علي عليه السلام لتفسيرها في الخطبة - ٢١٨.

(٢) السابق - الخاتمة.

(٣) خطب - ١٥٤ - الخاتمة.

وقد تكون الخاتمة مباشرة تعمد إلى الحضي على الاستجابة من خلال الأمر الا انها رغم مباشرتها فإن عليا عليه السلام يجنبنا التقريرية بصياغتها في قالب تأملي بتسخير العبارات الایحائية ويكثر ذلك في خواتم خطب الزهد التي تعمد موضوعاتها إلى التهوين من قيمة المادة كعرض زائل: ففي خاتمة لخطبة زهدية يقول علي عليه السلام «ألا فاذكروا هادم الذات، ومنغص الشهوات، وقاطع الامنيات، عند المساورة للأعمال القبيحة، واستعينوا بالله على أداء واجب حقه وما لا يحصى من اعداد نعمه وإحسانه»^(١)، فكان باستطاعة علي عليه السلام أن يقول مختصرا «ألا فاذكروا الموت...»، الا ان احساس علي عليه السلام بأثر الكلمة في مستمعه اقتضى منه التماس بغيته في الأسلوب الكنائي، كي يبقى أثر الوعظ في نفوس المستمعين أطول مدة ممكنة بعد الانتهاء من الخطبة. فأهم ما تتميز به خاتمات خطب علي عليه السلام من خصائص هي:

١- تكثيف عناصر موضوع الخطبة واجمالها في عبارات مصوغة صياغة دقيقة وخاطفة بقصد اسعاف مستمعه على الإمام بفحواها، واستيعاب افكارها والتجاوب معها بإبقائها عالقة في ذهنه مدة طويلة.

٢- التنويع في انماطها واساليبها بما يتناسب وموضوعات الخطب مما ينأى بها عن جمود القوالب التعبيرية الجاهزة، فهي أبدا متجددة مهما تكرر موضوع الخطبة، لأن التناول في كل مرة يختلف باختلاف الموقف والمناسبة لاعتماد علي عليه السلام على الارتجال في جل خطبه على اعتبار انها وليدة ساعتها وبنيت مناسبتها في إبانها، فتارة تكون بسبب حادث خطير ألمَّ بأطراف الدولة، وتارة أخرى بسبب استجابته لبعض من أصحابه للتعرف على قضية ما، كوصف الخالق،

(١) خطب-٩٨- الخاتمة. والمساورة: الموائمة.

أو صفات المتقين، أو بسبب استفحال عيوب خطيرة في المجتمع يجب معالجتها في حينها دون تأخير. هذا إلى غير ذلك من مناسبات أخرى كالأعياد وخطب الجمع، والاستسقاء، وتفسير الآيات والوعظ، وبطبيعة الحال فإن التنوع في موضوعات الخطب وأساليبها أتاح التنوع أيضاً في أساليب خاتماتها فهي تارة عبارة عن تلخيص مركز لأفكار الخطبة، وتارة أخرى نتائج مستخلصة من أفكار الخطب، وتارة ثالثة على شكل تحذير بأساليب موحية ومقنعة في آن واحد، فهي على الدوام ذات وقع في النفس لنأي علي عليه السلام بها عن الجفاف العقلي بإضفاء قبس من مشاعره ونفحات من روحه المؤمنة على تعبيراتها، مما يجعل انسيابها في النفس مستساغاً مهما بلغت حدتها وقسوتها.

٣- الابتعاد بها عن أساليب الجدل مع مستمعه، سواء أكان جدلاً مباشراً أم جدلاً مع النفس غير مباشر، باكساء آرائه ثوباً من الجاذبية المثيرة لعقل مستمعه، وتوجيه الخاتمة توجيهاً دقيقاً نحو تلك الآراء، دون الزج بفكر المستمع في متاهات تؤدي به إلى توجيه فكره نحو أمور جانبية تبعده عن لب الموضوع.

فمن خلال تأملنا في خطب علي عليه السلام التي وردت في النهج كاملة من حيث البناء الفني نجد أنها مهما طالت، مترابطة العناصر، متسلسلة الأفكار، متينة اللغة، واضحة المعاني هذا بالإضافة إلى سريان العاطفة فيها بتؤدة واتزان وتعقل، يجنب الأفكار الجفاف، وينأى بها عن الأسراف بالوقوع تحت طائلة الخيال المجنح والأحلام الكاذبة، فقبول النفس لأفكار الخطب عن طواعية، لا يعني وقوعها تحت تأثير الكلمة لأن بريق الكلمة في خطب علي عليه السلام يأتي في مرتبة أخيرة، بعد الحقيقة التي يعتقدها ويريد من مستمعه مشاركتها ذلك الاعتقاد،

فهو لا يعتمد إلى العبارة الانفعالية الآنية التي تبهر الاسماع ولكن سرعان ما تفقد بريقها بعد الخروج من تأثيرها، ولكن فكره يحيل المعاني في سياقاتها التعبيرية إلى طاقات متدفقة من معاني الوفاء والحب والحق والخير والأيمان كما يعتقدونها هو في قرارة نفسه ويتمثلها في أسلوب حياته، فتنبثق من اعماقه متوهجة في سياقها التعبيري المتوائم ومناسبتها فتستجيب لها النفس المؤمنة عن طواعية. وهذا التآلق في امتلاك زمام اللغة للتعبير عن افكاره هو ما اتاح له التنوع والاجادة في كل المواقف والمناسبات التي اقتضت منه ان يخاطب فيها، مما يحتم علينا القاء نظرة فاحصة على أنواع الخطب التي جال فيها بفكره ولهج بها لسانه.

ب - أنواع الخطب التي وردت في نهج البلاغة:

إن التنوع في موضوعات نهج البلاغة يمثل حياة علي عليه السلام في مختلف أدوارها، ونعتقد أننا لا نجانب الصواب إذا قلنا أن تلك الموضوعات بتنوعها، يمكن اعتبارها مذكرات شخصية صاغها صاحبها مستلها وقائعها من تمرسه بالمسؤولية كقائد له وزنه الكبير واهميته العظمى في نشر الدين ومن ثم في توجيه سياسة عصره من وجهة نظر دينية، وقد تمحورت تلك المذكرات والوثائق - إذا جاز لنا تسميتها بذلك - في خطب ورسائل ووصايا وحكم، اقتضتها مناسباتها، والحاجة إليها كمرتكزات فكرية توضح وجهة نظر القيادة في تعاملها مع الأمة. ولما كانت الخطب من أهم الوسائل الاعلامية التي تربط الحكومة بالأمة وتقرب بينها، فإن موضوعاتها قد تنوعت في النهج بتنوع الحاجة والظرف والمناسبة، مع تميز كل نوع من أنواع تلك الخطب بخصائص نابعة من طبيعة موضوعاتها، ومن أنواع تلك الخطب.

١- الخطب والجهادية:

وهي التي كان علي عليه السلام يلقيها في مسامع اصحابه، لحضهم على الجهاد، للقضاء على الفتن التي ظهرت في أرجاء الدولة، أو لبث الحماس في النفوس، قبل بدء المعركة وفي أثنائها، أو لغرض التوبيخ واللوم بسبب التقاعس عن الجهاد، أو بسبب فشل وانهزام في أثناء المعركة، والسبب في كثرة الخطب الجهادية عند علي عليه السلام يعود إلى عوامل أربعة هي:

١- الانقسام الخطير الذي حدث في الصف الإسلامي الذي نجم عنه تردد الكثير من المسلمين في محاربة بعضهم البعض إثر ثورة الأمصار التي نتج عنها مقتل عثمان ومحاوله علي عليه السلام اقناع الجميع بالوقوف إلى جانبه، لإعادة توحيد الصف الإسلامي على أسس قوامها العدل والمساواة بين المسلمين كافة، مما حدا بعلي عليه السلام إلى توجيه خطبه الجهادية في اتجاهين:

أحدهما: اقناع المترددين من المسلمين بالوقوف إلى جانبه.

والثاني: حض من هم تحت أمرته والمطيعين له على المبادرة بالتجمع حوله للقضاء على فتنة الذين يحاولون نكث بيعته، ابتغاء عرض الدنيا.

٢- نشوب الفتن التي اشعل معاوية اوارها في ارجاء الدولة الإسلامية وما خلفته تلك الفتن من انتقاض في كثير من ولايات علي عليه السلام، وعلاوة على ذلك ظهور الخوارج، مما استوجب استخدام الخطب الجهادية لحث الناس على المبادرة للقضاء على تلك الفتن وإعادة الأمن والنظام في اطراف الدولة.

٣- محاولات علي عليه السلام المتكررة في حث أصحابه على الجهاد، وبث النخوة

والحماس في النفوس بعد ان هدها الوهن، ودب فيها الخور والضعف، واقعدها التفاعس، والركون إلى حياة الدعة، والقبول بالذل في سبيل ذلك.

٤- حاجة علي عليه السلام إلى الكلمة الملتهبة بالحماس للرفع من المعنويات وازالة الخوف والرهبية من النفوس قبل بدء المعركة وفي أثنائها، أتاح له إلقاء جملة من الخطب سجل لنا نهج البلاغة جانبا منها، وبطبيعة الحال فإن هذه العوامل قد ميزت الخطب الجهادية بخصائص فكرية معينة هي:

. الخصائص الفكرية لخطب علي عليه السلام الجهادية:

إن هيمنة الدين على الجانب السياسي في فكر علي عليه السلام تحتم عليه اتخاذ مواقف دينية بحتة إزاء جميع الاحداث السياسية، فالمصدران الأساسيان لسياسته هما القرآن والسنة، ولو تأملنا في فحوى خطبه الجهادية كجانب من جوانب فكره السياسي لرأينا ان الدين هو المستحوذ على الأفكار فيها، على اعتبار انه القائد والإمام المنفذ لأحكام الدين، ورجل السياسة في آن واحد، فقوله في مطلع خطبة جهادية «أما بعد فإن الجهاد باب من أبواب الجنة، فتحه الله لخاصة أوليائه...»^(١) هو تعبير عن فكر ديني نابع من إيمان متين وعقيدة صادقة بوجود الجهاد كمطلب ديني مفروض على كل مؤمن قادر، لكونه الدرع الحمي لحياض الإسلام، واعتباره احد الابواب المشرعة إلى الجنة عند استشهاد المجاهد، طبقا لقو تعالى:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾^(٢). أما في حالة النصر فتكون النتيجة المغانم والعيش في ظل حياة

(١) خطب ٢٧ - فقرة الأولى.

(٢) آل عمران / ١٦٩.

كريمة خالية من كل قهر واستبعاد لما في الجهاد من قمع للمفسدين من أئمة الباطل والمتجبرين.

ومن خلال موقفه الديني من الجهاد فإنه يرى أن الحرب تحت أمرته هي من لب الجهاد انطلاقاً من مكانته الدينية المتصلة اتصالاً روحياً مباشراً برسول الله ﷺ كما في قوله ضمن خطبة جهادية «واعلموا أنكم بعين الله ومع ابن رسول الله ﷺ»^(١). وهو ما يعني أن في مكانته تلك ما يضمن لمقاتلين في صفه الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة كما جاء في قوله «فاتقوا الله عباد الله وفروا إلى الله من الله، وامضوا في الذي نهجه لكم، وقوموا بما عصبه بكم فعلي ضامن لفلجكم آجلاً، إن لم تمنحوه عاجلاً»^(٢)، فالنبرة الدينية الخالية من أية إغراءات مادية هي الركيزة التي يتكئ عليها فكر علي عليه السلام في خطبه الجهادية ولكن ذلك لا يعني اقتصارها على الجوانب التشريعية وخلوها من الجوانب العاطفية الوجدانية التي تضيء على أساليبها الحيوية، لأن الخصيصة التشريعية التي تنبني عليها خطبة الجهاد عادة ما تكون ممتزجة بوجدان علي عليه السلام، تغترف معانيها من فكره الصافي ممتزجة بعاطفته الجياشة فتستحيل تعبيراتها إلى غذاء فكري ممزوج بنفحات روحية، إلا أن عنصر الوجدان في خطب علي عليه السلام الجهادية يسير في اتجاهين متقابلين تفرضها طبيعة الأداء:

الاتجاه الأول: ويتمثل في انطلاق علي عليه السلام من ذاته إلى الموضوع العام: ويمكن ملاحظة ذلك في خطب الجهاد التي عادة ما يلقيها في الناس لحثهم على الجهاد أو لتقريعهم بسبب التواكل، وهو يرمي في الناحيتين إلى تهيئة النفوس للبذل

(١) خطب ٥٦.

(٢) خطب ٢٤.

والاستشهاد، دونما تردد، وهو في هذا الاتجاه يعمد إلى تناول عناصر الجهاد الدينية كحقائق ثابتة يعرفها المستمع، لكنها لا تثير في نفسه الحماس المطلوب المؤدي إلى الاستجابة لتعود أذنه على سماعها، فيسبغ عليها من ذاته ما يعيد إليها قيمتها التأثيرية، فقوله على سبيل المثال «والله مستأديكم شكره، ومورثكم امره، وممهلكم في مضمار محدود لتتنازعوا سبقه، فشدوا عقد المآزر واطووا فضول الخواصر، ولا تجتمع عزيمة ووليمة، ما نقض النوم لعزائم اليوم، واحمى الظلم لتذاكير الهمم»^(١)، يحوي حقائق دينية فحواها وجوب شكر العبد ربه، ليكثر من نعمه وأفضله عليه، ويبوئه المكانة السامقة التي يتوق إليها في دنياه المؤقتة، التي شبهها بحلبة السباق، التي يتبارى فيها الخيرون في التسابق نحو الغاية المتمثلة في حياة الخلود، والفائز في هذا المضمار من يجاهد في سبيل الله، ويضحى بنفسه من أجل إحياء كلمة الله، وتوالي الأمثلة كرابط بين العمل وبين الجهاد من أجل حياة أفضل، في مقابل التردد والخوف والركون إلى الدعة تعبر

(١) خطب ٢١٧. ومستأديكم شكره، طالب منكم أداء شكره، وأمره: سلطانه، ممهلكم في مضمار محدود: أي معطيكم مهلة في مضمار الحياة المحدودة، شدوا عقد المآزر: أي اربطوا مآزرهم ربطاً محكماً، وهو كناية عن الجد والتشمير، لأن من أحكم ربط مئزره أمن انحلاله، واطووا فضول الخواصر: من ما فضل من مآزرهم، قد يعيقكم بالتفافها على أقدامكم، فاطووها حتى تتمكنوا من الاسراع في عملكم، ولا تجتمع عزيمة ووليمة: والعزيمة الجد والاخلاص في العمل، والوليمة مأدبة الطعام، والمقصود من القول: لا يجتمع طلب المعالي مع الركون إلى اللذائذ، ما انقض: ما تعجبية، أي ما اشد نقض النوم لعزائم النهار بالنسبة للسائر الذي يعزم على قطع جزء من الليل في السير، فإذا حل الليل حل عليه النوم فنقض عزمته، واحمى: فعل تعجب معطوف على انقض، والظلم: جمع ظلمة، ومتى حل الظلام حمى من ذاكرة السائر ما عزم عليه بالنهار من مواصلة العمل أو السير.

عن نفحات روحية صادرة من اعماق علي عليه السلام لتضفي على معاني الجهاد النبض الحي المتسامي، وتعيد نصاعتها في النفوس بعد ان كادت تضمحل أو تتلاشى، مع ملاحظة ان مثل هذا الاتجاه الصادر من الذات إلى الموضوع لا يمكن تتبعه إلا في خطب الجهاد المبينة اساليبها على الحض، أو عند التقاعس عن الاستجابة حيث تغدو الحقائق الدينية والقيم الأخلاقية هي المحاور التي يسبغ عليها من ذاته ما يعيد إليها تمثلها في النفوس، فتفاعل علي عليه السلام مع الكلمة واندماجه التام في موضوع الخطبة، هو من الصعوبة والعسر بما لا يمكن وصفه أو التعبير عنه لكونه إحساس نابض يجري في الكلمة كالتيار الكهربائي الذي نحسه. فالحقيقة بكل أبعادها متجسدة في قول علي عليه السلام «ولقد كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، نقتل اباءنا وأبناءنا و اخواننا واعماننا، فما يزيدنا ذلك الا ايمانا وتسليما ومضيا على اللقم، وصبرا على ممرض الألم، وجدا في جهاد العدو، فلما رأى الله صدقنا، أنزل بعدونا الكبت، وانزل علينا النصر، حتى استقر الإسلام ملقيا جرانه، متبوثا اوطانه، ولعمري، لو كنا نأتي بما اتيتم، ما قام للدين عمود ولا خضر للإيمان عود، وأيم الله لتحتلبنها دما، ولتتبعنها ندما»^(١). فالخطبة كوثيقة تاريخية، مبنية على حقائق لا يتطرق إليه الشك، ويكاد يعرفها معظم من كان يستمع إلى علي عليه السلام آنذاك، ولكن الجديد والمؤثر لا يكمن في الحقائق ذاتها، انما يكمن في أسلوب صياغتها في تعابير تجسد الماضي الحافل بالبطولات والفداء المقرونة بصدق العزيمة والإيمان المتين، والحاضر بما يكتنفه من ألم وتخاذل وخور يندى له الجبين خجلا ومستقبل ينطوي على توقعات رهيبية مقرونة بالمذلة والهوان،

(١) خطب - ٥٥ - اللقم - فتح اللام والقاف: جادة الطريق، وممرض الألم - شدته وبرحاؤه. والكبت:

الذل والهوان والخذلان. والجران - بكسر الجيم: مقدم عنق البعير، والقاء الجران كناية عن

٦٢٠ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

وقد يخوننا التعبير إذا حاولنا تمثل المعاني من دون أن نعيش انفعالات علي عليه السلام المتصارعة بداخله في أثناء خطبته في قوم كلت اسماعهم وماتت قلوبهم، وفترو حماسهم ودب الفشل في نفوسهم. فالمقصود بالذات هنا نفحات من الإيمان والأمل والحزن والسرور والخوف والإقدام، تنطلق من النفس بحرارة وصدق لتضفي على حقائق موضوع الجهاد من الحيوية ما يبعتها عن الرتابة، ويقربها إلى النفس سعيا وراء الاستجابة الطوعية ترغيبا أو ترهيبا.

الاتجاه الثاني: الانطلاق من الموضوع العام إلى الذات: أي الموضوع بتفاعلاته هو المحرك للذات، وبمعنى أدق أن عليا عليه السلام في هذا الاتجاه، لا يعتمد إلى حقائق موضوعية يحاول إضاءة جوانبها بوجدانه، بقدر ما يعتمد إلى مشاهد يستمد منها موضوع خطبته، فتنعكس هذه المشاهد على ذاته، فتحيل نفسه إلى ترجيحات متقابلة ومتتابعة بين فشل ونجاح وامل ويأس، على اعتبار ان الموضوع العام في مثل هذه الخطب هو المعركة بكل ابعادها القتالية والخطبة هي تصوير حقيقي وحي لانفعالات علي عليه السلام، لأنه يعيش المعركة بكل إحساساته، فالتأمل العقلي بالاتكاء على القواعد والقوانين والوعظ، يتلاشى تقريبا وتحل محله الذات التي يتوجه إليها موضوع الخطبة، لتكون هي محور الكلمة والأداة الفاعلة في تغذية المعاني ويمكن رصد هذا الجانب بكل ما ينطوي عليه من انفعالاته في خطب علي عليه السلام القصيرة التي يليقها في مسامع جنده في أثناء المعركة، عند شعوره بأهزام جيشه.

فحين استولى جيش الشام على شريعة الماء في بدايات حرب صفين وشاهد علي عليه السلام ما لحق بجيشه من هزيمة، قد تؤدي به إلى التشتت والنكوص، بادر جنده بالقول «قد استطعموكم القتال فاقروا على مذلة وتأخير محلة، أو روّوا السيوف

من الدماء، ترووا من الماء، فالموت في حياتكم مقهورين، والحياة في موتكم قاهرين»^(١). فالموضوع المتمثل في الهزيمة استحال في وجدان علي عليه السلام إلى تفاعلات مؤلمة ذات طعم مر، مما جعل العبارات تنوء بحمل توجهاته النفسية، استحالت الحقيقة فيها إلى تفاعلات متقابلة تتعلق بذات الجندي ومصيره في ميدان القتال فحواها: أن يكون أو لا يكون، مما يحتم عليه المواصلة حتى النهاية بغض النظر عن القيمة الدينية أو المادية للجهاد، لذلك فإن الاستجابة للكلمة في مثل هذه المواقف سريعة لا تحتاج إلى تفكير أو تأمل، إذ سرعان ما نظم جنده ضفوفهم واستعادوا رباطة جأشهم بتمثلهم مصيرهم لو حاقت بهم الهزيمة، فاستعادوا بذلك مواقعهم على شريعة الماء بعد معركة حامية الوطيس الحقوا فيها بجيش العدو هزيمة منكرة.

وقد تكرر الموقف بصورة أكثر خطورة حين تراخت ميمنة جيش علي عليه السلام في إحدى المعارك الحاسمة بصفين، وكادت المعركة تحسم لصالح معاوية، وذلك بسبب تخاذل أحد قاداته لتواطئه مع معاوية^(٢)، ولكن سرعان ما كشف التواطؤ، فاستعادت الميمنة مواقعها، مما أعاد للجيش توازنه. فكان الموضوع هو محور الذات والمعبر عنها بها كما في قوله «وقد رأيت جولتكم وانحيازكم عن صفوفكم، تحوزكم الجفأة الطغام، واعراب أهل الشام، وانتم لهاميم العرب، ويأفيخ الشرف، والأنف المقدم، والسنام الأعظم، وقد شفى وحاوح صدري أن رأيتكم بأخرة تحوزونهم كما حازوكم، وتزيلونهم عن مواقعهم كما ازالوكم، حسنا بالنضال، وشجرا بالرماح، وتركب اولاهم

(١) خطب- ٥١.

(٢) راجع ص ٢٧١ وما بعدها من هذا البحث.

أخراهم، كالأبل الهيم المطرودة ترمى عن حياضها وتزداد عن مواردھا» (١).
 فمشاهد انكسار الميمنة أثناء المعركة منطلقة كالسهم المتتابعة إلى اعماق اعماق علي عليه السلام، مرتجة ثانية وبنفس القوة على شكل ايماضات محملة بألم الانهزام، ومن ثم توجهها إلى النفس بحرارة وحماس أثر تفادي الهزيمة ورجوعها على شكل اشعاعات سعيدة مكلفة بالنصر، ممثلة بالفخر والحماس. فالذات في مثل هذه المواقف تستحيل إلى بوتقة تتشكل فيها عناصر الموضوع المنطلق إليها مباشرة من خلال التعايش معه والاحساس بعناصره، مما يجعل جانب الاستجابة، هو المالك لزام الموقف، لعدم اتاحة الفرصة للتأمل، فالتأثر بالكلمة انفعالي فوري، اما في حالة الجانب الأول المتمثل في انطلاق الذات إلى الموضوع، فإن جانب التأمل الفكري في توازن مع الجانب العاطفي، ان لم يكن مسيطرا، بحيث ينتاب الاستجابة نوع من التروي قد ينزع بالإنسان إلى الاحجام والتردد لأن تمازج العقل بالعاطفة في فحوى التراكيب مهما كان قويا ومقنعا، فلن تبلغ الاستجابة فيه مبلغ التعابير الكامنة في موضوع اتخذ من العاطفة مرتكزا في أثناء تفاعل النفس مع الواقع العملي للقتال على ارض المعركة، حيث يكون المصير ماثلا للمحارب من جانبيه القتالي والخطابي، المتمثل في احساسات علي عليه السلام التي عادة ما تعكس الواقع من زاويتي المتمثلتين في الحياة مع الذل، والموت مع الكرامة.

(١) خطب - ١٠٦ - والطعام - بفتح الطاء: أوغاد الناس. واللهميم: جمع لهيم، وهو السابق الجواد من الخيل والناس. ويأفوخ: جمع يأفوخ، وهو من الراس حيث يلتقى عظم مقدمه مع مؤخره. ووحاوح: جمع ووحوة، صوت معه بحح يصدر عن المتألم، والمراد به احتدام الغيظ في النفس. والحس: - بفتح - القتل. والنضال: المباراة في الرمي. والشجر: ففتح الشين وسكون الجيم - الطعن. والهيم - بكسر الهاء - العطش. وتزداد: تدفع وتمنع.

٢- الخطب التأميلية:

وهي التي يعمد علي عليه السلام في مضامينها إلى إطلاق عنان الفكر في تأمل ابداعات الكون للوصول به في النهاية إلى الإيمان بعظمة المبدع وبقدرته المطلقة، وتستمد الخطبة عناصرها من تركيز علي عليه السلام الدقيق فيما يحيط بالإنسان من مشاهد ومخلوقات، بتسليط الضوء عليها، وتوضيح جوانب الإبداع التي قد لا يراها الإنسان العادي، ولا يحس بها إلا إذا استثير انتباهه نحوها، لا اعتياده على رؤية المشاهد دون تأملها، وبهذه الاستثارة التي يعمد علي عليه السلام إليها من خلال الكلمة، تختلف نظرة مستمعه إلى الأشياء، فتتضح لعقله جوانب الحقيقة، فيقف عليها مندهشاً متأملاً، وهو الغرض الاساسي الذي يرمي إليه علي عليه السلام من تلك الخطبة في مناسباتها.

ومن أهم خصائص هذا النوع من الخطب أنها تعمد إلى اقناع العقل بانتزاع أمثلتها من الواقع المحسوس، كوصف الجرادة، أو النملة، أو الخفاش، أو الطاووس، أو خلق الإنسان أو خلق السماء والأرض والكواكب إلى غير ذلك من مشاهد عينية أو إدراكية معرفية.

صياغة الحقائق المعرفية المراد تأملها في تعبيرات ملائمة وما يهدف إليه من استثارة عقلية وهو في هذا السبيل «لا يستخدم لفظاً الا في هذا اللفظ ما يدعوك لأن تتأمل، ولا عبارة إلا وهي تفتح أمامك آفاقاً وراءها آفاق من النظر الجليل»^(١)، من ذلك أنه قد يخطر ببال من انتاب إيمانه بخالق الوجود بعض الشك، أو نوعاً من الفتور بتصوره ان لا قوة يمكن لها فناء هذا الكون المحكم،

(١) جورج جرداق - الإمام علي عليه السلام صوت العدالة ٣ / ١٨٥.

٦٢٤ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

مقارنا ذلك بقدرته وتضاؤل قوته أمام كثير من ظواهر الوجود، ولاستقراء علي عليه السلام ما في تلك النفوس من ضعف إيمان يجيب عن تساؤلاتها ويزيل حيرتها ضمن خطبة تأملية بقوله «وليس فناء الدنيا بعد ابتداعها بأعجب من إنشائها واختراعها، وكيف ولو اجتمع جميع حيواناتها من طيرها وبهائمها واختراعها، وما كان من مراحلها وسائمها، وأصناف أسناخها وأجناسها، ومتبلدة أممها وأكياسها على إحداث بعوضة، ما قدرت على إحداثها ولا عرفت كيف السبيل إلى إيجادها، ولتحيرت عقولها في علم ذلك وتاهت، وعجزت قواها وتناهدت، ورجعت خاسئة حسيرة، عارفة بأنها مقهورة، مقرة بالعجز عن انشائها»^(١)، فللألفاظ من الدقة والاستقصاء ما يمكن من خلالها استقراء ما في النفوس والاجابة على تساؤلاتها الحائرة بمنطق تأملي يعيد إليها توازنها من خلال مقارنة بين النشأة والفناء بملاحظة الإنسان بذاته، إذ بإمكانه أن يبني ثم انه بإمكانه أيضاً إزالة ما بنى، إلا أن إمكاناته لا ترقى إلى إبداع الروح واختراعها مهما تناهدت في صغر الحجم، للمقارنة بين قدرة الخالق، وقدرة المخلوق، لا مجال لها عقلا بالتأمل في الخلق.

ومن خصائص خطبه التأملية الداعية في مضامينها إلى التوحيد استخدام الاساليب المبنية على المسببات والنتائج، وهو ما ينحو إليه عند تعرضه لنفي الصفات عن الخالق سبحانه وتعالى^(٢).

(١) خطب - ٢٣٤ - الفقرة ٣.. ومراحلها: بضم الميم - اسم مفعول من أراح الإبل أي ردها إلى المأوى. والسائم: الراعي من الإبل. والأسناخ: الأصول والأنواع الاكياس: - جمع كَيْس بتشديد الياء - العاقل الحاذق. وخاسئة: ذليلة وحسيرة:

(٢) يمكن ملاحظة ذلك في الخطبة رقم ١ و٢٣٤، جميع الخطب المعالجة لموضوع التوحيد ونفي الصفات التي وردت في نهج البلاغة.

ومن أهم ما يميز خطب علي عليه السلام التأملية أيضا، الهدوء والانسحاب فعلي عليه السلام في مثل تلك الخطب شاعر أكثر منه خطيبا، يسبح بفكره في ملكوت الله، متغنيا بفضائله وجميم نعمه لاهجا بشكره في عبارات مجللة بالإيمان العميق والحب الصادق، فالخطبة التأملية من حيث بنائها النفسي تختلف اختلافا جذريا عنها في خطب علي عليه السلام الجهادية، التي يغلب عليها الطابع الثوري المشحون بالحزن واللوعة والالام، لأن حماسه العظيم للجهاد لا يتناسب واستجابة اصحابه. اما هنا في خطبه التأملية، فهو يتغنى جذلا بعبارات هادئة وبنفس مطمئنة، تتخير من الألفاظ ما يعبر عن انسجامها التام في الموضوع بحيث تبقى الخطبة في مستوى نفسه الجدلة منذ بدايتها حتى خاتمها، التي أكثر ما تكون على شلك دعاء وتبتل صادر من اعماقه كما في قوله في خاتمة خطبة تأملية محورها التوحيد «اللهم وهذا مقام من افردك بالتوحيد الذي هو لك، ولم ير مستحقا لهذه المحامد والمادح غيرك، وبى فاقة إليك لا يجبر مسكنتها الا فضلك، ولا ينعش من خلقتها الا منك وجودك، فهب لنا في هذا المقام رضاك، واغننا عن مد الأيدي إلى سواك، إنك على كل شيء قدير» (١)

٣- الخطب الوعظية:

يكاد الوعظ والإرشاد والحض على التمسك بالأخلاق الحميدة ينتشر في جل ما أثر عن علي عليه السلام من خطب، إلا ان هناك جانبا هاما من خطبه خصه علي عليه السلام بالوعظ كموضوع مستقل فرضته طبيعة الحياة الاجتماعية جراء أخذ كثير من أبناء مجتمعه ما يرونه من الدين ملائما ومصالحهم الدنيوية الذاتية،

(١) خطب- ٩٠- الخاتمة. والخلة- بفتح الخاء: الفقرة.

وهو ما عبر عنه بقوله لعمار بن ياسر حين وجده يناقش الأشعث ابن قيس في بعض شؤونه الخاصة «دعه يا عمار فإنه لم يأخذ من الدين إلا ما قاربه من الدين»^(١)، والأشعث بن قيس هذا يمثل شريحة كبيرة من المجتمع الذي كان علي عليه السلام يحكمه، مما حتم عليه وعظ أولئك وتبصيرهم بالمعاني الحقيقية للعالم من وجهة نظر الدين، بالإضافة إلى ان كثيرا من المناسبات الدينية، كالأعياد وشهر رمضان والجمع تقتضي الوعظ ايضا، كما أن تصدي علي عليه السلام إلى تفسير بعض آيات القرآن الكريم المتضمنة التحذير من التهادي في اللهو والتكالب على اقتناء الأموال والتمرغ في الملذات الدنيوية، تقتضي بدورها الوعظ، مما أح لعل علي عليه السلام الإكثار من القول في هذا الجانب.

ومن أهم ما تتميز به خطب علي عليه السلام الوعظية، امتزاج العامل الديني بالعامل النفسي، مع تجنب الوعظ المباشر المبني على الأمر والنهي، ومقدرة فائقة على اعداد نفس المستمع وتهيئتها للانجذاب نحو الموضوع الوعظي بكل حواسها، من ذلك قوله في مقدمة خطبة وعظية «فإنه والله الجد لا اللعب، والحق لا الكذب. وما هو إلا الموت أسمع داعية، وأعجل حاديه فلا يغرنك سواد الناس من نفسك، وقد رأيت من كان قبلك ممن جمع المال، وحذر الإقلال»^(٢)، فمدخل الخطبة، بما تضمنه من توكيد وقسم، يشد الانتباه إلى ما يكتنف معاني الجد التي يرمي إليها أسلوب الوعظ، الذي يجعل المستمع يتبعه في لهفة وانشداد فتأتي النصائح ضمن الخطبة على شكل دفعات تنساب إلى النفس في تلقائية وعفوية، فتقبلها طواعية، فالزجر عن المعاصي، لا يحمل في طياته معنى الزجر

(١) حكم-٤١٣.

(٢) خطب-١٣٢-فقرة ٢.

القسري الذي تأباه النفس مكابرة ولكنه يأتي على شكل أساليب تخشع لها وتقع تحت تأثير سلطانها بسبب تجاوب نفس المستمع مع معانيها. ولعلي عليه السلام في هذا المجال مقدره أسلوبية فائقة في بث خطب الوعظ معاني الترغيب والترهيب دون اللجوء إلى المباشرة والتقريرية.

ففي مجال وعظه الترغيبي تجتذب كلماته مستمعه إلى افاق رحبة من السعادة في حياة دنيوية نظيفة ناصعة، وخلود أبدي في ظل الامن والطمأنينة والسرور في حياته الثانية بعد الموت، كما في قوله مصورا حياة المؤمنين الخالدة بعد الحساب «فلو مثلتهم لعقلك في مقاومهم المحموده، ومجالسهم المشهوده، وقد نشروا دواوين أعمالهم، وفرعوا لمحاسبة أنفسهم عن كل صغيرة وكبيرة امروا بها فقصروا عنها، أو نهوا عنها ففرطوا فيها، وحملوا ثقل أوزارهم ظهورهم، فضعفوا عن الاستقلال بها، فنشجوا نشيجا وتجاوبوا نحيبا، يعجون إلى ربهم من مقام ندم واعتراف، لرأيت أعلام هدى، ومصايح دجى، قد حفت بهم الملائكة، وتنزلت عليهم السكينة، وفتحت لهم أبواب السماء، واعدت لهم مقاعد الكرامات...»^(١)، فالعبارات الوعظية قد تلفعت بنسائم التشويق وتألقت في سبحات روحية يكتنفها الخوف والخشوع.

وإذا كان سبيل علي عليه السلام إلى التشويق من خلال الوعظ - وان قل - قد بلغ غايته في اجتلاب المعاني التي تشمل النفوس، وتتيه الارواح المؤمنة في نفاحاتها توقا إلى حياة الخلود والنعيم الأبدي، فإن قدرة علي عليه السلام على اجتلاب معاني الترهب قد بلغت الذروة، فإيمانه العميق وحسه المرهف وعقليته الوقادة، وعلمه التام بدقائق اللغة قد مكنه من شخذ طاقات الكلمة لتستجيب لمعاني الوعظ الترهيبى

الذي تقشعر له نفس المستمع ويشد وجيب قلبه منه هلعاً بالإضافة إلى الطاقات التعبيرية التي يبثها في الكلمة في أثناء الأداء ويمكن تمثل ذلك كله من قوله واعظاً محذراً «أيها اليقن الكبير، الذي لهزه القتير، كيف انت إذا التحمت اطواق النار بعظام الأعناق، ونشبت الجوامع حتى أكلت لحوم السواعد، فالله الله معشر العباد، وانتم سالمون في الصحة قبل السقم وفي الفسحة قبل الضيق...» (١) ويبلغ الوعظ الترهيبى أقصى غاياته، حين يتوقف علي عليه السلام عند وصف الموت، حيث تستطيع كلمته ان تدخل الرعب في قلب أي انسان مهما بلغ من رباطة الجأش وقوة الجنان، ومهما اظهر من تماسك ويكفي ان نقول في هذا المجال ان إحدى خطبه الوعظية التي خصها في وصف المتقين قد تسببت في موت احد أصحابه عند سماعها (٢)، كما تحدثنا مصادرنا.

٤- الجدل الخطابي:

ضم نهج البلاغة، ضمن المختارات من خطب علي عليه السلام مجموعة من المحاورات الخطابية، وهي في كثير من مقوماتها الخارجية تشبه إلى حد ما المناقرات الجاهلية التي تعتمد على التفاخر بالأنساب والنش في المثالب، وتكون ذلاقة اللسان وقوة البيان من أهم عناصرها، الا ان المحاورات الخطابية التي في النهج تبتعد تماماً في بنائها الفكري عن مضامين المناقرات الجاهلية، وتتفق معها، في متانة اللغة والصياغة القوية والبيان المحكم، أما الاختلاف الموضوعي فيتمثل في

(١) خطب - ١٨٥ - فقرة ٥. واليقن: بفتح الياء والقاف - الشيخ الكبير السن. ولهزه: خالطه. والقتير:

الشيء. والجوامع: جمع جامعة - الأغلال لأنها تجمع الأيدي إلى الاعناق.

(٢) راجع الخطبة ١٨٣ ومناسبتها وما الت إليه نهايتها كما ذكرها الرضي.

نواح متعددة منها:

أ- إن المحاورات الواردة في النهج لا تتخذ من العصبية القبلية عنصرا من عناصر بنائها الفكري، بينما تنحو المنافرات الجاهلية نحو العصبية القبلية كمصدر من مصادر الغلبة والانتصار.

ب - تعتمد المنافرات الجاهلية إلى البحث عن مثالب الخصم بالبحث في تاريخه للدخول منها إليه في محاولة إجمامه والخط من قيمته الاجتماعية، بينما يعتمد الجدل الخطابي في النهج إلى منطوق العقل مبتعدا عن الأساليب التي تنال من قيمة الفارد أو تحط من قيمتهم.

ج - تسيطر الحجة الدينية المشبعة بالإيمان على الجدل الخطابي المأثور عن علي عليه السلام بينما تكون الذات المتمثلة في الشخص أو القبيلة هي مصدر المنافسة الجاهلية أو التي تنحو منحىً جاهليا.

د- الحجة المقنعة هي الحكم في الجدل الخطابي المأثور عن علي عليه السلام، إذ يكون اللفظ بكل طاقاته موظفا لتبيان جوانب الحجة، إما بتأييد النصوص الدينية أو بتصوير الواقع تصويرا صائبا وصادقا ليعول عليه في إقامة الدليل الإحام الخصم، أما في المنافرات الجاهلية فقد تكون ذلاقة اللسان عنصرا من عناصر الانتصار والغلبة.

مع ملاحظة أن المنافسة تعتمد إلى المقابلة بين طرفين يحاول كل طرف منهما الانتصار على الآخر، بينما الجدل الخطابي في النهج هو في حقيقته محاولة من علي عليه السلام لتوضيح موقف معين في مناسبة ما، أو إماطة اللثام عن شبهة وقع فيها بعض أصحابه وجادلوه فيها، ونكاد نسمع صوت علي عليه السلام منفردا في تفنيده دعوى مجادلين كما في قوله لبعض الخوارج ردا على بعض مزاعمهم «فإن أبيتم إلا أن

تزعمو أني أخطأت وضللت، فلم تضللون عامة أمة محمد ﷺ بضاللي وتأخذونهم بخطئي، وتكفرونهم بذنوبي... وتخلطون من اذنب بمن لم يذنب، وقد علمتم ان رسول الله ﷺ رجم الزاني المحصن، ثم صلى عليه وورثه أهله وقتل القاتل وورث ميراثه أهله...»^(١)، فصوت علي عليه السلام هو البارز خلال المقولة السابقة، وقد اجتزأها الرضي - كما نظن - من جدل حام دار بين علي عليه السلام وبين الخوارج، لأننا نستطيع من خلالها معرفة آراء أولئك الموجهة إليهم، فقد سأله عن تصرفه في قضايا فقهية كثيرة لم يذكرها الرضي، منها المعاملة التي اتخذها تجاه أصحاب الجمل حين اباح قتلهم، ولم يبح سبيهم واسترقاقهم^(٢). والملاحظ ان عليا عليه السلام يعتمد في مثل هذا الجدل إلى النص الديني في الرد على خصومه، ويعمد في ردوده إلى أساليب تكاد تكون تقريرية مباشرة ولكنها ذات حيوية نابغة من قدرته الفائقة على الاستماع والرد بصدر رحب، وفكر متقد، وبدئية لمحة، هذا بالإضافة إلى ثقافة واسعة، خاصة في الجانب الديني المرتكز الأساسي الذي يعتمد عليه ذلك الحوار، ولكنه قد يعتمد أحيانا في حوارهِ على أساليب الاستيحاء المبني على التصوير، من ذلك ما دار بينه وبين الرجل البصري الذي جاءه ليستطلع رأيه بشأن بيعته، وموقف طلحة والزبير فيها وبذلك في أثناء توجهه إليهما^(٣).

٥- الخطب الدينية:

وهي التي يعتمد علي عليه السلام فيها إلى تعليم الناس العبادات من صوم وصلاة

(١) خطب - ١٢٧ - فقرة ١ .

(٢) أورد السكوني في عيون المناظرات ص ١٧٢ وما بعدها جانبا من ذلك الجدل .

(٣) أوردناها في ص ١٦٩ من هذا البحث وهي الخطبة - ١٧١ .

الباب الخامس: الأساليب التعبيرية في نهج البلاغة ٦٣١

وزكاة وحج، وغير ذلك من الشعائر الواجبة على كل مسلم وهو في مثل هذه الخطب يكتفي بعرض القضايا بأسلوب بسيط، وبألفاظ مناسبة ومحددة تكاد تكون قريبة من فهم الجميع، مع محاولته الجمع بين مزايا الشعائر التي يتحدث عنها من ناحيتي الدين والدنيا^(١).

تلك هي اذن انواع الخطب التي أثرت عن علي عليه السلام، وأبرز الخصائص الموضوعية والفكرية لكل نوع منها، وهي خصائص اقتضتها طبيعة كل نوع من أنواع تلك الخطب، إلا أن هناك خصائص عامة تكاد تكون مشتركة بين جميع أنواع الخطب منها:

١- الوحدة العضوية:

وتمثل التزام علي عليه السلام بموضوع محصور في نقاط معينة و مترابطة فكريا، مهما كان طول الخطبة، فخطبه خالية من الاستطراد والحشو، متسلسلة الأفكار مترابطة العناصر، بحيث لا يمكن فصل الفقرات، أو التقديم والتأخير في مواضعها، لذلك كثيرا ما يصاب الدارس في النهج بالحيرة إزاء نظرتة في الفقرات التي اجتزاها الرضي من خطب، إضافة إلى ما أجراه في مواضع فقرات بعض الخطب الأخرى من تقديم أو تأخير، وقد أشرنا إلى ذلك في موضعه^(٢).

٢- التنوع في أساليب الخطاب:

فمن مزايا أسلوب علي عليه السلام الخطابي التنوع في أشكال الخطاب بانسجام

(١) راجع الخطبة رقم ١٩٣.

(٢) راجع ص ١٢٣ وما بعدها من هذا البحث.

٦٣٢ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

تام، لا يشعر المستمع بأية نقلة تقطع الفكرة أو تحد من التأمل، من ذلك قوله ضمن خطبة وعظية «فاتقوا الله عباد الله وبادروا آجالكم بأعمالكم... وان غاية تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة لجديرة بقصر المدة، وان غائباً يحدوه الجديدان الليل والنهار، لحري بسرعة الأوبة... فتزودوا في الدنيا من الدنيا... فاتقى عبد ربه، نصح نفسه وقدم توبته... نسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن لا تبطره نعمة»^(١). فقد توجه في مطلع الخطبة بالحديث إلى جمع المستمعين، ثم تحول بانسياب وسهولة إلى وصف قصر الحياة على وجه الأرض، ثم تحول بالحديث إلى المفرد الغائب، وعاد في خاتمة الخطبة إلى المستمعين ليشارك نفسه معهم في الاستغفار.

ومن الأساليب التي يعمد علي عليه السلام إليها أيضاً صيغ القول كمصدر من مصار الاتصال النفسي كما في قوله ضمن خطبة يصف فيها الموقف غير المستقر لأولئك الذين حالوا بينه وبين حقة في الخلافة «فإن أقل، يقولوا: حرص على الملك، وان اسكت، يقولوا: جزع من الموت هيئات بعد اللتيا والتي، والله لابن أبي طالب آنس الموت من الطفل بثدي أمه، بل اندمجت على مكنون علم، لو بحث به لاضطربتم اضطراب الارشية في الطوي البعيدة»^(٢)، فهو ضمن الفقرة السابقة يحاول استقراء نفوس أولئك الذين منعه حقه، بتبيان تناقض

(١) خطب - ٦٣.. وبادروا آجالكم بأعمالكم، أي استكملوا أعمالكم قبل حلول آجالكم. والمبادرة:

المسابقة، والغاية في الخطبة هي الاجل. والغائب: هو الموت. ويجدوه: يسوقه.

(٢) خطب - ٥.. هيئات بعد اللتيا والتي: مثل يقال في الشدائد والمصاعب صغيرها وكبيرها ويعني

به علي عليه السلام: ان الذي يرميه بالجوع والخوف بعد ركوبه الأخطار والشدائد وقاسى المخاطر صغيرها وكبيرها، قد بعد عن جادة الحق. ويمكن مراجعة المثل وقصته عند: الميداني: مجمع

الامثال ١/ ١٥٩ المثل رقم ٤٤٠.

نفوسهم، ثم يعيد تمثل ذلك الاستقراء بأسلوب حوارى، يحاول من خلاله اشراك المستمع في الموقف الخطابى، ومن ثم بنقل الخطاب بطريق غير مباشر إلى الحديث عن نفسه مكتفياً بذكر اسمه في قوله «والله لابن أبي طالب...» ثم ينتقل إلى الحديث عن علمه متوجهاً بذلك إلى مستمعه إلا أن للحديث هنا وجهاً آخر غير مباشر- هو كما نعتقد- يتضمن الرد على أولئك الذين يرون في مطالبته طمعاً وفي سكوته جبناً، ويمكن ملاحظة مثل هذا الأسلوب القولى أو ما يقرب منه ضمن خطبته في الخوارج بعد ان تكشفت لهم خدعة التحكيم^(١). ومن أساليب شد الاذهان وجلب انتباه المستمعين، التي يستخدمها علي (عليه السلام) في خطبته وصف ما ينتاب النفس من وجل وخوف وصراع في أثناء المواقف المصيرية الحساسة، من ذلك قوله في مجال الوعظ مستقرئاً نفس الإنسان في النزاع الاخير «وأنه بين أهله، ينظر ببصره ويسمع بأذنه على صحة من عقله، وبقاء من لبه، يفكر فيم أفنى عمره، وفيم أذهب دهره، ويذكر أموالاً جمعها، أغمض في مطالبها... فهو يعرض يده ندامة على ما أصحح له عند الموت من أمره، ويزهد فيما كان يرغب فيه أيام عمره، ويتمنى أن الذي كان يغبطه بها ويحسده عليها قد حازها دونه»^(٢)، فالخطبة لا تقتصر على مجرد الوصف لحالة الموت فعباراتها تنقلنا إلى اعماق نفس المحتضر لنعيش معه تفكيره وامنياته وانفعالاته تجاه من ينظرون إليه، مستعرضاً في شريط طويل، حياته وكيف تصرف فيها، وعلي (عليه السلام) بأسلوب هذا يجذب إليه المستمع بكل احساساته، مهما كانت قدرة ذاك المستمع على الانفلات من تأثير الكلمة.

(١) راجع الخطب- ١٢١..

(٢) خطب- ١٠٨- فقرة ٣. وأغمض: أي تعامى ولم يفرق بين حلال وحرام. وأصحح له: ظهر له

ومن العناصر البينة التي تتميز بها خطب علي عليه السلام، أن قارئها يستطيع من خلال تأمله في المعاني استقراء نفسية علي عليه السلام، وسبره لمدى سعادتها وتبرمها، لأن عليا عليه السلام يحشد في تعبيراتها كل احساساته الصادقة العميقة تجاه الموضوع الذي هو بصدد التحدث فيه، خاصة وان معظم خطبه لا يعدها اعدادا مسبقا من أجل المناسبة، وإنما الظرف والمناسبة هما اللذان يفرضان عليه ارتجال الخطبة في حينها، لحاجة ملحة تفرضها الاحداث المتتالية غير المتوقعة، هذا إذا ما استثنينا بعضا من خطبه الدينية والأخرى الوعظية، التي وان لم يعدها كتابة، فقد يكون استعداد لها نفسياً.

٢- العهود

وهي من الأدب المقروء لأنها شروط تكتب لمن تناط به مهمة رسمية ويجب عليه التقيد بفحوى العهد في نطاق ما كلف به «لأن الشرط عهد في الحقيقة»^(١)، ومن خلال ما أورده الرضي من نصوص سياسية في النهج، يبدو ان عليا عليه السلام قد كان يزود كل من ينيط به عملا عهدا^(٢) يحدد فيه مسؤولياته، ويرسم له الطريق الذي يجب أن يأخذ به في تعامله مع أولئك الذين يتعلق ذلك العمل بشؤونهم، ومن أشهر العهود التي أثرت عن علي عليه السلام وأكملها: عهدان يتعلقان بإدارة حكم الولايات.

الأول: زود به محمد بن أبي بكر حين ولاه مصر^(٣).

(١) تاج العروس ٨/٤٥٩.

(٢) راجع رسائل: ٢٦، ٢٧، ٥٣.

(٣) راجع السابق.

والثاني: كتبه لملك الأشتر حين ولاه مصر ايضا، بعد أن اضطرت أوضاعها على محمد بن أبي بكر بفعل دسائس معاوية^(١).

وإذا كان عهده لمحمد بن أبي بكر قد اقتصر على الخطوط الرئيسية في النواحي الإدارية والسياسية والاجتماعية، دون الدخول في التفاصيل، فإن عهده للأشتر قد بلغ من الشمولية ما جعله يستقضي فيه كل النواحي المتعلقة بشؤون الحكم من سياسة وإدارة واقتصاد ونواحي عسكرية وأخرى اجتماعية، وقد بلغ هذا العهد من الطول ما أثار حوله الشك^(٢)، مما جعل استاذنا المرحوم محمد خلف الله يتصدى لدفع ذلك الشك بذكر بعض القرائن في هامش دراسته للعهد^(٣).

وعهد علي^(عليه السلام) للأشتر بما يحويه من تفصيل للقضايا، ودقة في التعبير عنها، يجعله يفوق بأسلوبه وسحر بيانه، وإحاطته بكل ما يحتاجه الحاكم من تعليقات وتوجيهات، كل ما أثر في هذا الجانب من عهود ورسائل تصور بلاغة الكتابة العربية في عصرها الذهبي ونعتقد أن القول «بدأت الكتابة بعبد الحميد، وختمت بابن العميد»^(٤) فيه تجن على الأدب العربي، وهو مبني على توافق السجعتين وليس على وصف واقع ابتداء الكتابة الفنية حقيقة، فما أثر عن علي^(عليه السلام) من رسائل وعهود يفند القول بأن «أول من أطال الرسائل عبد الحميد

(١) راجع رسائل: ٢٦، ٢٧، ٥٣.

(٢) راجع: في العروبة وآدابها ص ٢٨. الهامش.

(٣) السابق.

(٤) الثعالبي - يتيمة الدهر ٣/ ١١٤.

الكاتب وهو فارسي الأصل»^(١)، وكان النثر الفني العربي بأصوله وقواعده هو من ابتكار الأعاجم وليس للعقلية العربية أي دور فيه، مع ان عبد الحميد نفسه يعترف بأخذه هذا الفن عن علي عليه السلام^(٢) مما يرجح ما نعتقده بأن ما يسمي بالعصر الذهبي للكتابة العربية قد بدأ في فترة مبكرة من نشأة الدولة الإسلامية^(٣) وبلغ ذروته في عصر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وان اصوله عربية خالصة، وان تأثر فيما بعد بالزخرفة الاجنبية، بسبب تفاعل الثقافة العربية مع الثقافات الأجنبية الاخرى.

فبالمقارنة بين رسالة عبد الحميد في نصيحة ولي العهد^(٤)، وبين ما جاء عند علي عليه السلام في وصيته لابنه الحسن، وعهده للأشتر، سنجد ان رسالة عبد الحميد تلك قد اقتبست معظم ما تضمنته من افكار، مما جاء ضمن وصية علي عليه السلام وعهده، علاوة على ذلك تأثر عبد الحميد البين بأسلوب علي عليه السلام وتعابيرهِ في كثير من مواضع رسالته، مع ملاحظة البون الشاسع بين صفاء الأسلوب وسلاسة التعبير وانتظام الأفكار عند علي عليه السلام لأنه يمتح من اللغة على سجيته، وبين ما ورد في رسالة عبد الحميد من تعقيد في اجتلاب المعاني بسبب كد الفكر لتوليد المعنى المناسب. فرغم براعة عبد الحميد الفنية، فإنها تتضاءل إزاء بلاغة علي عليه السلام. وعلى كل فقد بلغ تأثر عبد الحميد بعلي عليه السلام ذروته حتى في العبارات القصيرة، وان حاول اخفاء ذلك إذ يؤثر عن عبد الحميد قوله لمن وجده يكتب

(١) احسان النص - الخطابة العربية في عصرها الذهبي ص ١٤.

(٢) راجع ص ٣٥٣ من هذا البحث. فقد ذكرنا مقولة عبد الحميد في شأن تأثره بعلي عليه السلام هناك.

(٣) راجع على سبيل المثال كتاب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الاشعري في القضاء - الجاحظ:

البيان والتبيين ٤٩/٢.

(٤) أوردها محمد كرد علي ضمن مختاراته - رسائل البلغاء ص ١٧٣ وما بعدها.

بخط رديء «أطل جلفة قلمك، وأسمنها، وحرّف قطتك وإيمنها»^(١)، وهو مأخوذ بتحريف من قول علي عليه السلام لكتابه عبد الله بن أبي رافع «ألق دواتك، وأطل جلفة قلمك، وفرج بين السطور، وقرمط بين الحروف فإن ذلك أجدر بصباحة الخط»^(٢). تلك إذن نبذة قصيرة حاولنا فيها إلقاء الضوء على أثر بلاغة علي عليه السلام وأدبه في بلاغة وأدب رائد النثر الفني في عصره الذهبي اقتضتها مناسبة الدراسة فيما أثر.

أما بالنسبة لشمولية العهد كوثيقة يعول الولاة عليها في حكم ولاياتهم فإننا لا نتفق مع ابن خلدون في اعتباره كتاب طاهر بن الحسين لابنه عبد الله من أحسن الكتب التي عنت بما يحتاجه الوالي «في دولته وسلطانه من الآداب الدينية والخلقية والسياسية والشرعية والملوكية، وحثه على مكارم الاخلاق، ومحاسن الشيم مما لا يستغني عنه ملك ولا سوقه»^(٣) لأن ذلك يعني ضمنا ان العرب لم يعرفوا علم السياسة وادارة الحكم، الا بعد ان اختلطوا بالأعاجم الذين يرجع الفضل إليهم في تبصير العرب بتلك العلوم. لكون طاهر بن الحسين^(٤) - كاتب العهد - من أصول فارسية. وهو ما يتفق ومقولة ابن خلدون «ان العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك»^(٥). فمن المعتقد ان ابن خلدون لم يطلع على عهد

(١) الجهشباري - الوزراء والكتاب ص ٨٢. وقطتك - بفتح القاف أو كسرها: صحيفتك.

(٢) حكم - ٣٢٣. وألق دواتك: أصلح مدادها، أي اجبرها، ولاق الحبر بالورق، يلق أي التصق به. والجلفة: بكسر الجيم - فتح القلم التي يستمد بها المداد. وفرج بين السطور: باعد بينها. وقرمط بين الحروف: قارب بينها.

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٣٧٨، وقد ذكر رسالة طاهر بن الحسين بتامها مباشرة بعدما نقلناه عنه من شاهد.

(٤) راجع ترجمة طاهر بن الحسين عند ابن خلكان - وفيات الأعيان ٢/٥١٧.

(٥) مقدمة ابن خلدون ص ١٨٩.

علي عليه السلام للأشتر. فبمقارنة سريعة بين ما حواه كلا العهدين من عناصر يتضح للدارس أثر أحدهما في الآخر من حيث تسلسل العناصر وشموليتها الفكرية، وبنائها الفني، فقد تضمن كلاهما العناصر التالية:

عهد علي بن أبي طالب عليه السلام عهد طاهر بن الحسين

* ١- بدأ علي عليه السلام عهده للأشتر بتبيان المهام التي عهد إليه وحصرها في: جباية الخراج، جهاد الأعداء، واستصلاح أهل مصر، عمارة الأرض، مع التزام التقوى والعمل بكتاب الله في كل ذلك.

* ١- بدأ طاهر بن الحسين عهده لابنه بتعداد الصفات والفضائل الواجب توفرها في الوالي من مداومة على الصلاة، والتمسك بسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والافتداء بالسلف الصالح، والتفقه في الدين، والتمسك بكتاب الله والمداومة على مجالسة الفقهاء ومشاورتهم، والاحذ بآراء أهل التجربة من العقلاء والحكماء وكل ما تضمنه هذا العنصر من أفكار تكاد تكون ملحقمة بعناصرها المناسبة لها في عهد علي عليه السلام.

* ٢- تلا ذلك بالحديث عن أهم مميزات الوالي من حيث السلوك، والعلاقات بالناس على اختلاف أجناسهم وأديانهم، مع تبيانه للطريقة المثلى في التعامل معهم.

* ٢- الطريقة المثلى في تعامل الوالي مع خاصته ممن يتولون الأعمال له، ذلك بالالتصاق بهم، وبث الثقة في نفوسهم، وعدم اتهامهم على الظنة، ما لم يكن لديه الأدلة الكافية والقوية التي تتيح له إيقاع العقاب بهم وهذا العنصر بكامل أفكاره يكاد يكون جزءاً مما أورده علي عليه السلام في عهده بشأن اختيار القضاة والكتاب والجباة وغيرهم ممن له علاقة مباشرة بشؤون الدولة من الموظفين الإداريين.

*٣. بيان الفئات التي يتكون منها *٣. السلوك بالرعية مسلك الدين في المجتمع وهم: الجند، والموظفون من كتاب العامة والخاصة، والقضاة، والمكلفون بجباية الخراج والفلاحون من أهل جزية وخراج من ذميين ومسلمين، والتجار، والصناع، والطبقة السفلى من فقراء ومحتاجين ومساكين، وقد فصل القول في أهمية كل فئة ودورها في بناء المجتمع وأثرها في الفئات الأخرى والمسؤولية الملقاة على عاتق الوالي تجاه كل فئة من حيث الحقوق والواجبات، والطريقة المثلى في التعامل مع كل فئة بما يصلحها.

*٣. أداء حقوقهم، وإقامة الحدود، والتمسك بالعهود والمواثيق، والتغاضي عما ستر من عيوب الناس، وقبول التوبة، وتجنب الخداع والكذب في التعامل مع الرعية، والايقاع بالسعاة والنمامين واجتناب كل ما يسيء إلى الدولة من جور وظلم واضطهاد مع الاعتذار إلى الرعية إذا وقع مثل ذلك من الوالي عن غير قصد. وعدم التغاضي عن أي ذنب يلحق الأذى بعامة الناس، أو ينقص من هيبة الدين والدولة. وقمع المفسدين والإحسان إلى المساكين والمحتاجين، وعدم رد السائلين. وهذا العنصر أيضاً مكون من أفكار ملتقطة من عناصر عهد علي عليه السلام مع إعادة صياغتها بأسلوب مختلف.

*٤. تلا ذلك بتفصيل الحديث في العوامل الادارية والسياسية الهامة التي تساعد الوالي على النجاح في مهمته ومنها: المبادرة بإصدار حاجات الناس في وقتها المحدد من دون تأخير، عدم الإطالة في الاحتجاج عن الناس، افساح المجال لسماح شكاوي العامة والضعفاء في جو يسوده الأمن والاطمئنان، العمل بكل حزم على تفادي انحراف البطانة بالاستئثار لما للناس من حقوق، مكاشفة الرعية والاعتذار إليهم إذا ظنوا به حيفا أو جوراً، ان لا يدفع صلحا دعاه إليه عدوه فيه

*٤. الطريقة المثلى التي يجب على الوالي اتباعها لإصلاح أموال ولايته سواء أكان ذلك في تحصيلها وجبايتها، أو في سبل انفاقها، وظهر في أسلوب هذا يقتضي ما تضمنته وصية علي عليه السلام لعماله على الخراج «رسائل رقم ٥١» بالإضافة إلى ما ورد بشأن ذلك في عهد علي عليه السلام عند تعرضه الى الفلاحين وأهميتهم بالنسبة للأمة.

صلاح الامة، أن يأخذ كل احتياطاته بدراسة جوانب أي صلح قبل إبرامه مع العدو حتى لا يقع في شرك الخديعة والمكر، ان يلتزم التزاما تاما بما ربط به نفسه من عهود وان اكتشف فيما بعد ان في تلك العهود جورا على نفسه، وأن ينبذ الإطراء، ويتحاشى المن على رعيته بما يبديه لهم من إحسان وأياد بيضاء، وأن لا يستعجل الأمور قبل أوانها، وأن لا يلجأ إلى العقاب إلا بعد أن ينفذ كل ما لديه من أساليب الرفق واللين المشروعة، وان يضع في اعتباره دائما ان قوة الله وقدرته فوق كل قوة وقدرة، حتى ترتدع نفسه وتتواضع بتفادي التكبر والتجبر. وقد تضمن العهد كثيراً من الوصايا الجوهرية الأخلاقية والأخرى الإنسانية بما لا يتسع لذكرها ويمكن الاطلاع عليها ضمن تلك الوثيقة القيمة.

٥- نصائح وتوجيهات متفرقة، تتصل بعلاقة الوالي بموظفيه وعماله وما يحتاجونه من متابعة ومراقبة، والكيفية التي يجب ان يكونوا عليها في أثناء تعاملهم مع الرعية، بالإنصات إلى شكواهم والتعرف على مشاكلهم، إلى غير ذلك من نصائح وإرشادات تكاد تكون مقتبسة بمعانيها من عهد علي عليه السلام أيضاً.

فمن خلال مقارنة بين فحوى العهدين يظهر بنتيجة مفادها اشتراكهما في معظم الخصائص الإدارية والسياسية ان لم تكن كلها «حتى ليغلب الظن أن - طاهراً - حذا في رسالته حذو الإمام في رسالته»^(١)، مع ملاحظة الفارق الكبير بين العهدين من حيث ترتيب العناصر وتناسق الأفكار فيها، ومن حيث بلاغة الأسلوب أيضاً، إذ لم يستطع طاهر بن الحسين أن يبلغ بأفكاره وأسلوبه ما بلغه علي عليه السلام، الذي شرب روح الإسلام من مصادره الأساسية دون وساطة ومن ثم استلهم روح التاريخ وتجارب الأمم بفكره المتوقد والوهاج، ثم أنه في صياغته للأساليب نهل من معين لغة الجاهلية الصافي ومازجه ببلاغة القرآن، فاستطاع أن يصوغ من ذلك المزيج اللغوي المتجانس في ذروة تعبيراته، والفكر الإنساني الفذ المتمثل في الإسلام في أوج فتوته وعطائه، وثيقة لو أتيحت لها الدراسات المنصفة والبعيدة عن كل تعصب لتبوأ القمة في النثر العربي كشاهد من شواهد الريادة الاصلية لأداب العربية منذ بواكيرها الأولى، هذا بالإضافة إلى اعتبار مضمونها الفكري كوثيقة اصيلة وكهالة لحقوق الإنسان تتحدى بفحواها كل ما كتب في شأن ذلك على امتداد عصور الإنسانية، واهم ما يميز هذا العهد هو:

١- التزامه نهج الإسلام وتعاليمه في الحكم والإدارة بنظرته الإنسانية الواسعة التي لا تقصر الحقوق على فئة معينة ومميزة لأن المواطنين كما ينص العهد متساوون في الحق سواء المسلم وغير المسلم. فهو بتعاليمه يمثل ما أثر عن علي عليه السلام من فكر ضمنه خطبه وأقواله وطبقه في واقع افعاله.

٢- الترتيب المتقن والتناسق التام بين العناصر التي تكون العهد الذي يبين من خلاله حرص علي عليه السلام التام على «أن يفتح عين ولاته على الصغير والكبير من

(١) في العروبة وآدابها - السابق ص ٣١.

شؤون الحكم وصلات الحاكم بالناس»^(١).

٣- اختيار الألفاظ والاساليب اختياراً دقيقاً ومحكماً كي تتناسب والعناصر الفكرية التي صيغت من أجلها، مع بعد عن التكليف وسهولة في مخارج الحروف، واتسام بالانسجام والمصالحة مع روح وعقل من كُتب العهد اليه من الولاية.

٤- استمرارية في بقاء الأسلوب على قوة بنائه ومتانة تماسكه وترابط أفكاره وانسجامها من بداية العهد حتى نهايته دون ان يتخلله فتور في تعبيراته، أو انحلال في افكاره رغم طوله الذي بلغ «أكثر من ألفين ومائتين كلمة»^(٢).

٥- الاحاطة الشاملة التامة بأبعاد كل فكرة وردت فيه بإشباعها دراسة وتمحيصاً وتبيان إيجابياتها وما يعتورها من سلبيات يمكن للوالي أن يتلافها كي لا يقع في الخطأ الذي ينتج عنه الإرباك، ويمكن تطبيق هذه المميزات على الجوانب الفكرية التي عرض إليها علي عليه السلام في عهده لمحمد بن أبي بكر حين ولاه مصر أيضاً.

٣- الرسائل:

وهي القسم الثاني من الأدب المكتوب المأثور عن علي عليه السلام، وعددها في النهج ستون رسالة مختلفة، من جملة تسعة وسبعين نصاً ذكرها الرضي في الباب الذي افردته للرسائل والعهود والوصايا. وتنقسم هذه الرسائل من حيث مضامينها على قسمين:

(١) في العروبة وآدابها ص ٣٥.

(٢) في العروبة وآدابها ص ٢٩.

- الأول: الرسائل العامة:

وهي الرسائل التي كتبها علي عليه السلام لتقرأ على عامة الناس في الولايات، ويكلف الوالي أو من يقوم مقامه بأدائها، وتشبه في مضامينها ومقوماتها وأساليبها الخطبة، إلا أنها في كثير من الأحيان تمتاز بالإيجاز والتركيز وتتناول في العادة موضوعات هامة وتتطلب انجازا سريعا، كالأخبار عن تولية عامل جديد تتطلبه الظروف الحرجة التي تعيشها الولاية^(١)، أو كالأخبار عن نتائج معركة ما اضطرت الحكومة المركزية إلى خوضها^(٢) أو التعرض لشرح قضية ما اختلفت آراء الناس حولها في مختلف ولايات الدولة^(٣). وتتميز هذه الرسائل بإيرادها الحقائق في صيغ اخبارية واضحة وصریحة وصادقة ومباشرة، مثال ذلك كتابه إلى أهل الكوفة الذي ستحتهم فيه على القدوم إليه، عند مسيره إلى البصرة للقضاء على فتنة أصحاب الجمل «من عبد الله علي أمير المؤمنين، إلى أهل الكوفة، جبهة الأنصار وسانم العرب، اما بعد فإني اخبركم عن أمر عثمان حتى يكون سمعه كعيانه، ان الناس طعنوا عليه، فكنت رجلا من المهاجرين، أكثر استعتابه، وأقل عتابه، وكان طلحة والزبير اهون سيرهما فيه الوجيف، وارفق حذائهما العنيف، وكان من عائشة فيه فلتة غضب، فأتيح له قوم فقتلوه، وبايعني الناس غير مستكرهين ولا مجبرين، بل طائعين مخيرين، واعلموا أن دار الهجرة قد قلعت بأهلها وقلعوا بها، وجاشت جيش الرجل، وقامت الفتنة

(١) راجع رسائل - ٣٨، ٥٧، ٥٨.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

على القطب، فأسرعوا إلى اميركم وبادروا جهاد عدوكم ان شاء الله تعالى»^(١)، فلقد لخص علي عليه السلام احداث الفتنة التي ادت إلى قتل عثمان، وبين ضمنها دور الخارجين عليه من أصحاب الجمل في اشعال نارها وذلك بلمحات تصويرية مقتضبة، مارا بسرعة على وصف بيعة الناس له باختصار شديد، تلاه تصويره لما حدث في المدينة من فتنة، ثم طلب منهم الاسراع بالالتحاق به للقضاء على الفتنة القائمة في وجه الخلافة. فالرسالة من الوضوح والاختصار بحيث لا يمكن الاستغناء عن أي عبارة فيها، لاعتمادها على التركيز والتعابير التصويرية الموحية وخلوها من الفضول والزيادات.

- الثاني: الرسائل الخاصة:

وهي التي يكتبها إلى اشخاص معينين وتنقسم بدورها إلى اقسام ثلاثة:

١- رسائل إدارية: وهي نوع من الرسائل التي عادة ما يكتبها علي عليه السلام لولاياته في الشؤون المتعلقة بهم وبأعمالهم، كتنبئه احدهم إلى قسوته التي يأخذ بها سكان ولايته^(٢)، أو حضه آخر على القيام بأعمال معينة أو مشاريع محددة يجدها مهمة

(١) رسائل - ١. وشبههم بالجبهة من حيث الكرم وبالسنام من حيث الرفقة. وعيانه: رؤيته. واستعبابه: استرضائه. وعتابه: لومه. والوجيف: نوع من سير الابل يمتاز بالسرعة. والحداء: الغناء للابل من أجل سوقها والعبارة في مجملها كناية عن إسراعها في إثارة الفتنة على عثمان. ودار الهجرة: المدينة. وقلع المكان بأهله: لم يصلح لاستيطانهم. وجاشت: غلت. والمرجل: بكسر فسكون: القدر.

(٢) راجع - رسائل: ١٩، ١٨، ٦٧، ٦١، ٤٠، ٤٣، ٦٣.

وضرورة بالنسبة إلى الولاية^(١)، أو التبكيث واللوم لمن يفرط منهم في أمر هام مقابل قيامه بعمل يقل في أهميته وخطورته من العمل الذي فرط فيه^(٢)، أو الإيعاز لبعضهم ممن يشك في اختلاساتهم برفع حسابات ولايتهم^(٣)، أو نصيح من يخبر عن تبذيره بعدم التهادي في الملذات واعطاء الهبات من الأموال العامة المكلف بصيانتها والحفاظ عليها^(٤) أو العزل بسبب سوء التدبير في بعض الأحيان^(٥) إلى غير ذلك من موضوعات وقضايا إدارية تتصل اتصالا مباشرا بعمل الوالي أو من ينوب عنه.

ويمتاز أسلوب ذلك النوع من الرسائل بالاختصار والصرامة والتحديد الدقيق والمباشر للموضوع، مثال ذلك كتابه إلى عمر بن سلمة المخزومي^(٦) عامله على البحرين الذي جاء فيه «أما بعد فاني قد وليت نعمان بن عجلان الزرقي على البحرين، ونزعت يدك بلا ذم ولا تشريب عليك، فلقد احسنت الولاية، واديت الامانة، فأقبل غير ظنين ولا ملوم ولا متهم، ولا مأثوم، فلقد أردت أن أسير إلى ظلمة أهل الشام، وأحببت أن تشهد معي فإنك ممن استظهر به على جهاد العدو، واقامة عمود الدين، ان شاء الله»^(٧)، فالرسالة ادارية

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) راجع السابق.

(٥) راجع - السابق.

(٦) راجع ترجمته عند ابن الأثير أسد الغابة ٤/ ١٨٣.

(٧) رسائل - ٤٢- والنعمان بن عجلان الزرقي - بضم الزاي وفتح الراء - من الانصار، كان شاعرا

فصيححا وسيدا في قومه. راجع ترجمته في أسد الغابة - السابق ٥/ ٣٣٤.

بحته، حتى المدح الذي تضمنته هو بمثابة اخلاء ذمة وإزالة لأي لبس يدخل في روع الوالي المعزول، ودقة تعبيرها لا يدع مجالاً للشك في أن العزل لم يكن إلا من أجل الغرض الذي ذكره علي عليه السلام، وتلك هي ميزة جميع الكتب الإدارية الماثورة عن علي عليه السلام في النهج.

٢- رسائل عسكرية: وهي الرسائل التي يكتبها علي عليه السلام إلى قادة جيوشه، وتتضمن أوامر بالسلوك بالجند في طريق ما، أو اتحاد بعض الجيوش تحت إمرة قائد يقع اختياره من قبله إلى غير ذلك من أمور عسكرية تقتضيها خطط الحرب وأسلوب علي عليه السلام في هذا النوع من الرسائل هو ذات أسلوبه في رسائله الإدارية، من اختصار ومباشرة وتحديد للمعاني، مثال ذلك ما كتبه إلى أميرين من أمراء جيوشه بعد أن أرسلها كمقدمة لما عزم على التوجه إلى صفين «قد أمرت عليكما وعلى من في حيزكما، مالك بن الحارث الأشتر، فاسمعا له وأطيعا واجعلاه درعا ومجنا، فانه ممن لا يخاف وهنه ولا سقطه ولا بطؤه عما الاسراع إليه احزم ولا اسراعه إلى ما البطء عنه أمثل»^(١)، فالصفات المقتضية التي اسبغها على قائده المؤمر هي من الاستحقاق ما تجعله جديرا بأن يطاع، وعبارات الرسالة رغم قلتها فإنها توحى بجل المعاني التي يجب ان تتوفر في قادة الجيوش.

٣- رسائل سياسية: وهي التي كتبها علي عليه السلام لأولئك الذين ناوؤه وحاولوا نكث بيعته من امثال طلحة والزبير أو امتنعوا عنها من امثال معاوية ومن شايعه من الأمويين واهالي الشام. وهذه الرسائل في مجملها صنفان:

- الأول: الكتب المرسلة من علي عليه السلام لأولئك الخارجين عن طاعته، ويعمد فيها إلى شرح موقفه إزاء دعاواهم مباشرة، متكئاً في تنفيذ مزاعمهم على الحجة والمنطق واستمالتهم بأسلوب العقل والموعظة الحسنة، ولكن من دون تهاون أو تنازل، فالحلول الوسط لا تعرف إلى رسائله سبيلاً، ويمكن أخذ كتابه الذي بعثه إلى طلحة والزبير ^(١) مثلاً، فقد حاول ضمن الكتاب صدهما عما عزم عليه من نكث بيعته وقد بناه على العناصر التالية:

١- البيعة له بالخلافة وكيف تمت.

٢- مبايعة الأئمة له بين الإعلان والإضمار والطاعة والاكراه.

٣- مقتل عثمان بينه وبين الإثني بشهادة من حضره من أهل المدينة.

وقد اجملت الرسالة تلك العناصر بإحكام ودقة لا تمكن من ارسلت إليه من أية فرصة للإفلات من حججها وقوة منطقتها، مع اقتضاب في العبارة وتركيز في اختيار المعاني المناسبة.

ويمكن تمثل تلك الخصائص المعنوية أيضاً في كتابه الذي بعثه إلى جرير بن عبد الله البجلي ^(٢) حين استبطاً مكوته بالشام لما أرسله لأخذ بيعة معاوية ونصه «أما بعد، فإذا أتاك كتابي هذا، فأحمل معاوية على الفصل، وخذه بالأمر الحزم، ثم خيره بين حرب مجلية أو سلم مخزية، فإن اختار الحرب، فانبذ إليه، وإن اختار السلم فخذ بيعته والسلام» ^(٣) فأسلوب الرسالة من الحزم والجديّة بحيث لا

(١) راجع - رسائل - ٥٤.

(٢) جرير بن عبد الله البجلي - من صحابة رسول الله ﷺ. راجع ترجمته عند الذهبي - سير أعلام النبلاء ٥٣٠/٢.

(٣) رسائل - ٨.

يترك مجالاً للتردد بين اختيارين لا ثالث لهما وعبارات الرسالة لا تعطي مجالاً للتأويل، ولا توحى بالمرابطة والمساومة، فهي قاطعة ومحددة.

- الثاني: وهي الكتب التي عادة ما تكون ردوداً على رسائل وردت إلى علي عليه السلام من مناوئيه، وكل ما ورد في هذا الباب من ردود كانت على رسائل لمعاوية، كان مراده منها المساومة والخداع للوصول إلى ما ربه في البقاء في ولاية الشام، وقد اتبع من أجل ذلك أساليب متنوعة منها حجته بأن البيعة لعلي عليه السلام لم تلزمه لأنه وأهل الشام لم يبايعوا أصلاً^(١) ومنها مطالبته بالثأر من قتلة عثمان الذين انضوا تحت إمرة علي عليه السلام^(٢)، ومنها اتهام علي عليه السلام بمحاولة نكث بيعة الشيخين^(٣)، ومنها - وهو الحقيقة - طلب إقراره على ولاية الشام دون أي التزام ببيعة علي عليه السلام على تلك الرسائل، وما يميز تلك الجوابات:

أ- الرد على فحوى الرسالة نقطة تلو الأخرى، مبتدئاً رده بأجمال مضمون كل نقطة وردت في الرسالة الأصل، ضمن الرد عليها، من ذلك قوله ضمن رده على إحدى رسائل معاوية «أما بعد فإننا كنا وأنتم على ما ذكرت من الألفة والجماعة، ففرق بيننا وبينكم أمس أنا آمننا وكفرتم، واليوم أنا استقمنا وفتنتم... وذكرت اني قتلت طلحة والزبير وشردت بعائشة، ونزلت المصريين، وذلك أمر غبت عنه، فلا عليك، ولا العذر فيه اليك»^(٤). إذ يتضح من رد علي عليه السلام ان رسالة معاوية تركز على تذكير علي عليه السلام، بألفة المسلمين ونصحهم اياه الابقاء على

(١) يمكن استنتاج ذلك من الرسائل: ٦، ١٩، الفقرة الأخيرة، ٢٨، الفقرة الرابعة، ١٧ مطلع النص.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) رسائل - ٦٤ - فقرة ٢.

تلك الالفة، ومن ثم اتهمه اياه بفك اواصر الوحدة الإسلامية بقتله طلحة والزبير، وتشريده بزواج النبي ﷺ، وبتكره المدينة عاصمة الإسلام ونزوله بالبصرة ثم الكوفة، فعناصر رد علي عليه السلام، مبنية كما نلاحظ على عناصر رسالة معاوية دون زيادة أو نقصان، وعادة ما يبدأ علي عليه السلام رده على كل عنصر بتوجيه الحديث إلى معاوية بـ (اما) الشرطية التفصيلية.

ب - مقابلة التهديدات والإنذارات بالسخرية اللاذعة المستقاة مضامينها من وقائع التاريخ، من ذلك قوله لمعاوية ضمن رده السابق أيضاً «وذكرت أنك زائري في المهاجرين والأنصار، وقد انقطعت الهجرة يوم أسر أخوك، فإن كان فيه عجل فاسترفه، فإني إن أزرك فذلك جدير أن يكون الله انما بعثني إليك للنتمة منك، فإن تزرنني فكما قال أخو بني أسد: (بسيط)

مستقبلين رياح الصيف تضربهم بحاصب بين اغوار وجلمود^(١)
فالسخرية تكمن في قول علي عليه السلام «قد انقطعت الهجرة يوم أسر أخوك» ويعني يزيد بن أبي سفيان الذي اسر يوم الفتح وما يريده علي عليه السلام من ذلك ان «اكثر من

(١) رسائل - ٦٤ - فقرة ٣.

واخو بني أسد هو بشر بن أبي خازم، عمرو بن عوف الاسدي شاعر جاهلي فحل، وقد عزا علي عليه السلام البيت إليه الا ان ابن أبي الحديد في شرحه ١٧/١٩ يقول: «كنت سامع قديما ان هذا البيت من شعر بشر بن أبي خازم الاسدي، والآن قد تصفحت شعره فلم اجده ولا وقعت بعد على قائله» ويمكن الرجوع إلى ترجمة الشاعر في: أعلام الزركلي ٢/ ٥٤.

وريح حصب: تحمل الحصباء وهي صغار الحصى. والاغوار: ما سفلى من الأرض. والجلمود: الصخر الصماء.

وقد تمثل علي عليه السلام بالبيت لبيان لمعاوية مدى المشقة التي ستواجهه في حالة مبادرته بالحرب، مما يعني انه في كلتا الحالتين سيكون ضحية غروره.

٦٥٠ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

كان معك - يا معاوية -... هم من ابناء الطلقاء ومن اسلم بعد الفتح»^(١)، مما يعني انك نفسك لست في عداد المهاجرين فكيف يتسنى لك قيادتهم، واستمرارا في الرد على تهديد معاوية بأسلوب تنطوي عباراته على نوع من الازدراء، ما قاله من تهوين من اندفاعه، فاللقاء بين الاثنين لا محالة واقع، سواء اكان هو الباديء أم معاوية وفي كلتا الحالتين سيرى معاوية ايها اصبر جلدا. ومن الردود المتضمنة السخرية أيضاً الاستفهام الانكاري في قوله «ومتى كنتم يا معاوية ساسة للرعية، وولاة أمر الامة؟ بغير قدم سابق، ولا شرف باسق»، وقوله في رد ثالث «اما بعد فقد اتاني كتابك تذكر فيه اصطفاء الله صلى الله عليه وسلم وتأيدته اياه بمن ايده من اصحابه، فلقد خبأ لنا الدهر منك عجباً، إذ طفقت تخبرنا ببلاء الله تعالى عندنا ونعمته علينا في نبينا، فكنت كناقل التمر إلى هجر»^(٢)، أو داعي مسدده النضال»^(٣).

ج- الحذر الشديد والحيلة المتناهية في استخدام العبارات: فقد كان معاوية يرمي من الرسائل الكثيرة إلى علي عليه السلام، تصيد الفلتات التعبيرية التي تمكنه من إثارة الرأي العام ضد علي عليه السلام. وقد كان علي عليه السلام واعياً لأساليبه تلك. فمن

(١) شرح ابن أبي الحديد ١٧/٢٥٦.

(٢) رسائل - ١٠، ٢٨. وهجر: مدينة بالبحرين كثيرة النخل، وهي الاحساء حالياً احدى مدن المنطقة الشرقية من المملكة السعودية، وقوله «كناقل التمر إلى هجر» صوره من المثل القديم «كمستبضع التمر إلى هجر»، مجمع الامثال للميداني ٣/٣٩، يضرب مثلاً للرجل يعلم من هو اعلم منه.

(٣) راجع السابق، وقوله «داعي مسدده إلى النضال» اي معلم معلمه الرمي، وهو اشارة إلى قول القائل: (وافر)

ولما اشتد ساعده رماني

أعلمه الرماية كل يوم

شرح ابن أبي الحديد ١٥/١٨٨

أساليب الاستدراج التي أراد بها معاوية ايقاع علي (عليه السلام)، محاولة استثارته تجاه خلافة الشيخين، لما كان يعلمه من قوله باستثارهما بحقه، ففي رد لعلي (عليه السلام) على احدي رسائل يقول «وزعمت ان افضل الناس في الإسلام، فلان وفلان، فذكرت امرا ان تم اعتزلك كله، وان نقص لم يلحقك ثلمه وما انت والفاضل والمفضول والسائس والمسوس، وما لللقاء وابناء الطلقاء والتمييز بين المهاجرين الأولين وترتيب درجاتهم، وتعريف طبقاتهم»^(١). فلقد كان معاوية - كما نظن - يرمي من اثارته لقضية الفاضل والمفضول إلى جر علي (عليه السلام) للقول بأفضليته على الشيخين ولكن علي (عليه السلام) قد فوت عليه الفرصة حين وجه الرد إلى السخرية منه والتشهير به وبمنزلته إزاء القضية التي جعل من نفسه حكما فيها، وهو ابعد ما يكون تأهيلا، لأن بني عبد شمس عشيرة معاوية لم يكونوا من المهاجرين ولم يسلموا الا بعد ان وجدوا ان لا مفر من ذلك.

وفي موضع آخر من الرد نفسه يقول علي (عليه السلام) «وزعمت اني لكل الخلفاء حسدت، وعلى كلهم بغيت، فإن يكن ذلك كذلك فليس الجناية عليك، فيكون العذر لك: (طويل)

وتلك شكاة ظاهر عنك عارها

وقلت اني كنت أقاد كما يقاد الجمل المخشوش حتى اباع، ولعمر الله لقد أردت أن تدم فمدحت وان تفضح فافتضحت، وما على المسلم من غضاضة ان يكون مظلوما، ما لم يكن شاكا في دينه، ولا مرتابا بيقينه، وهذه حجتي إلى غيرك قصدها، ولكني اطلقت لك منها بقدر ما سنع من ذكرها»^(٢).

(١) رسائل ٢٨- الفقرة ١، ٤، ٥، وفلان وفلان، أبو بكر وعمر.

(٢) راجع السابق. والجمل المخشوش: الذي يجعل في انفه الخشاش لينقاد، والخشاش: خشب

فمعاوية على ما يبدو من رد علي عليه السلام على رسالته، قد كان يلح الحاحا شديدا في استدراج علي عليه السلام إلى النيل من حكم الشيخين، ولكن يقظة علي عليه السلام قد فوتت عليه الفرصة حتى ان إيجاءه بحقه ضمن الرد جعل من معاوية شاهد اثبات على مشروعية ذلك الحق مما تعذر معه على معاوية استخدامه كدليل على موقف علي عليه السلام المعارض من حكم أبي بكر التي أوماً إلى إكراه علي عليه السلام على قبولها كما يبدو من رد علي عليه السلام.

٤- الوصايا

الوصية جنس من الأدب العربي القديم، افرزته الحاجة التي حتمت على العربي من خلال مكانته في اسرته وبين قومه ان يفضي لهم بخلاصة تجاربه الحياتية متى ازمع الرحيل عنهم في سفر طويل أو عند احساسه بدنوا الاجل. والوصية بشكل عام عبارة عن نصائح وتوجيهات، مقترنة بأخبار وحكم، هي في جوهرها خلاصة تجارب الموصي ومحورها الذي تركز عليه نظرتة إلى شؤون الدنيا وكيفية التعامل مع احداثها، إذ يمكن من خلال التأمل في عناصرها استقرار نفسية الموصي ومعرفة أفكاره، لأنها عبارة عن حالة من التجلي الذي يعترى الإنسان في أثناء الفراق بكل أشكاله فهي على هذا الأساس تعبير ذاتي، وإن حاول الموصي صبغه بطابع إنساني بمحاولته إيداعه التجارب الإنسانية التي عاشها ضمن نسيج الوصية، ولكن بصبغها بنفحة من روحه، وبالتعبير عنها من وجهة نظره، وهي

يدخل في عزم انف البعير. والتضمين عجز بيت لابي ذؤيب الهذلي: وعيرها الواشون أي احبها-

محمد عبده- هامش نهج البلاغة- ص ٤٧٠- ط. دار الاندلس. والجمل المخشوش: الذي يجعل

في انفه الخشاش لينقاد. والخشاش خشب يدخل في عظم انف البعير.

في العادة - وكما يبدو لنا مما بين أيدينا من وصايا - فورية يلقيها الموصي ارتجالاً في مناسبتها، من دون أداء مسبق، فالمناسبة والموقف هما اللذان ينظران العناصر والأفكار بحسب اقتضاء المناسبة وانسجامه معها، وتلك المميزات بطابعها الذاتي العام تمثل شكلاً من أشكال الوصايا التي اثرت عن علي عليه السلام في النهج كما في قوله لأصحابه عند احساسه بدنو الاجل «أيها الناس، كل امرئ لاق ما يفر منه في فراره، والاجل مساق النفس، والهرب منه موافاته، كم اطردت الأيام ابحثها عن مكنون هذا الأمر، فأبى الله الا اخفاه. هيهات! علم مخزون. اما وصيتي: فالله لا تشركوا به شيئاً ومحمداً صلى الله عليه وآله وسلم فلا تضيعوا سنته، اقيموا هذين العمودين، وواقدا هذين المصباحين، وخلاكم ذم ما لم تشردوا، حمل كل امرئ منكم مجهوده، وخفف عن الجهلة، رب رحيم، ودين قويم، وإمام عليم. انا بالأمس صاحبكم، وانا اليوم عبرة لكم، وغدا مفارقكم، غفر الله لي ولكم...»^(١) فعبارات الوصية بتامها تترجم احساسات روح عامرة بالإيمان في حالة احتضار، ولكن ذلك الموقف الرهيب لم يمنعها من الإفضاء بما في داخلها من شوق للوصول إلى معرفة الحقيقة التي بقيت بعيدة المنال، ولكنها اكيدة وتأكيدها هي معاشتها في لحظاتها الاخيرة التي غطت على الم الاحتضار، مع بروز الإسلام والخوف عليه والنصح على التمسك به كعامل فكري ما فتأت نفس علي عليه السلام تكافح من اجله حتى النزاع الاخير، فالذاتية بالحديث عن النفس هي وصف لحالة التجلي التي يشعر بها علي عليه السلام، محاولاً اطلاق مستمعه على جوهرها من خلال احساسه بها بكل توجهاتها الفكرية التي يعتقدونها، مع محاولة منه في توجيه من يحيطون به إلى الأخذ بها، بناء على ما يتضمنه ذلك الفكر من خير ومحبة ورحمة كخلاصة لتجربة عايشها،

(١) خطب - ١٤٩ .. ومساق النفس: تسوقها إليه اطوار الحياة حتى توافيه. وخلاكم ذم ما لم تشردوا:

أي برئتم من الذم ما لم تميلوا عن الحق وتنفروا منه.

وكافح من اجلها ومات في سبيلها، مع ملاحظة ان ومضات الفكر تلك عبارة من انقذاح لتفاعلات داخلية وليدة مناسبتها، مما جعلها تناسب في الأسلوب على شكل همسات حزينة مثقلة بالألم، ومشبعة بالإيمان، ومتسمة باحساسات الفراق الابدي الممثل في إبانة للزمن بأبعاده الثلاثة في سبر كنهها واستلها فحواها، مما يتعذر معه الاعداد المسبق حتى ولو فكراً.

ومن تلك الوصايا الذاتية ما يعمد علي عليه السلام إلى كتابته، قادحا فيه زناد فكره، مضمنا إياه خلاصة تجربته، كوصيته الطويلة الشاملة التي كتبها إلى ابنه الحسن عليه السلام^(١)، وهو قافل من صفتين إلى الكوفة، وقد استوعبت هذه الوصية جل تجارب علي عليه السلام الحياتية، فمدة الرحلة التي كتبت فيها الوصية قد أتاحت لعلي عليه السلام التأمل والتركيز، مما فتح له مجال الحديث في معظم ما يحتاجه ابنه من نصائح دنيوية ودينية من عبادات ومعاملات وعلاقات، وفكر وثقافة فهي ليست كسابقتها ذات خطوط عامة مجملة ومركزة، محددة الوقت، والعنصر العاطفي وان بدا قويا فيها، إلا أنه لا يبلغ من التكثيف والحرارة في مثل سابقتها ايضا، التي قد خالط تعبيراتها الانفعال للشعور بدنو الاجل وقرب الرحيل، فالتركيز والعقلانية عنصران من أهم العناصر التي تميزت بها الوصية المكتوبة التي لم يعد يتخللها مجال للحزن، مع اتساع رحب في مساحة التأمل، تولد عنه كمية كبيرة من الحكم العملية المستخلصة من تجارب الموصي المرتبطة بجل شؤون الحياة والمنسجمة مع واقعها.

اما أهم ما وحد بين الوصيتين الذاتيتين المرتجلة والمكتوبة فهو المجرى النفسي في كليهما، والمتمثل في حرارة الإيمان، وصدق العاطفة والحب العظيم

للإنسانية بصياغات لغوية متينة.

وهناك أيضاً وجه ثان يختص بالوصية المكتوبة تحتمه طبيعة الإسلام الذي يلزم كل مؤمن به ان يترك وصية بما يعمل بتركه بعد وفاته امتثالاً لقوله تعالى:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ

لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾^(١)، فالوصية المعنية في الآية الكريمة هي نص، اما ان

يكون مكتوباً، أو شفويًا بحضور شاهدين عدلين، وفي كلتا الحالتين الكتابية

والشفاهية تكون الوصية ملزمة بالتنفيذ شريطة ان توافق ما نص عليه القرآن

الكريم، وفصله الشرع الإسلامي في خصوص الموارث. والعبارات في مثل

هذا النوع من الوصايا تكون محددة تحديداً علمياً دقيقاً لا يقبل التأويل. ومن

امثلة تلك الوصايا في النهج، الوصية التي كتبها علي عليه السلام بعد رجوعه من صفين

ضمنها ما يعمل في امواله بعد وفاته^(٢)، فعباراتها محددة في موضوع الاموال،

ومستحقات الورثة، دون تجاوز منه إلى غير ذلك.

وإذا ما تركنا الوصايا الذاتية المتعلقة بشخص علي عليه السلام وشؤونه، فإن هناك

أيضاً نوعاً من الوصايا الإدارية^(٣) والأخرى العسكرية^(٤)، منها ما يعمد

علي عليه السلام إلى كتابته ومنها ما يرتجله في مناسبته على شكل نصائح وإرشادات يتوجه

بها علي عليه السلام إلى قادة جيوشه وولاته على الأمصار في أثناء توديعهم للالتحاق

بأعمالهم ومزاولة مهامهم، وأما كتابته إليهم في أثناء مزاولتهم لتلك المهام إذا ما

(١) البقرة/ ١٨٠.

(٢) راجع رسائل ٢٤-.

(٣) راجع على سبيل المثال: رسائل ١١، ١٢، ٢٥، ٧٦.

(٤) راجع السابق.

اقتضت الضرورة ذلك، وهذا النوع من الوصايا عادة ما يكون مبنياً على عناصر محددة تتجه مضامينها إلى اتجاهين متكاملين:

اولهما: يتعلق بشخص المتوجه إليه بالوصية كمسؤول يفترض فيه شروط معينة تؤهله للمهمة المناطة به.

وثانيهما: ويتعلق بأسلوب تعامله مع من انيطت به مهمة رعايته من جند ومواطنين.

ومثل هذا الجنس من الوصايا يتسم بالدقة والتحديد في عباراته بما يناهز بها عن التأويل، إذ يمكن للدارس ان يستخلص منا جوانب كثيرة من أساليب علي عليه السلام الادارية والسياسية والعسكرية والاجتماعية وما تنطوي عليه من قيم أخلاقية ومضامين انسانية، وفي كلتا حالتنا الارتجال أو الكتابة فإنها تتميز بالإعداد الفكري المسبق^(١).

٥- الحكمة

لقد عرضنا لفحوى حكم علي عليه السلام في موضع سابق من هذا البحث وتحدثنا هناك عن قيمتها ضمن النص الذي ترد فيه، وعن اشعاعاتها الفكرية إذا ما اجتزئت مشكلة معنى مستقلاً^(٢) مما يعني أن كثيراً من حكم علي عليه السلام قد وردت ضمن نصوص أما مسموعة كالخطب والوصايا التي يلقيها ارتجالاً، أو مكتوبة ضمن رسائله وعهوده ووصاياه التي يكتبها إلى عامة الناس لتقرأ عليهم أو

(١) يمكن ملاحظة ذلك في وصيته بما يعمل في أمواله. رسائل ٢٤، ووصيته على الصدقات.

رسائل ٢٥.

(٢) راجع ص ٥٨٩ وما بعدها من هذا البحث.

لأشخاص معينين تكون المادة المكتوبة إليهم حصيلة فكرية يريد علي عليه السلام ابلاغها لهم لقرهم من نفسه أو لطلبهم ذلك منه كزاد فكري ينتفعون به.

وحكم علي عليه السلام سواء ما ورد اليها منها مكتوبا ضمن نصوص أو مرتجلا ضمن خطب هي خلاصة تفكيره المجسد لعمق تجربته والمعبر عن مدى خبرته الطويلة بالحياة والناس، لذلك فإنه لمن العسير جدا محاولة التفريق بين ما ورد مكتوبا وما ورد مسموعا من حيث البناء الفكري، والسياق المعنوي، لانطلاق كلا الحكمتين من معين واحد بأسلوب يكاد يكون واحدا من حيث التعبير والالفاظ، فالبعد الخطابي ضمن الخطبة، أو الكتابي ضمن الرسالة يكمن في طريقة الابلاغ في كلا الاتجاهين، مما يصبغه بالحماسة والتدفق في الخطابة، والتأمل والتفكير في أسلوب الكتابة، ولكن ذلك لا يغير من القيمة الفكرية لمضمون الحكمة، رغم اعتقادنا بأن ثمة فرقا دقيقا - بين الحكمتين المسموعة والمكتوبة - لا يمكن ملاحظته الا بعد طول تأمل، وفي جانب معين، مع وضع المناسبة في الاعتبار كي يكون بالإمكان الإحساس بالفارق، على أساس ان حكمة علي عليه السلام عملية، إذ هي في صياغتها تريد من قارئها أو مستمعها النزوع من مرحلة القراءة أو السماع إلى مرحلة الفعل والتطبيق، مما يصبغها بالأمر الممزوج بالثورية ضمن سياقها الخطابي المسموع، فقوله «من أبدى صفحته للحق هلك»^(١) ضمن خطبة له، بعد ان بايعه الناس في المدينة، وشعر بيوادر النكث، يجعل من الحق، كقيمة انسانية، موضع مجاهدة وهلاك لمن يحاول تجاهله وانكاره، رغم وضوح سبيله، وطبيعة المناسبة هي التي اوحى بمعاني المواجهة للحق ضمن الحكمة المبلورة لفكر علي عليه السلام تجاه

(١) خطب - ٦ - فقرة ٢.

الاحداث الدامية التي عاشتها المدينة جراء ما حدث بين عثمان من جهة و ثوار الأمصار من جهة أخرى، مما يعطي للحكمة مع استمراريتها كمقولة خالدة، بعدين أثنين: يتمثل الأول في الصراع على الحق بين عثمان والثوار من ناحية، ويتمثل الثاني في تحميل الحكمة انذارا مبطنا لأولئك الذين يريدون نكث البيعة التي تمت له وبمباركتهم، تحت شعار الحق. مما صيغ المقولة بالثورية في كل اتجاهاتها بصوغها بلاغيا في كناية تعني شرائح انسانية، اضرب علي عليه السلام عن ذكرها لحساسية الموقف الذي تطلب منه ذلك، اما في قوله «من تعدى الحق ضاق عليه مذهبه»^(١) والوارد ضمن وصيته المكتوبة لابنه الحسن عليه السلام، فيمثل وجهة نظر تأملية هادئة قوامها الالتزام بالحق وعدم التعدي عليه، فكلا الحكمتين تدعوان إلى التمسك بالحق كقيمة انسانية، ويكمن الاختلاف في كلتا المقولتين في طريقة التعامل لفهم الحق، فالصياغة التعبيرية في كلتا لحكمتين واحدة من حيث المبنى ولكنها مختلفة من حيث التعامل معه كقيمة ثابتة مهما تباينت الآراء واختلفت المواقف.

ان مضمون حكمة علي عليه السلام من العمق والاتساع بحيث يمكن معه عدّها دستور حياة متكامل الجوانب، معينه التجربة الصادقة، والفكر الحر، وزاده جل الفكر الإنساني الذي عاشه علي عليه السلام في حياته أما ممارسة أو تأملا واطلاعا، وقوامه الدين والاخلاق بكل ما يحويانه من معان وقيم، وبوتقته الإيجاز الواضح بلغة متينة واسلوب سهل، تناسب الحقيقة فيه صادقة و حارة.

فالمفردة اللغوية - في ادب علي عليه السلام - وان اختلفت توجهاتها، باختلاف استخداماتها ضمن السياقات الأدبية المختلفة المضامين، إلا أنها في كل الحالات

(١) رسائل - ٣١ - فقرة ٢٤ .

الباب الخامس: الأساليب التعبيرية في نهج البلاغة ٦٥٩

تبقى قوية موحية، تنم في رصفها عن ذوق أدبي رفيع وخبرة عميقة بدقائق اللغة، وتلك الميزات جعلت لأدب علي عليه السلام بجانب التزامه، خصائص أسلوبية يتميز بها وهي ما نطمح إلى دراسة أبرزها في الفصل التالي.

الفصل الثاني

أبرز خصائص النهج الأسلوبية

تشكل نصوص نهج البلاغة - في مجملها من حيث المضمون الفكري كلا متكاملًا ومتجانسًا إذ لا يبدو عليها من هذه الناحية ثمة تناقض أو تعارض، فهي تستقي من معين الإسلام الصافي كل توجهاتها الفكرية، وكل عناصرها الإنسانية. وكما لاحظنا في الفصل السابق، فقد صبغت موضوعاتها المتعددة الجوانب بأساليب أدبية مختلفة، تميزت بخصائص تناسبها من حيث الأداء والاستخدام اللغوي، إلا أن التراكيب التي صيغت بها تلك النصوص ظلت في جانب كبير منها، متممة بطابع خاص، تجلت فيه شخصية مبدعها بأسلوبه الخاص المميز. وقد تمكنا من استخراج - ما يمكن اعتباره على الأقل من وجهة نظرنا - من أبرز المميزات الأسلوبية التي تميزت بها نصوص نهج البلاغة بشكل عام، ونعرض لدراستها في التالي:

أ. الجملة وخصائصها التركيبية

والجملة كوحدة أساسية في صياغة أفكار علي عليه السلام، تمتاز في أغلب الأحيان بالتركيز والاندماج، بحيث يتعذر النظر في فحواها على اعتبار تمام معناها

منفصلة عن سياقها الفكري، لأنها جزء من نسيجه المقوم لمضمونه، فهي بما تتضمنه من فكرة جزئية، بمثابة الخيط الدقيق الصادر من حزمة ضوئية محكمة الربط متكاملة البناء، مما يصعب معه فصلها ودراستها منفردة، إلا من ناحية نحوية، فعلى سبيل المثال، فإن خطبته المسماة بخطبة (الأشباح) وموضوعها: شكر الله ونفي الصفات عنه، تتكون من ستة عناصر أساسية ويحتوي كل عنصر من تلك العناصر على عناصر أخرى متكونة من جمل عدة، فلو قسمنا العنصر الأول من تلك الخطبة، والمتضمن وصف الله سبحانه، لوجدنا أنه يتكون من العناصر الجزئية الأربعة التالية:

١- شكر الله سبحانه وذكر جميع عطائه.

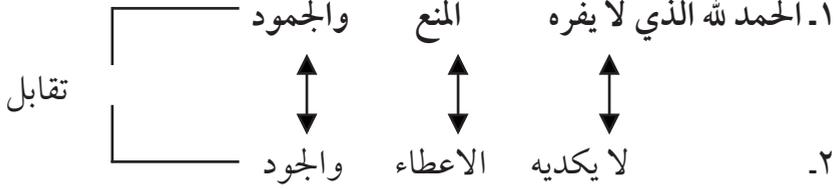
٢- معنى وحدانيته.

٣- نفي الصفات الزمانية والمكانية والجسدية عنه سبحانه.

٤- عدم احاطة العقل الإنساني بتصور قدرته التي لا نهاية لها في الملك والعطاء والمنح.

وان كل عنصر جزئي من العناصر السابقة يتكون أيضاً من وحدات صغرى هي الجمل التي وان كانت واحدة منها تؤدي معنى مفيداً، فهي بتمامها منفردة، لا تشكل تصوراً ذهنياً لمعنى العنصر المنسله منه، إلا إذا أدمجت فيه مع بقية الوحدات الصغرى في السياق. لا على أساس ارتباطها بغيرها بحروف العطف أو غير ذلك من ادوات ربط، ولكن لتواشج الجملة مع غيرها بالتتابع الفكري المتدرج لتوضيح المعنى الجزئي الذي مثلناه بالحزمة الضوئية ذات الخيوط المتجانسة والمرتبطة بالحزم الأخرى ارتباطاً عضوياً غاية تسليط الضوء على جانب معين من جوانب النص، فالعنصر الجزئي الأول من النص السابق الذي

يتضمن فكرة شكر الله سبحانه لما أسبغه على عباده من نعم، مكون من اثنتي عشرة جملة، أو وحدة معنوية يمكن توضيح الترابط فيما بينها في التالي:



تفسير بـ (إذا)
وتوضيح بالتقابل

- ٣- إذ كان معط منقص سواء
٤- وكل مانع مذموم ما خلاه

جمل خبرية ابتدائية لازمة
الفائدة المراد منها ازالة
التردد من النفوس بتقدير
الله لأرزاق الناس (*)

- ٥- وهو المنام بفوائد النعم
٦- وعوائد المزيد والقسم
٧- عياله الخلق
٨- ضمن ارزاقهم
٩- وقدر اقواتهم
١٠- ونهج سبيل الراغبين إليه
١١- والطالبن ما لديه
١٢- ليس بما سئل بأخود منه بما لم يسأل

لعنصر

لجزئي

(*) خطب ٩٠، الفقرة ١. ولا يفره (بكسر الفاء، وضم الراء): لا يزيده ما عنده

الخجل. والجمود: الخجل الشديد. ولا يكديه: لا يفقره.
ان الجمل في العنصر السابق قد تكاثفت لإبراز المعنى الجزئي بالتركيز على

التقابل والتفسير والتوضيح و الاخبار، مع اعتبار اختلاف أساليب التوصيل باختلاف طبيعة الموضوع، فالموضوع هنا في هذه الفكرة الجزئية، قد تميز بتتابع الجمل الخبرية، من دون اللجوء إلى التوكيد الا في النادر، ومن الضرب الابتدائي، لأن علياً عليه السلام يتحدث هنا عن بدييات يؤمن بها ايهانا يقينا، كما ان من المفترض في المستمع إليه ان يكون مؤمناً بها، لذلك لم يكن في حاجة إلى استخدام أساليب التوكيد بقدر حاجته إلى استثارة انتباه مستمعه بأضرب من الأخبار الابتدائية المتمثلة في غلبة الجملة الاسمية لأنها اوفق لتثبيت الحقائق واصدار الأحكام لأنها غير مقيدة بزمن كالجمل الفعلية، ولكنه قد يعمد، وبنفس النسق الذي بيناه أو ما يقارب منه إلى التوكيد، والى التنقل بين الانشاء والخبر إذا ما تطلبت طبيعة الموضوع لمثل ذلك.

وقد يعمد علي عليه السلام من خلال العناصر الجزئية إلى ابراز المعنى أو ايضاح الفكرة التي يريد ابلاغها، بطريقتي الاجمال والتفصيل، فيكثف الفكرة في جملة واحدة، ومن ثم يعود إلى تفصيلها واستقصاء دقائقها في جمل، من ذلك ما ورد ضمن وصيته لابنه الحسن:

(اجمال)



(تفصيل)

«يَا بَنِيَّ، اجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَانًا فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ
فَأَحِبُّ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَآكُرُهُ لَهُ مَا تَكْرَهُ لَهَا
وَلَا تَظْلِمُ كَمَا لَا تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ

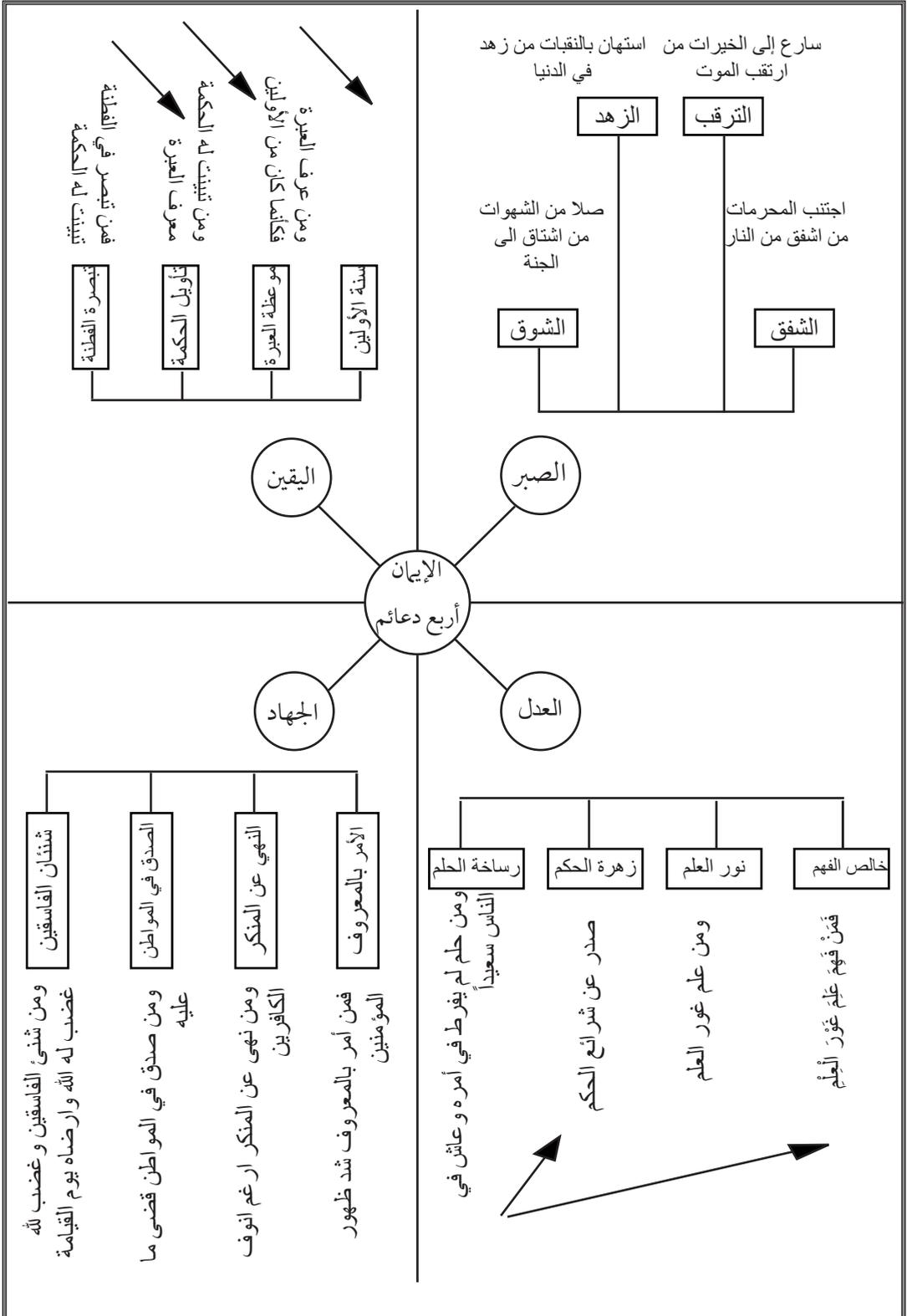
وَأَحْسِنَ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُحْسِنَ إِلَيْكَ،
وَاسْتَقْبِحْ مِنْ نَفْسِكَ مَا نَسْتَقْبِحُ مِنْ غَيْرِكَ،
وَارْضَ مِنَ النَّاسِ بِمَا تَرْضَاهُ لَهُمْ مِنْ نَفْسِكَ،
وَلَا تَقُلْ مَا لَا تَعْلَمُ وَإِنْ قَلَّ مَا تَعْلَمُ،
وَلَا تَقُلْ مَا لَا تُحِبُّ أَنْ يُقَالَ لَكَ» (١)

فقد طوى قوله «اجعل من نفسك ميزانا» في مطلع الفكرة، كل المعاني الأخلاقية التي وردت ضمن الفكرة، في جمل قصيرة ذات تعبيرين متقابلين، مثلها في ذلك مثل كفتي الميزان في تعادلها.

وعنصر الإجمال والتفصيل ذاك من العناصر الأساسية التي يعول عليها أي مفكر أو معلم في ابلاغ وجهة نظره، وتوصيل افكاره، بتفتيقها إلى اجزاء يسهل الإلمام بها وفهم مضامينها، فهو تجزئة غير محددة مما يعني ان أسلوب التقسيم بما ينطوي عليه من محدودية، هو في حقيقته رافد من روافد الإجمال والتفصيل.

١- خصائص التقسيم في النهج:

التقسيم هو تفصيل ما تنطوي عليه العبارة المجملة إلى اجزاء معدودة ومحددة في رقم يرد في صدر العبارة المجملة، ويراد به في الغالب التعليم، ولما كان الفكر في نهج البلاغة يعمد - في الأساس إلى التعليم والتبليغ، فقد تألق التقسيم في نصوصه، من ذلك ما ورد في وصف الإيمان، كما يتضح من التالي:



فالنص كما نلاحظ، قد بني على أربعة عناصر رئيسية وتضمن كل عنصر أربع وحدات جزئية، تركبت كل وحدة من أسلوب شرط تضمن سببا ونتيجة قائمة بذاتها، أو مرتبطة بالشرط التالي لها في سياق النص، مما اسبغ على الهيكل العام للنص ترابطا فكريا ومنطقيا فالتقسيم الرباعي من الدقة والاحكام بحيث صار مستقصيا لكل المعاني الجزئية التي اراد علي عليه السلام ابلاغها من خلاله.

وأسلوب التقسيم عند علي عليه السلام، لا يعتمد على تعداد المفردات للبلوغ بذلك غاية جمالية لأن الغاية البلاغية الجمالية، وان تجلت في روعة وبهاء، من خلال الاساليب، فإنها تأتي في مرتبة ثانية على اعتبار ان ما يرمي إليه علي عليه السلام، ابدأ، هو توصيل المعاني تامة بكل شحناتها التعبيرية، فإذا كان علي عليه السلام قد استطاع - بعقليته الرياضية^(١) - البلوغ بالتقسيم ضمن الجمل، الغاية في تقصي الافكار، وجمع شتاتها، فإنه أيضاً قد تمكن من البلوغ به الدقة من حيث اداء المعنى أيضاً كما في قوله «يا أهل الكوفة، منيت منكم بثلاث واثنتين: صم ذوو اسماع، وبكم ذوو كلام، وعمي ذوو ابصار، لا احرار صدق عند اللقاء ولا اخوان ثقة عند البلاء»^(٢). فقد كان بإمكانه ان يقول: منيت منكم بخمس، بدلا من قوله (بثلاث واثنتين)، الا انه عدل عن ذلك، ليس لأمر بلاغي جمالي، ولكن - كما يتهيأ لنا من خلال فهمنا للنص - لغرض التوبيخ والتبكي، والتفريق

(١) قد تحدثت كثير من المصادر عن عقلية علي عليه السلام الرياضية وسرعة بديته في الاجابة على مسائل حسابية تتعلق بالتقسيم العادل وبالإرث. راجع على سبيل المثال: الكليني - فروع الكافي ٤٢٧/٧، سبط بن الجوزي - تذكرة خواص الأمة ص ١١٥ ضمن الخطبة المعروفة بالمنبرية، كما ذكر محمد تقي التستري في كتابه: قضاء أمير المؤمنين علي بن أبي اطاب ص ١٧٥، كثيرا من القضايا الرياضية التي أجاب علي عليه السلام عليها مشفعا ذلك بذكر المصادر والأسانيد.

بين المعاني الخلقية والمعاني الخلقية من خلال التقسيم، فالثلاث الأول تضمنت معان خلقية، والاثنان تضمنتا صفتين خلقيتين، فالنظرة المتأملة في المعاني ساعة انبثاقها قد اتاح لها خصوصية التقسيم بما يناسبها.

ومن أبرز خصائص أسلوب التقسيم في النهج، انه يمثل جانبا من الانسجام الفكري الذي تتسم به نصوصه بشكل عام، فبإمكان الدراس من خلال تتبعه لعناصر التقسيم ضمن نصوصها، ان يلم بجوانب عديدة من ذلك الفكر العلوي. فأسلوب التقسيم الساخر، في قوله ضمن كتاب له لشريح القاضي «... هذا ما اشترى عبد ذليل من عبد قد ازعج للرحيل اشترى منه دارا... وتجمع هذه الدار حدود اربعة: الحد الأول ينتهي إلى دواعي الآفات والحد الثاني ينتهي إلى دواعي المصيبات، والحد الثالث ينتهي إلى الهوى المردي، والحد الرابع ينتهي إلى الشيطان المغوي»^(١). هو تعبير عن الجانب الزهدي في فكره، كما ان أسلوب التقسيم في الشاهدين اللذين سبقا شاهدنا هذا هو في الأول منها تعبير عن مفهوم الإيثار وفي الثاني تعبير عن مفهوم حسن الطاعة والوفاء والصدق، بذكر المقابل. فالغاية الجمالية من التقسيم في أسلوب علي عليه السلام تنبثق عفوية في النصوص، لأن المعاني والافكار ضمن الجمل هي غاية علي عليه السلام السياسية.

٢- خصائص الاعتراض في النهج:

نفق جل كتب النحو والبلاغة على تعريف الاعتراض بأنه «كلام في كلام لم يتمم معناه، ثم يعود إليه فيتممه»^(٢). وهناك ثمة فروق بين نظرة النحوي وبين

(١) رسائل-٣. فقرة ٣.

(٢) ابن المعتز- البديع ص ٥٩. ويمكن مراجعة تعريف الاعتراض ووضعه وقيمه الجمالية عند كل

نظرة البلاغي إلى الاعتراض يمكن مراجعتها في مظانها^(١)، على ان الذي يلفت النظر في وضع الاعتراض، اعتباره فرع من فروع علم البديع عند جل البلاغيين القدامى، واقتصار دراسة وضعه في الشعر باعتبار قيمته الجمالية^(٢)، الا اننا نعتقد ان القيمة الايجابية للاعتراض هي التي تمنحه القيمة الجمالية، لأن الغاية الجمالية في النصوص الثرية الملتزمة تأتي في مرتبة تالية لفحواها الفكري، مما يحدو بنا إلى عدّ الاعتراض، وان قلت نسبته، والتقسيم قبله، من خصائص كلام علي عليه السلام، لأن الجمل الاعتراضية ضمن سياقات نصوص النهج هي بمثابة الاشعاعات الكاشفة والمؤكدة لجوانب عديدة من فكر علي عليه السلام، فالاعتراض في قوله ضمن جواب علي رسالة من اخيه عقيل: «ولا تحسبن ابن ابيك / ولو اسلمه الناس / متضرعا متخشعا»^(٣) قد أورده علي عليه السلام ضمن السياق ليحملة معاني الاصرار والثبات على المبدأ في كل الاحوال وتحت أية ظروف مما يتناسب تماما ونهجه الفكري، لذلك فإن الاعتراض ضمن كثير من النصوص لا يقتصر على مفردة أو جملة، إذ قد يستوعب من النص مساحة تقدر بجمل عدة، يحاول علي عليه السلام من خلال آدماجها في نسيج النص إلى ربط اجزاء الفكرة التي يتضمنها ذلك النص بغاية توضيح كل جوانبها، من غير اخلال بينيته الفنية، من ذلك ما ورد من اعتراض بين القسم وجوابه في قوله: «فو الله لو حننتم حنين الوله العجال / ... / «لكان قليلا فيما

من: ضياء الدين بن الأثير المثل السائر ٣ / ٤٠. السلجاسي - المنزغ البديع ص ٤٤٩. نجم الدين

بن الأثير جوهر الكنز ص ١٠٨.

(١) راجع السابق.

(٢) السابق.

(٣) رسائل ٣٦-٣٦٦. فقرة ٣.

أرجو لكم من ثوابه»^(١)، فقد ادرج بينهما سبع جمل متعاطفة، بغاية تأكيد القسم وتوضيح جوانب الفكرة الكامنة فيه، التي لا يمكن ادراكها الا من خلاله، وان كانت العبارة تامة من حيث البناء النحوي.

ومن ذلك أيضاً في مجال الربط بين الشرط وجوابه في قوله «هو القادر الذي إذا ارتمت الأوهام لتدرك منقطع قدرته /.../ ردها وهي تجوب مهاوي سدف الغيوب»^(٢)، فقد ادرج بينهما عبارة مركبة من اربع جمل ضمنها ما في وسعه من معاني عجز الإنسان عن معرفة كنه الخالق ومدى قدرته، مما جعل تلك الجمل ملتحمة من حيث اداء المعنى التحاماً تاماً ومتجانساً بالنص على أساس توكيد معانيه وايضاح ما غمض منها، بمحاولة تبصير المستمع بمحدودية قدرته إزاء قدرة خالقه، هذا علاوة على الانسياب السهل والبسيط لتلك الجمل في نسيج النص، دون الشعور بأنها معترضة، الا بعد تأمل في السياق، لأن اندماجها في البناء الفكري يزيل عنها أية احساسات نفسية توحى بالانتقال الفجائي في أثناء القراءة أو السماع. فخاصية اندماج الجمل المتعاطفة في سياق الاعتراض من المميزات البارزة التي عول علي عليه السلام عليه لتوضيح فكره واجلاء الغموض عنه، ويرجع ذلك لإحساسه الدقيق بقيمة الاعتراض في توجيه المعاني الوجهة التأثيرية المناسبة، الأمر الذي جعل له ثراءه المعنوي في سياقاته المختلفة عنده.

فقد يرد الاعتراض في سياق النص متضمناً معنى الشرط المقرون فحواه

(١) خطب - ٥٢ - فقرة ٢. الوله: جمع واله، كل انثى فقدت ولدها. والعجال: من الابل التي فقدت ولدها.

(٢) خطب - ٩ - فقرة ٢. ارتمت الاوهام: انطلقت في خيالاتها. ومنقطع الشيء: منتهاه. وردها: ردها. والمهاوي: المهالك. والسدف: بضم السين وفتح الدال المهملة، جمع سدفة وهي القطعة من الليل المظلم.

بالتهديد إذا لم ينقذ، كما في قوله لأهل الشورى، بعد ان زويت عنه الخلافة بمبايعة عثمان «والله لأسلمن ما سلمت امور المسلمين/ ما لم يكن فيها جور الا «علي خاصة/ التماسا لأجر ذلك وفضله»^(١) فقد ورد الاعتراض (ما لم يكن...) ليربط قبول علي عليه السلام وتسليمه بشرط بقاء حقوق كافة المسلمين مصادرة وفي مآمن من الجور والظلم، ولو كان ذلك على حساب هضم حقه الخاص كفرد، وسيبقى كافا يده ولسانه، ما بقيت تلك الحقوق مصادرة.

كما قد يرد الاعتراض في سياقات نصوص النهج المختلفة متضمنا معنى الاستثناء والقصر، من ذلك «أيها الناس، اياكم وتعلم النجوم/ الا ما يهتدى به في بر أو بحر/ فإنها تدعو إلى الكهانة»^(٢)، فالاعتراض في (الا ما يهتدى به...) قد ورد في السياق مستثنى من علوم النجوم الغيبية المعتمدة على الكذب والشعبذة، لكونه علما له اصوله وقواعده الفكرية.

ويأتي الاعتراض ضمن نصوص النهج أيضاً تلافياً للبس قد يصيب الجملة التي يرد فيها وهو ما يطلق عليه بعض البلاغيين مصطلح الاحتراز والاحتراس^(٣)، من ذلك ما ورد في قول علي عليه السلام ضمن تفنيده لزعم عمرو بن العاص بأنه ذو دعابة «لقد قال باطلا، ونطق آثما، أما/ وشر القول الكذب/ انه ليقول فيكذب، ويعد فيختلف...»^(٤)، فقد جاء الاعتراض (شر القول الكذب) ليكشف عن القيمة الحقيقية للكذب كعنصر من عناصر الرذيلة التي

(١) خطب-٧٣..

(٢) خطب-٧٨-فقرة ٢.

(٣) راجع- جواهر الكنز- السابق ص ١٢٨.

(٤) خطب-٨٣..

تمجها النفس الشريفة لأنها تثلم الخلق، وتنقص من مكانة الفرد، احترازا من عدّه دهاء وسياسة وحيلة يفتخر بها.

كما يورد علي عليه السلام أسلوب الاعتراض ضمن السياق محملا اياه معنى التعليل، من ذلك قوله في رسالة لعامله على البصرة عثمان بن حنيف «... ولكن هيهات ان يغلبني هواي ويقودني جشعي إلى تخير الاطعمة/ ولعل بالحجاز أو اليامة من لا طمع له في القرص، ولا عهد له بالشعب/ او ابيت مبطانا وحوالي بطون غرثي»^(١)، فبالإضافة إلى الدقة في إدماج أسلوب الاعتراض ضمن السياق التعبيري، وتعذر ملاحظته إلا بتأمل دقيق، فإنه قد ورد في نسيج النص لبيان السبب الذي يحول بين علي عليه السلام وبين تخيره للأطعمة، وتمرغه في الملدات، مع قدرته على ذلك، وذاك بالطبع هو أسلوب تفكيره قولاً وعملاً.

وفي سياق تداعي الافكار، قد يعتمد علي عليه السلام إلى الاستدراك بالجملة الاعتراضية، مفصلا اياه على الاستدراك بـ (لكن) لما في ذلك من قيمة تأثيرية في مجرى الاسلوب، فضمن تناوله لموضوع التجار، واهميتهم بالنسبة للمجتمع، في عهده الذي كتبه للأشتر، وبعد ان اوصاه خيرا بهم، يقول له متابعا الكلام فيهم «واعلم/ مع ذلك/ ان في الكثير منهم، ضيقا فاحشا، وشحا قبيحا، واحتكاراً للمنافع»^(٢)، فقد استدرك بشه الجملة (مع ذلك) ما قبلها من كلام، حتى لا يأخذ الاشتر معاني مدح التجار على عواهنها فيترك لهم الجبل على غاربه.

فانبثاق الجملة الاعتراضية ضمن نسيج النهج ترد طواعية لحاجة ملحّة يفرضها البناء الفكري، مما يسمها بالثراء من حيث علاقتها بالمعاني والاندماج

(١) رسائل ٤٥-فقرة ٢. والمبطان: المتخم، المملوء البطن. والغرثي: الجائعة الخالية من الطعام.

(٢) رسائل ٥٣-فقرة ٢٤.

التام في نسيج النصوص من حيث البناء الاسلوبي، المعتمد على خصوصيات التكامل، والترابط والتفاعل، فيما بين التعابير وتسلسلها الفكري في توصيل المعاني، مما يحدو بنا إلى النظر في كيفية استخدام علي عليه السلام لعمليتي الفصل والوصل الاسلوبيين.

٣- خصائص الفصل والوصل في أساليب نهج البلاغة:

يعد البلاغيون الفصل والوصل، أصل البلاغة^(١) ويعرفونه بأنه «العلم بما ينبغي ان يصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض، أو ترك العطف فيها والمجيء بها منثورة تستأنف واحدة منها بعد الاخرى^(٢)، أي انه سلوك المفكر والاديب للطريق الامثل في التعبير عن الأفكار ونشرها، مما يجعل لكل متفرد فذ، سمات أسلوبية، فكما ان لكل انسان أسلوبه المميز في العيش والتعامل، فإن لكل متكلم طريقته الخاصة في التعبير عن آرائه ونمطا معيناً يلتزمه في نظام تكوين الجملة وترابط اطرافها. وبناء عليه فإن لاندماج الجملة في سياق نصوص نهج البلاغة خصائصها التي تميزها، وتطبعها من حيث الفصل والوصل بطابع يدل في مجمله، على توحد هندسة تنسيقها، لصدورها من مجرى نفسي واحد، ملتزم بنظام معين، يكاد يهيمن بإحكام متميز على جل جمل النهج وتعبيراته في بنية نصوصه، مهما بلغ طولها، لإحساس مبدعها في أثناء عملية الإبداع بمواضع تأثير العطف والقيمة النفسية والبلاغية للعدول عنه بالاستئناف، إذ يسعى علي عليه السلام

(١) راجع: أبو هلال العسكري - كتاب الصناعتين ص ٤٣٨. عبد القاهر الجرجاني - دلائل الاعجاز ص

١٧٠، العلوي - الطراز ٣٢/٢ وقد اجتزأنا التعريف من كتاب عبد القاهر الجرجاني. الصفحة نفسها.

(٢) راجع السابق.

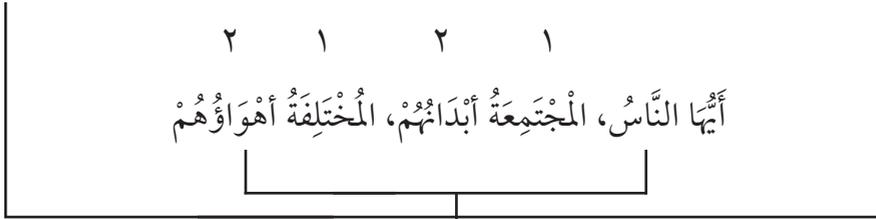
في بنائه للجمل إلى التناسق النسبي فيما بينها في أثناء أدائه للفكرة الجزئية التي عادة ما تكون - وفي كثير من الأحيان متميزة بالفصل، أي بالاستئناف، من دون الاعتماد على حرف عطف بينما تتواصل جمل تلك الفكرة الجزئية فيما بينها بحروف العطف مبلورة إياها، مثال ذلك قوله «شُعِلَ من الجنة والنار أمامه ساع سريع نجا، وطالب حثيث رجا، ومقصر في النار هوى اليمين والشمال مضلة، والطريق الوسطى هي الجادة، عليها باقي الكتاب، وآثار النبوة، ومنها منقذ السنة، واليها مصير العاقبة»^(١)، فمن الملاحظ ان الفقرة قد تكونت من فرتين:

- الأولى: وفحواها تصنيف الناس بحسب عملهم الذي يوصلهم إلى الجنة، وقد ساقها علي عليه السلام ضمن نسيج الخطبة دونما عطف أو حتى استئناف، ثم انه في بداية تفكيكها لتصنيف الناس من خلال جملها، جعل تلك الاصناف تناسب داخل الفكرة من دون أن يشعروا بالتقسيم لاعتماده على الاستيحاء المعنوي الكامن في فحوى الجملة الأم التي جاءت لتُجمل الأصناف من خلال مصيرهم بين جنة ونار، ثم تجزأت إلى الأصناف التي تحتم عليه ربط بعضها البعض بواو العطف، لاشتراك الثلاثة بالاشتغال، بغض النظر عن المصير، فالفصل قد استوعب مطلع الفكرة ثم صدر تجزئتها، كما ان الوصل قد ربط جملها المتساوية نسبيا المبينة لاختلاف المصير.

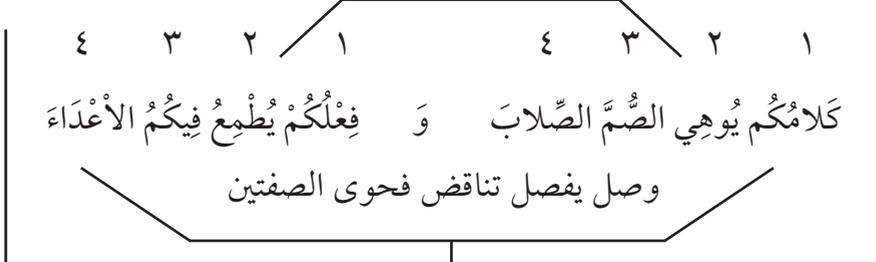
- الثانية: فحواها طريق النجاة، وهي فكرة متممة لما تضمنته سابقتها من تصنيف للناس، لأنها تبيان للطريق الذي يجب ان يعرفه أولئك الاصناف الثلاثة ليؤدي بسالكة إلى النجاة، وهي المتمثلة في قوله «اليمين والشمال مضلة، والطريق الوسطى هي الجادة» ومن الملاحظ ان عليا عليه السلام لم يربطها بسابقتها بحرف

عطف، لأن استشعاره بدقة خصائص اللغة قد اتاح للفكرة الارتباط من خلال المجرى النفسي من دون اللجوء إلى استخدام الرابط اللغوي فالتصنيف الثلاثي في الفكرة الثانية مرتبط ومندمج - من حيث الغرض - مع تقسيم الفكرة الأولى مما جعلها تتواشجان من دون الحاجة إلى رابط لغوي، إلا أن التصنيف داخل الفكرة الثانية قد ورد مفصلاً باستخدام الوصل، لأن الجمل الجزئية قد سلك بها علي عليه السلام طابع التفريق من حيث البناء الاسلوبي في مطلع الفكرة فيما بين طريقي الضلال، وطريق الهدى المتوسط بينهما المرتبط بالمعاني الكامنة في حروف الجر (عليها، منها، إليها) مما حتم الوصل. فلو اردنا تحليل ترايب معظم نصوص نهج البلاغة بقصد تتبع الفصل والوصل فيها لرأينا أنها تتخذ الشكل التالي:

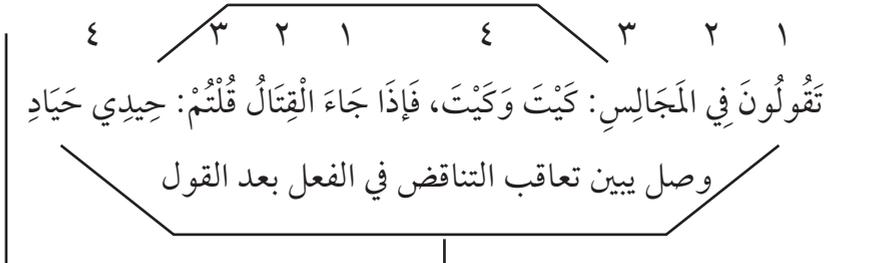
فصل واجب لتلازم الصفتين وتلاحمهما بالتقابل



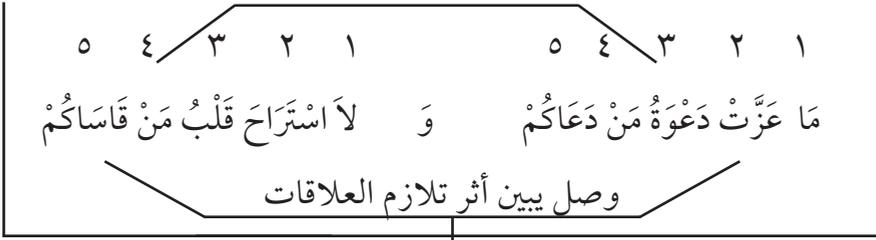
فصل يعتمد إلى تفتيق مجمل الصفتين الملازميتين



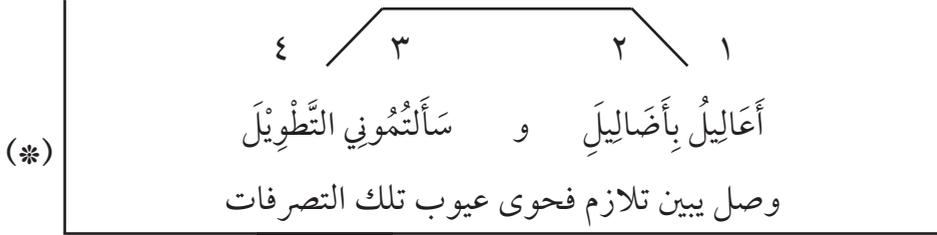
فصل يلقي اضاءة على فحوى التناقض



فصل يدخل إلى فكرة جزئية تبين انعكاس التناقض على العلاقات الفعلية



فصل يبين العيوب المتولدة عن ذلك التناقض



(*) خطب ٢٩ - فقرة

إذا ما أخذنا تنسيق الجمل ضمن النص السابق كمثال لما عليه تنسيقها في معظم النصوص الواردة في نهج البلاغة، فسنجد ان تلك النصوص تعتمد في هيكلتها الداخلية على دعائم ثلاث اساسية هي:

١- إن الأفكار الجزئية داخل تلك النصوص تترابط فيما بينها على الفصل في معظم الحالات، فلا يلجأ علي عليه السلام إلى الوصل باستخدام العطف في انتقاله من فكرة جزئية إلى فكرة جزئية أخرى الا في القليل النادر، إذ يعتمد في الربط بين الأفكار على العوامل النفسية كعنصر فعال في جذب الاسماع وتوجيه العقول، بقصد التأثير فيها. وتوصيل أكبر قدر من شحنات الإقناع إليها.

٢- التناسب في عدد الجمل ضمن الأفكار الجزئية المتفصلة في أغلب الأحيان، فكما نلاحظ في المخطط السابق أن كل فصل أسلوبى قد احتوى على جملتين متواصلتين، وقد تزيد الجمل في العناصر الفكرية المتفصلة، مع تساويها

في العدد ضمن تتابع تلك العناصر في معظم الاحيان.

٣- تناسب عدد كلمات الجمل المتواصلة فعطف الجمل على بعضها البعض ضمن الفكرة يمنحها خاصية التناسب في عدد المفردات.

وتكاد الخصائص الثلاث تلك تنجر على معظم ما ورد في النهج من خطب ونصوص أخرى تدرج في عداد الخطب، كالوصايا والأدعية وجانب كبير من رسائل الوعظ، الا ان هناك نصوصا قد تختلف في تناسق افكارها من حيث تناسب عدد الجمل، مع ابقاء خاصية تناسب عدد المفردات في الجمل المتعاطفة، بقدر يمكننا عدّها معلما أسلوبيا بارزا يدل على التوحد الاسلوبي في بنية نصوص نهج البلاغة بشكل عام، ويمكن ملاحظة تلك الخاصية، في كثير من فقرات العهود والرسائل التي تعتمد عادة إلى أسلوب تحليل الأفكار تحليلا فكريا يتطلب في كثير من المواضع فقرات طويلة، بجانب عبارات قصيرة، بسبب احتلال العاطفة مركزا ثانويا في مثل تلك النصوص، بينما يحتل العنصر النفسي مركزا رئيسيا في حفز الكملة على التأثير في الخطب والوصايا، مما يتطلب التركيز في فحوى الجمل على التابع السريع المؤثر، لتنتقل بشحناتها التأثيرية المتناسقة المتناغمة من اعماق الخطب مباشرة إلى أعماق قلب المستمع بمعان مؤثرة في كلتا حالتها الرضا والسخط والسرور والحزن. ولن يتأتى ذلك إلا من خلال معرفة أكيدة بأساليب اللغة والتحكم في توجيهها الوجهة المناسبة وذلك ما نطمح إلى دراسته في التالي:

٤- الإحكام في نوع الأساليب:

إن النظر في فحوى الجملة التأثيري ضمن سياق نهج البلاغة، ينطلق أساسا من تشكيلها كأداة تعبير عما يصطرع بداخل علي عليه السلام من آمال وآلام، في أثناء

عدها عن الفكرة الكامنة فيها بكل ملاساتها، أي انها في ذات الوقت الذي تكون فيه بوتقة لتشكيل الفكرة واخراجها إلى حيز الواقع في كلمات، فإنها أيضاً تتضمن تعبيرات دقيقة عما يكتنف تلك الفكرة من جوانب تعبيرية نفسية تتعلق بالأداء في مختلف اشكاله. فالجملة بانسيابها في النص لا تعني ابلاغ معنى، أو شرح موقف فقط، بل تحاول من خلال سياقها النفسي الذي عادة ما يكون ممتزجا بالسياق الاسلوبي، ان تعضد الابلاغ ببثها في عناصره نفحات من الحرارة والصدق، متغلغلة في جزئيات التعابير بتؤدة وهدوء تارة، وبتدفق وحماس تارة ثانية، وبانفعال وتبرم وغضب تارة ثالثة، وفي كل المواقف تبقى العبارات صامدة وقوية وامينة في ادائها للمعاني، وتبلغها الافكار، بالتنقل بها حسب ترددات النفس بين أمر واستفهام، ونداء وتعجب، وإنكار واخبار، يمكن للسامع أو القارئ ان يدرك مراميها ويتفاعل معها. فقول علي عليه السلام «انما كنت جاراً جاوركُم بدني اياما، وستعقبون مني جثة خلاء ساكنة بعد حراك، وصامته بعد نطق، ليعظكم هدوئي، وخفوت إطراقي، وسكون أطرافي، فإنه اوعظ للمعتبرين من النطق البليغ والقول المسموع، وداعي لكم وداع امرئ مرصد للتلاقي، غدا ترون ايامي، ويكشف لكم عن سرائري، وتعرفونني بعد خلو مكاني وقيام غيري مقامي»^(١)، يسري فيه الهدوء المفعم بالأسى، فالفكرة ضمن جمل النص لم ترد لمجرد اخبار عن معاناة، ولكنها أيضاً تشيع في نفس السامع والقارئ تلك المعاناة بتركيب الجمل في سياقات تتفق وترددات القائل في أثناء اندماجه في الموقف، فتداخل الزمن بين ماضٍ في (انما كنت جاراً جاوركُم بدني اياما) ومستقبل في (وستعقبون مني جثة خلاء ساكنة) هو في حقيقته اخبار

(١) خطب - ١٤٩. فقرة ٢. وخلا: خالية من الروح. والخفوت: السكون. والأطراف: الأيدي

عن لزوم الفائدة، بوصف الموت بكل ابعاده الزمنية والتركيز على ما يحويه من مضمون عملي مشاهد، قد يتعظ به المتأمل فيه وقد وردت جملة الأمر في (ليعظكم هدوئي...) بمثابة النقلة النفسية والتمكأ الفكري الذي يرمي المحتضر إليه، ليتسنى له من خلال ذلك الوصول بمستמעه، لما كان عليه وجوده من قيمة لن يعرف أهميتها معاشره ومخالفه، الا بعد فقدته ولات حين ندم.

أما الهدوء المناسب في «اللهم صن وجهي باليسار، ولا تبذل جاهي بالإقتار، فاسترزق طالبي رزقك، واستعطف شرار خلقك، وابتلى بحمد من اعطاني، وافتنن بدم من منعني وانت من وراء ذلك كله، ولي الاعطاء والمنع، انك على كل شيء قدير»^(١) هو تبتل فيه شموخ وكبرياء، وعزة نفس تأبى الخضوع وتصارع الخنوع الا للخالق سبحانه، وقد ورد أسلوب الأمر في نسيج الدعاء معبرا عن خضوع نفس مؤمنة بخالقها، ترى السعادة في فضل عطائه، والنأي بالنفس من التذلل لغيره، مما احال هدوء النص إلى ترنيمات اضفى عليها تمازج الانشاء بالخبر نفحات مطمئنة، سعيدة في احضان الرضا وفي كنف الإيوان الصادق الذي نحسه من خلال العبارات.

أما التعبير في «الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح والحدث الجليل... أما بعد فإن معصية الناصح الشفيق العالم المجرب، تورث الحسرة، وتعقب الندامة، وقد كنت أمرتكم في هذه الحكومة امري، ونخلت لكم مخزون رأي، لو كان يطاع لقصير أمر»^(٢)، بالإضافة إلى ما ينطوي عليه من لوم، فإنه مغلف

(١) خطب - ٢٢٢.. وصن وجهي: احفظه من التعرض للسؤال. واليسار: الغنى ولا تبذل جاهي:

لا تسقط منزلتي من القلوب. الاقتار: الفقر.

(٢) خطب - ٣٥.. الخطب الفادح: الأمر الشديد الثقيل. والحدث: بفتح الحاء والبدال المهملتين.

الحادث: ويقصد به هنا ما اصدره الحكمان من حكم في دوبة الجنادل.

بهدهو مجلل بألم المؤمن الصابر في حالة الاخفاق فالعبارة وإن انطوت على شعور بالخيبة، الا ان بروز الجملة الدعائية في مطلعها، قد منحها بعدا إيجابيا ينطوي على معنى الصبر، واللوم بسبب العصيان في آن واحد الذي جسده جملة التمثيل (لو كان يطاع لقصير امر)، وقد أضفى عليها موقعها الإعتراضي بين جملتين خبريتين تلك المعاني المشبعة بالعتاب والتأسف لامتناع الكامن في لو المتصدرة جملة الاعتراض تلك.

أما قول علي عليه السلام في رده على أولئك الذين ناقشوه بشأن رفضه التحكيم في بداية الأمر والتمسك به بعد توقيع المعاهدة والتمثل في «هذا جزاء من ترك العقدة، أما والله لو اني حين أمرتكم به حملتكم على المكروه الذي يجعل الله فيه خيرا، فإن استقمتم هديتكم وإن اعوججتم قومتمكم، وإن أبيتم تداركتكم، لكانت الوثقى، ولكن بمن والى من، أريد أن أداوي بكم وأنتم دائي، كناقش الشوكة بالشوكة؟» وهو يعلم أن ضلعها معها، اللهم قد ملت أطباء هذا الدوي، وكلت النزعة بأشطان الركي، اين القوم الذين دعوا إلى الإسلام فقبلوه، وقرأوا القرآن فاحكموه؟»^(١). فتراوح جملة في تعبيراتها، بين السخط

(١) خطب - ١٢٠.. العقدة: ما حصل التعاقد عليه من محاربة الخارجين عند البيعة حتى يكون الظفر أو الهزيمة. والضلع: بفتح الضاد المعجمة وتسكين اللام - الميل والقول مأخوذ من المثل العربي «لا تنقش الشوكة بتمثلها، فإن ضلعها معها» أي لا تستعن في حاجتك بمن هو للمطلوب منه الحاجة انصح منه لك. الميداني - مجمع الامثال ٣/ ١٨٢. ونقش الشوكة: أخرجه من العضو الداخلة فيه. والدوي: المؤلم الشديد، والأصل الداء الدوي وقد أقام الوصف مقام الموصوف. وكلت: ضعفت. والنزعة: جمع نازع وهم الذين يغترفون من الآبار. والأشطان: جمع شطن وهو الجبل. والركي: مفردة ركية: البئر تحفر، وفسر محمد عبده العبارة «اي ضعفت قوة النازعين لمياه المعونة من آبار هذه الهمم الغائضة الغائرة» شرح النهج ص ٢٢٩، ط، الاندلس.

والغيظ والاسى، فالأسف والندم على عدم النزوع إلى موقف حازم مستبد، قد ورد ضمن الاساليب الخبرية ضمن جمل الصدر، كما وردت الاساليب الانشائية في السياق مجسدة معاني الأسى والتعجب والإنكار الكامنة في أسلوب الاستفهام الذي حاول علي عليه السلام من خلاله تجسيد التناقض الفكري الذي يعيشه رجاله في مواقفهم من سياسته الدينية، ومن ثم التحول بمجرى الأسلوب إلى الاستغاثة والتبرم من واقع أولئك الذين يطارحهم المناقشة، ومحاوله الانفلات من ذلك الواقع ببث الأسلوب شوقه من خلال الاستفهام الذي يحمل معاني المقارنة بين ما يتوق إليه من رجاله، وبين ما يعترض قلبه من الم سببه تماديه في العناد والاصرار على الخطأ عن جهل. فسياق الجمل وان بدا عليه مظهر المناقشة بالأخذ والرد، الا انه ينطوي على معاناة لا متناهية، وصرخات مكبوتة ومشحونة بالغضب.

والتواشج بين الفكر وبث الحياة في التعبيرات، قد يصل إلى الذروة عند علي عليه السلام، بمزجه الاساليب الخبرية بالإنشائية مزجا متلاحما، تكاد ومضات الفكر تتلاشى فيه تحت وقع الانفعال، الا ان تمكن علي عليه السلام من الاخذ بزمام الكلمة، بسلس من قيادها، فتبقى نابضة بالفكرة مع ما يكتنفها من انفعال حاد، كما في قوله موبخا أصحابه «ما بالكم؟ ما دواؤكم؟ ما طبكم، القوم رجال أمثالكم، أقولاً بغير علم، وغفلة من غير ورع، وطمعا في غير حق»^(١). فأساليب الاستفهام الثلاثة الأولى المتتالية في السياق، تعني استحالة تقويمهم واستعصاء هدايتهم، ثم قوله (القوم رجال امثالكم) توبيخ وتنبه اكتسى صيغة الاستخبار بقصد الاستنهاض والتهوين من قيمة العدو، تلاه عوده إلى استفهامات ثلاث

انطوت على معاني الانكار والتوبيخ، كل ذلك في سبيل بث الحمية في النفوس وارجاع الثقة إليها، فالفكرة وان غلب على تعبيراتها الانفعالات النفسية فإنها أيضاً تنطوي على تأملات داخلية في حنايا النفس تحث على معرفة الذات وتقييم المقام. فالفكرة يتسلل في عباراتها على شكل ومضات نفسية تحفز المستمع على التجاوب المتن.

وحين اقترح عليه بعض أصحابه العمل بالمفاضلة في توزيع المال من أجل كسب الرجال للبلوغ بهم إلى النصر، رد عليهم قائلاً «أأمروني أن اطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه؟ والله لا أطور به ما سمر سمير، وما أمّ نجم في السماء نجماً، لو كان المال لي لسويت بينهم، فكيف والمال مال الله؟ ألا وإن إعطاء المال في غير حقه تبذير واسراف»^(١). فلقد كان في إمكان علي (عليه السلام) ان يعبر عن وجهة نظره الراضة بأسلوب مباشر، ولكنه ترك ذلك حين بث الاستفهام معاني التعجب والإنكار إزاء ذلك الاقتراح المنطوي على اجحاف بحقوق الفقراء والضعفاء من الناس، تلا ذلك بقسم مؤكد، بقصد توضيح موقفه الفكري الثابت الذي لا يحيد عنه ابداً تحت أية ظروف، ومهما كان حجم المغريات التي سيجنيها لو تزحزح عنه قليلاً، ثم ان أسلوب الخبر والانشاء اللذان تليا القسم في السياق، قد ابانا نظرتة الإنسانية إلى المال، بحيث يمكننا ملاحظة أساليب التعبير في الفكرة بتنقلها من استفهام إلى قسم، ثم إلى أسلوب خبري فاستفهام فخير مؤكداً، كل ذلك بغاية تجسيد الأفكار وصيغ تعبيراتها بالقيم الروحية حتى تتقبلها الذات في صيغة مبدأ أخلاقي ثابت ومقنع ومؤثر.

وفي نقده المجتمع وكشف عيوبه يقول علي (عليه السلام) «اضرب بطرفك حيث شئت

(١) خطب-١٢٦.. ولا اطور به: أي لا أمر به ولا اقاربه. وما سمر سمير: مدى الدهر.

من الناس، فهل تبصر الا فقيرا، أو غنيا بدل نعمة الله كفرا، أو بخيلا اتخذ البخل بحق الله وفرا، أو متمردا كأن بأدنه عن سمع المواعظ وقرا؟ اين خياركم وصلحاءكم؟ واين المتورعون في مكاسبهم والمتزهون في مذاهبهم؟ اليس قد ظعنوا جميعا عن هذه الدنيا الدنية، والعاجلة المنغصة؟ وهل خلفتم الا في حثالة لا تلتقي بدمهم الشفتان استصغارا لقدرهم»^(١). فالملحظ ان أساليب الانشاء، وبخاصة الاستفهام منها قد أخذت بتلايب الفكرة بأكملها إذ بدأت بأسلوب الأمر (اضرب) بغاية التنبيه والكشف، ومن ثم ورد الاستفهام بقصد فضح العيوب الاجتماعية، ولفت النفوس إلى خطر استفحالها، تلاه استفهام ثان بـ (أين) بقصد الاستبعاد، واستفهام ثالث بـ (ليس)، الغرض منه الحنين والتأسي واستفهام رابع يحمل معاني التحقير والذم، إذ يمكن للمتأمل ان يكشف ضمن الفكرة النقدية تلك معاني التأمل والنصح والحنين والتبرم، مما احوال النقد ضمن النص إلى خلجات انسانية متنوعة الانفعالات متوحدة في صدورها من نبع فكري واحد غايته الإنسان وسعادته.

فبالنظر في فحوى نصوص نهج البلاغة، لن نعدم في كل نص منها نبضات روحية ممتزجة بالفكر، مضمية عليه الحيوية والتدفق، لأن كل تلك النصوص تحمل فكرة واحدة ثابتة محورها الإنسان وعلاقته بربه، وتفاعله في مجتمعه، وما ينطوي عليه ذلك التفاعل من حقوق وواجبات في ظل مجتمع آمن، والفكرة تنتقلها في أساليب اللغة المختلفة ضمن نسيج النصوص، هي تعبير عن حال الإنسان في كل مراحلها الحياتية، وعن علاقاته بمن حوله من حيث الأخذ والعطاء، فالذاتية التي صبغت كثيراً

من نصوص النهج، بتعبيرها عن آلام قائلها وقلقه وتبرمه وغضبه، ورضاه وسروره، ليست الا تعبيرات موضوعية، غايتها الإنسان وهذه التعبيرات إذا ما نظرنا إلى فحواها الفكري مقرونا بالعوامل النفسية ضمن مناسباتها سنجد انها في مجملها تشكل عنصرا من عناصر توحد بنية النهج، كنص صادر عن أسلوب فكري واحد في مجرى نفسي واحد.

ب. الأحوال والجمل الحالية وخصائصها

في نصوص النهج

تكاد كتب البلاغة العربية تفتقر إلى تعريف بلاغي للحال، كما ان التعريف النحوي لا يفي بالغرض في مجال دراستنا، لكونه توظيفا للوضع التركيبي، ولكن بالإمكان استعارة التعريف الصوفي القائل بأن الحال «تركيب طبيعي معين فعال، هو باطن في مقابل القول»^(١). إذ يمكننا تعريفه ادبيا على انه تصوير لانفعالات داخلية، يمكن للأديب الفذ تجسيدها بالكلمة، ولما كانت جل نصوص نهج البلاغة تعالج جوانب انسانية مختلفة لقد منحت الاحوال والجمل الحالية سياقاتها ابعادا تأثيرية عميقة، مما اتاح لها ان تتبوأ مكانة بارزة في تلك النصوص، وفي باب الخطب والمواعظ خاصة، فقد تمكنا من احصاء ما يقارب من مئة واحد عشر حالا وجملة الحالية في ستة وثلاثين نصا من باب الخطب^(٢)، وقد حوى احد هذه النصوص - وهو طويل نسبيا - ما يقارب من

(١) المعجم الصوفي - ٣٣٤.

(٢) راجع -١- فقرة: ٢، ٥، ٦، ٧، ٨. وخطب -٢- فقرة ١ وخطب -٣- فقرة - ١، ٢، ٣، وخطب

١٣، وخطب ١٨، وخطب ٢١، وخطب ٢٢ فقرة ٣، وخطب ٢٣ فقرة ٣، وخطب ٢٥

اربعة واربعين حالا وجملة حالية^(١)، ونعتقد ان النزوع لأساليب الحال بمثل هذه الكثرة يتناسب وموضوعات الخطب التي تعبر - بجانب مضامينها الفكرية - عن حالات نفسية مختلفة من خوف وسرور وتردد وحزن ونكوص وتكبر وتواضع وهلع. ففي قول علي عليه السلام «عباد الله، الان فاعلموا، والالسن مطلقة، والابدان صحيحة، والاعضاء لدنة، والمنقلب فسيح، والمجال عريض»^(٢) خمس جمل حالية، معطوفة على بعضها البعض بالواو، مما يعني المشاركة فيما بينها في معنى الامكان وانتهاز الفرصة للعمل، وقد عمد الوعظ فيها على الإيحاءات النفسية الكامنة في تلك الآنية، التي قد لا يتمكن الإنسان من انتهازها حالة فواتها، فطلاقة الالسن، وصحة الأبدان، ولدانة الأعضاء، وسنوح الفرصة كلها حالات مرتبطة بحياة الإنسان الدنيوية المقترنة بزمن معين ومحدد، مما يقتضي العمل الكامن في علاقة الإنسان بربه من ناحية، وعلاقته بالآخرين من حوله من ناحية اخرى. والعلاقات تلك قبل ان يمارسها الإنسان ممارسة عملية هي في حقيقتها مستكنة في ذاته، نابعة منها، وذلك ما تتمخض به الجمل الحالية من معان في تتابعها.

فقرة ١، وخطب ٢٦ فقرة ١، وخطب ٣٣ فقرة ٢، ٣، وخطب ٣٤ فقرة ١، وخطب ٣٦،
وخطب ٣٧، وخطب ٣٩، وخطب ٤٠، وخطب ٤١، وخطب ٤٢، وخطب ٤٣، فقرة ١،
وخطب ٤٥، وخطب ٤٧، وخطب ٤٨ فقرة ١، وخطب ٥٠، وخطب ٥١، وخطب ٥٢
فقرة ١، ٤، وخطب ٥٥، وخطب ٦٣، وخطب ٦٥، وخطب ٦٩، وخطب ٧٤، وخطب
٧٧، وخطب ٨٢ فقرة ١، ٤، ٥، ٧، ٨، ١٠، ١٢، وخطب ٨٣، وخطب ٨٥ فقرة ٢،
وخطب ٨٦ فقرة ١، ٣، ٥، وخطب ٨٨.

(١) راجع الخطبة ٨٢ ويمكنك استخراج أكثر مما استخرجنا منها من جمل حالية.

(٢) خطب - ١٩٠ - فقرة ٢.

وقد يعد النحويون أن الأحوال مؤكدة في قول علي عليه السلام «والله لأن أبيت على حسك السعدان مسهدا، وأجر في الاغلال مصعدا، احب الي من ان القي الله ورسوله ﷺ ويوم القيامة ظالما لبعض العباد»^(١)، لأنها تنطوي على معاني الالتزام، ولكن تأثيرها في سياق العبارة لا ينبع من توكيدها بقدر ما تنطوي عليه من شحنات نفسية متدفقة من اعماقه لتجسد صراعه مع الذات في سبيل المبدأ، فانسياب الاحوال والجمل الحالية في نهج البلاغة كمظهر عام من مظاهر اساليبه يعني ضمنا انتشار العناصر النفسية في جانب كبير من تلك النصوص الموجهة فكريا للوعظ والإرشاد والاستنهاض ومقاومة الظلم، والحض على الخضوع لله وحده من دون غيره من المخلوقات، لذلك كثرت الاحوال في الخطب، وقلت في باب الرسائل والعهود بسبب غلبة الجانب العقلي على معظم أساليبها.

ج - أسلوب الشرط وخصائصه في النهج

من مميزات نهج البلاغة الاسلوبية أيضاً شيوع الأساليب الشرطية في نصوصه بكثرة فقد ورد أسلوب الشرط في مئة وستة وأربعين نصاً من مجموع مئتين وأربعة وأربعين في باب الخطب، كما ورد في تسعة وأربعين نصاً من جملة تسعة وسبعين نصاً في باب الرسائل والعهود، وفي باب الحكم والكلمات القصار ورد الشرط في مئة واثنين وعشرين نصاً من جملة اربعمئة وتسعة وثمانين نصاً، وبلغ اجمالي الاساليب الشرطية في نسيج نصوص النهج تسعمائة وثلاثة وثلاثين جملة تقريبا، موزعة بحسب ادواتها كما هو مبين في الجدول التالي:

(١) خطب - ٢٢١. وحسك السعدان: شوك السعدان، والسعدان: نبت ترعاه الابل له شوك.

النصوص	الخطب	الرسائل	الحكم
ان	١٣٨	٨٦	٧٥
منْ	١١٤	٢٨	١٢٥
إذا	٧٣	٣٧	٩٩
لَوْ	٥١	١٣	١٤
مَا	١٦	٣	٧
لَوْ لَا	٥	٤	-
الأمر	٨	٧	١
إضمار	٧	١	-
لما	٣	-	-
كَلِمًا	١	-	٢
حيثما	٢	-	-
لا	-	٤	-
لن	٣	١	-
متى	١	١	٢
مهما	-	١	-

وهذا الكم الكبير من أساليب الشرط التي وردت ضمن نسيج النهج لعب دورا أساسيا في أحكام نسيجه البلاغي، وفي قوة تعبيراته وعمقها الإبلاغي، فالشرط ضمن سياق المقولة «خالطوا الناس مخالطة، ان متم معها بكوا عليكم، وان عشتم حنوا اليكم»^(١) لم يعد لمجرد الربط بين سببين ونتيجتين، بل ورد في السياق مفتقا فيه كل المعاني الإنسانية المفعمة بالحب في كل المراحل الحياتية الكامنة في الحنين إلى كل خير، وما بعد الموت الكامنة في الذكرى الطيبة التي تتأسى الإنسانية لفقدائها وتأسف، فالغاية الإبلاغية من خلال الذكرى والحنين،

قد تجسدت في الصياغة البلاغية المبنية على المقابلة بين قيمة الإنسان الخير في حياته وبعد مماته، مما يعني خلود معاني الحب في كل الأحوال.

والمعرفة الحقيقية لقيمة الخير والحب، لا يمكن إدراكها بجلاء، إلا من خلال التمعن في مناقضها أو مقابلها، وهو ما يرمي علي عليه السلام إليه في أسلوب الشرط المضمن قوله «لن تعرفوا الرشد حتى تعرفوا الذي تركه، ولن تأخذوا بميثاق الكتاب حتى تعرفوا الذي نقضه ولن تستمسكوا به حتى تعرفوا الذي نبذه»^(١) فالتقابل بين جزئي أساليب الشرط في العبارة هو توضيح بالتأمل في حقيقة المعرفة التي يريد علي عليه السلام تبصير أصحابه بها، وقد ورد الشرط في السياق موضحا إياها في عبارات تأملية مبنية على الفكر التعليمي الآخذ بنظرية التقابل في كشف الحقائق وتوصيل المعلومات، إذ أن وصف خصائص اللون الأبيض، لا يمكن أن يدركها المتعلم إدراكا حسيًا، إلا بمقابلتها بخصائص اللون الأسود المقابل لها، فالشرط من الأساليب الأساسية التي اعتمدت عليها نصوص النهج في توصيل الأفكار، وقد تميز في سياقاتها المختلفة بخصائص أربع، إثنان تتعلقان بالمعنى، وإثنان تتعلقان بالشكل:

١- التقابل:

كثيرا ما يورد علي عليه السلام أسلوب الشرط مبنيا على التقابل الذي يرمي من ورائه إلى التعليم وكشف الحقيقة التي هو بصدد التحدث فيها، ويرد التقابل في جملة الشرط ضمن نصوص النهج على نمطين:

الأول: التقابل في أسلوب شرطي واحد، بين الشرط وجوابه، كما جاء في

(١) خطب - ١٤٧ - فقرة ٤.

وصف الدنيا «ان جانب منها اعذوذب واحلولى، أمر جانب فأوبى»^(١)، فقد ورد التقابل في العبارة بين (اعذوذب واحلولى) في الشرط، وبين (أمر جانب فأوبى) في الجواب. وعادة ما ترد مثل هذه المقابلات في أسلوب الشرط الواحد في النهج، لغرض توضيح الوجهين الحقيقيين للشيء الواحد، فالدنيا التي عرض لها النص، لها وجه جميل قد يسعد الإنسان به ولكن لا بد ان يعرف أيضاً ان للدنيا وجهاً آخر قبيحاً، ينطوي على الشقاء والبؤس والعذاب وبمعرفة الإنسان للوجهين يدرك حقيقتها التي تمكنه من التأقلم مع كلا وجهيهما.

الثاني: التقابل بين جملتين شرطيتين متعاطفتين في سياق واحد، من ذلك ما جاء ضمن رسالة علي عليه السلام إلى أهل الكوفة يستحثهم على القدوم إليه عند مسيره إلى البصرة «واني اذكر الله من بلغه كتابي هذا لما نفر الي، فإن كنت محسنا اعانني، وان كنت مسيئاً استعتبني»^(٢) فقد قابل بين جملتي الشرط بغرض الموازنة العقلية بين مسلكين من دون اللجوء إلى تحكيم العاطفة والجري وراء الهوى، مما يعني تضمن كل شرط - قائم بذاته - حكماً مقابلاً وهي خصيصة تكاد تكون شائعة في جل جمل الشرط المتعاقبة الواردة في نصوص النهج.

٢- توظيف أساليب الشرط في النصوص

للتعبير عن خلجات النفس الإنسانية المختلفة من أسى وغيظ، كما في قوله ضمن تقريره لأهل الكوفة «ماهي الا الكوفة، اقبضها وابسطها ان لم تكوني الا

(١) خطب - ١١٠ فقرة ١. وأوبى: صار كثير الوباء.

(٢) رسائل - ٥٧.. واستعتبني: طلب مني العتبي أي الرضا أي أن أرضيه بالخروج عن طاعتي.

أنت - تهب أعاصيرك، فقبحك الله»^(١)، فأسلوب الشرط (إن لم تكوني...) قد عبر عن حالة انفعالية غاضبة مشحونة بالأسى.

وهدوء مشوب بالحزن ضمن التنبؤات المستقبلية، كما في قوله ضمن اشاداته بالرسول ﷺ وآل بيته عليه السلام «فإذا انتم التتم له رقابكم، واشتم إليه بأصابعكم، جاءه الموت فذهب به»^(٢)، مما يعني ان الاستجابة للقائد، واتحاد الكلمة تحت امرته ستأتي متأخرة وبعد فوات الاوان، وهو ما يحز في النفس ويجلب الحزن، وقد تضمن أسلوب الشرط (فإذا انتم...) ذينك البعدين المعنوي والنفسي.

وقد يورد علي عليه السلام أسلوب الشرط في السياق للشرح والتوضيح، كما في قوله المتعلق بالعمال ومراقبتهم ضمن عهده للأشتر «ان احد منهم بسط يده إلى خيانة - اجتمعت به عليه عندك اخبار عيونك - اكتفيت بذلك شاهدا»^(٣)، فأسلوب الشرط (ان احد...) ورد في السياق متضمنا الأسباب التي على اساسها يوقع الوالي بعماله الاداريين العقاب، وقد وردت الجملة الاعتراضية (اجتمعت...) ملتحمة تمام بالسياق الشرطي، خدمة للمعنى وتوضيح كل جوانبه.

تلك إذا الميزتان المعنويتان لأسلوب الشرط في النهج، اما الميزتان الغالبتان على شكل اساليبه الشرطية فهما:

١- التساوي في عدد مفردات الاساليب الشرطية المتعاقبة: فالكثير من أساليب الشرط الواردة في سياقات نصوص النهج متوالية، تتخذ طابع تساوي الكم التعبيري، من ذلك ما جاء في رسالة علي عليه السلام لعامله على البصرة، عثمان بن

(١) خطب-٢٥..

(٢) خطب-٩٩..

(٣) رسائل-٥٣-فقرة ٢١.

حنيف «لو تظاهرت العرب على قتالي، لما وليت عنها، ولو امكنت الفرص من رقابها لسارعت إليها»^(١)، فلقد وردت الفاظ الجملتين الشرطيتين متساوية من حيث العدد باحتساب الضمير العائد على العرب في (رقابها) في الجملة الشرطية الثانية. ومن ذلك أيضاً قوله في ذم الدنيا «من وطئ دحضك زلق، ومن ركب لجك غرق، ومن أزور عن حباثك وفق»^(٢).

٢- تقديم الجواب على شرطه: وهي من الظواهر التي تتكرر كثيرا في الاساليب الشرطية الواردة ضمن سياقات نصوص النهج، بغرض ابراز الأهمية الفكرية، هذا بالإضافة إلى القيمة التأثيرية التي يروجها علي عليه السلام من وراء نزوعه لذلك، كما في قوله مقدا الفرع على الاصل، أو المهم على الأهم «لا قرية بالنوافل، إذا أضرت بالفرائض»^(٣) فقد قام جواب الشرط المتضمن النوافل أو الزوائد على الشرط المتضمن الفرائض والمقرون بـ (إذا) بغرض التهوين من قيمة مباشرة الإنسان الأعمال الفرعية على حساب أعماله الحياتية الأساسية. وكما في قوله ضمن التعبير عن ضيقه من مواقف أصحابه تجاه امرته «منيت بمن لا يطيع إذا أمرت، ولا يجيب إذا دعوت»^(٤)، فقد قدم جوابي الشرط (لا يطيع ولا يجيب) على شرطيهما ليبين من خلالها أن السبب في إخفاق سياسته وتآلب الخارجين عليه، يرجع إلى عيب في المحيطين به من رجال غرس في نفوسهم العصيان والتمرد. كما وأن الفعل (منيت) قد بث في السياق معاني التبرم والضيق، مما زاوج بين ابراز الفكرة وما يكتنفها من

(١) رسائل ٤٥-فقرة ٣، ٤.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) حكم ٤٩-.

(٤) خطب ٣٩.

تأثيرات نفسية.

وقد يستغني علي عليه السلام - في القليل من أساليبه الشرطية - عن ذكره الجواب، اعتماداً على فطنة السامع في استخلاصه كما في قوله لكميل بن زياد «ان هاهنا لعلماء، لو اصبحت له حملة»^(١)، فقد استغنى عن ذكر جواب (لو) اعتماداً على السياق.

فأساليب الشرط بما تتضمنه من ثرائين بلاغي وإبلاغي، يمكن عدّهما من الخصائص الأسلوبية الدالة على التوحد في بنية نهج البلاغة كنص فكري متكامل في صدوره من مجرى أسلوب واحد.

د- التضمين في النهج وخصائصه

التضمين هو استنجد بمقولات معروفة لدى السامعين، مقبولة عندهم لبلاغتها وجمالها، أو لشيوعها فيهم، فهو بالتالي وسيلة للإقناع والتأثير، لذلك عول علي عليه السلام عليه في كثير من مآثوراته، ولكن بقدر الحاجة إليه كعنصر ذي أهمية في تفتيق المعاني ومنحها ابعادها التأثيرية أو التوضيحية. وقد أتاحت ثقافته الواسعة لتضميناته التنوع فأخذ الشعر بنصبيه الوافر منها، وتبوأ القرآن الكريم مكانة الصدارة، كما حظي المثل العربي بنصبيه ايضا.

وقد تميز التضمين، بكل انواعه، في مواضعه التي ورد فيها بميزتين:

الأولى: الانسجام التام مع نسيج النص، بحيث لا يشعر السامع أو القارئ بأي اقحام أو أي تكلف في انسيابه ضمن السياق العام، سواء كان ذلك التضمين شعراً، كما في قوله لأصحابه ضمن سياق التمني «لوددت أن لي بكم ألف فارس من بني فراس بن غنم (وافر):

هنالك لو دعوت أذاك منهم فوارس مثل أرمية الحميم»^(١)

فالبيت ملتحم تماما بسياقه التعبيري، منسجم مع معاني التمني، متمم لها. أو كان مثلاً عربياً مشهوراً، كما في قوله متهكماً من معاوية «أما بعد فقد أتاني كتابك تذكر فيه اصطفاء الله محمدًا ﷺ وتأبيده إياه بمن من أصحابه، فلقد خبأ لنا الدهر منك عجباً، إذ طفقت تجربنا ببلاء الله تعالى عندنا، ونعمته علينا في نبينا، فكنت في ذلك كناقل التمر إلى هجر»^(٢). فالمثل العربي «كناقل التمر إلى هجر»^(٣) باندماجه التام في السياق جاء بمثابة تفتيق واضاءة لمعاني الاستغراب والتهكم من معاوية لأخباره إياه - وهو ربيب الرسول - بمآثره ﷺ إياه في نشر الدين ومكانهم منه.

ويبلغ التضمين بأي الذكر الحكيم ذروته في الإحكام والسلاسة وأداء المعنى، كما في قوله بشأن موقفه من الخارجين عليه من الأمويين وأشياعهم من أهل الشام «فإن ترتفع عنا وعنهم محن البلوى، أحملهم من الحق على محضه، وأن تكن الأخرى ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾»^(٤)، فقد أحكم علي ﷺ تلاحم الآية الكريمة في السياق فأنت

(١) خطب ٢٥. فقرة ٢. وبنو فراس بن ثعلبة بن مالك بن كنانة، حي مشهور بالشجاعة. راجع تاريخهم عند ابن أبي الحديد في شرحه للنهج ٣٤١/١ وما بعدها، والبيت لأبي جندب الهذلي، ورد ضمن ترجمته في الأغاني ٢١/٢٤٧ وما بعدها. وارمية: جمع رمي وهو السحاب، والحميم في البيت، وقت الصيف، وإنما خص الشاعر سحاب الصيف بالذكر لأنه أشد اسراعاً وارتحالاً.

(٢) رسائل - ٢٨ - فقرة ١.

(٣) الميداني - مجمع الامثال ٣/٣٩. وهجر مدينة على ساحل الخليج العربي مشهورة بالنخيل فنقل

التمر إليها للتجار به خاسر، وقد ورد المثل عند الميداني «كمستبضع التمر إلى هجر»

(٤) خطب - ١٦٣ - فقرة ٢. والآية من سورة فاطر / ٨.

٦٩٤ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

مندجة فيه، ومكملة لفحوى أسلوب الشرط وما يرمي له من معاني التسليم بقضاء الله وقدره دون اسف أو ندم في حالة الاخفاق، شريطة التفاني في العمل والثبات على المبدأ حتى النهاية مهما كانت العاقبة.

الثانية: الثراء والتنوع في معاني التضمين: إذ لم يقتصر التضمين في نصوص نهج البلاغة على نواحي الاستشهاد وتعزيد المقولات الصادرة عن علي عليه السلام لتوكيد صحتها، أو اجلاء الغموض عنها، بل ورد في سياقات ذات الأغراض المختلفة حاملاً في طياته معاني متنوعة، تدل على مقدرة فائقة على تطويع العبارات المضمّنة، للاستجابة لما يراد منها من معان وإيحاءات بادماجها بدقة متناهية في نسيج الفكرة، ممّا يتيح لها التعبير عن كل الأبعاد المعنوية والتأثيرية ضمنها، فتستحيل إلى تعبير ذي بعدين:

الأول: البعد الحقيقي لعبارة التضمين والكامن في معناها الذي وضعت له أصلاً.

الثانية: بعدها الجديد المتولد في دمجها في سياق جديد يتناسب وما تحمله من معان وتأثيرات.

ويمكن ملاحظة ذينك البعدين لمعنى التضمين في قول علي عليه السلام للخوارج بعد إعلان النتيجة التي تمخض عنها التحكيم «قد أمرتكم في هذه الحكومة أمري ونخلت لكم مخزون رأبي (لو كان يطاع لقصير أمر) فأبىتم علي اباة المخالفين الجفأة...»^(١). فقد ورد المثل العربي (لو كان يطاع لقصير امر) ضمن

(١) خطب - ٣٥ - فقرة ٢. واصل المثل «لا يطاع لقصير امر» الميداني - مجمع الامثال ٣/ ١٩٨. وراجع قصة المثل عند الميداني أيضاً في: ١/ ٤١٣ وما بعدها. فيما جاء حول المثل «خطب يسير في خطب كبير».

نسيج النص حاملاً لمعناه الأصلي كمثل قديم مخصوص بحادثة معروفة تقال لمن لا يمثل لنصح الناصح المجرب فيخفق، وبالإضافة إلى ذلك المعنى الأصلي فقد حمل في طياته - ضمن السياق الذي أورده فيه علي عليه السلام - معاني العتاب واللوم المقرونة بالحزن والأسى، وقد أضيفت تلك المعاني إلى المعنى الأصلي لصلاحيته لذلك، ومقدرة علي عليه السلام الفائقة على استغلال تلك الصلاحية بإدماج المثل في الموضوع المناسب له. فتفاعل علي عليه السلام مع أساليب اللغة، وإحساسه في توجيه تعبيراتها جعل التضمين في النصوص الماثورة عنه يستجيب لكل غرض بلاغي يرمي إلى التعبير به عن فكره، فمن اغراض التضمين التي اثرت عنه:

- اغراض التضمين في مآثورات علي عليه السلام:

التمثيل والتصوير: كما في قوله ضمن توبيخ أصحابه على تقاعسهم عن القيام بواجب الجهاد «...فجرجرتم جرجرة الجمل الأسر، وثاقلتم ثاقل النضو الأدبر ثم خرج إلي منكم جنيد متذائب ضعيف ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾»^(١)، فقد وردت الآية الكريمة ضمن السياق لتضفي على التشبيه فيه ابعاداً مأساوية مؤلمة محزنة.

تبيان الحال: كما في قوله ضمن تصوره لصفات الملائكة «لا يتتحلون ما ظهر في الخلق من صنعه، ولا يدعون أنهم يخلقون شيئاً معه مما انفرد به، بل عباد

(١) خطب - ٣٩. فقرة ١. والجرجرة: صوت يصدره البعير من حنجرتة تعبيراً عن الألم أو احتجاجاً عند عسفه. والجمل الأسر: المصاب بداء السريرة، وهو وجع يأخذ البعير في مؤخوة كركرتة من دبره، أو قرح يكاد ينقب جوفه، والنضو المهزول من الابل، والادبر المصاب بالدبرة، قروح أو جروح في ظهر الجمل وسنامه. والآية من سورة الأنفال / ٦.

مكرمون ﴿لَا يَسْئُرُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾^(١)، فالآية الكريمة ضمن السياق وصف لحال الملائكة تجاه الخالق سبحانه.

التذكير والتخويف ضمن الوعظ: كما ورد عنده ضمن حديثه عن الدنيا «تعظوا فيها بالدين العمى، ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ حملوا إلى قبورهم فلا يدعون ركبانا، وانزلوا إلى الاجداث، فلا يدعون ضيفانا»^(٢).

التحديد ورفع اللبس: من ذلك حديثه عن نفسه وآل بيته عليه السلام «بنا يستعطي الهدى، ويستجلى العمى، ان (الأئمة من قريش) غرسوا في هذا البطن من بني هاشم، لا تصلح على سواهم، ولا تصلح الولاية من غيرهم»^(٣) فقد أورد حديث الرسول ﷺ «الأئمة من قريش» ضمن السياق ليوضح من خلاله أن المعنيين بقريش في الحديث هو آل بيته من دون غيرهم من عامة قريش.

التحضيض والتحييب: كما في قوله ضمن وصيته لما ضربه ابن ملجم «إن أعف فاعفوا لي قرية، وهو لكم حسنة، فاعفوا ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾»^(٤). فقد أورد الآية الكريمة ضمن السياق تحبيبا للنفوس وحضا عليه. الدعاء والتبتل: إذ تكثر الأدعية المتضمنة طلب رضا الخالق وعفوه والاعتماد على مننه وكرمه دون المخلوقين، وعادة ما يوظف علي عليه السلام كل

(١) خطب ٩٠-فقرة ٥. ولا يتحلون: أي لا يدعون باطلا، والآية من سورة الأنبياء/ ٢١.

(٢) خطب ١١٠-الفقرة الاخيرة، والآية من سورة فصلت/ ١٥. ولا يدعون ركبانا: أي لا يقال لهم ركبنا، جمع راكب، لأنهم أخذوا إلى قبورهم غير مختارين، والراكب عادة ما يكون مختارا. والاجداث: جمع جدث: القبور.

(٣) خطب- ١٤٤-فقرة ٢. راجع مصدر الحديث الشريف في ص ١٧٧ من هذا البحث.

(٤) رسائل- ٢٣-فقرة ٢. وقرية: تقربا إلى الله، والآية من سورة النور/ ٢٢.

طاقاته اللغوية المشحونة بالحب الصادق والايان المتين ضمن تلك الأدعية، مستنجدا بتضمينها بآيات قرآنية كما في قوله ضمن دعاء له كان يقوله كلما هم بلقاء العدو «اللهم إنا نشكو إليك غيبة نبينا، وكثرة عدونا، وتشتت أهوائنا ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾»^(١)، فلقد وردت الآية الكريمة ضمن نسيج الدعاء لتنتشر في جنباته مسحة من الإيانه فحوهاها الاستنجد بالخالق في النزوع إلى الحق، وطلب معونته في سلوك جادته.

الإصرار على المبدأ والثبات عليه في كل الأحوال: من ذلك ما كتبه لأخيه عقيل بن أبي طالب ضمن رده على رسالة يخبره فيها بتمالي قريش على افشال حكومته ويسأله عن موقفه منهم «ولا تحسبن ابن أبيك - ولو أسلمه الناس - متضرعا متخشعا لا مقرا للضيم واهنا، ولا سلس الزمام للقائد، ولا وطيء الظهر للراكب المتعقد، ولكنه كما قال أخو بني سليم: (طويل)

فإن تسأليني كيف فإنني صبور على ريب الزمان صليب
يعز علي أن ترى بي كآبة فيشمت عاد أو يساء حبيب»^(٢)

فقد ورد البيتان في السياق لتعضيد معاني الإصرار والثبات على المواقف في كل الأحوال.

البرهنة ضمن الجدل: من ذلك ما ذكره علي عليه السلام من آيات كريمة ضمن رده

(١) رسائل ١٥- والآية من سورة الاعراف / ٨٩.

(٢) رسائل ٣٦- فقرة ٢. والبيتان منسوبان للعباس بن مرداس - شرح بن أبي الحديد ١٦/ ١٥٣ وراجع ترجمة العباس بن مرداس عند: ابن سعد- الطبقات الكبرى ٤/ ٢٧١، والشعر والشعراء لابن قتيبة ٢/ ٦٣٢، ترجمة رقم ١٧٧، والسلس - بفتح السين وكسر اللام - السهل. والوطيء: اللين. والمتعقد: الذي يتخذ ظهر الدابة مقعدا يستعمله في كل حاجة. والصليب: الشديد.

على كتاب ورد إليه من معاوية مدعياً فيه عدم احقية علي عليه السلام بالخلافة وانه يحاول ابتزاز المسلمين أمرهم «وكتاب الله يجمع لنا ما شد عنا وهو قوله سبحانه وتعالى:

﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ وقوله تعالى:

﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾

فنحن مرة أولى بالقرابة وتارة أولى بالحق والطاعة»^(١)، فالآيتان الكريمتان قد وردتا في السياق للبرهنة على بطلان ما تضمنته رسالة معاوية من مزاعم في حقه.

السخرية والتندر: منه ما جاء ضمن رده على كتاب معاوية الذي قال فيه بتفضيل أبي بكر وعمر وعثمان على علي عليه السلام «وما انت والفاضل والمفضول والسائس والمسوس وما للطلاق وانباء الطلقاء والتميز بين المهاجرين الأولين وترتيب درجاتهم وتعريف طبقاتهم، هيهات، (لقد حن قدح ليس منها)،»^(٢)، فالتضمين بالمثل العربي «لقد حن...» قد ورد ضمن تذكير معاوية بمنزلته في الإسلام كتعبير عن السخرية منه، لطرحة قضية هو غير مؤهل للخوض فيها، لأنه غريب عنها جاهل بحقيقتها.

بث الحماس وإشاعة الطمأنينة في نفوس المحاربين: كما ورد في قوله ضمن خطبة له في صفين «فصمداً صمداً حتى ينجلي لكم عمود الحق وأنتم الأعلون

(١) رسائل ٢٨-فقرة ٣. والآيتان على التوالي - الانفال / ٧٥، آل عمران / ٦٨.

(٢) السابق - فقرة ١. والمثل (حن قدح ليس منها) يضرب للرجل... يتمدح بها لا يوجد فيه - الميداني - مجمع الامثال ١ / ٣٤١، وحن: سمع له صوت، والقدح بكسر القاف المعجمة وسكون الدال المهملة: - السهم، وإذا كان السهم مختلف عن بقية السهام، كان له عند الرمي صوت يخالف أصواتها.

الباب الخامس: الأساليب التعبيرية في نهج البلاغة ٦٩٩

والله معكم ولن يتركم أعمالكم»^(١)، فالتحام الآية الكريمة بالسياق قد منحه ابعادا عميقة من معاني الحماس الصادق المتفجر بقيم الإيمان لما تزخر به من معاني العز والاحقية والمؤازرة.

كما يرد التضمين عند علي عليه السلام محملا بمعاني التهديد والوعيد^(٢)، أو الندم جراء التفريط في الأمور المهمة^(٣)، أو لبيان أهمية الشيء وقيمته^(٤)، إلى غير ذلك من معان ثرة تجلوها المناسبة، فتجعلها ابدا بينة ناصعة، لكونها موظفة توظيفا محكما في تعبيرات صادقة نابعة من تجربة واحدة بكل تفرعاتها الحياتية. وقد أبرز ذلك الانسجام بين الفكر وبين الاساليب التعبيرية التي استوعبته خصائص فنية مميزة نعرض لأبرزها في الفصل التالي.

(١) خطب ٦٥- والآية من سورة محمد / ٣٥. ولن يتركم - بفتح الباء وكسر التاء وفتح الراء: لن

ينقصكم شيئا من جزائها.

(٢) راجع خطب ٧٠، وخطب ٩٠، فقرة ٢، وخطب ٨٦ فقرة ٣، ٤.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) المصدر السابق نفسه.

الفصل الثالث

أبرز الخصائص الفنية

في نهج البلاغة

عرض شراح نهج البلاغة إلى كثير من الخصائص الفنية والبلاغية التي تميز بها أسلوبه؛ فابن أبي الحديد قد وقف - في شرحه المطول - عند الكثير من الظواهر الفنية البيانية والبديعة، مبدياً رأيه فيهما، مستعينا في ذلك بذوقه الفني، بالإضافة إلى استعانهه بآراء من سبقه من البلاغيين، إلا أنه لم يتناول إلا الجزئيات دون التعميق في تأثيرها داخل النصوص.

فمن حيث الخصائص البيانية^(١) وقف عند الكثير من الاستعارات والتشبيهات والكنائيات، مبيناً من خلال كل ذلك قدرة علي عليه السلام الفائقة على صياغتها، إلا أنه لم يتطرق إلى أثرها في السياقات التي وردت فيها، لأنه لم يعالج

(١) راجع شرح النهج ٦/٣٧٨ حول بلاغة علي عليه السلام. و١١/١٥٣ أثر كلام علي عليه السلام في نفس الشارح. ولقد أورد الشارح أيضاً فصولاً بلاغية كثيرة في أثناء تعرضه لمعالجات مثيلاتها في نصوص النهج، من ذلك ما جاء في ٢/١٠٣ وما بعدها و١٧٠ وما بعدها و٤/١٥٣ وما بعدها و٥/١٥ وما بعدها و٧/١٨٤ وما بعدها و١٩٦ وما بعدها و٣١١ وما بعدها، و٨/٣٧٦ وما بعدها.

تلك الظواهر الفنية الا منفردة وكأنها وحدات أسلوبية قائمة بذاتها لا تمت إلى السياقات التي وردت فيها بأية صلة إلا من حيث تداعي الأفكار وترابط الاساليب، ذلك بالنسبة إلى الظواهر البيانية البارزة، اما بالنسبة إلى التصويرات الفنية المعتمدة على التأثيرات النفسية من خلال شحذ طاقات الكلمة فقد تحدث عن أثرها في نفسه^(١) من دون ان يدخل في الخصائص التي تمكنه من استجلاء المميزات التي جعلت تأثيرات تلك التعبيرات الفنية تبلغ المدى في هز اعماق متلقيها كما انه قد بين كثيراً من البديع المعنوي والآخر اللفظي الذي ورد في سياقات النهج^(٢) ولكنه لم يحاول أيضاً تبيان تأثيراتها الایحائية في معاني النصوص، وقد تبعه في ذلك أيضاً ميثم البحراني الذي أورد في شرحه كثيراً من الظواهر البيانية والبديعية من دون ان يستجلي تأثيراتها النفسية وخصائصها الابداعية في نسيج ما وردت فيه من نصوص. ثم إن كلا الشارحين لم يحاولا توضيح الخصائص المميزة للتناول الفني في النهج كنص متوحد الأسلوب من حيث صدره من مجرى نفسي واحد، لانصباب نظرتيهما أثناء شرح النصوص على انها وحدات مجزأة، كل نص قائم بذاته، ولا يمت بصلة إلى النصوص الاخرى، الا من حيث الانتساب إلى علي عليه السلام، دون محاولة البحث في الصلات الفنية الداخلية التي ترابط بين تلك النصوص من حيث البنية الدالة على انتمائها إلى قائل واحد. وهذا ما سنحاول دراسته في أثناء تعرضنا لأبرز المميزات الفنية في النهج متعرضين إلى ذلك في محورين أساسيين هما:

- الأول - أهم المميزات الخاصة بالصورة في النهج

(١) راجع السابق.

(٢) السابق.

- الثاني - أهم المميزات الخاصة بالموسيقى في النهج

على اننا في دراستنا هذه لا نحاول الفصل بين الصورة والموسيقى كظاهرتين متباعدتين، لكونهما - في نظرنا - تشكلان معا الخصائص الفنية التي حاول علي عليه السلام على اساسها صياغة فكره واجلاء رؤاه والتعبير عما يعتقد ويؤمن به، مما يعني ان الفكر وصياغته الاسلوبية بشقيها المعنوي والفني، متلاحمان ومترابطان بحيث لا يمكن النظر في ناحية من نواحي النص أو خصيصة منفصلة، لكون النص بأفكاره ومعانيه وخصائصه الفنية نابعا من معين واحد، فدراستنا للخصائص الفنية في النهج، قد تبدو عسيرة وصعبة إذا ما حاولنا النظر فيها كخصائص قائمة بذاتها، ثم انها من ناحية ثانية واسعة جدا إذا ما حاولنا تتبعها في بنية نهج البلاغة بأكمله، لذلك فسنقصر الدراسة على ابراز أهم الملامح الفنية، من دون التعرض إلى الجزئيات التي عاجلها الاقدمون من الشراح، ناظرين في ذلك إلى مجموع الخصائص الفنية بما يمتزج بها من انفعالات، على أساس أنها صور وموسيقى وايقاع يكمن بداخلها التشبيه والاستعارة والمجاز، وجل المحسنات البديعية.

١- أهم المميزات الخاصة بالصورة في النهج

ترد الصورة الفنية في نصوص نهج البلاغة مرتبطة ارتباطا وثيقا بمضامينها الفكرية، ذائبة في نسيجها، مضمية عليها الحيوية نائية بالأساليب فيها عن الجفاف والجمود الذي عادة ما يتتاب المعاني المجردة، وهذا لا يعني ان عليا عليه السلام يعتمد إلى استجلاب الصورة بتكلف، ولكنها ترد في سياقات النصوص مناسبة طبيعة لتفرض وجودها من خلال الموقف، مضمية على المعاني الفكرية ابعا

تأملية تبلغ بالفكر مداه في التألق.

يتحدث عن أسلوبه في العيش ضمن رسالة كتبها لواليه على البصرة، يؤنبه فيها على تصرف غير لائق بدر منه فيقول «وكأني بقائلكم يقول: إذا كان هذا قوت ابن أبي طالب، فقد قعد به الضعف عن فقال الأقران ومنازلة الشجعان، الا وان الشجرة البرية أصلب عودا والروائع الخضرة ارق جلودا، والنباتات البرية اقوى وقودا، وأبطأ خمودا»^(١) فقد عمد إلى الأسلوب الكنائسي، مبينا من خلاله قناعته بالقليل، في مقابل تهالك واليه على ما دعي له من لذيذ الطعام، مشبها نفسه في صبره وجلده واحتماله بالشجرة البرية التي تستطيع مقاومة العوامل الطبيعية تحت أية ظروف ومشبها واليه في عدم قدرته على التماسك والاتزان إزاء مغريات الحياة من لذيذ الطعام بالشجرة الحضرية غير المذكورة في السياق، مع ملاحظة انبجاس الصورة بكل تعقيداتها ضمن السياق في عفوية تامة، أخذة بما يناسبها من ايقاعات تعبيرية ضمن المقارنة بالتقابل بين الصلابة والرقعة مع تناغم سلس في الفواصل المتقابلة (أصلب عودا، وأرق جلودا، أقوى وقودا، أبطأ خمودا). فتمازج الفكرة بالصورة في نسيج النص، اكسبها عمقا بما اسبغته الصورة من الوان مناسبة من ناحية، وخاصة الثراء الاليحائي من ناحية اخرى، علاوة على ذلك انسيابها في نسيج النص بالفصل^(٢) على اعتبار تتابع الكلام في مجراه النفسي بانتقاله من الحديث عن نفسه إلى المقارنة بين الشجرتين من دون اللجوء إلى العاطف بالإضافة إلى الالتفات^(٣) بانتقاله من حديث إلى

(١) رسائل ٤٥ - فقرة ٣.

(٢) عرضنا لخصائص الفصل والوصل في أساليب النهج في ص ٦٧٤ من هذا البحث.

(٣) عرضنا للالتفات في ص ٦٠٦ من هذا البحث.

آخر بقصد تأكيد الفكرة المطروحة ودعمها، وهو ما يدعم مقولتنا بانثاق الصورة ضمن السياق مرتبطة بالفكرة عن طواعية، ولحاجة ملحة تقتضيها المناسبة لإضاءة الفكر وكشف جوانبه والنأي به عن الجفاف.

ومن أجل الوقوف على أهم خصائص الصورة في نصوص النهج لاستجلاء أبعادها ووظائفها يقتضي منا ذلك دراستها في النقاط التالية:

١- انبعاث الصورة في النهج وتأثيرها:

تسعى الصورة - ضمن نصوص النهج - إلى التجسيد بغرض التأثير، والنزوع إلى مواقف التزامية معينة اشرفنا إليها في أبوابها وبمعنى أوضح، فإن الصورة لا ترد ضمن تلك النصوص إلا من أجل خدمة الأفكار وتدعيمها على اعتبار ان إحياءاتها جزء لا يمكن بتره من تلك الأفكار، فجل نصوص النهج تعالج قضايا فكرية وأخلاقية فحواها الحق، والخير، والجهاد، والعدل والتقوى إلى غير ذلك من قيم إنسانية، وتلك القيم لا ترد ضمن نصوصها في عبارات تقريرية خالية من النبض والحيوية، لأن علياً عليه السلام - من أجل تدعيمها - يبعث فيها نفحات من روحه، وفيضا من ضميره ملتقطا من الواقع من حوله ما يتيح لما في تلك القيم من أفكار التجسيد بإسقاط حماسه اليقيني عليها.

فالصورة في نصوص النهج تنبثق متزامنة مع انبثاق الفكرة مرتبطة بها، بحيث لا يمكن للمتأمل فيها كعنصر فني الا بالنظر إليها في سياقها الفكري، فاجتزأؤها من النص قد يبقي على نوع من الجمال فيها، ولكنه يجرداها من قيمتها التأثيرية.

فالصورة في قول علي عليه السلام «اللهم قد ملت اطباء هذا الودي، وكلت النزعة

بأشطان الركي»^(١)، قد لا تعني شيئاً إذا ما نظرنا فيها بعيدة عن سياقها الفكري، كما قد يبدو على عناصرها الجزئية نوع من التنافر والتناقض، لما في (الاطباء، والدوي) من عدم تجانس مع معاني (الأشطان، والنزعة، والركي)، فقيمتها التأثيرية ليست في النظر إليها مفصولة عن السياق ولا في النظر في فحوى معانيها مجزأة، لأن قيمتها كامنة في ما يعنيه اثرها في سياق المناسبة، واندماج القائل مع احداث تلك المناسبة، وما يكتنفها من انفعالات نفسية، شريطة التحامها بالنص كعنصر اصيل فيه، تؤثر وتتأثر بما حولها من معان تتعاون على تجسيدها بما يستكن بداخلها من انفعالات غاضبة ومكبوتة، مفجرة في حنايا النص معاني الالم والحياة والاحفاق.

فعودة إلى الصورة السابقة في سياق فكرتها في النص «أما والله لو أي حين أمرتكم به - أي بالتحكيم - حملتكم على المكروه... فإن استقمتم هديتكم، وأن اعوججتم قومتمكم، وإن أبيتم تداركتكم - لكنت الوثقى، ولكن بمن والى من؟ أريد أن أداوي بكم وأنتم دائي، كناقش الشوكة بالشوكة، وهو يعلم ان ضلعها معها، اللهم قد... الصورة»^(٢) نجد أن تداعي الأفكار في السياق بما تتمخض عنه من ندم غاضب جاء في تلافيف التمني التالي للقسم في قوله (اما والله لو...) قد ولد في العبارة ثلاثة استثناءات:

تمثل الأول في أسلوب الاستفهام التالي للاستدراك في (ولكن بمن والى من)

(١) خطب ١٢٠.. والدوي: أصل التعبير هو (الداء الدوي) أي الشديد المؤلم بوصف الداء بما هو من لفظه. وكلت: ضعفت وتعبت. والنزعة:- بفتح النون والزاي والعين - جمع نازع، بكسر الزاي، الذي ينزع الماء من البئر. والأشطان: جمع شطن وهو الحبل. والركي: جمع ركية، البئر أي ضعفت قوى نازعي المياه من الآبار.

(٢) الخطبة السابقة.

على سبيل التأسف واليأس.

وتمثل الثاني في الجملة الخبرية المقرونة بالتشبيه المقتبس من المثل العربي «لا تنقش الشوكه بمثلها فإن ضلعها معها»^(١)، على أساس أنه لو استعان ببعضهم في تقويمه بعضهم الآخر، لكان مثله في ذلك مثل الذي يحاول اخراج شوكة انغrust في جلده بشوكة من جنسها، فتتكسر بجانبها فيتضاعف بذلك الألم ويتفاقم الخطب.

ثم يتصاعد الأسلوب فيبلغ مداه في الاستئناف الثالث الكامن في الفصل والمتضمن معنى الالتفات والمصدر بالاستغاثة (اللهم...) مما يعني في طياته ان الوضع قد بلغ مرحلة بحيث لا سبيل إلى اصلاحه، فالكناية في (الدوي) بوصف الداء بما هو من لفظه على اعتبار أصحابه هم الداء وهو الطيب الذي مل معالجتهم بعد أن أزمّن ذلك المرض واستعصى معه أي علاج. والكناية الثانية في (كلت النزعة بأشطان الركي) أي ان التعب قد وصل بنازعي الماء مرحلة لا يمكنهم معها الاستمرار، فالصورتان متباعدتان من حيث العناصر الخارجية، متوفقتان في المنحى المعنوي الكامن في العجز عن الوصول إلى الغاية في كليهما بسبب تعذر الاستجابة في كلتا حالتها الطيب باستعصاء الداء عليه، والنازح بمزاولة النوع لاستمرارية إلى ما لا نهاية. فتباعد عناصرهما لم يحل دون الوصول بالتعبير من خلالهما إلى الذروة الانفعالية التي أرادها علي عليه السلام من خطبته على اعتبار إنها جزء من السياق التعبيري ولا يمكن النظر فيها كوحدة ايجائية مجزأة.

تفوّه أحد مخاطبي علي عليه السلام بكلام عظيم كان المتحدث قاصرا عن إدراك أبعاده ومعرفة ما ينطوي عليه من معان، فبادره علي عليه السلام بالقول «لقد طرت

(١) الميداني - مجمع الامثال ٣/ ١٨٢، وارجع مناسبته عنده.

شكيرا، وهدرت سقبا»^(١)، فلقد سلك للتعبير عن موقفه من ذلك القائل أسلوبا كنائيا تضمن ما فحواه ان القائل اصغر من ان يتفوه بمثل ذلك الكلام الخطير، فالكناية لم ترد ضمن السياق لمجرد غاية جمالية، لأنها قد تضمنت من الايحاءات معاني الاستصغار مكتملة، وذلك بالنظر فيها ضمن السياق التعبيري بكل انفعالاته النفسية، فقد تعني الكناية الازدراء بالقائل لكونه يرى في نفسه انه شيء كبير، فيعرف بها لا يعرف، أو قد تعني أسلوبا تربويا يهدف إلى النصح بعدم القاء الكلام على عواهنه من دون تدبر معانيه وابعادها، فالمناسبة مضافا إليها انفعالات علي (عليه السلام) في أثناء اطلاقها، هو ما يمنح الصورة أبعادها البيانية.

وقد تكون الصورة السابقة متناسبة في بعض أجزاءها مع الصورة المتضمنة رد علي (عليه السلام) «على سؤال لبعض أصحابه وقد سأله: كيف منعكم قومكم عن هذا المقام وانتم احق به؟ فقال له: يا أخا بني أسد، إنك لقلق الوضين، ترسل في غير سدد»^(٢)، لأن كلتا الصورتين وردتا في سياقين ضمن رده على متكلمين، مع اختلاف في المناسبة، وفحوة القول من حيث فهم المتكلمين، على الأقل، لتضمنها معنى إطلاق الكلام في غير محله أو مناسبته، فالصورة الثانية كناية أيضاً متضمنة معنى عدم الثبات، بتمثلها ذلك السائل فوق راحلة لم يحكم أربطة رحلها من تحته، ويحاول أن يسدد في رميته وهي سائرة به، ولكن اضطراب الرحل من تحته يحول بينه وبين التصويب المحكم نحو الهدف لعدم قدرته على

(١) حكم-٤٠.. والشكير: أول ما ينبت من الريش الطائر قبل أن يقوى. والسقب: الصغير من الأبل لا يهدر الا بعد ان يستفحل.

(٢) خطب - ١٦٣ - فقرة ١. والوضين: بطان يشد به الرحل على البعير كالخزام للسر. وقلق الوضين: مضطربة. والإرسال: الإطلاق. والسدد: بفتح السين والبدال: الاستقامة.

الثبات فوق ظهر الراحلة، على أساس أن سؤاله ذاك لم يكن في محله لأن مناسبة طرحه غير ملائمة لوضع علي عليه السلام الذي هو في حال مجابهة لمعاوية الذي يعدّه في أدنى سلم الأحقية في الخلافة بالنسبة لمن سبقه من قريش، إذ كان الأحرى بالسائل ان ينظر في هذا الوضع لا يتجاوزه، فمضمون الكناية بما ينطوي عليه من اختزال يعني: ان الوضع الانبي الذي نعيشه احق بأن ينظر فيه ليعالج، لذلك ورد بيت إمريء القيس في السياق ليزيد من تألق الصورة الواردة في مطلع النص ويفتق ما انطوت عليه من إيجاءات: (طويل)

ودع عنك نهياً صيح في حجراته

وهات حديثاً ما حديث الرواحل^(١)

أي إن الأجدى بك أيها السائل أن تنظر معنا في الوضع المزري الذي نعيشه وتترك اجترار احداث الماضي. فصورة اضطراب الركب على ظهر الراحلة بما يكتنفها من حركة، وعدم ثبات، لم تكن لتؤدي هذه المعاني والأفكار لو اننا نظرنا في قيمتها الجمالية بعيدة عن سياقها التعبيري.

وتبلغ الصورة ذروتها في تكثيف معاني الأخبار بالمقولات الصائبة عبر اللوم

في قول علي عليه السلام

«أما بعد، فإن معصية الناصح الشفيق، العالم المجرب تورث الحسرة وتقب الندامة وقد كنت أمرتكم في هذه الحكومة أمري، ونخلت لكم مخزون رأيي، لو كان يطاع لقصير أمر، فأبيتتم عليّ إباء المخالفين الجفافة، المنابذين العصاة، حتى ارتاب الناصح بنصحهم وضمن الزند بقدهم، وكنت وإياكم كما قال اخو هوازن

(١) ديوان امريء القيس ص ٩٤ وللييت قصة طريفة تكاد تناسب فحوى السؤال الذي سأله

الرجل لعلي عليه السلام في مناسبه.

(طويل)

أمرتكم أمري بمنعرج اللوى

فلم تستبينوا النصح إلا ضحى الغد (١)

فقد تألقت الصورتان (نخلت لكم مخزون رأيي) و (ضن الزند بقده) ضمن السياق بما يعني التعبير عن أعمال الفكر وتقليب المواقف والتأمل في الحوادث بعمق وتمحيصها ومن ثم ابداء الآراء الصائبة حولها بكل نزاهة وصدق واخلاص، في مقابل العناد والمكابرة المجلبة للهم المعطلة لجميع الملكات الفكرية. ومناسبة الشعور بمرارة الفشل هي التي ولدت صور الاحباط في سياق النص، ليس بسبب نتائج التحكيم، ولكن لأنها عمدت إلى تجسيد الواقع بكل ما ينطوي عليه من آلام نفسية، طوت في استمراريتها الماضي المأسوف عليه، والواقع المحزن، فالصورتان بانضمامها لبعض تجسدان مشاعر الالم الذي ترزح نفس علي عليه السلام تحته، ليس بسبب النتيجة، بل بسبب من خلقوا تلك النتيجة من اصحابه، وفرضوها عليه وعلى أنفسهم لقصور في نظرهم. ولا يمكن للصورتين ان توحيا بتلك المعاني بما يكتنفها من معاناة ما لم تقترنا بفكرة النص في مناسبه وملابساتها التاريخية التي تعاونت كل الأساليب من خبرية مؤكدة (اما بعد فإن معصية)، وإنشائية تنطوي على معنى التمني الكامن في التضمين بالمثل العربي (لو كان يطاع...) ومن ثم الانتقال إلى الأسلوب الخبري

(١) خطب - ٣٥ - فقرة ٢. والبيت لدريد بن الصمة ورد ضمن قصيدة رثاء في اخية عبد الله وكان سبب قتله انه لم يستمع لنصح أخيه دريد، والبيت في الأغاني ٨/٤ وفي ديوان دريد ص ٤٧، ويكاد البيت في مناسبه ان ينطبق على مخالفة أصحاب علي عليه السلام لنصحه في قضية التحكيم، فكانت النتيجة خسارتهم وندمهم، وبشأن المثل (لو كان يطاع...) راجع ص ٦٩٥ وما بعدها من هذا البحث.

لتعزيد ما في الخطبة من لوم بالاستشهاد ببيت الشعر المتضمن شحنات الأسي الرازحة تحت وطأة الحزن.

وخيال علي عليه السلام من الخصوبة ما يتيح له من الصور الموائمة لجل مواقفه القولية وفي كل الحالات التي تتطلب استحضر المشهد أو تجسيد المناسبة، من ذلك تشبيه التمثيل^(١) المتضمن وصفه لحالة أصحابه بعد أن أجبروه على وقف القتال في صفين، في حين لم يبق بينهم وبين النصر سوى قاب قوسين أو ادنى، وفيه يقول «اما بعد يا أهل العراق، فإنما انتم كالمرأة الحامل، حملت فلما اتمت املصت، ومات قيمها، وطال تأيمها، وورثها بعدها»^(٢)، فالصورة من الوضوح وقوة الدلالة ماهي في غنى عن تفكيك عناصرها إذا ما وضعت في سياق الخطبة التي وردت فيها، واصفة الملامح العامة لحالتهم وما سيؤول إليه مصيرهم جراء ايقافهم القتال بعد ان كادت المعركة تحسم لصالحهم مثلهم في ذلك المرأة الحامل ومصيرهم سيكون كمصيرها في الخسران والندم والضياح والذل.

فالصورة في نسيج النهج سلسلة طيعة غايتها إجلاء غموض الأفكار وتجسيد الأحداث في مناسباتها، لذلك لا يمكن إدراك تأثيرها إلا من خلال تأملها مندجة في سياقاتها مرتبطة بالأساليب المتكاثفة معها لإبراز الأفكار التي عادة ما يحاول علي عليه السلام توصيلها لسامعه أو لقارئه بكل ما أوتي من براعة إقناعية، وقدرة بيانية، بتضام اللغة مع الخيال مع العوامل النفسية المتولدة من المناسبة في

(١) تشبيه التمثيل - وهو ما كان وجه الشبه فيه صورة منتزعة من متعدد أمرين أو أوامر، هذا هو مذهب جمهور البلاغيين في تعريفه، ولا يشترطون فيه غير تركيب الصورة، سواء أكانت العناصر التي تتألف منها صورته أو تركيبته حسية أو معنوية، وكلما كان عناصر الصورة أو المركب أكثر كان التشبيه أبعد وأبلغ. عبد العزيز عتيق - علم البيان ص ٨٥.

(٢) خطب - ٧٠. المطلع. واملصت: اسقطت والقت ولدها ميتا. وتأيمها: خلوها من الزوج.

كل متكامل من حيث القوة والرصانة والخيال المتعقل الذي ينأى بالأفكار عن جفاف التجريد.

٢- خصائص الصورة في نهج البلاغة:

من ابرز ما تتميز به الصورة في نهج البلاغة الربط المحكم بين التجسيد والحركة، أي أن الصورة متطورة من الداخل، إذ يشعر قارئها أو سامعها في قرارة نفسه بالمنظر المناسب في نسيج النص مقترنا بكل ما يحيط به من علاقات تختص به، بحيث يمكن للمتأمل فيه من خلال التعبيرات المشكلة لمعالمه ان يضع له تصورا كاملا في مخيلته على شكل لوحة متكاملة نابضة بالحياة، فمهما كان نوع العبارة التي يوظفها علي عليه السلام في تدبيج صورته، فإن احساساته المرهفة، وعواطفه الجياشة تضيء عليها من الصدق والحرارة والايان ما يمنحها استمرارية التأثير والتجسيد أطول مدة ممكنة، فالصورة في قوله لأصحابه «كم أداريكم كما تداري البكار العمدة، والثياب المتداعية، كلما خيطت من جانب تهتكت من اخر»^(١)، قد جمع شتاتها من عناصر مختلفة، لاءم فيما بينها، لما تمتاز به من خصائص تكاد تكون مطابقة للوقع الذي يشعر به في قرارته بجامع الصفات المظهرية التي تبهر وتغر إزاء الجوهر الزائف، في كل من رجاله الذين يحاول الاعتماد عليهم وبين ما تضمنه التعبير التصويري من الصفات المظهرية والخصائص الجوهرية، فجزئيات الصورة أثناء المشاهدة العادية قد لا تثير الانتباه، وإن عرف الناظر فيها ما في الابل من عيب، وما في الخرق البالية من عدم فائدة، إلا أن نظرة

(١) خطب ٦٨.. والبكار: على وزرن كتاب: جمع بكر، الفتى من الابل. والعمدة: بفتح العين وكسر

الميم التي تأثر سنامها من الداخل من أثر الركوب ويبدو سليمة في مظهرها.

علي عليه السلام المتأمل في عمق خصائصها في أثناء انقذاح فكره، قد بث فيها الحيوية والتجسيد، جراء ادخالها في مقارنة تتناسب وخصائصها، وتلك من مميزات العبقرية التي «تجد الصورة المعمول فيها كلما كانت اجزاؤها اشد اختلافا في الشكل والهيئة، ثم كان التلاؤم بينها مع ذلك اتم والائتلاف ابين، كان شأنها اعجب والحذق فيها اوجب»^(١). فقد لاءم علي عليه السلام في الصورة بين الخرق المتداعية والجمال المعيبة رغم اختلاف عناصر الصورتين.

فالصورة في النهج متألفة دائما من حيث البناء الفني والثراء الإيحائي في جميع الاغراض مهما كان نوع عناصرها المكونة، ففي موضوع الزهد المستوعب للكثير من النصوص فيه، يصور علي عليه السلام الدنيا - من وجهة نظره - بصورة في منتهى البشاعة والتقرز في قوله «والله لندياكم هذه اهون في عيني من عراق خنزير في يد مجذوم»^(٢) فقد لاءمت الصورة بين كرش الخنزير وهو اكره الحيوانات وانجسها من وجهة نظر الإسلام، وبين ماسكه المصاب بداء الجذام، مما احال تلك الملائمة إلى منظر يقشعر له البدن، وتتقرز منه النفس وقد استطاعت تلك الصورة البشعة ان توصل إلى السامع أو القارئ القيمة الحقيقية للدنيا كما يراها علي عليه السلام، بالمجازة بين عنصرين غاية في الغرابة والبعد هما (عراق الخنزير ويد المجذوم).

وفي تصويره لتقاعس أصحابه ضمن لومهم وعتابهم يقول «ما يدرك بكم ثار ولا يبلغ بكم مرام، دعوتكم إلى نصره أخوانكم، فجر جرتم جرجرة

(١) الجرجاني - أسرار البلاغة ص ١٣٦.

(٢) حكم ٢٣٥.. والعراق: بكسر العين، العرق الخبيث وهو من الحشا من فوق السر معترضا البطن. والمجذوم: المصاب بوباء الجذام، هو من أخطر الأوبئة المعدية ومن مظاهره تساقط أطراف الجسم.

الجمال الأسر، وثاقلتم ثناقل النضو الأدبر، ثم خرج الي منكم جنيد متدائب ضعيف»^(١)، فالصورة لم تقتصر على إبراز النواحي المادية المنظورة، فقد قرنها علي عليه السلام بالصوت المقرون بالحركة، كتعبير عن معاني التخاذل والخنوع والخوف والذل، كل ذلك بالمجازة بين الأشياء المادية والمشاعر المعنوية بإضافة الجرجرة إلى الجمال الاسر تصويرا للغط تلك النفوس الخاوية المريضة وضوضائها وملاحقة لتجسيد ذلك التخاذل بألوان قاتمة ورد التصغير في السياق موصوفا بالضعف لإبراز معاني التحقير والازدراء التي تتزاحم بها نفسه، مما اكسب الصورة كل الأبعاد الإيحائية التي كانت نفس علي عليه السلام ترزح تحت وطأتها في أثناء تفاعله مع الموقف وبلورته في افكار. فالتركيب داخل الصورة من الدقة ما يجعله يستقصي كل ما تحتاجه من جزئيات لتوظيفها في اطار الفكرة، فهي بمثابة اللوحة البالغة التكثيف في نقلها لتصورات علي عليه السلام النفسية في أثناء ابتعاث الكفرة من أعماقه، فهي تتميز بإبداع يجعلها مهما تناهت في جمع شتات الجزئيات المحسوسة وتمكين الخيال من تجميعها في إطار واحد، إلا أنها خاضعة لسُلطان العقل مستكنة في الفكرة المحورية للنص.

يقول علي عليه السلام «أيها الناس، شقوا أمواج الفتن بسفن النجاة، وعرجوا عن طريق المنافرة، وضعوا تيجان المفاخرة، أفلح من نهض بجناح، أو استسلم فأراح، هذا ماء أجن ولقمة يغص بها آكلها، ومجنتي الثمرة لغير وقت إيناعها،

(١) خطب - ٣٩. والجرجرة: صوت يصدره البعير من حنجرته تعبيراً عن الألم أو احتجاجاً عند عسفه. والجمال الأسر: المصاب بداء السريرة وهو وجع يأخذ البعير في مؤخرة كركرته من دبره، أو قرح يكاد ينقب جوفه. والنضو: المهزول من الأبل. والأدبر: المصاب بالدبرة قروح أو جروح في ظهر الجمال وسنامه، يستعصي معها استخدامه للركوب.

كالزراع بغير أرضه»^(١) فلقد تألقت ضمن الفقرة صور متكونة من جزئيات متناثرة من عناصر شتى، بتجميعها مع بعضها بعضا تتناسق الفكرة وتتضح معالمها، فلقد استعار الامواج وكنى بها في حركته المضطربة بالفتن وما تحدثه من اضطرابات خطيرة في المجتمع، واستعار سفن النجاة كتعبير عن طريق الخلاص من تلك الفتن، بالصبر عليها، والمهادنة لها حتى تخف حدتها أو تزول وكنى بطريق المنافرة، عن المهارات الكلامية المشحونة بالتحدث فيما لا طائل من ورائه، ثم أورد في السياق الأمر بوضع تيجان المفاخرة كناية عن الابتعاد عن الزهو الكاذب المستكن في طياته البغض والكراهية والاحتقار كعادل هدم تفت من عضد المجتمع، واستعار الجناح ليكني به عن الأنصار الذين يعول عليهم ويعتمد على مساندهم في تخليص الحق بعد فهمه وفهم ابعاده فهما بينا، وذلك في مقابل الاستسلام والركون إلى الدعة، فيما لو لم يوجد مثل أولئك الأنصار المخلصين، ثم شبه الأمر المتنافس عليه بالماء الآجن الذي لا يستساغ شربه، واللقمة الجشبة التي قد تؤدي بمزرددها إلى الهلاك، وهو يقصد بذلك الخلافة كمطلب دنيوي مشوب بالكدر والالم، لما تنطوي عليه من مسؤوليات جد خطيرة، لا يمكن ادراك ابعادها، لا كما يراها من يحاولون اثاره الفتنة والتكالبون عليها كمفخرة وسيادة وشرف ورفعة، ثم يعول على المثل التصويري في قوله «ومجنتي الثمرة لغير وقتها كالزراع بغير أرضه»، مكنيا بذلك عن عدم ملائمة المناسبة للمطالبة بما يراه حقاله في الخلافة لكون ظروف الإسلام في ذلك الوقت لا تسمح بذلك، فهو محتاج إلى التآزر في تثبيت دعائمه وشد قواه، أكثر من حاجته إلى التناحر من أجل ما قد يعتبره منافسوه غايات

(١) خطب - ٥.. والماء الآجن: المتغير الطعم واللون لا يستساغ شربة والإشارة إلى الخلافة.

دنيوية ومطامع فردية والتشبيه في صورة قاطف الثمرة قبل نضوجها بالزارع في غير ارضه يجمعها عدم الافادة في الموضوعين، والفكرة من تتابع الصور وانصهارها في بوتقتها الموحدة تعني في نهاية الأمر رده الصريح القاطع على اقوال أولئك الذين يحاولون تحريضه على الثورة من أجل الخلافة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، واستقرار الأمر لابي بكر دونه، فتركيب العناصر غير المتجانسة من بحر وسفن وتيجان وطير وثمر، بالتوحيد فيما بينهما ينم عن التوحد النفسي في المجانسة بين الأشياء من خلال النظر إليها في الطبيعة الكونية كبوتقة تنصهر فيها المتناقضات التي يحاول الفكر التوحيد فيها بينها بإعادة صياغتها متكاملة منسجمة، مما يعني أن تلك الجزئيات التصويرية هي في حقيقة وضعها ضمن سياق النص، ما هي إلا عناصر فكرية صغرى إذا ما ضمت لبعضها البعض فإنها تشكل الكل، أو الفكرة الأساسية التي تكاد تستحوذ على لب علي عليه السلام ونفسه أثناء العملية الإبداعية.

لذلك فليس من الضروري أن تكون الصورة ضمن الفكرة معتمدة في بنيتها التكوينية على عناصر الطبيعة المرئية المحسوسة، إذ قد يعتمد علي عليه السلام إلى ما يمكن تسميته بالصور الوصفية، كعقل خلاق يسعى إلى التأمل في الكون جريا وراء الحقيقة، وذلك بتصوير المواقف الماورائية عن طريق شحذ طاقات اللغة لتتمكن من تجسيد المواقف، اعتمادا على تداعي الافكار، وما يسمى حديثا بالحوار الداخلي، وتوظيف العناصر النفسية باستعراض شريط الذاكرة، ويتكرر مثل ذلك التصوير كثيرا، في عرضه لصفات المؤمنين^(١)، أو في وصفه

(١) راجع خطب: ٨٦، ١٨٧.

لحال الدنيا وعلاقتها بالإنسان^(١)، ويبلغ ذروته في وصفه لحالة الموت وتدرج سريانه في الجسم كما في قوله «وانه لبين أهله، ينظر ببصره، ويسمع بأذنه على صحة من عقله، وبقاء من لبه، يفكر فيم أفنى عمره، وفيم أذهب دهره، ويذكر أموالا جمعها أغمض في مطالبها، وأخذها من مصراتها ومشتبهاتها، قد لزمته تبعات جمعها، وأشرف على فراقها، تبقى لمن وراءه ينعمون فيها، ويتمتعون بها، فيكون المهناً لغيره والعبء على ظهره، والمرء قد علقت رهونه بها، فهو يعرض يده ندامة على ما أصحح له عند الموت من امره، ويزهد فيما كان يرغب فيه أيام عمره، ويتمنى أن الذي كان يغطه بها ويحسده عليها، قد حازها دونه، فلم يزل الموت يبالغ في جسده حتى خالط لسانه سمعه فصار بين أهله لا ينطق بلسانه، ولا يسمع بسمعه: يردد طرفه بالنظر في وجوههم، يرى حركات ألسنتهم، ولا يسمع رجع كلامهم، ثم ازداد الموت التياطا به، فقبض بصره كما قبض سمعه، وخرجت الروح من جسده، فصار جيفة بين أهله، قد اوحشوا من جانبه وتباعدوا من قربه، لا يسعد باكيا، ولا يجيب داعيا»^(٢)، فالتصوير البياني لم يعد محتاجا إلى الارتكاز على الاستعارات المعتمدة على استجلاب صور المشابهة من أجل تجسيد الواقع، فقد استطاعت الكلمة بما تزخر به معان وطاقات ان تستقطب كل معاني الفكرة بالتنقل في جميع أجزائها، من صراع داخلي ينتاب المحتضر يتمثل في استعراض شريط حياته وما يكمن في ذاكرته من صور، وما يتخلل ذلك الاستعراض من انفعالات الخوف والالم والحزن والرغبة، مع تمثله للأقارب والأهل والأصدقاء من حوله ونظراتهم المختلفة

(١) راجع خطب: ٨١، ٢١٨، ٢٢٣.

(٢) خطب- ١٠٨، فقرة ٣.

إليه، وامتزاج ذلك بوصف دقيق ووئيد لحالات الموت منذ بدايتها، وملاحقتها لحظة بلحظة، ومزجها بكل الانفعالات الشعورية الدقيقة من خلال نفسية المحتضر، وانعكاساتها المتولدة على الموقف من حوله، بالتنقل في الزمن، بين ماضي وحاضر ومستقبل تكاد تكون ابعاده ماثلة ومتقاربة، مما يدخل في النفس رهبة وقشعريرة تبقى ماثلة للفكر، منغرسه في الأعماق فالعبارة الوصفية بما يكتنفها من ايجاءات تشخيصية، اطلقت الكلمة من عنانها القاموسي في فضاءات خصبة من المعاني التصويرية الكامنة فيها.

فالخاصية المميزة للصورة في أسلوب علي (عليه السلام) بشكل عام، عمقها التأثري الكامن في حيويتها المعبرة عن صدق تفاعله مع الكلمة، وعمق اندماجه في الفكرة ومتانة إيمانه بما يعتلج بداخله، والإلاح الداخلي القوي من أجل توصيل تلك الطاقات الإيمانية بحرارة وحماس بعيدين عن أي تصنع وافتعال، ما يمنح الصورة ميزة التجسيد وديمومة التأثير. سواء كانت تلك الصورة تعتمد على انحراف المعاني بتوجيهها ناحية الوصف المستلهم من جزئيات الواقع، أو من خلال تفجير ما في الكلمة من طاقات معنوية وتوجيهها تصويريا، وفي كل الحالات يبقى قاموس الصورة ذا طابع مميز من حيث العناصر التي يتكون منها.

٣. عناصر مكونات الصورة في نهج البلاغة:

لكل أديب أو فنان عناصره الخاصة المميزة لإبراز تفردته في مجال فنه، إذ بإمكان التأمل في لوحة أصلية أن ينسبها إلى المدرسة التي تنتمي إليها، ومن ثم إلى الفنان الذي رسمها، وذلك من خلال معاشته لوحاته والتأمل في طريقة مزج ألوانه، وضربات ريشته. وهكذا الموسيقى الفذ، يمكن للأذن الموسيقية

بحسبها الفني أن تميز جملة ومقاطعته وتردها إلى شخصه من بين معزوفات غيره. وللأديب الفذ أيضاً قاموسه الفني الذي يمتح منه لتدبيح لوحاته وحياسة صورته وتأملاته. وفي كل الاحوال بالنسبة للرسام أو الموسيقي أو الأديب، أو المفكر، فإنه لا يستطيع ان ينفلت من بيئته أو ينسلخ من جلده في أثناء العملية الإبداعية التي تمتلك عليه لبه وتنقله بكل احساساته إلى عالم تصطرع فيه الأفكار ضمن البوتقة التي يعيش فيها. وإذا ما حاولنا تطبيق مقولتنا هذه على ما ورد في نهج البلاغة من صور بلاغية، مهما اختلفت في تركيبها ومزج ألوانها، فإن عناصرها الأساسية لا تكاد تخرج عن البيئة العربية التي عاش فيها علي عليه السلام. فمهما تناهت الصورة في تجسيدها لأفكار علي عليه السلام، فإن البيئة العربية هي الام التي تحتضنها، لأن المفردة اللغوية التي استخدمت في ابرزها هي في الغالب مأخوذة من تلك البيئة، سواء أكانت تعبر عن الطبيعة من حيوان، كالإبل والذئب والضباع وغيرها من طيور وأفاع، أم طبيعة صامتة كالجبال، والصخور، والرمال، والسيول، والشجر والمراعي والدمن، أم أدوات، كالرعى، والاداة والحبال والركي، أم عتاد، كالسيوف والسهام، أم عادات، كالرهان والسباق وما ينتج عنهما من فوز أم خسارة، أم ظواهر طبيعية، كالرعد والبرق، والعواصف والأمواج، أم أوبئة وأمراض، كالجرب، والجذام والسريرة، وغيرها. إلا أن توظيف تلك العناصر في تكوين الصور بفكر صافٍ بعيد عن جفاوة البداوة، وبما ادخلته أساليب القرآن الكريم من أثر فيها، وما أضفى عليها الإيمان القوي الملتمزم من حيوية نأى بها عن الصعوبة والصلافة والحوشية، كما أن تكرار تلك العناصر بينائها الفني في نصوص متعددة لم ينل من قيمتها البلاغية ولم يجد من تأثيرها أو يطفئ جذوتها.

فصورة الرعى وقطبها في قوله «وهو يعلم محلي منها محل القطب من

الرحى»^(١) هي تعبير عن الأهمية العظمى في سياق الفخر، أما صورة الرحى في قوله «إنما قطب الرحى، تدور علي وأنا بمكاني، فإن فارقته استحار مدارها»^(٢) فإنما يعني هنا بالرحى الدولة، ومكانته فيها باعتباره القطب الذي تركز عليه في دورانها كقائم بشؤون الدولة الأساسية الهامة التي تتطلب منه التواجد في العاصمة لمراقبة كل صغيرة وكبيرة والمباشرة في انجاز كل ما تحتاجه الدولة من مهام سياسية واقتصادية واجتماعية وقضائية وعسكرية، وليس من مهامه الخروج في كتائب صغيرة لرد الغارات الخاطفة التي يشنها معاوية على اطراف بلاده، وانما ذلك من مهمات من يوكل إليهم من قادته الذين يعتمد عليهم.

أما قطب الرحى في قوله لعمر بن الخطاب «كن قطبا واستدر الرحى بالعرب»^(٣) فإنما يعني بالرحى، كما يبدو في السياق الخطابي الذي وردت فيه، هي الحرب واشتداد لظاها والصورة قد وردت ضمن رد علي عليه السلام على استشارة من عمر بشأن ازماعه على مواجهة الفرس بنفسه، فإضافة القطب إلى الرحى يعني في مضمونه بقاء القائد أو الخلفية في مركزه الذي يحفظه كرمز للدولة، لأنه إذا ما قتل فإن ذلك سينعكس على معنويات جنوده ويقوي من عزيمة الأعداء في الاستبسال للوصول إليه وقتله لا لشخصه بل لمكانته وأهميته كخليفة.

كما قد يريد من القطب في السياق من دون اضافته إلى الرحى، التعبير بدقة عما يجول بنفسه إزاء الموقف الذي هو بصدد الكلام فيه بقصد شرح ابعاده وتبيان خطورته كما في وصفه الفتنة التي سيحدثها الأمويون والتي يقول

(١) خطب-٣.فقرة ١.

(٢) خطب- ١١٨.

(٣) خطب: ١٤٦.

ضمنها «راية ضلال قد قامت على قطبها»^(١)، أي انبثقت من مركزها الثابت لتعم كل نواحي البلاد بالدمار والظلم.

فتكرر الصورة أو بعض عناصرها للتعبير عن فكرة ما أو ما يجري مجراها في نصوص متعددة، ترمي إلى إبراز عناصر فكرية متوحدة، يعني في حد ذاته، سير تلك النصوص في بنائها الفني على نسق خاص، نابع من مصدر واحد مثلها في ذلك مثل السمات الدقيقة المميزة لشخص من دون آخر في تعامله مع الآخرين من حيث الأسلوب والطريقة في الكلام والعمل والتصرف، ولا يمكن ادراكها وملاحظتها الا بالمران جراء كثرة الاحتكاك والتعامل مع الاساليب المختلفة.

والتكرار في صور النهج لا يقتصر على الرحي، وعناصرها، إذ يمكن ملاحظة التكرار في صورة الابل وتزاحمها على المياه في أثناء عطشها في التعبير عن مواقف مختلفة، وصورة الماء ومتعلقاته وأهميته في البيئة الصحراوية^(٢)، وصورة الحياة الدنيوية على أنها رحلة انتقال وظل زائل وآفل^(٣)، وتكاد جل صور النهج ان تجدها مثلاتها أما من حيث التركيب، وأما من حيث اشتراكها في بعض العناصر في عدة نصوص، إضافة إلى استخدام المفعول المطلق تعبيراً عن المماثلة في الكثير من صور النهج، كما ورد في تصوير حال الناس زمن الفتن

(١) خطب ١٠٧، فقرة ٤. وراجع أيضاً بشأن صورة الرحي وقطبها خطب ١٥١، فقرة ٢، وخطب ١٦٥.

(٢) راجع خطب ٣. فقرة ٢، وخطب ١٦ فقرة ١، وخطب ٢٨، وخطب ٣٤، وخطب ٣٩، وخطب ٥٣، وخطب ٨٦، فقرة ٤، وخطب ٩٦ فقرة ٣. وبالنسبة لأهمية الماء وحده كصورة. راجع خطب ٤، وخطب ٥ فقرة ١، وخطب ١٧ فقرة ٢، وخطب ٢٣ فقرة ١، خطب ٢٥ فقرة ٢.

(٣) راجع خطب ٤٥، ٥٢، ٦٢، ٦٣.

٧٢٢ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

والتكالب على المقتنيات الدنيوية «يتكادمون فيها تكادم الحمر في العانة»^(١)، وفي تصوير حياة الإنسان الانتقالية وسرعتها «كأنكم بالساعة تحذوكم حدو الزواجر بشوله»^(٢).

وتكرار مثل تلك الصور أو بعضها من عناصرها في نصوص النهج المختلفة لم يفقدها تألقها، ولم يجد من وظائفها في إبراز المعاني وتجسيدها ضمن تلك النصوص، لكون حيويتها لا تكمن في عناصرها الظاهرة بل امتزاجها بروح علي عليه السلام وفكره، وتبوء مكانتها ضمن نصوصها في سلاسة وانسجام من ناحيتي البنية والايحاء، مما يجعل وقعها في النفوس عميقاً ومؤثراً لكونها تعمد إلى إجلاء الفكر بإحالاته إلى «لوحات فنية لها خطوطها وأشكالها وألوانها، فإذا بك في عالم زاخر من روائع الفن تتماوج به صور وموسيقى وانغام والوان»^(٣).

٢- أهم المميزات الخاصة بالموسيقى

في نهج البلاغة

لا نسعى في هذا الجانب من الدراسة إلى تتبع الاساليب البديعية التي وردت في النهج فقد كفانا مؤونة البحث عنها وتبيانها شراحه من أمثال ابن أبي الحديد،

(١) خطب ١٥١-فقرة ٢. ويتكادمون: يعرض بعضهم بعضاً. والعانة: القطيع من حمر الوحش.

(٢) خطب ١٥٨-فقرة ٢. والزواجر: الذين يزجرون الأبل لسوقها ومفرده زاجر. والشول: النوق التي جف لبنها ومفرده شائلة على غير قياس. والحدو: سوقها والغناء لها. ويمكن ملاحظة مثل ذلك التعبير أيضاً في خطب ٣٩، وخطب ٤٢، وخطب ٤٧، وخطب ٥٢، وخطب ٥٣، وخطب ١٠٧ فقرة ٤، ٥.

(٣) جرداق- علي عليه السلام صوت العدالة ١/٤٦.

وابن ميثم البحراني في شرحيهما المطولين، فأبرزنا كثيراً من النواحي الجمالية البديعية التي اكتسبت بها كثير من نصوصه. لذلك فإننا سنضرب عن تتبع ما جاء في النهج من بديع صفحا وسنحاول بدلا منه ابراز ما للكلمة ضمن نسيج نصوصه من إيقاع في أثناء انسيابها ضمن نظام معين تميز به أسلوب علي (عليه السلام)، خاصة وأن انتشار نوع من البديع بكثرة، وندرة نوع آخر منه في أسلوب بعينه لا يعني شذوذا في القاعدة العامة التي انبنى عليها ذلك الأسلوب إذا كان ثمة ما يحتم ذلك، شريطة ان يكون الاستخدام متوائما وطبيعة الأفكار، آخذا بنصيبه فيها الحد المعقول الذي ينأى به عن اعتباره غاية في حد ذاته، مع اعتبار أن خصوصية الكلمة في الأدب الملتزم تتبع أساسا من قيمتها التأثيرية، ولن يتأتى لها ذلك، إلا إذا وردت في سياقات النصوص متخذة أبعادا تخصصية، منها ملائمتها للفكر المطروح من خلالها، وتناسق حروفها من حيث النطق والسمع، وانسجامها من حيث التركيب الأسلوبي في النسق الذي ترد فيه، هذا بالإضافة إلى نفحات العاطفة التي تنبث فيها بما يتلاءم وموضعها في السياق، خاصة إذا وضعنا في الاعتبار أن الأدب الهادف يرمي إلى الاقناع والتأثير، مما يحتم عليه التحدث إلى العقل والتأثير في النفس في آن واحد، فالعقل محتاج من عبارات النص إلى ما هو مقنع منطقيا، والنفس محتاجة إلى بث قدر من العاطفة التي عادة ما تعتمد إلى بث الحيوية في الأفكار وتحسين وجهها بالنأي بها عن جفاف المنطق ليتمكن المتلقي من استساغتها، والنزوع نحو ما تحويه من قيم، وبين العنصر العقلي والعامل النفسي الابداعي ينساب الأثر الإيقاعي بجميع أبعاده كمحرك للمعاني في النفس آخذا بالكلمات نحو نسق معين يسعى بها إلى الإقناع الطوعي من دون إكراه ولا معاضلة، أو تصنع وهنا يبرز دور المفكر الملتزم كمبدع، لا يرمي إلى طرح الأفكار فحسب، بل يضع في اعتباره أيضاً

توصيل تلك الأفكار، بما تنطوي عليه من طاقات اقناعية وشحنات تأثيرية.
فتنسيق الأفكار وصياغتها في قوالب اقناعية بمزجها بما يلائمها من عاطفة
وارسالها في جمل ذات وقع نفسي ملائم للمناسبة يعني الامتزاج التام بين الفكر
الواعي والتخيل المتند في أثناء العملية الإبداعية، إذ لا بد من فكر متوقد له القدرة
على استغلال كل ما حول المناسبة من عناصر وتوظيفها في الفكرة المارد طرحها،
ومن ذلك التوظيف المحكم تتولد طاقات النص الإيقاعية - وفي اعتقادنا ان
نصوص نهج البلاغة قد حوت في بنائها الفني مجموع العناصر الجمالية التي
تحتاجها الفكرة بغاية الوصول إلى متلقيها.

فإذا أخذنا الجانب الموسيقي، وما يحدثه من أثر في النفس فلا بد لنا من العودة
إلى تنسيق الجمل في النصوص، والذي فحواه التناسب الكمي في عدد الكلمات
المكونة للجمل ضمن الأفكار الجزئية^(١)، وهذا التناسق - بطبيعة الحال - قد
ولد نوعاً من موسيقى الفواصل الصادرة نغماتها، أساساً، من الدعوات الفكرية
الناعبة من المناسبة، والمقترنة بأسلوب التوصيل حسب مقتضى المقولة الشائعة
(لكل مقام مقال) فالمقام المولد للمعاني الفكرية، هو أيضاً المولد لكل ما يحيط
بتلك المعاني من إحياءات ونغم. وهو ما يمكن تتبعه في أساليب النهج المبنية على
فكرة واحدة في مناسبات مختلفة، وليكن الفخر في مناسباته مثالنا.

يقول علي عليه السلام «أما والله ان كنت لفي ساققتها، حتى تولت بحذافيرها، ما
عجزت ولا جنبت، وان مسيري هذا لمثلها، ولأنقبن الباطل حتى يخرج الحق
من جنبه. مالي ولقريش، والله لقد قاتلتهم كافرين، ولأقاتلنهم مفتونين، واني
لصاحبهم بالأمس، كما انا صاحبهم اليوم، والله ما تنقم منا قريش الا ان الله

(١) راجع ص ٦٧٨ وما بعدها من هذا البحث.

اختارنا عليهم، فأدخلناهم في حيزنا»^(١). فالفكرة مجتزأة من خطبة يحاول علي عليه السلام من خلالها بلورة موقفه من طلحة والزبير ومن شايعهم من قريش إزاء الفتنة التي ازمعوا على احداثها في الدولة الإسلامية وقد تضمنت نوعاً من الفخر الديني المتسم بالحزم والصرامة، تلافياً للانشقاق، ومن الملاحظ ان الفواصل قد اتخذت نسقاً يتراوح بين الطول والقصر المبني على النتائج والمسببات، فتولد عن ذلك نوع من الجرس المتناسق، ذي النبر القوي، البعيد عن الرتابة، فجاءت السجعتان في (ساقتهما، بحذافيرها) متناغمة تماماً مع (مثلها)، رغم التفاوت في الكمية الصوتية بين الثلاث كلمات المتقاربة وزناً، كما ان النقلة إلى الشق الثاني من الفكرة، لم يفصمها عن سابقتها حين غير من نسق الحديث في أثناء تدفقه من صيغة الأخبار إلى صيغة التعجب المقرون بالقسم والمربوط بين جزئيه بالنغمة المسجوعة التي وردت متوائمة في جرسها مع ما قبلها من حيث تدفق الحماس المتولد من الفخر المتمثل في قوله «مالي ولقريش... كافرين... مفتونين»، وقد وردت المقابلة بين الامس واليوم في السياق لتضفي على البعد المعنوي الكامن في التاريخ، بعداً نغمياً تأملياً، داخل بين الازمان ساعة وقوع الحدث بتبادل المواقف من خلال تبادل في عملية الضمائر في قوله «اختارنا عليهم، فأدخناهم في حيزنا»، على ان الاختيار مفروض، مما يعني ان الادخال لم يكن بالنسبة لقريش الا بقوة ومن غير اقتناع، فأسلوب الفخر الكامن في العبارة لم يخرج

(١) خطب - ٣٣ - فقرة ٣، ٤. وساقه القطيع: مؤخرته، شبه أمر الجاهلية بقطع من الغنم فقال: اني سقتها ولم ازل اسوقها حتى تولت بأسرها ولم يبق شيء منها، لم أعجز ولم أجبن، وإن مسيري لطلحة والزبير ومن شايعها الآن لهم مثلها. فلائقبن الباطل: شبه الباطل بشيء قد اشتمل على الحق وصار الحق كالشيء المستتر فيه، فاقسم لينقبن الباطل: أي ليحدث فيه فتقاً كي يخرج ما استكن فيه من حق خفي.

عن نطاق المعاني الدينية المتسمة بالحسم والحزم، مما أدى إلى اكتساب المفردة اللغوية نوعاً من الموسيقى المتجانسة مع طبيعة الموقف الحماسي تجاه التمرد، حيث بقيت العبارة محافظة على توازنها آخذة من جو المناسبة ما يلائمها من نغم، مكتفية بالنهل من البديع الايقاعي ما يحتاجه المعنى، أي إن ذلك الوزن بتموجاته المندفعة وترددات النفس قد انسأب في نسيج النص طواعية، فأضفى على المعاني روحاً من الحماس المترن فلم يفقد الفخر بداخله نغمته الدينية.

وفي مقام ثانٍ يفتخر علي عليه السلام قائلاً «فقمتم بالأمر حين فشلوا، وتطلعت حين تقبعوا ونطقتم حين تعتصوا، ومضيت بنور الله حيث وقفوا، وكنت أخفضهم صوتاً، وأعلاهم صوتاً فطرت بعنانها، واستبددت برهانها، كالجبل لا تحركه القواصف، ولا تزيله العواصف لم يكن لأحد في مهمز، ولا لقائل في مهمز»^(١)، وقد اقتطعنا الفقرة من خطبة يصف علي عليه السلام فيها حاله منذ توفي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإلى آخر وقت انجلت فيه نتائج واقعة النهروان^(٢) وقد اقتضى المقام جانباً من الفخر الديني أيضاً، وذلك بعد أن قضى على فتنة الخوارج التي شلت قواه ومنعته من القضاء على فتنة معاوية ومن شايعه من القرشيين لذلك فقد وردت العبارات الفخرية فيها متدفقة حماساً، فانعكس ذلك التدفق على طول الجمل فوردت متناسبة في فواصلها متوحدة في جرس الكلمات المتقابلة في

(١) خطب ٣٧.. وتقبعوا: اختبأوا وضده تطلعوا. والتعتة: التردد في الكلام من عي أو حصر. واعلاهم صوتاً: سبقهم إلى القيام بالمهمات والمبادرة إلى عمل الخيرات. وأخفضهم صوتاً: أي عمل في هدوء ودون تظاهر وزهو بها أعمال، وهو كناية عن التواضع ونفي الزهو والكبر. فطرت بعنانها واستبددت برهانها: أي سبقتهم وانفردت بالرهان أي الجائزة.

(٢) النهروان - مكان المعركة التي قاتل فيها على الخوارج سنة ٣٧ هـ. راجع بشأن المعركة وتاريخها.

الجملة الأربع التي وازن السجع بواو الجمعة في نهاية كل واحدة منها، في مقابل ضمير المتكلم كنغم متداخل لتبيان التناقض قولاً وعملاً بينه وبينهم على قاعدة دينية لم يحد عنها قيد انملة. ولإبقاء الأسلوب مستمراً في تدفقه وحيويته النغمية، وردت الفاصلتان القصيرتان المكللتان بالجناس الناقص في (صوتا، فوتا) لتنقل نغمة الفخر إلى نبر أعلى من حيث الجرس والفاعلية والإنطلاق وتدرجاً في الوصول بالنغم إلى ذروة الحماس، يطلق علي (عليه السلام) للكلمة حريتها لتساح في فضاءات أوسع بتعليق العنان بالطيران، والرهان بالاستبداد على اعتبار ارتباط سرعة الانجاز بالكسب المؤكد وذلك عن طريق بناء الفاصلتين على الجناس الناقص في قوله (عناها - رهاها) والاختصار الفائق في تصوير السرعة المقرونة بالقوة والثبات الكامنتين في الجرس القوي المولد عن استخدام كلمات هادرة ذات حروف إذا تتابعت في نسق الكلمة الواحدة فإنها تبعث في حناياها معاني القوة والضخامة، الكامنة في تحدي (العواطف والقواصف) كجمعي تكسير يدلان على الكثرة وينطويان على معاني التدمير والازالة، فالتموج المتصاعد في الأسلوب والمقرون بالجملة المتفاصلة نغمية، لم يكن وليد الافتعال أو التصنع لأنه تصوير صادق لحالة إيجابية واعية، فارضة نفسها على النص جراً المناسبة، معبرة عن مدى الاندماج في الموقف، والتفاعل مع الحدث. فالفكرة هنا مبنية على الفخر الديني أيضاً، ولكن المناسبة هنا اقتضت التعبير بأسلوب فيه حزم وتبرير: والحزم في عدم التهاون على الإطلاق مع الخارجين، والتبرير الكامن في أنه الآخذ بطريق الحق السالك إياه مذ عرفه في الإسلام ولن يجيد عنه إطلاقاً، وإن ما قام به من تقطيل في تلك الشذمة هو من الحق فلا لوم عليه فيه. أما الفخر المتضمن الفكرة السابقة على فكرتنا هذه فيختلف من حيث أنه يراد به إمطة اللثام عن زيف اتخذه القرشيون ستارا لمحاربتة والوقوف ضده، لذلك

اختلف النغم في كلا الفخرين.

وفي موقف فخر ثالث يقول علي (عليه السلام) «وإني لمن قوم لا تأخذهم في الله لومة لائم سياهم سيما الصديقين، وكلامهم كلام الأبرار، عمّار الليل، ومنار النهار، متمسكون بحبل القرآن، يحيون سنن الله، وسنن رسوله، لا يستكبرون، ولا يغفلون، ولا يفسدون، قلوبهم في الجنان، وأجسادهم في العمل»^(١)، وهو فخر يتضمن تهديد مبطن لخاتمة خطبة موضوعها ما تنطوي عليه العصبية القبيلية من أخطار وتهديدها لبنية المجتمع. لذلك جاء الخطاب ضمن الموضوع متسلسل الأفكار معضد بالبراهين الدينية، متخذاً من سير الرسل والأنبياء برهاناً على التواضع والتذلل، فجاء الحديث عن النفس، متوشحاً بالخضوع، مجللاً بالتذلل في ذات الله، فوردت فواصل الفخر هادئة، ذات ايقاع رخيم، تكاد الجمل من خلاله ان تسمعنا نغمات صوفية، فلم تعد الكلمات الموزونة هي محور الموسيقى، وإن تطعمت الفكرة في بعض نواحيها بوحدات موسيقية تزيل عنها الرتابة، وتشيع في انحائها الهدوء النابض بالبهجة التي انسابت في النص بسلاسة تنأى بها عن أي تصنع.

وفي مقام فخر رابع يوظف علي (عليه السلام) المقابلات كدعامة من دعائم المقارنة، بغرض ابراز مزايا في مواجهة مزايا أخرى، فيتولد من تتابع تلك المقابلات نوع من التمازج النغمي لاعتماد الجمل - في السياق على المقارنات التي فرضتها طبيعة الفكرة، كما في قوله ضمن رده على رسالة من معاوية «لولا ما نهى الله عنه من تزكية المرء نفسه، لذكر ذاكر فضائل جمّة تعرفها قلوب المؤمنين، ولا تمجها آذان السامعين، فدع عنك من مالت به الرمية فانا صنائع ربنا، والناس بعد صنائع

لنا، لم يمنعنا قديم عزنا، ولا عادي طولنا على قومك ان خلطناكم بأنفسنا، فنكحنا وأنكحنا فعل الأكفاء، ولستم هناك، وأنى يكون ذلك كذلك، ومنا النبي، ومنكم المكذب، ومنا أسد الله ومنك أسد الأحلاف، ومنا سيدا شباب أهل الجنة، ومنكم صبوية النار، ومنا خير نساء العامين، ومنكم حمالة الخطب، في كثير مما لنا وعليكم^(١)، فقد ورد السجع في تلافيف الفكرة بالقدر الذي احتاجته في تعضيد موسيقى التقابل، مما مازج بين المعاني والأصوات ممازجة كادت أن تكون ملحمة فخر، تعول على التاريخ، وتنهل من معاني القرآن شواهداها، مع توشح العبارة منذ مطلعها بخضوع وتواضع ديني مجلل بكبرياء مكبوحه الجراح، اثار بعض من كوامنها طبيعة الموقف فأنت متتابعة متقابلة في تموجات صوتية عبر فاصلات قصيرة في:

منا النبي ومنكم المكذب

ومنا أسد الله ومنكم أسد الأحلاف...

وقد أرسلها علي عليه السلام متناسبة لمضمون ما ورد في الرسالة الأم من فخر حاول معاوية فيه اثارة حفيظته والانتفاص من سابقته وبلائه في الإسلام.

(١) رسائل - ٢٨ - فقرة ٢. والرمية: الصيد يرميه الصائد. ومالت به: خالفت قصده. والقصد: أترك ذكر من مال إلى الدنيا وأمالته إليها، وانا صانع ربنا والناس صنائع لنا: أي ليس لأحد من البشر علينا فضل، بل الله سبحانه هو صاحب الفضل علينا، ونحن الواسطة بين الناس وبينه سبحانه. والطول: الفضل. والعادي: القديم. والأكفاء: جمع كُفء وهو النظر في الشرف. والمكذب: أبو سفيان بن حرب. واسد الله: حمزة بن عبد المطلب وأسد الأحلاف: عتبة بن ربيعة. وسيدا شباب أهل الجنة: الحسن والحسين عليهما السلام. وصبوية النار: كلمة قالها رسول الله ﷺ لعتبة بن أبي معيط حين قتله صبورا يوم بدر، وقال كالمستعطف له ﷺ: من للصبوية يا محمد قال ﷺ: النار. وخير نساء العالمين: فاطمة بنت محمد ﷺ. وحمالة الخطب: هي أم جميل بنت حرب بن أمية، امرأة أبي لهب الذي ورد نص القرآن فيها بها ورد، وقوله «في كثير مما لنا وعليكم»: أي أنا قادر على أن أذكر من هذا شيئا كثيرا، ولكنني أكتفي بها ذكرت. ابن أبي الحديد ١٣/١٩٦، ١٩٧.

٧٣٠ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

ويعدّ السجع من أبرز الظواهر الموسيقية في النهج لاحتلاله مساحة واسعة في الكثير من نصوصه، إلا أن تلك الكثرة لم تكن على حساب المعاني، لأن السجع كمحسن لفظي لم يكن مقصورا لذاته في تلك النصوص، للإحساس بانسيابه بعفوية وطلاقة ضمن سياقاتها المختلفة متميزا بخصائص من أبرزها:

أ. الاعتدال في مقاطع الكلام:

إذ تكاد الجمل المسجوعة في نصوص النهج أن تتخذ نسقا فحواء التساوي في الكمية اللفظية بين الفواصل، والاعتماد على الجمل القصيرة كما في «أيها الناس، أنظروا إلى الدنيا الزاهدين فيها، الصادقين عنها، فإنها - والله عما قليل - تزيل الثاوي الساكن، وتفجع المترف الآمن، لا يرجع ما تولى منها فادبر، ولا يدري ما هو ات فينتظر»^(١)، فكمية الألفاظ بين كل سجتين متواليتين متساوية، فلو أرجعنا النص إلى وحدته الأولية المتمثلة في الجمل لالتخذ النسق التالي:

٣	٢	١
نظر الزاهدين فيها الصادقين عنها		

أيها الناس، انظروا إلى الدنيا

٣	٢	١
تزيل الثاوي الساكن		
وتفجع المترف الامن		

فإنها - والله عما قليل -

٦	٥	٤	٣	٢	١
لا يرجع ما تولى منها فادبر ولا يدري					
ما هو ات فينتظر					

(١) خطب - ١٠٢ - المطلع.

ب - الثراء في قوافي الجمل المسجوعة:

فقلما تكرر القافية والواحدة في أكثر من ثلاث جمل مسجوعة متتالية، مما يزيل عن موسيقى الجمل الملل المتولد من رتابة التكرار من ذلك ما جاء في

قها	{	«فَلَا أَمْوَالَ بَدَلْتُمُوهَا لِلَّذِي رَزَقَهَا وَلَا أَنْفُسَ خَاطَرْتُمْ بِهَا لِلَّذِي خَلَقَهَا	} توبخ البخلاء بالمال والنفس
عباده	{	تُكْرِمُونَ بِاللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ وَلَا تُكْرِمُونَ اللَّهَ فِي عِبَادِهِ	} فقد اتخذت قوافي الجمل نغماً متنوعاً، ومتساوياً من حيث الكيمة اللفظية بين كل سجتين متتاليتين، ممّا منح السياق تموجاً إيقاعياً مستساغاً.
عباده	{	فَاعْتَبِرُوا بِنُزُولِكُمْ مَنَازِلَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَأَنْقِطَاعِكُمْ عَنْ أَصْلِ إِخْوَانِكُمْ! (*)	

(*) خطب . ١١٦ .

ج - ورود الجمل المسجوعة بمعان متنوعة في سياقها الفكري:

مما يعني عدم تكرار المعاني على حساب الالفاظ، فالسجع ليس مقصودا لذاته، لذلك خلت نصوص النهج من الحشو، فجاءت معانيه محددة في الجمل التي صيغت من أجلها بحيث لا يمكن على الإطلاق الاستغناء عن أية جملة في أي نص من نصوصه، ويمكن ملاحظة ذلك في جميع النصوص التي وردت كاملة في النهج، مثل ذلك الدعاء:

«اللَّهُمَّ صُنْ وَجْهِي بِالْيَسَارِ
وَلَا تَبْدُلْ جَاهِي بِالْإِقْتَارِ
فَأَسْتَرْزِقْ طَالِبِي رِزْقَكَ

وَأَسْتَعْطِفَ شِرَارَ خَلْقِكَ
وَأُبْتَلَى بِحَمْدٍ مَنْ أَعْطَانِي
وَأُفْتِنَ بِذَمِّ مَنْ مَنَعَنِي» (١)

فكل جملة قائمة بذاتها في الفقرات المسجوعة الثلاث، قد أدت معنى قائما بذاته يمكن عدّه عنصرا أساسيا في سياق النص الفكري، فالسجع الوارد في الدعاء لم يكن على حساب المعاني أو تكرارا لفحوة معانيها.

د- تقبل النفس للسجع الوارد في تلك النصوص لبعده عن التصنع والغمثاءة: فالسجع في فواصل نصوص النهج لا يرد مفتعلا متكلفا، فانسيا به الطوعي في تلك النصوص بسلاسته يجعل النفس تتقبله وترتاح إلى تردداته الايقاعية، لتمييز عبارات النهج بالانسجام التام بين اللفظ ومعناه والملابسات التي تكتنفه أثناء الاداء، وهو ما يمنح السياق نغمات عفوية تنم عن تفاعل قائمها معها وصدقه في توصيلها، فتسري في نفس متلقيها طيبة من ذلك ما جاء في مجال الحث على الجهاد:

«وَاللَّهُ مُسْتَأْدِيكُمْ شُكْرَهُ وَمُورِّثُكُمْ أَمْرَهُ
وَمُهْلِكُكُمْ فِي مِضْمَارِ مُحْدُودٍ لِيَتَنَازَعُوا سَبْقَهُ
فَشَدُّوا عُقْدَ الْمَآزِرِ وَاطُّوُوا فُضُولَ الْحَوَاصِرِ
وَلَا تَجْتَمِعُ عَزِيمَةٌ وَوَلِيمَةٌ
وَمَا أَنْقَضَ النَّوْمَ لِعَزَائِمِ الْيَوْمِ

(١) خطب- ٢٢٢.. وصيانة الوجه: حفظه من التعرض لذل السؤال. وبذل الجاه: سقوط المنزلة من

وَأَمْحَى الظُّلْمَ لِتَذَاكِيرِ الهَمَمِ! (١)

فلقد سرت نعمة الحث والحماس في سياق النص، فمنح النغمات المتجانسة فيه سرعة منتظمة يكاد المتأمل في النص أن يحسها من كلمة (مستأديكم) المتضمنة معنى الطلب الواجب الاداء ومورثكم بما تتضمنه من معاني العطاء، فالعلاقة بين المعنيين: اداء الشكر للمنعوم ووراثه الأمر علاقة ترابطية متمسرة، وتنطوي الاستمرارية على سرعة فيها يكاد المتأمل في النص ان يشعر بها من خلال كلمة (مهلكم) والمضمار والمتعلق بها ووصف ذلك المضمار بالمحدودية، مما يعني التابع السريع الكامن في ضمير الغائب المضاف في (شكره، امره، سبقه) وما احده ذلك الضمير في الفواصل من تجانس ايقاعي، وتوكيدا لاستمرارية الحماس وتتابع تدفقه، انبثقت الجملتان الانشائيتان بما فيهما من حث كامن في الكنايتين (عقد المآزر، فضول الخواصر) كتعبير عن الاستعداد وطرح كل ما يعيق السرعة، وقد أضفت السجعتان المتتاليتان (المآزر، والخواصر) نوعا من التصميم القوي الكامن في تكرار الراء بما فيها من تصويت نغمي مستمر قوي، ثم العودة إلى النفي في الجملة الخبرية غير المؤكدة، على أساس أن مضمون الإخبار به أمر مفروغ منه لا يحتاج إلى مؤكدات، ضمن مقولة حكمية تعني استحالة الوصول إلى المعالي في ظل الركون إلى الدعة والجري وراء اللذات، مع تناسق نغمي بين المعنيين اللذين يوحيان بالتقابل بين (العزيمة) كحافز على التصميم و (الوليمة) كتعبير عن الدعة، وفي سياق الحث يعود أسلوب الانشاء ليفرض

(١) خطب - ٢١٧.. ومستأديكم: طلب منكم أداء شكره. ومهلكم في مضمار: أي معطيكم مهمة في مضمار الحياة المحدود. وتتنازعا: تتنافسوا. العقد: جمع عقدة وهو الربط. والمآزر: جمع مئزر، وشد عقد المآزر، كناية عن الجد. واطوا فضول الخواصر: أي ما فضل من مآزركم كي لا يعيق سرعتكم بالتفافه حول أرجلكم.

نفسه من خلال التعجب كمقولة توكيدية مفروغ منها بما تعنيه من قوة كامنة في النوم، عادة ما تنفض وتهير كل عزيمة خُطط لها في النهار، وذلك بالنسبة للسائر طوال النهار وفي عزمه قطع جزء من الليل في متابعة السير، فيحول النوم بينه وبين ذلك، فيكون ظلامه كستارة استدلت على همم النهار وعزمه، مع ورود الميم كإيقاع تكرر في المواقع الأربعة بنغمات مختلفة في جرسها فقد تجانست كلمة النوم في وزنها الإيقاعي ومعظم حروفها مع اليوم مشكلة ما يسميه البلاغيون بالجناس الناقص، وتوائم الوزن بين الظلم والهمم، فأضاف ذلك إلى أسلوب التعجب نسقا إيقاعيا، انطوى على حث غير مباشر للوصول إلى الغاية، فتدفق المعاني وانسياب الموسيقى من خلال التنقل في أساليب اللغة نأى بالجناس وغيره من المحسنات البديعية في النهج عن الرتابة والافتعال والعتاثاة.

ويمكن ارجاع انتشار المحسن البديعي اللفظي في كثير من نصوص النهج

لسببين هما:

الأول: تشبع روح علي عليه السلام بصيغ القرآن الكريم وأساليبه التي تشربتها نفسه حتى كادت تستوعب عليه كل كيانه ومشاعره، فكاد ينطق بها في جل ما يصدر عنه من حديث ولما كان أسلوب القرآن الكريم ق بني على نظام «يسمح في الغالب بوقف كامل يستريح عنده نفس القارئ، وهو نظام يخالف نظام النشر المرسل ونظام السجع الذي أثر عن الجاهليين^(١)، فقد احتذاه علي عليه السلام وسار على نهجه وتمثل قوالبه، من دون أي تكلف، وهذا ما جعل أسلوبه يسير في ظلال أسلوب القرآن الكريم مبنى ومعنى، فكان إيقاع الفواصل وجرس الحروف الذي تميزت به آيات القرآن مما اكتسبه النشر الذي أثر عنه، ويمكن

(١) زكي مبارك - النشر الفني ١/٤٦.

ملاحظة ذلك بجلاء في النصوص التي وردت في النهج مستلهمة مضامينها الفكرية من تأملها العميق في معاني بعض آيات الذكر الحكيم^(١).

الثاني: وهو عنصر نفسي، إذ لاحظنا كثرة الأسجاع والمقابلات المتقاربة في جرسها المتكاملة في إيقاعاتها في خطب علي^{عليه السلام} ورسائله الانفعالية التي كان يرسلها كنفثات يحاول من خلالها التخفيف من وطأة ما تعانیه نفسه من آلام مكبوتة مرجعها لأسباب أهمها:

- الشعور بالهزيمة بسبب اقضائه عن حقه في الخلافة، بعد وفاة الرسول^{صلى الله عليه وسلم} واستمرار ذلك مدة حكم الثلاثة قبله، ومناوأة قريش له بعد أن آلت إليه الخلافة، رغم اعتقاده الراسخ بأحقية فيها، فإن رنة الحزن التي سرت فيما أثر عنه من أقوال في ذلك، جعلها تتميز بجرس اصطنع برنة حزن، كست العبارات من حيث المعاني وإيقاعاتها كتعبيرات متزاحمة بما تنوء به نفسه من شعور بالضميم، ويمكن تبين ذلك في خطبه التي تضمنت موضوعاتها مسألة الخلافة، خاصة خطبته المعروفة بالشقشقية^(٢)، فقد وردت الموسيقى الحزينة الساخطة، هادرة مزججة، مفجرة في النص ما كانت نفسه تترشح تحت وطأته من آلام، حاول كتبها مدة من الزمن غير قصيرة، فتفجرت كالبركان الباعث بحممه فجاءت موسيقى النص صاخبة وحزينة.

- حالات الحزن المتولدة عن فقد الأحبة، فإن مثل هذه المناسبات تغلف مقولات علي^{عليه السلام} وتبث في أوصالها جرسا ينطوي على أساه وألمه، مما يتيح للفواصل، وقفات استراحة تأملية موزونة، تحيل المعاني إلى حزن هادئ وامتد،

(١) راجع خطب ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٠.

(٢) راجع خطب رقم ٣.

بعيداً عن التشنجات العصبية التي تفقد الإيقاعات طاقاتها الإيجابية.

- من ذلك ما أثر من قوله بعد دفنه زوجته السيدة فاطمة ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومنه «السلام عليك يا رسول الله عني، وعن ابنتك النازلة إلى جوارك، السريعة اللحاق بك، قلّ يا رسول الله عن صفيتك صبري، ورق عنها تجلدي، الا ان في التأسي لي بعظيم فرقتك وفادح مصيبتك موضع تعز»^(١)، فقد انساب الحزن ضمن المقولة ساكناً، اضفت عليه الموسيقى الصادرة من فواصل الاسجاع المتنوعة جوا من التأسي الممزوج بالألم العميق الكامن في اعماق النفس.

- ومن ذلك أيضاً ما قاله عندما وافاه خبر وفاة مالك الأشتر «مالك وما مالك والله لو كان جبلا لكان فندا، ولو كان حجرا لكان صلدا، لا يرتقيه الحافر، ولا يوفي عليه الطائر»^(٢). فقريحتة أبت إلا أن يكون التأين المجلل بالحزن قويا في جرسه، مما جعلها تجود بموسيقى تتناسب وشجاعة المؤبّن في ترجيعات حزينة لا يمكن ان يدرك مدى ألمها وعمق وقعها في النفس إلا من يعرف علاقة مالك الاشر بعلي عليه السلام. ومن العوامل النفسية التي فرضت تدفق أساليب البديع ضمن مآثرات علي عليه السلام تولد الأسى المكبوت وامتزاجه بالغضب في قرارة نفسه جراء ما لقيه من أصحابه من عناد وخلاف، ومن عدم امثال لنصحته، وعدم الاستجابة لأوامره، واستغاثاته في مقاومة أعدائه ومناوئيه بالإضافة إلى خيانة بعض ولاته لأماناتهم التي كلفهم بالقيام عليها وحفظها.

فمن الرسائل الغاضبة التي يمكن ملاحقة قوة الايقاع فيها، بالممازجة بين

(١) خطب-١٩٦..

(٢) حكم ١٥٢. الفند: الجبل المفرد من الجبال. والصلد: الصلب الذي لا يتفتت. ولا يوفي عليه

أي لا يصل إليه.

جرس الألفاظ والتقابل في معانيها ما جاء في قوله لأحد ولاته حين بلغته خيانتة:

«أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ صَلَاحَ أَبِيكَ
ما عَرَّرَنِي مِنْكَ
فاصلتان مسجوعتان

وَوَظَنَنْتُ أَنَّكَ تَتَّبِعُ هُدْيَهُ
وَتَسْلُكُ سَبِيلَهُ
فاصلتان مسجوعتان

فَإِذَا أَنْتَ فِيمَا رُقِّيَ إِلَيَّ عَنْكَ
لَا تَدْعُ لِهَوَاكَ انْقِيَاداً
وَلَا تُبْقِي لِأَخْرَتِكَ عِتَاداً
فاصلتان مسجوعتان

مقابلة + سجع - تَعْمُرُ دُنْيَاكَ بِخَرَابِ أَخْرَتِكَ

مقابلة + سجع - وَتَصِلُ عَشِيرَتَكَ بِقَطِيعَةِ دِينِكَ» (١)

فعبارات التوبيخ الغاضبة قد وردت متتابعة متخذة نسقا ايقاعيا تلقائيا، بتكرار كاف الخطاب سبع مرات، بتضمينها في المواضع السبعة اتهاما مباشرا مقرونا بخيبة امل متولدة عن اختيار غير مناسب، معياره صلاح الاب، وقد زاد في تكثيف الموسيقى ضمن السياق جرس الألفاظ المتولد عن السجعيات المتوالية في نسقها المختلفة في ادائها النغمي في:

تتبع هديه، تسلك سبيله

(١) رسائل ٧١.. والعتاد: العدة. وتصل عشيرتك: تغدق عليهم.

لهواك انقياداً، لآخرتك عتادا

والمقابلات في:

تعمر دنياك، بخراب آخرتك

تصل عشيرتك، بقطيعة دينك

ويقصد علي عليه السلام بالدين هنا علاقة العبد بربه، وقطيعة الدين انفصام لتلك العلاقة.

ويعلو النبر الايقاعي أيضاً في خطب الجهاد، ولكن برغم الصخب الذي تندفع به المعاني، يبقى الجرس واضحاً، ليس الا لأن روح علي عليه السلام تكون في غاية النشوة والحبور، وهي تسجل بالكلمة أناشيد البطولة والفداء، كما تسجل بالسيف ملاحم الشجاعة، فالنغمة الشجية الهادئة في خطب الإيمان الداعية إلى تمجيد الخالق وشكره، تقابلها نغمات القوة والحماس في أثناء المنافحة والدفاع عن ذلك الإيمان، مما يحيل الخطب الحماسية إلى نشيد ملحمي يتردد صداه في صدر كل مقاتل يحارب إلى جانبه، فمن خطبة له في صفين «الجنة تحت اطراف العوالي، اليوم تبلى الاخبار، والله لانا اشوق إلى لقاءهم منهم إلى ديارهم اللهم فإن ردوا الحق، فافضض جماعتهم، وشتت كلمتهم وابسلهم بخطاياهم...»^(١)، فقد اتخذت الجمل في السياق نسقا ايقاعيا تصاعديا، بانسياب الجملتين الخبريتين في المطلع بطريق الفصل على اعتبار الرابط النفسي هو اللاحم بينهما، ومن أجل استمرارية التصاعد الحماسي انبثقت جملة القسم مؤكدة إحساسات علي عليه السلام إزاء

(١) خطب - ١٢٤.. الجنة تحت اطراف العوالي: مأخوذ من قول رسول الله ﷺ «الجنة تحت ظلل

السيوف» وبروق العوالي: لمعان الرماح وخطفها في حركتها أثناء الحرب. وقوله: تبلى الأخبار:

مقتبس من قوله تعالى ﴿وَتَبْلُوْاْ اَخْبَارَكُمْ﴾ محمد/ ٣١: أي نخبر أفعالكم.

الموقف، مكتفية بالعامل النفسي كرابط لها في السياق، تلا ذلك فصل ثالث تضمن ثلاث جمل انشائية متواصلة بالعطف بالواو فيما بينها باعتبار وقوعها ضمن جواب الشرط الواقع ضمن الجملة الدعائية وقد اكتست تلك الجمل الثلاث نبرا ايقاعيا قويا ولدته الميم الساكنة. فتمازج الفصل كرابط نفسي بالوصل كرابط تعبيرى، وتنقل الأفكار عبر الأساليب الخبرية والانشائية، مع التناغم المتولد من توحد قوافي الجمل الثلاث الأخيرة قد كسا النص التدفق والاستمرارية في معاني الحماس.

لقد بلغ نهج البلاغة من الاتساق الاسلوبي والرصانة الفكرية والالتزام ما جعله يتبوا ذروة الابداع «فإذا هو على كثرة ما فيه من الجمل المتقاطعة الموزونة المسجعة ابعد ما يكون من الصنعة وروحها، واقرب ما يكون من الطبع الزاخر»^(١).

الخاتمة

الخاتمة

ان النتيجة التي توصلنا إليها، من خلال البحث عن اصول نهج البلاغة، هي ترجيح نسبتها إلى الإمام علي عليه السلام، لكون تلك النصوص في مجملها نابعة من معين فكري واحد، متخذة نسقا أسلوبيا يتميز بخصائص تركيبية تنتمي - في مجملها - من حيث الترتيب المنطقي، والاداء الاسلوبي، والقاموس اللغوي، إلى مفكر واحد. هذا بالإضافة إلى القرائن التاريخية والادلة التوثيقية والشواهد الاسنادية التي تعضد نسبة تلك النصوص إلى علي عليه السلام، فانفتح لنا الباب بذلك مشرعا للدخول إلى فكر علي عليه السلام من خلالها بكل اطمئنان.

ففي مجال دارستنا للأفكار الواردة في تلك النصوص المتعددة المناحي والمناسبات وجدنا انها - في معظمها - مشيدة على دعائم ثلاث تتمثل في: الفكر السياسي، والفكر الاجتماعي، والفكر الكلامي، وهذه الدعائم الثالث تحث ابناء مجتمع علي عليه السلام على المثالية وعلى التوق إلى نصاعة الإسلام الأولى التي كان على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم. فمن هذه الناحية يمثل الإمام علي بن أبي طالب الرسول صلى الله عليه وسلم في كل افعاله واقواله.

ففي ميدان السياسة، وفض ان يسكت عن احقيقته في ولاية المسلمين مينا

موقفه الفكري تجاه خلفاء المسلمين الثلاثة قبله، مع ابقاء رابطة التعاون معهم في حدود ما يرضي الله، ويحفظ للإسلام قوته ووحدته، كما وقف بكل حزم، ودونما تهاون أو تراخ في وجه المناوئين لحكومته، لا تمسكا بالحكم، ولكم تصديا لكل ما يسيء إلى تعاليم الإسلام كاستغلال مفاهيمه الإنسانية استغلالا معوجا، لصالح فئة معينة على حساب الفئات المستضعفة.

ولكن تيار المادة كان اقوى من تيار القيم التي نادى بها علي عليه السلام، وكانت النتيجة استشهاده في سبيل المبدأ، ومن أجل ابقاء القيم ناصعة، وقد تمثل ذلك التصور بكل ابعاده في مفهومه للدولة، واهلية القيادة، وكيفية تصوره لمؤسسات الدولة من النواحي القضائية والعسكرية والاقتصادية والادارية، وقد انبنى ذلك التصور على أسس متناهية في مثاليتها، غايتها الإنسان وسعادته في الدارين، فهي سياسة دينية تطمح إلى الاخذ بيد الإنسان نحو حياة مشرقة في ظلال شجرة القيم الأخلاقية المورفة بالظلال.

وضمن استنتاجاتنا لخلاصة الفكر الاجتماعي الوارد في سياق نصوص نهج البلاغة وجدنا انه بما ينطوي عليه من مبادئ وقيم، ملتصق التصاقا مباشرا بالإنسان في جميع مراحل حياته. وفي كل علاقاته بمحيطه، بداية من الأسرة فالصدقات المحدودة، فالعلاقات الاجتماعية بمعناها العام الشامل، مما يعني ان حقوق الفرد تجاه كل تلك العلاقات مرتبطة ارتباطا وثيقا بواجباته تجاه مجتمعه بحيث تبقى فرديته متميزة بطابعها الشخصي ومنسجمة - في ان واحد - مع افراد المجتمع من حولها، تحت مظلة المساواة والعدل المطويين على الحب والخير، والمؤددين إلى الامن الذي ينشده كل فرد وكل جماعة. لذلك جاءت معالجة علي عليه السلام لكل عنصر سلبي في المجتمع معالجة جذرية وبناءة، مع طموح

دائب في الوصول بالفرد ضمن مجتمعه نحو ما يريده له الإمام علي عليه السلام من مثال ضمن مجتمع اساسه التوازن في معاملاته وعلاقاته بين المتطلبات الدنيوية والمتطلبات الأخروية.

لذلك ارتأى الإمام علي عليه السلام ان يكون الإنسان على دراية ومعرفة بقيمته الإنسانية ولن يتأتى له ذلك الا من خلال معرفة علاقته بخالقه المتمثلة في ادراك حقيقة الوجود من حوله وعلاقة ذلك الوجود به هو نفسه، واثر الخالق في الوجود وما يرتبط فيه من علاقات، فإذا ما تمكن الإنسان من معرفة نفسه، استطاع ان يعرف ذاته التي يمكنه من خلالها تقدير منزلته في هذا الكون، فتطمئن نفسه ويهتدي بتأمله العميق ذاك إلى فكرة التوحيد، لذلك العنصر الذي ما فتىء يلح على نفس علي عليه السلام حتى اخر لحظة من حياته، على اعتباره لب العقيدة الإسلامية وركنها الاساسي.

فالتوحيد - كما هو بين في النهج - دعوة إلى الإيثار بوجود الخالق الواحد من خلال ذاتية يمكن للإنسان ان يتوصل إليها بالنظر إلى نفسه، وفي ما حوله من ابداعات، وهو ما يقتضي ان يعرف ماهية علاقة الملائكة بالخالق، بالقدر الذي يستوعبه فكر الإنسان، كل حسب مستواه كمعلم من معالم العقيدة لا جدال فيه.

ومن معالم العقيدة في فكر الإمام علي عليه السلام الإيثار بالرسول وقيمتهم الأساسية كهداة انيطت بهم مهمة انتشال العقول من مهاوي الجهالة ومتاهات الضلالة. ولما كان الإنسان هو المعنى بالرعاية، والمحاط بالتكريم من لدن الخالق العظيم فقد افرد له الإمام علي عليه السلام مساحة واسعة من فكره، معتبرا اياه المخلوق السوي المميز، الذي من اجله خلق الله هذا الكون وجعل كل مقدراته تحت

٧٤٦ فكر الإمام علي (عليه السلام) كما يبدو في نهج البلاغة

تصرفه، فكان ان وقف متأملاً في حقيقة خلقه، واصول تربته التي انشأه الله منها، ومكانته في هذا الكون، وقدرته على التصرف فيما حوله، وغاية وجوده، وعلاقته بالدنيا الزمانية، والآخرى المكانية، والترابط بينهما في وحدة تكمن في المصير، مما يحتم على الإنسان ان يدرك ذلك كله. وادراكه ذلك سيقوده لا محالة إلى الفهم الحقيقي في كيفية التصرف بحياته المؤقتة. وعند هذه النقطة يتداخل مفهوم التصوف بمفهوم الزهد في نهج البلاغة، فيمنح النصوص المعلقة بذلك ابعاداً فلسفية غايتها الخروج منه بأفكار تصلح لأن تكون متكآت فكرية للتصوف عند المتصوفة، وللزهد عند من يدعون إلى ذم الدنيا والاعراض عن شؤونها، ولكن بتبعنا لفحوى تلك النصوص، نجد ان فكر الإمام علي (علي السلام) لا ينحو نحو التصوف، ولا يأخذ بالجانب الزهدي كأسلوب يحرم النفس من متع الدنيا التي احلها الله.

فالزهد كما نستشفه من افكار الإمام علي (عليه السلام) هو الاخذ من متع الحياة بما يتلاءم والقيم التي شرعها الإسلام دونما افراط ولا تفريط ثم انه في جانب آخر يعني احاطة الأخلاق بسياج متين من القيم في حالة اخفاق الإنسان في تحقيق طموحاته المادية في الحياة، وهو في جانب ثالث يعني اقدام الإنسان على خوض الغمرات إلى الحق بكل اصرار وایمان انطلاقاً من مفهوم واجب الإنسان نحو خالقة فيدنيه القصيرة مما يمنح الجهاد بكل معانيه ابعاداً ذات قيمة مقدسة في فكر الإمام علي (عليه السلام).

فتمسك الإنسان بالقيم والاصرار على بقائها ناصعة، واحتمال المشاق من أجل خلودها، لا بد ان يصل بالإنسانية- في نهاية المطاف - إلى المكانة السامقة، بالتوق نحو مستقبل تكون الحقيقة فيه جلية، حيث لا ظلم ولا اضطهاد، ولا

زيف ولا نفاق، وذلك هو لب محور فكر الإمام علي عليه السلام في الجانب الكلامي المتمثل في فكرة المهدي والمهدية.

لقد قام الشريف الرضي بإيجاز خالد حين باشر بجمع ما جمعه من هذا الفكر الثر المنطوي على تصور شبه متكامل للحياة بكل ابعادها السياسية والاجتماعية والفكرية، وفي قالب أسلوبية هي غاية في الابداع والروعة من حيث التناسق الاسلوبي، والجمال البلاغي والانسجام النغمي، فكان نهج البلاغة بما حواه من خطب ووصايا وعهود ورسائل ومواعظ وحكم بناءا متناغما ومعلما متكاملا من حيث الشكل الفني والمضمون الفكري.

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

اولا - نسخ نهج البلاغة التي اعتمدها الدراسة

* نهج البلاغة - صورة من نسخة مخطوطة نادرة من القرن الخامس الهجري -
خزانة المخطوطات - مكتبة آية الله المرعشي - قم - الجمهورية الإسلامية الإيرانية.

* منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة - الراوندي - سعيد بن هبة الله (ت ٥٧٣ هـ) -
تحقيق عبد اللطيف الكوهكمري - مكتبة آية الله المرعشي - قم - ١٩٨٥ .

* شرح نهج البلاغة - ابن أبي الحديد - عز الدين بن هبة الله بن محمد (ت ٦٥٥ هـ):

- تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم - دار احياء التراث العربي - بيروت - ط ٢ -
١٩٦٥ .

- مراجعة وتحقيق لجنة احياء الذخائر - دار مكتبة الحياة - بيروت - ١٩٨٣ .

* شرح نهج البلاغة - ميثم البحراني - كمال الدين ميثم بن علي بن ميثم (ت ٦٧٩ هـ):

- دار العالم الإسلامي - بيروت - ط ٢ - ١٩٨١ .

* منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة - الخوئي - ميرزا حبيب الله:

- مؤسسة الوفاء - بيروت - ط ٢ - ١٩٨٣ .

- * نهج البلاغة - شرح الشيخ محمد عبده:
 - تحقيق محمد عاشور - الشعب - القاهرة - د . ت .
 - الاندلس - بيروت - ط ٧ - ١٩٨٤ .
 - الاعلمي - بيروت - د . ت .
 - البلاغة - بيروت - ط ٤ - ١٩٨٩ .
- * في ظلال نهج البلاغة - مغنية - محمد جواد:
 - دار العلم للملايين - بيروت - ط ٢ - ١٩٨٣ .
- * الكاشف عن الفاظ نهج البلاغة - الخراساني - السيد جواد المصطفوي:
 - دار الكتب الإسلامية - طهران - ١٩٧٥ .
- * نهج البلاغة - ضبط وفهرسة: الصالح - الشيخ صبحي:
 - دار الكتب اللبنانية - بيروت - ط ٣ - ١٩٨٣ .
- * مصادر نهج البلاغة - الحسيني - عبد الزهراء:
 - مؤسسة الاعلمي - بيروت - ط ٢ - ١٩٧٥ .
- * المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة - كاظم محمدي ومحمد دشتي:
 - دار الاضواء - بيروت - ١٩٨٦ .
- * نهج البلاغة - تحقيق وشرح: ابراهيم - محمد ابو الفضل:
 - دار الجيل - بيروت - ١٩٨٨ .

ثانيا - المراجع

- * الأبى - أبو سعيد منصور بن الحسين (ت ٤٢١ هـ):
 - نشر الدر - الهيئة المصرية - القاهرة - د . ت .

- * الامثدي - عبد الواحد بن محمد التميمي (ت ٥٥٠ هـ):
- غرر الحكم ودرر الكلم - دار القارئ - بيروت ط ١ - ١٩٨٧.
* الابشيهي - شهاب الدين محمد - بن أحمد (ت ٨٥٠ هـ):
- المستطرف في كل فن مستظرف - الحياة - بيروت - ١٩٨٦.
* ابراهيم - حسن:
- تاريخ الاسلام السياسي - النهضة المصرية - القاهرة - ط ٨ - ١٩٧٤.
* إبراهيم - محمد أبو الفضل:
- مقدمة تحقيق امالي المرتضى - دار الكتاب العربي - بيروت ط ٢ - ١٩٦٧.
* ابن الأثير - نجم الدين أحمد بن اسماعيل الحلبي (ت ٧٣٧ هـ):
- جوهر الكنز - منشأة المعارف - الاسكندرية - د . ت .
* ابن الاثير - أبو الحسن علي بن محمد (ت ٦٣٠ هـ):
- أسد الغابة في معرفة الصحابة - كتاب الشعب - القاهرة - ١٩٧٠.
- الكامل في التاريخ - دار الكتاب العربي - بيروت ت ط ٤ - ١٩٨٣.
* ابن الأثير أبو السعادات المبارك بن محمد (٦٠٦ هـ):
- جامع الأصول من احاديث الرسول - إحياء التراث العربي - بيروت - ط ٤ - ١٩٨٤.
- النهاية في غريب الحديث والأثر - دار الفكر العربي - بيروت - ط ٢ - ١٩٧٩.
* ابن الأثير - ضياء الدين نصر الله بن محمد (ت ٦٣٧ هـ):
- المثل السائر - نهضة مصر - القاهرة - د . ت .
* الاخفش الاصغر - علي بن سليمان بن الفضل (ت ٣١٥ هـ):
- كتاب الاختيارين - الرسالة - بيروت - ط ٢ - ١٩٨٤.

* اخوان الصفا:

- رسائل اخوان الصفا - صادر - بيروت - د . ت .

* أرسطو طاليس:

- علم الأخلاق - دار الكتب المصرية - القاهرة - ١٩٢٤ .

* ابن اسحاق - محمد (ت ١٥١هـ):

- السيرة النبوية - الوقف للخدمات الخيرية - قونيه - ١٩٨١ .

* الاسكافي - أبو جعفر محمد بن عبد الله (ت ٢٤٠هـ):

- كتاب نقض العثمانية - بواسطة شرح ابن أبي الحديد .

* اسماعيل - محمود :

- سوسيولوجيا الفكر الإسلامي - دار الثقافة - الدار البيضاء - ط ١ - ١٩٨٠ .

* الاشعري - أبو الحسن علي بن اسماعيل (ت ٣٢٤هـ):

- مقالات الإسلاميين - فرانز شتايز - فيسبادن - ط ٣ - ١٩٨٠ .

* الاصفهاني: أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد (ت ٣٥٦هـ):

- الاغاني - الدار التونسية للنشر - تونس - ١٩٨٣ - مصورة عن نسخة دار الثقافة -

بيروت .

- مقاتل الطالبين - الاعلمي - بيروت - ط ٢ - ١٩٨٧ .

* ابن أعثم - أحمد الكوفي (ت ٣١٤هـ):

- الفتوح - دار الكتب العلمية - بيروت - ط ١ - ١٩٨٦ .

* افلاطون في الإسلام:

- نصوص من تحقيق عبد الرحمن بدوي - الأندلس - بيروت - ط ٢ - ١٩٨٠ .

* امرؤ القيس بن حجر بن عمرو الكندي (ت نحو ٥٤٠م):

- ديوانه - دار المعارف - القاهرة - ط ٤ - ١٩٨٤ .

* أمين أحمد :

- كتاب الأخلاق - الكتاب العربي - بيروت - ١٩٦٩ .

- ظهر الإسلام - الكتاب العربي - بيروت - ط ٥ - ١٩٦٩ .

- فجر الإسلام - النهضة المصرية - القاهرة - ط ١٣ - ١٩٧٨ .

* الامين - حسن :

- دائرة المعارف الإسلامية الشيعية - دار التعارف - بيروت - ط ٣ - ١٩٨١ .

* الامين السيد محسن :

- أعيان الشيعة - دار التعارف - بيروت - ١٩٨٢ .

* الأميني - عبد الحسين بن أحمد :

- الغدير في الكتاب والسنة - الكتاب العربي - بيروت - ط ٤ - ١٩٧٧ .

* الأنطاكي داور بن عمر (ت ١٠٠٨هـ) :

- تزيين الأسواق في أخبار العشاق - دار حمد ومحيو - بيروت - ط ١ - ١٩٧٢ .

* التستري - محمد تقى :

- قضاء أمير المؤمنين عليه السلام - الأعلمي - بيروت - ط ١٠ - ١٩٨٣ .

* الباقلائي - أبو بكر محمد بن الطيب (ت ٤٠٣هـ) :

- إعجاز القرآن - دار المعارف - القاهرة - ط ٥ - ١٩٨١ .

* الباقوري - أحمد حسن :

- علي إمام الأئمة - مكتبة مصر - القاهرة - ١٩٨٥ .

* البحراني - السيد هاشم :

- البرهان في تفسير القرآن - الوفاء - بيروت - ط ٣ - ١٩٨٣ .
* ابن بدران - عبد القادر :

- تهذيب تاريخ دمشق - دار المسيرة - بيروت - ط ٢ - ١٩٧٩ .
* البرقي - أحمد بن محمد بن خالد (ت ٢٧٤هـ) :

- المحاسن - دار الكتب الإسلامية - قم - ط ٢ - د . ت .
* بروكلمان - كارل :

- تاريخ الشعوب الإسلامية - العلم للملايين - بيروت - ط ١٠ - ١٩٨٤ .

- تاريخ الأدب العربي - دار المعارف - القاهرة - ط ٣ - ١٩٧٤ .
* البغدادي - عبد القاهر بن طاهر التميمي (ت ٤٢٩هـ) :

- اصول الدين - دار الكتب العلمية - بيروت - ط ٣ - ١٩٨١ .
* ابن بكار - الزبير (ت ٢٥٦هـ) :

- الأخبار الموفقيات - رئاسة ديوان الاوقاف - بغداد - ١٩٧٢ .
* الكبري - عبد الله بن عبد العزيز الاندلسي (ت ٤٨٧هـ) :

- معجم ما استعجم - عالم الكتب - بيروت - ط ٣ - ١٩٨٣ .
* البلاذري - محمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٣٩هـ) :

- انساب الاشراف - الاعلمي - بيروت - ط ١ - ١٩٧٤ .
- فتوح البلدان - مؤسسة المعارف - بيروت - ١٩٨٧ .

* بلاشير - رجيس :

- تاريخ الادب العربي - الدار التونسية للنشر - تونس - ١٩٨٦ .

* البلخي - ابو القاسم عبد الله بن أحمد (ت ٣٠٩هـ) وغيره من المعتزلة :

- فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة - الدار التونسية للنشر - تونس - ١٩٨٦ .
- * البنا - أحمد بن عبد الرحمن :
- الفتح الرباني لترتيب مسند أحمد احياء التراث العربي - بيروت - ط ٢ - د . ت .
- * بوازار - مارسيل :
- انسانية الاسلام - دار الآداب - بيروت - ط ١ - ١٩٨٠ .
- * البوصيري - شرف الدين محمد بن سعيد (ت ٦٩٦ هـ) :
- ديوانه - مصطفى البابي الحلبي - القاهرة - ط ١ - ١٩٥٥ .
- * بيسار - محمد عبد الرحمن :
- العقيدة والاخلاق وأثرهما في حياة الفرد والمجتمع - الانجلو مصرية - القاهرة - ط ٤ - ١٩٧٣ .
- * البيهقي - ابراهيم بن محمد (أحمد اعلام القرن الثالث الهجري) :
- المحاسن والمساويء - نهضة مصر - القاهرة - ١٩٦١ .
- * التلمساني - محمد بن أبي بكر (من علماء اواسط القرن السابع) :
- الجوهرة في نسب الامام علي وآله - مكتبة النوري - دمشق - ط ١ - ١٩٨٣ .
- * التنوخي - ابو علي المحسن بن أبي القاسم (ت ٣٨٤ هـ) :
- الفرغ عبد الشدة - الشريف الرضي - قم - ١٩٤٥ .
- * التهانوي - محمد علي بن علي :
- كشاف مصطلحات الفنون - دار قهرمان - استانبول - ١٩٨٤ .
- * التوحيدى - أبو حيان علي بن محمد بن عباس (ت ٣٨٠ هـ) :
- الإمتاع والمؤانسة - الحياة - بيروت - د . ت .
- * توشار - جان :

٧٥٨ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

- تاريخ الأفكار السياسية - وزارة الثقافة - دمشق - ١٩٨٤ .
- * الثعالبي - عبد الملك بن محمد بن اسماعيل (ت ٤٢٩هـ):
- برد الاكباد في الاعداد - الجوائب - القسطنطينية - ١٨٨٤ .
- التمثيل والمحاضرة - دار احياء الكتب العربية - القاهرة - ١٩٦١ .
- * الجاحظ - ابو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ) :
- البخلاء - دار احياء العلوم - بيروت - ط ١ - ١٩٨٨ .
- البيان والتبيين - الخانجي - القاهرة - ط ٣ - د . ت .
- المئة المختارة بشرح ميثم - مير جلال الدين الارموي - طهران - ١٩٧٠ .
- * الجرجاني - عبد القاهر بن عبد الرحمن (ت ٤٧١هـ):
- أسرار البلاغة - وزارة المعارف - استانبول - ١٩٥٤ .
- دلائل الاعجاز - المعرفة - بيروت - ١٩٧٨ .
- * جرداق - جورج :
- علي صوت العدالة الإنسانية - حياة - بيروت - ١٩٧٠ .
- * الجندي - علي وزميله:
- سجع الحمام في حكم الامام - دار القلم - بيروت .
- * جولد تسهير - أجناس:
- العقيدة والشريعة الاسلام - الرائد العربي - بيروت - طبعة مصورة عن طبعة دار الكتاب المصري - ١٩٤٦ .
- * الجهشياري - أبو عبد الله محمد بن عبدوس (ت ٣٣١هـ):
- الوزراء والكتاب - مصطفى الحلبي - القاهرة - ط ٢ - ١٩٨٠ .
- * الجوهري - ابو بكر أحمد بن عبد العزيز (من رجال النصف الاخير من القرن

الثالث):

- السقيفة: بواسطة شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد.
- * الجوهرى - اسماعيل بن حماد (ت ٣٩٣هـ):
- الصحاح - دار العلم للملايين - بيروت - ط ٢ - ١٩٧٩.
- * ابن الحجاج القشيري - ابو الحسن مسلم (ت ٢٦١هـ):
- صحيح مسلم - احياء التراث العربى - بيروت - د . ت .
- * ابن حجر العسقلاني - أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ):
- تهذيب التهذيب - صادر - بيروت - ١٩٦٨.
- لسان الميزان - الاعلمي - بيروت - ط ٢ - ١٩٧١.
- * الحر العاملي - محمد بن الحسن (ت ١١٠٤هـ):
- وسائل الشيعة - احياء التراث العربى - بيروت - ط ٥ - ١٩٨٣.
- * ابن حزم الاندلسي - ابو محمد علي بن أحمد (ت ٤٥٦هـ):
- جمهرة أنساب العرب - المعارف - القاهرة - ط ٥ - ١٩٨٢.
- الفصل في املل والنحل - المعرفة - بيروت - ١٩٨٦.
- * حسين - طه:
- حديث الاربعاء - المعارف - القاهرة - ط ١٠ - ١٩٧٣.
- الشيخان - المعارف - القاهرة - ط ٧ - ١٩٨١.
- الفتنة الكبرى (عثمان) - المعارف - القاهرة - ط ١٠ - ١٩٨٤.
- الفتنة الكبرى (علي وبنوه) - المعارف - القاهرة - ط ١١ - ١٩٨٢.
- * الحصرى القيروانى - ابو اسحاق ابراهيم بن علي (ت ٤٥٣هـ):

٧٦٠ فكر الإمام علي عليه السلام يبدو في نهج البلاغة

- زهر الآداب - احياء الكتب العربية - القاهرة - ط ١ - ١٩٥٣ .

* حقي - ممدوح :

- التعليق على كتاب الاسلام وأصول الحكم - الحياة - بيروت - د . ت .

* الحكم - سعاد :

- المعجم الصوفي - المؤسسة العامة للدراسات - بيروت - ط ١ - ١٩٨١ .

* الحكيمي - محمد رضا :

- شرح الخطبة الشقشقية - الوفاء - بيروت - ط ١ - ١٩٨٢ .

* الحلبي - علي بن برهان الدين (ت ١٠٤٤ هـ) :

- لسيرة الحلبيّة - دار المعرفة - بيروت - د . ت .

* الحموي - ياقوت بن عبد الله (ت ٦٢٦ هـ) :

- معجم البلدان - صادر - بيروت - ١٩٨٤ .

* ابن حنبل - ابو عبد الله الامام أحمد (ت ٢٤١ هـ) :

- كتاب الزهد - الفكر الجامعي - الاسكندرية - ١٩٨٤ .

- المسند - احياء التراث العربي - بيروت - د . ت .

* الحوفي - أحمد محمد :

- بلاغة الامام علي - نهضة مصر - القاهرة - ط ١ - ١٩٧٧ .

* خسرو - ناثر (ت ٤٥٠ هـ) :

- سفرنامه - دار الكتاب الجديد - بيروت - ط ٢ - ١٩٧٠ .

* خفاجي - محمد عبد المنعم :

- الازهر في الف عام - المطبعة المنيرية - القاهرة - ط ١ - ١٩٤٥ .

- * ابن خلدون - عبد الرحمن (ت ٨٠٨هـ):
- المقدمة والتاريخ - دار الفكر - بيروت - ط ١ - ١٩٨١ .
* خلف الله أحمد - محمد :
- في العروبة وآدابها - معهد البحوث والدراسات العربية - القاهرة - ١٩٧٠ .
* ابن خلكان - شمس الدين أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـ):
- وفيات الاعيان دار الثقافة - بيروت - د . د . ت .
* الخميني - روح الله .
- الحكومة الإسلامية - دار الطليعة - بيروت - ط ١ - ١٩٧٩ .
* ولد خوجه - عبد الوهاب:
- شرح المئة المختارة - مير جلال الدين الأرموي - طهران - ١٩٧٠ .
* الخوانساري - محمد باقر الموسوي:
- روضات الجنات - مكتبة اسماعيليان - قم - ١٩٧٠ .
* خياط - يوسف:
- معجم المصطلحات الفنية - دار لسان العرب - بيروت - د . د . ت .
* دراز محمد عبد الله :
- دستور الأخلاق في القرآن - الرسالة - بيروت - ط ٣ - ١٩٨٠ .
* ابن دريد - أبو بكر محمد بن الحسن الأزري (ت ٣٢١هـ):
- المجتني - دار الفكر - دمشق ط ١ - ١٩٧٩ .
- جمهرة اللغة - صادر - بيروت - صورة من طبعة دائرة المعارف العثمانية - ١٣٤٥ هـ - ١٩٢٦ م .
* ابن أبي الدنيا - أبو بكر عبد الله بن محمد القرشي (ت ٢٨٠هـ):

- اليقين - دار الكتب العلمية - بيروت - ط ١ - ١٩٨٧.

* دوفابر - جاك دونديو:

- الدولة - عويدات - بيروت - ط ١ - ١٩٧٠.

* ديور - ت ج:

- تاريخ الفلسفة الإسلامية - النهضة المصرية - القاهرة - ط ٥ - د. ت.

* الديلمي - محمد بن الحسين بن محمد (ت ٤٦٣هـ):

- ارشاد القلوب - بواسطة: مستدرک الوسائل للنوري - مؤسسة آل البيت - بيروت - د. ت.

* الدينوري - ابو حنيفة أحمد بن داود (ت ٢٨٢هـ):

- الأخبار الطوال - دار المسيرة - بيروت - د. ت.

* دينيت - دانييل:

- الجزية في الاسلام - الحياة - بيروت - د. ت.

* الذهبي - شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ):

- سير اعلام النبلاء - الرسالة - بيروت - ط ٣ - ١٩٨٥.

* الرازي - عبد الرحمن بن محمد بن ادريس (ت ٣٢٧هـ):

- الجرح والتعديل - احياء التراث العربي - بيروت - طبعة مصورة عن الطبعة الأولى بالدكن - ١٩٥٢.

* الرازي - محمد بن عمر (ت ٦٠٤هـ):

- تفسير الرازي - دار الفكر - بيروت - ط ٣ - ١٩٨٥.

* الراغب الاصفهاني - حسين بن محمد (ت ٥٠٢هـ):

- محاضرات الأدباء الحياة - بيروت - د. ت.

- المفردات في غريب القرآن - دار قهرمان - استانبول - ١٩٨٦ .
* رجب - منصور :

- تأملات في فلسفة الأخلاق الانجلو مصرية - القاهرة - ط ٣ - ١٩٦١ .
* ابن رشد - محمد بن أحمد الأندلسي (ت ٥٩٥هـ):

- تلخيص الخطابة - وكالة المطبوعات - الكويت د . ت .
* ابن رشيقي - الحسن القيرواني (ت ٤٥٦هـ):

- العمدة - الجليل - بيروت - ط ٤ - ١٩٧٢ .
* رضا - احمد:

- معجم متن اللغة - الحياة - بيروت - ط ١ - ١٩٥٨ .
* الرضا - الامام علي بن موسى - (ت ٢٠٣هـ):

- صحيفة الامام الرضا - مؤسسة الامام المهدي - قم - ١٩٨٧ .
- الفقه المنسوب للامام الرضا - آل البيت - قم - ط ١ - ١٩٨٥ .
* رضا محمد :

- الامام علي بن أبي طالب عليه السلام - الكتب العلمية - بيروت - د . ت .
* رضا محمد رشيد:

- تفسير المنار - المعرفة - بيروت - ط ٢ - د . ت .

- الوحي المحمدي - عز الدين - بيروت - ط ٣ - ١٩٨٦ .

* الرضي - الشريف محمد بن الحسين الموسوي (ت ٤٠٦هـ):

- حقائق التأويل - دار المهاجر - بيروت - د . ت .

- خصائص الائمة - مجمع البحوث الإسلامية - مشهد - ١٩٨٥ .

٧٦٤ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

- رسائل الصابي والشريف الرضي - دائرة المطبوعات - الكويت - ١٩٦١ .

- المجازات النبوية - مصطفى الحلبي - القاهرة - ١٩٧١ .

* الزبيدي - محمد مرتضى الحسني (ت ١٢٠٥هـ):

- تاج العروس - دار الجليل - بيروت - بوشر بنشره منذ ١٩٦٥ . باشراف حكومة الكويت ولم يتم بعد.

* الزبير بن بكار (ت ٢٥٦هـ):

- الأخبار الموقفيات - رئاسة ديوان الاوقاف - بغداد - ١٩٧٢ .

* الزجاج - أبو القاسم عبد الرحمن بن القاسم (ت ٣٣٩هـ):

- الامالي في المشكلات القرآنية والاحاديث النبوية - الكتاب العربي - بيروت - ط ٢ - ١٩٨٣ .

* الزركلي - خير الدين :

- اعلام الزركلي - الملايين - بيروت - ط ٧ - ١٩٨٦ .

* الزمخشري - جار الله محمود بن عمر (ت ٥٨٣هـ):

- ربيع الابرار - رئاسة ديوان الاوقاف - بغداد - ١٩٧٦ .

* الزنجاني - السيد ابراهيم الموسوي:

- عقائد الإمامية الاثني عشرية - الوفاء - بيروت - ١٩٨٢ .

* ابو زهرة - محمد :

- خاتم النبيين - العصرية - بيروت - ١٩٧٩ .

- المجمع الإنساني في ظل الاسلام - ديوان المطبوعات الجزائرية . الجزائر - ط ٢ - ١٩٨١ .

* ابو زيد - شلبي:

- * زيد - جرجي .
- الخلفاء الراشدون - مكتبة وهبة - القاهرة - ١٩٦٧ .
- * سبط ابن الجوزي - يوسف بن فرغلي (ت ٦٥٤هـ):
- تاريخ آداب اللغة العربية - الحياة - بيروت - ١٩٦٧ .
- تاريخ التمدن الإسلامي - الحياة - بيروت - د. ت .
- العرب قبل الاسلام - الحياة - بيروت - ١٩٧٩ .
- * السجستاني - ابو حاتم سهل بن محمد (ت ٢٥٠هـ):
- تذكرة الخواص - أهل البيت - بيروت - ١٩٨١ .
- * ابن سعد - محمد (ت ٢٣٠هـ):
- المعمرون والوصايا - دار احياء الكتب العربية - القاهرة - ١٩٦١ .
- * السكوني - أبو علي عمر (ت ٧١٧هـ):
- الطبقات الكبرى - دار بيروت - بيروت - ١٩٨٠ .
- * السلجماسي - أبو محمد القاسم الانصاري (من نقاد القرن الثامن الهجري):
- المنزاع البديع - مكتبة - المعارف - الرباط - ط ١ - ١٩٨٠ .
- * سلوم - داود:
- شعر الكميت - مكتبة - الاندلسي - بغداد - ١٩٦٩ .
- * السنهوري - عبد الرزاق:
- مصادر الحق في الفقه الإسلامي - دار الفكر - بيروت - د. ت .
- * السهارنفوري - خليل بن احمد:

- بذل المجهود في حل أبي داود - الكتب العلمية - بيروت - د. ت.
- * السهيلي - عبد الرحمن (ت ٥٨١هـ):
- الروض الأنف - بواسطة سيرة بن هشام - دار احياء التراث - بيروت - د. ت.
- * السيوطي - جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١هـ):
- تاريخ الخلفاء - مطبعة السعادة - القاهرة - ١٩٥٢.
- الدر المنثور - بواسطة : فضائل الخمسة في الصحاح الستة، للفيروز آبادي -
الاعلمي - بيروت - ط ٤ - ١٩٨٢.
- شرح شواهد المغنى - الحياة - بيروت - ١٩٦٦.
- المزهري في علوم اللغة - دار الفكر - بيروت - د. ت.
- * ابن شاذان - ابو محمد الفضل (ت ٢٦٠هـ):
- الايضاح - الاعلمي - بيروت - ط ١ - ١٩٨٢.
- * ابن شعبة الحراني - ابو محمد الحسن بن علي (من اعلام القرن الرابع الهجري)
- تحف العقول عن آل الرسول - الاعلمي - ط ٥ - ١٩٧٤.
- * ابن شهر آشوب - ابو عبد الله محمد بن علي (ت ٥٨٨هـ):
- مناقب آل أبي طالب عليه السلام - المطبعة الحيدرية - النجف - ١٩٥٦.
- * الشهرستاني - أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (ت ٥٤٨هـ):
- الملل والنحل - دار المعرفة - بيروت - د. ت.
- * الصالح - الشيخ صبحي:
- مقدمة نهج البلاغة - دار الكتاب اللبناني - بيروت - ط ٣ - ١٩٨٣.
- * صبحي - أحمد محمود:
- الزيدية الزهراء للاعلام العربي - القاهرة - ط ٢ - ١٩٨٤.

- نظرية الامامة لدى الشيعة الاثني عشرية - دار المعارف - القاهرة ١٩٦٩.

* الصدر - حسن:

- تأسيس الشيعة لفنون الاسلام - الرائد العربي - بيروت - ١٩٨٠.

* الصدوق - ابن بابويه أبو جعفر بن علي بن الحسين (ت ٣٨٢هـ):

- امالي الصدوق - الاعلمي - بيروت - ط ٥ - ١٩٨٠.

- التوحيد - دار المعرفة - بيروت - د. ت.

- الخصال - جماعة المدرسين بالحوزة العلمية - قم - ١٩٨٢.

- علل الشرائع - دار البلاغة - بيروت - مصورة عن طبعة النجف - ١٩٦٩.

- معاني الأخبار - انتشارات اسلامي - قم - ١٩٥٩.

- من لا يحضره الفقيه - الاعلمي - بيروت - ط ١ - ١٩٨٦.

* الصفار - رشيد:

- مقدمة تحقيق ديوان الشريف المرتضى - عيسى الحلبي - القاهرة - ١٩٥٨.

* صفوت - أحمد زكي:

- ترجمة الامام علي - بواسطة مصادر نهج البلاغة لعبد الزهراء الحسيني.

* ضيف - شوقي:

- الفن ومذاهبه في النثر العربي - دار المعارف - القاهرة - ط ١٠ - ١٩٨٣.

* طاش كبرى زادة - أحمد مصطفى (ت ٩٦٨هـ):

- مفتاح السعادة - دار الكتب العلمية - بيروت - ط ١ - ١٩٨٥.

* أبو طالب المكي - محمد بن علي بن عباس (ت ٣٨٦هـ):

- قوت القلوب - صادر - بيروت - د. ت.

- * أبو طالب يحيى بن الحسين بن هارون (ت ٤٢٤هـ):
- تيسير المطالب في أمالي أبي طالب - الأعلمي - بيروت - ط ١ - ١٩٧٥ .
- * ابن طاووس - علي بن موسى بن جعفر الحسني (ت ٦٦٤هـ):
- الملاحم والفتن - الوفاء - بيروت - ط ٦ - ١٩٨٣ .
- * الطبرسي - أبو منصور أحمد بن علي (ت ٦٢٠هـ):
- الاحتجاج - الأعلمي - بيروت - ط ٢ - ١٩٨٣ .
- * الطبرسي - أبو الفضل علي بن الحسن (ت القرن السابع):
- مشكاة الأنوار - الحيدرية - النجف ط ٢ - ١٩٦٥ .
- * الطبرسي - أبو علي الفضل بن الحسن (ت ٥٤٨هـ):
- جوامع الجامع - الأضواء - بيروت - ط ١ - ١٩٨٥ .
- مجمع البيان - الحياة - بيروت - ط ١ - ١٩٦١ .
- * الطبري - أبو جعفر أحمد الشهير بالمحب (ت ٦٤٩هـ):
- الرياض النضرة - دار الكتب العلمية - بيروت - د. ت .
- ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى - مكتبة القدسي - القاهرة - ١٩٣٧ .
- * الطبري - محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ):
- تاريخ الرسل والملوك - المعارف - القاهرة - ط ٤ - ١٩٧٩ .
- جامع البيان في تفسير القرآن - معرفة - بيروت - ١٩٨٣ .
- * الطبري الإمامي - محمد بن جرير بن رستم (ت ٣٥٨هـ):
- دلائل الإمامة - الأعلمي - بيروت - ط ٢ - ١٩٨٨ .
- * الطريحي - فخر الدين بن محمد علي (ت ١٠٥٨هـ):

- مجمع البحرين - الوفاء - بيروت - ط ٢ - ١٩٨٣.

* الطهراني - آغا بزرك:

- الذريعة الى تصانيف الشيعة - الأضواء - بيروت - ط ٣ - ١٩٨٣.

* الطوسي - أبو جعفر محمد بن الحسن (ت ٤٦٠هـ):

- أمالي الشيخ الطوسي - الوفاء - بيروت - ط ١ - ١٩٦٥.

- تهذيب الأحكام - الأضواء - بيروت - ط ٣ - ١٩٨٥.

- الفهرست - الوفاء - بيروت - ط ٣ - ١٩٨٣.

- مصباح المتهجد - عني بشره وتصحيحه اسماعيل الأنصاري - صورة عن مخطوط.

* الطوسي - نصير الدين محمد بن محمد بن الحسن (ت ٦٧٢هـ):

- اخلاق محتشمي - الدار العالمية - بيروت - ط ١ - ١٩٨١.

* عاقل - فاخر:

- معجم علم النفس - الملايين - بيروت - ط ٢ - ١٩٧٧.

* عاقل - نبيه:

- خلافة بني أمية - دار الفكر - بيروت - ط ٣ - ١٩٧٥.

* عبد الباقي - محمد فؤاد:

- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - إحياء التراث العربي - بيروت - د. د. ت.

* ابن عبد البر - يوسف عبدالله (ت ٤٦٣هـ):

- الاستيعاب بهامش الإصابة - إحياء التراث العربي - بيروت - طبعة مصورة عن

الطبعة الأولى - ١٣٢٨ هـ - ١٩١٠ م.

- بهجة المجالس - دار الكتب العلمية - بيروت - د. د. ت.

٧٧٠ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

- جامع بيان العلم وفضله - دار الكتب العلمية - بيروت - د. ت.
- * عبد الجبار - ابن أحمد قاضي القضاة (ت ١٥٤هـ):
- المغني في أبواب التوحيد سلسلة تراثنا - القاهرة - ١٩٦٦.
- * عبدالرزاق - علي:
- الإسلام وأصول الحكم - الحياة - بيروت - د. ت.
- * ابن عبد ربه - أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسي (ت ٣٢٧هـ):
- العقد الفريد - دار الكتاب العربي - بيروت - ١٩٨٢.
- * عبد الكريم - فتحي:
- الدولة والسيادة في الفقه الإسلامي - وهبة القاهرة - ط ٢ - ١٩٨٤.
- * عبد المقصود - عبد الفتاح:
- الإمام علي بن أبي طالب - مكتبة العرفان - بيروت - د. ت.
- السقيفة والخلافة - مكتبة غريب - القاهرة - ١٩٧٧.
- * ابو عبيد - القاسم بن سلام الهروي (ت ٢٢٤هـ):
- الأموال : دار الكتب العلمية - بيروت - ط ١ - ١٩٨٦.
- غريب الحديث - دار الكتاب العربي - بيروت - طبعة مصورة عن طبعة دائرة المعارف العثمانية - ط ١ - ١٩٦٤.
- * عتيق - عبد العزيز:
- علم البيان - النهضة العربية - بيروت - ١٩٧٠.
- * ابن العربي - محي الدين أبو بكر محمد بن علي (ت ٦٣٨هـ):
- تفسير ابن العربي - الأندلسي - بيروت - ط ٢ - ١٩٨١.
- محاضرات الأبرار - صادر - بيروت - د. ت.

- * العرشي - امتياز عليخان:
- استناد نهج البلاغة - مكتبة الثقليين - قم - ١٩٧٨ .
- * العريض جليل منصور:
- التفجع في شعر الشريف الرضي - أطروحة دكتوراه الحلقة الثالثة بإشراف د . محمد اليعلاوي كلية الآداب بالجامعة التونسية - ٨٤ - ٨٥ .
- * ابن عساكر - علي بن الحسن (ت ٥٧٣هـ):
- ترجمة الإمام علي من تاريخ دمشق - دار التعارف - بيروت - ط ١ - ١٩٧٥ .
- * عفيفي - فوزي سالم:
- السلوك الاجتماعي بين علم النفس والدين - وكالة المطبوعات - الكويت - ١٩٨٠ .
- * العقاد - عباس محمود:
عبقرية الإمام علي - العصرية - بيروت - د . ت .
- * ابن العماد الحنبلي - أبو الفلاح عبد الحي (ت ١٠٨٩هـ):
- شذرات الذهب - المكتب التجاري - بيروت - د . ت .
- * الغزالي - أبو حامد محمد بن محمد (ت ٥٠٥هـ):
- احياء علوم الدين - مصطفى الحلبي - القاهرة - ١٩٣٩ .
- * ابن فارس - أبو الحسن أحمد (ت ٣٩٥هـ):
- الصحابي في فقه اللغة - بدارن للطباعة والنشر - بيروت - ١٩٦٣ .
- مجمل اللغة - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط ٢ - ١٩٨٦ .
- * ابن الفارض - أبو جفص عمر (ت ٦٣٢):
- ديوانه - صادر بيروت - د . ت .

٧٧٢ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

* فضل الله - عبدالمحسن:

- نظرية الحكم والادارة في عهد الامام علي عليه السلام للأشتر - التعارف - بيروت - ط ١ - ١٩٨٣.

* الفضلي - عبد الهادي:

- الدولة الإسلامية - دار الزهراء - بيروت - ط ١ - ١٩٧٩.

* الفكيكي - توفيق.

- الراعي والرعية - الوفاء - بيروت - ط ٣ - ١٩٨٣.

* الفيروز آبادي - محمد بن يعقوب - (ت ٨٢٧هـ):

- القاموس المحيط - بترتيب الزاوي - الدار العربية - ليبيا - ط ٣ - ١٩٨٠.

* الفيروز آبادي - مرتضى الحسيني:

- فضائل الخمسة في صحاح الستة الاعلمي - بيروت - ط ٤ - ١٩٨٢.

* القاضي - النعمان:

- الفرق الإسلامية في الشعر العربي - المعارف - القاهرة - ١٩٧٠.

* القالي - أبو علي اسماعيل بن القاسم (ت ٣٥٦هـ):

- الامالي - دار الكتب العملية - بيروت - د. ت.

* القبانجي - حسن السيد علي:

- شرح رسالة الحقوق - الاضواء - بيروت - ط ٢ - ١٩٨٠.

* ابن قتيبة الدينوري - عبد الله بن مسلم (ت ٣٧٦هـ):

- أدب الكاتب - صادر - بيروت - ١٩٦٧.

- الامامة والسياسة - مصطفى الحلبي - القاهرة - ١٩٦٩.

- الشعر والشعراء - دار الثقافة - بيروت - د. ت.

- عيون الأخبار - الهيئة المصرية - القاهرة - ١٩٧٣ .
- * قدامة بن جعفر (ت ٣٢٧هـ):
- نقد النثر - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٩٨٢ .
- * القرشي - باقر شريف:
- النظام السياسي في الاسلام - دار التعارف - بيروت - ط ١ - ١٩٨٢ .
- * القرشي - أبو زيد محمد بن أبي الخطاب (توفي في القرن الخامس):
- جمهرة أشعار العرب - نهضة مصر - القاهرة - ١٩٨١ .
- * القرشي - يحيى بن آدم (ت ٢٠٣هـ):
- كتاب الخراج - المعرفة - بيروت - د. ت.
- * القرطبي - عبد الله بن محمد بن أحمد (ت ٦٧١هـ):
- الجامع لأحكام القرآن - الهيئة المصرية - القاهرة - ط ٢ - ١٩٦٧ .
- * القسطلاني - شهاب الدين - أحمد بن محمد (ت ٩٢٣هـ):
- ارشاد الساري لشرح صحيح البخاري - دار الفكر - بيروت طبعة مصورة عن الطبعة البولاقية السادسة ١٣٠٤هـ - ١٨٨٦ م .
- * القضاعي - القاضي ابو عبد الله محمد بن سلامة (ت ٤٥٤هـ):
- دستور معالم الحكم - دار الكتاب العربي - بيروت - ١٩٨١ .
- * القلقشندي - أحمد بن عبد الله (٨٢٠هـ):
- مآثر الاناقة في معالم الخلافة - عالم الكتب - بيروت - د. ت.
- نهاية الارب في معرفة انساب العرب - البيان - بغداد - ١٩٥٨ .
- * القمي - عباس:
- الكنى والالقاب - انتشارات بيدار - قم - ١٩٣٨ .

* القمي - علي بن ابراهيم (ت ٣٠٧هـ):

- تفسير القمي - مكتبة الهدى - النجف الاشرف - ١٩٥٨ .

* ابن قيم الجوزية - شمس الدين محمد بن أبي بكر (ت ٧٥١هـ):

- أحكام أهل الذمة - العلم للملايين - بيروت - ط ٢ - ١٩٨١ .

* كاشف الغطاء - محمد حسين:

- المراجعات الريحانية - بواسطة مصادر نهج البلاغة - عبد الزهراء الحسيني -

الأعلمي بيروت - ط ٢ - ١٩٧٥ .

* كاشف الغطاء - الهادي :

- تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق الهيئة المصرية - القاهرة - ط ٢ - ١٩٨٠ .

* الكتبي - محمد بن شاکر (ت ٧٦٤هـ):

- فوات الوفيات - صادر - بيروت - ١٩٧٣ .

* ابن كثير - أبو الفداء اسماعيل القرشي (ت ٧٧٤هـ):

- تفسير القرآن العظيم - مكتبة الهلال - بيروت - ط ١٠ - ١٩٨٦ .

* كحالة - عمر رضا:

- معجم قبائل العرب - الرسالة - بيروت - ط ٥ - ١٩٨٥ .

* الكراجكي - أبو الفتح محمد بن علي بن عثمان (ت ٤٤٩هـ):

- كنز الفوائد - دار الاضواء - بيروت - ١٩٨٥ .

* كرد علي - محمد :

- رسائل البلغاء - لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - ط ٣ - ١٩٤٦ .

* الكفري - أبو البقاء ايوب بن موسى (ت ١٠٩٤هـ):

- الكليات - وزارة الثقافة - دمشق - ط ٢ - ١٩٨٢ .

- * الكلاباذي أبو بكر محمد (ت ٣٨٠هـ):
- التعريف بمذاهب أهل التصوف - الكتب العلمية - بيروت - ١٩٨٠ .
- * الكليني - أبو جعفر محمد بن يعقوب (ت ٣٢٩هـ):
- الكافي (الاصول والفروع والروضه) - دار صعب - بيروت - ط ٤ - ١٩٨٠ .
- * الكنجي - الحافظ محمد بن يوسف (ت ٦٥٨هـ):
- كفاية الطالب في مناقب علي بن ابي طالب عليه السلام - دار احياء تراث آل البيت - طهران - ط ٣ - ١٩٨٣ .
- * الكوفي - سليم بن قيس (ت ٩٠هـ):
- كتاب سليم بن قيس - الاعلمي - بيروت - د . د . ت .
- * الكوهكمري - عبداللطيف:
- مقدمة تحقيق منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة - لسعيد بن هبة الله الراوندي - مكتبة المرعشي - قم - ١٩٨٥ .
- * كيلاني - محمد سيد:
- أثر التشيع في الادب العربي - الفكر العربي - القاهرة - د . د . ت .
- * ليلي - وليام:
- المدخل على علم الأخلاق دار المعرفة الجامعية - الاسكندرية - ١٩٨٥ .
- * ابن ماجه - الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد (ت ٢٧٥هـ):
- سنن ابن ماجه - دار الكتب العلمية - بيروت - د . د . ت .
- ٨ ماسينيون - لويس:
- خطط الكوفة - مطبعة العرفان - صيدا - ١٩٣٩ .
- * الماوردي - علي بن محمد بن حبيب (ت ٤٥٠هـ):

٧٧٦ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

- الأحكام السلطانية - دار الفكر - القاهرة - ط ١ - ١٩٨٣ .
- أدب الدنيا والدين - دار قرأ - بيروت - ط ١ - ١٩٨١ .
- اعلام النبوة - دار الكتب العلمية - بيروت - ط ١ - ١٩٨٦ .
- تسهيل النظر وتعجيل الظفر - النهضة العربية - بيروت - ط ١ - ١٩٨١ .
- * ماكيفر - روبرت م :
- تكوين الدولة - العلم للملايين - بيروت - ١٩٦٦ .
- * مبارك - زكي :
- عبقرية الشريف الرضي - العصرية - بيروت - د . د . ت .
- النثر الفني في القرن الرابع - الجيل - بيروت - ١٩٧٥ .
- * ابن المبارك - عبد الله المروزي (ت ١٨١هـ) :
- كتاب الزهد - دار الكتب العلمية - بيروت - د . د . ت .
- * المبرد - محمد بن يزيد (ت ٢٨٥هـ) :
- الكامل في الادب - نهضة مصر - القاهرة - د . د . ت .
- المقتضب - المجلس الاعلى للشؤون الإسلامية - القاهرة - ١٩٦٨ .
- * المتقي الهندي - علاء الدين بن حسام الدين (ت ٩٧٥هـ) :
- كنز العمال - الرسالة - بيروت - ط ٥ - ١٩٨٨ .
- * المجذوب - البشير :
- حول مفهوم النثر الفني - الدار العربية للكتاب - تونس - ١٩٨٢ .
- * المجلسي محمد باقر :
- بحار الانوار - الوفاء - بيروت - ط ٢ - ١٩٨٣ .

* محبوبة - مهدي:

- ملامح من عبقرية الامام - دار الكتاب العربي - بيروت - ط ٢ - ١٩٧٩.

* محمود زكي نجيب:

- المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري - دار الشروق - القاهرة - د. ت.

* محي الدين - خالد:

- الدين والاشتراكية - دار الثقافة الجديدة - القاهرة - د. ت.

* المدائني - علي بن محمد بن عبد الله (ت ٢٤٥هـ):

- صفين - بواسطة شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد .

* مرتضى - بسام:

- فلسفات اسلامية - الكتاب الإسلامي - بيروت - ١٩٨٠.

* المرتضى - الشريف علي بن الحسين بن موسى (ت ٤٣٦هـ):

- أمالي المرتضى - دار الكتاب العربي - بيروت - ط ٢ - ١٩٦٧.

- رسائل الشريف المرتضى - مؤسسة النور - بيروت - د. ت.

* مرسي - سيد عبد الحميد:

- النفس البشرية - وهبة - القاهرة - ط ١ - ١٩٨٨.

* ابن مزاحم المنقري - أبو الفضل نصر (ت ٢١٢هـ):

- وقعة صفين - الخانجي - القاهرة - ط ٣ - ١٩٨١.

* مسكويه - أحمد بن محمد بن يعقوب (ت ٤٢١هـ):

- تهذيب الأخلاق الحياة - بيروت - ط ٢ - د. ت.

- الحكمة الخالدة - الاندلس - بيروت - ط ٣ - ١٩٨٣.

* المسعودي - أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ):

- اثبات الوصية - منشورات الرضي - قم - صورة من طبعة النجف - ط ٢ - ١٩٨٣.

- مروج الذهب - مطبعة السعادة - القاهرة - ط ٤ - ١٩٦٤.

* المطهر الحلي - الحسن بن يوسف (ت ٧٢٦هـ):

- الالفين - الاعلمي - بيروت - ط ٣ - ١٩٨٢.

- نهج الحق وكشف الصدق - الكتاب اللبناني - بيروت - ١٩٨٢.

* ابن المعتز - عبد الله (ت ٢٩٦هـ):

- كتبا البديع - دار المسيرة - بيروت - ط ٣ - ١٩٨٢.

* مغنية - محمد جواد:

- التفسير الكاشف - العلم للملايين - ط ١ - ١٩٦٨.

- الشيعة والحاكمون - دار الجواد - بيروت - ط ٥ - ١٩٨١.

- الفقه على المذاهب الخمسة - دار الجواد بيروت - ط ٧ - ١٩٨٢.

- فلسفة الأخلاق في الاسلام - العلم للملايين - ط ١ - ١٩٧٧.

* المفيد - محمد بن محمد بن النعمان (ت ٤١٣هـ):

- الاختصاص - الاعلمي - بيروت - ١٩٨٢.

- الارشاد - الاعلمي - بيروت - ط ٣ - ١٩٧٩.

- الامالي - التيار الجديد - بيروت - د. ت.

- الجمل - مكتبة الدواري - قم - د. ت.

* المقدسي - يوسف بن يحيى بن علي (من علماء القرن التاسع الهجري):

- عقد الدرر في أخبار المنتظر - دار الكتب العلمية - بيروت - ط ١ - ١٩٨٣.

* المقريري - أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ):

- خطط المقريري - صادر - بيروت - د. ت.

* ابن المقفع - عبد الله (ت ١٤٢هـ):

- الادب الكبير - دار صادر - بيروت - د. ت.

* مناصرة - عبد الله علي :

- الاستخبارات العسكرية في الاسلام - الرسالة - بيروت - ط ١ - ١٩٨٧ .

* ابن منظور - محمد بن مكرم بن علي (ت ٧١١هـ):

- لسان العرب المحيط - اعداد وتصنيف يوسف خياط - دار لسان العرب - بيروت - د. ت.

* ابن منقذ - أسامة بن مرشد بن علي - (ت ٥٨٤هـ):

- لباب الادب - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٩٨٠ .

* المودودي - أبو الاعلى :

- الحكومة الإسلامية - المختار الإسلامي - القاهرة ت ١٩٨٠ .

* موسى - محمد يوسف :

- القرآن والفلسفة - المعارف - القاهرة - ط ٤ - ١٩٨٢ .

* مؤسسة آل البيت :

- مجلة تراثنا - العدد ٥ - السنة الأولى - بيروت - ١٤٠٦ - ١٩٨٥ .

* الميداني - أبو الفضل أحمد بن محمد (ت ٥١٨هـ):

- مجمع الامثال - دار الجليل - بيروت - ط ٢ - ١٩٨٧ .

* النجار - محمد الطيب:

- علي بن أبي طالب عليه السلام نظرة عصرية - المؤسسة العربية للدراسات والنشر -

٧٨٠ فكر الإمام علي عليه السلام كما يبدو في نهج البلاغة

بيروت - ط ٣ - ١٩٨٠.

* ابن النديم - محمد بن أبي يعقوب الوراق (ت ٣٧٠هـ):

- الفهرست - تحقيق الرضا تجدد - ١٩٧١.

* النسائي - أبو عبد الرحمن أحمد بن علي بن شعيب (ت ٣٠٣هـ):

- سنن النسائي - احياء التراث العربي - بيروت - د. د. ت.

* النص احسان :

- الخطابة العربية في عصرها الذهبي - المعارف - القاهرة - ط ٢ - ١٩٦٩.

- العصبية القبلية - اليقظة العربية - بيروت - ١٩٦٣.

* النعمان بن محمد - القاضي - (ت ٣٦٣هـ):

- دعائم الاسلام - المعارف - القاهرة - ط ٣ - ١٩٨٥.

* نعمة - عبد الله :

- مصادر نهج البلاغة - مطابع دار الهدى - بيروت - ١٩٧٢.

* أبو نعيم الحافظ - أحمد بن عبد الله الاصفهاني (ت ٤٣٠هـ):

- حلية الأولياء - دار الفكر - بيروت - د. د. ت.

* هارون - محمد عبد السلام .

- مقدمة تحقيق كتاب صفين لابن مزاحم - مكتبة الخانجي - القاهرة - ط ٣ -

١٩٨١.

* ابن هذيل - أبو الحسن علي بن عبد الرحمن (من أعيان القرن الثامن الهجري):

- عين الادب والسياسة - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٩٨١.

* ابن هشام - عبد الملك الحميري - (ت ٢١٨هـ):

- السيرة النبوية - حياة التراث العربي - بيروت - د. د. ت.

- * أبو هلال العسكري - الحسن بن عبد الله (كان حيا ٣٩٥هـ):
 - الاوائل - دار الكتب العلمية - بيروت - ط ١ - ١٩٨٧ .
 - جمهرة الامثال - دار الكتب العلمية - بيروت - ط ١ - ١٩٨٨ .
 - كتاب الصناعتين - العصرية - بيروت - ١٩٨٦ .
- * الهلالي - ابراهيم بن محمد (ت ٢٨٣هـ):
 - الغارات - بواسطة شرح ابن أبي الحديد .
- * الهمداني - أبو بكر أحمد بن محمد (ت - أواخر القرن الثالث):
 - مختصر كتاب البلدان - المثنى - بغداد - صورة عن طبعة ليدن ١٨٨٤ .
- * الهمداني - عبد الرحمن بن عيسى الكاتب (ت ٣٢٠هـ):
 - الألفاظ الكتابية - دار الكتاب العربي - بيروت - ط ١ - ١٩٨٦ .
- * الهيثمي - نور الدين علي بن أبي بكر (ت ٨٠٧هـ):
 - مجمع الزوائد - مؤسسة المعارف - بيروت - ١٩٨٦ .
- * الوائلي - أحمد:
 - علي بن أبي طالب عليه السلام - نظرة عصرية جديدة - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت - ط ٢ - ١٩٨٠ .
- * الواقدي - أبو عبد الله محمد بن عمر (ت ٢٠٧هـ):
 - فتوح الشام - الجليل - بيروت - د . ت .
- * الوطواط - رشيد الدين محمد بن محمد البلخي (ت ٥٧٣هـ):
 - مطلوب كل من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام .
 - جلال الدين أرموي - طهران - ١٩٦٢ .
- * وكيع - القضاة محمد بن خلف بن حيان (ت ٣٠٦هـ):
 -

- اخبار القضاة - عالم الكتب - بيروت - د. ت.
- * اليافعي - عبد الله بن أسعد (ت ٧٦٨هـ):
- مرآة الجنان ج ١ - الرسالة بيروت - ط ١ - ١٩٨٤.
- * اليعقوبي - ابن واضح أحمد بن أبي يعقوب (ت ٢٨٤هـ):
- تاريخ اليعقوبي - دار صادر - بيروت - د. ت.
- * اليماني - يحيى بن حمزة العلوي (ت ٧٤٥هـ):
- الطراز - دار الكتب العلمية - بيروت - د. ت.
- * أبو يوسف - يعقوب ابراهيم (ت ١٨٢هـ):
- كتاب الخراج - دار المعرفة - بيروت - د. ت.

المحتويات

٥ مقدمة المؤسسة
٧ المقدمة
الباب الأول	
نهج البلاغة	
٢٥ توثيق نهج البلاغة
١٠٧ القسم الثاني
١٢١ منهج الشريف الرضي في تصنيفه
١٢٧ قيمة نهج البلاغة
الباب الثاني	
فكر علي بن أبي طالب <small>عليه السلام</small> السياسي كما يبدو في نهج البلاغة	
١٣٥ الفصل الأول: مفهوم الإمامة في فكر علي <small>عليه السلام</small>
١٩٥ الفصل الثاني: فكر الإمام علي بن أبي طالب <small>عليه السلام</small> في ماجريات السياسة في عصره
٢٣٩ المرحلة الثانية سياسة الامام علي <small>عليه السلام</small> أثناء خلافته
٢٩٧ الفصل الثالث: مؤسسات الدولة وسياستها الإدارية في فكر الامام علي بن أبي طالب <small>عليه السلام</small> بين الدولة والحكومة والسياسة
٣١١ مؤسسات الدولة في فكر الامام علي <small>عليه السلام</small> كما يبدو في نهج البلاغة

الباب الثالث

فكر علي عليه السلام الاجتماعي كما يبدو في نهج البلاغة

- ٣٦١ الفصل الأول: المجتمع وحالته في فكر علي عليه السلام
- ٤٠٧ الفصل الثاني: القيم الخلقية كما تبدو في فكر علي عليه السلام
- ٤٥٩ الفصل الثالث: التربية في فكر علي بن أبي طالب كما تبدو في نهج البلاغة التربوية ومراميها الأساسية

الباب الرابع

القضايا الكلامية والتأملات الكونية كما تبدو في نهج البلاغة

- ٥٠٥ الفصل الأول: القضايا الكلامية المتعلقة بالعقيدة الخالق-الملائكة - الرسل - الإنسان
- ٥٣٣ الفصل الثاني: التأمل وتداعي الأفكار، والغيبات، كما تبدو في فكر علي عليه السلام
- ٥٦١ الفصل الثالث: نظرة علي عليه السلام إلى الحياة كما تبدو في نهج البلاغة

الباب الخامس

الأساليب التعبيرية في نهج البلاغة

- ٦٠٣ الفصل الأول: الأنواع الأدبية في النهج وخصائصها التعبيرية
- ٦٦١ الفصل الثاني: أبرز خصائص النهج الأسلوبية
- ٧٠١ الفصل الثالث: أبرز الخصائص الفنية في نهج البلاغة
- ٧٤٣ الخاتمة
- ٧٥١ المحتويات